

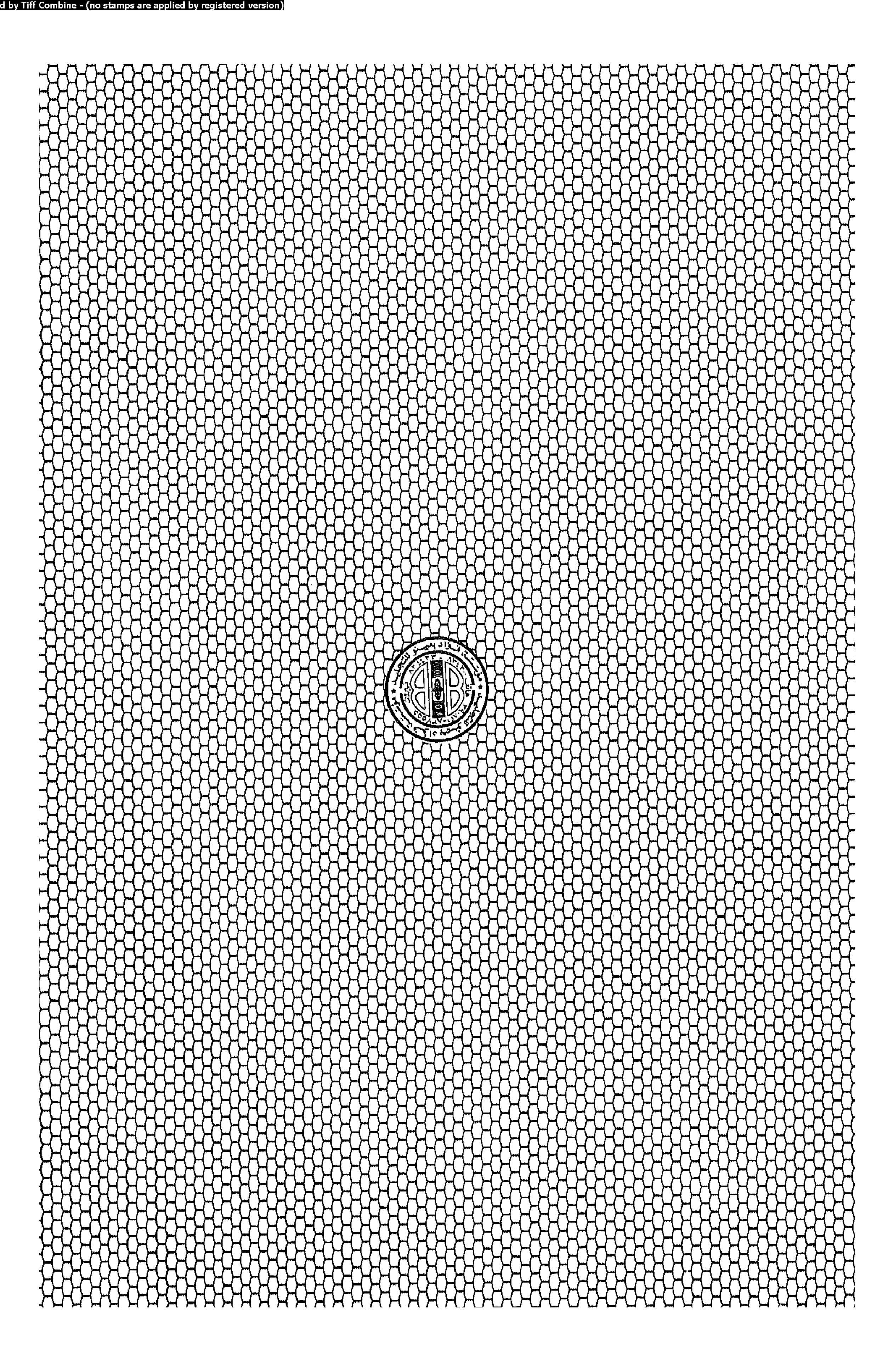
الإمام جعفر الصادق

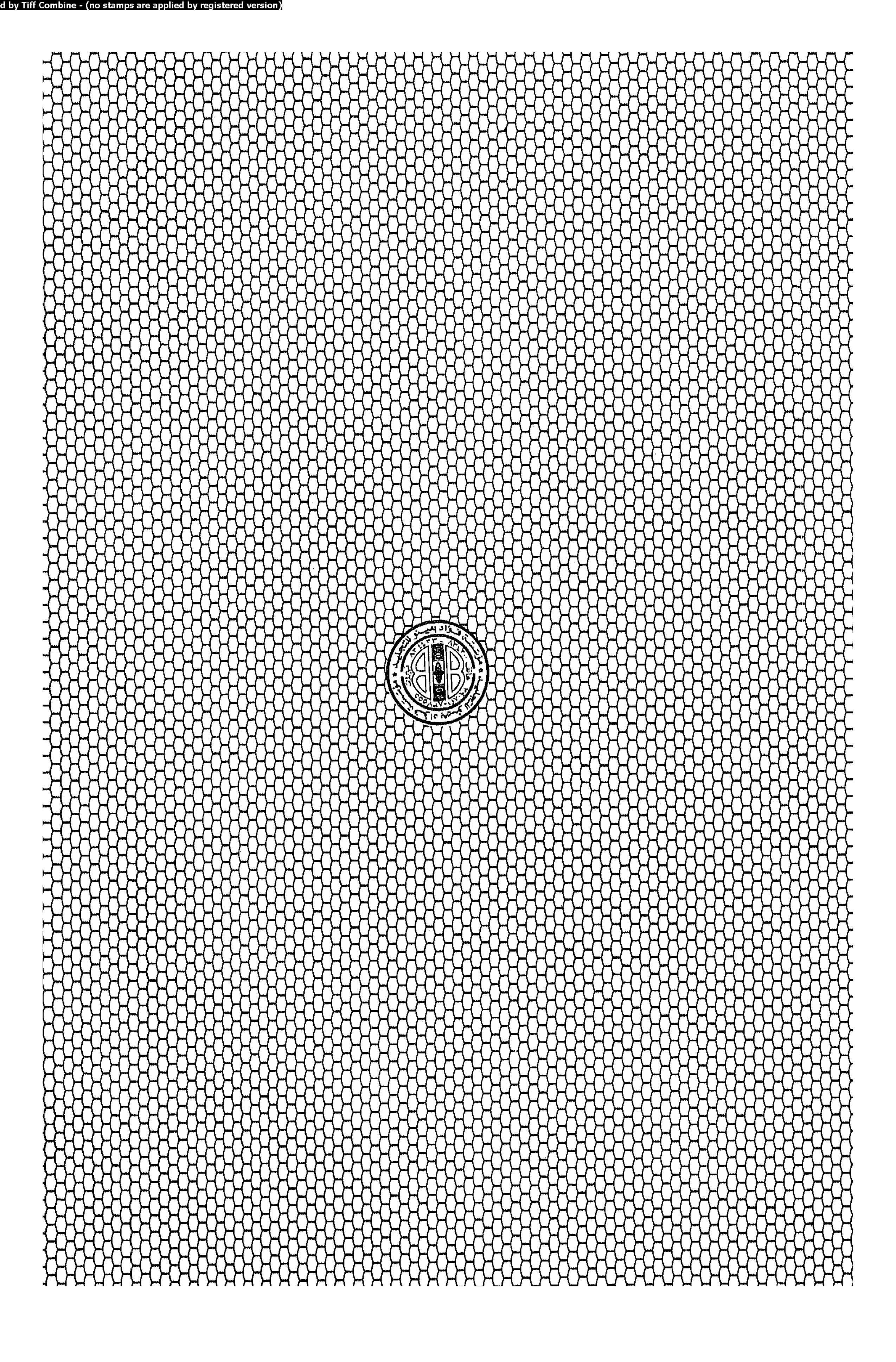
(عليه السلام)

دراسات وأبحاث



المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق







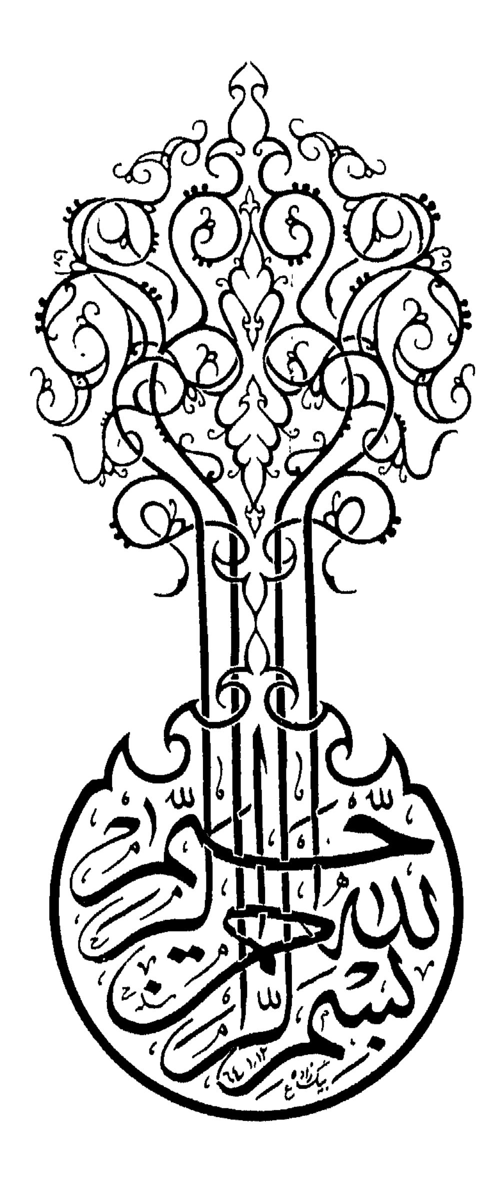
الإمام
جعفر الصادق (عليه السلام)
دراســـــات
و
أبحـــــاث

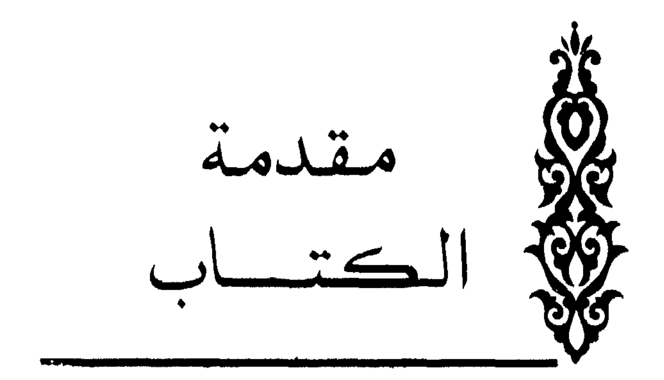




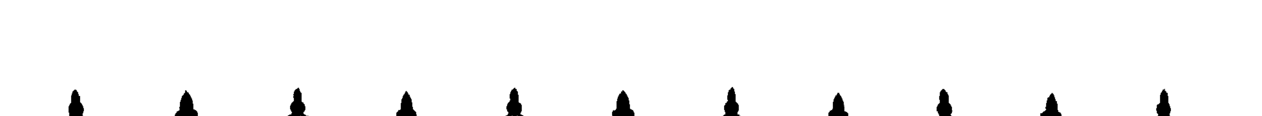
الإمام
جعفر الصادق (عليه السلام)
دراسات و أبحاث

المستشارية الثقافية
للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق


بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الكتاب



بسم الله الرحمن الرحيم

هذه هي البحوث والمقالات والأشعار التي قدمت للمشاركة في مؤتمر الإمام الصادق(ع) الدولي الذي عقدته المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق في الفترة:

من (١٧ ربيع الأول ١٤١٢ هـ - ٢٦/ ٩/ ١٩٩١ م)

إلى (١٩ ربيع الأول ١٤١٢ هـ - ٢٨/ ٩/ ١٩٩١ م)

وذلك احتفاء بذكرى مولد الرسول الأكرم(ص) والإمام الصادق(ع) وأسبوع الوحدة الإسلامية، وجاء المؤتمر ضمن الملتقيات والمؤتمرات الفكرية والعلمية والأدبية التي دأبت المستشارية على عقدها في مناسبات مختلفة

ولقد سرَّ المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق كثيراً ما لقيه المؤتمر من تجاوب الباحثين المشاركين وما حظي به من اهتمام أبناء الأمة الفائق والذي عبّروا عنه بمواظبتهم على الحضور في جلسات المؤتمر بأعداد ضاقت قاعة المؤتمر من أن تسعها، الأمر الذي يدل على مدى تعلّق الأمة بعظمائها ورجالاتها وتاريخها الإسلامي رغم ما يُحاك من مؤامراتٍ وما يُشنُّ من حملات من الغزو الثقافي والفكري من قبل أعداء الأمة من المستكبرين والصهاينة لقطع الأواصر التي تشد الأمة إلى تراثها وعقيدتها الإسلامية التي هي مقوم شخصيتها الوحيد بين الأمم الأخرى.

لقد كان المؤتمر لقاء أخوياً تآلفت فيه قلوب أبناء الأمة على اختلاف مذاهبهم، وانبرت فيه الأقلام الإسلامية الملتزمة لتبديد سحب الطمس والتشويه والتزييف التي مورست وما زالت تمارس لإقصاء رسالة الأمة (الإسلام) عن واقع الحياة، وغير خاف ما شهده المقطع الزمني الذي عاشه الإمام جعفر الصادق(ع) من نشاط الزنادقة والدهريين والمرجئة وغيرهم من الفرق الضالة التي سعت إلى زعزعة عقائد الأمة.





ولـذلـك كان المؤتمـر مناسبة للحوار وتلاقح الأفكار وتبادل الآراء التي كانت خلاصة جهود المشاركين الفكرية لتعريف الأمة بالمزيد عن عظيم من عظمائها وقمة شامخة في أفق العلم والجهاد الفكـري والعلمي، ذلـك هو الإمـام جعفر بن محمد الصادق(ع) الذي كان حامياً لرسالة الإسلام بتصديه لمناظرة تلك الفرق الضالة، وبما خلّفه من تراث علمي ضخم في مختلف مجالات العلم والمعرفة.

وتعميـماً للفـائـدة المتـوخـاة من المؤتمر وتثميناً لجهود المشاركين فيه سواء منهم الذين ألقوا ما قدمـوه للمؤتمـر والـذين لم يتسـع الـوقت لإلقـاء ما قدمـوه، ووفـاء منهـا بالعهـد الذي قطعته لهم وللحضور الكرام يسر المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق أن تطبع وقائع المؤتمر وكل ما قدم إليه من بحوث وأشعار ليكون نافذةً تضاف إلى سائر ما أُلِّف عن سادس أئمة أهل البيت الإمام الصادق(ع).

وإذ تطبع المستشارية مواد المؤتمر في كتاب تُذكِّر بأن ترتيب الموضوعات جاء حسب تسلسلها ضمن الـبرنـامـج اليـومي للمؤتمـر، وأن المـواد المقـدمة للمؤتمر والتي لم تلق لضيق الوقت أو لعدم حضور أصحابها جمعت في فصل خاص ألحق بالكتاب.

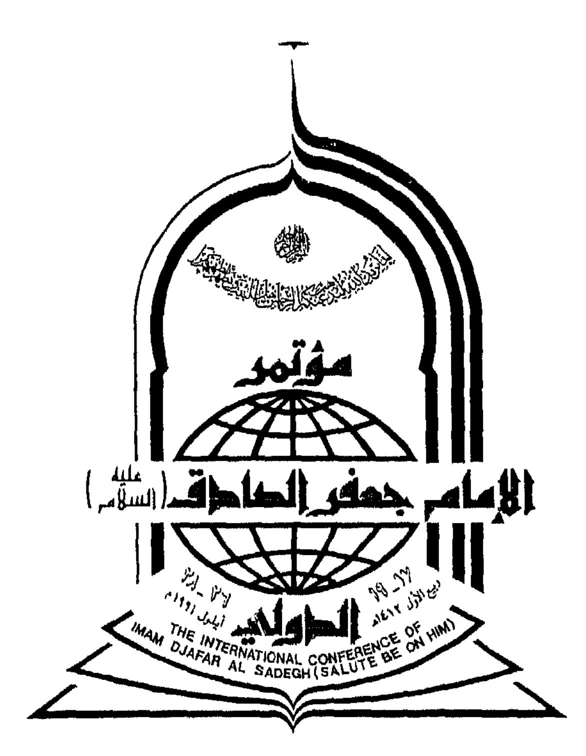
كما تقـدم المستشـاريـة الثقـافيـة الإيـرانيـة مواد المؤتمر كما هي رغم اختلاف رأيها مع بعض المشـاركـين في بعض ما قدمـوه من آراء وأفكـار في الجـوانب التي تنـاولـوهـا من شخصيـة الإمـام الصـادق(ع) وسـيرتـه ومـواقفـه، تاركة للقارىء الكريم الحكم والتقييم في الموضوعات التي هي موضوع نقاش. والحمد لله رب العالمين.

محمد شريعتي

المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق







برنامج اليوم الأول من مؤتمر الإمام جعفر الصادق(ع) الدولي
الخميس ١٧ ربيع الأول ١٤١٢هـ ٢٦/ ٩/ ١٩٩١م

جلسة الإفتتاح الساعة ٤,٣٠ عصراً

١ ـ تلاوة القرآن الكريم.

٢ ـ كلمة الدكتور السيد محمد الخاتمي وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي للجمهورية الإسلامية الإيرانية ألقاها بالنيابة المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق الشيخ محمد شريعتي.

٣ ـ فضيلة الشيخ أحمد كفتارو (سورية).

٤ ـ العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين (لبنان).

٥ ـ العلامة السيد محمد حسين فضل الله (لبنان).

٦ ـ الأستاذ سليمان كتاني (لبنان).



حجة الإسلام الدكتور محمد خاتمي
وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية



الإمام جعفر الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إنما يُريدُ الله لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرجسَ أهلَ البيتِ ويُطهِركمْ تَطهيرا﴾

صدق الله العلي العظيم

الحمـدُ لله رب العـالمين والصلاةُ والسلام على أشرف الخلق وأعزِّ المرسلين سيِّـدنا أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين.

السلام عليكم أيها الأخوة الأفاضل ورحمة الله وبركاته.

العظماء قليلون في كلِّ حقبةٍ وعصر، والذين يتحملون عبء الرسالات فهماً وشرحاً، وجهاداً وكفـاحـاً من أجلهـا، هم أقـلُّ وأقـل والـذين يُخلَّدون، بفضلُ معطياتهم، عبر التاريخ هم صفوةُ الصفوة، من هؤلاء العظماء والعباقرة كان الإمام جعفرُ الصادق (سلام الله عليه).

وأبوعبدالله في غنى عن التعريف، فهوعظيمٌ من آل البيت، تهفوإليه القلوب وتشرئبُّ نحوه الأعناق وكلٌّ يدّعي الوصول به وكلٌّ يريدُ أن يمتدَّ إليه بسبب، وهل يمكن الإحاطة بالإمام جعفر الصادق(ع) ومواقفه وعلومه، آثاره وسيرته وأقواله في هذه الكلمة المختصرة؟ وهل يمكن افراغ البحر بصدَفة؟ وكان لا بدَّ من إلقاء الضوء سريعاً على بعض تلك الجوانب، عملاً بالقول المعروف: «الميسور لا يترك بالمعسور».

لقد ذكرت كتب الأثر ثروةً كبيرةً من أقوال الإمام الصادق(ع)، ودُرراً من أخلاقياته، وجواهر من نصائحه منتشرةً في فصول كتب الحديث أليسَ هو القائل: «إنّ الله ارتضى لكم الإسلام ديناً أحسنوا صحبته بالسخاء وحُسن الخُلُق»؟ وما حُفِظَ عنه (ع) في وجوب المعرفة بالله تعالى وبدينه وله: «وجدت علم الناس كلهم في أربع، أوّلها: أن تعرفَ ربك، والثاني أن تعرف ما صنع بك، الثالث أن تعرف ما أراد منك، والرابع: أن تعرف ما يخرجك عن دينك». ومن أقواله: «نحن صفوةُ الله من خلقه، وخيرته من عباده وخلفاءه، فالسعيدُ من تبعنا، والشقيُّ من عادانا». تلك هي بعضُ المعالم من مدرسة أبي عبدالله الصادق العلمية والأخلاقية.

شُغِلَ الإمام الصادق(ع) بنقد آراء المذاهب الإسلامية وتوجيهها، كما ناضل من أجل إعلاء كلمة الله العليا، عن طريق توحيد ما هو إسلاميٌّ في مقابل الشعارات اللاإسلامية وقد تجلّى نضاله وجهاده في كثرة مناظراته لفئاتٍ اجتماعيةٍ منحرفةٍ عرفت بالزنادقة والملاحدة والدهريين.

كان الإمام الصادق(ع) إماماً للمسلمين كافة تُشدُّ إليه الرحالُ من أقاصي الأرض للاستفهام، وطلباً للعلم والمعرفة، كان يستنبط الأحكام الشرعية من القرآن الكريم وسُنّة جدّه رسول رب العالمين، تلبيةً لما كانت تطرحه الحياة الاجتماعية، ولم يكن يرمى إلى وضع قواعد مذهبٍ لفئةٍ معينةٍ وإنما يقدّم لطلّاب العلم والمعرفة ما أخذه عن آبائه وعن جدّه رسول الهدى والرحمة، والدليل على ذلك تلامذته، وما أخذ عنه أصحاب المذاهب وكان ممن تخرج عليه من الأقطاب، أمثال أبي حنيفة وسفيان الثوري، وأبي أيّوب السختياني، ومالك بن أنس، وهشام بن الحكم، ومحمد بن مسلم وزراره بن أعين، وغيرهم من رؤساء المذاهب الإسلامية المختلفة وأفذاذ العلم. وبتعبير آخر، كان ينشر مذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصيغٍ متطورة لحاضر ومستقبل اجتماعي متقدم.

كثـيرةٌ هي الأقـوال والنعـوت التي تبرز دور الإمـام الصادق (ع) وتصف فضله، وتظهر علوَّ مقامه، وقد صدرت عن كبار علماء الإسلام من شتّى الفرق والمذاهب، والتي ما زالت آثارها باقيةً حتّى الآن، إذ أن الحوزات العلمية اليوم امتداد لتلك الحوزة العظيمة.

إن الكلام عن الإمام الصادق(ع) ميدانٌ واسع، ذو تشعبات كثيرة، وكلمات الإمام نفسه في شتّى الفـروع، كالحكم والمـواعـظ كثـيرة، وتستحق البحث. أمّـا تاريخ حياته فحافل، إذ يشمل قضايا متشعبةً مليئةً بالعبر والعظات، ثم هناك محاوراته ومناظراته مع المتكلمين من أصحاب الفرق والعقائد المختلفة، فضلاً عن كون الفترة التاريخية التي عاصرها الإمام وتلامذته وما يتصل به، فترة حافلةً جديرةً بالاطلاع والفحص والتنقيب.

تميّـزت مدرسـةُ الإمـام الصـادق(ع) بمختلف فنون العلم والمعرفة، كعلم الكيمياء والطب والفلك والعلوم الكونية المتنوّعة في عصره.

وكان أروع ما قامَ به الإمام في عصره في هذا المجال، هو الانصراف إلى نشر العلم والمعرفة وإعداد جيلٍ رائد منفتحٍ في إيمانه وتفكيره، يتولّى قيادة الأمة، توجيهاً وتثقيفاً ورعايةً، ودفعها إلى منطلقـاتٍ متحـررة من الجمود الذي أرادته لها الأجهزة المتعاقبة على الحكم، لكي تبقى في معزلٍ عن الوعي والفهم لقضاياها المصيرية ومتطلباتها العلمية.

كانت مدرسة الإمام الصادق(ع) مستقلةً في مسيرتها الفكرية، وبعيدةً عن أجواء السلطة المشبوهة.

وفي الختـام أقـدّم شكـري لمستشـاريتنـا الثقافية بدمشق ولكلِّ الذين تكبّدوا مشقة الحضور وأعدّوا أبحاثاً قيّمةً، ستساهم بلا شك في إنجاح المؤتمر وإغناء أعماله، كما أشكر المشاركين الكرام كلِّهم، وكلِّ من عمل وساهم في الإعداد لهذا المؤتمر الكريم.

وأخيراً نسأل الله جلّ وعلا أن يهدينا بهدي نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأئمتنا الأطهار(ع) وأن نسير على النهج الذي أرسى قواعده الإمام الخميني (قدّس الله سره)، والذي يقوده الآن ولي أمر المسلمين آيةُ الله سيد علي الخامنئي (حفظه الله). وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



فضيلة الشيخ احمد كفتارو
المفتي العام للجمهورية العربية السورية - رئيس مجلس الافتاء الاعلى



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: أيها السادة العلماء الأفاضل أيها الأخوة والأخوات:

إنه ليسعدني ويشرفني أن أتحدث عن ريحانة قريش وعميد آل البيت وأستاذ العلماء والفقهاء والمحدثين سليل بيت النبوة حفيد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرة عين علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق رضي الله عنهما، الذي دعم الله به الشريعة وأضاء معالم الدين بعد قرن من ظهوره واكتماله وأثبت ثانية عظمة الإسلام وقدرته على استيعاب حركة الإنسان والحياة.

ولي الشرف أيها السادة أن أتناول في هذه الكلمات الإمام جعفر الصادق من خلال فكره وعلمه.

ولو أني دخلت في هذا البحث من طريق إثبات ما استطاع تلامذته أن يحفظوه عنه ويدونوه فإن المجال واسع وفسيح لا يمكن استيعابه من خلال زمن محدد وقيود مفروضة لمثل هذا المقال أمام حشدكم الكريم

لذلك اخترت من خلال فكر الإمام وعلمه حقيقة عمق فكره ودقته واتساع أفقه وشموليته فلقد أبدع الإمام في ذلك كله فكان تعبيراً صادقاً عن قوله تعالى: ﴿وعلمناه من لدنا علما﴾[1].

إن مفهوم الإمارة عند الإمام واحد من المفاهيم التي علم موقعها في الساحة العلمية والعملية في الإسلام، فالإمارة ليست غاية المسلم يسعى إليها بل هي وسيلة من الوسائل التي إن سلكت المسلك النبوي وأدت الأمانة على خير وجه كانت الصورة التي يضمها الإسلام إلى جانب غيرها في التعبير عنه على صعيد الفرد والجماعة وعلى مستوى الأمة والإنسانية.

والإمام جعفر الصادق عليه السلام ينطلق من مبدأ هام وأساسي وهو:

(العقيدة أولاً) وليست (السياسة أولاً)

فالسياسة انعكاس للحركة الإنسانية، والحركة الإنسانية تعبير عن فكر الإنسان، وفكر الإنسان وليد عقيدته، فلا سياسة إذن بلا عقيدة.

وعلى هذا المعنى الذي ذكرت في السياسة فإنها واحدة من الانعكاسات الحركية للإنسان والاقتصاد والأخلاق والمعاملات والآداب والفنون و العمران والعلوم والمخترعات و الاكتشافات وغيرها تشكل معاً ذلك الكم المتلاحم والمتآلف الذي يستوعبه الدين وينظمه ويربط فيها بين جزئياته وكلياته ويشرع لها وينظم وسائلها ويرسم مناهجها ويوضح أهدافها وغاياتها.

وما كانت السياسة في الإسلام إلا تعبيراً جزئياً عن حياة الإنسان كذا الحرب والسلام كذا الأدب والمقال، كذا الزراعة والصناعة، كذا العلم والفن، كذا العدل والقضاء، كذا تنظيمات الدولة وتدابير أمنها وسلامة شعبها وشكل تعاملها مع جيرانها من الدول والأمم.

فالدين الإسلامي بما يتضمنه من عقيدة وعبادة ومعاملة هو المهيمن على الإنسان ونواظمه وحركته الإنسانية في مساراتها المختلفة.

والدين الإسلامي دين العلم والعقل والروح يبني الفرد والمجتمع وينظم علاقة المسلم بغيره في هذا العالم الواسع بآفاقه المتعددة وحيواته المختلفة والمتنوعة. من ذلك علاقة المسلم بأهل الكتاب ومن لا كتاب لهم، منها علاقة المسلم مع البيئة والخلائق المختلفة من حيوان ونبات وجماد، وعبر الأبعاد الزمنية الموغلة في العمل فيما مضى وفيما هو آت إلى اليوم الموعود يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وكانت من أوليات هذا الدين في القرآن الكريم: **﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم﴾**[2].

وقوله تعالى : ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾[٣].

وقوله تعالى : ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾[٤].

وكانت من أوليات الدعوة الإسلامية قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للناس [قولوا لا إله إلا الله تفلحوا].

[العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة].

فالعلم يفتح آفاق المعرفة ويذلل المصاعب أمام الإنسان ويكشف له المجهول ويضيء له السبيل وينقله إلى مواقع جديدة وحياة أفضل ولعل ما يهدف إليه العلم في الإسلام هو: وضع حركة الحياة الإنسانية على الدرب الذي شرعه الله عز وجل لعباده ليكونوا خلفاء الله في الأرض.

من هذا كله نجد العلم في الإسلام بانياً للحياة، والفكر في الإسلام رابطاً لفروع العلم وألوانه دالاً على غاياته ومعمقاً لجزئياته ومؤلفا بين شعبه واضعاً له دوره الوظيفي في البناء دافعاً له في درب التقدم والتطور. لأن العلم مالم يحتل موقعه على الساحة الفكرية للإنسان فإنه يتحول إلى أداة محدودة الوظائف مقتصرة على قلة متخصصة.

والإمام الصادق عليه السلام يرى أن الصراع السياسي الذي قسم الأمة وشتت شملها اعتمد فيه المتسلطون على سياسة تفريغ الناس من العلم وعزلهم عن الفكر وإدخالهم في المجالات الضيقة والنظرات الجزئية والمحدودة لإفقاد الناس دورهم أولوضعهم على مسارات تنتهي بهم إلى التناقض مع دورهم وتجعلهم يخسرون كل شيء.

وقمة الفكر في الحياة هي القدرة على رؤية الحقائق العلمية بأبعادها المختلفة ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. على صعيد الفرد والجماعة في إطار الأسرة والمجتمع وعلى الساحة الإنسانية والعوالم الأخرى المحيطة بالإنسان.

أيها السادة العلماء أيها الأخوة والأخوات:

لقد انطلق الإمام الصادق عليه السلام من هذا كله حين أسس مدرسته الفكرية العملاقة في مطالع القرن الهجري الثاني ليجدد بها مدرسة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتي قامت بالوظائف النبوية التالية:

تلاوة آيات الله ـ وتعليم الكتاب والحكمة والتزكية، قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾[٥].

لقد كانت مدرسة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شمولية بمعنى الكلمة بعيدة الأثر والمقاصد رسمت

المنهج الشامل المتكامل الذي قال فيه الله عز وجل في كتابه الكريم: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم * وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**[٦] إنها المدرسة التي تقوم على بناء حياة الإنسان بناء سليماً عقائدياً علمياً عقلياً وروحياً مادياً ومعنوياً مترفعاً عن جميع النزاعات الفكرية والخصومات السياسية والعصبيات القبلية والنزعات الفردية والعنصرية.

والشمولية في فكر الإمام وعلمه صنفها تلاميذه من بعده في كتب كبرى جعلوا لها أبواباً وفصولاً لم تترك لوناً من ألوان علوم الحياة إلا عالجته وشرحته وعرضت ما قاله فيه الإمام الصادق عليه السلام وأعظمها (رسائله ووصاياه وكتبه توحيد المفصل والأهليجية ومصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة).
والإمام جعفر الصادق عليه السلام يقول في ذلك:

(إن الأرض تدور حول نفسها، وأن تعاقب الليل والنهار ليس سببه حركة الشمس حول الأرض، لأن مثل هذه الحركة مستحيلة مع دوران الشمس في منطقة البروج، وأن الليل والنهار ناشئان عن حركة الأرض حول نفسها، فيصبح نصف الكرة الأرضية في نهار مشرق ونصفها الآخر في ليل مظلم)[٧].
وفي مجال خلق الإنسان يقول الله عز وجل:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق﴾[٨].

﴿فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب﴾[٩] هذه الدقة العلمية ولدت عند الإمام جعفر الصادق دقة علمية فهو حين يتحدث عن جسم الإنسان يقول:

إن الله تعالى خلق الإنسان على اثنى عشر وصلاً وعلى مائتي وستة وأربعين عظماً وعلى ثلاث مائة وستين عرقاً، فالعروق هي التي تسقي الجسد كله والعظام تمسكها والشحم يمسك العظام والعصب يمسك اللحم وجعل في يديه اثنتين وثمانين عظماً، في كل يد واحد وأربعون عظماً منها في كفه خمسة وثلاثون عظماً وفي ساعده اثنان وفي عضده واحد وفي كتفه ثلاثة وكذلك الأخرى[١٠].

إنها لدقة تشريحية لم يعلم بها علماء الغرب إلى بعد قرون وقرون من الزمن. على مثل هذه الدقة كان علمه في الكيمياء والفيزياء والضوء والرياضيات و التاريخ والجغرافية والتربية والفقه والأصول وغيرها من العلوم.

أيها السادة العلماء أيها الأخوة والأخوات:

ليس هذا كل ما يجب ذكره عن الإمام الصادق عليه السلام لأن هذه العجالة لا تسمح بإيفاء الإمام حقه، ولكني أود أن أطرح في هذه المناسبة الجليلة صورة عن المؤامرة التي يتعرض لها الإمام الصادق عليه السلام والإسلام الذي بذل الإمام كل عمره من أجل المحافظة عليه سليماً معافى.

إن الله عز وجل قد أكرم الأمة الإسلامية بالإمام جعفر الصادق عليه السلام والذي كان تعبيراً

تجديـديـاً للإسـلام بعـد قرن من ظهوره التف حوله رجال الفكر والعلم والحكمة وعدوّه إمامهم لا يحدوهم أدنى شك بصـدق عقيـدتـه وعمق صلتـه وعـراقة أصله ووضوح شرف نسبه وعظمة علمه وعميق فضله، فاتخـذوه معلمهم بعـد رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم يفخـرون به ويسير ون على منهاجه ويعتمدون فكره واجتهاده فلماذا يضيقون على إمامنا الأفق ويسدون أمام محبيه الطريق ويقسمون الناس من بعده جماعات وفـرقـاً ومـذاهب مختلفـة، مع العلم بأن جميـع خريجي مدرسته من الأئمة والفقهاء لم يسلموا من الاضطهاد والعـدوان والحـرمـان تمامـاً كما تعـرض آل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، مات بعضهم وهو يحمل راية الإسلام ويذب عنه.

إن تفسـير الصـراع الـذي شهـده المسلمـون على أنـه صراع بين آل البيت وأتباعهم وبين المسلمين الآخرين هو تفسير خاطىء ظالم يستهدف تشويه الإسلام وتفرقة المسلمين.

إن حقيقة الصراع كانت دائماً تدور حول قضية الدين والسياسة في جهتين متعارضتين أو متوازيتين، لا يمكن الجمع بينهما وهذه هي المغالطة الكبرى وجوهر المؤامرة التي تستهدف الإسلام والمسلمين.

فالـدين يستـوعب السيـاسـة ويستغـرق نظمهـا وصـراعاته وينظم مساراتها ويشرع أهدافها ويرسم طرائقهـا ووسـائلهـا، فهـو القيم عليهـا وهي جزء منـه وتعبـير عنه فيما يتعلق بتدبير أمور الناس مع الإدارة الناظمة لمشاكلهم وحاجاتهم وبينهم وبين الأمم والشعوب الأخرى على الساحة الإنسانية.

ومن هنـا كان الصـراع الـذي عانـاه المسلمـون هو محاولات الأسـر الحـاكمة والأمراء والقادة الموالين لسياساتها فرض لون الصراع مع السلطة على أنه دين الناس وهم يقولون الناس على دين ملوكهم.

لقـد توحـد المسلمـون دائماً من حيث جهـادهم العلمي والفكـري في حقيقـة الإسـلام ولقد عمل السيـاسيـون ـ الأمـراء والحكـام والملوك ـ على تقسيم النـاس والتفـرقة فيما بينهم لأن وحدة الأمة في مواقفها الـدينيـة يلغي دور الحكـام في السيـادة والتسلط على رقـاب الناس ومن الضروري اليوم أن يحتل الدين في قلوبنـا وعقـولنـا مكـانـه الطبيعي حيث يهيمن على كل شيء وينظم كل شيء، فيوحد بيننا ويزيل الأبعاد المصطنعة ويهدم الحواجز الوهمية الفاصلة بين المسلمين.

أيها السادة:

إن الإمـام الصـادق عليـه السـلام أحـد الـذين صدق انتـماؤ هم للإسـلام فكان لهم المجد والخلود يذكرون في كل مجلس عزة وكرامة ومعرفة خطّوا لمن جاء بعدهم درب السعادة.

رضي الله عن الإمام الصادق وألهمنا والمسلمين أجمعين الاستفادة من علمه العظيم الذي يرتكز على الكتاب الكريم والسنة المطهرة الذي استقى منها الإمام علمه العميق وفكره الشامل.

والحمد لله رب العالمين.

الحواشـي

(١) ـ سورة الكهف الآية ٦٥ .
(٢) ـ سورة العلق الآيات : ١ ـ ٥ .
(٣) ـ سورة القلم الآية : ١ و ٢ .
(٤) ـ سورة الاسراء الآية : ٩ .
(٥) ـ سورة الجمعة الآية : ٢ .
(٦) ـ سورة المائدة الآية : ٣ .
(٧) ـ الامـام الصـادق كما عرفـه علماء الغرب ص ١٧١ عن الكافي في أحاديثه مع تلاميذه .
(٨) ـ سورة القلم الآية : ١ و ٢ .
(٩) ـ سورة الطارق الآيات : ٥ ـ ٦ .
(١٠) ـ الامام الصادق كما عرفه الغرب ص ٥١ .



العلامة الشيخ محمد مهدي شمس الدين



الإمام الصادق (ع) والاجتهادات الفقهية



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين.. والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين؛

ونتوجه بالتحية والتبريك في ذكرى مولد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إلى الأمة الإسلامية وإلى الأمة العربية وإلى آية الله المعظم السيد علي خامنئي، والشيخ الرئيس هاشمي رفسنجاني، وحكومة الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وإلى سيادة الرئيس حافظ الأسد وحكومة الجمهورية العربية السورية والسلام عليكم أيها الأخوة والأخوات جميعاً ورحمة الله وبركاته.

من المقارنات التي قد تفيد الإشارة إليها أن ذكرى الإمام السادس من أئمة الشيعة الإمامية تقام من قبل الجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق عاصمة الأمويين، وهي الآن عاصمة الجمهورية العربية السورية وفي مبنى هو مبنى المركز الثقافي العربي.

أمور لم تحصد أو لعل أكثرها لم يحصد ولعل بعضها حصد، ولكنها مقارنات تلفت النظر عروبة وإسلام وأموية وهاشمية وشيعية وسنية تتداخل كلها في هذه الندوة، في هذا المؤتمر، في هذا الاحتفال. لا تجسد لقاء المتنافرات وإنما تجسد أن شخصية الإمام جعفر الصادق سلام الله عليه، شخصية ذات أبعاد، ومتنوعة الجوانب، وتشخص مرحلة من مراحل الوعي والنضج في المسلمين وفي العرب، بحيث يتقبلون ظاهرة من هذا القبيل ويمارسونها إيرانيون أو سوريون عرب أو غير عرب، سنة أو شيعة، يلتقون جميعاً على قاسم مشترك له في الإسلام سهم كبير وباعٌ طويل، وفي العروبة سهم كبير وباعٌ طويل، وله في العرب وغير العرب من المسلمين مركز المعلم والرائد والقائد، كل هذه العناوين تلتقي وتتقاطع في شخص الإمام جعفر الصادق(ع) وهو كما ذكرت لمصلحة السنة الذين لا يعرفون تسلسل أئمة الشيعة المعصومين، والشيعة أيضاً الذين لا يعرف بعضهم تسلسل أئمته هو في تسلسل الأئمة الاثني عشر المعصومين، يقع في الرتبة السابعة هو الإمام السادس من أئمة أهل البيت(ع).

لم أوفق حينما دعيت للمشاركة في هذا المؤتمر أن أكتب عن هذه الشخصية القائدة للمسلمين ولغير المسلمين أيضاً ولكي لا أحرم من شرف المشاركة في هذا المؤتمر أدرت في ذهني جملة من الأسئلة الصعبة لعلي لو كتبت لكتبت فيها أو في بعضها، وهذه الأسئلة أطرحها على العلماء والباحثين في هذا المؤتمر لعلها تكون حافزاً للتعمق فيها إذا كان بعضهم قد ألمّ بدرسها إذ كانت كما يبدو لي في بعضها أنها أسئلة جديدة.

السؤال الأول يتعلق بالإمام الصادق ونظرية المعرفة. يعتبر الإمام الصادق أحد المعلمين الكبار ان على مستوى الأمة الإسلامية أو على مستوى حركة المعرفة في العالم لأن أفكاره وأفكار تلاميذه أو الرواة عنه ظلت ولا تزال تتداخل خارج إطار المسلمين إلى مدى طويل بعضها أصبح تاريخاً وبعضها لا يزال حياً إلى الآن في ما يتعلق بنظرية المعرفة هناك إشكالية تحكم ساحة العلم الآن، العلم التجريبي والعلم التطبيقي الذي حققت الحضارة الحديثة به تقدماً هائلاً وحققت شعوبها المتقدمة تفوقاً في القوة على كل من عداهم من شعوب الأرض، واستخدمت هذه القوة الآتية من المعرفة استخداماً لا أخلاقياً في جميع أو في الأكثرية الساحقة من مفردات هذا الاستخدام في العالم حتى الآن.

الاستعمار بجميع صيغه هو أحد نتائج هذه القوة التي استخدمت ضد العالم الآخر، العالم الذي لا يسلك زمام هذه المعرفة.

السؤال هو ما يلي: **هل في فكر الإمام الصادق(ع) ومن ثم في الفكر الإسلامي في ما يتعلق بقضية المعرفة هل العلم والبحث العلمي له غاية أو لا غاية له؟. هذا أولاً، وثانياً ما مدى محكومية البحث**

العلمي للقيم الأخلاقية للأخلاق؟ من جهة ثانية هل المعرفة تبر ر نفسها بنفسها وإن لم تكن لها غاية؟ هذا أولاً وهل المعرفة تبر ر نفسها بنفسها فتشكل قيمة فوق الأخلاق أو لا؟ الآن في الحقل العالمي للعلم وفي مراكزه كِلا المسألتين الجواب عليهما بالسلب. المعرفة تبر ر نفسها بنفسها وإن لم يكن لها غاية والمعرفة تبر ر نفسها بنفسها وليست محكومة بأي قيمة أخلاقية على الإطلاق. هي فوق الأخلاق أو هي من مقولةٍ أخرى لا تخضع للمعايير الأخلاقية.

الآن اذكر نموذجاً واحداً يمكن ان ينسج عليه إيثاراً للاختصار الأبحاث التي تجري في مراكز العلم الكبر ى ما نعرفه منها وما لا نعرفه ولعله الأكثر على عوامل الوراثة والجينات والعوامل الحيوية في التوليد والتوالد في الحقل البشري بشكل خاص وفي علم الأحياء بوجه عام، وهي أبحاث ليس لها هدف واضح، لا تقع هذه الأبحاث جواباً على أسئلةٍ تهم البشر الآن تتصل بحياة البشر الثقافية أو المعيشية أو الصحية أو المناخية أي شيء يتعلق بحياة البشر العاديين المتعارفين هذه الابحاث لا تتعلق بحياة البشر.

باحثٌ من الباحثين في بحثٍ معين ينشأ أمامه سؤ ال معين في مادةٍ من المواد فيبحث عنه دون هدف لمجرد الاكتشاف فقط وقد أدت هذه الأبحاث حتى الآن إلى حافّات أو إلى حواف في مجاهيل المعرفة ربما تقذف بالجنس البشري إلى أخطار مهلكة في ما يتعلق بعوامل الوراثة وبوسائل التحكيم في الفعل البشري أو في الجنس البشري بمجتمعٍ بعينه، أو نتيجة غلطة من الغلطات ربما في البشر جميعاً، وقد يكون ما يتداول في نطاقٍ ضيق عن مرض الايدز وعن مرض السيبْا أنه ليس تطوراً طبيعياً للشذوذ الجنسي وإنما هو إحدى الأغلاط التي وقعت فيها المختبرات في هذا الحقل من حقول البحث العلمي وأدت الى مشروع دمار قد يكون شاملاً بالنسبة للجنس البشري، هذه المسألة واقعاً تحتاج إلى تنقيح من الناحية الفكرية أولاً ومن الناحية الفقهية ثانياً، بالنسبة لأحوال المسلمين أو أحوال المستضعفين أو أحوال الجنس البشري، هل لنا الحق في أن نبحث من دون هدف إلى حدود قد نصل فيها إلى مساحات تمس سلامة البشر أو تمس كينونة الجنس البشري في عواطفه أو في نزعاته ويمكن أن نذكر أمثلة أطفال الأنابيب ودرجة قيمة الحياة الإنسانية، ومعلوم الآن في المختبرات الكبر ى في الغرب تجري التجارب عن الاستغناء عن الأب والأم، بحيث أنه يمكن إنتاج الكائن البشري كما ننتج أي سلعة من السلع بواسطة المعامل وبواسطة المركبات الكيماوية وما إلى ذلك. هل المعرفة في ما يتصل بالهدف هدف المعرفة هو نفع البشر أو هدف المعرفة هو المعرفة لذاتها هذه المسألة من المسائل المعقدة في فلسفة العلم الآن ولعل بعض كبار المفكرين أو الباحثين المسلمين قديماً أو حديثاً ألَمَّ بها الماماً لكنها لم تبحث بشكل معمّق.

في بعض ما روي عن الإمام الصادق(ع) يمكن أن تكون هناك إشارات أو صور أدلة تهدي في هذا التيه يمكن الارتكاز إليها والانطلاق منها في هذا البحث من الناحية الفكرية ومن الناحية الفقهية، من ناحية صلة هذه المسألة بتركيب الإسلام الفكري والعقيدي من ناحية وبالمشروعية واللامشروعية من ناحية

اخرى. هل تبرر المعرفة نفسها فيمكن أن تكون مبررة وإن لم يكن لها هدف وإن أدت إلى أية نتيجة، أو لابد أن ترسل للمعرفة أهداف وتوجه نحو الأهداف المرسومة لا غيرها، يمكن أن نذكر مثال آخر وإن كان قد طرحناه على البعض فأثرنا عجبه وقد يثور عجب بعضكم. **الأبحاث النسبية وأبحاث الذرة التي أدت إلى هذا الفزع الهائل في المعرفة الحديثة ما هي قيمتها للبشرية؟ كم قدمت للبشرية من خدمات؟ وكم ألقي بها من أخطار ومن مهالك؟** ما رأيناه منها من قنبلة هيروشيما إلى مفاعل تشرنوبيل ربما لا يكون إلاّ تفصيلاً صغيراً في خطر لم يبلغ بعد درجة الواحد منها.

لا نعلم أن سياسياً أو عسكرياً في هذه الدولة أو تلك يرتكب غلطة أو يسهو سهوة فيزج بالبشرية في أتون مدمّر يحرقها جميعاً.

هدف المعرفة أولاً وأخلاقية المعرفة ثانياً. المعرفة هل تخضع لقيم الأخلاق أو أنها لا تخضع لهذه القيم ولا تخضع لهذه المعايير وأنها خير بذاتها أو أنها فوق الخير والشر وخارج عن مقولة الخير والشر؟ هذا السؤال المركب من هذين الوجهين، أحد الأسئلة التي يمكن طرحها لتدرس في نطاق فكر وفقه الإمام جعفر الصادق(ع).

السؤال الثاني الذي يبدو لي مهماً جداً وخاصة في مرحلتنا الحاضرة، وخاصة على ضوء المتغيرات التي حدثت بسببها الحركة الإسلامية العالمية منذ ٢٠ ـ ٣٠ سنة وبلغت ذروتها في ١٠ ـ ١٥ سنة الأخيرة،

والمتغيرات التي أحدثتها، والطروحات التي توجهت بها والمسار العام للكيان السياسي في العالم الإسلامي، كيان الدولة وكيان المجتمع السياسي، السؤال هو: في فكر الإمام جعفر الصادق الفقهي، في إرثه الفقهي، في فكره الفقهي، وهو فقهٌ يتصل برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبسنته وبكتاب الله، لكن عنوان المؤتمر وعنوان الأبحاث هو فكر فقه رؤية الإمام جعفر(ع)، لذلك نعنون الأمور بعنوان الإمام جعفر والثابت عندنا هو أن آخرهم يقول كأولهم وأولهم يقول كآخرهم وأنهم نسقٌ واحد وفكر واحد.

في مسألة الفقه السياسي للإمام جعفر الصادق(ع) يبدو لنا أن هناك تقصيراً كبيراً في درس هذا الفكر من قبل فقهاء الشيعة الإمامية بوجه خاص، ومن قبل فقهاء المسلمين بوجه عام.

وإذا كان بعض فقهاء المسلمين لا يرى في الإمام جعفر الصادق(ع) شيئاً زائداً على أمام مذهب، فإن فقهاء الشيعة رضوان الله عليهم وحفظ الله الموجودين منهم، ينبغي أن يروا فيه كما هو معتقدنا شيئاً أكبر من ذلك بكثير. هذا الفكر وهذا الفقه لم يدرس أريد أن أسلط الضوء على ما تبين لي، وآمل أن تتوافر أبحاث أخرى على هذه النقطة التي سأذكرها لتتوثق أو لتبحث وهي أن الإمام الصادق(ع) كانت له رؤية سياسية، أسميها من جهة: التوازنية، ومن جهة أخرى: الواقعية.

الإمام الصادق كان يوازن بين مشروع وحدة الأمة الإسلامية وهو مشروع مبدئي ومقدس ويسمو

إلى مرتبة قسم العقائد في الإسلام وبين واقع مشروع وحدة الأمة الذي يتجاوز المذاهب والفرق الكلامية أو الاتجاهات الفقهية ويعمل لدمج الأمة بعضها ببعض دمج تنوعاتها دون الاساءة إلى هذه التنوعات ودون محو هذه التنوعات. وعلاقة الأمة بالنظام الحاكم والأنظمة الحاكمة في عصر الإمام الصادق وما بعده كانت أنظمة كلها في المعايير الفقهية لمدرسة أهل البيت تسمى التسمية الفقهية لها ولعلها التسمية الحديثة أيضاً انظمة الجور وحكام الجور، ولكن انظمة الجور هذه وحكام الجور هؤلاء كانوا في الوقت نفسه حكام المسلمين حكام الأمة وكانت الأمة تتعامل معهم وكانت تبرىء ذمتها معهم وبهم وهذا العنصر الثاني. العنصر الثالث المعارضة الذي مثله الشيعة في كثير من الحالات ومثله مسلمون آخرون خوارج في حالات زيدية في حالات مرجئة منهم ابوحنيفة. هذه الثلاثة أمور، الأمة وهي تأتي في القمة في أولويات المشروع الإسلامي ووحدتها ليس من سنخ التكليف الشرعي السلوكي الخاضع للنسبية. نسبية القدرة والتمكن وإنما هويتصل بعالم المعتقد الذي يتمتع بالاطلاقية، الذي لا يخضع إلا نادراً وقد لا يخضع إطلاقاً لأي ضرورة من الضرورات. تقسيم الأمة، شق عصا الأمة كل هذه أحكام تتمتع بالأخلاقية في الفقه الاسلامي كما نرى. وحدة الأمة، الأنظمة الحاكمة وهي التي أنظمة جور والحكام وهم حكام جور

هذه المعادلة في فقه الإمام الصادق(ع) تحتاج إلى أن تدرس لأن إدارة المسألة الإسلامية الآن في عصرنا الحاضر منذ الثلاثينات والأربعينات وإلى الآن أي سنة ١٩٩١م ارتكبت فيها وارتكبت هي اخطاء مهلكة في حق نفسها وفي حق المشروع الإسلامي وفي حق الأمة لأنها لم تكن متوازنة ولم تكن واقعية وموضوعية كانت إما متطرفة لهذا الجانب أولذلك الجانب. وكانت في نسبة عالية جداً فوق الواقع. رومانسية، حركة أحلام، حركة مشاريع طوباوية، بينما الإمام الصادق قائد من قادة الأمة الإسلامية المعصومين يفكر على نحوٍ آخر. آمل أن يتوفر فقهاء لدراسة هذه النقطة بوضوح وبمباشرة كاملة، لأنه من خلال هذا الدرس يمكن أن يحدث تغيير كبير على الفقه السياسي الإسلامي فلا يكون هناك فقه سياسي سني أشعري يتجه اتجاهاً، وفقه سياسي شيعي عجمي يتجه اتجاهاً آخر. يمكن أن تكتشف قواسم فقهية على المباني الفقهية والأصولية للتيارين المذهبيين من خلال حيوية جديدة وفعالية جديدة وقدرة على الحوار وقبول كل واحد بالآخر مما يؤهل المسلمين بأن يجتازوا مرحلتهم العسيرة التي حلت الآن مرحلة وجود نظام عالمي يدور حول قطبٍ وحيد.

هذا هو السؤال الثاني والسؤال الثالث: الإمام الصادق(ع) لعله أكثر أئمة أهل البيت المعصومين رواية. في السنّة التي يرتكز إليها مذهب الشيعة الإمامية ويرتكز عليها فقههم، ولعل أكبر حجم من هذه السنّة في جميع أو في ما يكاد أن يكون جميع أبواب الفكر الإسلامي والفقه مرويٌ عن الإمام الصادق(ع).

ومعروف كان له أربعة آلاف تلميذ رويت عنه الأصول الأربعمئة ما سمعتم بعضه قبل قليل. الشيعة في فقههم لا يتعاملون إلّا مع حديثهم مع السنّة (النبوية) كما رَوَوْها هم، (أي) كما وصلت إليهم

عن طريق الأئمة المعصومين الإثني عشر، والفقيه الشيعي أيضاً كذلك هما متماثلان في موقف رفض الآخر، رفض السنّة الاخرى، الشك فيها على الأقل وربما رميها بالكذب والوضع وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقلها لماذا؟ هذا قد يعكس في رأيي موقفاً موروثاً من الشقاق السياسي وليس مرتكزاً على الموضوعية العلمية، هذا من جهة ومن جهة أخرى يرتكز على درجة سعة وضيق انفتاح واغلاق ذهن الفقيه الشيعي أو الفقيه السني وخَلَل رؤيته لوظيفة الشريعة في الأمة،قد الفقيه الشيعي (وهذا موجود) يرى الأمة الإسلامية هي شيعة ومن عدا الشيعة . . . . الفقيه الحنفي الذي افتى بعضه بعدم صحة زواج الشافعية من الحنفي أو الشافعي الذي افتى بعضه بعدم صحة زواج الحنفية من الشافعي أن أحدهم وأظن أن الشافعي يصحح أن يقال «أنا مسلم إن شاء الله» فهذا تعليق للإسلام على الشرط فهو ليس مسلماً بالفعل فلا يجوز الزواج منها وإذا ماتت فهما أهل ملتين لا يتوارثان. هذا موجود. في الدائرة المذهبية موجود وفي دائرة السياق العام للفكر الإسلامي وللفقه الإسلامي أيضاً موجود ويتحدثون بالأثناء عن أن المسلمين أمة واحدة.

هذه المسألة المعيار الذي أعرفه عند الأصوليين الشيعة والسنة والمشهور عند الطرفين ما عدا الحشوية في الطرفين أن خبر الثقة هو الذي دلّ الدليل على اعتباره حجة في إيصال حكم الله إلينا في وصول السنّة إلينا به في أخبار الآفاق وهي مشكلة في أخبار الآفاق لماذا لا يعمل الشيعة بالأخبار التي تجمع شرايط الحُجية عند أهل السنة؟ لماذا لا يحترم الفقيه الشيعي السنّة السنية، السنّة في كتاب البخاري والمسلم وما يسمى الصحاح وهي بطبيعة الحال لا نراها صحاحاً لماذا؟

هل الوف هذه الأحاديث كلها لا يتمتع حديث واحد منها بأي اعتبار على الإطلاق فلنفهم أنا ممن يريدون أن يفهموا؟ هل بذلت محاولة في درس هذه السنة واكتشف أنها كلها من الناحية الرسمية مجموعة أكاذيب عشرات أو مئات ألوف الأحاديث أو على الأقل ألوف الأحاديث هل بذلت محاولة، أو أن الموقف الشيعي أصدر حكماً مبدئياً صارماً بأن كل ما ليس عندنا فهو باطل؟ في بعض الحالات الأمر هكذا وهذا تحدٍ للباحث الشيعي وللفقيه الشيعي سيما وأننا روينا عن الصادق(ع) ما معناه إذا أعوزتهم النصوص فارجعوا إلى أحاديثهم عن علي(ع) وهذا أمرٌ موجود. عند السنة يوجد موقف صارم بأن كل ما رواه الشيعة إما موضوع أو مشكوك على الأقل في صدقه بدرجةٍ تجعله غير جدير بالقبول. وأنا أسأل هل بذلت محاولة سنيّة من علماء حديث، علماء رجال، ومن محدثين ومن فقهاء في فحص هذه السنّة المروية عن طريق الشيعة. للتأكد من أن كل ما في الكتب الأربعة عند الشيعة مجموعة أكاذيب؟ التصرف هو هكذا ما عدا الأخلاقيات العامة وبالوالدين إحسانا فموجودة في القرآن مجتمعين على القرآن فيما يتعلق بتفاصيل الحكم الشرعي، فيما يتعلق بتفاصيل القاعدة الشرعية، هل بذلت محاولة من قبل علماء الحديث والفقهاء السنة لفحص هذه الكتب الأربعة وفهم قيمتها بصورة مجردة بصرف النظر عن أن علياً ورد فيه حديث الغدير أو لم يرد فيه حديث الغدير. وبصرف النظر عن أن أئمة أهل البيت كانوا يرون في أنظمة الأمويين والعباسيين التي عمل

فيهـا أئمـة الحـديث السنـة كانوا يرون فيها أنظمة جور وحكام جور، يوجد شيء موضوعي موجود نريد أن نعرف رأيكم فيه. ما يسمى صحاحاً وبخاري ومسلم وترمذي ونسائي. الشيعي هل بذل محاولة في إطـار فكـر الإمـام الصـادق(ع). في إطـار رؤيـة الإمام الصادق في عهده للسنة مصدر ووظيفة ودور في بناء المسلم أو في بناء الفكر الإسلامي في بناء الفقه الإسلامي أن يكون هذا مورداً للبحث والنظر.

هذه هي الأسئلة الثـلاثـة التي أطـرحهـا على هذا المؤتمـر لعلها تكون مثاراً لاهتمام البعض من أهل الخبرة والأهلية لتكون مداراً للبحث وإغناء معرفتنا بأعماق جديدة وأبعاد جديدة للإمام الصادق(ع) ولخط أئمـة أهـل البيت المعصـومـين(ع) ولفتـح نوافـذ، وإن شاء الله لا تكـون كوى، نوافـذ وأبواب رحبة على المسلمين الآخرين، ومن المسلمين الآخرين على فقه أهل البيت وخط أهل البيت(ع). الشكر لله سبحانه وتعالى على كل توفيق، وعلى توفيق الاجتماع مع هؤلاء الأخوة والأخوات بين يدي أهل العلم الكرام وفي رحاب الجمهورية الإسلامية الإيرانية ومستشاريتها الثقافية.

وفقكم الله جميعاً والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.







الإمام جعفر الصادق (ع) والتقية



بسم الله الرحمن الرحيم

هل كانت التقيّة شأناً شيعياً خاصاً، بحيث كان الخط الذي ترتكز عليه من الخطوط الخاصة التي انطلق فيها أئمة أهل البيت(ع)، وفي مقدمتهم الإمام جعفر الصادق عليه السلام، من ذاتيةٍ فكريةٍ جديدةٍ على التفكير الإسلامي، أو بعيدة عن المنطلقات الإسلامية العامة. أو كانت المسألة مسألة ظروف شيعية معينة ضاغطة أعطت التقيّة هذا البعد العنواني للتشيّع بحيث كانت القضية قضية انطباق العنوان الإسلامي الكلّي على الجزئيات الخاصة؟.

هذا ما نريد أن نثيره في هذا الحديث..

ربما حاول البعض من الكتّاب أن يثيروا الحديث على أساس اعتبار التقيّة شأناً شيعياً خاصاً منحرفاً عن الخط الإسلامي العام باعتبار أنه يلتقي بالكذب الذي هو من المحرّمات الشرعية الكبيرة، كما أنه يؤدي إلى ضياع الحقيقة الفقهية بإظهار الموقف على غير الواقع الشرعي الذي هو عليه في عملية إيحائية بالانسجام مع الجو العام الذي يخالف الحقيقة في رأي الشخص الذي يمارس التقيّة.

وقد يثير البعض ـ في هذا المجال ـ من عنوان «الباطنية» التي تختزن عقيدة خاصة وتمنعها عن الظهور لتكون القضية قضية أنّ الحقيقة لا بدّ أن تكون خفيّة مستورة عن الناس، مما يفرض على أصحابها إظهار شيء آخر انسجاماً مع العقيدة العامة للناس، وهذا هو الذي جعل هذا البعض يخلط بين التشيّع و الباطنيّة.

* * *

ولكن الباحثين من علماء الشيعة لا يرون في مسألة التقيّة أيّة غرابة لأنها تنسجم مع الخط الإسلامي العام الذي يتحرك في دائرتين.

الدائرة الاولى: هي عنوان الاضطرار الذي ورد في الحديث النبوي الشريف [رفع عن أمتي تسعة أشياء . .][1]. وعدّ منها «ما اضطروا اليه» كما ورد فيه «ما من شيء إلا وقد أحلّه الله لمن اضطر اليه» ويحددون الاضطرار بأنه الحالة التي قد تؤدي بالانسان إلى الوقوع في التهلكة أو الوقوع في الحرج الشديد الذي لا يحتمل عادة، فيدور أمر الانسان بين أن يقع في المحذور وبين أن يتفاداه مرحلياً بالابتعاد عن مواقع الضغط، بكلمة تنسجم في مَدلولها مع ذهنية الواقع الضاغط من خلال شخص أو جهة أو ظرف يطبق بتأثيراته الضاغطة على هذا الانسان الضعيف أو يعمل على سحق حركة إصلاحية تعيش في خطوطها مفردات الحقيقة الإسلامية، أو بموقف يبتعد عن مواقع الضغط ويلتقي بالجو العام وذلك في الحالات التي لا مجال فيها لاظهار الحق لأن الآخرين يقفون ضده بطريقة غوغائيّة مدمّرة لا تترك فيه أي دور للتفاهم والحوار، لانهم لا يمنحون صاحب الرأي المضاد أيّة حريّة فكريّة تفسح الجو للحديث الفكري الموضوعي، مما يجعل المسألة تعيش في دائرة القمع الوحشي لا في دائرة الجدل الفكري، الأمر الذي يسقط الفكرة أمام الضغط ولا يفيد الحقيقة أي شيء، ويبتعد بالحركة الاصلاحية عن الواقع. ويرى هؤلاء الباحثون من علماء الشيعة، فيما استوحوه من حديث أئمة أهل البيت ـ ومنهم الامام جعفر الصادق عليه السلام ـ أن القرآن قد تحدث عن التقية في نطاق الرخصة في دائرة أكثر خطورة من الدائرة التاريخية التي مارسها أتباع أهل البيت في السلوك العام للتقية في تاريخهم العام وذلك في آيتين:

* **الأولى**: في قصة عمار بن ياسر في اضطهاد المشركين له ووصول الأمر به إلى حد القتل، فقال كلمة الكفر التي أرادتها قريش منه لترفع عنه التعذيب، فأنزل الله فيه قرآناً وهو قوله تعالى: **﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . .﴾**(النحل: ١٠٦)، وقال له النبي(ص): [. . **يا عمار إن عادوا فعد فقد أنزل الله عزّ وجل عذرك وأمرك أن تعود إن عادوا** . .].

فقد استوحى منها الإمام جعفر الصادق قاعدة فقهية عامة في نطاق الأوضاع التي يقف فيها الإنسان بين القتل وبين أن يقول الكلمة التي لا يؤمن بها أو يؤمن بخلافها، فتكون له شرعية اختيار تلك الكلمة على القتل حفاظاً على نفسه وذلك فيما رواه الكليني عن علي بن ابراهيم عن هارون بن مسلم ابن مسعدة بن صدقة قال: قيل لابي عبد الله ـ جعفر الصادق عليه السلام ـ «. . أن الناس يروون أن علياً(ع) قال على منبر الكوفة: أيها الناس إنكم ستدعون إلى سبّي فسبوني، ثم تدعون إلى البراءة مني فلا تبرؤا مني»، فقال: ما أكثر ما يكذب الناس على عليّ(ع) ثم قال: إنما قال: «إنكم ستدعون إلى سبّي فسبّوني ثم ستدعون إلى البراءة مني وإني لعلى دين محمد(ص)»، ولم يقل فلا تبرؤا مني. . . . فقال له السائل: أرأيت إن اختار القتل دون البراءة؟ فقال: «والله ما ذلك عليه وما له إلا ما مضى عليه عمار بن ياسر، حيث أكرهه أهل مكة وقلبه مطمئن بالإيمان فأنزل الله عز وجل فيه **﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾** فقال له النبي(ص) عندها: **[يا عمار إن عادوا فعد فقد أنزل الله عز وجل عذرك وأمرك أن تعود إن عادوا]**»[٢]، فإن حديث النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) له بمثل هذه الطريقة يوحي بأن المسألة مسألة خصوصية الظرف الضاغط التي تمنح صاحبه الرخصة، لا خصوصية الشخص، مما يجعلها تمتد في كل موقف مماثل لأي شخص آخر في قضية شرعية أخرى.

وقد أكد الإمام الباقر(ع) بأن اختيار القتل في مثل هذه الحالة لا يبتعد عن الرخصة الشرعية لأن القضية هي أن الإنسان ليس ملزماً بذلك كما ذكره الإمام الصادق(ع) ولكنه معذور في هذا الاختيار كما فعل ياسر وسميّة وكما فعله حجر بن عدي وأمثاله من المؤمنين الذين خيّروا بين القتل وبين التبرؤ من الله وأوليائه وهذا هو ما رواه الكليني عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عيسى عن زكريا المؤمن عن عبد الله بن أسد عن عبد الله بن عطاء قال: قلت لأبي جعفر(ع) ـ محمد الباقر ـ رجلان من أهل الكوفة أخذا فقيل لهما ابرئا من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فبرىء واحد وأبى الآخر، فخلّي سبيل الذي برىء وقتل الآخر فقال: «أمّا الذي برىء فرجل فقيه في دينه، وأمّا الذي لم يبرأ فرجل تعجّل إلى الجنة»[٣].

وهذا هو الذي يجعل من القضية، في خط التقية، قضية عملية متحركة في نطاق الارادة الذاتية في احترام الاختيار الايماني للإنسان المؤمن بين الانفتاح على التضحية التي تمثل التلبية الروحية للنداء، العميق الذي يحبّب إليه الوقوف مع العمق الشعوري في الاستجابة لايمانه، وبين الانفتاح على حبه للحياة من أجل البقاء في ساحة الصراع لخدمة إيمانه بطريقة أخرى في ظروف ايجابية أكثر ملائمة من الظرف الحاضر، فإن هذه الحرية التي يمنحها التشريع الإسلامي للمؤمن في عملية الاختيار تعطي التضحية بعدها الإسلامي المنفتح على الشهادة التي تعجل بالإنسان إلى الجنة، كما تعطي الحياة فرصتها في الامتداد من دون تعرضها للاحساس بالسقوط الروحي في هذه التجربة وهذا هو الذي يجعل من حركة التقية ـ في هذه الدائرة ـ حركة واقعية في الخط العملي عندما تكون القضية قضية الشخص بالذات، وهذا هو الذى لا

يجعــل النهي عن القـاء النفس بالتهلكـة في قولـه تعـالى: ﴿. . . ولا تلقـوا بأيـديكم إلى التهلكـة . . ﴾ (٢/١٩٥) مسألـة حاسمـة بل يبقى للإنســان أن يعطي المـوقف عنـوان الجهاد الذي يبرر ذلك في مرحلته الطوعية لا الإلزامية. أما إذا كانت القضية قضية الخطر على القيادة، أو الجماعة المعارضة، فإن التقية تكون هي الخيار الوحيد الذي لا يجوز للمؤمن العدول عنه إلى التضحية، لأن ذلك سوف يكون موضع سخط من الله، باعتبار أن التضحية لن تكون حالة إيمانية روحية عندما تؤدي إلى سقوط القيادة في قبضة السلطة الظالمة، أو نهاية الحركة الإسلامية في الواقع، وهذا هو ما أشار إليه الإمام جعفر الصادق(ع) في قوله لأصحابه:

«. . . والله ما النـاصب لنـا حربـاً بأشـد علينا مؤونة من الناطق علينا بما نكره، فإذا عرفتم من عبد إذاعةً فامشوا إليه وردوه عنها فإن قبل منكم وإلا فتحملوا عليه بما يثقل عليه ويسمع منه فإن الرجل منكم يطلب الحـاجـة فيلطف فيهـا حتى تقضى له، فالطفـوا في حاجتي كما تلطفـون في حوائجكم، فإن هو قبـل منكم وإلا فادفنـوا كلامـه تحت أقـدامكم ولا تقـولـوا: إنه يقول ويقول فإن ذلك يحمل علي وعليكم والله لو كنتم تقولون ما أقول لأقررت أنكم أصحابي»[٤].

وقد جاء في رواية الكليمي عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن أبيه عن عبد الله بن يحيى عن حريـز عن معلى بن خنيس قال: قال أبـو عبـد الله «جعفر الصادق» عليه السـلام: يا معلى اكتم أمرنا ولا تذعه، فإنه من كتم أمرنا ولم يذعه أعزه الله به في الدنيا وجعله نوراً بين عينيه في الآخرة يقوده إلى الجنة. يا معلى من أذاع أمرنا ولم يكتمه أذله الله به في الدنيا ونزع النور من بين عينيه في الآخرة وجعله ظلمة تقوده إلى النار. يا معلى إن التقية ديني ودين آبائي ولادين لمن لا تقية له. يا معلى إن الله يحب أن يعبد في السر كما يحب أن يعبد في العلانية. يا معلى إن المذيع بأمرنا كالجاحد له»[٥].

إن القضيـة التي كانت تلح على الإمـام جعفـر الصادق عليه السلام كما تلح على أئمة أهل البيت، هي أن خط أهل البيت في مسألة شرعية الحكم الإسلامي التي ترى في السلطة القائمة سلطة غير شرعية، يجعل الحركة المنطلقة في هذا الخط بخصوصياتها وأتباعها حركة مرفوضة من قبل السلطة القائمة باعتبار أنها تمثـل الخطـر الكبـير عليها لأنها ترفض شرعيتها من ناحية المبدأ ولهذا فإنها تلجأ إلى أكثر الوسائل وحشية في القمع الوحشي الذي يصادر كل شيء يتصل بها من دون اعتبار لأية حالة شرعية أو إنسانية[٦]، الأمر الذي يجعـل من الاسلوب السـري في العمـل والمـرونة الواقعية في التحرك، قضيتين أساسيتين في سلامة الحركة، وهـذا هو الـذي جعـل الإمـام الصـادق يؤكـد على النقطتـين اللتـين تحكمان هاتين القضيتين وهما الصبر والكتمان. فقد جاء في الكافي عن أحمد بن محمد عن محمد بن سنان عن عمار بن مروان عن أبي أسامة زيد الشحـام قال: قال أبـو عبـد الله جعفر الصادق(ع) «أمر الناس بخصلتين فضيعوهما فصاروا منهما على غير شيء: الصـبر والكتـمان»[٧]. وقـد جاء في الكافي عن محمد بن يحيى عن أحمد بن محمد عن ابن محبوب عن

مالك بن عطية عن أبي حمزة عن علي بن الحسين(ع) قال: «وددت، والله، أني افتديت خصلتين في الشيعة ببعض لحم ساعديّ: النزق وقلة الكتمان.»[8].

وذلك لأن الصبر يمنح الإنسان روحية التحرّك بعيداً عن الانفعالات الغضبية التي قد تدفع الإنسان إلى البعد عن مواقع الحكمة في تحديد المواقف وتركيز المواقع، ويقوده إلى التفكير في العواقب التي تحتاج إلى المزيد من السير مع الخطة المرسومة التي قد تفرض الكثير من التنازلات في الأمور الصغيرة لحساب القضايا الكبيرة.

أما الكتمان فإنه يمنحه الإصرار على حماية المعلومات الحيوية السرية التي قد تتصل بسلامة التحرك وحماية الخط، وأمن القيادة والجماعة، مما يجعل من الخط الهادىء في الموقف الصامت حركة في الهدف البعيد، لأن حركية الموقف ترتبط في طبيعتها بعلاقاتها في إعطاء الحيوية في الحركة في مواقعها الاستراتيجية، بقطع النظر عما إذا كان الموقف صامتاً أو ناطقاً.

وإذا كان الصبر على الباطل مرفوضاً إسلامياً، وكان كتمان الحق انحرافاً عن خط الإعلان في الدعوة، فإن الظروف قد تجعل من هذا وذاك وسيلة من وسائل تعزيز الحق، وانتشار الدعوة، لأن القضية لا تقاس بأشكالها وبداياتها، بل تقاس بمضمونها ونهاياتها، فرب كلمة أسقطت دعوة، ورب اندفاع أدى إلى ذهاب الحق. وهذا هو الذي يفسر كيف تكون التقية «ديناً له ولآبائه»[9]، باعتبار أنها الخطة التي تحمي الدين من كل النتائج السلبية على جميع المستويات[10].

*** الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿.. لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير..﴾(٣/٨).**

فقد نلاحظ في هذه الآية الحركة في اتجاه الولاية الظاهرية للكافرين من قبل المؤمنين التي قد تتمثل بالتظاهر في تأييد مواقفهم السياسية والاجتماعية ودعم حكمهم، والانتماء إلى مواقعهم وخطوطهم من دون أن يكون ذلك منطلقاً من قناعة عقلية وروحية ونفسية بذلك كله، لأنهم لا يرون لهم شرعية الموقع في حركة الحكم والقانون التي يتخذ فيها المؤمنون موقفاً معيناً في شخصية الحاكم وفي خط الحكم، وفي تفاصيل القانون ـ الشريعة ـ الأمر الذي يجعل موقف الموالاة هو الموقف الحقيقي المعبر عن القناعة الحقيقية.

فإن القاعدة السليمة هي رفض الكافرين جملة وتفصيلاً، وفي الموقف الإيجابي والموقف السلبي، وهذا هو ما عبرت عنه الآيات السابقة على هذه الآية وهي قوله تعالى:

﴿... بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً. الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً. وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها أو يستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً..﴾(٤/١٣٨ ـ ١٣٩).

فنحن نجد أن الولاية للكافرين من الناحية الذاتية المنطلقة من الرغبة في الحصول على موقع من العزة التي يملكون الكثير من مواقعها، تعرض المؤمنين للعذاب الأليم في جهنم كما تعطيهم صفة النفاق العملي، ولذلك فإن الله يريد لهم أن يرفضوا المسألة من ناحية الأساس، حتى أنهم إذا كانوا في مجالسهم، وبدأوا يتحدثون عن آيات الله بطريقة الجحود والاستهزاء فلا بد للمؤمنين من الانسحاب من هذه المجالس ما دام هؤلاء في هذا الحديث إذا لم يتمكنوا من مجابهتهم ومعارضتهم فيه، وإلا كانوا مثلهم لأن القضية في حساب الله، ليست قضية التوافق في الفكر مع الكافرين فقط بل قد تكون قضية التوافق في الموقف الذي يوحي بالرضا فيما قد يحققه من القوة، ولو في الشكل، وذلك في الموقف الصامت الذي يعطي الكافرين قوة سلبية، بالسكوت عنهم، وتقوية حضورهم الاجتماعي بالبقاء في مجالهم في هذه الحالة العدوانية.

ولكن التقية قد تبرر للإنسان القيام ببعض الأعمال والأقوال التي قد توحي بالتأييد والولاية لهم، فيما تفرضه الظروف الصعبة والأوضاع المعقدة التي تنعكس سلباً على المؤمنين بشكل عام في قضاياهم المصيرية على مستوى الأشخاص والجماعات والخط الأصيل.

وقد لا يكون من الضروري أن تنحصر التقية في حالات الخوف على النفس من القتل، بل قد تمتد ـ في مفهومها الإيحائي ـ إلى كل القضايا المتصلة بالقضايا الكبرى، في الإيمان والحرية والعدالة والأمن العام، مما لا بد من تحديده في نطاق المصلحة العليا للإسلام والمسلمين بحيث يؤدي اغفالها إلى ضرر كبير يصل إلى مستوى الخطورة على الواقع الإسلامي العام.

* * *

ولكن قد يثير بعض الباحثين من المسلمين علامة استفهام فكرية حول علاقة «التقية» التي تمثل الخط الواقعي العملي في حديث الإمام جعفر الصادق(ع) وفي سلوك الشيعة التابعين للأئمة من أهل البيت، وخلاصتها:

إن الآية تتحدث عن تقية المؤمنين من الكافرين، كما أن الآية السابقة تتحدث عن إكراه المؤمن على قول كلمة الكفر من قبل الكافرين، فلا تشمل تقية المسلمين من المسلمين فيما يختلفون فيه من آراء فقهية، ومن مواقف سياسية، لأن القاعدة التي تحكم هذه الدائرة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا اعتقد مسلم بأنه يلتزم خط الاستقامة في سلوكه الشرعي ورأى أن مسلماً آخر يلتزم خط الانحراف على أساس الخطأ في المسألة الكلامية أو الفقهية، أو الانتماء أو الموقف السياسي فإنه يجب عليه أن يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، ولا يجوز له أن يداهن في دينه ويوحي إليه بالإقرار له على السير في نهجه المنحرف، وفي موقفه الخاطىء فإنه نوع من أنواع الإقرار على الباطل والإبقاء على المنكر، والتشجيع على الخطأ. .

ـ ولكننا نلاحظ على ذلك. .

١) ـ إن القضية ليست خصوصية المضمون في مسائل «التقية»، وفي موضوع الإكراه، وليست خصوصية الشخص الذي يتقى منه أويتولى عملية الاكراه بل هي خصوصية الموقف الضاغط أمام القضايا الحيوية المتصلة بالخطر على النفس أوالعرض أو الجماعة، أوالدين أو الخط المستقيم، بحيث يدور الأمر بين التضحية بكل واحدة من هذه المفردات الحية في الاهتمامات الإسلامية في التشريع، وبين الانسجام مع جماعة الضغط في كلمة تقال لمصلحة شخص أوخط وفي موقف يتحرك لتأييد سلطة أووضع معين مما لا يمثل قناعة الإنسان المؤمن، فيكون التشريع لمصلحة هذه الأمور المهمة بالتزام التقية على حساب بعض الحالات الصغيرة التي لا تمثل حساب الأهمية بالمستوى الذي تمثله تلك الأمور، فلا فرق ـ في طبيعة القضية ـ بين التقية في مسألة الكفر والإيمان، وبين التقية في مسألة هذا الحكم الشرعي أوذاك أو في مسألة الوقوف مع هذا الحاكم أوذاك بل ربما نجد أن الرخصة في قول كلمة الكفر من قبل المؤمن تحت ضغط الكافر، أو في ولاية المؤمنين للكافرين تحت تأثير القهر القاتل، تجعل الرخصة في ترك الالتزام بحكم شرعي، أوفي ولاية المؤمن لمسلم منحرف جائر أكثر أولوية لأن الترخيص في المفسدة الكبرى يفرض الترخيص في المفسدة الصغرى، وهو ما يسميه الأصوليون بـ «مفهوم الموافقة» الذي ينتقل فيه الفهم الاجتهادي للنص أوللحكم الشرعي من تحريم الأضعف للتحريم الأقوى، ومن الرخصة في الأقوى إلى الرخصة في الأضعف، لأن الأحكام تابعة للمصالح والمفاسد في متعلقاتها، فتكون حركتها منطلقة من إدراك المصالح والمفاسد فيما يماثل هذه الحالة أو تلك.

٢) ـ أنه لا فرق في ضرورة الالتزام بكلمة الحق وتأييدها ونصرة القائلين بها ومواجهة كلمة الباطل ورفضها وخذلان القائلين ومحاربتهم، بين الحق والباطل في قضايا العقيدة وفي قضايا الشريعة، وفي حركة الواقع، لأن الله يريد للناس أن يقفوا مع الحق ويقولوا كلمة الحق كما يريد لهم أن يرفضوا موقف الباطل وكلمته، بل قد نجد الإصرار في آيات الله على مواجهة الكافرين والمشركين بالقتال في خط الجهاد ليكون الدين كلّه لله، وعلى نصرة الله في دينه بالطريقة الحاسمة التي لا تبلغها الآيات التي تدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل قد نستوحي من آيات المنكر والمعروف، أنها تشمل المنكر والمعروف في العقيدة، لأن مفهومها اللغوي يختزن مثل هذا المفهوم الواسع في معناه وفي ايحاءاته، فإذا كان الانحراف في داخل المجتمع الإسلامي يفرض على المسلم أن يواجه الموقف بصراحة، ويتحرك ضد المنحرفين بقوة من دون مجاملة أوتنازل، مهما كانت الظروف والنتائج، فإن الانحراف العقيدي في داخل المجتمع الإنساني يفرض ذلك أيضاً، لأن السلبيات هي السلبيات كما أن الايجابيات ـ في دائرة التقية هنا وهناك ـ هي الايجابيات.

٣) ـ إن الفقهاء المسلمين لا يوجبون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في حالة الحركة، وهو المشقة الشديدة التي قد تحصل للإنسان من سلوك معين أو في حالة الضرر، وهو النقص الحاصل للإنسان في نفسه وماله وعرضه وشؤونه العامة والخاصة، من خلال عمل معين، أوكلمة خاصة، أوموقف محدد وذلك من

خلال الآية الكريمة ﴿. . . ما جعل عليكم في الدين من حرج. . .﴾(٢٢/٧٨) ﴿. . . يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر. . .﴾(٢/١٨٥) والحديث النبوي الشريف [. . . لا ضرر ولا ضرار. . .][١١]. وبذلك يرتفع كل حكم شرعي ثابت في الشريعة عن المكلف إذا لزم منه حرج أو ضرر، وقد استند الفقهاء إلى الآيات والأحاديث في تأصيل قاعدة نفي الحرج وقاعدة نفي الضرر كقاعدتين فقهيتين في تفريع موارد الرخصة في أجواء أحكام الإلزام الحرجية والضررية.

وفي ضوء ذلك فاننا لا نجد فرقاً ـ في الميزان القرآني ـ بين التقية في المجتمع الكافر والتقية في المجتمع المسلم، في التحرك في الموقف الخاطىء في نطاق الظروف المتنوعة الضاغطة التي تحدد موضوعات الأحكام الشرعية في الرخصة والالزام، لتكون حركة الأحكام تابعة لحركة الموضوعات.

* * *

ولعل العقدة التي عاشها المسلمون السنة من مسألة التقية في الواقع السلوكي الشيعي، هي أنهم قد يرون مسألة الضغط على المسلمين الشيعة فيما يعتبره السنة حقاً، ولا يراه الشيعة كذلك، أمراً طبيعياً تفرضه الشريعة الإسلامية، فقد كان الخلفاء من الأمويين و العباسيين يعتبر ون أنفسهم الخلفاء الشرعيين على المسلمين من خلال البيعة، أو الوصية لهم من قبل الخلفاء السابقين ويرون أن على كل المسلمين أن يلتزموا هذه الشرعية، كما أن فقهاء المسلمين السنة وجمهورهم يرون في الفتاوى التي يصدرونها في قضايا الوضوء والصلاة والحج والصوم والمعاملات الفتاوى الشرعية الصحيحة، مما يفرض على المسلمين الالتزام بها بحيث يكون الانسان المنحرف عنها انساناً منحرفاً عن الشرع وعن الدين من الأساس وهكذا بدأ الضغط القاسي الذي ربما ينتهي إلى مرحلة القتل أو التشريد أوما إلى ذلك، كما حدث في الظروف التاريخية المعقدة التي انطلق فيها التشريع كحركة إسلامية معارضة في أكثر من قضية فقهية أو كلامية أو سياسية، فكانت الحركة الإسلامية الشيعية في نظرة العامة تواجه الأوضاع السلبية التي تواجهها كل حركة معارضة تمثل الاقلية في مواجهة الأكثرية الحاكمة من الاضطهاد و التشويه و الملاحقة و القمع الذي قد تتنوع أساليبه تبعاً للظروف و الأشخاص والأوضاع المحيطة بالموقف والمرحلة والمكان.

إن أية أكثرية حاكمة تخشى من الأقلية المعارضة على وجودها وامتيازاتها، ولذلك فانها تعمل على إثارة الجماهير ضدها من خلال العناوين العاطفية التي تستثير المشاعر، وتلهب العواطف، مما يجعل من عملية الحصار الفكري والسياسي حالة جماهيرية قد تعمل على تحريك الضغط بطريقة أكثر وحشية من رموز السلطة، لان السلطة ـ مهما كانت ظالمة ـ قد تخضع لحسابات دقيقة في تحديد مصالحها، ولتوازنات معقولة، بينما لا تعيش الجماهير مثل هذا التوازن لأنها تتحرك من خلال انفعالاتها ومشاعرها، خصوصاً عندما تكون المسألة مرتبطة بالحس الديني الذي يمثل في منطقة الشعور حالة سريعة الالتهاب.

إن النظرة السلبية للتقية من قبل الأكثرية المسلمة كانت منطلقة من الوضع الطبيعي الذي عاشته

جماهيرها في ممارستها لالتزاماتها المذهبية و السياسية ، بحيث كانت لا ترى هناك أية ضرورية شرعية للتقية في النطاق الإسلامي ، فلم تتعرض لحالة اضطهاد مذهبي ضاغط لتتعرف نوعية المشاكل التي يعانيها الذين يتعرضون للاضطهاد المذهبي .

ولعلنا نجد في بعض الفجوات التاريخية التي عاشها بعض العلماء من المذاهب الإسلامية الأخرى، أنهم كانوا يمارسون التقية أمام الحاكم عندما يتعرضون للاضطهاد ويواجهون الخطر على حياتهم في التزاماتهم الفكرية ، كما لاحظنا ذلك في مسألة «خلق القرآن» التي أثارت جدلاً كبيراً بين المسلمين عندما التزم بعض الخلفاء العباسيين القول بخلق القرآن لأن الالتزام بقدمه يؤدي إلى الشرك فعمل على اضطهاد العلماء الذين لا يقولون بقوله . وقد ذكر المؤرخون أن المأمون العباسي قد اشتد في امتحان الناس ولزوم إقرار الفقهاء بما يراه فجعل يرسل لعامله الكتب وكانت تزداد شدة وعنفاً وتوعيداً وكانت من نتائج هذا الامتحان أن أجاب جميع الفقهاء لذلك ولم يمتنع منهم إلا نفر قليل ، منهم أحمد بن حنبل و محمد بن نوح وأحمد بن نصر الخزاعي وأبو يعقوب البويطي ونعيم بن حمّاد وهؤلاء قد ذاقوا حتفهم لامتناعهم عن الاجابة وبقي الامام أحمد بن حنبل ولم يكن حظه كحظهم من السجن و القتل ويعلل ابن كثير ـ تعليقاً على استجابة الفقهاء الذين استجابوا للمأمون في قوله بخلق القرآن ـ فيقول : أن إجابتهم كانت مصانعة ، لأنهم كانوا يعزلون من لا يجيب عن وظائفه ، وإن كان له رزق على بيت المال قطع ، وإن كان مفتياً منع من الافتاء وإن كان شيخ حديث ردع عن الاستماع .

وهكذا نرى أن هذه المصانعة كانت لوناً من ألوان التقية الخاضعة للاحتفاظ بمواقعهم الوظيفية بعيداً عن الخطورة على الحياة وربما واجه آخرون مثل هذه المحنة الفكرية في ظروف أخرى أكثر خطورة فوقفوا نفس الموقف . ان اعتبار التقية حالة شيعية انطلقت من خلال الظروف التي عاشها الشيعة في تاريخهم القديم والحديث ، ولو عاش المسلمون الأخرون مثل هذه الظروف في مسألة انتمائهم المذهبي لرأوا أن التقية في دائرتها الموضوعية الشرعية تمثل حالة إسلامية عامة تنفتح على حالة إنسانية عامة تدفع إليها الفطرة الإنسانية في حماية الحياة والموقع والموقف والهدف الكبير وقد ينطلق سؤال آخر ، وهو : أن تشريع التقية في هذا الحجم الكبير قد يدفع إلى الفوضى في عملية السلوك الديني لدى الذين يتبعون هذا الخط ، فقد تصل المسألة إلى القضايا المصيرية التي قد تسيء التقية إلى مواقعها وعناصرها الحية بحيث قد تنتهي بها إلى السقوط . وربما يؤدي استمرار هذا الخط إلى الضياع وابتعاد الناس المسلمين عن وعي الحقيقة الشرعية ، وقد تتحول المسألة في الوعي الإسلامي إلى نوع من الخدر والاسترخاء في الواقع السياسي الأمر الذي يجعل الحركة السياسية و الجهادية خاضعة للخائفين الذين يتحرك خوفهم لينتهي إلى هاجس في الفكر والشعور والحركة ، فيبرر لهم ابتعادهم عن ساحة الصراع واستسلامهم للظالمين والمستكبرين وقد يساهم ذلك في خلق ذهنية رافضة للوقوف أمام السلطة الكافرة فيتحول الموقف الإسلامي إلى موقف استسلامي

خاضع للظلم وللجور تحت تأثير العناصر الذاتية للتقية فلا يعود للجهاد موقع في مواجهة الكفر والاستكبار، ولايعود للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع الإسلامي مجال.

ولعل هذا هوما نلاحظه من الواقع السلبي الذي يعيشه الكثيرون من الفقهاء الذين ابتعدوا عن حركة الصراع السياسي في الواقع الصعب الذي يواجه فيه المسلمون سيطرة الاستعمار الاستكباري عليهم، وتدخل الكفر العالمي في كل مقدراتهم الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية لأنهم عاشوا هاجس الخوف من الخطر في ساحة المواجهة ورأوا أن ذلك يؤدي الى إلقاء النفس في التهلكة فكانت «التقية» هي الملاذ والمهرب والمبرر للخروج من الساحة كلياً.

وقد تدفع التقية الكثيرين من الناس إلى أن يكونوا أداة قمعية في يد الظالمين عندما يفرضون عليهم التعاون معهم من أجل القضاء على خصومهم من المؤمنين الأبرياء ومن المستضعفين الطيبين فيقبلون ذلك ويندفعون إلى قتل الناس بغير حق تحت تأثير التقية بحجة شرعية يبررون بها سلوكهم الإجرامي . .

* * *

ولكن المسألة ليست بهذا الحجم في حديث الإمام الصادق(ع) وفي توجيهاته الحركية للسائرين في خطه الحركي الإسلامي، فان التقية تقتصر على الجزئيات الصغيرة التي لاتقترب من القضايا الكلية الكبيرة وتتحرك في نطاق الخط الذي يصلح أمور الأفراد والجماعات ويحمي للدين قوته وسلامته، وللخط استقامته، ولايؤدي إلى فساد في الدين أو اهتزاز في الخط وهذا هو الذي تحدث به الإمام جعفر الصادق(ع).

«وتفسير ما يتقى، مثل أن يكون قوم سوء، ظاهر حكمهم وفعلهم على غير حكم الحق وفعله، فكل شيء يعمل المؤمن بينهم لمكان التقية مما لايؤدي الى الفساد في الدين فانه جائز»(١٢).

ولعل هذه الفقرة «مما لايؤدي الى الفساد في الدين» تمثل الحد الشرعي الذي لابد للتقية أن تقف عنده بحيث لاتترك تأثيرها على الخط الفكري العام أو النهج السياسي، أو الروحية الشعبية العامة في خط الدعوة والحركة والجهاد الأمر الذي قد يوحي بأن المسألة لابد أن تنطلق في الموقف الذي إذا أدى إلى تقديم تنازلات في حالة أو وضع معين، فلا بد أن تقابله نتائج إيجابية لمصلحة الإسلام والمسلمين من خلال حالة أخرى أو وضع آخر، حتى يتوازن الواقع في حركة السرية والعلنية، لأن ذلك هو الذي يحفظ الموقف من الفساد في الدين، ولذلك فإن التقية العامة التي قد تفرضها الظروف السياسية الواسعة لابد أن تخضع لتخطيط مدروس من قبل القائمين على شؤون الإسلام والمسلمين من الذين يملكون الرؤية الواضحة والخبرة السياسية الواقعية حتى يتفادى الخط الإسلامي الاهتزاز الذي قد تفرضه التنازلات المرحلية في الظروف الصعبة القاسية.

ونلاحظ هذا التحديد في الحديث الآخر الذي رواه الكليني ـ في الكافي ـ عن هارون بن مسلم عن

مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله (جعفر الصادق(ع)) أن المؤمن إذا أظهر الإيمان ثم ظهر منه ما يدل على نقضه خرج مما وصف وأظهر وكان له ناقضاً إلا أن يدعي أنه إنما عمل ذلك تقية ومع ذلك ينظر فيه، فإن كان ليس مما يمكن أن تكون التقية في مثله لم يقبل منه ذلك لأن للتقية مواضع من أزالها عن مواضعها لم تستقيم له[١٣]. فقد نجد ـ في هذا النص ـ أن التقية ليست خطاً ممتداً في حياة الإنسان المؤمن بدون تحفظ، بل هناك تحفظات في المورد والظرف والشخص والنتائج مما يجب فيه الرجوع إلى العالمين بحدود الله العارفين بالمواقع الذي تتحرك فيه القضايا، وينطلق فيه الصراع فيكون خاضعاً للحسابات الدقيقة التي لا تترك للناس الحرية في التبريرات التي يقدمونها لأنفسهم في اعتبار هذا الانحراف الكلامي أو العملي خاضعاً لنهج التقية التي جعلها الله شريعة الرخصة للخائفين والمقهورين.

ونلتقي بعد ذلك بنص آخر يحدد فيه للتقية حدودها التي لا بد أن يقف المؤمن عندها إذا بلغت المرحلة التي تفرض عليه قتل الآخرين ليتخلص من قتل الظالم له.

فقد ورد عن الشيخ الطوسي ـ في التهذيب ـ بإسناده عن محمد بن الحسن الصغار عن يعقوب «يعني أبي يزيد» عن الحسن بن علي عن فضال عن شعيب العقرقوفي عن أبي حمزة الثمالي قال: قال أبو عبد الله «جعفر الصادق(ع)» (إنما جعلت التقية ليحقن بها الدم إذا بلغت التقية الدم فلا تقية.[١٤]. وأيم الله لو دعيتم لتنصرونا لقلتم لا نقبل إنما نتقي ولكانت التقية أحب إليكم من آبائكم وأمهاتكم، ولو قد قام القائم ما احتاج إلى مساءلتكم عن ذلك ولأقام في كثير من أهل النفاق حد الله).

وفي هذا النص نقطتان:

النقطة الأولى: إنما جعلت التقية ليحقن بها الدم فإذا بلغت الدم فلا تقية فلا مجال لتبرير أية مهمة وظيفية تؤدي إلى قتل الناس بحجة اضطرار الإنسان إلى ذلك لأنه لو لم يَقْتل يُقْتل لأن القضية التي تبرر التقية هي حفظ الإنسان حياته، وعندما تفرض عليه حياته أن يهدم حياة الآخرين فلا قيمة لها لأنها ليست أغلى من حياتهم.

النقطة الثانية: التركيز على أن التقية قد تتحول لدى الكثيرين من الناس إلى عذر شامل عن الانطلاق في الخط الجهادي، حتى لو كانت الأوامر صادرة عن القيادات الإسلامية من أجل الانتصار لها وللقضية الكبرى، في الوقت الذي لا مجال فيه للتقية أمام المهمات التي تفرضها الخطة القيادية لأنها تمثل حركة الأمة الحاسمة نحو الهدف الكبير من خلال ما تملكه القيادة لا سيما في مواقع الأمانة المعصومة. من رؤية واضحة ومعلومات دقيقة بأن الموقف هو موقف الشهادة أو التضحية أو مواجهة الخطر لا موقف السلامة والأمن والاسترخاء والبعد عن الخطر.

وهذا هو الذي يريد الإمام الصادق(ع) أن يثيره في وعي هؤلاء الناس بأن مسألة التقية ليست ذهنية تستغرق الذات في امتداداتها الواسعة بل هي فكرة تنطلق في المسيرة كحالة طارئة من حيث المبدأ في

حدودها المرسومة التي تتهاوى أمام القضايا الكبرى، ولذلك فإن الذين يتعدون عنها ويتجاوزونها يمثلون فئة المنافقين الذين لو كانوا في حالة قيام القائم لأقام عليهم حدود الله التي يستحقها المنافقون.

وقد يطرح البعض سؤالاً آخر.

لقد كانت التقية وليدة ظروف تاريخية انتهت بانتهاء الأوضاع الصعبة التي فرضتها على الناس، وبدأ الواقع يتخذ لنفسه مساراً جديداً في أجواء الحريات التي أتاحت الفرصة لكل صاحب فكر أن يطرح فكره بالساحة من دون أن يخاف اضطهاداً في ذلك، كما أن حركة التغيير التي أطلقت ثورة الشعوب المستضعفة جعلت التقية غير ذات موضوع في المسألة الجهادية أو في المسألة السياسية فلا بد من المواجهة حتى لو أدت إلى الشهادة لأن الحرية لا تتحقق إلا من خلال الدماء الحرة.

ولكن القضية في حسابات الواقع تختلف عن هذه الصورة فربما كان للمتغيرات التي حدثت في العصر الحديث بعض التأثير في اختلاف بعض المفردات الفكرية والعملية في قضايا الاختلاف الفكري والسياسي ولكن الصراع لا يزال يفرض ضغوطه على الساحة بحيث أصبحت القضايا المتنوعة في مسألة التغيير الديني والسياسي والاجتماعي والثقافي تحتاج إلى الكثير من الخطط المدروسة التي قد تنفتح على عالم من الأسرار الخفية كما تخضع للكثير من الضغوط القاسية من خلال اختلال موازين القوى في الساحة، لا سيما بعد أن دخلت قوى الاستكبار العالمي على الخط، وأصبحت تفرض نفسها على الواقع الإسلامي لتتدخل في خصوصياته لاعادة المسألة الطائفية المذهبية إلى الواقع العام للمسلمين، لتثير الفتنة من جديد لحسابات مصالحها الاستثمارية، كما انطلقت مسألة الثورة لتجعل الخطة الموضوعة خاضعة لوسائل خفية بحيث تعيش الحذر المتحرك في أكثر من موقع لحماية الواقع والجماهير من أجل الوصول إلى الهدف من دون خسائر، أو بأقل قدر ممكن من ذلك.

وهذا هو الذي يجعل التقية تمثل الإسلوب العملي المتحرك لحماية الخط وسلامة الهدف، باعتبارها التجسيد الواقعي للمرونة السياسية والجهادية التي تراقب الظروف والأوضاع بدقة وحذر لتتخفف من كثير من وسائل الضغط الجديدة في حركة المخابرات الإقليمية والدولية التي تنفذ إلى الساحة لتحتويها أو تدمرها أو تعبث فيها بأساليبها الخاصة.

ولعلنا إذا درسنا الواقع العام في الحركة السياسية في أكثر من موقع في العالم فإننا نرى التقية السياسية والأمنية تحكم كل مكان في العالم.

الدائرة الثانية: الحالة التي قد تفرض فيها المصلحة الإسلامية العليا تجاوز بعض الشروط الخاصة لبعض الأحكام الشرعية بحيث تتقدم الأهمية الكبرى للواقع الإسلامي الذي يراد حمايته على كل هذه المفردات الشرعية.

ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك صلاة الجماعة التي يشترط فيها أن يكون الإمام عادلاً في دينه حتى

في داخل المذهب الإمامي، فلا يجوز الصلاة وراء إمام شيعي لم تتوفر فيه صفات العدالة الدينية. . ولكن الفقهاء يتجاوزون هذا الشرط في صلاة الجماعة التي يقيمها المسلمون من غير الشيعة، فيجوز للشيعة الإئتمام بالإمام الفاقد لهذا الشرط في موازينهم الشرعية حفاظاً على وحدة المسلمين التي ترقى إلى المستوى الكبير من الأهمية في الحسابات الإسلامية.

وهذا هو ماركز عليه الإمام جعفر الصادق(ع) في حديثه مع أصحابه بأن يحضروا جماعة المسلمين حتى لو كانوا على خلاف معهم في المذهب[١٥].

وأخيراً لا بد من معالجة السؤال عن الربط بين «الباطنية» و«التقية» فقد لاحظنا في هذا الحديث أن التقية وسيلة من وسائل حماية الحركة الدينية أو السياسية أو الاجتماعية في مسألة وجودها في بُعدها الشامل، من خلال بعض المفردات الصغيرة على المستوى الثقافي أو السياسي وذلك بالإيحاء للآخرين بأن الجماعة، أو الفرد، قد تتكلم بشيء غير ما تتبناه حقيقة، أو بما لا تؤمن به في حركتها في الواقع من أجل التخفيف من الضغط القاسي، أو الخطر الكبير فهي وسيلة طبيعية فطرية عملية من وسائل حماية الإنسان لنفسه، أو حماية الجماعة لخطها عندما يدور الأمر بين أن يموت، وأن يتكلم بعض الكلمات التي لا يؤمن بها أو يتخذ بعض المواقف التي لا يتبناها، أو تقف الجماعة بين أن تسقط حركتها وبين أن تظهر بما لا تلتزمه من موقف أو موقع، أو شخص.

أما الباطنية فهي منهج عقائدي خاص لا يسمح لأتباعه من نشره بين الناس مطلقاً كما يختزن أفكاراً تختلف عن الخط العام الظاهر للتفكير الإسلامي في المفاهيم والشريعة والمنهج.

بينما يؤمن الذين يمارسون التقية بالإسلام من خلال الخطوط العامة التي يؤمن بها المسلمون مع اختلاف مذهبي في بعض المفردات الكلامية والفقهية، فتتحدد التقية في ظرف خاص فإذا تجاوز الواقع إلى الساحة الطبيعية المفتوحة حرمت التقية من خلال العناوين الإسلامية العامة التي لا يجوز تجاوزها إلاّ في حالات الاضطرار أو ما يشبهها.

والحمد لله ربِّ العالمين



الحواشي

---

(١) الخصال، للصدوق ج٢ ص٤١٧.

(٢) الكافي ج٢ ص٢١٩ طبعة دار التعارف.

(٣) المصدر السابق ص٢٢١.

(٤) المصدر السابق ص٢٢٣.

(٥) المصدر السابق ص٢٢٣ - ٢٢٤.

(٦) ولعل خير ما يصور هذا الواقع السياسي - من ناحية تاريخية - هو ما رواه الكليني في الكافي، عن أبي علي الأشعري عن الحسن بن علي الكوفي عن العباس بن عامر عن جابر المكفوف عن عبد الله بن أبي يعفور عن أبي عبد الله «جعفر الصادق(ع)» قال: اتقوا على دينكم فاحجبوه بالتقية، فإنه لا إيمان لمن لا تقية له، إنما أنتم في الناس كالنحل في الطير لو أن الطير تعلم ما في أجواف النحل ما بقي منها شيء إلا أكلته، ولو أن الناس علموا ما في أجوافكم أنكم تحبونا أهل البيت لأكلوكم بألسنتهم ولنحلوكم[1] في السرّ والعلانية، رحم الله عبداً منكم كان على ولايتنا (ج٢ ص٢١٨) فإننا نلاحظ أن الواقع الضاغط على الخط الفكري السياسي لأهل البيت، كان يمثل مشكلة كبرى لأتباعه بحيث بلغت مستوى الخطورة.

«١»أي «نسبوا إليكم السوء».

(٧)(٨) المصدر السابق ص٢٢١ - ٢٢٢.

(٩) وذلك فيما رواه في الكافي بسنده عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عمر الأعجمي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام يا أبا عمران تسعة أعشار الدين في التقية ولا دين لمن لا تقية له. «الكافي ج٢ ص٢١٧».

(١٠) وقد جاء في الكافي - في موضوع علاقة التقية بالاضطرار - عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي أذينة عن إسماعيل الجعفي ومعمر بن يحيى بن سام ومحمد بن مسلم وزرارة قالوا: سمعنا أبا جعفر (محمد الباقر)(ع) يقول: التقية في كل شيء يضطر إليه ابن آدم فقد أحلّه الله.

(١١) الكافي ج٥/ ص٢٩٣.

(١٢) و(١٣) وسائل الشيعة ج١١ ص٤٦٩ «نقلاً عن الكافي».

(١٤) المصدر السابق ص٤٨٣ «نقلاً عن التهذيب»(١٥) جاء في الكافي بسنده عن هشام الكندي قال: سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول: إياكم أن تعملوا عملاً يعيّرونا به فإن ولد السوء يعيّر والده بعمله كونوا لمن انقطعتم إليه زيناً ولا تكونوا عليه شيناً، صلوا في عشائرهم وعودوا مرضاهم واحضروا جنائزهم ولا يسبقونكم إلى شيء من الخير. (الكافي ج٢ ص٢١٩).



الأستاذ سليمان كتاني



الجانب الاجتماعي والسياسي من شخصية الإمام الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

إلى المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق

يطيب لي التنويه بجهد المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق، لعقدها مؤتمراً فكرياً حول شخصية الإمام جعفر الصادق، ودوره في نشر الفكر الإسلامي، ويطيب لي - في الوقت ذاته - شكر المستشارية الكريمة على تخصيص دعوة لي للمشاركة بإعداد بحث في أحد المحاور التالية:

١ - الجانب العلمي والفكري من شخصية الإمام.

٢ - الجانب الديني والفقهي من شخصيته العظيمة.

٣ - الجانب الاجتماعي والسياسي من نهجه المتين.

لقد تركت الجانبين الأولين لغيري من الأجلاء الباحثين الذين سأصغي إليهم متملياً من معلوماتهم القيمة المحصورة باختصاصاتهم العلمية والفكرية والدينية والفقهية، ولا أظن بحوثهم تلك إلا وستكون انعكاساً صادقاً عن الإمام العظيم الذي أعتبره ركناً من أركان الدين، والفقه، والعلم، والفكر، ونبراساً

أساساً في كل روعة يمكننا أن نأخذ منها مبادىء تركيزية لكل عمل نعتمده لبناء مجتمعنا العظيم.

أما أنا ـ وحصتي من البحث أرسيتها على قلمي ـ فهي الجانب الاجتماعي السياسي، وأني منذ نوطيد العزم شعرت أن العبء ثقيل على كاهلي، لأن الإحاطة بعبقري اسمه «الإمام جعفر الصادق»، ولو بجانب مجتزىء من محاوره المتعددة، تتطلب مجهوداً معمقاً بالإدراك.

إن الرجل الملمّ، والذي هو الإمام الصادق، كان وحده موسوعة علمية، وإن أسباباً وأوتاداً جليلة كانت وراء طاقاته التكوينية المتينة، ساهمت في شحن المعارف الوسيعة إلى عقله المركّز، وإرادته المعتصمة بالمران الأصيل، ونفسيته المبنية من حواشي الفهم المطلق. أشير إلى كل ذلك وأنا أحضر نفسي للدخول إلى محراب جليل، وفي يقيني أن أجعل خشوعي مسعفي، أدفعه أمامي، وأنا على بوابة المحراب أقول: سبحان الله الذي زيّن عملاقاً من عمالقة خلقه بموهبة بليغة تسوّرها محيطات الجمال.

مقومات البحث

أولاً ـ اعتبار الإمام جعفر الصادق اسماً مؤلفاً من ثلاث كلمات بثلاثة مداليل تتوحد متلازمة في إخراج هذه الشخصية العظيمة.

أ ـ الإمامة هي الجلباب، وأكاد أقول: «السحري» ـ إنها إطار بحد ذاتها، تتناول من يرتديها وتلفه بكل شعاع ينبعث منها ـ إنها قضيب من ضلوع الرسالة التي طرحتها عبقرية الإسلام.

ب ـ جعفر هي الكلمة الوسيطة في استيعابها البنية الذاتية الضئيلة اللحم والدم ولكنها أصبحت مركز الثقل في بروزها النامي المحقق شخصية متينة الحواشي ـ أما تجلببها بالإمامة، فهو الذي تم به تطريز الإخراج والتوجيه في تنسيق قوى العقل المتين الذي ازدان بالعلم الغزير والرؤية الصافية.

جـ ـ الصادق ـ كلمة وصّافة، إنها الصباغ العجيب، أفرزته الإمامة من غِدّتها، يندغم به العز: يضفي على «جعفر» كينونة مصبوغة بلون الأهداف الكبيرة التي عينتها رسالة الإسلام.

ثانياً ـ اعتبار كل طاقات الإمام جعفر الصادق ـ وإن تكن منوعة المواهب والمجادل ـ موحدة المقصد والاتجاه والمخرج، وهي تصب كلها في بوتقة واحدة هي بوتقة الاجتماع.

ثالثاً ـ اعتبار «الإمام جعفر الصادق» خطاً سياسياً قائماً بذاته، ولكنه ملون بولائه الإمامي في إدارة شؤون الأمة وصيانتها من الضياع والهدر.

تمهيـــد

إن الإسم المثلث الأركان هو «الإمام جعفر الصادق» ـ ولقد قلت بان الاسم لا يفرط، فبالملازمة يتم التعـرف إليـه رجـلاً عظيماً لبس الإمامة وتجلبب بها، فازدانت صفاته، وتمتن عبقريته، وتوضحت أهدافه، فإذا به ظاهـرة نادرة المثـال بإحاطتها العلمية، والفكرية، والأدبية، والبيانية، والتي كانت كلها شفيعته إلى إجتـماعيـة رائعـة التـوجيه، وعميقة المؤدى وكانت أيضاً وسيلته في تمكنه من جعل بلاطات الحكم المتشبث بجبروت الظالم المتعدي، تنحني لائنة أمام وقاره المهيب، مفسحة له مجالاً لتحقيق سياسة بساطها العلم الوسيع، وطياتها تحضير ثقافي منيع يؤدي بالمجتمع إلى اكتشاف طاقاته الإنسانية الرائعة.

أسباب وأوتاد تجمعت حول الاسم المثلث الأركان، فإذا كان لنا الآن ابتغاء التملي من التعرف إليه، فلا بد من استشراف مفتوح يلم بهذه الأسباب والأوتاد التي انجدلت وأخرجت هذه الشخصية بهذا اللون وهذا المثال.

سيكـون الإشـراف المفتـوح هذا مطـلاً على الـرسـالـة والإمامة اللتين هما ركنان جليلان من أركان الإسلام، ولن يكونا ـ أيضاً ـ غير ركنين جليلين بنيت عليهما وبهما شخصية «الإمام جعفر الصادق».

بهذين الركنين نستهل بحثنا المفتوح:

تبسـيط البحـث

أولاً ـ في الرسالة والإمامة

أقـول: إن الإمـامـة بمعنـاها العظيم ومحتواها العميم، هي المظلة المستريحة، تنشر فيئها من ضلوع ستائرها: فهي المظِلَّة، وهي المُشعَّة في آن واحد ـ لقد حُبكت حبكاً متيناً، حبكتها الغاية والحاجة، لتكون فيهما كل الوقاية ـ إنما الرسالة العظيمة المفجوجة من مطاوي الحق، هي التي حبكتها من ضمير الاحتراز.

هكذا فلنعتبر الإمامة تحضيراً خطيراً لتعهد رسالة ما ولدت من غفلة الأيام، بل من احتكاك مفتون بمصدر الالهام، ما ولدت لتنظيم ساعة واحدة من عمر الزمان، بل تنظيرٍ مبينٍ يدغم عمر الزمان بعمر المكان.

يا للرسـول العظيم، يخشـع في غار حراء، حافـراً ساعـات الزمان على جدران المكان، فإذا بسقف الغار وصلة أرض بسماء، وإذا بإنسان الجزيرة ينفض عن بدنه الغبار، ويروح إلى تحقيق ذاته بتوسيع ذاته.

ويبرز إلى نور مجتمع جديد كان ينام بين سرابين: سرابٍ من مكان، وسرابٍ من زمان وتعتز الرسالة بأنهـا أنهضت أمـة طال نومهـا تحت الـرمـاد. وأن الحقيقة لتقال: من أجل الأمة جاءت الرسالة، ومن أجل الرسالة تبعث الأمة ـ إن الرسالة ـ الأمة أو الأمة ـ الرسالة، هما الكلمة الموحَّدة، في ضمير النبي العظيم،

والأمـة هي المجتمـع الإنسـاني، والـرسـالـة هي الحق الـذي لا يفتأ يبنيه، والإنسان هو الذي يقرأ الرسالة فيحييها إذ تحييه، وبه ـ عمياً ـ تنشل الرسالة، ولكنه ـ بدونها ـ تنشل مآتيه. ولكن إنسان الأمة ـ وهو إنسان محمـد الـرسـول ـ عمـره في بال محمـد من عمـر العميق من الدهور: إنه إنسان هذه الأرض، أرض محمد، أرض الغـار الـذي انـدفقت من سقفـه كل النجـوم وأضـاءت عقل وروح محمد، إنها الأرض الطيبة، لقد أنشأت عبر التاريخ، الإنسان الطيب الأرومة، إنه إنسان محمد، إنسان الأجداد الذين انداحوا فوق كامل هذه الأرضـة وامتـزجـوا بها فأخصبتهم وأخصبـوها، فكانت أمّاً لحضارات عريقة تلقحت بها كل أمم العالم القديم، وأظنها حتى الآن لا تزال تنعم باللقاح، ولقد كانت حضاراتهم أنيقة، أشرقت بأبجدية الحرف: زراعة، وسفناً، ورصداً للنجوم، وعلماً، أكان فيزياء، أم كيمياء، أم صناعات شفت بالزجاج، أم طباً، أم أرقـامـاً تكشف بها فنـون الهندسة في ضبط الداميك ونقش الحجارة بالشاقوف والازميل، وتوظيف عمليات الجـبر والحسـاب، والاستعـانـة بالنـار، وتحـديد الأرض بعلوم الجغرافيا المنقوشة بالاصطرلاب، والغوص بالفكر إلى حدود الفلسفة.

أليس هؤلاء كلهم هم أجـداد محمـد: من بابليـين وكلدان وآشوريين وأموريين وكنعانيين ـ فينيقيين وآراميين زينوا الحرف الذي نطق به المسيح بن مريم، الرسول الذي خلت من قبل الرسل؟

حقـاً إنهم الأجـداد الطيبـون المـوصـولـون ببـال محمد وصلة الأرض بغار حراء، وهم الجذور الذين يستمرون موصولين بالأمة مهما عمق الزمان، ومن أجل الاستمرار بها أمة خيرة هادية، تم انسكاب الوحي عليه برسالة تجمع الأمة وتنـدغم بها، وتنشلُّ ذريعاً إذا فك الاندغام.

هكذا تم فعل الرسالة بمعجزة شدت بها الرسالة، فهل من الممكن أن لا تهتم الرسالة بتوفير الصيانة لمجتمع ولد جديداً فوق ساحات وسيعة، ما كان يضنيها إلا غبار عصفت به رياح من غبار؟

ولكن الـرسـالـة ـ منـذ أن أطـل بها العهد من غار حراء ـ وهي تهتم بجدل زنار واق تزنر به خصر من يتمكن من امتصاصها واستيعابها: علماً وحقاً وفهماً وإدراكاً ـ وبالتالي ـ غوصاً بارعاً في كنه القضايا المحققة وجود الإنسان. سيشد هذا المستوعب خصره بالزنار الذي حبكته له الرسالة.

وهـا هي الـرسـالـة تتوقف يوم الغدير، أو فلنقل يوم حجة الوداع، وفي يدها الزنار الذي نسجته من جهدها، لتشد به خصر فتاها المنشود ـ إنه الآن المقتدر الأمثل، منذ هذه اللحظة أصبح المقتدر الأمثل، لأن المسؤولية الكبيرة وشحته بهلالها الأمثل، لأنها أعلنته ـ باسم الإمامة ـ أول مستوعب، وأقدر منتهج، وهو، بعـدَ خلو المكـان، أول متعهـد لاستئناف السير على دروب المكان، لأنه المسؤول الأول عن كيفية التسيير والتنظيم ـ تماماً ـ كما هي الـرسـالـة التي فهمت كيف تبني المكان، وكيف تحتوي الزمان، وها أن التاريخ قد أضحى يعلم أن من يحمل السيف ذا الفقار هو الفتى الأنجب والأمرن والأعلم والأدرى، لأن الرسالة قد اشتقته من ضلوعها ليكون بها بوابة وسيعة من بوابات العلم، ورمحاً أسيلاً من رماح الحق، ومنهجاً قوياً من

مناهج النور، ووصلة بهية من الوصلات المحتكة بالمصدر.

كأنني وصلت ـ وأنا أصور زنار الإمامة ـ إلى لب ما أحاول تفسيره مشفوعاً بهذا القول: ما استنزلت الرسالة العظيمة إلا مرتبطة بأهداف جليلةٍ محصورةٍ حصراً بليغاً ببناء أمة تكون بحق رائدة وهادية لكل أمة من أمم الأرض ـ إنها أمة الفتى العظيم الأمين محمد، هو الوافد إليها من خلف كل أحلامها وأمانيها العتاق، لقد استشرف ـ بعقله المختوم بعمق الدهور، وبخياله المفتون بنور مشقوق من مدارج الفيض ـ كل هذه الأحلام، وكل هذه الأماني، فوجدها تنساق أمام استكشافه المؤمن بعطاءات ربه العليم.

إن الأمة ـ والحقيقة الراهنة هذه ـ هي اهتمام الرسالة المندغمة بها، وأن تحضير الإمامة بالعقل الممتن بالحق والمعرفة، يمتن القيادة ويجنبها العثار.

إن المركز الحصين هذا، والذي هو ـ بكل مقصد الرسالة ـ حرز واق، وزنار متين ـ إنما هو بحد ذاته جلباب من مهابة، لا يكاد يرتديه المهيأ له، حتى يتم له شعور بأنه هو المسؤول الأول المعصوم.

أتراني قد أفصحت بالكلمة عن مداليل الإمامة؟ ولكن في كنه الإمامة كنوزاً مدُّخراً لا يتم الوصول إليها بإشارة من بنان، بل بتعمق مشدود إلى مدى آخر فيه كثير من بدائع الوجدان، وها إني أفسر القول: الإمام علم من علوم النفس الزكية، تفتش به عن كل ما يوسع مداركها من حق وخير وجمال، لأن الصفات المميزة التي هي من احتباءاتها، ستكون وفيرة لديها من وجوب إحاطتها بمجمل العلوم والمدارك، حتى يتسنى لها شرف النشر، وشرف البذل، وشرف السخاء. تلك هي مقوماتها المفروضة عليها للاكتمال، تغدقها عليها الرسالة، وتلك هي شروط السياسة، توفرها الرسالة تحقن بها عزم المتسلم تسديد خطوات الأمة، بتقويم الإنسان وتصويبه بجلاء البصيرة.

تصبح الإشارة إلى حقيقة الإمام أبلغ، ونحن نصوبها الآن إلى الإمام جعفر الصادق ـ وها إننا نعرِّف عنه تعريفاً بسيطاً بهذه النبذات القليلة المتناسبة مع اقتضاب البحث:

تناول بنيه جسده النحيل من دورة الدم في جسم أمه المدعوة «فروه» ـ ولقد صبغت هذه الأم بياض عيني هذا الجنين، وهو في لطوة من أحشائها، بزرقة، أظنها استحلبتها من عصارةٍ قد تكحلت بها عيناً كلّ من جدتيه الاختين الأميرتين الفارسيتين ابنتي ملك فارس يَزْدَجَرْد ابن أنوشروان ـ الجدة الأولى هي أم جده زين العابدين، والجدة الثانية هي جدة أمه «فروة» بنت القاسم.

وتناول بنية عقله وروحه من سلسلة خط الإمامة، ابتداء بجده الكبير الإمام علي بن أبي طالب، وتسلسلاً عبر العم الإمام الحسن، وجده الإمام الحسين، ومن ثم عبر جده الإمام زين العابدين، فأبيه الإمام الباقر. إنه سادس الأئمة ـ لقد مرت عليه خمس تجارب، أوفلنقل خمس حقب، وكان لكل تجربة لون الحقبة التي حضنتها ودفعتها إلى حلبات الصراع.

ولكن أية حقبة من هذه الحقب، لم تلون الإمامة إلا بلون مقهور. . . فالإمامة التي كانت موصوفة في بال وضمير المشترع العظيم، بأنها خلافة له، بعد ارتحاله عن المكان، لتكون استمراراً تنفيذياً لمقرّرات الرسالة، خسرت كثيراً من مقوماتها الأساسية ـ راسا ـ أثر خلو المكان من صاحب الشأن، ولعبت بها الأهواء في رقصات عدائية، أبرزها وأشرسها: سفيانية ـ حربية ـ أموية، ضد طالبية ـ هاشمية ـ نبوية الانتساب، فتحولت الخلافة من كرسي رسالي نبوي، إلى كرسي قبلي غير طالبي، على الرغم من أن الرسالة نحُت القبليات ووحدت القبائل، وجاهدت العصبيات وعصرتها في واحدة، لمصلحة المجتمع الموحد الذي هو أمة ورسالة.

لا أظن أنه كان من الجائز أو المستطاع أن يلغي النبي العظيم انتسابه الطالبي، مع أن الرسالة أعلنت ذاتها أنها الأمة بأكملها، بكل ما فيها من حبات رمل، بكل ما يظللها من سماء، بكل ما تحتويه من تاريخ الجدود الغائرين في خضمات الماضي المستقيل، بكل ما ينتظرها على صفحات الغد من عز وكرامات سيوفرها لها الوعد الكبير المخبأ ضمن دفتي قرآنها الكريم الذي تسلمته مفتوحاً على راحتي باعثه، ومغزولاً بعينيه، ومنقوشاً بخياله الفسيح. لقد اعتزت الأمة به، وراحت تفاخر أمم الأرض بأن لها كتاباً مجيداً تتفيأ به أمم الإسلام.

أجل ـ لم يكن لا من الجائز ولا من المستطاع أن يبتر النبي الجليل كلمة واحدة من هويته الكريمة، وكان من المستطاع الحزين، أن ينخدع صحابيون أفاضل، فيزعزعون صكوك الإمامة، ويزورون مقعد الخلافة، فتصبح الإمامة كرسياً مسلوب المقومات.

هكذا أقعد الإمام علي عن تتميم مسؤولية الإمامة فخسر الخلافة بمقعدها السياسي الفارض والمنفذ الأحكام، وبقيت له الإمامة يكسب منها ما لا تزال تتبلغ به حتى اليوم أجيال الأمة، وهي تقلب صفحات كتابه الثمين نهج البلاغة.

وهكذا أقعد الإمام الحسن عن تتميم مسؤولياته الإمامية، فترك كرسي الحكم حقناً لدماء الأمة، واتقاء لهدر مجاهديها في صراعات قبلية تفسخها وتشلها بالأحقاد.

وهكذا أقعد الإمام الحسين عن تتميم مسؤولياته الإمامية، راضخاً للواقع الكئيب، وبدلاً من أن يستجير بالقبلية لأخذ الثار الذي لا تنتهي جاهلياته العنترية ـ العبسية ـ الكلبية ـ الجساسية ـ التغلبية الانتساب، راح إلى اعتياد العنفوان النفسي الذي أوصله للشهادة.

ويصل الدور إلى الإمام الصادق، والمحنة لا تزال مستمرة بانتقال الخلافة من طور سفياني ماكر الأموية، إلى طور عباسي غمّاز العين وغدّار الطوية ـ لقد ابتداء العهد هذا بالسفاح واستمر بالمنصور.

ولكن الإمام الذي قابل العهد بصمود وفرض مهابة، إنما هو الذي شدت إليه الإمام صدرها الركين، وخلعت عليه وقاراً من بردها، وإزاراً من مهجتها، وعيناً كشافة جوّابة من عمق سناها، فإذا به ـ في

باحـات الازديـان ـ رجـل مطـوى على طلقـات ومفـاعـل لم يتحـلّ بمثلها إلا بضعة قليلة من أعلام الفكر والحجى في دنيوات الإنسان.

لقـد توقفنـا منـذ لحظـات سابقة عند اسم أمه «فروة» بنت القاسم، وقد نقلت إليه ـ وهو في الرحم ـ صباغاً لعينيه من عيني جدتيه الأميرتين الفارسيتين المثقفتين، وتلك كانت دلالات أولى حملت مسبقاً رمزاً لاشتقـاق الـرجـل من كبـد الأعالي، وسيصيب تفتيق الرمز واستجلاؤ ه عندما نعلم أيضاً أن أباه هو الإمام الخامس، وفي اسمه يتخبأ معين غزير، نهل منه الفتى، وهو في حضن أمه، دلالاً عزيزاً، ووعداً كبيراً تدلل به جبينه الأغر ـ إنه وعد بنقل الإمامة إليه بعد التحاق أبيه بالأسبقين من أجداده الأولياء المنتهين إلى واضع الـرسـالـة ومكفكفها بالإمامة المنسوجة بخيط من خيوط القرآن. إن اسم الأب هو «الباقر» أي مفجر العلم من موارده. ولقـد تمكن الإمـام البـاقر ـ بمهابته العزيزة الوقار ـ من الانسلال من بين خطوط النار، يسلطها على الطـالبيـين حفـدة ملوك العهـد الأمـوي المشـرف الآن على الـزوال، ومفتتحي العهد الثاني، يدشنه الفاتك السفاح.

لقـد تمكن البـاقـر من إنشـاء مدرسـة تعهـدها بعلوم القرآن، والحديث، والفقه، والفلسفة ووسعها بالعلوم التي كانت قليلة الوفر في ذلك العصر، منها: الفيزياء، والكيمياء، والحساب، وعلم النجوم، وعلم الجغرافيا ـ وكانت كلها ترشح من الجوار المفتوح على اقتباسات تتسرب من الفرس واليونان الذي اقتبسوها عبر المـاضي السحيق عن أجـدادنـا الـذين نقلوا إلى العـالم القـديم حضارة الحرف والمحراث والمجذاف، وزرع اللون في قلب النول وعلى صفحات الزجاج.

لقد تلقفت المدرسة الباقرية ابنها جعفر الموهوب، فكان أولاً، تلميذها المتفوق، وآخراً استاذها المشار إليه بالبنان.

أمـا الإمـام الـرابـع، فهـو علي بن الحسين، المكنى بزين العابدين ـ إنه عزيز وقور، علّم ابنه الإمام الباقر كيف يعتصم بالحق، والمثل الكريمة، ونبل النفس، ولين العريكة، حتى ينجو من قبضات الظالمين الغـاشمـين، فيتمكن من خدمـة الـرسالة واستئناف القيام بأعباء الإمامة. لقد اشتُهر الإمام زين العابدين بتقواه البريئة، وورعه الأمثل ـ إن الصحيفة السجادية تشهد له بالتحضير النفسي المتلاشي في نقاوة الوجدان.

مدرسة الإمام جعفر الصادق

لم تكن المدرسة الجعفرية في خطها التعليمي إلا تكميلية لمدرسة أبيه الباقر، لقد كانت العلوم كلها في المـدرسـة البـاقرية ابتدائية اختبارية، رسخها الإمام الراحل، بنسبة ما سمحت له سياسة العهد الجديد في بغـداد ـ لقـد كانت سياسة العهد هذا حريصة في ظلمها الاستبدادي على ترك العلوم والشؤ ون الفكرية ـ الفلسفية، والفقهية، والتثقيفية في عهدة الطالبيين أبناء العم، على أن تكون الأمور التوجيهية محاطة بكثير

من المراقبة، فلا تمس سياسية الدولة في تمتين كرسي الخلافة الآخذة حديثاً بالانتقال من الأمويين المنهزمين إلى قبضة فولاذية عباسية سفاكة ـ لقد ظَنَّ العباسيون أنهم موالون لخط الإمامة، وأنهم المهتمون منذ أكثر من تسعين سنة برد الخلافة إلى خطها الأصيل، والمحصورة بأهل البيت ولكنهم، ما إن باد عهد وبرز عهد، حتى راحوا إلى نكث المواعيد، وعزموا على الاستئثار بالحكم ودمغ كرسي الخلافة بختم أبناء العم، بحجة أنهم كلهم طالبيون، والأقوى هو الأولى.

هكذا اصطبغ الجو ببؤس جديد جمد الإمامة في هلعها القديم، وجعلها تستجير ببقيّتها، وتتلابق ـ ما أمكن ـ بتعزيز مركزها الإمامي، وملئه بكل ما يثقف الأمة ويوجهها إلى احتواء الحق كتعويض لها، حتى يأتي يوم تتمكن فيه من تحقيق ذاتها تحقيقاً آخر. تلك هي الظروف في سماحها لمدرسة الباقر بالاستمرار، والاتساع المثابرة.

أما المدرسة الوارثة الجهد، فإنها انتقلت إلى فخامة أخرى، تحررت من كل المحاذير، وانطلقت وسيعة إلى المضمار. لقد كان العقل المتين رائدها المتين. ولقد كان العزم المتين، إنها الشخصية المتينة الحواشي، والمطمئنة في باحات ذاتها المتينة، فرضت جلالها وتقدمت إلى الميدان، فإذا هي مهابة لم يخضع لها ـ وحده ـ السفاح الذي طواه سريعاً رداء الموت، بل خشع لها أيضاً خليفته المنصور المثبِّت قوائم كرسي حكمه، قائمة في جرن من لين وقائمة ثانية في بئر من دم، وثالثة في لطوات من وعد، ورابعة خلف ميثاق مقطوع منه حبل الوريد. لقد كان ـ رحمه ربه ـ رزمة من ظلم، وكذب، وختال، وقلّ له أن صدق وخفر الذمام، إلا أرزاء جعفر الصادق، المرخي عليه عيناً وسيعة الحق، بهية الشفق، عميقة العلم، وصادقة الرؤى.

لقد كان كل ذلك عند الإمام مُركَّزاً على صدق متين لم يتمكن المنصور إلا من أن يُؤثَر به، فتركه ـ وهو مقتنع وواثق بصدقه ـ يكمل خطه الرسالي في مدرسته المثلى. لقد اقتنع المنصور، عن فهم وإدراك، أن الإمام جعفر لا يريد أبداً «تلويث» خطه الواسع بأي مطمع بكرسي الحكم، ولقد أفحِم المنصور بأن السياسة عند الإمام إنما هي فن آخر يبعده إلى مطلق سفيّ، لا لون فيه للسياسة التي يحترفها نهج المنصور.

كثيراً ما تمتن اقتناع الإمام بأن العهد الجديد الذي هو عهد الأعمام بني العباس، هو أقسى ظلماً، وأشد عطشاً إلى شرب الدم من العهد الأموي السابق الذي كان تهديداً بشعاً بإبادة الطالبيين، وها هم الطالبيون الآن بالذات، مهددون بالافناء، إن لم يتداركوا أنفسهم بسياسة مرنة تبقيهم في الخط، وتبقي لهم إمامة ـ ولو مقلمة الأظافر ـ يتعهدونها بعين الحكمة وعين الروية، ويعبر ون بها عن نشاطات كثيرة البراءة، وقويمة العزم، تتناول الأمة فيها غذاءها الحي، حتى يأتي يوم تجد ذاتها فيه أنها مثقفة أنيقة. . . وعندئذ فإن لها قدماً متينة تمشي بها إلى التحقيق.

لقد كان الإمام يدرك أن الأمم الحية تبني بناء حياً، وأن الاستمرار هو الذي يكون مادة من مواد

البناء، وأن التحقيق يأتي يوماً بعد يوم، من دون أن يخيفنا القول: أنه يأتي حقبة بعد حقبة، أو دهراً بعد دهر، تأكيداً لما تفوه به الإمام علي: جولة الباطل ساعة، وجولة الحق إلى الساعة.

هذا هو ما جعل الإمام صادقاً في قناعة المنصور، بأن كرسي الخلافة ليس مقعده، وأن السياسة ليست أبداً خطه، من دون أن يلحظ المنصور أن السياسة الأصيلة بمعناها الصحيح والأصيل، لم يتخل - مطلقاً - عنها الإمام، فهي محصورة، ضمناً وفعلاً، في خط البناء المركّز على تثقيف الأمة مع أي مجال ولو طال، ولن تتم الثقافة إلا بنشر العلم المنتج كشفاً عن كل الطاقات المادية والروحية على السواء، والتي تسدد اقتصاد الأمة وهي تمتن بلوغها المرتاح، ينوره الفكر وحرية الفكر، والفهم وقدسية الفهم، والمعرفة وسع المعرفة، والمران واستمرار المران.

حتى ولو أن المنصور تمكن من هذا التفهم لحقيقة سياسة الإمام، فإن ذلك - أيضاً - كان من مبتغى الإمام، لأن مثل هذا التفهم قد ينقل المنصور من ظالم غاشم، إلى حاكم يرعى مهام العلوم وهي تنقل الرعية كلها من جهل عقيم ومقيم إلى وعي ينهض بها وئيداً نحو جعلها هادية وملبية شوق المشترع العظيم. ربما كان بعض من هذا التفهم قد استحازه المنصور، فترك الإمام يوسع المدرسة الموروثة عن أبيه الباقر.

هذه إلمامة بنوع السياسة التي اعتمدها اقتناع الإمام، وهي التي كانت سناده في توسيع المدرسة الجعفرية التي كانت رائدة ذلك العصر، ورائدة العصور التي تلتها حتى اليوم.

توسيع المدرسة الجعفرية بعلومها الاختبارية والنظرية

إن المدرسة الجعفرية التي وصفتها منذ لحظات، كانت مجرد مسجد بسقف وحيطان يلتم في أفنيته في مدينة يثرب، طلاب ورواد، وكان الإمام جعفر أستاذهم الأوحد والأمثل يتبسط أمامهم بالعلوم الاختبارية: كالفيزياء، والكيمياء، والطب، وعلوم الجغرافيا، إلى جانب غوص آخر في العلوم النظرية، ومن أبرزها: الفلسفة، وعلم الحديث، والفقه، والبيان، وإلمامات وسيعة بالشؤون الفكرية - الروحية المنفتحة على حرية إبداء الرأي، تضبطها كلها الموازين الدقيقة، ومن أحرصها التسجيل والتدوين.

إن وسع المعرفة عند الإمام، والتركيز العقلي المتين، وصفاء الذهن تدعمه ذاكرة «رادارية» اللمح، مقلوبة عن عدسة بلورية التسجيل، كل ذلك هو الذي وسّع المدرسة وفتح حيطانها وأفنيتها، وجعلها جامعية موسوعية المعارف، وها هي - حتى الآن - تعيش بأسماء من خرجت: كهشام بن الحكم، وجابر بن حيان، ومالك بن أنس، وأبي حنيفة، مع عدد وفير من التلامذة الذين فاق عددهم الأربعة آلاف، وهؤلاء كلهم قد التزمت مدرسة الإمام بإعدادهم للانطلاق إلى كل دائرة يزيدون من توسيعها مع مطالع الأيام.

أما علوم المدرسة الجعفرية، أكانت اختبارية تفتش عن توسيع أرقام معادلاتها، أم نظرية تحاول تقصير كلماتها، فليس لي أن أحقق بأي ضلع من ضلوع مستوياتها، لأنها واقعة في حصة غيري من الباحثين، ولكني - بالوقت ذاته - أشير إليها بجدية بالغة العمق، لأني أعتبرها كلها في الخط الموحد مع الجانب الاجتماعي والسياسي الذي هو هدف الإمامة الثابت منذ انبثاقها من ضمير الرسالة.

ثانياً - طاقات الإمام وتوحيدها من أجل الاجتماع

تلك هي إشارات شديدة الاقتضاب، إلى مجمل العلوم التي تركزت عليها مدرسة الإمام، ما كان لي أن أجهد النفس في جمعها وتسويقها، لولا اعتباري أنها جانب جليل من بين الجوانب الوسيعة التي تتألف منها شخصية الإمام. ويعني هذا القول أن العلوم الاختبارية التي عالجها الإمام، كانت رديفاً للعلوم النظرية الأخرى التي انبنى بها وزنه، مع العلم أن كل مادة من هذه العلوم الاختبارية هي فرع وسيع قائم بذاته، ولا تتم إحاطة ما، بمحتواه، إلا بالاختصاص المتنسك، بينما نرى الإمام الكريم قد جمعها كلها إلى عبه، وزينها جميعها بالعلوم النظرية التي راحت تفسرها وتأتلف معها في الأداء والإخراج.

ما كانت فلسفة الإمام إلا بحاجة إلى العلوم، وما كان علم الإمام إلا بحاجة إلى فلسفة توسع له الطريق، أي أن العلم يحتاج إلى فلسفة تفتش عنه حتى يتم الوصول إليه، أي - بشكل أوضح - أن الفلسفة، في رأي الإمام، تسبق العلم الموصل إلى إكتشاف الحقائق، فهي المحرضة والمفتشة عن نور العلم قبل أن تحقق - هي - أي شعاع من أشعته الكاشفة.

هكذا ربط الإمام فلسفته النظرية بتحقيقاته الاختبارية، ووجه كل طاقاته الذاتية نحو هدف كبير مخبأ خلف مدى عينه الإمامية المنبثقة النور من مهجة الرسالة التي هي تحقيق مجتمع الإنسان الهابطة من أجله آيات الرسالة.

لقد تم لنا في ما سبق من مقدمات هذا البحث، أن لمحنا إلى أهمية الإمامة، كيف أنها لزوم إحاطة روحية وفكرية متينة التركيز، يتجلبب بها كل من تنتهي إليه، ولقد لمحناها - بكل انعكاساتها على كل واحد من فتيانها العظام - كيف كانت ابتكاراً في توجيه الأمة توجيهاً ملوناً بأحداث العصر. لقد قدم كل إمام للأمة ما تستعيض به في مسيرتها المقهورة، وكان تثقيف الجماهير من أبلغ اهتمامات كل إمام - بمفرده - كذخيرة تصلح وتمتّن البناء والتوجيه.

ها هي الأمة الآن بين يدي أعز خبير من خبرائها الطيبين، وهو المدرك تمام الإدراك أن العلم الكبير هو الباني الأفخم، والرازم الأولى لمداميك المجتمع، وأن الكلام المنمق - وحده - لا يبني، ولا يكفي، وأن

الفلسفة التي هي كلام وتنظير ـ مهما يكن لونها ـ وعمق مداها ـ لا تفيد، ما لم تقترن بشوقها الحار المفتش عن العلم الذي هو عطر الزهرة الهاجع فيها والمشع منها.

من أجـل المجتمـع الـذي هو أمـة في الـرسـالـة، ورسالة في الإمامة، شحن الإمام كل قواه الفكرية والـروحيـة، وأعني بها كل طاقـاته النظرية والاختبارية، وراح يوحدها في رزمة واحدة لتسديد الجهد الكبير الهادف إلى رفع مستوى الأمة التي من أجلها صيغت كل الروابط المشدودة لبناء الإنسان الذي هو عصب الرسالة الأمجد والأروع فوق ساحات الأرض فلنستمع ملياً إلى كل هدف من أهداف الإمام:

ـ اطلبوا العلم ولو بخوض المهج وشق اللجج.

ـ اكتبوا ـ فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا.

ـ اكتب، وبثّ علمك في إخوانك، وإن مت فورث كتبك بنيك.

ـ إن لم تكونوا حملة العلم وناشريه بين الناس فكونوا حفظة له.

لقـد كان ـ بهذا القـول ـ أشـد من عول على العلم، وأول من ارتأى ضبطه بواسطة التدوين، وأول من أدرك أهميته واعتباره إرثاً، وأوصى به موروثاً مع أعقاب السنين.

ومن أجـل المجتمـع رزم كتبـه في الأخـلاق، والأدب، والأحكـام: الكافي، ومن لا يحضره الفقيه، والتهذيب، والاستبصار... وهكذا تم تدوين كثير منها، ومن بينها ما يتعلق بالعلوم التجريبية والنظرية.

ومن أجل المجتمع أطلقت مدرسة الصادق حرية الرأي، فانتشر المذهب الجعفري جنباً إلى جنب، مع البحوث العلمية، ولا غرو في ذلك، فالمعارف الجعفرية كلها كانت مبنية على أربعة أصول: المذهب، الأدب، العلم، العرفان.

ـ أما الأدب فهو اللباس الأنيق للعلم والفكر.

وهو قيمة جمالية، والأدب، قد لا يكون علماً.

ولكن ـ لا علم يخلو من أدب ـ وأن المجتمع السليم.

يقوم بتحلي أفراده بالعلم والأدب.

واحتراماً للأدب كان يخصص جائزة لأي صاحب نص أدبي مميز، بواسطة لجنة خماسية، يحكم ثلاثة منها على الأقل، لاستحقاق الصنيع.

ومن أجل المجتمع أعطى دروساً في علم البيئة واختصرها بهذا القول:

على الإنسان ألا يلوِّث ما حوله لكي لا يجعل الحياة شاقة له ولغيره.

وهـا أن علماء البيئـة اليـوم، يرون صحيحاً ما سبق ونوه عنه الإمام الصادق في ذلك العصر، وراحوا يتعهدون العمران بالنظافة، وتوسيع نوافذ البيوت لوصول الشمس، وإنشاء المغاسل والمجارير لتأمين مثل هذه الصيانة.

ومن أجل المجتمع ورفاهيته نهى عن التصوف والانعزال، وراح يتنعم بخيرات الدنيا، ويلبس جبه من خز وتحتها قميص من خَشِن الصوف وهو يقول للمستفهمين عن معنى السلوك:

- خير لباس كل زمان لباس أهله.
- ألبسُ الخز لاستقبال الناس.
- وألبسُ الصوف إحياء لتقوى جدي الإمام علي ابن ذلك العصر الخشن..
- إنه الصوف، لله والعبادة.
- وأن الله - حين خلق الطيبات - منح الحياة نعمة الخير والجمال.
- أوترون الله أحل لكم الطيبات وهو يكره أن تأخذوها؟.
- إن الله يحب الجمال والتجمل، ويبغض البؤس والتباؤس.
- إن الله إذا أنعم على عبده بنعمة، أحب أن يرى أثرها عليه.
- البسْ وتجمَّل، فإن الله جميل ويحب الجمال - وليكن من حلال.

وهكذا كان الإمام يكره أن يكون متصوفاً أو مرائياً وهو:

ينظف ثوبه، ويطيب ريحه.

ويجصص داره، ويكنس أفنيته.

لأن الواقعية في الحياة هي صاحبة الشأن في اجتماعيته الصادقة، وإنسانيته المطمئنة إلى رسالة يشُوقُهَا - أبداً - بناء وتعزيز الإنسان.

وأخيراً، من أجل هذا المجتمع الذي آلي الإمام صادقاً أن يلبيه، أجمع له هذه القبضة من اجتماعياته المثلى، وحكمه المنثورة في تحف العقول:

- أصل الرجل عقله، وحسبه دينه، وكرمه تقواه.
- التدبير نصف العيش - التودد نصف العقل، ولا زاد أفضل من التقوى.
- لا عدو أضر من الجهل، ولا دواء أدوى من الكذب.
- ثلاثة تُزري بالمرء: الحسد، والنميمة، والطيش.
- احذر من الناس ثلاثة: الخائن، والظلوم، والنمام.
- الأمين من يؤتمن على ثلاث: على الأموال، والأسرار، والفروج.
- ثلاثة من كنَّ فيه كنَّ عليه: المكر، والنكث، والبغي.
- ثلاثة يحجزن المرء عن طلب المعالي: قصر الهمة، وقلة الحياء، وضعف الرائي.
- لا تطيب السكنى إلا بثلاثة: الهواء الطيب، والماء الغزير، والأرض الخوارة

ومن حكمه المذكورة في تحف العقول:

ـ العلم جنّة ـ الصدق عز ـ الجهل ذل ـ الفهم مجد ـ العاقل غفور ـ والجاهل ختور ـ من كَرُم أصله لانَ قلبه ـ ومن خشن عنصره غلظ كبده ـ ومن تفرط تورط ـ ومن هجم على أمر بغير علم ـ جدع أنف نفسه.

ـ من وقف نفسه مواقف التهمة فلا يلومنَّ من أساء به الظن.

ـ إذا دخلت على أخيك ـ منزلهُ ـ فاقبل الكرامة كلها ما خلا الجلوس في الصدر.

ـ من أيقظ فتنة فهو آكلها.

ثالثاً ـ السياسة عند الإمام خط قائم بذاته كعمود المنارة

والسياسة ـ بمفهومها الحرفي ـ هي الاهتمام بشؤون الناس، وهي عبء جليل القدر، يأخذه على عاتقه القائد الأول، ذلك الذي يصبح مسؤولاً عن كل عملية من عمليات البناء، وهو يَسوس أبناء المجتمع، ليمشي بهم ـ ما أمكن ـ نحو أي تحقيق يجعلهم أحياء يرزقون، من أجل تخليد مجتمعهم الإنساني في حضن الحياة التي هي بهجة الحق، ونعمة الله في ظله السنيِّ الغامر الأكوان في دواليب الوجود.

أيكون مثل هذا التحديد لمعنى السياسة بعيداً عن مفاهيم الإمامة، عن تصاميمها في حفر هذه المفاهيم المداليل على لوحة الكاهل لدى كل إمام يقوم بأعباء القيادة؟ لعمري إن كل هذه الرموز حول معنى السياسة، كانت انعكاساً وسيعاً في ذهنية الصادق الذي هو اندماج بهيكلية جده الإمام الأول.

إن السياسة ـ ومضمونها الصحيح هو إماميُّ القيام بالأعمال ـ هي التي لا يجوز أن يمتلىء بها السائس الممتاز، إلا بمعناها ومبناها الأصيلين، فهو ـ والتحديد هذا هو ركنها ـ راشد حكيم، وعادل مستقيم، وعالم مستعصَمٌ به، وكريم معطاء، وفاهم لبيب يحقق للأمة ـ بزخم الأبطال ـ دستورها الحياتي ليجعلها سجية من السجايا الكريمة، وهادية مثالية لمجموعات الأمم.

تلك هي سياسة الإمام الصادق، وهي متصلة به بأهداف متسلسلة عن جده العظيم علي، قوائم كرسيها غير قوائم كرسي معاوية: يعجن الأمة ويخبزها ليأكلها مرقوقة على صوانيه لا ليأكل منها وهي فيض على صوانيها ـ وليعصرها شهداً في خوابيه، ليشربها لا ليشرب منها ـ ويبنيها لتكون طعمة له ولأبنائه في الميراث، لا ليكون هو وأبناؤه طعمة لها في التحقيق الكبير المرشح للخلود..

وليست ـ أبداً ـ قوائم كرسي السياسة التي هي في كنه الإمامة: بناء، وترسيخ، وحق، وعدل، ومساواة ـ من نوع قوائم الكرسي الذي حاول امتطاؤه الحاكم السفاح أو الآخر المنصور، فهي تحت كل من الاثنين مصّاصة دم تنهب مهجة الأمة، وتسفكها سفكاً بالظلم والرعب والاستبداد وترميها شلواً بلا عقل، ولا رأي، ولا حقيقة وجدان.

ولكن السياسة هذه، ما استكملت ولا مرة أدوارها الإمامية، ولا تمكّن أي إمام من استلام كرسيه الشرعي المنفذ المقررات والأحكام - لقد ضيع السياسة هذه على الإمامة، العدوان المتلطي خلف الجدران، وأقعدها عنها المكر المسلح بالظلم والبهتان، منذ العهد الأول. تلك كانت اللعبة الماكرة المخبأة خلف ستار من ديباج.

إننا الآن في عصر المنصور، والعدوان هوذاته العدوان، بعد مرور قرن من الزمان، وها هو كرسي الخلافة لا يزال بيد غير مشدودة له.

ويتصرف الإمام الصادق تصرفاً هو - بنوعه ولونه - من أروع ما قدر أن يتصرف به واحد من الأئمة الذين سبقوه - لقد رأى الإمام أن جماهير الأمة بحاجة ماسة إلى ثقافات منوعة وشاملة، تتناول كل طاقاتها ومواردها المادية والروحية على السواء، فتخفُّ بها إلى وعي وإدراك ينجيانها من الكوابيس التي تعرقلها عن حقيقة البلوغ. إن العلم - وحده - سيكون القادر على ذلك، أكان في تطوير الاقتصاد المبتدىء بالزراعة المنتجة والموصلة إلى تفرع الصناعات، أم كان في جلوات الروح توفرُها رفاهياتُ العيش فتزهر وتثمر: رأياً، وفكراً، وشعراً، وأدباً، وفناً، وغوصاً في تيارات الفلسفة التي تضع - دائماً - ثقل خطواتها في الطريق تفتحه لاقتحام المجهول الذي تتمكن من فك رموزه قوة العلم الذي يطلبه إلى الساحة شوق الفلسفة.

لقد اقتنع الإمام بأن الوصول إلى كرسي الحكم كقاعدة متمكنة من وضع الأمور كلها في النصاب الصحيح، هو الآن غير ممكن ولا بحال من الأحوال - لقد كان المرور من العصر الأول، عصر المحاولات الأولى للتركيز والتثبيت، إلى العصر الثاني، عصر المحاولات الباغية والمهددة الخط الأمامي بالانهيار التام - أجل، لقد كان المرور ذاك مروراً شديد الوطأة ورهيب المصير، ولكن الإمامة - بلباقة فائقة النظير - تمكنت من العبور إلى المفرق الآخر الملون بالسفاح والمنصور، وها هي الإمامة المتمثلة الآن بجعفر الصادق، تدرك أيضاً أن عمر العهد الجديد سيكون طويلاً وطويلاً، وأن مقاليد الحكم لن تفلت من يدهم التي هي كلاّبة من حديد... من هنا تكون مقاومة العهد الطالع بقوة السيف والظلم والتهديد، هي مقاومة مجنونة ومخبولة، تعرِّض الإمامة للإبادة، وتحرم الأمة الصابرة من تلقي كل إغاثة يمدها بها اهتمام الإمام.

وقرر الإمام القيام بسياسة سليمة تنجي الخط الأمامي كله من الانهيار، وتوسع للأمة مدرسة متكاملة النشاطات الملمة بكل ماتحتاجه لبنائها البناء الطويل والركين، وسيان بعد هذا، أكانت الإمامة في خطها الشرعي، أم كانت منحاة عنه، فالعلم الوسيع المقدم لها هو من صلب حاجتها، أو بالأحرى، أنه وحده كل حاجتها، شرط أن تستمر به مع استمرار الأجيال. إن الدهور الطويلة كفيلة بتحقيق كل الأماني المزهوّة بالأحلام.

واقتنع المنصور بنبل العزم، وتركزت المدرسة الجعفرية بقوة العقل المتين، والعزم الصادق، وكانت سياسة الإمام هي السياسة الراشدة في كل ما فيها من إيجاب، وفي كل ما قدمته من علم موفور الاتساع،

ومن فكـر، ورأي، وتشعب أبحـاث ـ ليست الأمـة الآن إلا المحققـة ذاتهـا، إنهـا على الطـريق، ورويداً رويـداً. . . ينتهي يوم. . . ويبـزغ غد. . . والعلم الصحيـح الواسع البردة، يبري الجهل وهويبني، وهو يضفر الوشاح تفصله الأجيال الطالعة، لترتديه الأمة وهي تقطف نجوم مجدها مع الفجر الذي هو أمل البزوغ.

الخاتمـــة

أيها الإمام

أتراني وصلت إليك وأنا أقفو خطاك في بحث نحيل؟
ولكنك عظيم يا سيدي، ورائع رائع وأنت تنقل خطاك.
لا أنا ـ ولا أيّ سواي ـ إلا وهو خاشع
أمام وقع خطاك
فأنت كالمدى وسيع ـ وأنت كالفيض غزير
وأنت صدق في المدى، وأنت أنت نعمة من نعم الفيض الغزير
ولقد كرموك بالوصف وقالوا عنكْ:
إنك لدنيّ العلم والفهم ولدنيّ الصفات.
ولقد أصابوك بالعرفان، وكفكفوك بالوجدان.
وأي عقل متين، وعلمٍ وفير، ليسا من فيضٍ لدنيّ المنال؟
وأيّ اجتهادٍ، وأيّ كشف، وأيّ غوص في الدلال؟
ليست كلها من لدنيَّة بهية الحق ورخيّة الدلال؟
فالعلم في عمق المدى
والعقل في لغة الحجى
والروح في ردهات التقى وألوانِ الجمال
هي كلها من نعمة الله العظيم الكريم الواسع الحق والرحب المآل.

فيا سيدي

إن المدى لنا من بعدك، ما فتحته أمامنا إلا حتى نقفو خطاك.
إنه المفسوح ـ وأنت الذي فسحته بعزمك الملحاح ـ لنبلغ المحطات الجليلة ـ حتى نجمع كل العلم نبني به المحطات النبيلة.
فأيُّ شيء نكون نحن إن لم نلبك في النداء؟
وأنت أنت الذي بهوت بالعلم تجمعه من أبهى المغازل

وأنت أنت الذي رصعته بالجهد التقي، وأنه أقوى المعاول
ومشيت به لتزيين الخليّة
لترسيخ المجتمع الذي هو كل الخليّة
وإن يكن العلم من مبتغاك ـ
ولكن الأمة كانت مبتغاك .
وإن تكن السياسة من لطف مشتهاك
فإن إنسان الأمة التقية كان مشتهاك .
وهكذا جمعت العلم نوراً، وقدمته للأمة تفجر به طاقاتها الكريمة
وهكذا جمعت العلم وألفت منه سياسة الأمة
وهكذا رحت تغني النول
بخيط الخز وخيط الصوف وكل خيوط القنب .
كل ذلك كان مبتغاك
فيا ليت عصورنا كلها تقفو خطاك وتنفّذ ما رسَمْتْ خطاك .
إن الرسالة ـ آنذاك ـ هي الحيّة
في أمة تنام وتحب أن تصحو ـ أيها الإمام ـ
على وقع خطاك



المصـادر

أعيان الشيعة للإمام السيد محسن الأمين.

كشف الغمة في معرفة الأئمة للعلامة أبي الحسن علي بن عبد الله الاربلي .

الإمام الصادق للسيد محمد جواد فضل الله .

الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب لناقله إلى العربية الدكتور نور الدين آل علي .



برنامج اليوم الثاني من مؤتمر الإمام جعفر الصادق(ع) الدولي

الجمعة ١٨ ربيع الأول ١٤١٢هـ - ٢٧/ ٩/ ١٩٩١م

الجلسة الصباحية - الساعة التاسعة

١ - تلاوة القرآن الكريم.
٢ - سماحة الشيخ جعفر المهاجر (لبنان)
٣ - الأستاذ محمد الراشد (سورية).
٤ - د: زهير البابا (سورية).
٥ - سماحة الشيخ محمد باقر الناصري (العراق).
٦ - الأستاذ أنور الجندي (سورية).





العالم الفكري للإمام الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

هل يمكننا التحدّث عن عالم فكري خاص منسوب إلى أوسط الأئمة الإثنا عشر؟ الجواب: نعم ولا: في الوقت نفسه، وكلا الجوابين صحيح، تبعاً لما نعنيه من السؤال.

فإذا كنّا نقصد عالماً فكرياً منسوباً إلى سادس الأئمة عليهم السلام على نحو الخصوصية، المعبّرة عن منهجية مميّزة، فهو بحث مردود. فالعصمة وأهلها خط واحد، ومنهج واحد، وسبيل واحد، وطريقة واحدة. منبعها ورأسها عند سيدنا وسيّدهم خاتم الرسل صلوات الله عليه وآله. خط متصل بالله سبحانه عَبْر النبوة. ولا تبديل لكلمات الله.

وأمّا إذا كنا نقصد الخصوصيّة الناشئة من مواصفات الفترة، وخصوصياتها السياسية والفكرية وما إليها، فذلك بحث مقبول بل مطلوب. لأنه يحكي لنا فصلاً من قصة الدور الرديف للإمامة، في حياطة حسار المجتمع الإسلامي، والذود عن حصونه الفكرية والمنهجيّة. ابتغاء الحفاظ على الشعلة الأساسية متّقدة، فلا يصل الخطر إلى قلبها وإلى محرّكاتها الأساسية. وذلك هو الدور الرديف للإمامة، بعد أن أزيحت عن موقعها القيادي الطبيعي، الذي لكل إمام من الأئمة الأحد عشر منهجيته الخاصة في الأداء. خصوصية ناشئة من طبيعة المشكلات التي تواجهها الأمة خلال مسارها في الزمان. والتي قد تختلف من فترة إمام إلى فترة إمام آخر. ومن مواصفات الظرف السياسي، وهامش الحرية الذي تمنحه السلطة للإمام وللأمة معاً.

ويا من سيحكي لنا القصة بكامل فصولها، وهي في حالة تطورها من يد إمام إلى يد إمام، أين أنت؟ ومتى ستأتي؟ من ذا الذي سيحكي القصة الكبيرة المركّبة من كلّ القصص الصغيرة. والتي ستكون من غير ريب أعظم وأجل من مفرداتها، سواء من حيث مضمونها، أم من حيث مغزاها. وسيكون ما بين دفتيها، أن أحسن الكاتب روايتها، واحداً من أعظم الكتب التي خطّتها يد إنسان. لأنه سيحكي لنا القصة الرائعة لتصميم الهدى والرشد في مواجهة أخسّ ما ارتكس في نفس الإنسان، أعني نوازع السلطة والسيطرة والاستئثار. حيث في نهاية كل فصل من فصولها نرى البطل مقتولاً أو مسموماً. ولكن القضية ستحيا بالذي يليه، وليتقدم بها خطوات إلى الأمام، قبل أن يسقط بدوره. وهكذا أحدى عشرة مرة. وفي الثانية عشرة تمتلىء الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت ظلماً وجوراً. إنها قصة أعظم ملحمة في تاريخ الإنسان.

* * *

في «العالم الفكري للإمام الصادق» سنلامس ملامسة فصلاً واحداً من فصول تلك القصة الملحمة. بل مفصلاً من مفاصلها الرئيسية. ملامسة مُمنهجة لكي تظهر الخطوة التقدمية التي قاد إليها أوسط الأئمة مجتمع الإسلام، وحماه من التضليل المتعمد أحياناً، أو الذي قاد إليه سوء تخطيط أوليائه الفعليين. مركّزين على ثلاثة مسائل أو أبواب. . نفعل هذا، على علمنا أن هذه المسائل أو الأبواب، بحسب حجمها، ليست شيئاً يُذكر بالقياس إلى المساق الفكري العريض، الذي كان الإمام محركه وسرّه وروحه على مدى ثلث قرن من الزمان. بحيث صنّف الحافظ أبو العبّاس بن عقدة كتاباً جمع فيه رجال الصادق ورواة علومه وأنهاهم إلى أربعة آلاف. وكتب من أجوبته أربعمائة مصنف. ولكننا مع ذلك نرى أن كلاً من تلك المسائل أو الأبواب له صفة المنارة الرئيسية في منهج الإمام. بحيث يمكن أن يتكون من المجموع صورة لعالمه الفكري الشاسع الأبعاد.

* * *

أول هذه المسائل تلك المعنونة في كتابات الأقدمين: (القضاء والقدر) من حيث أنها تعالج هذا

المفهـوم بالنسبـة للإنسـان. ثم عُنونت بـ (الجبر والاختيار) بالنظر لمدارس الرأي المختلفة فيها. ثم نراها في كتابات المحدثين تحت عنوان (حرية الإنسان) وهي هي في عناوينها الثلاثة.

والإمام في هذه المسألة مدرسة مستقلة. أشهر نصوصها قوله:

«لا جبر ولا تفويض، بل أمر بين أمرين» فضلاً عن نصوص موضحة. منها قول السائل: «. . . وما أمـر بين أمـرين؟» فيُجيب: «مثـل ذلـك رجـل رأيتـه على معصيـة فنهيتـه فلم ينتـهِ، فتركته. ففعل تلك المعصية. فليس، حيث لم يقبل منك فتركته، كنت أنت الذي أمرته بالمعصية».

ويسأله آخر: «أجبر الله العباد على المعاصي؟» فيجيب: «الله أعدل من أن يُجبرهم على المعاصي ثم يعـذبهم عليهـا» فيقـول السائل: «جُعلت فداك: ففوّض إليهم؟» فيجيبه: «لو فوّض إليهم لم يحصرهم بالأمر والنهي» فيقول السائل: «فبينهما منزلة؟» فيجيب: «نعم، ما بين السماء والأرض».

ويقول الإمام في مجلس آخر: «من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله. ومن زعم أن الخـير والشـر بغـير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه. ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله».

ويقول: «إن الله أراد منّا شيئاً. وأراد بنا شيئاً. وما أراد منّا أظهره لنا. فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منّا».

وليس من خطتي وقصدي الآن أن أخوض في المسألة بأكثر من هذه الإشارة. وإنما أود أن أنفذ منها، أي من تلك الإشارة، إلى أمر أشد علاقة بمنهج هذه المشاركة، لأقول:

من المؤكد أن هذا البحث الشائك، الذي افترق حوله المسلمون افتراقاً لا يفوقه إلاّ افتراقهم حول مسألـة مفهـوم الشـرعيـة، أي الخلافة أو الإمامة، لم يدخل سوق الجدل العام ومذاهبه من ضمن صيرورة طبيعية، وضرورة فكرية. وإننا نحسّ من كلمات الإمام في الحديث الآخير «فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عمّا أراده منا» أنه متبرّم أشدّ التبرّم بما تُولاه من اهتمام. ويرى فيه نوعاً من الهدر أو سوء الإدارة للطاقة الفكرية على الأقـل. وأن من الأجـدى والأجـدر صرف الاهتـمام إلى ما هو أعـود وأنفـع. ومع ذلك فإنه يشارك في الجدل الدائر مشاركة قوية، نلمسها في تعدد النصوص المروية عنه في هذا المجال. ونحن لا نراه في هذا إلا مضطـراً اضطـراراً، أمـلاه عليـه ضرورة الـدفـاع عن حصـون الإسـلام الفكـرية، وعن الحوافز السلوكية الأساسية، المتصلة بصورة المجتمع كما رسمها القرآن.

فمن المعلوم عند مؤرخي التيارات الفكرية الإسلامية، أن أوّل من قال بالجبر معاوية. وأنه أظهر أن ما يأتيـه بقضـاء الله ومن خلقـه. ليجعله عذراً فيما يأتيه. ويوهم أنه مُصيب فيه. وأن الله جعله إماماً وولاه الأمر. وفشا ذلك في ملوك بني أمية.

فأنت ترى من هذا الكـلام، أن المسألـة لم تنبت في الحيـاة الفكـريـة الإسلامية نباتاً حسناً. ولم يكن

الجدل المستقر حولها وليد حاجة حقيقية. ولا تستحق ما أثير حولها من ضجيج كما ترى أن معاوية رمى من وراء إثارتها إلى أمرين. أن تكون عذراً له فيما يأتيه. وحقاً كان الرجل بحاجة إلى عذر أعمى كهذا. وأن تمنح ملكه شرعية يفتقر إليها، ببيان أنه قد حدث بقضاء الله فالاعتراض عليه اعتراض على الله وإراداته. وتابع بيان بن سمعان والجعد بن درهم معاوية فيما ذهب إليه. ونهض في مقابلهما غيلان الدمشقي ومعبد الجهني، أسلاف المعتزلة، فقالا بالتفويض، كرد فعل سياسي على الأرجح، ومن ذلك دخلت المسألة الحياة الفكرية الإسلامية دخولها العريض.

والحقيقة التي لا يصعب اكتشافها بأدنى تأمل، أن معاوية فيما أشاع وأذاع كان يدمّر الركائز الأساسية لفكرة الأمة الإسلامية ووظيفتها الحضارية. بحيث لا يبقى في ظلّ تصوّر القدر الطاغي وتعطيل الإرادة الإنسانية أي معنى لفكرة الأمة الوسط، والأمة الشاهدة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وما إلى ذلك، أي معنى، وتسقط المفاهيم والحوافز السلوكية التي كانت سر النهضة الإسلامية شعوبها. ومثل هذا يمكن قوله بالنسبة لفكرة التفويض، وإن ببيان مختلف.

فمن هنا يظهر لنا جليّاً أن الإمام فيما شارك فيه وروّج له، كان يقوم بعمل فكري إصلاحي، يعني يُصلح ما فسد من الحالة الفكرية عند المسلمين، خلال السنوات المظلمة التي تعطّلت فيها الإنارة المعتصمة والمعصومة. ويحافظ على شعلة الإسلام متّقدة، ليتتامّ نورها ويتمّ.

ثاني هذه المسائل تتصل بمنهج الفقيه في استنباط الأحكام. وأخص القياس كمصدر من مصادر الفقيه في الاستنباط. الذي عوّل عليه فقيه أهل «العراق» أبو حنيفة. وأصّله ووضع القواعد للعاملين فيه الشافعي. وأنكر الإيغال فيه كلٌّ من أحمد ومالك. وأنكره ونهى عنه الإمام الصادق.

ولقد كان من حرص الإمام، أنه كلما التقى به أبو حنيفة أن يجدّد النهي. وما عُرف عن أبي حنيفة أنه أجاب عن أدلة الإمام قط.

وقد روى أبو حنيفة نفسه وقائع إحدى جولات النقاش، قال:

قال الإمام: «بلغني أنك تقول بالقياس»

فقلت: «نعم! أقول به».

فقال: «ويحك يا نعمان، أول من قاس إبليس، حين أُمر بالسجود لآدم فأبى وقال، خلقتني من نار وخلقته من طين. أيهما أكبر يا نعمان القتل أم الزنا؟»

قلت: «القتل»

قال: «فلم جعل الله في القتل شاهدين وفي الزنا أربعة؟ أيُقاس لك هذا؟»

قلت: «لا!».

قال: «أيهما أكبر الصلاة أم الصوم؟».

قلت: «الصلاة»

قال: «فلم وجب على الحائض أن تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟»

أيُقاس لك هذا؟».

قلت: «لا».

قال: «فأيها أضعف المرأة أم الرجل؟»

قلت: «المرأة».

قال: «فلم جعل الله للرجل سهمين في الميراث وللمرأة سهماً؟ أيُقاس ذلك».

قلت: «لا؟».

قال: «وقد بلغني أنك تقرأ آية من كتاب الله ﴿ثم لتُسألنَّ يومئذٍ عن النعيم﴾ أنه الطعام الطيّب والماء البارد في اليوم الصائف».

قلت: «نعم!»

قال: «لو دعاك رجل وأطعمك وسقاك ماء بارداً، ثم امتنّ عليك، ما كنت تنسبه؟»

قلت: «إلى البخل»

قال: «أفتبخل علينا؟»

قلت: «فما هو؟»

قال: «حبنا أهل البيت»

والمتأمل في مسار النقاش. وكيف بدأ حول القياس، وانتهى إلى تفسير الآية، لا يشك أن الإمام قد ساقه ذلك المساق قصداً. ولا ريب أن الإمام لم يفعل ذلك عبثاً. ولكنه قصد قصداً إلى الربط بين أفكار العمل بالقياس وحب أهل البيت، مع ما يعنيه الحب من العمل بقولهم. وهذا سر من أسرار المسألة خفي على الكثيرين.

فمما لا شك فيه أن مَنْ لجأ إلى قياس الفرع على أصل، لاستنباط حكم الفرع، إنما فعل لأنه لم يجد نصاً مباشراً يستند إليه. ولو أنه وجد لما سلك هذا الطريق المحفوف بالمخاطر. ثم إنه ما من ريب أن عوز النصوص سببه رفض العمل بالسنّة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام. ولنلاحظ بالمناسبة أن الإقبال على العمل بالقياس انتشر في «العراق» أكثر منه في أي قطر آخر. وهذا يعود إلى قلة ما تسلمه فقهاء «العراق» من السنّة الشريفة. أمّا فقهاء «المدينة» وابن حنبل بالخصوص، فإنهم أقرب إلى مصادر السنّة. ومعلوم أن فقه أحمد قد اتسع بكثرة السنن التي جمعها، وعمل وأصحابه بها. ولذلك فإنه أنكر الإيغال في القياس.

أمّا الشيعة فإنّهم أنكروا العمل بالقياس أصلاً. لأنهم اعتمدوا السنّة الواردة عن أهل البيت عليهم

السلام . وبذلك أمنوا غائلة انقطاع الأحكام مع استمرار تجدد الموضوعات . لأن عملية التقنين ، أعني وضع الأحكام للموضوعات ، استمرت ما يقرب من ثلاثة قرون . اجتاز خلالها المجتمع المسلم طريقه من المجتمع الرعوي الزراعي البسيط ، حتى المجتمع المديني المعقّد . وبذلك تجمّع مذخور هائل من النصوص المتنوعة . بحيث يصعب جداً أن يحدث موضوع لا تغطيه بأحكامها .

المسألة الثالثة تدور حول لغز الألغاز في السيرة الفكرية للإمام التي شغلت الناس ، ووُضعت حولها عشرات المؤلفات . أعني علاقته بتلميذه الشهير جابر بن حيّان الكوفي .

فمن المعلوم أن هذا الكيميائي والمتطبّب والفيلسوف ، الذي حمل عن جدارة واستحقاق لقب أول كيميائي في العالم ، قد ترك مؤلفات عدّة ، أنهاها بعض المفيين إلى أربعين كتاباً ورسالة ، في الكيمياء والطب والتأمّلات الفلسفية التي تطرحها مادة هذين العلمين . تُنبىء بمجموعها عن عالم فذ . اخترق البنية الفكرية السائدة حتى عصره ، ونفذ منها إلى الجانب الآخر ، أصيلاً في منهجه ، مجدداً في لغته العلمية ، دقيقاً في مصطلحاته الفنية . ولكنه ، خصوصاً في تأمّلاته الفلسفية ، مُنتم ومتصل بالمفاهيم واللغة القرآنية .

ومن الثابت أن جابراً أخذ ما أودعه كتبه عن أستاذه الإمام الصادق عليه السلام . وهو في عامة مؤلفاته لا يملّ من التذكير بهذه الحقيقة ، مُعيداً مكرّراً . وهذا أمر نادر جداً فيما درج عليه المؤلفون .

السؤال هنا : إذا كانت أمانة جابر وإسناداته الصريحة قد أراحتنا من عبء البحث عن مصادر معلوماته . فماذا بالنسبة للإمام . كيف أُتيح له أن يؤسس علماً جديداً بمناهجه ولغته ومصطلحاته ، في بيئة فكرية لم يُعرف عنها على الإطلاق أدنى مشاركة فيه؟ ودون أي مصدر إنساني يتلقّى ويأخذ عنه؟

المشكلة بالنسبة إلينا محلولة . ولكنني أطرح السؤال لأشير إلى المحاولات البائسة التي غرق فيها أكثر من باحث من الذين اعتنوا بالقضية ، خصوصاً من المستشرقين . وانتهت ، بسبب العجز عن التفسير ، إلى إنكار وجود جابر من أصله . أو إنكار صحة نسبة الكتب إليه ، وما إلى ذلك . وهذا أشبه بمحاولة اغتيال الشاهد لدفن القضية . ولكن بقي شاهد لا يمكن إسكاته بأي وسيلة ، هو كُتُب جابر نفسها ، التي ما تزال نُسخ الكثير منها بين أيدينا حتى اليوم .

لكن السؤال الأشدّ علاقة بخطة بحثنا هو: لماذا يهتم إمام في مثل ما كان للصادق من منزلة علمية كبرى ، بعلم كان في ذلك الوقت معتبراً من العلوم الدنيئة؟ وعلى كل حال لم يكن من المعارف المطلوبة ، التي تحظى بالقبول والإقبال ويحتاج الناس إليها . ومن المؤكد أنه لم يكن من المتوقع من الإمام أن يشارك فيه .

هنا ، كما يقال ، مربط الفرس . أو ، بالأحرى ، مربط فرسي . لأنني أنا الذي وضعت خطة هذا البحث . وبالتالي المشكلات المنهجية التي يطرحها على الباحث .

لديّ في الجواب تفسيران. واحد منهما على الأقل يجب أن يكون صحيحاً. وقد يكونان صحيحين كلاهما:

فمن المعلوم أن أول اختراق للبنية الفكرية الإسلامية من قبل الثقافة اليونانية، قد حصل في وقت مبكّر. بترجمة كتب الكيمياء اليونانية، أما من أصولها، وأما من ترجماتها القبطيّة المصرية. وحتى عصر الإمام الصادق، كان ذلك هو الاختراق الهام والوحيد. أمّا الاختراق الثاني والأكبر فقد حدث فيما بعد، أي في عهد المأمون. وكان ذلك الاختراق، أي الأول، يحمل خطرين: خطر الاختراق في حدّ ذاته، باعتباره يحمل إمكانية التهجين للبنية الصلبة التي أسّس لها القرآن. والثاني أن الكيمياء اليونانية كانت علماً خرافياً، يسعى إلى تركيب ما يسمى بـ (حجر الفلاسفة) الذي يحوّل كل المواد إلى ذهب. وهو مسعى، فضلاً عن أنه مستحيل التحقيق، كما نعرف اليوم حق المعرفة، فإنه ينطوي على خطأ منهجي. فالكيمياء الحقيقية، كما ضبط جابر منهج العمل بها، وكما تأسس منذ ذلك الوقت لدى كل الكيميائيين الحقيقيين، تضع التجربة أمام النتيجة فالهدف العملي. ولنتدبر هذه الكلمات المأثورة عن جابر: «عملته بيدي وعقلي. وبحثته حتى صحّ وامتحنته فما كذب» فهي تلخّص منهجه. أمّا في الكيمياء اليونانية فالمنهج معكوس تماماً.

والجدير بالملاحظة منّا، أن ذلك المنهج الإسلامي الأصيل يتطابق تماماً مع ماندب إليه القرآن الذي دعا إلى المشاهدة والسعي الحسّي فيما هو من شأنه. فمن هنا يمكن أن نكتشف المنابع الفكرية التي اغترف منها الإمام الصادق، وعبّ منها تلميذه جابر حتى ارتوى.

بهذا التوجيه يمكن أن نرى بوضوح أن الإمام فيما علّم ونشر، من هذا العلم، كان يدافع عن حوبة البُنية الفكرية للمسلمين، كي لا تُخترق وتمزج بما لا يناسبها. ولا دفاع عن جسم ضُخّ فيه دم غريب فاسد، خير من دم صحيح أصيل.

ولكنني، أنا المسلم الذي يعود السبب في ضعف مال من مكانة في عالم اليوم، وأكاد أقول مذلّتي، إلى ضعف ما بيدي من وسائل. رغم أنني من الوجهة المعنوية والأخلاقية أحمل فكر الخلاص للعالم، وخلاصة حركة النبوات، أرى فيما أسّس له الإمام الصادق مشروعاً مستقبلياً، وليس مجرد فعل دفاع. هل من الغرابة والإيغال أن نقول، أن الإمام حين تجاوز التقاليد العلمية السائدة، وأسّس علماً لا يحظى بالاعتراف به من الحركة الفكرية المعاصرة له، كان يتطلّع إلى المستقبل. ومعلوم أن كبار المؤسسين كانوا ينشرون فكرهم المجدِّد عبر تلامذتهم وحوارييهم، الذين يستوعبون فكرهم ثم يحملونه إلى الناس. وعلى هذا فهل يمكن أن نتصوّر أن الإمام أراد أن يودع ما عنده جابراً وحده ليبقيه عنده؟ أم أنه قصد نشره وتصميمه؟ وبذلك يساهم في تكوين عالم جديد، يتماشى فيه الحق مع القوة المستندة إلى المعرفة. مهما يكن فإن خطاب الإمام الصادق المنهجي، الذي أودعه تلميذه النجيب جابر بن حيّان، موجّه إلينا.

الخلاصة التي نصل إليها من هذه الملامسة السريعة لثلاثة مسائل أساسية من منهج الإمام، أنه:

أولاً: بذل غاية الوسع في حماية الإسلام والمسلمين من الخلل والانحراف والاختراق الفكري، أيّا تكن مصادره. وقد بدا لنا ذلك جلياً في المسائل الثلاث التي اخترناها كنماذج للبحث.

ثانياً: أنه تبرّم من المبالغة في إيلاء بعض المسائل الفلسفية النظرية عناية لا تستحقها. والنقاش حولها لا يمكن أن يصل إلى نتيجة. والنتيجة الوحيدة العملية منها هي في غير صالح المسلمين ووحدتهم وتوجيه جهدهم نحو قضاياهم الفكرية والعملية الأساسية.

وفي المقابل عمل على توجه الجهد العلمي نحو العلوم العملية. وهذا بذاته اتجاه ثوري في الحياة الفكرية المعاصرة. ولكم يبدو هذا المنهج بشقّيه واتجاهيه عميق المغزى بالنسبة إلينا اليوم. لكن ينبغي له أن يهزّ نفوسنا، ويدعونا إلى الولاء العملي لخط أهل البيت. ولاء يوحّد الضمائر ويوجه الجهود، لخيرنا وخير الأجيال القادمة.

والحمد لله ربِّ العالمين.



الأستاذ محمد الراشد



الإمام الصادق (ع) أفق حضاري ورؤية معاصرة



بسم الله الرحمن الرحيم

ثمة تساؤل كبير، يطرح نفسه بنفسه:

لماذا ادّعت كافة الفرق والطوائف الإسلامية على اختلاف نزوعاتها وتوجهاتها... لماذا ادّعت الإمام الصادق لنفسها؛ سواء منها من اتخذته منطلقاً ناظماً لمنهجها في الفقه والتشريع والأحكام والآداب والأخلاق والمعاملات؛ أو من اعتبرته مجرد عالم كبير وسليل البيت النبوي ودفق عبقري جدير بالاحترام!؟

وفي الحقيقة، هنالك إجابات كثيرة وموسّعة سأبسطها وأقدمها مستقبلاً عبر كتاب شامل؛ إذا ما تحقق لي المناخ الصحي لإنجاز مثل هذا الكتاب وصولاً إلى الرؤية الأكثر وضوحاً والأكثر جدوى للأجيال الإسلامية المعاصرة واللاحقة معاً.

لكنها هنالك إجابة مبدئية يقدّمها لنا المستشرق (دونالدسون) أوردها صاحب كتاب «الصلة بين

التصوّف والتشيّع». قوامها أن الإمام الصادق عليه السلام (كانت له شبه مدرسة شبه سقراطية) . وواقع الحـال، أنّ هذا الرأي يحمـل هامشـاً من الحقيقـة، لا الحقيقة كلها. فقد كانت للإمام مدرسة بل جامعة متكاملة ومتعالية على كل مدرسة سقراطية وغير سقراطية. فمدرسة الصادق كانت استمراراً لمدرسة الإمام علي بن أبي طالب في المدينة المنوّرة، كما يؤكد السيد أمير علي في كتابه «مختصر تاريخ الإسلام» حسب رواية مصطفى كامـل الشيبني. وأنهـا كذلـك في خطّهـا العـام، إلاّ أنّها في عمقها الرؤوي والحضاري، الانبثاق المتكامل والاستمرار البعيد المدى للمدرسة المحمدية.

لذا، كان الصادق ليس مجرد المعلم الأمثل لجيل بعينه فحسب، وإنما للأجيال اللاحقة كلّها، يمدّها بالوعي المعرفي والدفق الحضاري والحسّ الإيماني لما فيه مستقبل الإسلام والمسلمين. كما أنّه لم يكن كما خيّل لفريق من الباحثين قدامى ومعاصرين، بعيداً وفي عزلة كاملة عن كافة التيارات التي عاصرته ، وإنّما كان الصادق مع كل تلكم التيارات؛ غائصاً في عمقها ومحلقاً فوقها ومهيمناً عليها. وبشكل استطاع فيه تقديم الصورة المشرقة للإسلام الحضاري بكل توجهاته وآفاقه المرسومة في الذكر الحكيم قولاً، وفي السيرة النبوية منهجاً وتطبيقاً، ومن ثم لدى آل البيت الأطهار والصحب الأخيار الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

وقـد يتـوالـد لدى فريق من النـاس التسـاؤل التالي: لماذا وكيف تأتى للصادق ذلك وتمّ له ما لم يتمّ لغيره من الأئمة والعلماء!؟

والتساؤل وارد، بل يفرض نفسه وبإلحاح كبير، سيما في هذه المرحلة التي تهيء نفسها إلى رفع تحية الوداع للقرن العشرين، قرن العلوم والكشوف وفيزياء الصغائر وغزو الفضاء!؟

وكإيضاح سريع أقول بأن الإمام كان الوارث الشرعي للعلم النبوي في عصره أولاً، كما كان المتربع على عرش كل معـارف عصـره ثانيـاً، وثـالثـة أنـه عبر كل الأحقـاب يتوالد أبداً توتر خلاف بين معطيات الواقع والإلهام ومهمة الرجل الفذّ وصاحب الحسّ العبقري لا رفض مقاييس الواقع وقوانينه وفقاً للإلهام الأدبي أو الفلسفي، وإنّـما تسخـير وتـوظيف المعطى الواقعي للمعطى الإلهامي، سيما إذا كان ذلك المعطى الإلهامي وليد عطاء مبرمج على هدي الوحي والنبوّة.

ومن خلال هذه الـرؤيـة بالـذات، بإمكـاننا تلمّس جوانب أو بعض جوانب ذلكم الأفق الحضاري الذي حمّله وقدّمه الإمام الصادق للفكر الإسلامي على طول امتداده من القرن الثاني الهجري وحتى يومنا هذا.

وأيّة رؤية معاصرة تتسم بالدقة والوعي والحياد، لا بدّ لها من وضع أصابعها على هذه الحقيقة، إذا ما ملكت ضرباً من الإحـاطـة والشمـول للمجتمـع العـربي الإسـلامي بكل شرائحه وتشعباته يومذاك، فالدائرة الإسلامية في النصف الأول من القرن الثاني للهجرة النبوية، أقول؛ إن الدائرة الإسلامية؛ لم تكبر وتتنـامى عصـر ذاك فحسب، وإنـما عبرّت عن حيـويتهـا وتطلعـاتها بقوالب وأشكال مختلفة، وسارت وفق

خطـوط مستقيمـة ومنحنيـة ومتكسـرة وبـين بين . . وبالتالي تعرّضت لتغيّرات نوعية، مكّنتها من اكتشاف مناهج جديدة، ساعدتها على التكيّف مع الواقع الذي أفرزته حركة الفتوح أولاً، وعلى استيعاب وهضم الأفكار والفلسفات الوافدة ثانياً.

وبـما أنّ قطـاعـات كبـيرة من الشرائح الإسلامية لم تعد قادرة على مواجهة ذلكم الواقع بكل توتراته على المستويين الديني والدنيوي، لذا كان لا بدّ من البحث عن طرق الخلاص وأساليبه الممكنة.

ومن هنا، كانت ولادة الصادق كإنسان أولاً وكدفق عبقري ثانياً، وكمدرسة جامعة تنهل من المعطى الإسلامي الأصيل باعتباره وارث العلم النبوي ثالثاً . . أقول، كانت ولادته وحضوره كإمام ومربٍ وموجهٍ ومعلم ومبرمج لحاضر الإسلام ومستقبله ضرورة حتمية بحكم الواقع ومنطق الأحداث وحركة التاريخ، كما بحكم منطق المنهج الإسلامي في بعده الحضاري وآفاقه المستقبلية.

ومن هنا بدأت ردة الفعل!!!

ردة فعـل ضد الإمام ومـدرسـة الإمـام . . وفي الحقيقة؛ ليست المفاهيم التشريعية هي التي أقلقت السلطـات الحـاكمـة آنـذاك، وإنـما الـذي أقلقهـا وأخـافهـا وزرع فيهـا الرعب؛ موقفها من سلالة النبي الأطهـار . . والـذين عانـوا ما لم يعانه ورثة نبي أبداً، إن في ظل الطغيان الأموي الذي تكتسحه ألف إشارة استفهام واستفهام، أو في ظل ضغوط أبناء عمومتهم من بني العبّاس الذين استحبّوا الدنيا على الآخرة.

نعم، كان لا بدّ من ولادة الإمـام الصـادق كحضـور إنساني . . علمي . . ديني متسام، يحمل عبء تهيئة المناخ الصحي للإسلام الأصيل . . إسلام الحضارة والتقدم.

وهذا من شأنه تعميق التأزّم في الوجدان الإسلامي أكثر فأكثر. باعتبار السلطات الزمنية وبخاصة في العصـر الأمـوي لم تقـدم أفكـاراً تستهدف في تحقيق إنسانية الإنسان، وإنما قدمت أفكاراً من شأنها مصادرة إنسـانيـة الإنسـان . ومن هنـا ولـدت المهمـة النضـاليـة على لغـة العصر، أو المهمة الجهادية وفقاً للمفهوم الإسـلامي . وبـذلـك ولدت مهمة الإمام الصادق عليه السلام . فقد اكتشف أن الحكّام الزمنيين، وسّعوا حدود العالم الواقعي واستعلوا عليه . . ضغطاً وقهراً واستعباداً للبلاد والعباد . . ليحققوا لأنفسهم وأتباعهم معـايشـة كل مفـردات قواميس الـترف والمـترفـين . . والتي أدّت فيما بعد إلى سقوط العالم الإسلامي تحت سنابك خيول الغزو المشرقي ممثلاً بهولاكو وجنكيز خان كما يعرف ذلك السادة الحضور ويدركون أبعاده أكثر مما أعرف وأدرك.

وإزاء ذلـك، كان على ذلـك الأفق الحضـاري ممثلاً بالصادق، أن يتصدّى لذلك الطغيان كمحاولة لانقاذ العالم الإسلامي المهدد بالموت . وهكذا وجد نفسه محكوماً عليه باسم كل القوانين السماوية والأخلاقية والاجتماعية، كما بحكم منطق إرادة الحياة وفلسفة التاريخ؛ وجد نفسه كوارث للمنهج المحمدي إن مهمته ليست الاعتراف بالمستحيل، بل تجاوز المستحيل وتحويله إلى ممكن . .

وهذا يعني فيما يعني أن الإمام، انطلق من رؤية حضارية قوامها: إذا أردت أن تعرف نفسك، عليك أن تعرف الحاضر السرمدي أولاً، ولكي تعرف إيمانك وتحقق حضوره الحيوي، عليك أن تعرف الأمس القريب.. البعيد.. أمس الرسل كلهم وأمس جده الأكبر والأعظم وأمس آبائه الأطهار. لذا انطلق في بناء ورسم أفق الإسلام الحضاري من خلال تفسير الإيمان بالإيمان؛ والإنسان بالإنسان.. باعتبار الإنسان الحضاري لا يحدده جانبه الفطري أو الغريزي أو الروحي فحسب، وإنما ذلك كلّه، إضافة إلى حضوره في العالم.. أي تواجده على هذا الكوكب كفاعلية وإنتاج وتواصل مع الله والناس، تحقيقاً لمعنى وخصوصية الخلافة في الأرض، والتي عبّر عنها الذكر الحكيم بقوله تعالى للملائكة ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

لذا، كان يسعى الإمام أبداً إلى وحدة العمل.. وحدة العمل على مستوى التحقق للتشريع الإلهي، ووحدة العملية الخلافة النابعة من عمق البعد السامي للإسلام الحضاري باعتباره الفعالية الإنسانية الأكثر كمالاً في العالم، وهذا من شأنه تحقيق مفهوم الخلافة الإنسانية في الأرض عبر وتائر الوحي والعلم والعقل والحب..

وهذا ما وضعه الصادق موضع التنفيذ، وأدركه غاية الإدراك باعتباره حامل لواء الخلاص. فقد أدرك منذ البداية؛ مقرراً ومؤكداً في عمقه الوجداني الأصيل، ومحدّثاً نفسه كما يخيّل إليّ الآن: أن تكون إماماً ليس معناه إخلاصاً وتوجيهاً وإرشاداً للآخرين فحسب، وإنما الإمامة إضافة لما سبق، أن يكون الإمام حكماً على نفسه وعلى الناس.. وبناء على هذا القبس النبوي الذي ورثه عن آبائه الأطهار سلام الله عليهم أجمعين، بناء على ذلك شرع في وضع الخطوط العريضة للحاضر السرمدي.. تطلعاً إلى الأفق الموعود.. أفق مستقبل حضاري إسلامي يحقق الأمن والسلام لنفسه ولبني الإنسان كافة، ويخرجها من دوائر الظلمات التي رسمت أطرها محاور الترف والطغيان قديماً ومدينة العلم والتكنولوجيا حينما لبسها الغرور معلنة استقلالها عن الوحي، فدقّت الأسافين في جسدها وحفرت قبرها بيدها بشكل أو بآخر.

والمتأمّل في عصر الإمام وحياته ورؤيته العامة والمتمثلة بسلوكيته وحكمه ووصاياه وأقواله ونظرياته الفقهية والفلسفية وتأويلاته للنصوص القرآنية وكل أو بعض النظريات العلمية التي أشار إليها أو نوّه عنها لتلامذته. كل ذلك يفصح لنا أنه كان يجاهد أبداً لولادة مجتمع حضاري مسلم بالوحي والعلم.. مؤكداً وباستمرار، بأن الإمام لا تعني الإنباء بالغيب وإنما تعني وعداً بالخلاص، كما تعني صفاء وتعالياً وسمواً وتطهيراً للناس أجمعين.

وهذا ما حقّقه الإمام ورسم معالمه عبر تجربته الحياتية والروحية كلها. لذا، كوّر الواقع.. قلّصه.. وضعه بين قوسين.. تجاوزاً لذلك الواقع المظلم عبر الوعي أولاً، ووصولاً إلى تجاوز المستحيل وتحويله إلى إمكان ثانياً..

والإمكان المطلوب هو توليد مجتمع حضاري يحكمه الوحي الإلهي ويتعامل مع المعطى العلمي

ويسير على الهدي النبوي وآله الأطهار شبراً بشبر وذراعاً بذراع لذا، كان كل ما نطق به الصادق ومارسه عمـلاً وإرشـاداً وتـوجيهاً، ليس تقريراً وتأكيداً لمرحلة زمنية بعينها، بقدر ما كان تقريراً وتأكيداً لحقيقة سامية نذر نفسـه للجهـاد المستمـر من أجلها، مضحياً في سبيلها بكل شيء شأن آبائه العظام الذين كانوا منارات الإسلام السامقة على كل الأصعد والمستويات. إمامة وعلماً وجهاداً و عبادة واستشهاداً . .

وانطـلاقـاً من هذا الـوعي العبقري والحسّ الحضاري النابع من كونه الوارث الشرعي الوحيد للعلم النبوي، فقد كان الخط الناظم لمنهجه المعرفي، أن كل ما يزيد في معرفة الإنسان فهو علم. وأن لا شيء بعد التفقـه في الـدين وتطبيق أحكـامه، أفضل من معرفة العلوم والآداب والإنسان والطبيعة وقوانينها الناظمة. لذا، كان من الطبيعي أن يؤكـد على وحـدة العلم والـدين. ومن هنـا جاء ذلـك التطـابق العام بين آرائه العلمية وأحدث النظريات العلمية المعاصرة. فنراه على سبيل المثال، يؤكد لنا بأن المكان تبعي لا ذاتي، بعكس الزمان الذي لا وجود له بذاته وإنما يكتسب وجوده من أحاسيسنا.

ومن الأهمية بمكان الإشارة هنا إلى أنه كان صاحب أكبر ثورة في الفلسفة اعتبر المسافة شكل تجربتنا الخارجية، والزمن شكل تجربتنا الداخلية. لكن الفيلسوف الألماني عمانويل كانت، وإن أدرك بعد التجربة الزمنية والمكانية، إلاّ أنه أخفق في توظيفها لصالح بنية المنظر الحضاري حين تسلط عليه هاجس البعد عن الوحي.

في حين، استطاع الفكر الإسلامي إدراك وتوظيف تجربتي الزمان والمكان؛ بما يساهم في بناء الإنسان والعلم والحضـارة. فهـو لم يعتـبرهما شكلين فارغين، وإنما هما القوتين العظيمتين اللتين تحكمان كل الأشياء وفقاً لقانون السببية أو السنّة الإلهية التي لن نجد لها تحويلاً ولا تبديلاً لذا، نجدهما بالضرورة تنعكسان على حيـاتنـا بشكل عام. ولعل عدم وعى المسافة الرمزية والمجددة وبالتالي عدم وعي مقولتي الزمان والمكان ساهما في تحنيط بعض أنماط الفكر الإسلامي خلال أحقاب متطاولة، باعتبار المسافة أو المكان كواقع ورمز والزمان كواقـع أسـاسـه رمـز، لا يكتشفها ويتواصل معها الإنسان مباشرة، وإنما لا بدّ له من معاناة تعبد له الطريق دخولاً إلى عوالم معرفية وسلوكاً نامياً نحو توجهات حضارية.

ولقد عاش الإمام الصادق تجربتي الزمان والمكان هاتين عبر حياته كلها. فقد عايش التجربة المكانية بكل أبعادها في مدينة جده الرسول وآبائه الكرام. . تلكم المدينة التي تمّت فيها الرسالة أي ولادة الإنسان والحضـارة. . كما عايش التجـربـة الـزمانية. . والمسافة الرمز. . عايش الأولى عبر ذلك الزمن المسروق من حركـة التـاريـخ. . الـزمن المقهـور والمطـرود من ساحة الوعي الإنساني والحضاري. . زمن الضغط والقهر والقتل والتشريد والتنكيل لآبائه ورافعي لواء كلمة الحق في وجه الطغيان. كما عايش تجربة المسافة الرمز بكل قوتهـا وعنفـوانهـا مرات ومـرات، حينـما كان يستدعيه السفّاح أو أبو جعفر المنصور عن سوء طوية أو رغبة في التصفية الجسدية له، لكنه كان يخرج من المحنة بعناية إلهية ومدد نبوي وحكمة زرعها الله في صدره العظيم. .

لقد عايش الإمام تلكم التجربتين الزمانية والمكانية سواء بسواء. فالمسافة المجردة ليس لها بنية مادية أو معنوية بقدر ماهي تزاوج مستمر بين العقل والقلب.. بين الوحي والروح. وهذا يعني إجهاض وتزييف ونسف التفسير الإسطوري للعالم وبالتالي مصادرة التفسير المادي المحض أو الروحي المحض أو العقلي المحض.. الأمر الذي تطلب توليد تفسير حضاري يحقق إنسانية الإنسان عبر محور الوحي والعلم. وهذا ما سعى إليه الإمام جعفر الصادق عبر تجربته الحياتية سلوكاً وقولاً وتوجيهاً وإرشاداً..

صحيح، أن الإمام لم يمنهج ذلك كله عبر كتاب مفصل، لأن طبيعة العصر لم تكن تسمح بذلك الوعي الحضاري، لكنها تستطيع الرؤية الحضارية المعاصرة، استشفاف ذلك وإدراكه بكل وضوح حين تقف طويلاً لدى هذه الشخصية الفذّة التي قدمت معطياتها العالمية في الجامعة أو المدرسة الجعفرية بمنهجية فريدة من نوعها ومتعالية على عصرها.

وهنا لا بدّ من القول بأن البعد الماورائي لشخصية الإمام، يشعرنا بأنه كان يعايش أبداً التذكر.. تذكر الأمس مكاناً وزماناً.. تذكر الرسول وآل بيت الرسول ومدينة الرسول.. وما إلى ذلك من أحداث جسام يندى لها جبين الإنسانية خجلاً، وما ثم من مجازر وحشية أبكت الأرض والسماء..

نعم، كان الإمام يعايش ضرباً من التذكر، والتذكر في جوهره ليس إعادة ما كان، بقدر ما هو ولادة للأمس المنصرم.. وهذه ما نستطيع استشرافه من الخط الناظم للإمام الصادق كرمز رسولي، فما جاء به ليس ماكان مسجلاً في الذاكرة التاريخية، بقدر ماكان ولادة حيوية خلّاقة، ونبضاً إبداعياً متجدداً.. وأفقاً حضارياً موعوداً.. وبشكل، بإمكاني أن أقول بكل ثقة وتجرد وحسم: أن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، كان أعظم مصدر من مصادر تبليغ الوحي الإلهي والوعي المعرفي والبناء الاجتماعي والحضاري منذ القرن الثاني الهجري وحتى يومنا هذا..

ومع إنني ضد كل حسم في رأي، وموقف ما لم يكن وحياً، إلاّ أنني أملك الجرأة على مثل هذا الحسم الآن، وذلك ناتج عن رؤيتي المتواضعة، بأن إيمان الإمام الصادق؛ بإمكانية تغيير وتاثر الواقع القبلي والطغياني والهرطقي والتحريفي، إلى واقع حيوي أصيل ذي مرتكزات حضارية قوامها ومنطلقها الوحي والعلم والعقل والحب والعودة إلى بناء المدرسة المحمدية والدولة السامية التي بناها الرسول الأعظم صلوات الله عليه وآله، أقول، إن مثل هذا الإيمان؛ ينطوي على بطولة خارقة. وقد تسنّى له هذا القدر من الإيمان والسلاح المعرفي والنضالي، لأنّه كشف عن معنى ما هو حضاري، باعتباره وارثاً للعلم النبوي أولاً، وهاضماً لكل التيارات الفكرية المعاصرة له ثانياً، ومسلماً بإيمان رسولي قادر على زلزلة الجبال ثالثاً، ولأنه محاط بالعناية الإلهية والمدد النبوي قبل ذلك كله.

فلقد آمن بكل وجوده، بأن إعادة بناء إسلام الحضارة والنقاء والصفاء مجدداً يتوقف أولاً وقبل كل شيء على تدفق ينابيع الحياة الروحية في المجتمع الإسلامي، إضافة إلى تدفق ينابيع الوعي المعرفي،

وتحويل الشعار إلى واقع والنظرية إلى تطبيق..

وهـذا ما فعله من قبـل حامـل رسـالـة الإسـلام والحضارة والسلام أبوه الأكبر محمد بن عبدالله عليه وعلى آله ألف صلاة وسلام.. ومن أحق من ابنه الصادق بحمل الرسالة كما يجب أن تحمل!؟





الدكتور زهير البابا



الإمام جعفر الصادق (ع) وتلميذه جابر بن حيان



بسم الله الرحمن الرحيم

من المقررات الدراسية التي كانت ولم تزل تلقى على طلاب المدارس الإعدادية والثانوية في القطر العربي السوري مقرر تاريخ الدول العربية والإسلامية وتاريخ حضارتها، وفي الكتب المؤلفة للمقرر الأخير يخصص عادة فصل للكلام عن تقدم علم الكيمياء على يد خالد بن يزيد وجابر بن حيان، وعن المواد الكيميائية التي استطاع جابر أن يحصل عليها.

أما في كلية الطب والصيدلة، والتي كانت تدعى قبل عام (١٩٤٦م) بالمعهد الطبي العربي فقد كان المرحوم الأستاذ عبد الوهاب القنواتي، أستاذ الكيمياء المعدنية والحيوية، يخصص في كل عام دراسي محاضرة للكلام عن علم السيمياء، والمؤلفات

والطرق التي استخدمها جابر بن حيان للحصول على حجر الفلاسفة أو الأكسير، المستخدم في تحويل المعادن البخسة إلى ثمينة.

لقد اطلعت خلال مرحلتي التعليم الثانوي والجامعي، وبصورة موجزة، على أعمال ومؤلفات جابر، لكنني لم أطلع على سيرة حياته ولا على أسماء أساتذته، كما لم أتصفح أي كتاب من مؤلفاته.

وفي عام (١٩٧١م) كلفت بتدريس تاريخ الصيدلة في جامعة دمشق، علماً بأنني كنت ولم أزل أستاذاً للعقاقير. فاضطررت بحكم علمي الجديد أن أتعمق بدراسة العلاقة الكائنة بين العلوم الطبية والصيدلية والكيميائية، معتمداً على المراجع الأجنبية والعربية، فاطلعت على أفكار بعض العلماء في سيرة جابر وصلته بالإمام جعفر(ر).

وحينما أوفدت إلى فرنسا عام (١٩٨١م) متفرغاً للبحث العلمي انصرفت كلياً لدراسة تاريخ الطب والصيدلة في البلاد الإسلامية. وقد استفدت كثيراً من المراجع العلمية والمخطوطات الثمينة الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس، وكان مما عثرت عليه في تلك المكتبة ثلاثة مخطوطات نادرة أرقامها (٥٢٣٤ ـ ٤١٢١ ـ ٣٢٣١) وهي تضم بعض مؤلفات جابر الهامة وهي، كتاب المجردات ـ كتاب الحديد ـ كتاب الإحراق، إلى جانب مؤلفات أخرى لخالد بن يزيد وغيره.

وفي مكتبة غونتر، المشهورة ببيع الكتب الأثرية في باريس حصلت على نسخة من الجزء الأول من كتاب العالم هوليارد Holmyard، والذي يحوي أحد عشر كتاباً من مؤلفات جابر الهامة، والتي قام العالم المذكور بتحقيقها ونشرها عام (١٩٢٨م) ـ وسأذكر بإيجاز بعض ما جاء في تلك المؤلفات، والتي تعطي فكرة جيدة عن جابر:

١ ـ كتاب البيان:

قصد به جابر تفهيم الطالب بأسهل الطرق العلمية، وبطريقة تشبه أسلوب أخوان الصفا في رسائلهم، مبادىء علم السيمياء. وذكر فيه أنه لا يريد أن يخلط العلم بالفلسفة والفلسفة بالدين، لكنه لم يتكلم عن أي شيء يتعلق بالسيمياء عملياً.

٢ ـ كتاب الحجر:

ويقصد جابر بالحجر المادة الأساسية للصنعة، والتي يقع عليها التدبير وفيها يحصل التأثير، وهوما عرف أهل الصنعة بحجر الفلاسفة، وفيه يقول جابر «إعلم أن حجرنا قابل لكل صنعة يوصف بها، لذلك اتسع كلام الناس فيه» وفي هذا الكتاب ذكر جابر أسماء المراجع التي استفاد منها حينما صنف مؤلفاته، وفيه

ورد قول الإمام علي(ر) الذي قاله في خطبة البيان، حينها سئل هل لعلم الكيمياء وجود؟ ـ فقال «لعمري إن له وجود، وقد كان، وهو كائن، وسيكون».

٣ ـ كتاب النور:

يقول فيه جابر أن أول ما وضع من المؤلفات هو كتاب الرحمة. وفي كتاب النور بيّن جابر ضرورة تنقية المواد الأولية المستعملة للحصول على الذهب والفضة.

٤ ـ كتاب الإيضاح:

وفيه يشرح جابر نظريته الأساسية وهي أنه جمع العناصر أساسها من اتحاد الزئبق بالكبريت.

٥ ـ كتاب أسطقس الأُسّ الأول:

ألفه جابر على رأي الفلاسفة، وصنف فيه المواد إلى أجساد وأرواح، وقال إن كل واحد من الأركان الأربعة اسطقس، كما اعتبر حجر الفلاسفة هو اسطقس الأس. (الاسطقس هو العنصر، والعناصر أربعة: الماء والهواء والتراب والنار).

٦ ـ كتاب أسطقس الأسّ الثاني:

ألفه جابر على رأي أهل الدين، الذين قالوا: إن الصنعة حق، وأنها لا تتم إلا بالصلاة والطهارة والطاعة لله، وهي تحصل بالوحي لنبي أو لوصي يأتي من بعده. وأن موسى بن عمران كان أول من ظهر له هذا العلم، وكان يعمله من ثمار أدوية، وأن قارون سرقه منه، وقد أجمعت الأراء أن هذا العلم لا يتم إلا لمن اختلى بالفلوات، وصام وأشعل النار والبخور، وقدّم القرابين. وفي هذا الكتاب تكلم جابر عن بليناس الحكيم، وعما نقش في اللوح الزمردي الذي كان هرمس يحمله بيده.

٧ ـ كتاب أسطقس الأسّ الثالث:

خصصه جابر للكلام عن رأي أهل الصناعة في الوصول إليه، وقال عن نفسه أنه من أهل الصناعة، أي على رأيهم. وبيّن في هذا الكتاب أن الله(ج) جعل الإنسان ـ العالم الأصغر، وهو مماثل بصفاته للعالم الأكبر الذي هو الفلك. كما ذكر أيضاً فضل سيده جعفر بن محمد(ر) ومعلمه حربي الحميري، وبيّن بصورة شبه غامضة طريقة الحصول على الحجر أو الأكسير بالتدابير والمواد الكيميائية.

٨ ـ كتاب تفسير كتاب الأسطقس:

يقول جابر الأسطقس في لغة اليونانيين هو الأساس من البنيان. وهذا الكتاب أحد كتبه المائة وأحد عشر، وفيه تفسير لكثير من مصطلحات السيمائيين الغامضة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٩ ـ كتاب التجريد وكتاب المنفعة :

ألف جابر هذا الكتاب كما يقول بعد فراغه من تأليف كتبه المائة وأحد عشر كتاباً، وقال أيضاً أنه أطلق اسم المجردات على الكتاب الأخير من المجموعة المذكور. وفيه جردٌ لآراء من تقدّم من الفلاسفة، وذكرٌ لمطالبهم في هذه الصناعة.

١٠ ـ كتاب الرحمة الصغير:

وفيه بيّن جابر العلاقة الحقيقة الموجودة بينه وبين أستاذه الإمام جعفر(ر) الذي فيه يقول له: «يا جابر فقلت لبيك ياسيدي، فقال هذه الكتب التي صنفتها جميعها، وذكرت فيها الصنعة، وفصلتها فصولاً، وذكرت فيها من المذاهب وآراء الناس، وذكرت الأبواب، وخصصت كل كتاب منها بعمل مخصوص، وفرّقت التدابير فيها، فمنها ما هو على طريق مداواة الأمراض التي لا يفهمها إلا عالم وصل، ومنها ما هي على طريق النجوم من المناظرات والمقابلات، واستوعبت الصنعة في العلل في علم الفلك، وبعيدٌ أن يخلص منها شيء إلا الواصل، والواصل غير محتاج إلى كتبك ومنها ما هو بطريق الحروف، التي تارة تثبت حقائقها وتارة تفسد. وهذا علم (أي علم الحرف) قد اندرس وباد أهله، وما بقي أحد بعد ليفهم له حقيقة. ومنها أيضاً ما هو موضوع على الخواص، ثم يُقصد ذلك بالقياس والتخمين، الذي لا يبعد أن تساوي فيه غيرك. ثم وضعت كتباً كثيرة في المعادن والعقاقير فتحير الطلاب وضيعوا الأموال، ودعتهم الحاجة إلى النصب على أرباب الأموال وغيرهم. وكل ذلك من قبلك وقبل ما وضعت في كتبك.

والآن يا جابر استغفر الله، وارشدهم إلى عمل قريب سهل، تكفّر به ما تقدّم لك وأوضح، وما يأخذه إلا من قسم الله له فيه برزق».

ثم يقول جابر «يا سيدي أشر عليّ أيّ الباب أذكر؟ فقال ما رأيت لك باباً تاماً مفرداً إلا مرموزاً مدغوماً في جميع كتبك، مكتوماً فيها. فقلت قد ذكرته في (كتاب) السبعين، وأشرت إليه في كتاب النظم، وفي كتاب الملك، وفي كُتاب صنعة الكون، وفي كتب كثيرة من المائة ونيف.

فقال: صحيح ما ذكرته من ذلك في أكثر كتبك، وهو في الجمل مذكور، غير أنه مُدغم مُخلط بغيره، لا يفهمه إلا الواصل. والواصل مستغنٍ عن ذلك. ولكن بحياتي يا جابر أفرد فيه كتاباً بالغاً بلا رمز. واختصر كثرة الكلام. ولا تفسد الكلام بما تضيف إليه كعادتك. فإذا تمّ فاعرضه عليّ. فقلت السمع والطاعة. ثم ابتدأت ووضعت هذه الكتاب وسميته كتاب الرحمة الصغير».

إن هذه الفقرة من كلام جابر بن حيّان تدل على عدة أمور:

أولاً) كان الإمام جعفر الصادق(ر) مطلعاً على جميع أعمال ومؤلفات جابر ويتابعه في عمله خطوة خطوة.

ثانياً) كان الإمام معتقداً بنظرية السيمائيين، والتي تقول بإمكانية تحويل المعادن الخسيسة إلى ثمينة.

ثالثاً) لقد شعر الإمام بتأثير مؤلفات جابر في أبناء جيله، وأنها تركت صدى واسعاً جعلت كثيراً منهم يحاول تقليده. فكثر الكذب والخداع والغش وهو أمر لا يريده الإمام.

رابعاً) إن كلام جابر يدل على المحبة والثقة والتقدير لآراء استاذه، لذلك أسرع إلى تنفيذها دون إبطاء؛ ولكنه لم يستطع أن يتخلص تماماً من الغموض المحيط بأقواله، وذلك لكثرة استعماله لمصطلحات السيمائيي. ولكن الباحث المتمرس والعارف لتلك المصطلحات والمبادىء التي يسير عليها جابر يدرك بسهولة معنى أقواله.

١١ ـ كتاب الملك:

يقول جابر في مقدمة هذا لكتاب: «الحمد لله الملك، مالك الدنيا والآخرة، الجواد الكريم. إعلم أيها القاريء لشيء من هذه الكتب أننا ضمناً في كتابنا هذا علل الطلسمات وكيف هي، وإن ذلك (عمل) الملك الأعظم، لذلك سميناه كتاب الملك».

وبيّن جابر في كتابه هذا كيف يتم صنع الطلسمات، التي تنوب عن عمل العلويات، وذلك أنهم مثّلوا الشيء الذي أرادوا استخدامه بصورةما، ثم رصدوا أوقات تلك الأشياء التي تعطي فيها قواها، فنصبوا تلك الصور عليها، واستمدوا منها فصارت هذه الطلسمات والحيل كأولاد العلويات (الكواكب) فهي تراعيها وتحفظها على طول الأبد». ويقول أيضاً «مثال الطلسمات مثال الخواص تراها كثيراً، في الأشياء من الحيوان والنبات والحجر». ثم يقول: ويجب أن تفصل بين فعل الطلسم والخاصية، فإنهما قد يشكلان، ولا يفصل بينهما إلا الماهر». وبيّن بعد ذلك طريقة التفريق بينهما، وطرح بعض الأمثلة على ذلك. وفي هذا الكتاب تكلّم جابر عما يُسمى بعلم التوليد، وأتى على ذلك بأمثلة منها: يُؤخذ جذر القلقاس، ويعجن بالتمر عجناً محكماً، ويزرع في أي بلد كان، فتنتج منه شجرة الموز.

وبما أن هذا العلم يتنافى مع مبادىء الدين الإسلامي الحنيف، لذلك خشي جابر من غضب أستاذه فقال:

«وحق سيدي إن علم الطلسمات قد بطل منذ زمان أفلاطون».

لقد أنكر بعض المؤرخين والمستشرقين وجود أي علاقة بين الإمام جعفر الصادق(ر) وبين الكيميائي جابر بن حيان، حتى أن المؤرخ محمد بن اسحق النديم البغدادي، الذي صنّف كتاب الفهرست عام (٣٧٧هـ)، بالرغم من سعة إطلاعه وتشيّعه، يقول عن جابر المتوفى عام (١٨٠هـ) مايلي:

«لقد اختلف الناس في أمره، فقالت الشيعة إنه من كبارهم وأحد الأبواب. وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق رضي الله عنه. وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم، وله في المنطق والفلسفة مصنّفات. وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت إليه في عصره، وأن أمره كان مكتوماً».

ثم قال بعد ذلك «إن جماعة من أهل العلم وأكابر الورّاقين يقولون إن هذا الرجل لا أصل له ولا حقيقة، وبعضهم قال إنه ما صنّف، إن كان له حقيقة، إلا كتاب الرحمة. وإن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها».

لقد ذكر ابن النديم، في كتابه الفهرست، أسماء كثير من مؤلفات جابر بن حيان، الذي جعلها على شكل مجموعات وهي:

آ ـ كتب جابر في الصنعة، عددها مائة واثنا عشر كتاباً، منها كتابان أحدهما قدمه إلى منصور بن أحمد البرمكي، وعنوانه (تليّين الحجارة)، وأهدى الثاني إلى جعفر بن يحيى البرمكي وعنوانه (أغراض الصنعة).

ب ـ ولجابر سبعون كتاباً منها أربعون تكلم فيها عن مواضِع دينية وفلسفية واجتماعية، وعشر رسائل في الحجر ومثلها في النبات.

جـ ـ وله عشر مقالات صحح فيها آراء لبعض الفلاسفة اليونان، أمثال فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس وأركاغانيس وديموقريطس.

د ـ وله عشرون كتاباً في مواضيع عامة وعشرة كتب في الطلسمات.

هـ ـ ويقول جابر أنه ألف ثلاثمائة كتاب في الفلسفة، وخمسمائة كتاب في الطب، وخمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة.

و ـ ومن كتبه: كتاب المنطق على رأي أرسطوطاليس ـ كتاب الزيج اللطيف ـ كتاب شرح إقليدس ـ كتاب

لقد أنكر بعض المؤرخين والمستشرقين وجود أي علاقة بين الإمام جعفر الصادق(ر) وبين الكيميائي جابر بن حيان، حتى أن المؤرخ محمد بن اسحق النديم البغدادي، الذي صنّف كتاب الفهرست عام (٣٧٧هـ)، بالرغم من سعة إطلاعه وتشيّعه، يقول عن جابر المتوفى عام (١٨٠هـ) مايلي:

«لقد اختلف الناس في أمره، فقالت الشيعة إنه من كبارهم وأحد الأبواب. وزعموا أنه كان صاحب جعفر الصادق رضي الله عنه. وزعم قوم من الفلاسفة أنه كان منهم، وله في المنطق والفلسفة مصنّفات. وزعم أهل صناعة الذهب والفضة أن الرياسة انتهت إليه في عصره، وأن أمره كان مكتوماً».

ثم قال بعد ذلك «إن جماعة من أهل العلم وأكابر الورّاقين يقولون إن هذا الرجل لا أصل له ولا حقيقة، وبعضهم قال إنه ما صنّف، إن كان له حقيقة، إلا كتاب الرحمة. وإن هذه المصنفات صنفها الناس ونحلوه إياها».

لقد ذكر ابن النديم، في كتابه الفهرست، أسماء كثير من مؤلفات جابر بن حيان، الذي جعلها على

شكل مجموعات وهي :

آ ـ كتب جابـر في الصنعـة ، عددهـا مائـة واثنـا عشـر كتـاباً ، منها كتابان أحدهما قدمه إلى منصور بن أحمد البرمكي ، وعنوانه (تليّين الحجارة) ، وأهدى الثاني إلى جعْفر بن يحيى البرمكي وعنوانه (أغراض الصنعة) .

ب ـ ولجـابـر سبعـون كتـابـاً منهـا أربعون تكلم فيها عن مواضِع دينية وفلسفية واجتماعية ، وعشر رسائل في الحجر ومثلها في النبات .

جـ ـ ولـه عشـر مقـالات صحـح فيهـا آراء لبعض الفـلاسفة اليونان ، أمثال فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطو طاليس وأركاغانيس وديموقريطس .

د ـ وله عشرون كتاباً في مواضيع عامة وعشرة كتب في الطلسمات .

هـ ـ ويقول جابر أنه ألف ثلاثمائة كتاب في الفلسفة ، وخمسمائة كتاب في الطب ، وخمسمائة كتاب نقضاً على الفلاسفة .

و ـ ومن كتبه : كتاب المنطق على رأي أرسطو طاليس ـ كتاب الزيج اللطيف ـ كتاب شرح إقليدس ـ كتاب شرح الماجسطي ـ كتاب المرايا .

ز ـ ألف جابر أيضاً كتباً في الزهد والمواعظ والغرائم والنيرنجات وعلم الخواص . ويقدر الدكتور أهواني عدد مؤلفاته بثلاثة آلاف بين كتاب ورسالة .

من المعلوم أن ابن النديم كان ورّاقاً ، ويقال بأن كثيراً من المؤلفات التي وردت أسماؤ ها في فهرسته كانت في حوزتـه ، ومنهـا بدون شك بعض مؤلفـات جابـر ، لذلـك نجـده يقول في الرد على من يقول بأن مؤلفات جابر كتبها بعضهم ونحلوه إياها : «وأنا أقول إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب فيصنّف كتاباً يحتوي على ألفي ورقة ، يتعب قريحته وفكره بإخراجه ، ويتعب يده وجسمه . بنسخه ، ثم ينحله لغيره ، إما موجوداً أو معـدومـاً ، ضرب من الجهـل . وإن ذلـك لا يستمـر على أحـد ، ولا يدخـل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم . وأي فائـدة في هذا وأي عائـدة؟ ـ إن هذا الـرجـل له حقيقة ، وأمره أظهر وأشهر ، وتصنيفاته أعظم وأكثـر . ولهـذا الـرجـل كتب في مذاهب الشيعة أوردناها في مواضعها ، وكتب في معان شتى من العلوم ، قد ذكرتها في مواضعها من الكتاب . وقد قيل أن أصله من خراسان ، والرازي يقول في كتبه المؤلفة في الصنعة «قال استاذنا أبو موسى جابر بن حيان» .

قد يستغـرب الإنسـان لأول وهلة وُجود علاقة صداقة وتلمذة بين شخصية الإمام جعفر الصادق(ر) وبين جابر بن حيان ، لما بينهما من الاختلاف في عدة صفات :

فالإمام جعفر، ويدعى أبو عبد الله بن محمد الباقر(ر) ، كان أحد أركان الأسرة الهاشمية ، لا بل كان

أبـرزهـا خلال فترة طويلة امتـدت بين العصـرين الأمـوي والعبـاسي ، فقـد ولد في المدينة بين عام (٨٠ـ ٨٣)هـ، وتوفي في المدينة عام (١٤٨)هـ، أي بعد مرور عشر سنوات على ابتداء حكم أبي جعفر المنصور، الخليفة العباسي .

أما جابر بن حيان فقد اختلف المؤرخون في تعيين تاريخ ومكان ولادته ونسبه . ولما تزل سيرة حياته غامضـة لصنعـة أصله وفقـر أسـرتـه . ويقـول الـدكتـور أهواني في مقالة نشرها في مجلة المجلة ، أنه ولد عام (١٢٠)هـ، وتـوفي عام (١٩٠)هـ، وهـذا يعني أنـه حينـما توفي الإمام الصادق(ر) كان عمر جابر لا يتجاوز (٢٨) عاماً .

لقد ذكر ابن النديم أن أصل جابر من خراسان ، بينما يصفه ابن خلكان بأنه طرسوسي ، ولم يعيّن أي منهما تاريخ ولادته أو وفاته . أما في كشف الظنون فقد ورد أن وفاته كانت عام (١٨٠)هـ.

ويقول الدكتور إسماعيل مظهر، في تاريخ الفكر العربي ، إن خبر اتصال جابر بالبرامكة ، وما ذكره الجلدكي في كتابه (نهاية الطلب) أنه بقي إلى زمن المأمون ، لأن البرامكة ظلوا متمتعين بثقة الرشيد من عام (١٧٠هـ) إلى عام (١٨٨هـ) ، وقـد بويـع المأمـون بالخـلافـة عام (١٩٨هـ) ، لذلك يمكن أن يكون هذا التاريخ تاريخ وفاة جابر.

ويعلّق المرحـوم السيـد محسن الأمـين ، في موسـوعتـه أعيان الشيعة ، على التاريخ الأخير فيقول بما معناه : «إذا صح ذلك، أي بقاء جابر إلى زمن المأمون ، فليس يعني بقاءه إلى زمن خلافته» .

ومن أقوال الدكتور أهواني أن حيّان والد جابر كان من قبيلة الأزد (العربية) . وأنه كان خلال الحكم الأموي يعمل عطاراً في الكوفة ، كما كان عضواً في خلية تعمل لتقويض الحكم الأموي . ولما انكشف أمره فرّ إلى (طوس) بخراسان ، حيث ولد له فيها جابر. وإن والي خراسان قتل حيّان لاتهامه بالتشيّع ، فأصبح جابر يتيماً غريباً، فقدّر الله له من أرسله إلى أهله الأزديين في الكوفة .

لقد ذكر جابر في أحد مؤلفاته أنه درس في صباه القرآن والرياضيات والعلوم على يد رجل عالم اسمه (حربي الحميري) ، وكان ذلك غالباً عقب وصوله إلى الكوفة . ولكي يتمكن جابر من تعلم اللغة العربية الفصحى رحل إلى البادية ، حيث خالط أهلها مدة من الزمن ، ثم عاد بعدها إلى الكوفة ليزاول العمل في المكان الذي كان والده يقوم فيه ببيع الأعشاب والأدوية .

لقد أُطلق على جابر بن حيان لقب الصوفي ، والصوفية أسم لفئة من المسلمين المتقشفين ، ظهرت في العالم الإسلامي كرد فعل على الترف والظلم والاضطهاد الذي ساد في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي . وكان المتصوفون يجتمعون في خلوات سرّية لينصرفوا إلى العبادة والتأمل . واعتنق بعضهم كثيراً من أفكار معتقدات أصحاب الافلاطونية الحديثة ، والتي كان لها تأثير عميق في توجيه علم السيمياء في زمن جابر بن حيان ، وقد تكلم عن ذلك جابر في كتابه اسطقس الأسّ الثاني كما مر.

لم يكن الإمام جعفر الصادق(ر) من المتصوفين، بل كان على العكس من ذلك، فقد روى الكليني بسنده عنه أنه قال: «إن الله عز وجل يحب الجمال والتجمل، ويبغض البؤس والتباؤس». كما روى عنه أيضاً أنه قال:

«إذا أنعم الله على عبده بنعمة أحب أن يراها عليه، لأنه جميل يحب الجمال». وروى الكليني بسنده أن رجلاً قال للصادق عليه السلام «أصلحك الله ذكرت أن علي بن أبي طالب(ر) كان يلبس الخشن، يلبس القميص بأربعة دراهم وماأشبه ذلك، ونرى عليك اللباس الجيد، فقال له: «إن علي بن أبي طالب صلوات الله عليه كان يلبس ذلك في زمان لا ينكر (ذلك اللباس). ولو لبس مثل ذلك اليوم لشهّر به، فخير لباس كل زمان لباس أهله».

لقد روي عن مالك بن أنس(ر) أنه قال: «ما رأت عيني أفضل من الإمام الصادق فضلاً وعلماً وورعاً. وكان لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إما صائماً وإما قائماً وإما ذاكراً. وكان كثير الحديث طيب المجالسة كثير الفوائد».

كان عالماً ومحباً لنشر العلم فقد روى صالح بن الأسود، سمعت جعفر بن محمد(ر) يقول:

«سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي». كان أكثر أئمة أهل البيت رواية للحديث ونطقاً بالحكم من الأقوال، ولم ينقل رواة الحديث عن أحد من أهل بيت الرسول صلى الله عليه واله وسلم كما نقل عنه.

ومن أقواله الحكيمة **«وجدت علم الناس كلهم في أربع أمور: أولها: أن تعرف ربك، والثاني: أن تعرف ما صنع بك، والثالث: أن تعرف ما أراد منك، والرابع: أن تعرف ما يخرجك عن دينك».**

لقد عاش الإمام جعفر(ر) كما ذكرنا في أواخر زمن الأمويين وأوائل حكم العباسيين. وكان الحكام في تلك الفترة كثيروا البطش والتنكيل بأعدائهم ومنافسيهم والثائرين علي حكمهم. فالأمويون شعروا بقرب زوال دولتهم، فازدادوا بها تشبثاً. واغتر العباسيون بانتصارهم، وسعوا لتثبيت أقدامهم، فأعملوا السيف في رقاب أعدائهم.

لقد جمع الإمام جعفر في نسبه بين الأسرة الهاشمية وأسرة أبي بكر الصديق(ر)، ذلك لأن أباه كان الإمام محمد الباقر، وكانت أمه أم فروة، فاطمة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، كما كانت أمها أسماء بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، وهذا يدل على معنى قول الإمام جعفر أن أبا بكر قد ولدني مرّتين.

لقد أطلق عليه أسم الصادق لأنه لم يعرف عنه الكذب يوماً. وقد تحلّى بالإضافة إلى علمه وورعه بدماثة الأخلاق وحس السياسة. ومن أقواله «قولوا للناس أحبّ ما يقال لكم» وقوله «إن الله عز وجل يبغض اللّعان السبّاب، الطعّان الفحاش، والسائل الملْحف. ويحب الحيّي الحليم، العفيف المتعفف» ولهذا

السبب هفت إليه قلوب أهل السنة والشيعة، فأكنّوا له المحبة والإحترام.

كان الإمام جعفر(ر) أول من عُرضت عليه الخلافة بعد انصرام عهد الأمويين. فقد أرسل إليه أبو سلمة، حفص بن سليمان الهمذاني، كتاباً بهذا الخصوص، فأجابه لست بصاحبكم فإن صاحبكم بأرض الشراة. .» ويذكر المسعودي في كتابه مروج الذهب أن إبراهيم بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب(ر) قد ثار بالبصرة على أبي جعفر المنصور في أول رمضان عام ١٤٥هـ، وكان يدعو لأخيه محمد النفس الذكية، فقاتل جيش المنصور قتالاً شديداً ولكنه هزم وقتل هو وأخوه. وهذا يدل على بعد نظر الإمام جعفر وتقديره لعواقب الأمور.

لقد تأثر الإمام الصادق بدون شك لمصرع عدد كبير من أهل بيته وشيعته، فكان يشكو للمنصور سوء حال الشيعة في زمانه، فقال له المنصور يوماً «يا أبا عبد الله قد كان ينبغي لك أن تفرح بما أعطانا الله من القوة، وفتح لنا من العز، ولا تخبر الناس أنك أحق بهذا الأمر وأهل بيتك فتغرينا بك وبهم».

مما لا شك فيه أن الخليفة المنصور كان يكن المحبة والإحترام للإمام جعفر، وأكبر دليل على ذلك أنه بعد حوادث البصرة بثلاث سنوات دخل إسماعيل بن علي بن عبد الله بن عباس(ر) على المنصور يوماً فرآه وقد اخضلّت لحيته بالدموع. فسأله عن سبب بكائه فأجابه: أما علمت ما نزل بأهلك؟ ـ فقال وما ذلك يا أمير المؤمنين؟ ـ فقال: إن سيدهم وعالمهم وبقية الأخيار منهم توفي. . .» ويقصد بذلك الإمام جعفر الصادق رحمه الله.

مؤلفات الإمام جعفر الصادق وتأثيره في نفوس طلابه:

كان عصر الإمام الصادق عصر تشدد الحاكمين، وزيادة وطأة جورهم على آل البيت ومن يلوذ بهم. ومن أجل ذلك كان الإمام مضطراً لأن يعمل بالخفية، وأن يجعل التقية سياسة خاصة له ولأبنائه وشيعته، فيقول «التقية ديني ودين آبائي» وذلك إبعاداً للشبهة والتهم عنهم، وحفظاً لحياتهم من تهديد السلطان لهم بالحبس أو الضرب أو الإهانة.

لهذا لم يكن للإمام الصادق مجلساً إلا الجامع يجتمع فيه مع تلاميذه ومريديه، وكان ينتهز بعض الفرص للتصريح بأفكاره وآرائه الدينية أو الطبية لطلابه، علماً أنه عود من روى عنه من الثقاة كما قيل يقارب أربعة آلاف رجل.

أما من روى عنه علوماً تتعلق بأمور خفية، كالسيمياء وسر الخليقة وعلم الحرف، فقد شُك بأمره، ونفي وجوده نفياً قاطعاً من بعض المؤرخين والمستشرقين.

لقد سعيت للحصول على مؤلفات الإمام جعفر، وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم الطبيعية والطبية

والخفيـة، الصحيحـة منها أو المنسوبة فوجدت في موسوعة أعيان الشيعة لائحة تضم ثلاثاً وعشرين مؤلفاً، بين كتاب ورسالة، بالإضافة إلى بضع وصايا، وعدد لا يحصى من الحكم والمواعظ. وقد لفت نظري من تلك المؤلفات مايلي:

١ ـ كتاب توحيد المفضّل. ٢ ـ كتاب الإهليلجة. ٣ ـ مجموعة الرسائل التي رواها عنه جابر بن حيان.

لقد تفضل السيد المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق باهدائي نسخة من كتاب توحيـد المفضـل، وهـو الكتـاب الـذي أمـلاه الإمـام جعفـر الصادق على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي الكوفي، المتوفى في نهاية القرن الثاني للهجرة في زمن المأمون.

لقـد استبعـد بعض النقـاد أن يكـون هذا الكتـاب صحيـح الإسنـاد إلى الإمـام جعفـر(ر). وقال بعضهم، أمثـال المؤرخ الحلبي الشيـخ محمـد راغب الطبـاخ، أنهـا من تأليف الجاحظ. وأخذ بقوله بعض البـاحثـين المحـدثـين، معتمـدين على بعض الحجج. وقد فنّدها الأستاذ محمد الخليلي في كتابه (من أمالي الإمام الصادق)، ونفى بالنتيجة أن يكون هذا الكتاب من تأليف الجاحظ وأثبت أنه من تأليف الإمام جعفر(ر).

يعتبر كتاب توحيد المفضل، أو دلائل التوحيد، نموذجاً لكتاب حديث في تبسيط العلوم. وقد أراد مؤلفـه أن يثبت وحـدانيـة الخالق عن طريق التأمل فيما خلق. وهويتألف من مقدمة قصيرة وأربع مجالس. تكلم في المقـدمـة عن رجـل يدعى عبد الكريم بن أبي العوجاء. وكان من الزنادقة الدهريين، الذين كانوا يشككون المسلمين بعقيدتهم، ويقولون أنه لا يوجد للكون صانع ولا بدء، وأن الأشياء تتكون من ذاتها. وقد جرت بينه وبين المفضل محاورة حاول فيها ابن أبي العوجاء أن يقنع المفضل برأيه، فثار الأخير وذهب إلى المسجـد حيث التقى باستـاذه الإمـام جعفـر. ولمـا أفضى إليـه بما قال ابن أبي العوجاء أملى عليه هذا الكتاب خلال أربع جلسات.

في المجلس الأول تكلم الإمام عن أسبـاب الخلقـة ومعانيها، وتهيئة العالم، وتأليف أجزائه، وخلق الإنسان، ومراحل نموه، ووصف أعضائه وحواسه وأجهزته، وعمل كل منها. ثم تكلم عن مميزات الإنسان عن بقية الحيوانات.

وفي المجلس الثـاني قام بتصنيف الحيـوانـات إلى آكـلات لحم، وطيـور، وذوات أربـع قوائم، وذكر صفات وطباع بعضها.

ثم تكلم عن النحـل والعسـل، والجـراد وبلائه، ووصف السمك وعلل كثرة نسله. واختتم الكلام بذكر عظمة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين.

وفي المجلس الثـالث تكلم عن السماء ومـا فيهـا من شمس وقمـر ونجـوم، وأفعال تلك الكواكب،

وأهميـة كل منهـا لحيـاة الإنسـان . ثم تكلم عن الأرض وهيئتها ، وفوائد الماء والهواء والنار، والصحو والمطر، ومنـافـع الجبـال ، وأنـواع المعـادن والنبـاتـات . وخصّ بعض النبـاتـات بشيء من التفصيل ، وهي الرمان واليقطـين والنخـل . ويتجلّى في هذا المجلس اهتـمام الإمـام بأنـواع المعـادن والأحجـار، ومعرفته لصفاتها وفوائدها . ولكنه ينفي في بحثه إمكانية صنع الذهب والفضة فقال «فإنهم لو ظفروا بما حاولوا من هذا العلم كان لا محالة سيظهر ويستفيض في العالم ، حتى تكثر الفضة والذهب ، ويسقطا عند الناس . . »

وفي المجلس الرابع تكلم الإمام عن الموت والفناء والآفات ، وعن أسبابها وانتقاد الجهال لوجودها . ثم تكلم عن طعن بعض الفرق بوجود مدبّر لهذا الكون ، وانتقد ماني الذي ادّعى علم الأسرار، كما انتقد (المعطّلة) وهم الذين أرادوا أن يدركوا بالحس ما لا يدرك بالعقل ـ وناقش أصحاب الطبائع الذين يقولون أن الطبيعة لا تفعل شيئاً لغير معنى أو سبب .

لقـد تكلم الإمـام في هذا الكتـاب عن مواضيـع تشبـه ما ورد في كتاب العلل أو سر الخليقة لبليناس الحكيم الرومي . كما أنه حينما تكلم عن أصحاب الطبائع ذكر أرسطاطاليس ، علماً بأنه يوجد للعالم المذكور مؤلف في طباع الحيوان ، وهو كتاب ترجمه يوحنا بن البطريق في عهد المأمون . أما كتاب العلل فيّدعي مؤلفه أنه استلمه من هرمس مثلث الحكمة ، في داخل سرب موجود في بلدته طوانة Tyana ، مع نص آخر مخطوط على صفيحـة زمـرديـة ، ولذلك يدعوها باللوح الزمردي . وحسب ما يقول بليناس إن الكتاب المكتشف في السرب يعطي معلومات عن أسرار الخليقة ، . بينما يعلّم (لوح الزمرد) صنعة الطبيعة .

لقـد قام بتحقيق كتـاب العلل البـاحثة الألمانية أورسولا وايسر، تحت إشراف الأستاذ فؤاد سزكين ، ونشـره معهـد الـتراث العلمي العـربي في حلب سنـة ١٩٧٩م . وتقـول فيه الباحثة أن بليناس عاش على الأغلب في القـرن الأول للميـلاد ، وتـرجم كتـابـه إلى السـريانية والعربية قبل عصر الترجمة ، لذلك ليس بمستغـرب أن يطّلع الإمـام الصـادق على نسخـة منـه . وهو أمر يمكن أن ينطبق على كتاب طباع الحيوان لأرسطوطاليس أيضاً .

كتاب الإهليلجة :

ويقال له أيضاً حديث الإهليلجة Myrobalan ، وهو برواية المفضل بن عمر الجعفي ، وقد ورد نصّه في الجـزء الثـاني من كتـاب البحار. وملخصه أن المفضل كتب إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق(ر) يعلمه فيه أن أقواماً ظهروا من أهل هذه الملة يمجدون الربوبية ، ويجادلون على ذلك . ويسأله أن يردّ على قولهم ، ليحتج عليهم فيما ادّعوا به .

فأجابه الإمام بكتاب ذكر فيه أن طبيباً من بلاد الهند كان يجادله بنفس الموضوع . وبينما هو يوماً يدقّ إهليلجة ، ليخلطها بدواء احتاج إليه ، تعرّض لإنكار الربوبية ، فأدلى إليه الإمام بعدد من البراهين العقلية

والدلائل الحسّية ما أفحمه، وجعله يقرّ بالربوبية والتوحيد.

وفي هذا الحديث ذكر الإمام أسماء عدد من العقاقير الطبية، وأسماء الأماكن التي تنمو أو تجلب منها، بالإضافة إلى ذكر بعض المعلومات الطبية والصيدلية، مما يدل على ثقافته الجيدة بهذين العلمين.

كتاب رسائل الإمام الصادق إلى جابر بن حيان الكوفي:

لم يرد ذكر هذه الرسائل في كتاب الفهرست. وقد جاء في موسوعة أعيان الشيعة أن اليافعي في كتابه مرآة الجنون يقول عن الإمام الصادق «وقد ألف تلميذه جابر بن حيان كتاباً يشتمل على ألف ورقة يتضمن رسائله، وهي خمسمائة رسالة. ويقول صاحب الموسوعة «لم يذكر أحد من أصحابنا، الذين ألفوا في رجال الشيعة وأصحاب الأئمة، كالطوسي والنجاشي، ومن عاصرهم أو تقدمهم أو تأخر عنهم، جابر بن حيان من تلاميذ الصادق ولا من أصحابه، ولا ذكروه في رجال الشيعة.

لقد أيّد العلامة محسن الأمين في كلامه هذا أقوال من ينفون وجود جابر بن حيان، ولكنه عند الكلام عن أقوال العلماء فيه (صفحة ٣٠ ـ مجلد٤) ذكر أسماء مجموعة من العلماء تكلموا عن أعمال جابر وأيدّوا صحبته للإمام جعفر(ر)، ومنهم ابن النديم، والقفطي، وابن خلكان، كما أن الحارث بن أسد المحاسبي وسهل بن عبد الله التستري ذكرا جابر بن حيان، ووصفاه بأنه كان متقدماً في العلوم الطبيعية، بارعاً في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف ومصنفات كثيرة ومشهورة. وكان مع هذا مشرفاً على كثير من علوم الفلسفة ومتقلداً لعلوم الباطن. كما أن محمد بن سعيد السرقسطي، المعروف بابن المشّاط الاسطرلابي الأندلسي رأى لجابر بن حيان بمدينة مصر تآليف في عمل الاسطرلاب يتضمن ألف مسألة.

أما القول بأن جابر بن حيان كان من أعيان الشيعة، ومن أصحاب الإمام الصادق، فقد أيد ذلك السيد علي بن طاووس الحسني الحلي، في كتابه (فرج الهموم بمعرفة علم النجوم)، وكذلك روى الحسين بن بسطام بن سابور وأخوه عبد الله، عن جابر بن حيان عن الإمام الصادق، أموراً كثيرة وردت في كتابهما المعروف بطب الأئمة، والأمثلة على ذلك كثير، وكلها وردت في كتاب أعيان الشيعة كما ذكرت.

يقول المرحوم الدكتور يحيى الهاشمي في كتابه (الإمام الصادق ملهم الكيمياء) ما يلي:

«من الأمور التي تلفت النظر في تاريخ العلوم مشكلة الإمام جعفر الصادق وعلاقته الكبرى مع جابر بن حيان، أبو الكيمياء في العصر الوسيط، لقد تصدّى لهذا الموضوع عدد من المنتشرقين والكيميائيين فلم يوفوه حقه، لأنهم عالجوا المشكلة دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث في رسائل جابر نفسها».

إن أول من لفت الأنظار إلى جابر بن حيان من المستشرقين كان العالم الفرنسي برتلو Berthelot (١٨٢٧ ـ ١٩٠٧م)، في كتابه (الكيمياء في القرون الوسطى)، والذي نشره عام (١٨٩٨م). ويعتقد العالم

هولميارد أن برتلو لم يقدّر شخصية جابر حق قدرها، لأنه لم يتح له أن يدرسها الدراسة الكافية .

لقد اطلع برتلو على كثير من المخطوطات اللاتينية التي تضم مؤلفات جابر، كما حصل على مخطوط مدون باللغة العربية يضم مجموعة من مؤلفات جابر، موجود في مكتبة ليدن ، أما المؤلفات فهي : كتاب الرحمة - كتاب الملك - كتاب الزئبق - كتاب الأرض - كتاب الموازين ، وقد قام بترجمتها وطبعها ونشرها .

كان العالم برتلو يجهل اللغة العربية لذلك استعان بالأستاذ هودا Houdas الذي كان يتقن هذه اللغة ولكن يجهل علم الكيمياء ، فجاءت ترجمته مملوءة بالأخطاء . لقد لاحظ برتلوا ، من بعده العالم الألماني كراوس Craus ، وفرة عدد المؤلفات اللاتينية الموجودة في المكتبات الأوربية والمنسوبة إلى جابر، فساورهما الشك في صحة نسبتها إليه . ويقول العالم هولميارد أن القسم الأكبر من هذه المؤلفات قد قام بتأليفها وجمعها بعض الإسماعيليين ، خلال القرن العاشر للميلاد (الثالث للهجرة) . ويبرز هولميارد هذا الرأي فيقول : من المتعذر القول بأن هذه الكتب هي من تأليف جابر في القرن الثامن ، بل هي تأليف من جاء بعده في القرن العاشر.

سعى المستشرقون الباحثون عن مؤلفات جابر إلى معرفة المراجع والأفكار اليونانية التي استفاد منها جابر، فقام هوليارد بتصنيف مؤلفات جابر الهامة في أربع زمر وهي :

آ) مجموعة المائة والاثنا عشر كتاباً . ب) مجموعة السبعين كتاباً . د) العشر كتب في المصححات . هـ) الكتب الأربعة في الميزان .

وقال : إن بعض كتب الفئة الأولى قد أهداها جابر إلى البرامكة ، وهي بمجموعها مقتبسة من (لوح الزمرد) الذي ألفه هرمس . ويرى هوليارد أن جابر قد استقى علومه من الإمام جعفر الصادق ، وأن مؤلفاته في الكيمياء أصيلة .

لقد اهتم الراهب الإيطالي جيرار الكريموني بمؤلفات الزمرة الثانية ، فقام بترجمتها إلى اللغة اللاتينية خلال القرن الثاني عشر. أما كتب الزمرة الثالثة فتضم الانجازات الكيميائية التي نسبها جابر إلى بعض الكيميائيين المزعومين أمثال فيثاغورس وسقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس . وفي كتب الزمرة الرابعة يوجد شرح لنظرية الميزان التي جاء بها جابر، والتي تعني حسب رأي هوليهارد ضرورة الوصول إلى توازن الطبائع في الأعمال الكيميائية للحصول على الذهب .

إن أهم نظرية جاء بها جابر بنظر الكيميائيين هي أن المعادن تتشكل في باطن الأرض من اتحاد الكبريت بالزئبق .

وللحصول على الذهب لا بد من تنقية كل من هذين العنصرين . ويقول جابر إن المعادن تتشكل في باطن الأرض من اتحاد وتزاوج الكبريت بالزئبق تحت تأثير الكواكب ، فيتحولان إلى جسم صلب هو أصل

لجميع المعادن. وينشأ اختلاف معدن عن آخر من اختلاف نقاوة كل من الكبريت والزئبق، وللحصول على الذهب الصافي لابد من تنقية كل منهما.

لقد كان للبرامكة، بعد وفاة الإمام جعفر(ر) الفضل في وصول جابر إلى بلاط الرشيد. وقد قام جابر بتقديم كتاب الزهرة (اي النحاس) له، وهو يعتبر من أجمل ما ألف جابر في علم الكيمياء. ولهذا الكتاب مع كتاب الحديد وبقية المعادن شرح مطول، ينسب إلى سلمة بن أحمد المجريطي، والمدون في مخطوط محفوظ في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم (٤١٢١).

وفي هذا المخطوط شرح مفصل عن صفات وطريقة استحصال وتنقية المعادن السبع المعروفة وهي: الفضة - الذهب - الرصاص (أو الاسرب)، القصدير (أو القلعي) - النحاس - الحديد - الخارصيني، لم يستطع الباحثون التأكد من الأسم الحقيقي للمعدن الأخير، والذي يعني الحديد الصيني. وربما كان التوتياء الذي نعرفه اليوم. ويقول بعض المؤلفين العرب أن هذا المعدن كان يستعمل في صنع المرايا التي تشفي الاضطرابات البصرية عند النظر فيها. كما يدخل في تركيب الأجراس ذات الأصوات المطربة.

من الأمور الهامة التي شغلت أذهان الكيمائيين، بما فيهم جابر بن حيان، صنع الأكسير. ويقول هوليارد كان الاسكندرانيون والحرانيون يستعملون فقط مواداً معدنية، أو يرجحونها على غيرها. ولكن جابراً أراد ان يطور الصنعة فأدخل مواداً من أصل حيواني أو نباتي في صنع الأكسير. فمن المواد ذات الأصل الحيواني استعمل بالدرجة الأولى المني، ومخ العظام، والدم والبول والجلد... ومن النباتات استعمل خانق الذئب، الفلفل، الخردل، الكمثرى، الشقّار Anemone.

لقد قام الباحث الفرنسي بيير لوري في عام (١٩٨٨م) بتحقيق مجموعة من مؤلفات جابر في الكيمياء، يبلغ عددها (١٤) كتاباً، وجمعها في كتاب أطلق عليه اسم تدبير الأكسير الأعظم. وقام المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العلمية بدمشق بطبعه ونشره على نفقته. ويقول السيد لوري في مقدمة هذا الكتاب «لقد جمعنا هنا عدداً من الرسائل التي تعالج موضوع التدبير الأعظم، أي الحصول على الأكسير الذي من شأنه أن يحوّل المعادن الخسيسة إلى ذهب... وتكمن أهمية هذه الرسائل المقدمة هنا في أنها تعرض التدبير الأعظم في مجمله ولو بطريقة مقتضبة ولكنها واضحة... ولهذه النصوص أصول مختلفة: فالنصوص ذات الرقم من (١ إلى ١٠) تنتمي إلى مجموعة السبعين كتاباً، وهي تتألف من سبعين فصلاً كما يدل عليها اسمها. وهذه أسماء هذه المجموعة، كتاب اللاهوت - كتاب الباب - كتاب الثلاثين كلمة - كتاب المني - كتاب الهدى - كتاب الصفات - كتاب العشرة - كتاب النعوت - كتاب العهد - كتاب السبعة - كتاب تدبير الأركان والأصول - كتاب المنفعة - كتاب هتك الأستار - كتاب الصافي.

كتاب السموم لجابر بن حيان :

لقد ظهرت براعة جابر بن حيان في علمي الكيمياء والطب واضحة في كتابه (السموم ودفع مضارها) . فقد وصف أنواعاً من المواد الكيميائية ، كالزاج والزنجار والاسفيداج ، وبين طرق تنقيتها وتصنيع بعضها بالطرق الكيميائية . كما تكلم عن الزئبق بأنواعه : المقتول والمصعّد والحيّ . وقال بأن الزئبق الحي غير ضار البتة ، إذا أخذ عن طريق الفم ، إلا أن صبه في الأذن والأنف فتاك . والقول الأخير ينسب إلى أبي بكر الرازي ، والأولى أن يعتبر من إنجازات جابر بن حيان .

ولقد وصف جابر بشكل جيد التأثير الفارماكوجي لكثير من السموم ، وصنفها بحسب تأثيرها وهو عمل لم يقم بمثله الرازي وابن سينا . ويشير جابر في كتاب السموم إلى بعض مؤلفاته الطبية منها كتاب الطب الكبير وكتاب المزاج .

لقد سعيت في محاضرتي هذه أن أشرح الصلة بين الإمام الصادق(ر) وتلميذه جابر بن حيان . وأن أعطي فكرة واضحة عن المكانة العلمية لجابر عن طريق عرض أهم مؤلفاته ، والتي كانت تخضع لتوجيه ورقابة أستاذه .

لقد حاولت الحصول على بعض مؤلفات جابر المتعلقة بالدين والفلسفة ، لكي أستطيع تبرير إطلاق اسم الصوفي عليه . فلجأت إلى كتاب (من تاريخ الإلحاد) للدكتور عبد الرحمن بدوي ، حيث خصص المؤلف المذكور باباً للكلام عن جابر بن حيان . وقد بين فيه أن العالم روسكا أولى جابر عناية فائقة ، فدرس مؤلفاته بإمعان حتى أصبح حجة بكل ما يتعلق بجابر ، أخرج روسكا ، بنتيجة أبحاثه ، كتاباً قيماً عنوانه (الكيمائيون العرب) نشره في مدينة هيدلبرغ عام (١٩٢٤م) . ثم أتبعه ببحث عن تأثير المذاهب المستورة في الفكر الإسلامي ، واعتبر جابر بن حيان أعظم ممثل لهذا التيار الروحي . وقد نشر بحثه هذا في الجزء الثالث من النشرة السنوية لمعهد الأبحاث الخاصة بتاريخ العلوم في برلين عام (١٩٣٠م) ، تحت عنوان (تهافت أسطورة) جابر .

ويقول الدكتور بدوي أن روسكا أثبت في بحثه هذا أن مجموعة كتب جابر كانت إسماعيلية ، وأنها النموذج السابق لكتب أخوان الصفا . ولكي يدعم روسكا أقواله بالبرهان نشر فصولاً رئيسية من مؤلفات جابر ، تحت عنوان (مختار رسائل جابر بن حيان) نشرت عام ١٩٣٥م . ويقول الدكتور بدوي .

«لقد ضمت هذه الرسائل نصوصاً تتعلق بالناحية الدينية من شأنها أن تبين لنا الصلة بين آرائه وآراء الغلاة من الشيعة ، مما يرجح نسبة رسائل جابر إلى الأوساط الشيعية الإسماعيلية» .

تابع روسكا بعد ذلك أبحاثه في مؤلفات جابر فنشر بين عامي (١٩٤٢ ـ ١٩٤٣م) بحثين ضمن مطبوعات المعهد المصري ، باللغة الفرنسية . أثبت في الأول منها ، كما يقول الدكتور بدوي ، أن مؤلفات

جابر في الكيمياء وضعها طائفة من علماء الشيعة، المشتغلين بالكيمياء، حوالي عام ٣٠٠هـ/٩١٢م. وأورد في بحثه هذا لائحة بأسماء جميع مؤلفات جابر. «وفي الجزء الثاني عرض روسكا المسائل العلمية الرئيسية، الواردة في الكتب المنسوبة إلى جابر، وبين الأصول اليونانية أو الشرقية، والتي اعتمد عليها مؤلف هذه الكتب واستمد منها آراءه».

مما لا شك فيه أن العالم روسكا قد قام بدراسة مؤلفات جابر بصورة متعمقة، ولكن قوله الجازم بأن جميع هذه المؤلفات الكيميائية والدينية منحولة، وأن جابر لم يؤلف شيئاً مما نسب إليه، فهو قول فيه كثير من التطرف ويحتاج للمناقشة.

لقد قام المرحوم إسماعيل مظهر بتأليف كتاب عنوانه (تاريخ الفكر العربي) نشره عام (١٩٢٤م) وخصص فيه فصلاً للكلام عن جابر، وناقش فيه آراء روسكا، كما أن المرحوم الدكتور يحيى الهاشمي في كتابه (الإمام الصادق ملهم الكيمياء) قد أورد ما قاله الأستاذ إسماعيل وأضاف إليها بعض آرائه السديدة.

يقول الأستاذ بدوي أن العالم الألماني كراوس قد سعى إلى معرفة المصادر التي استقى منها جابر نظرياته في المعادن والأكسير، فعرض بصورة موجزة تطور علم الكيمياء عند اليونان، ثم بحث في صلة كيمياء جابر بأدوار ذلك التطور. واهتم بصورة خاصة بصلة جابر بكيمياء ذوسيموس وبليناس، وهما من علماء القرن الأول للميلاد غالباً، وانتهى ببحثه إلى أن هنالك اختلاف كبير جداً بين كيمياء جابر وكيمياء اليونان القديمة، ثم قال:

«إن كيمياء جابر تمتاز بالميل إلى الناحية التجريبية، واستبعاد الخوارق والاتجاه العلمي العقلي. كما أن جابر استعمل ملحاً لم يعرفه قدماء اليونان والشرقيون ويعني ملح النوشادر».

وبهذا الكلام الواضح يتبين لنا فضل جابر بن حيان في وضع الأسس الصحيحة لعلم الكيمياء الحديث، وأن أعماله العلمية والفلسفية كانت تتم تحت إشراف أستاذه الإمام الصادق(ر) الذي عاش في عصر انفتح فيه الذهن العربي لتقبل العلوم الظاهرة والخفية، فاستفاد منها وأفاد والسلام عليكم.





الشيخ محمد باقر الناصري



من معالم الفكر السياسي للإمام الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الصادق جعفر بن محمد (ع) هو امتداد لحياة آبائه وأجداده الطاهرين حملة الرسالة الإسلامية ولسانها الناطق وصورتها المعبّرة بكل معاني الدقّة والتعبير.

ومع هذا فقد بات لكل إمام سمات عمل ومظاهر تؤشر بعض وجوه التمايز والاختلاف تبعاً للظروف والاعتبارات الأخرى التي لا يمكن تجاهلها عند الدراسة والتقييم.

ومهما كانت تلك السمات والمظاهر فإنّها لا تؤثر على وحدة الأهداف، ولا تمسّ بشكل من الأشكال الثوابت والقواعد الأساسية للسياسة الإسلامية.

ومن هنا فإنّا نرى وبكل وضوح أن المنهج السياسي للإمام الصادق(ع) رغم كل ما قيل عنه من تغييره في الاستراتيجية السياسية عمّا نهجه آباؤه(ع) والثوّار من أعمامه وإخوانه وأهل بيته . . .

وعمّا قيل من عزوفه في الظاهر عن التحرّك السياسي، وعدم تصدّيه جهاراً للثورة والجهاد ومناهضة الدولتين اللتين عاصرهما الإمام الصادق(ع).

الأموية في أخطر مراحل صراعها السياسي وأشرس حالاتها وهي تلفظ أنفسها الأخيرة تحت ضربات جملة ثوار وثورات حسينية وحسنية وعبّاسية وغيرها . .

ويومها كانت الدولة الأموية لا تتورع عن ارتكاب أفظع الأعمال وأبشع الجرائم بحق معارضيها من الأفراد والجماعات وسجلّها حافل بالخزي والجرائم، في مكّة والمدينة والعراق وما جرائم الحجّاج ونظائره عنّا ببعيد. .

ويكفينا نصّ واحد لمعرفة بعض الواقع المأساوي المرير لحالة الشيعة مع الأمويين، كما يحدّثنا بذلك ابن أبي الحديد المعتزلي، حيث يقول الإمام الباقر(ع) متحدثاً عن بعض مظاهر الحكم الأموي الجائر على الشيعة.

فيقول والألم يعتصر قلبه: ثم جاء الحجّاج فقتلهم - يعني أهل البيت وشيعتهم - كل قتله وأخذهم بكل ظنّة وتهمة، حتى أن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال له شيعة علي (عليه السلام)[1]. . . .

كما عايش الإمام الصادق(ع) الدولة العباسية منذ أيامها الأولى في ضعفها وبدايات كيانها وامتداداً إلى أيام طغيانها وعنفوان قوّتها، وحين تصدّى خط أهل البيت(ع) لمواجهتها وفضحها وتعرية الزيف الذي اعتمدته في إخفاء حقيقتها وتسترها وراء طلب الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم للخلافة أي المرضي المقبول من أهل البيت(ع) بما تستبطن العبارة من غموض وتمويه، ليمرروا خلال ذلك الشعار العام الغائم أهدافهم ومطامعهم الشريرة، والتي لو طرحوها صريحة لما استجابت الأمة لهم ولما خدع بهم البسطاء وعامّة الناس.

عاش الإمام الصادق(ع) في مثل هذه الأجواء بكل ما لها من ملابسات وظروف فكرية وسياسية وبكل ما نجم عنها من بلبلة فكرية بما في ذلك شيوع مدارس الزندقة والإلحاد وظهور الفرق والمذاهب العقائدية والفقهية.

من هنا ارتكبت بعض التصورات عن منهجية الإمام الصادق(ع) وأسيء فهم منهجه السياسي حتى من بعض المقرّبين إليه، حيث اتّهم من بعضهم بالقعود عن الجهاد وترك العمل السياسي. .

واتّهم من آخرين بالحسد والنفاسة على الثوّار والناهضين وقراءة سريعة لظرف حياة الإمام الصادق(ع) بين ولادته وحياته تكشف الكثير من تلك الملابسات. .

فقد وُلِدَ الإمام الصادق(ع) في عهد عبد الملك بن مروان بن الحكم، ثم عايش الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبدالملك، وعمر بن عبدالعزيز، والوليد بن يزيد، ويزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان (الحمار) حتى سقوط الحكم الأموي سنة ١٣٢ هـ.

ثم آلت الخلافة إلى بني العبّاس فعاصر من خلفائهم أبا العبّاس السفّاح، وشطرا من خلافة أبي جعفر المنصور تقدّر بعشر سنوات تقريباً[2]. . .

كما عاش الإمام الصادق(ع) أهم الثورات والأحداث السياسية التي عاشتها الدولتان خلال تلك الفترة بما في ذلك ثورات العلويين في الحجاز والعراق وبقايا الخوارج وأفكارهم السياسية والضباب الذي نشروه في الفكر الإسلامي، وحركات الانفصال في أطراف الدولتين وما صاحب كل ذلك من صراع دام على مختلف الأصعدة، وكلّها عوامل تكرّس سوء الفهم وتربك الوضع على الإمام وعلى الخط الأصيل لأهل البيت (عليهم السلام). . .

فالصراع الفكري كان على أوجه كما هو معلوم في تلك الفترة نما وانتشر بشكل واضح وبدوافع عديدة وبرعاية ومباركة حكومات الجور والانحراف ولأهداف معروفة لسنا هنا بصدد بيانها. . وكذلك الصراع الفقهي بين المدارس الفقهية الإسلامية والذي هو الآخر نما في تلك الفترة ووجد الجو المناسب وتعاهده الحكّام والحكومات آنذاك.

وكان ذلك من سماته تلك المرحلة من المقطع الزمني، حيث امتد من أوائل القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع، وإن من أهم مظاهر هذا الدور اتساع الشقة بين مدرستي الرأي والحديث اللتين ظهرتا في أواخر عهد الصحابة، حيث تميّزت المدرستان بكل وضوح في عهد الإمام الصادق (ع) واتسعت الشقة بينهما إلى حدّ التخاصم والتكفير وتطرف كثير من أتباع المدرستين وخرجوا من جو الخلاف العلمي الموضوعي إلى ساحة المهاترات والتمذهب والتكتل المذهبي وما تبع ذلك من أجواء العداء وتزييف الحقائق وتبادل الاتهامات بالكفر والزندقة والمروق عن الدين وسوء استغلال متعمد لتلك الأفكار. وكان لمدرسة أهل البيت (ع) بصورة عامّة وللإمام الصادق خاصة دور بارز وعظيم في حماية الفكر الإسلامي الأصيل وتثبيت أسسه ومعالمه وتزييف الانحراف والتجاوز وهو دور عظيم لا يمكن تجاهله، وكان الإمام هو المرجع الذي لجأ إليه الفقهاء والعلماء وسائر الأمة لصيانة الفكر الإسلامي من لوثات وبدع ومشاكل تلك المرحلة، ويومها ظهرت مذاهب متعددة منها ما بقي إلى اليوم، ومنها ما انقرض ولم يبقَ منه إلّا الاسم، وكانت كثيرة مثل مذهب سفيان الثوري، والحسن البصري، والاوزاعي وابن جرير الطبري وغيرهم[٣]. .

وكان موقف الإمام الصادق في حماية الفكر الإسلامي خلال تلك الفترة صريحاً وحازماً بوجه القائلين بما يخالف خط أهل البيت(ع)، وكان من المنكرين على القياس والناهين عن العمل به.

وكلّها عوامل تكرّس سوء الفهم، وتربك الوضع على الإمام وعلى الخط الأصيل لأهل البيت(ع). . . خاصّة ممن تصدّوا للثورة والعمل السياسي، ونهاهم الإمام الصادق(ع) عن ذلك التصدي، وحذّرهم عواقبه ومخاطره فانبرى بعضهم بجهل وسوء فهم لاتهام الإمام الصادق بالحسد وبالتقصير والقعود عن الجهاد والثورة. .

وتابعهم في سوء الفهم هذا كتّاب ومؤلفون بذروا بذور الشك وسقوها من خلفياتهم، فنمت بعض الشبه وترعرعت في أجواء تسمح حتماً بمثل ذلك، وساعد عليها حالات متعمدة، وأفكار دخيلة على

الإسـلام وقيمـه وأحكـامه . . تسربت من اليهود وإسرائيلياتهم ، ومن المستشرقين المشبوهين ، إلا أن الوعاة من الأمـة وخـاصـة من تلامـذة الإمـام وشيعته لم تلتبس عليهم الأمور ، ولم يشكّوا طرفة عين في سلامة خط الإمـام ومنهجه الـرسـالي ، ومـدرستـه السياسية الرائدة ، وأدركوا أنّهم أمام مدرسة سياسية تعتمد الوسائل العلميـة النـاجحـة والمنـاسبة لتلك الظروف التي عاشها الإمام ، وأن خطته ومنهجه السياسي رغم اختلاف الوسائل التي اعتمدها الإمام للعمل السياسي في حينه .

فإنها امتداد متكامل لمدرسة أهل البيت(ع) السياسية بكافة صورها ووسائلها . . وأن من يتهم الإمام الصـادق(ع) فيتصـوره معطـلاً للعمـل السياسي هو مخطىء في فهمه واتهامه بكل ما للخطأ من معنى ، ولا شك أنـه كان لمجمـوع تلك الظـروف والملابسات التي أشرنا لها في حياة الإمام ومناهجه تأثير بالغ الخطورة على سوء فهم الكثـير ين ووقـوعهم تحت خطأ التقييم ، بل وسلوك البعض في القعـود عن الجهـاد والعمـل السيـاسي وتـذرعهم بالصـور المشـوّهـة (للتقية) التي هي الأخرى وقعت تحت الظلامة من القريب والبعيد والعدو والصديق في بعض الأحيان . .

إلّا أنّ الـدراسـات والتحقيقـات العلمية والتاريخية لحياة الإمام المليئة بالعلم والعمل ، وبقراءة واعية متأنيّـة للنصـوص والممارسات التي وصلتنا من سيرة الإمام ومناهج عمله تؤكد أنه(ع) كان بعيداً كل البعد عن تلك التهم والإشكالات وأنه مارس دوره ومهامه السياسية المناسبة بأجل صورها ، وبأحرج الظروف فيها .

وأي مظهر ودليل على العمل السياسي أوضح من أن يتصدّى مثل الإمام وفي تلك الظروف الحرجة فيضـع الأسس والضـوابـط لما يجب أن يكـون عليه الرؤ ساء والقادة ويجعل ذلك من همومه التي يهتم بها ليل نهار . . . ويحوّلها إلى مادة لدروسه ومحاضراته ووسائله؟ . .

نعم هذا هو الإمـام الصـادق ، وهـذه نصـوصـه صريحة بذلك ، أليس هو القائل : (ليس للملوك أن يفرّطوا في ثلاثة : حفظ الثغور ، وتفقد المظالم ، واختيار الصالحين لأعمالهم . .)

وفي هذا النص يقف المتأمـل المنصف على حشـد من الـدروس والمؤ شـرات التي تؤكـد التصـدّي السياسي الكامل للإمام الصادق(ع) .

حيث أن الـرؤ سـاء والقـادة في الأعم الأغلب اعتـادوا أن يروا فيمن يتصـدى لتحـديـد مهـامهم ، ويطالبهم بأداء حقوق الأمة أن ذلك في قمة العمل السياسي المحظور ، ويعرّض نفسه لأخطر المشاكل وأشدّ العقوبات . .

وفي هذا النص يلج الإمام الصادق(ع) السياسة من أوسع أبوابها ، فيرسل هذا النص رسالة مفتوحة لكل الحكّام والقادة ، مذكراً لهم بأهم مهام الدولة والرئيس ، وواضعاً يده على مواطن الداء مما تعانيه الأمة والمجتمع ، فطالما فرّط حكّام وخلفاء الجور من الأمويين والعبّاسيين بهذه الأهداف جملة وتفصيلاً .

وحيث تعاني الدولة الإسلامية على أيديهم وولاتهم وأعوانهم من نقاط قاتلة، لخّصها الإمام(ع) بـ: حفظ الثغور التي باتت نهباً للأعداء، وللتمزق، والتقلص، والتمرد، والاقتطاع.

وكذلك: تفقد المظالم، حيث عمّت المظالم والمفاسد كل مرافق الدولة بفساد القضاة والاداريين من الحكّام وأعوانهم وجلاوزتهم... راداً ذلك كله إلى سوء اختيار الرئيس للحكّام والقضاة والولاة والمنفّذين.. مؤكداً(ع) أن من صميم واجبات الحاكم العادل ومن أولويات حقوق الأمة عليه اختياره الصالحين لادارة شؤون الأمة والبلاد..

وهذه المطالب شديدة على الحكّام وأعوانهم، وأنّا للحاكم الظالم الفاسد الجاهل أن يؤدّي هذه المهام ويفي بهذه الالتزامات؟..

أليس هذا معناه وبكل صراحة إثارة للأمة وتحريك للمظلومين والمستضعفين بوجوب المطالبة وشرعيتها؟.

أليس في ذلك إيقاظ للنيام لملاحقة الحكّام ومطالبتهم بأداء حقوق الأمة عليهم؟.. وأن من حق الأمة استخلاص هذه الحقوق وصيانة الشريعة بمختلف الوسائل بما في ذلك الثورة والجهاد وتنحية الحاكم الظالم المقصّر مهما كلّف الثمن...

ثم أين نحن من صرخة الإمام الصادق(ع) عبر آلاف التلامذة والرواة بنصّه الذي يقطر بالغضب والإثار: (من نكد العيش السلطان الجائر)[٤].

وهل أبقى الإمام الصادق بعد هذه النصوص حجّة لخانع قانع بالواقع الفاسد؟.

وهل ترك للأمة فرصة دون أن تثور للتخلّص من نكد العيش وسوء الإدارة..؟. وأين نحن من قوله(ع): (من عذر ظالماً بظلمه سلّط الله عليه من يظلمه، فإن دعا لم يستجب له ولم يأجره الله على ظلامته..).

وقوله (ع): (العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء ثلاثتهم)[٥]. ومن أقواله المشهورة(ع) في محاصرته للظلم والظالمين قوله لأصحابه: (ما أحبّ أن أعقد لهم ـ أي للظلمة ـ عقدة، أو وكيت لهم وكاء، ولا مدة بقلم، إن الظلمة وأعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد..)[٦].

ـ ثورة على الظلم والظالمين ودعوة للناس لتمزيق دولة الظلم والظالمين وللتمرّد عليهم..

الإمام الصادق والدولة العبّاسية

شهد الإمام الصادق(ع) مرحلة سقوط الدولة الأموية، وعايش أهم أحداثها، وروى الكثير عن آبائه وأجداده، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما يؤكد أن الجولة ليست لآل البيت(ع).

وأن الأمة والأجواء السائدة في ساحة البلاد الإسلامية غير مهيأة لإعادة الحق إلى نصابه رغم تظاهر العبّاسيين ودعاتهم بأنهم يريدون الأمر والخلافة لأهلها الشرعيين وقد قامت الثورة ضد الأمويين تحت شعار الولاء لأهل البيت(ع) والانتصار لهم كما أسلفنا . .

إلّا أن بني العبّاس كانوا يخططون وبمكر ودهاء وسرية لتكون الخلافة لهم ، وكان الإمام الصادق(ع) ملماً بسير الأحداث ، وما يبذله العباسيون وأعوانهم من أبعاد الخلافة عن آل علي ، حتى إنّ الإمام الصادق صرّح مرات عديدة وبطرق شتّى بأن الدور ليس لأهل البيت ، وإن بني العبّاس سيلون الأمر ، وسيواصلون الجور والظلم على الأمة عامّة وعلى أهل البيت خاصة ، وأن أهل البيت وشيعتهم وهم يواجهون الموت والإبادة والملاحقة من الأمويين وأعوانهم بما لا يمكن وصفه لن يكونوا أحسن حالاً في دولة بني العبّاس .

ورغم كل القسوة والمرارة والظلم الأموي الفظيع ، إلّا أن النصوص تؤكد أنه دون ما أنزله بنو العبّاس بأهل البيت(ع) : ولو أردنا أن نقايس بين أعمال الدولتين فلا نجد للأمويين حدثاً في الإساءة لأهل البيت(ع) إلّا وللعباسيين مثله مضاعفاً ، وزاد العبّاسيون أن اختصوا بأشياء من جرائمهم مع العلويين لم يكن للأمويين مثلهم ، كجعلهم العلويين بالأبنية والاسطوانات حتى جعل المنصور أساس بغداد عليها ، وقطع الرشيد شجرة عند قبر الحسين(ع) كان يستظل بها زائروه ، وهدم المتوكل قبره وما حوله من الأبنية والبيوت ، وحرث أرض كربلاء وزرعها ليخفي القبر وتنطمس آثاره ، حتى قيل في ذلك شعراً كثيراً ومنه :

تالله إن كانت أمية قد أتت ... قتل ابن بنت نبيّها مظلوما
فلقد أتته بنوا أبيه بمثله ... فغدا لعمرك قبره مهدوما
أسفوا على أن لا يكونوا شاركوا ... في قتله فتتبعوه رميما[٧]

وقال شاعر آخر:

تالله ما فعلت علوج أمية ... معشار ما فعلت بنو العبّاس[٨]

ويقول أبو بكر الخوارزمي في وصفه لجرائم العبّاسيين تجاه العلويين في فقرة من فقرات ظلمهم الكثيرة المتطاولة ، وهي ما فعله الدوانيقي بأهل البيت(ع) يقول فيها :

إلى أن مات وقد امتلئت سجونه بأهل بيت الرسالة ومعدن الطيب والطهارة ، قد تتبع غائبهم ، وتلقط حاضرهم ، حتى قتل . . ـ ثم عدد جملة حوادث دامية ارتكبها العبّاسيون في حق أهل البيت(ع) وشيعتهم ـ ثم قال : والجملة أن هارون مات وقد حصد شجرة النبوّة ، واقتلع غرس الإمامة . .[٩] .

وهناك نماذج وعيّنات من اعترافات العبّاسيين أنفسهم بجرائمهم أو على لسان ولاتهم .

فهذا المنصور في فورة من فورات حقده الأسود على أهل البيت وقد عزم يوماً على قتل الإمام الصادق(ع) .

يقول: (. . . قتلت من ذرية فاطمة ألفاً أو يزيدون، وتركت سيّدهم ومولاهم وإمامهم جعفر بن محمد. . .)[10].

وهو الذي يقول مشافهة للإمام الصادق: (لأقتلنك، ولأقتلنّ أهلك حتى لا أبقي على الأرض منك قامة سيف ولأضربنّ المدينة حتى لا أترك فيها جداراً قائماً. .)[11].

وفي حديث آخر طويل يرويه الربيع الدوانيقي حين استدعى الإمام الصادق(ع) مرة ليقتله سمعته يقول: والله لا تركت لهم نخلاً إلّا عقرته، ولا مالاً إلّا نهبته، ولا ذرية إلّا سبيتها. .[12].

ويقول الطبري وغيره: إن المنصور هذا ترك خزانة رؤوس ميراثاً لولده المهدي كلّها من العلويين، وقد علق بكل رأس ورقة كتب فيها ما يستدل به على صاحبه، ومن بينها رؤوس شيوخ وشبّان وأطفال. . . .)[13].

والمنصور هذا هو الذي كان يضع العلويين في الاسطوانات ويسمرهم في الحيطان ـ كما نصّ عليه اليعقوبي وغيره ـ ويتركهم يموتون في المطبق جوعاً، وتقتلهم الروائح الكريهة، حتى لم يكن لهم مكان يخرجون إليه لإزالة الضرورة، وكان يموت أحدهم فيترك معهم حتى يبلى من غير دفن، ثم يهدم المطبق على من تبقّى منهم حياً وهم في أغلالهم. .[14] .

وأمّا الرشيد فقد أقسم على استئصالهم وكل من يتشيع لهم واشتهر عنه قوله: حتام اصبر على آل بني أبي طالب والله لأقتلنّهم ولأقتلنّ شيعتهم، ولأفعلنّ ولأفعلنّ. .[15].

وكان شديد الوطأة على العلويين يتتبع خطواتهم ويقتلهم . . . .[16].

هذه قطرات قليلة من بحر ظلم العبّاسيين وعسفهم بالأمة الإسلامية عامّة وبآل علي خاصة، ملئت بها الكتب وتسودت بها الصحائف. . . .

ومع كل هذا وسواه فقد بقي أهل البيت وشيعتهم، وخاصّة أئمة الهدى من أبناء علي وفاطمة يمارسون أدوارهم السياسية بكل صدق وأمانة، ولا يترددون عن الموقف الرسالي وكلمة الحق الصادقة الصريحة ليقولها مهما كلّفهم الثمن.

فهذا الإمام الصادق(ع) ووسط تلك الظروف والمحن يكتب إليه المنصور مرة: لم لا تغشانا كما تغشانا الناس؟ فيجيبه الإمام الصادق(ع): ليس لنا ما نخافك من أجله. ولا عندك من أمر الآخرة ما نرجوك له. ولا أنت في نعمة فنهنيك، ولا تراها نقمة فنعزيك. فما نصنع عندك؟ . .

فكتب إليه: تصحبنا لتنصحنا.

فيجيبه الإمام: من أراد الدنيا لا ينصحك. ومن أراد الآخرة لا يصحبك. . .[17].

لحظات تأمل ودراسة لفقرات هذا الحوار الصريح الجاد، تبرز الدور السياسي الهام للإمام

الصادق(ع) في تشخيص وتعرية العبّاسيين وبعدهم عن الحق والهدى والدين.

وهل هناك أصرح في المواجهة السياسية من أن يواجه الإمام خصمه الحاكم المتجبر الموغل في الدماء إلى قمة رأسه بمثل هذه المواجهة (ليس لنا ما نخافك من أجله) يعني نحن معك في مواجهة واستعداد للتضحية والشهادة.

(ولا عندك مَن أمر الآخرة ما نرجوك له) مصارحة دونها قرع السيوف، بأنك أيها الخليفة أبعد ما تكون عن الله والآخرة والإيمان وحين يلح المنصور متظاهراً بالحاجة للموعظة والنصيحة وصحبة الأبرار، وهي الحيلة التي اصطاد الظلمة فيها كثيراً من العلماء والأدباء، وحولوهم إلى أدوات تستّر ووعاظ سلاطين.

وهنا لا يتردد الإمام الصادق عن صفع المنصور صفعة يبقى ذكرها مدوياً ترددها الأجيال: (من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك) طلاقاً وافتراقاً بين الخطين هيهات هيهات فإن من أراد الدنيا ونعيمها والسلامة فيها والوجاهة عند أهلها لا يستطيع المجاهرة بالنصح وإعلان كلمة الحق، خاصة فيمن يصحب الحكّام والرؤساء وأولياء النعم الذين لا يطيقون إلّا سماع التملق والممالئة والسكوت على الباطل والظلم الذي تصبح به نواد الظلمة ومجالسهم وأقوالهم وأفعالهم..

كيف والضمير يخاطب الظالم بلغة المواجهة والصراحة دون أي لف أو دوران (من أراد الدنيا لا ينصحك، ومن أراد الآخرة لا يصحبك).

حوار يحمل كل معاني التحدّي والمواجهة والاستعداد للنتائج.. ويجرّد الخليفة والحكم من رداء تردّى به، ويحكم عليه بالابعاد عن حظيرة الله والآخرة، دون أي تردد أو التواء أو مداهنة.

وليس هذا هو الموقف الوحيد للإمام الصادق(ع) في مواجهة خلفاء الجور، فهناك الكثير من المواقف والمشاهد والنصوص تؤكد أن الإمام (سلام الله عليه) كان حازماً صريحاً في المواجهة ورفض الباطل من ذلك ما يرويه جلّ المؤرخين أن الإمام أُحْضِرَ ذات يوم عند المنصور، ونادراً ما يدعى الإمام إلّا للتقريع والتهديد بالقتل والسجن والابعاد..

وخلال جلوس الإمام عند المنصور، وقع الذباب على وجه المنصور حتى ضجر فقال المنصور: يا أبا عبدالله لم خلق الله الذباب؟ بلهجة المستنكر المتكبّر..

فينبري له الإمام على الفور وبكل صراحة وتحدٍ: (ليذل به الجبّارين) فوجم المنصور لقوله[١٨].

مشهد رائع من مشاهد التحدّي والمواجهة وتسمية الأشياء بأسمائها، وهو ما تفتقد، مجالس الحكّام والقادة والرؤساء.

ويأتي موقف الإمام الصادق ومواقف أئمة الهدى وقادة الإصلاح صفعة ودرساً قبال مواقف علماء

السوء وأخلاء الباطل ممن لا يتورعون لإرضاء الحكّام وتوفير البهجة لهم في أن يفتروا على الله وعلى رسوله وينتحلوا الأحاديث لإرضاء الحكّام ومماشات شهواتهم وأفكارهم . .

وبعد كل هذه النصوص والمواقف والتضحيات لا يمكن تصور الصراع وفهمه بين أهل البيت(ع) والأمويين والعبّاسيين، لولم يكن لأهل البيت وللإمام الصادق بالذات دور ـ سياسي هام وجاد، وأنهم وأتباعهم جادّون في الحقل السياسي وتنوير الأمة وإعدادها للإطاحة بالظلم والظالمين .

بالإضافة إلى أن إيمان الأمة بأهل البيت(ع) وأهليتهم للإمامة والقيادة، ذلك الإيمان الذي ظلّ يصارع عاتيات الزمن والكوارث والمحن وعبر كل الحواجز ودخل على بيوت خلفاء الجور واتخذ من صدور بعض أعوانهم ووزرائهم وأبنائهم موطناً، وليس ببعيد عنّا قصة الخليفة الأموي معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان والذي نمى في أخبث جووبيئة وفي عشّ الحقد وبؤرة الانحراف ومنطلق العداء لعلي وآله حتى بات السب والشتم والتقتيل والملاحقة هي السياسة الرسمية المعلنة للأمويين ضد علي وشيعته . .

وليس هو الوحيد في سجل يقظة الضمير، فله أمثال ونظائر من الأمويين والعبّاسيين ومن تابعهم وخلفهم إلى هذا اليوم، وقد اتخذ الإمام الصادق(ع) طرقاً عديدة لتنمية وتعاهد إيمان الأمة بإسلامها العظيم وبالقيادة المعصومة، وبنى ذلك الإيمان بناء رسالياً، لإعداد الأمة عامة ومدرسة أهل البيت خاصة لحمل أعباء الرسالة .

بما في ذلك تربية الكوادر من العلماء والمفكّرين والأدباء وتسليحهم فكرياً وسياسياً وجهادياً، وبالتالي فهو إعداد مدروس للثورة ضد الكفر والظلم والجهل والانحراف . . . حتى باتت مدرسة الإمام الصادق(ع) من أوسع المدارس وأكثرها عطاء .

وإن الحافظ بن عقدة الزيدي جمع في كتاب رجاله أربعة آلاف رجل من الثقاة الذين رووا عن جعفر بن محمد فضلاً عن غيرهم، وذكر مصنفاتهم . .[١٩].

كما اشتهر بين العلماء ما رواه النجاشي في رجاله بسنده عن الحسن بن علي الوشا في حديث له أن قال: أدركت في هذا المسجد (يعني مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ كل يقول حدثني جعفر بن محمد (عليه السلام) وساقوا في ذلك الحديث المشهور:

(حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث علي بن أبي طالب، وحديث علي حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله عزّ وجلّ)[٢٠].

وحتى قال فيه المحب والمبغض واشتهر: أن جعفراً الصادق حدّث عنه من الأئمة والأعلام مالك بن أنس، وشعبة بن الحجّاج، وسفيان الثوري، وابن جريج، وعبدالله بن عمر، وروح بن القاسم، وسفيان بن عينية، وسليمان بن بلال، واسماعيل بن جعفر، وحاتم بن إسماعيل، وعبدالعزيز بن المختار، ووهب بن

خالد، وإبراهيم بن طحّان، وآخرون ـ وأضاف أبو نعيم في الحلية ـ فقال: وأخرج عنه مسلم في صحيحه محتجاً بحديثه، وقال غيره: وروى عنه مالك والشافعي والحسن بن صالح، وأبو أيوب السجستاني وعمر بن دينار، وأحمد بن حنبل. .

وقال مالك بن أنس: ما رأت عين، ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر الصادق فضلاً وعلماً وعبادة وورعاً. .

وقال اليعقوبي: وكان أفضل الناس وأعلمهم بدين الله، وكان أهل العلم الذين سمعوا منه إذا رووا عنه قالوا أخبرنا العالم[٢١].

وحتى شاع أمر مدرسة الإمام الصادق وجهده وتخطيطه لإعداد الأمة وبناء كيانها الفكري والسياسي لحد نسبة كافة المؤمنين بخط أهل البيت(ع) وإمامتهم للإمام الصادق جعفر بن محمد من يومه ولحد هذا اليوم وغير مستنكر بأن يقال: هذا جعفري، نسبة للإمام جعفر(ع) وعد رأساً للإمامية ومذهباً لهم.

وقد فرض الإمام الصادق(ع) مدرسته العلمية ومدرسة آبائه وأجداده ودوره ومكانته على كافة الأجواء في عصره وإلى اليوم. .

وأعطى (سلام الله عليه) لمدرسته ومنهجه العلمي بعداً عاماً شاملاً في كافة المجالات والعلوم. . . حتى شاع عنه وانتسب إليه كثير من العلماء في غير الفقه والحديث والتفسير حيث يقول محمد فريد وجدي في حديث طويل جاء فيه: كان من سادات أهل البيت النبوي، لقب بالصادق لصدقه في كلامه، كان من أفاضل الناس، وله مقالات في صناعة الكيمياء والزجر، والفأل، وكان تلميذه أبو موسى جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي قد ألّف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهي خمسمائة رسالة[٢٢].

وحتى الملاحدة والكفّار على شدة عدائهم للإسلام وحملته، وقد واتتهم الظروف للتحرّك في تلك الفترة وشجعهم حكّام الجور وولاتهم ونالوا الحظوة والمكانة في مجالس الحكّام والوظائف ومعروفة هي الأسباب لبروز تلك التيارات ومن أهمها مواجهة الثورات والثوّار الإسلاميين وخلط الأوراق على الناس. . فقد كان هؤلاء الملاحدة يعترفون للإمام جعفر بالعلم والسمو والأمانة، أمثال ابن المقفّع، وابن أبي العوجاء والديصاني وغيرهم، وعلى أهمية المنهج الفكري والعلمي للإمام الصادق(ع)، فهذا ابن المقفّع يقول: ترون هذا الخلق ـ وأوما بيده إلى موضع الطواف بالبيت ـ ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية، إلّا ذلك الشيخ الجالس، يعني الصادق(ع) والحديث طويل والحوار علمي وفكري وأخلاقي وأورده ـ التقاة من العلماء والمؤرخين ـ[٢٣].

ولا يمكن تصوّر أن مكانة الإمام الصادق(ع) وشهرته ناشئة من تبحره العلمي فقط، ولا دور له في الميادين الأخرى، فذلك مما لا يزعج الحكّام وولاة الأمور ولا يثير حفيظتهم ولا يصلح مبرراً لاندفاع

العبّاسيين في ملاحقة الإمام وإيذائه إلى حدّ التحرّق وقظم الأنامل عليه وتوعده بالقتل وعظائم الأمور كما هو معروف عن المنصور والرشيد وولاتهما.

ومن هنا يتضح أن الإمام كان يمارس أدواراً فكرية وسياسية هامّة تقوض نظام الظلم والظلمة، وتعدّ الأمة لدورها الطبيعي في ارجاع الحق إلى نصابه.

وإلاّ فما معنى أن يقول الرشيد: لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف)(٢٤) وهو يعني هشام بن الحكم. ذلك التلميذ الشجاع والبطل المصاول، وهو واحد من آلاف التلامذة والمريدين الذين ربّاهم الإمام الصادق وأعدهم لتقويم زيغ الأمة وبناء القاعدة الإسلامية الرصينة التي تتكفل بمحو الزيغ والانحراف.

نعم كل هذا وغيره من المواقف والأحداث التي مارسها الإمام الصادق لا يمكن أن تفسّر بغير الدور الفكري والسياسي الهام للإمام ومدرسته، ومدى تأثيرها في المجتمع مما دفع العبّاسيين في اللجاجة بملاحقة الإمام ونقله من المدينة إلى الكوفة ظنّاً منهم بأنّهم يستطيعون وضعه بموضع القرب والمراقبة والإرهاب ليحجموا دور الإمام ويشلّوا فاعليته وتأثيره في الأمة، ومن خلال جو الإرهاب والمراقبة سينصرف الناس عنه، وتنتهي فرص نفاذه في المجتمع إلاّ أن الظلمة وأعوانهم أدركوا ثانية خطأ تفكيرهم، وقدرة الإمام على إفشال مخططهم، وقدرته على أداء دوره مهما كانت ظروف الحصار والملاحقة والمراقبة.

فأبعدوه ثانية إلى المدينة ولاحقوه بالأذى والمراقبة وهو(سلام الله عليه) بين المرحلتين رغم كل القساوة والمحن والملاحقة التي استمرت من العبّاسيين إلى آخر يوم من حياته (سلام الله عليه)، يؤدي دوره الرسالي في إعداد الأمة وتقويض الباطل واستطاع أن يتغلّب على كل تلك الظروف بالحكمة والصبر والمثابرة، وأن ينتصر على أعدائه إلى يوم الدين، فيخلّد هذا الخلود، ويسمو هذا التسامي، ويترك هذه الثروة الهائلة، من العلم والعمل والتأسيس.. ولا غرابة أن يقال أن بقاء التشيع وانتشاره كان مديناً لمنهجية الإمام الصادق ودوره الكبير المكمّل لأدوار آبائه وأجداده (صلوات الله وسلامه عليهم).

وإن حماية الفكر الإسلامي والأمة الإسلامية من لوثات الجاهلية التي برزت خلال سيرة الإسلام وخاصة في نهاية القرن الهجري الأول واستمرت إلى القرن الثاني، وما برز خلالها من مذاهب وفلسفات طبّل لها أعداء الإسلام محاولة منهم لنسف العقيدة الإسلامية وتدمير البنية الفكرية للإنسان المسلم..

نعم كل هذه الاستفزازات والمشاكل واجهها الإمام الصادق(ع) ومن الأمانة أن يعترف المسلمون بما قدّم الإمام الصادق(ع) في ميدان حماية الفكر الإسلامي وتحصين الأمة من تلك اللوثات والأفكار الفاسدة المشبوهة، وعبر بالإسلام كل تلك الخنادق والحفر حتى وصل به إلى شاطىء السلامة، عبر آلاف العلماء والمفكّرين الإسلاميين.

وعبر الفهم الواعي الرصين لأعقد القضايا الفكرية التي أثيرت لبلبلة الفكر الإسلامي، وتعثّر فيها الكثيرون. . .

كالتقية

والبداء

والجبر والتفويض.

والأمر بين الأمرين. . .

وغيرها من أمهات القواعد الفكرية والأساسية في عقيدة الإسلام والتوحيد. .

فجـزاه الله عن الإسلام وأهله أفضل الجزاء.

والسلام عليه في يوم مولده الشريف. .

والسلام على كل الثوّار وأباة الظلم وبيارق العلم والعرفان وحملة الهدى والنور للبشرية، من الأنبياء والصدّيقين والأئمة ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

والسـلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



الحواشـي

(١) - شرح النهج لابن أبي الحديد المعتزلي ج ٣ - ص ١٥.

(٢) - الإمام جعفر الصادق - سلسلة أهل البيت - البلاغ ص ٢٠.

(٣) - تاريخ حصر الاجتهاد للشيخ آغابزرك الطهراني ص ٢٤.

(٤) - أصول الكافي للكليني ج ٢ - ص ٣٣٤.

(٥) - أصول الكافي للكليني ج ٢ - ص ٣٣٤.

(٦) - الإمام الصادق للشيخ أسد حيدر - ج ٢ - ص ٤٢ و٤٧.

(٧) - الإمام الصادق للشيخ المظفر ص ٣٤.

(٨) - شرح ميمية أبي فراس ص ١١٩.

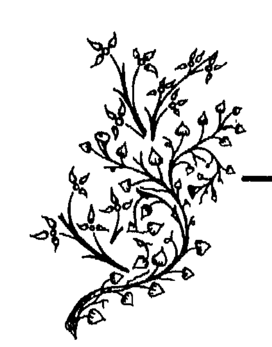
(٩) - رسائل أبو بكر الخوارزمي في رسالته لشيعة نيسابور ص ٧٨ طبعة ١٣١٢ هـ.

(١٠) - الحياة السياسية للإمام الرضا، للسيد جعفر مرتضى ص ٨٧.

(١١) ـ مناقب ابن شهرآشوب ج ٣ ص ٣٥٧ والبحار ج ٤٧ ص ١٧٨ .
(١٢) ـ بحار الأنوار ج ٤٧ ص ٢٠٨ .
(١٣) ـ تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٤٤٦ والنزاع والتخاصم للمقريزي ص ٥٢ .
(١٤) ـ الحياة السياسية للإمام الرضا للسيد جعفر مرتضى ص ٨٨ .
(١٥) ـ الأغاني للأصفهاني ج ٥ ـ ص ٢٢٥ .
(١٦) ـ العقد الفريد ج ٢ ـ ص ١٨٠ ، ومحمد أبو زهرة بن الإمام الصادق ص ١٣٩ .
(١٧) ـ كشف الغمة في أحوال الصادق عن تكرة ابن حمدون ج ٢ ـ ص ٢٠٨ وغيره .
(١٨) ـ الإمام الصادق للشيخ أسد حيدر ج ٢ ص ٣٠٢ .
(١٩) ـ السيد محسن الأمين / أعيان الشيعة ج ١ ص ٦٦١ الطبعة الحديثة .
(٢٠) ـ ابن شهر أشوب في مناقب آل أبي طالب ج ٣ ص ٣٧٢ طبعة عام ١٣٧٥ هـ .
(٢١) ـ تاريخ اليعقوبي ج ٣ ص ١١٩ طبعة عام ١٩٦٤م .
(٢٢) ـ دائرة معارف القرن العشرين ، محمد فريد وجدي ، ج ٣ ص ١٠٩ ـ الطبعة الثالثة .
(٢٣) ـ كتاب الكافي ج ١ ـ ص ٧٤ .
(٢٤) ـ الإمام الصادق للشيخ أسد حيدر ج ٢ ـ ص ٢٠ وغيره من المصادر .







الأستاذ انور الجندي

إليك يارسول الله

أهدي هذه القصيدة في ذكرى مولدك



حَييْتُ قبركَ، فانتشيتُ هَناء ... وشربتُ حبّكَ أدمُعاً وبُكاء

وسألتُ طيفَكَ أن يرق لشاعرٍ ... غنّاكَ ملحمةَ الوجودِ غناء

هو شاعرٌ أضناهُ لؤمُ زمانِه ... هذا الزمانُ يحاربُ الشرفاء

أتراكَ تردَعهُ وأنتَ مؤمَّلٌ ... أتراكَ تكشفُ عنّيَ الغماء؟

مهلاً أبا الزهراء، قلبي ضائعٌ ... فاسقِ العِطاش، وروّض الجهلاء

أنا مُثقلٌ بهموم دهريَ تائهٌ ... أتقحّمُ الآلامَ والأرزاء

وأغصُّ بالشجنِ العميقِ كآبةً ... وأصارعُ الأوجاعَ والأدواء

وأهيمُ خلفَ الأمنياتِ شهيّةً ... وكأنني أتقصّدُ العنقاء

افلا تمدُّ يدَ الرجاء لُمذنف ... يشكو إليكَ الغربةَ السوداء؟

ماذا جنيتُ وأنتَ تعلمُ أنني | عفتُ النفاق ترفُّعاً وإباء
وبقيتُ وحديَ في الحياة مطهّراً | لا أقربُ الأوضار والفحشاء
قلْ لي، وأنتَ أبو المكارم كلها | أمِن العدالةِ أن أموت شقاء؟
أمِنَ العدالة أن أبيتَ على الطوى | سيفاً، وغيريَ، يزحمُ الجوزاء؟
دبستْ كرامتهُ وليس بنادمٍ | ما دام يلعق بالفم النعماء
مهلاً أبا الزهراء إني تائبٌ | كُرماً لعينكَ، توبةً بيضاء
إني عشقتُك شاعراً متألماً | أيلامُ قلبٌ يعشقُ الزهراء؟
أحببتُ من أجليكَ كلَّ ثنية | سمراء حباً أشعلَ الصحراء
ودعوتُ ربيَّ أن أموت مكفّناً | بثرى البقيعِ أجاورُ العظماء
أستافُ عطرَ الأنبياء منضّراً | وأشمُّ تلك القبّة الخضراء
وأذيب روحي في النسيم محبةً | وأعانق الأنوارَ والأضواء
حبٌّ تغلغل في الشغاف عواصفاً | كالسَّيفِ جُنَّ بطولةً ومضاء
يا سيد البطحاء، إني مغرمٌ | قدّستُ في صلواتي البطحاء
أرأيت قوميَ كيف تاهَ دليلهم؟ | أرأيتَ قوميَ يشتهون الماء؟
جفّت ديارُ المذنبين وأصبحت | أرض المحبة أدمعاً ودماء
وتحلّق الغربان حولَ ربوعهم | حتى غدوا للغاصبين إماء
ضاعت كرامتُهم، وبُدِّدَ شملهم | وتناثرت أحلامهم أشلاء
قل لي، وأنت حبيب كل ميتم | أنعيد بالدم أرضنا السمراء؟
يا سيد البطحاء، قلبيَ مرهقٌ | بالعادياتِ تفجّرت إيذاء
أمسيتُ في دنيايَ شاعر أمةٍ | مقهورة.. تبكي ضنى وعناء
واستأسد الجبناء في جنباتها | عنتاً، فكيف نصانع الجبناء؟
أتردُّ للمحروم بعض هنيهةٍ؟ | أو تمنحُ الجسد المريض شقاء؟



أنت النبي وحسب عيني أنها   أمنت رضاك فهلّلت إيماء

ولقد دعوتُك والحياة متاعبٌ   أتراك تسمع للمحب دعاء؟

هدهِدْ جراح المُلْهَمِين لعلّهُم   يتلقون العطر والأنداء

وامنن بعفوكَ عن ذنوبي جمّة   إني أخافُ ذنوبيَ الحمراء

مهلاً أبا الزهراء إني تائبٌ   وأكادُ أشرقُ بالدُموع حياء

أنا شاعر ملَّ الحياةَ كآبةً   أنا شاعرٌ لا يعرف البغضاء

أفنيتُ عمريَ هائماً بمحمدٍ   ومن المحبة ما يكون دواء

ومن المحبة ما يكونُ لحاجةً   ومن المحبة ما يكون فناء

لك من فؤاديَ ألف ألفِ تحيّةٍ   فاقبل فديتك هذه العصماء







برنامج اليوم الثاني من مؤتمر الإمام جعفر الصادق(ع) الدولي

الجمعة ١٨/ ربيع الأول/ ١٤١٢ هـ - ٢٧/ ٩/ ١٩٩١ م

الجلسة المسائية ـ الساعة الخامسة

١ ـ تلاوة القرآن الكريم.
٢ ـ الأستاذ عبد الله عدنان المنتفكي (العراق).
٣ ـ الدكتور حسن عباس نصر الله (لبنان).
٤ ـ د. عارف تامر (سورية).
٥ ـ د. وهبة الزحيلي (سورية).
٦ ـ د. عبد الكريم الأشتر (سورية).
٧ ـ السيد حسن الأمين (لبنان).
٨ ـ الأستاذ عبد الفتاح قلعه جي (سورية).
٩ ـ د. محمود العكام (سورية).



الأستاذ عبد الله عدنان المنتفكي



مدائح الشعراء في إمام العلماء



بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الصادق(ع) في الشعر العربي:

إن مدح أهل البيت(ع) على ألسنة الشعراء لا يزيد من شأنهم فقد مدحهم الله تعالى في كتابه الكريم.

ولكن مادحيهم تقربوا بهم إلى الله تعالى من خلال مدحهم وإظهاراً لحبهم الواجب ودفعاً لظلم الظالمين لهم

لهذا نسجل هذه القصائد حفاظاً عليها وتهيئتها مبرمجة لكي تدرس دراسة كافية في المستقبل ومن خلالها نعرف دور الأدب الإسلامي في حياة الأمة.

ولكننا نبين قبل ذلك موقف الإمام الصادق(ع) من الشعر

وتشجيعه على قرضه وتكريمه الشعراء وتعريفهم بوظيفتهم ودورهم في حياة الأمة.

توجيه الإمام الصادق(ع) للشعر والشعراء:

لم تقتصر حياة الإمام المعصوم على توجيه فئة من الأمة دون أخرى.

بل إننا نجد الإمام الموجه العام في كل مفردات الحياة في أمة الإسلام وإلى يوم القيامة.

ثم إن الإمام الصادق لم يكن منفرداً بهذه الميزة دون قادة الأمة الربانيين.

فهناك وانطلاقاً مع الرسالة في حياة الرسول الأعظم(ص) فقد وجه على يده الكلمة والشعراء فإنك تراه ينتدب لمن يردُ على المشركين ويؤكد ارتباط روح القدس بناصره وناصر الإسلام.

وهكذا استمر الحال في حياة الرسول والأئمة من أهل بيته(ع).

فإنك لا تجد إماماً يخلو عصره من شعراء استطاع من قريب أو بعيد توجيههم في المسار الصحيح من خلال التوجيهات الخاصة للشعراء أو عموم طرحه للإسلام وإذا أردنا أن نعرف مواقف الإمام الصادق(ع) وتوجيهاته للشعر والشعراء.

فإننا نتطرق إلى هذه المواقف ونلاحظ من خلالها أن الإمام يسلك العديد من الطرق في هذه التوجيهات فإنك تراه يسلك:

١ ـ انتدابه الشعراء لإقامة المجالس الحسينية:

وإثارة العواطف والبكاء على مصاب الحسين وتوجيه كافة أبناء الأمة إلى هذه القضية المهمة في مسار الأمة التصحيحي.

وهذه نماذج من مواقفه وأقواله في هذا التوجيه فقد قال(ع):

«١»: من قال في الحسين شعراً فبكى وأبكى غفر الله له ووجبت له الجنة .

«٢»: من أنشد في الحسين بيتاً من الشعر فبكى وأبكى عشره فله ولهم الجنة» .

هذا من حيث الترغيب والحث على نظم الشعر في القضية الحسينية ومعرفة ما لصاحب هذا النظم من إكرامه عند الله تعالى وثواب المستعين إليه هذا من جانب وجانب آخر إقامة نفس المأتم وانتداب الشاعر بمحضر منه عليه السلام فقد قال زيد الشحام: كنا جلوساً عند أبي عبدالله الصادق(ع) فدخل عليه

جعفر بن عثمان فقربه وأدناه ثم قال: يا جعفر قال لبيك جعلني الله فداك، قال بلغني أنك تقول الشعر في الحسين(ع) وتجيد، قال: له نعم جعلني الله فداك قال: قل. فأنشده فبكى ومن حوله حتى صارت الدموع على وجهه ولحيته، ثم قال يا جعفر لقد شهدت ملائكة الله المقربون ها هنا يسمعون قولك في الحسين(ع) ولقد بكوا كما بكينا وأكثر، ولقد أوجب الله تعالى لك ياجعفر في ساعته الجنة، وغفر لك.

وقال: يا جعفر ألا أزيدك؟ قال: نعم يا سيدي، قال: ما من أحد قال في الحسين(ع) شعراً فبكى وأبكى إلا أوجب الله له الجنة، وغفر له .

وموقف آخر:

دخل أبو هارون المكفوف على الصادق فقال: يا أبا هارون أنشدني في الحسين شعراً فأنشدته فقال: أنشدني كما تنشدون يعني (بالرقة) قال: فأنشدته.

أمرر على جدث الحسيـ	ـن وقل لأعظمه الزكية
ما لذ عيش بعد رضـ	ـك بالجياد الأعوجية

قال: فبكى ثم قال: زدني فأنشده القصيدة الأخرى قال: فبكى وسمعت البكاء من خلف الستر فلما فرغت قال: يا أبا هارون من أنشد في الحسين فبكى وأبكى عشرة كتبت لهم الجنة .

ودخل السيد الحميري عليه فقال له أنشدني في الحسين شعراً فأنشده:

أمرر على جدث الحسيـ	ـن وقل لأعظمه الزكية
يا أعظما لا زلت من	وطفاء ساكبة روية
فإذا مررت بقبره	فأطل به وقف المطية
وابكِ المطهر للمطـ	ـهر والمطهرة النقية
كبكاء معولة أتت	يوماً لواحدها المنية

قال: فسالت دموعه على خديه وأشار إليه بالإمساك .

٢ ـ يحث على تَعلم الشعر الرسالي:

وخاصة للأطفال لإنشائهم على المبادىء الحقة فقد قال: «علموا أولادكم شعر العبدي، فإنه على دين الله» . وقال مرغباً في شعر المظلوم أبو طالب وتأكيد أهمية شعره من خلال حب أمير المؤمنين(ع) له

فكأنما يقول يا شيعة احفظوا ما يحفظ أمامكم وارفعوا ظلم الظالمين عن أبيه حيث قال «كان أمير المؤمنين علي(ع) يعجبه أن يروى شعر أبي طالب وأن يدون وقال تعلموه وعلموا أولادكم فإنه كان على دين الله وفيه علم كثير» .

وكأنما أراد الإمام نصرة المظلومين من الشعراء الرساليين من خلال حفظ قصائدهم والحفاظ على خط الشعر الرسالي من خلال ذلك.

٣ ـ ترغيبه في عطاء الله وربط ذلك في نصرتهم والذود عن حضرتهم:

فقد قال: «ما قال فينا قائل بيتاً من الشعر حتى يؤيد بروح القدس» وقال: «من قال فينا بيتاً من الشعر بنى الله له بيتاً في الجنة» وبهذا يرغب الشعراء في سلوك الطريق المستقيم والابتعاد عن الظلم والطاغوت والارتباط بالرسالة وقادتها وثواب الشعر فيهم عليهم السلام.

٤ ـ إنشاد الشعر بمحضر منه(ع):

إن مدح الملوك في بلاطهم وإكرامهم للشعراء يعتبر من أهم أساليب الدعاية للشعر والشعراء وأهم وسيلة يسلكها الملوك في التخلص من هجاء الشعراء وعدائهم واستغلالهم في الدعاية لهم، لهذا نجد الشعراء على أبواب الملوك منتظرين جوائزهم وعلى ذلك استعمل الإمام هذا الأسلوب والترغيب فيه والاستفادة منه لإبعاد الشعراء عن أبواب الملوك الظلمة وتبشيرهم بالجنة والثواب الدائم والدعاية للحق وأهله فإنك تسمعه يقول: «من ينشدنا شعر أبي هريرة» .

وأيضاً ترى أنه تلقى بمحضره قصيدة السيد الحميري:

لأمّ عمرو باللوى مربع طامسة أعلامها بلقع

وهي التي حازت على نجاح باهر فقد شرحها وعلق عليها وخمسها الشعراء على مختلف العصور.

وبهذا تجد الإمام بطلبه الإنشاد واستماعه إلى المُنشد فكأنما يحث على حفظ الشعر الرسالي وإقامة الأندية الأدبية له مما يُحفز الشعراء ويعرف أهمية الشعر الرسالي في الأمة.

٥ ـ تعريف الشاعر لوظيفته:

كما وضحنا سابقاً بأن الإمام الموجه لكل أفراد الأمة والمبين لوظائفهم وبهذا نجده يُعرف الشاعر الكميت أهمية هذه الوظيفة ووقت أدائها:

فقد استأذن عليه الكميت في أيام التشريق ينشده قصيدته فكبر على الإمام أن يتذاكروا الشعر في الأيام العظام.

ولما قال له الكميت أنها فيكم أنس أبو عبد الله(ع) «لأن نصرتهم نصره الله وذكرهم ذكره» ثم دعا أهله فقرب ثم أنشده الكميت فكثر البكاء ولما أتى على قوله:

يصيب به الرامون عن قوس غيرهم	فيا آخراً أسدى له الغي أولُ

رفع الصادق يديه وقال اللهم اغفر له ما قدم وأخر وما أسر وأعلن وأعطه حتى يرضى[11].

فإنك تراه عندما يقول له الكميت إنها فيكم يأنس لذلك وكأنما يقول له إن ذكرنا عباده في كل الأحوال وهذه هي الوظيفة الطبيعية للإنسان والشاعر خاصة.

وهنا نختم هذا الفصل بعد أن عرفنا أن الإمام استعمل كل الوسائل والأساليب وسلك كل الطرق في توجيه الأمة ومنهم الشعراء خاصة في هذا الفصل وأنه عرفنا وظيفة الشاعر وميز الشعر والشعراء وعرف بمصيرهم يوم الآخرة وربط بين الشعر وأهم قضية في حياة الأمة ألا وهي ثورة الإمام الحسين عليه السلام.

مدائح في حياة الإمام عليه السلام

عن كتاب سوق العروس عن الدامغاني أنه استقبله عبد الله بن المبارك وهو عالم زاهد وعارف محدث كان من تابعي التابعين توفي بهيت (مدينة على الفرات) سنة ١٨١ هـ.

نقلاً عن مناقب آل أبي طالب ٤/٢٧٧ وأعيان الشيعة ١/٦٧٦

أنت يا جعفر فوق الـ	مدح والمدح عناء
إنما الأشراف أرض	ولهم أنت سماء
جاز حدّ المدح من قد	ولدته الأنبياء

وقال:

الله أظهر دينه	وأعزه بمحمد
والله أكرم بالخلا	فة جعفر بن محمد

أمدح أبا عبد الالـ ـه فتى البرية في احتمالِهِ
سبط النبي محمدٍ حبل تفرّع من حبالِهِ
تغشى العيون الناظرات إذا سَمَون إلى جلاله
عذب الموارد بحرُه يروي الخلائق من سجاله
بحر أطلّ على البحو ر يمدُّهنَّ. ندى نوالِهِ
سقت العباد يمينُه وسقى البلاد ندى شمالِهِ
الأرث ميراثٌ له والناسُ طُرّاً في عياله
يا حجة الله الجليل وعينه وزعيمُ آلِهِ
وابن الوصي المصطفى وشبيه أحمد في كمالِهِ
أنت ابن بنت محمدٍ حذواً خُلقت على مثالِهِ
فضياء نورك نوره وظلال روحك من ظلالِهِ
فيك الخلاص عن الردى وبك الهداية من ضلالِهِ
أثني ولست ببالغ عشر الفريدة من خصاله

وقال أيضاً:

تجعفرت باسم الله والله أكبر وأيقنت أن الله يعفو ويغفرُ
ودنت بدين غير ما كنت دائناً به ونهاني سيّد الناس جعفرُ
فقلت: هب إنّي تهوّدت برهة وإلا فديني دين من يتنصرُ
فإنّي إلى الرحمان من ذاك تائبٌ وإنّي قد أسلمت والله أكبر
فلست بغال ما حييت وراجع إلى ما عليه كنت أخفي وأضمرُ
ولا قائل حيّ برضوى محمد وإن عاب جهّال مقالي وأكثروا
ولكنّه ممن مضى لسبيله على أفضل الحالات يقفي ويخبرُ
مع الطيبين الطاهرين الأولى لهم من المصطفى فرع زكي وعنصرُ

وقال أيضاً: عن أعلام الورى للطبرسي ٢٨٠

أيا راكباً نحو المدينة جسرة عذافرة يطوى بها كلّ سبسبِ

إذا ما هداك الله عاينت جعفراً	فقل لولي الله وابن المهذّبِ
ألا يا أمين الله وابن أمينه	أتوب إلى الرحمن ثمّ تأوّبي
إليك من الأمر الذي كنت مطنباً	أحارب فيه جاهداً كل معربِ
وما كان قولي في ابن خولة مبطناً	معاندة مني لنسل المطيّبِ
ولكن روينا عن وصيّ نبيّنا	وما كان فيما قاله بالمكذّبِ
بأن وليّ الله يُفقد لا يرى	ستيراً كفعل الخائف المترقّبِ
فتقسم أموال الفقيد كأنّما	تغيّبه بين الصفيح المنصّبِ
فيمكث حيناً ثم يشرق شخصه	مضيئاً بنور العدل إشراق كوكبِ
يسير بنصر الله من بيت ربه	على سؤدد منه وأمر مسبّبِ
يسير إلى أعدائه بلوائه	فيقتلهم قتلاً كحرّان مغضبِ
فلما روي أنّ ابن خولة غائب	صرفنا إليه قوله لم نكذّبِ
وقلنا هو المهدي والقائم الذي	يعيش به من عدله كل مجدبِ
فإن قلت: لا، فالقول قولك والذي	أمرت فحتم غير ما متعصّبِ
وأشهد ربي أنّ قولك حجّة	على الناس طرّاً من مطيع ومذنبِ
بأن ولي الأمر والقائم الذي	تطلّع نفسي نحوه بتطرّبِ
له غيبة لا بدّ من أن يغيبها	فصلى عليه الله من متغيّبِ
فيمكث حيناً ثم يظهر حينه	فيملأ عدلاً كل شرق ومغربِ
بذاك أدين الله سرّاً وجهرة	ولست وإن عوتبت فيه بمعتبِ

وعن كتاب تحت راية الحق للشيخ دخيل ص٥٩١ دخل أشجع السلمي (وهو من أصحابه وأحد الرواة عنه وأحد كبار الشعراء) على الإمام الصادق(ع) فوجده عليلاً فقال:

ألبسك الله منه عافية	في نومك المعترى وفي أرقك
تُخرج من جسمك السقام كما	أخرج ذلّ الفعال من عنقك

وقال أبو هريرة الأبار في قضية كتاب أبو مسلم الخراساني الذي بعث به إلى الإمام الصادق(ع) نقلاً عن كتاب الإمام الصادق والواقع المعاش ص١٥٦

ولما دعا الداعون مولاي لم يكن ... ليُثني إليهم عزمه بصواب
ولما دعوه بالكتاب أجابهم ... بحرق كتاب دون ردّ جواب
وما كان مولائي كمشري ضلالة ... ولا ملبساً منها الردى بصواب
ولكنه لله في الأرض حجة ... دليل إلى خيرٍ وحسنِ مآب

رثاء الإمام (ع) عند وفاته

رثاه أبو هريرة العجلي لما حملت جنازته ورفع سريره وقد أُخرج إلى البقيع ليدفن عليه السلام (وهو من شعراء أهل البيت(ع) المجاهدين كان شاعراً ناكساً لقي الإمام الباقر والصادق(ع) وتوفي بعد سنة ١٥٠ هـ) نقلاً عن كتاب وفاة جعفر الصادق(ع) للشيخ حسين الدرازي البحراني ص٣٨

أقول وقد راحوا به يحملونه ... على كاهل من حامليه وعاتق
أتدرون من ذي تحملون على الثرى ... ثبير ثوى من رأس علياء شاهق
غداة حنا الحانون فوق ضريحه ... تراباً وأولى كان فوق المرافق
فيا صادق ابن الصادقين إليه ... بآبائك الأطهار حلفة صادق
فحق بكم ذو العرش أقسم في الورى ... فقال تعالى الله رب المشارق
نجوم هي اثنا عشر قد كن سبقاً ... إلى الناس في علم من الناس سابق
ولا عجباً لو أنزلوك إلى الثرى ... فلولاك فيها لم تكن في الحقائق
وساخت بأهليها ولم تك ساعة ... بسالمة من حل تلك البوائق
سأبكيك ما دامت عيوني في الثرى ... إلى يوم حشري عند ربي وخالقي
ألا لعن الله الذين تبوأوا ... مقاماتكم لا سيما ابن الدوانق
أتقتل يا شر البرية جعفراً ... ومن قال فيه خالقي خير صادق
وتترك هذا الدين من غير والياً ... وصامته أضحى به غير ناطق
سألبس أثواب الضنا مدة البقا ... وأهجر صفو العيش غير مرافق

وكيف تلذ العين غمضاً وقد جرى	على خير خلق الله شمس المشارق
فيا نكبة ما مثلها قط نكبة	لقد عطلت تلك السما بعد طارق
صلاة إله العرش مثل سلامه	وتسليمه ماذر نور المشارق





الدكتور حسن عباس نصر الله



الاتجاهات الإنسانية في فقه الإمام جعفر الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

إنسانيـة الفقه الصادقي تنبعث من كل كلمة أطلقها، تطلّ من قلب التشّـريعـات التي أصـدرهـا، تبرز في كل تعليل لشرائع الأحكام الإلهية، تشرق من كل التصرّفات وقد حرستها العصمة.

هذه الإنسـانيـة تحكيهـا فصـول المجمـوعـة الفقهيـة التي استنبطهـا الإمام الصادق(ع) من القرآن الكريم، والسنّة النبوية، والعلم المعصوم، وتتبدّى في مستويات عدّة.

١ ـ مستوى التكامل الفقهي:

التكـامـل من أجـل الإنسـان، آلاف المـواد قرَّرهـا الإمام جعفر شاملة المناحي الحياتية في العبادات والمعـامـلات، مُنمَّـة عن دستـور متسم بزخـور التفـاعـلات التي تزرع في الإنسان إنسانيته، بعدما هجَّرها

الحكام، بل قتلوها داخل الفرد، بنزع حريته، وتخدير إسلامه.

٢ ـ المستوى الإنساني:

هو إتجاه مثالي يحنو على الإنسان، ويرفق به، ويصونه في نفسه وأشيائه، انطلاقاً من قول الرسول: «**أتيتكم بالشريعة السهلة السمحاء**» وحرصاً على التناسب مع العقل، وعدم التهاون في أحكام الله.

٣ ـ المستوى العلمي:

بذر الإمام الصادق، بذور العلوم الكيميائية والطبيعية، والطبية والفلكية، فنمت البذور وأثمرت غرساتها نهضة العلوم الذهبيَّة في العصر العباسي.

٤ ـ المستوى السياسي:

قرَّر نظام الحكم، وفصَّل أخلاق الفقيه والسلطان، وشرح العلاقة بينهما قال: «**الفقهاء أمناء الرسول، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتهموهم**»[١].

ركَّز على عنصر العدالة لأنها مصدر السعادة، إن مبدأ العدالة أثار لدداً بين التيارات الإسلامية: الجبرية والقدرية، الأشاعرة والمعتزلة. وقديماً قال سقراط: العدل ميزان الله، وثبات الأشياء بالعدل، وينبوع فرح العالم الحاكم العادل، وينبوع حزن العالم الحاكم الجائر»[٢].

ومع أن الإمام الصادق كان صاحب الولايتين: الزمنية والروحية، تغاضى عن الأولى، وعصم نفسه من توليد الفتنة، وإراقة الدماء. فالنبي أو الإمام المعصوم، لا تلغي نبوَّته أو إمامته معارضات الناس وإعراضهم عن تعاليمه، أو عدم الإعتراف بأحقيته. عتا قوم نوح وأخذهم الطوفان، وبقي نوح نبياً.

الإتجاه الإنساني

الإنسانية نزعة عالمية تلغي الحدود الدولية والعرقية والطائفية. ويصبح الناس إخوة في قارات الكون توحدهم إنسانية، لا تحدوها سماء ولا أرض، أهدافها الدعوة إلى صوفية تعشق السماء، وإلى محبَّة تعشق الخير، وإلى سعادة الدنيا تعشق الإنسان في حركة صاعدة إلى مثالية التصرفات البشرية، وتتعانق المفاهيم بين الروحانيات والواقع المحسوس الروحانيات العبادية تمنح المرء شفافية، وتصقل النفس وتهذب الضمير، فيوغل المرء في دروب الإنسانية، ويعيش واقعه فكرة الرحمة بالضعيف، ومواساة العاجز والفقير، وسلخ الظلم عن المظلوم، والتعاطف مع الإنسان لمجرد إنسانيته فيغيب الشقاء من المجتمعات، فلا يكون هناك بائس ولا بؤس. ولا حاقد ولا حقد، ولا قتل ولا دماء... ويسود التواصل، والتراحم والتسامح، وتشرق الأرض من ضحكات الأطفال، وابتسامات الرجال، وفرح النساء... وتصل الإنسانية إلى حد الغيرة

على البشر، فيتمنى كلُّ فرد لأبناء الأرض سعادة الدارين: نعيم الدنيا، ونعيم الآخرة. فيدعوهم بقناعاته إلى معتقده ليزحزحهم عن الشقاء.

قال أحـد دعـاة الإنسـانيـة: «سبحان الله! أمنَ المعقول أن أبغض أخي لأنه رفض أن ينجو من النار على يدي؟ أما كفاه قصاصاً ما سيلاقيه من عذاب الآخرة لرفضه اعتناق عقيدتي»[٣].

هذه المعـاني الإنسـانيـة قررهـا الإمام الصادق في مبادئه قولاً ومارسها عملاً على مدى أربع وثلاثين سنـة، مدَّة إمـامتـه (١١٤ - ١٤٨هـ). ونبَّـه أتباعه إلى التعاطي معها بصدق حتى لا تتشوه المبادىء، ردّد على مسامعهم عبارة تعانديَّة: زاجرة، راحمة ترسم بثنائيتها تحرك الفرد في النمط المثالي **«كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً»** من قبيل **﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾**، ودعاهم إلى الحسن والأحسن، وحذرهم من القبـح، وعـظ أحـد أتباعه وقد علم أنه يقترف الإثـم «إن الحسن من كل أحدٍ حسنٌ وإنه منك أحسن، لمكانك منّا، وإن القبيح من كل أحد قبيحٌ، وإنه منك أقبح»[٤]، وهذا يذكرنا بقول سقراط:

«الحسن الجـوهـر هو العـدل لأنه علّة كل حسن، والجور هو القبح لأنه، علّة كل قبح»[٥]، **فالإمام الصـادق(ع) لم يتعـدَّ حدود الأحكـام الإلهية، ولم يعطلها في منحاه الإنساني،** بل انطلق من مفاهيم القرآن ليسكب الإنسـانيـة جروفـاً في عبـاراتـه: «لا إكـراه في الـدين» **أدرك الإمام الصادق الأبعاد العطائية للآية** الكريمة في البناء التسامحي للإسلام، وقرأ سيرة الأنبياء، وعلومهم عنده. فهو سليل النبوّات، حفيد محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ومحمد تقلَّب في الأصلاب الطاهرة، «وتقلّبك في الساجدين»[٦]. جدُّه السجّاد، وأبوه باقـر العلوم لمح الصـادق ومضـات الإنسـانيـة تشـع من مسيرة إبراهيم، خليل الرحمن، الذي شدد مرة في تطبيق الشـريعـة، بعدما كُشِف له، وشاهد العصاة المستترين يقترفون الذنوب، فطلب لهم الموت. فناداه الـرحمن: يا إبـراهيم العبـاد عبـادي دعهم يعيشون. وجاءه العتاب مرة ثانية عندما رفض استضافة مجوسي لإشراكه، يا إبراهيم لقد استضفته ثمانين عاماً، أما تستضيفه ليلة واحدة.. فكان إبراهيم بعد ذلك حليماً أواهاً منيباً **﴿إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب﴾**[٧]. يجادل ربَّه في قوم لوط. تلك الإنسانية لا تتعدى حدود الله إنـما تطلب الـرحمـة للنـاس عن طريق التـوبـة، عن طريق الصوفية المحدثة بلسان العزَّة **(يا ابن آدم كن من شئت، وافعـل ما شئت فتعـال إليَّ فبـابي مفتـوح لك)** وهـل الـدعـاء إلاّ معنى من التوسل الخاشع يطلب الرحمة، لا تبديل أحكام الله.

استغـل سلاطـين الإسـلام تشـريعـات إقامة الحدود للإيقاع بأعدائهم، فوجهوا التهم إلى المناوئين لسيـاسـاتهم وأقـامـوا عليهم حدود القتـل ظلماً وجـوراً. فراعت هذه التصرفات الإمام الصادق، وكان ممن تعـرَّضـوا للتهم والـدسائس، فأعلن تشريعاً يصون الإنسان في مواقف الإفتراء، قال الصادق **«إن الإسلام قيّد الفتك»**[٨]. وعندما كان باستطاعته أن يصون دم الفرد، كان يصونه مقابل التوبة استلهاماً لما فعله جدّه الإمام علي(ع)، أتاه مذنب وطلب التطهير بإقامة الحد، أجابه الإمام يا سبحان الله، أين باب التوبة، «لا

طهارة أفضل من التوبة»[٩]. وإذا أقام الولاة الحدود راعى الاتجاهات الإنسانية في مراقبة التنفيذ، مرَّ الإمام الصادق بالمدينة في يوم بارد، وإذا برجل يضربُ بالسياط. فقال: «سبحان الله في مثل هذا الوقت يضرب! . . . فقيل له وهل للضرب وقت؟ قال: نعم، إذا كان في الحر ضرب في برد النهار، وإذا كان في البرد، ضرب في حرّ النهار»[١٠]. «ولا يقام الحد على المريض. كما لا يزاد في الحد جَلْدَة واحدة». . «لكل شيء حد ولمن تجاوز الحدَّ حدٌّ»[١١] ورصد النيَّة والندامة في العقوبات قال: «إذا جاء السارق من قبل نفسه تائباً إلى الله عزّ وجلّ تُرَدُّ سرقته إلى صاحبها، ولا قطع عليه»[١٢] فاتهمه الناس بتعطيل الحدود، فأجاب معلّلاً اجتهاده «إذا أقرَّ الرجل على نفسه فذاك إلى الإمام، إن شاء عفا، وإن شاء قطع»[١٣]، لأن الاعتراف ندم وتوبة، وثواب الثوبة الغفران والعفو.

التشريع للحرية

أقرَّ الإسلام الحرية في أبعادها الحياتية: عقيدة وسياسة واجتماعاً. . . وحارب العبودية وأشكال الرق، وجعل العتق في أولويَّة الكفارات. رأى الإمام الصادق أن الإنسان نفسٌ تعشق الحرية، ولا تقنع بمادية الجسد، وحاجاته الغريزية. وأذهله فعل الحكام الذين قتلوا في الفرد المسلم حريته، أماتوها بالكبت والقهر بعدما بدّلوا شريعة الله، وأوقفوا حركة المجتمع الحر، قابل الإمام الصادق هذه التشريعات بالجرأة في التصرف. أعاد إلى النفوس طمأنينة الإسلام وهزّ ضمير المنصور العباسي أكثر من مرَّة، قابل سيف المنصور بابتسامة، ووعيده بكلمات واعظة. فأحيا في نفوس المسلمين مائت حريتهم، وأوغل في هذا المفهوم متحدثاً عن نوع آخر من الحرية الإنسانية، تكمن في مشيئة الفرد ومكسبه وكيفية انتسابه إلى المجتمع. نهى عن إضافة النفس للغير لما فيها من عبودية آنية، والتحرر ضد الإضافة قال الصادق مخاطباً الشباب: «**يا معشر الأحداث، اتقوا الله، ولا تأتوا الرؤساء، دعوهم يصيروا أذناباً، ولا تتخذوا الرجال ولا تبح من دون الله. .**»[١٤]. هذه الفكرة غدت اتجاهاً فلسفياً في القرن العشرين يعتبر الإضافة تبعية وعبودية، تتجسم في عبودية الطبقات والمذاهب السياسية التقاليد. . . ونهى الصادق عن إجارة النفس، لأن الاجارة فيها تحديد للرزق. قال: «**لا يؤاجر الإنسان نفسه، ولكن يسترزق الله عزّ وجل، ويتجر، فإذا أجّر نفسه فقد حظر**»[١٥].

الإصلاح بين الناس: «فرِّق تسد» شعارُ خرَّب المجتمعات، اعتمده الحكام للتمكن من القهر والتسلط، وغدت هذه المقولة رمزاً للدول الكبرى تستخدمها للسيطرة على الشعوب، تثير بينهم الشغب والخلافات والفتن، هذه الرذيلة ليست ثوب الفضيلة في متجر السياسة، لكن تشريع الإمام الصادق رذلها وخطط لمحاربتها وعمل على وأد الفتن في مهدها، أمر أن يقتطع مبلغ من مال المسلمين للإصلاح بين المتخاصمين اشتياقاً وإشاعة للمودة والصفاء، وحرصاً على تنفيذ مضمون الحكم كان يضع أموالاً بتصرف

القيمين على شؤون الناس، ويأمرهم بصرفها في الإصلاح بين أفراد الرعية عندما تقع النزاعات، جاء في المناقب[١٦]: «قال ابن حنيفة: مرَّ بنا المفضل وأنا وأختي نتشاجر في ميراث. فوقف علينا ثم قال: تعالوا إلى المنزل، فأتيناه وأصلح بيننا بأربعمائة درهم، دفعها إلينا من عنده، حتى يستوثق كل واحد منا، ولما أردنا أن نشكره قال: إنها ليست من مالي، فالإمام الصادق أودعني مالاً وأمرني إذا تشاجر رجلان في شيء أن أصلح بينهما وافتديهما من ماله».

أليست هذه التصرفات ترقى إلى أرفع درجات الإنسانية الموغلة في الحضارة البشرية؟.

الإنسانية والحروب

ألّفت الحروب كارثة الحياة على مرِّ التاريخ، فهي تسعى إلي إفناء الجنس البشري، لذلك كان الدين عند الله الإسلام، ومعناه السّلام، ضد الحرب. تجنبها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالهجرتين، وأُكره عليها في بدر، والخندق وأُحد. . بعدما قصده المشركون إلى مدينته، جافى الإمام الصادق الحرب، وأبى ولوج متاهاتها، شهد الصراع بين الأمويين والعباسيين. تحركت المعارضة في خراسان، ولما أنس أبو سلمة انحلال القوة في رجاله أعلن الثورة ضد الأمويين، وبعث كتاباً إلى الإمام الصادق يبايعه خليفة للمسلمين. وصل الكتاب ليلاً قرأه ثم وضعه على المصباح فحرقه. ظن الرسول أن الإمام أحرق الكتاب تغطية وستراً وصيانة للأمر، وطلب الجواب! قال الصادق: الجواب ما قد رأيت «فنظم ابن الأبار هذه المحادثة شعراً مشيراً إلى المعاني الإنسانية للتصرف الحكيم[١٧].

ولما دعوه بالكتاب أجابهُمْ — بحرقِ الكتاب دون ردِّ جواب
وما كان مولاي كمشري ضلالةٍ — ولا ملبساً منها الردى بثواب
ولكنه لله في الأرض حُجَّةٌ — دليلٌ إلى خيرٍ وحُسْنِ مآبِ

جبَّ الإمام الصادق الفتنة على قدر استطاعته، لأن الخلافة الزمنية آنية والخلافة الروحية، الإمامة أبدية، ولا تسقط ولي خلافة المسلمين أم لم يتولاها، وتبقى الإمامة المعصومة تحرس الدين، وتصون الإنسان، عنصر الدين.

التشريعات الإجتماعية

في الحقول الإجتماعية صدرت عنه تشريعات اجتهاداتها متفرِّدة، ترسخ التعامل بين الأفراد، بروح الضمير الإسلامي، أعرض نماذج للأمانة والدين والقرض والربا.

فالأمانة تتبعها (الوديعة)، لا تبيح خيانتها الفوارق المذهبية والدينية. قال الصادق: «ترَدُّ إلى البر

والفاجر»[١٨] ملغياً إباحة مال الفاجر في تشريعات كثيرين من الفقهاء.

أما الدين فقال عنه «من استدان ديناً فلم ينو قضاءه كان بمنزلة السارق»[١٩]. في هذه المشابهة تأنيب رادع للمدين يطاله معنوياً ومادياً، صفة الاحتيال والسرقة، وإقامة الحد المادي، أي العقاب الجسدي.

كما حثّ على القرض الحسن، لما فيه من قضاء حاجات الإنسان، وإشاعة المعروف في المجتمع، فالقرض بمنزلة الصدَّقة قال «لئن أُقرِضُ قرضاً أحبُّ إليّ من أن اتصدَّق بمثله»[٢٠].

تشريع بني أيضاً على المشابهة، إذ قرن القرض بالصدقة، وهمَّ بتفضيل القرض. إذ يحفظ المال لصاحبه، ويصون كرامة المقترض.

من خصائص الفقه الصادقي تعليل الشرائع باتجاه إنساني يضمن تماسك المجتمعات. لما سئل لماذا حرَّم الله الربا؟ أجاب: «لئلاّ يتمانع الناس المعروف»[٢١]. ومن خصائصها المميزة (التشريعات) ارتباطها بالأحكام الإلهية، فالإمام الصادق قال «من حكم في درهمين بغير ما أنزل الله، عزّ وجل، فهو كافر»[٢٢]. وقال في أحكام الشرط: «من اشترط شرطاً مخالفاً لكتاب الله عز وجل، فلا يجوز على الذي اشترط عليه، والمسلمون عند شروطهم فيما وافق كتاب الله»[٢٣]. هذه الخصائص منحت الفقه الصادقي سمة الإطلاق والخلود وغدا منهلاً يرده الفقهاء يستنبطون منه قواعد شرعية، مثال قاعدة «من أتلف مال غيره فهو له ضامن»، مستنبطة من قول الإمام الصادق: من أضرَّ بطريق المسلمين فهو له ضامن»[٢٤]. أما اغتصاب أموال الآخرين فقاعدته قول الصادق: «كلُّ مغصوب مردود»[٢٥].

كان الإمام الصادق(ع) يعالج الظواهر الاقتصادية بإنسانية مثالية وممارسات متفردة، ولا عجب فهو إمام معصوم سلك طريق الأنبياء.

أقصّ حكاية الإمام الصادق مع الإحتكار: «جاء في كتاب الوسائل: في إحدى السنين انقطع الطعام عن المدينة المنورة، وكان الناس يشترون طعامهم يوماً بيوم، فقال الإمام الصادق(ع) لبعض خدمه: كم عندنا من الطعام؟ قال: ما يكفينا أشهراً، قال: أخرجه، وبعه. فقال الخادم: ليس في المدينة طعام، قال الإمام: بعه. فلما باعه قال له «اشترِ مع الناس يوماً بيوم» وذكرت المصادر أيضاً «أن أهل المدينة أصابهم قحط، حتى أن الرجل الموسر كان يخلطُ، الحنطة بالشعير، ويأكله، وكان عند الإمام الصادق(ع) طعام جيد، فقال لخادمه: «اشترِ لنا شعيراً، فاخلط بهذا الطعام، وبع القمح، فإنا نكره أن نأكل جيداً ويأكل الناس رديئاً»، هذه المواساة للناس هي دأب الإمام الصادق وأخلاقه نهلها من جدّه علي: «أأقنع من نفسي بأن يُقالَ أميرُ المؤمنين ولا أشاركهم في مكاره الدَّهر؟ أو أكون أسوةً لهم في جشوبة العيش»[٢٦].

في حين دأب خلفاء المسلمين أي «الملوك والسلاطين» على انتقاء الأفضل، واغتصاب ما في أيدي الناس في حالي الرخاء والشدَّة. فكانت الأموال (السنيَّة) وهي أخصب الأراضي، وأجود المقتنيات يصادرها

الملوك يضمونهـا لأمـلاكهم أو يهبونها لنسائهم وأولادهم . لقد خصّوا أنفسهم بالطيبات وتركوا الرعية تعاني الحرمان . **سلام الله عليك أيها الصادق تمتلك الحنطة فتبدل بعضها بالشعير لتأكل كما يأكل الناس . .**

المنهجيـة الفقهيـة

حدّد الإمـام الصـادق(ع) استنبـاط الأحكام الشرعية . من أدلتها الأصلية : القرآن الكريم ، والسنة النبـويـة ، وسـيرة الأئمة المعصومين ، والعلم المعصوم . القرآن الكريم : ضمَّ كتاب الله توجيهات الأحكام بمجملهـا وبقي التفصيـل للنبي ، فبـيّن الأصـول ومعظم الفـروع ، وظلّت قضايا جزئية لم تتوافر الدواعي والبواعث لبيانها لعدم الحاجة إليها ، ولأن حكمة التدرج في التبليغ اقتضت أيضاً قسم من الأحكام ، ونشأة جملةٍ منهـا يبينهـا الأوصيـاء والعلماء . قال الإمام الصادق : «علمنا من كتاب الله تعالى ، إذ يقول : **﴿وأنزلنا إليـك الكتـاب تبيـاناً لكل شيء﴾**[٢٧] ، وقال في موقع آخر : «كلُّ ما يحتاج إليه نعلمه ، أما سمعت قول الله تعالى **﴿وكلّ شيء أحصيناه في إمام مبين﴾**[٢٨] .

السنة النبوية :

نهل الإمام الصادق من السنة النبوية باستمرارية حتى أصبح وارثاً لعلم الأنبياء ، وباح بهذا المخزون الثقافي قائلاً «علمنا من علم الأنبياء»[٢٩] .

سيرة الأئمة :

قبس من سيرة آبـائـه المعصـومين وخصوصاً الإمام علي(ع) جمع آراءهـم الفقهية في فتاواه التي أغنت الفقه الإسلامي .

العلم المعصوم :

شرح الصادق علم العصمة بقوله «علمنا نكتٌ في القلوب ، ونقرٌ في الأسماع»[٣٠] أي تفكرٌ وإلهام .

والعلم المعصـوم يرفض العلم بالقيـاس المطلق المبني على المقـدِّمات المتناقضة ، روى الأصبهاني في حلية الأولياء : قال الصادق لأبي حنيفة : «يا نعمان حدثني أبي عن جدّي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : [**أوّل من قاس أمر الدين برأيه إبليس . قال : الله تعالى له : اسجد لآدم فقال : ﴿أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾ فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه أتبعه بالقياس**»[٣١] .

هذه الينابيع الصافية ظلّت عند الإمام الصادق تتدفق في تياراتها الإلهية خالصة من شوائب المدلسين الذين يحكمون بغير ما أنزل الله. وظلّت أحكامه تتوهج لأن المقدرات الإنسانية غير المقدرات الإلهية.

إنسانية الإتجاه العلمي:

أدرك الإمام الصادق أن العلم أنجع وسيلة كي يكتشف الإنسان ذاته، وما يحيط به من الموجودات لمعرفتها والسيطرة عليها والإفادة منها، وأدرك الحكمة من وجودها، ودَّ الوقوف على حقيقة الإنسان بما هو إنسان، أي على حقيقته الجوهرية التي تختلف بتباين عن حقيقته العرضية، لجأ إلى العلم يستنطق كنوزه المخبؤة، فتمثل العمل الوظيفة في إثبات الخالق، وتطوير المعرفة لترقية الحضارة، وأنسنة الأشياء. عاش الإمام الصادق حقبة كثرت فيها أحاديث المتفلسفة من مانويَّة ومزدكيّة ودهريَّة عملت هذه الفئات على إشاعة الإلحاد، وإنكار الذات العليّة، انبرى الإمام الصادق يدحض آراءهم ويفند حججهم مستخدماً الأساليب العلمية التي استخدموها على غير حقيقتها من أشهر رسائله ما عرف «بتوحيد المفضل» وهي إملاءات أملاها الصادق على تلميذه المفضل بن عمر الجعفي رداً على عبد الكريم بن أبي العوجاء وأصحابه، أظهر الإمام الصادق في مباحثه علوماً متطورة تنبيء عن معرفة متعمقة للعلوم الطبيعية: الإنسانية والحيوانية والنباتية تناول بمنهجية دقيقة هذه الموجودات من حيث التكوين، ورأى في كمالية خلقها كمال الخالق، وفي معرفتها تتكشف أسرارها، فيفيد منها الإنسان، ويتخطى كثيراً من المشتقات والآلام والعذابات النفسية والجسدية.

بدأ بالإنسان مرافقاً مراحل تطوره ووظائف أعضائه، والعناوين مكثفة وموحية منها: «خلق الإنسان وتدبير الجنين في الرحم. .[32] (ولادة الجنين وغذاؤه) (حال المولود لو ولد فيهما عاقلاً وتعليل ذلك)[33] (الحواس الخمس وأعمالها وما في ذلك من الأسرار)[34]. (الجنين وأسفاره) (الفؤاد ومدرعته) (قوى النفس وموقعها من الإنسان)[35]. وأبان وظائف الأعضاء مشيراً إلى نعمة الحواس الخمس، وذكر دور النور والهواء في إدراك الألوان والأصوات، ولا يكون ذلك إلا بعمل وتقدير من لطيف خبير، وعلّل فائدة وجود الشعر والأظافر بتخفيف آلام الجسد قال الإمام الصادق: «إعلم أن آلام البدن وأدواءه تخرج بخروج الشعر في مسامه، وبخروج الأظافر من أناملها»[36].

في حديثه عن النبات كشف نظرية متطورة أدركها العلم في القرن التاسع عشر، لنقرأ قوله: «يا مفضّل لألقينّ عليك من حكمة الباري جلّ وعلا وتقدَّس اسمه في خلق العالم والسِّباع والبهائم والطير والهوام وكل ذي روح من الأنعام والنبات. .»[37]. **لقد نسب الروح للنبات كما تنسب للأنعام**. فللنبات حسٌّ وحركة اكتشفها العالم الفسيولوجي الفرنسي (بيشا) المتوفى سنة ١٨٠٢م. وظهرت في القرن العشرين دراسات تكشف حركات النبات وانفعالاتها بالحرّ والبرد والظلمة والنور، وممارسة الضحك والبكاء، هذه

النظريات تدل على عظمة الخالق، وتؤكد العمق المعرفي لدى الإمام الصادق في منهجة العلوم لتخدم الإنسان.

خلاصة

إن التشريع ـ التصرف للإمام الصادق موقرٌ بمسحة الإنسانية، يلفُّها الوهج، إنه تصرُّف معصوم، يستلهم طريق الرسل، الذين كانوا يتحملون الأذى، ويجزون السيئة بالحسنة، ويقابلون الأحقاد بالمحبَّة، طمعاً في بناء مجتمع إنساني حنون. هذه الإستراتيجية الإنسانية لفقه الإمام الصادق كتبت الخلود لتشريعاته، وألبستها نظرة الحياة وسط اضطهاد مرير، ومحاصرة مشدّدة من قبل السلاطين. لأن الفقه الجعفري لا يُقرُّ الحكام الظالمين في إيديولوجيته، ويلغي السلطان المتهاون بأمور الشريعة الجاهل بأحكامها، العابث بمقدرات الأمة وكرامتها. ويقيم سلطاناً فقيهاً عالماً بالحلال الحرام، لذلك تعرَّض فقه الإمام الصادق إلى الإلغاء بطرق بربريَّة، تعرَّت من الحضارة. أولها قتل القادة من حملة هذا الفكر الفقهي بدأت بدس السُم للمعصومين، فالإمام الصادق نفسه قضى بالسُمّ على يد المنصور العباسي وانتهت بقتل حَمَلة هذا الفقه، عمّن عرفوا بشهداء المذهب الجعفري الشهيد الأول محمد بن مكي الجزيني (١٣٣٣ ـ ١٣٨٤م) والشهيد الثاني زين الدين الجبعي (٩١١ ـ ٩٦٥هـ) والشهيد الثالث محمد باقر الصدر. . وتخطت الحملة الرجال إلى الفكر نفسه فعمدت إلى إبادة المؤلفات بين إتلاف وإحراق، أكدت كتب التاريخ، إن الجزار وحده أحرق أكثر من ثلاث عشرة ألف مخطوطة صادرها من جبل عامل وأحرقها في أفران عكا.

ثم فرضوا الحظر على مسافرة الكتب الفقهية ومنعوها من التجوال بحرية في البلاد الإسلامية.

رغم هذه الإضطهادات ألّف اللون الإنساني الذي صبغها درعاً واقياً سقاها (ماء الخضر) وحماها من الفناء. حتى أن بعض التشريعات في الطلاق والإرث والمعاملات سيطرت على فتاوى سائر المذاهب.



الحواشي

١ ـ الأصبهاني، ابو نعيم أحمد: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ٣/١٩٤.

٢ ـ Diogenes, laertins I,32

٣ ـ وليم كاشفليس! بلاغة العرب: ٢٥٣.

٤ ـ مناقب آل أبي طالب: ٤/٢٣٦.

٥ ـ فخري: ماجد، دراسات في الفكر العربي: ٥٠

٦ ـ الشعراء: ٢٦/٢١٩.
٧ ـ هود ١١/٧٥.
٨ ـ المناقب: ٤/٢٣٩.
٩ ـ مغنية، محمد جواد فقه الإمام جعفر الصادق: ٦/٢٧٣.
١٠ ـ نفسه، ٦/٢٧١.
١١ ـ نفسه: ٦/٢٥٦.
١٢ ـ نفسه: ٦/٢٧٣.
١٣ ـ نفسه: ٦/٢٦٢.
١٤ ـ نوادر الراوندي: ٢/١٩١.
١٥ ـ فقه الإمام جعفر: ٤/٢٥٨، الحر العاملي: وسائل الشيعة ١٢/١٧٦.
١٦ ـ المناقب: ٤/٢٧٣.
١٧ ـ المناقب: ٤/٢٢٩.
١٨ ـ فقه الإمام الصادق: ٤/٢٠٥.
١٩ ـ وسائل الشيعة: ١٣/٨٦.
٢٠ ـ فقه الإمام الصادق: ٤/٨، وسائل: ١٣/٨٧.
٢١ ـ حلية الأولياء: ٣/١٩٤.
٢٢ ـ فقه الإمام الصادق: ٦/٦٥
٢٣ ـ نفسه: ٣/١٦٢.
٢٤ ـ نفسه: ٣/٥٠.
٢٥ ـ وسائل: ١٧/٣٠٩.
٢٦ ـ نهج البلاغة: ٣/٨١.
٢٧ ـ المناقب: ٤/٢٥٠.
٢٨ ـ نفسه: ٤/٢٢٧.
٢٩ ـ نفسه: ٤/٢٢٧.
٣٠ ـ نفسه: ٤/٢٣٦.
٣١ ـ حلية الأولياء: ٣/١٩٧.
٣٢ ـ توحيد المفضل: ١٢.
٣٣ ـ نفسه: ١٥.
٣٤ ـ نفسه: ٢٢.
٣٥ ـ نفسه: ٣٨.
٣٦ ـ نفسه: ٣٢.
٣٧ ـ نفسه: ٢.



الدكتور عارف تامر



الإمام جعفر الصادق (ع) وعلم الكيمياء



بسم الله الرحمن الرحيم

توجه الإنسان في عصرنا الحاضر، إلى ميدان العمل مصمماً على اجتياز المراحل العسيرة للوصول إلى رحاب المعرفة التي تجرّده من الأوهام المضلّلة والأفكار الرديئة، وتنقله إلى الواقعية المجردة والحقيقة الناصعة.

فما أحرانا أن ننضم إلى ركب هذا الإنسان المتطور السائر بخُطى سريعة نحو الحياة الأفضل للتغلب على استبداد الأقدار، واستعباد الأفكار، وإبعاد الخرافات، والرجوع إلى أصدق الروايات لنأخذ منها الدروس والعبر متجنبين الانزلاق في المهاوي السحيقة التي طالما أهلكت الحرث والنسل. فنحن في عالم تغلي مراجله بالحقد والكراهية، والانقسام والتعصب، وعلينا أن نقلع عن كل ما يُبعدنا عن المحبة والصدق والتعاون والسلام.

هذه الكلمات الموجزة استوحيتها من تعاليم الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) الذي نجتمع هنا لإحياء ذكراه والانتقال إلى عصره المتقلب المتجهم لنشاهد الأحداث والوقائع، ونشهد ببراءة على العباسيين كيف سرقوا الخلافة من أبناء عمومتهم، ثم قبضوا على ناصيتها بالقوة، وقتلوا كل من تصدّى للخلافة حتى ولو كان من أحفاد الرسول الكريم. أمّا الإمام الصادق(ع) ـ فساعده حسه وشعوره وعقله الراجح في تلك الفترة الحاسمة على اجتياز أقسى مرحلةٍ تاريخية تخلّلها مقتل أبناء عمومته وانقسام المجموعة الشيعية الكبرى إلى فريقين مما كان له أسوأ الأثر في نفسه. وأعتقد: أن هذا الانقسام مكّن للعباسيين ومنحهم فرصة أطول للحكم والتحكم.

يعتبرُ الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) صاحب مدرسة فكرية كبرى كان لها وجود عالمي وفضل كبير على الإسلام. فهذا الإمام طلب الحكمة وسعى لاكتناه الحياة ومثل أسرارها وغاص على عميق معانيها وفجّر الينابيع الثرّة بطاقة العقل وصفاء النفس، وأخذ بيد الإنسان وقاده إلى مناهل المعرفة بكلِّ ما فيها من عمق وشمول.

ولد الإمام جعفر بن محمد «الصادق» في المدينة بمنزل جده علي ـ زين العابدين(ع) ومات ودفن في البقيع في ضريحِ عمّه الحسن بن علي(ع) عن عمرٍ قدِّر بثمانية وستين عاماً.

والده هو محمد بن علي (باقر العلوم) (ع). وأمّه فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر. تربّى في كنف جده زين العابدين ما بين عشرة إلى ـ أربعة عشر عاماً ـ، وفي كنف والده محمد الباقر نحو من ثلاثين عاماً درس خلالها عليه، وتطبع بصفاة الفضل ومحبة العلم، وتعلّم من جده أن يطعم حتى لا يبقى لعياله طعاماً، وأن يكسوَ حتى لا تبقى لهم كسوة.

إن إحصاء فضله وسعة علمه وآفاق فكره وعبقريته ضرب من المستحيل، كما أنّ الإحاطة بتاريخ حياته من الصعوبة بمكان، ويكفي أن نعلم أنه تميّز بالحنكة السياسية والصبر على المكاره والمداراة، فلم يعرِّض نفسه للخطر، ورفض الخلافة عندما عرضت عليه، ونصح ابن عمه «النفس الزكية» وأخوته من أبناء الحسن بالابتعاد عن المعارضة المسلحة ضد العبّاسيين كما أعلن براءته من «أبي الخطّاب» المتهم بالغلو والإلحاد إرضاء للرأي العام.

لا بدّ لي وأنا في رحاب الإمام الصادق (ع) من الوقوف قليلاً لإلقاء نظرة عابرة على علم الكيمياء ودور تلميذه جابر بن حيّان الذي أخذ عنه هذا العلم وسعى إلى تطويره وإخراجه من الجمودِ والسحر والشعوذة والتدجيل والخرافات إلى علم يقوم على البحث والاختبار، ويقود إلى خيرُ الإنسانية وسعادتها. يقول ابن النديم في الفهرست: رداً على بعض المصادر المغرضة التي شكّكت في وجوده واعتبرته أسطورة وهمية. قال:

الرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشعر وتصنيفاته أعظم وكثر، ولهذا الرجل عدداً من الكتب في مذهب

الشيعة. ويؤكد سارطون، وهولميارد، وكوربان إنَّ جابراً كان حقيقة وليس أسطورة. وتؤكد المصادر:
أنه عاش في النصف الأول من القرن الثامن للميلاد، وهناك إجماعٌ وتأكيدٌ على اتصاله «بالبرامكة» الـذين كانـوا يحافظـون على «التقيـة» في علاقـاتهم بالإمـام الصادق(ع)، وقد يكون هذا الاتصال سبباً في نكبتهم الكـبرى المعـروفـة: أمّا نسبه فيتصل بقبيلة «الأزد» ومسقط رأسه في طوس من أعمال خراسان يؤيد ذلك الشهرستاني والأب لويس شيخو اليسوعي، كما أنّ هنالك إجماعاً على وفاته في طوس سنة ١٩٦ هـ. ولكن من المؤسف أن القدامى لم يفصحوا عن مكان قبره غير أن الصحف الإيرانية تناقلت سنة ١٩٧٢م خبراً مفـاده: أنـه أثنـاء إجراء أعمال تسطيح طريق جديد خلف الجبل المحاذي للحدود العراقية عثر العمّال على بناء قديم دلّت الكتابات المنحوتة على صخرةٍ أنه مدفن جابر بن حيّان، وإذا صحّ خبر وجود قبر جابر في تلك المنطقة «الرسنان» الواقعةُ شرقي الحدود العراقية. فيمكن القول: أنه بعد هروبه من بغداد لجأ إلى أقـرب جبـال من بغـداد واقعـة في إيران وذلك بعد أن ترك الكوفة ومختبره الكيماوي ومنزله، وجميع ما يملك وتوجّه إلى الشرق مجتازاً دجلة والفرات.

ويقول ابن النديم أيضاً:

كان جابـر بن حيّـان ريـاضيـاً وفيلسوفاً وكيميائياً وعالماً بالفلك وطبيباً له مؤلفات في المنطق والفلسفة وعلم الباطن وغالى بعضهم فنسب إليه اختراع الجبر إن هذه الثقافة الموسوعية يصفها جابر قائلاً:

إنه تلقّاها من سيده الإمام جعفر ويردها جميعها إلى ملهمه الذي يطلق عليه اسم «معدن الحكمة» ويزيد على قوله:

إنه لم يبقى أمامي إلّا جمعها وترتيبها، وكل هذا يعزِّز الأقوال الشيعية أن جابر كانت له رتبة كبيرة في دعوة الإمام الصادق(ع) وهي «الباب» وتأتي هذه المرتبة بعد الإمام مباشرة.

قلنـا: أنَّ لجابـر مؤلفـات عديـدة في مختلف العلوم، وقـد تكون رسالته في التربية وبيان العلاقة بين المعلم والمتعلم أهم ما كتبـه، وتعتـبر من روائـع الآثـار الـتربوية ففيها فصَّل جابر واجبات وحقوق كل من المـدرّس والتلميـذ، ويلتقي فيهـا مع أحـدث الأساليب للدول الحضارية المتقدمة صاحبة الأولية في الثقافة والعلوم والآداب.

ومن الواضح: انَّ جابراً لم يكن الوحيد الذي تتلمذ على الإمام الصادق(ع) فهناك العديد من العلماء والفقهـاء وأصحـاب المـذاهب انتسبـوا إلى مدرستـه ودرسـوا عليـه الفقـه والحـديث وعلم الكلام والمنطق والفلسفـة واللغـة والآداب، وهؤلاء تركـوا بعدهم المراجع العديدة بين أيدي الناس ينهلون منها ويأخذون عنها والفضل كل الفضل لهذا المعلم الحكيم الذي كرَّس حياته لخدمة الإسلام دون تمييزٍ بين فراقه وطوائفه ومذاهبه.

في خاتمة المطاف. لا بدَّ لي من عودة إلى كيمياء جابر وأقواله عن المعادن وطبيعتها وأجناسها وأصلها

وكيفية صهرها وإذابتها وتحليلها وتحويلها، وقد أيّد ابن سينا ما ذكره جابر، ولكنه ذهب إلى العمق في تأويلها، وأفصح عن وجهها وجوهرها في كتابه الشفاء قائلاً:

إن المعادن كالنفوس فمنه الغث والثمين والنافع والضار والنفيس والخسيس ويأتي «الأكسير» معها، وقد بالغوا بالحديث عنه ووصفوه: أنه يحوّل المعادن كلياً وينقلها من الخسيس إلى النفيس، ويروي لنا جابر: أنّه استعمله في الطب وشفى به أمراضاً مستعصية مزمنة. وأعتقد: أنه رمز إلى العلم الذي يمنح إلى المخالفين والضالّين فيحولهم إلى فقهاء وعارفين، وهنا يقول ابن سينا في كتابه الشفاء:

إنه من المستحيل تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن نفيسة بواسطة الأكسير، ولكن بالإمكان بواسطته ادخال التحسينات على بعض المعادن وإعطائها البريق واللمعان لكي تصبح في مستوى المعادن الأصيلة. وابن سينا هنا يؤيد أقوال الشيعة ويتفق مع جابر في تشبيه الأكسير بالعلوم الإمامية الصادرة إلى المستجيب فإنها تصقل نفسه وتغيّر واقعه وتجعله كالجوهرة النقيّة الصافية المتطلعة أبداً إلى الحب والخير والجمال، ولعلّ التأويل والرمز والمثل والممثول تدخل في موضوع الأكسير. ويزيد ابن سينا على قوله: إن النفس التي أصابها الفساد لا يغيرها الأكسير كلياً ولا العلوم الإمامية، وقد يفيدها في الظاهر ويجعلها في حالة من القبول، ويتفق هذا مع قول أحد شعراء الشيعة:

«حبة الأكسير لو صُبَّت على سيئات الخلق صارت حسنات».

أتوقف بعد هذا الحديث القصير لاجي الإمام الصادق (ع) في ذكراه وعظمته وخلوده، ولا أعفي نفسي من تحية أوجهها إلى أصحاب فكرة إقامة هذا المؤتمر.

والسلام عليكم



المصادر:

١ ـ الفهرست ابن النديم ٩١٧.

٢ ـ الشفاء ـ ابن سينا.

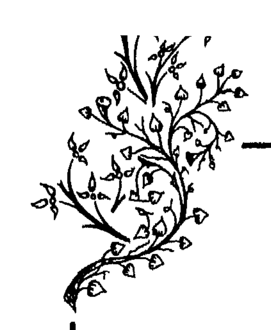
٣ ـ السبعين ـ كراوس ٤٦٣.

٤ ـ اخراج ما في القوة إلى الفعل ٥٤ كراوس.

٥ ـ جابر بن حيان ـ زكي نجيب ١٩٥ .
٦ ـ تاريخ الفلسفة الإسلامية كوربان ٢٠٦ .
٧ ـ العلوم عند العرب ـ قدري طوقان ٩٩ .
٨ ـ حضارة العرب ـ لوبون ٥٧٤ .
٩ ـ جعفر الصادق ملهم الكيمياء ـ الهاشمي .
١٠ ـ المنجد ـ لويس شيخو.
١١ ـ قصة الحضارة ـ ديورانت.
١٢ ـ مجلة التراث العربي ـ قنواتي .







الدكتور عارف تامر

الإمام الصادق (ع)
تحية وذكرى



لا تنامي على دروب الهوان	يا مهاة الندى وطيف الأماني
لا تنامي أخاف يرعبك الحلم	ويوحي إليك بالهذيان
فتغيبين في كهوف الدياجي	وتنامين في حمى النسيان
لا تراعي من الوقوف طويلاً	في ظلالٍ ورديّة الألوان
وارقبي النور ساطعاً ينشرُ الوعي وئيداً في نشوةٍ وحنان	
والصباح الصباح يرنو اشتياقاً	والهزار الهزار في الأفنان
يبعثُ الحب والعواطف والشوق ولحناً مضمخاً بالتهاني	
إنه العيد يا مهاة فصلّي	واستعيدي ذكرى إمام الزمان
جعفر الصادق المتوّج بالغار	منار التُقى عظيم الشان
ذكره آيةٌ تدرُّ عبيراً	وتباري ملاحم الأزمان

* * *

يا إمام الهدى وصوتاً يدوّي في ضميري وفي رُبى وجداني
أنت كنزُ العلوم والدينَ والشرع وبحرٌ يموج بالعرفان
أنت علّمت جابراً كيمياء العلم حتى سما على الأقران
يا إمام الهدى حياتك دنيا من جهادٍ وحكمةٍ وبيان
يا إمامي في كل عسرٍ ويسرٍ ودليلي إلى حياض الجنان
صادق أنت في حديثك لا تخطىء في آية ولا برهان
خضتَ بحر الحياةِ تبغي سلاماً وتعاني من الأسى ما تعاني
وحملتَ الآلام غضّاً فتياً بثباتٍ وحكمة واتّزان
وبنيتَ العلوم صرحاً مُنيفاً فوق صخرٍ فكنت نعم الباني
مؤثراً خدمة الحقيقة والإسلام والمكرمات والإحسان

* * *

أيها الحفلُ والحديث شجونٌ لست أقوى على امتلاك عناني
فولائي لآل أحمد فرض واعترافي بحبهم قد كفاني
أنا من شيعة الإمام عليٍّ لا غلواً يحدُّ من إيماني
من سناه نهلت كل معين في ربوع عريضة الأركان
ما عساي أقول والشعر أضحى لا يؤدي إلى الحجى والمعاني
ما عساي أقولُ في الصادق الوعد وموحي العلوم للإنسان
ما عساي أقول في باقر العلم ومجلي التفسير للقرآن
ما عساي أقول في العابد السجّاد زين الشباب والفتيان
والشهيد الحسين ما زال حيّاً خالداً في القلوب والأذهان

* * *

أيها الصادق الكريم سلاماً طاب كالشهد في فمي ولساني
أنت في القلب يا إمام فعذراً إن رسى مركبي وحار حصاني
إن تعثرت كنت أنت شفيعي في حياتي وكنت شطَّ الأماني
قسماً بالإله أنت شعاري وثنائي وأنت فوق بياني
لست أقوى على مديحك فالحب براتي وهدَّ ركن كياني
غير أني أعيد قول المعرّي والمعرّي منارةٌ من جمانِ
يا ابن مستعرض الصفوف ببدرٍ ومبيد الجموع من غطفانِ
أحدُ الخمسة الذين هم الأغراض في كل منطقٍ ومعاني
والشخوص التي خلقن ضياء قبل خلق المريخ والميزان
قبل أن تخلق السموات أو تؤمر أفلاكهنَّ بالدوران





الدكتور وهبة الزحيلي



الإمام الصادق (ع)
خصائص - فقه



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد:

قليل من الناس هم القدوة الحسنة في العلم والعمل، والفكر والورع، والخلق والتدين، فإذا انضم إلى ذلك كون القدوة سليل بيت النبوة، وحفيد شرف الرسالة والاصطفاء، وكان من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو من كبار التابعين لهم، كان هو القدوة الفذ، والمَعْلَم البارز، والجبل الأشم الذي يقتفى أثره، ويتبع منهجه، ويستضيء الجيل بسيرته.

والإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط (٨٠ ـ ١٤٨هـ = ٦٩٩ ـ ٧٦٥م). هو الـذي نجـد فيه المثل الأعلى لاتباع شرع الله ودينه، ونراه ذلك القدوة الذي وصفناه، والذي حقَّ لنا أن نستنير بسيرته العطرة التي اقتفى فيها سيرة وسنة جده المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يفرط في شيء من جوانبها الفكرية والعلمية والأدبية والدينية.

لذا لُقِّب بالصادق لصدق اتباعه، وكونه لم يعرف عنه الكذب قط، وكان من أجلاّء التابعين، وسادس الأئمة الاثني عشر عند الشيعة الإمامية، وكان جريئاً في الحق، صدّاعاً به، مستقيماً على أمر الله، زاهداً تقياً، ناسكاً متعبداً، أنوفاً لا يرضى بغير شرع الله منهجاً وعملاً واقتفاء واتباعاً.

ويحلو لي أن أبرز معالم شخصية الإمام جعفر الصادق في تدينه وتقواه، وعلمه وفقهه؛ لأننا في عصر أحوج إلى هذا الجانب المتميز؛ إذ قد نجد علماء كثيرين، ولكنهم لم يبلغوا شأواً عالياً في منزلة الأبرار المحسنين، والأتقياء المخلصين، ومعدن الخلق المتين.

هذا بالإضافة إلى مَحبَّتي الخاصة لآل بيت النبوة، وسلالة الرسالة، التزاماً مع توجيه القرآن المجيد لجميع المؤمنين والمسلمين في قول الله تبارك وتعالى: ﴿**ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قل: لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربي، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً، إن الله غفور شكور**﴾ (الشورى: ٢٣). قال ابن عباس رضي الله عنهما: معنى الآية: إلا أن تودّوني، فتراعوني في قرابتي وتحفظوني فيهم. وقال بهذا المعنى في الآية: **علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب رضي الله** عنهم، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشام أسيراً، وهو تأويل ابن جبير، وعمرو بن شعيب[1]. وذكر الثعلبي والزمخشري أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [**من مات على حبِّ آل محمد، مات شهيدا، ومن مات على بغضهم لم يشم رائحة الجنة**].

سمو الخلق وشدة التدين في شخصية الإمام الصادق:

لا غرابة في أن نجد تميّزاً واضحاً، وسمة بارزة في شخصية الإمام الصادق(ع) لأنه من عترة النبي الطاهرة، ومن دوحة الرسالة، وشجرة النبوة، فشأن النسب الرفيع، والمعدن الأصيل، والمنبت الكريم أن تصدر عنه أخلاق عالية، ويتصف بتربية فائقة، تعد أشرف ما يتحلى به المرء، وأعلى ما يفخر به الإنسان؛ لأن اقتران الأخلاق السامية مع تهذيب التربية وأصالة المحتد يصقل النفس المؤمنة، ويخلد أثرها، ويفرض على الناس احترامها، وينشر عنها بين الملأ والمجتمعات السمعة الطيبة العالية، ويغرس في القلوب محبة أصحابها.

فأخلاقه وسيرته وشمائله وسجاياه قبس من نور النبوة، وتدينه وورعه، وتقواه وزهده، وعبادته وتنسكه التزام بالكتاب والسنة، وتأدب بأدب القرآن، وتخلق بأخلاق المؤمنين الصالحين الذين رضي الله

عنهم وأرضاهم في الدنيا والآخرة، وفي طليعتهم إمام الهدى علي بن أبي طالب(ع).

كان الإمام الصادق(ع) مضرب الأمثال في إخلاصه لدينه، واتباع شرع ربه، وقيامه بعبادة خالقه، لم يكن في هذا المنهج إلا مبتغياً رضوان الله، لا يطمع في شرف دنيوي، ولا يريد عزاً ومنصباً فانياً وخالياً من تألق الروح المؤمنة الصافية، وصفاء النفس المسلمة، وغيرة الرجل الشديد المتمسك بحرمات الله، الملتزم حدود الله تعالى.

وكان الصادق إمام مدرسة فريدة جامعة لأخلاق الإسلام وآداب القرآن، مما جعله يعتز بهذا الانتماء والارتباط، ويجد نفسه أسعد الناس، وأعظم من الخلفاء والحكام والولاة، أحبه الناس جميعاً لنقاء سريرته، وهدوء طبعه، ووقاره وحلمه، ورقة أدبه، وشدة تمسكه بدينه، وإخلاصه لربه، وقوة اعتزازه بإرث النبوة، وعمله بالكتاب والسنة.

لم يقصر في واجب النصح للمسلمين، ولم يتلكأ يوما في مواجهة الحقائق، وإعلان كلمة الحق عند الخلفاء، وكان أكبر وأعمق من الأحداث والمصائب التي حلّت بأسرته وسلالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فلم تهزّه النكبات، ولم تلن له قناة، وظل أبياً عزيزاً كريماً، يجد في مآسي آل البيت خير دليل على صدق اتباعهم، وأصالة نفوسهم، وصحة منهجهم.

ووجد في الانصراف للعبادة، وملازمة العلم ونشره، وتبليغ دعوة الله، سلوى المكروب، وأنيس المهموم، وتفريج حزن المحزون. قال الإمام مالك رحمه الله: كنت عند جعفر بن محمد، وكان كثير التبسم، فإذا ذُكر عنده النبي صلى الله عليه وآله وسلم اخضر واصفر، ولقد اختلفت إليه زماناً، فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال: إما مصلياً، وإما صائماً، وإما يقرأ القرآن، وما رأيته قط يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا على طهارة، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العُبّاد الزُّهّاد الذين يخشون الله، وما رأيته إلا يُخرج الوسادة من تحته، ويجعلها تحتي، وجعل يعدد فضائله، وما رآه من فضائل غيره من أشياخه في خبر طويل[2].

ولازم الصادق جانب الورع والاحتياط واتقاء الشبهات، وتجنب مواضع التهمة، والبعد عن الفتنة ومزالق الهوى والشيطان، لما رأى سوء الأحوال في عصره، واقتحام الشبهات. ولم يكن ورعه عن فقر وحاجة، وإنما كان بحمد الله غنياً، بدليل تجمله في الثياب، وحسن لباسه ومظهره، وتحدثه عن نعم الله عليه، مع البعد عن البطر والأشر، والعجب والغرور، وطلبه الحلال من غير إسراف ولا خيلاء، تمسكاً بحقيقة التدين، دون تشويه ولا سوء فهم؛ لأنه كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: [إن الله جميل يحب الجمال][3] وقال أيضاً: [إن الله يحب أن تُرى نعمته على عبده][4].

وكان لقوة تدينه، وشدة إخلاصه لربه أثر واضح في تكوين شخصيته، فلم يكن يخشى في الحق لومة لائم، ولم يغرَّه الثناء، ولم يخشى الهجاء واللوم والتقريع، وكان قوالاً بالحق، جريئاً في الكلام، أعلن براءته

ممن حرَّفـوا الإسـلام، ولم يجامـل الخليفة المنصور في أمر، وظل منكراً لما رآه من انحراف، حتى احتل مكانة عالية في نفس هذا الخليفة، وكان يخشاه ويراقبه، ويتأثر بصدقه في القول، وإخلاصه في العمل.

ولا يجد الباحث المنقب أثراً في حياة الإمام الصادق، مخالفاً لمعاني الإسلام وهديه، فعمل للآخرة، ولم ينس واجبه في الـدنيـا، وأعـد نفسه لما بعد الموت وخاف لقاء الله، وحذَّر من يوم الآخرة كما حذَّر القرآن الكريم، فقال: «يا ويلهم، ما أشقاهم، وأطول عناهم، وأشد بلاهم، يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً، ولا هم ينصـرون إلا من رحم الله، إنـه هو العـزيـز الرحيم»(٥). وقال أيضاً: «إن هؤلاء الحمقاء الجهلاء الـذين حادوا عن مدرجـة الأكيـاس العقـلاء، ولم يلتفتـوا إلى عاقبـة الآخـرة، ولم يحسبوا لملاقاة الموت أي حسـاب، كانـوا كمن هو آمن من المـوت، ولم يخشى الحرمان من المكافاة ، ولم يخف العقاب يوم القيامة، غافلين عن أن المـوت لم يأتهم اختيـاراً، ولم يطـرقهم باستئـذان». قال تعـالى: ﴿فـإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (الأعراف: ٣٤)(٦).

فرَّغ الإمام الصادق نفسه إلى الإصلاح الاجتماعي، والتوجيه الروحي، والبناء الأخلاقي، والدعوة إلى الله بكل ما أوتي من قوة؛ لأنه وجد أن هذا السبيل أخلد وأبقى، وأجدى وأنفع؛ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي رضي الله عنه: [لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمْر النعم] أو [مما طلعت عليه الشمس](٧). وحث على الأخوة والمحبة والود بين الناس، فقال: «اتقوا الله وكونوا إخوة متحابين في الله، متواصلين متراحمين، تزاوروا وتلاقوا»(٨).

وأصبح واثقـاً من نفسـه، بصيـراً بالحق، مقـدراً أن ماهـو عليـه هو الصواب، قال: «إن لكلامنا حقيقة، وإن عليه لنوراً، فما لا حقيقة له ولا نور فذلك قول الشيطان..»(٩).

وتميزُّ الإمـام الصـادق بالإخـلاص والطـاعـة والتقـوى التي أضحت مثلاً بارزاً فيه، وفي أمثاله من التـابعـين وآل البيت، أدى إلى إعجـاب العلماء والعـوام فيـه وتقـديرهم له، قال عنه الشهرستاني في كتابه «الملل والنحـل»: «وهـو ذو علم غزيـر في الدين والأدب، وحكمة كاملة في الدنيا، وزهد بالغ في الدين، وورع تام في الشهوات» وقال فيه الإمام مالك: «مارأت عين ولا سمعت أذن أفضل من جعفر بن محمد، علماً وعبادة وورعاً» وقال عنه الشعراني في لواقح الأنوار: «وكان سلام الله عليه إذا احتاج إلى شيء قال: يا ربـاه، أنـا أحتـاج إلى كذا، فما استتم دعاءه إلا وذلك الشيء بجنبه موضوع»، وقال سبط بن الجوزي في الخواص: «قد اشتغل بالعبادة عن طلب الرياسة»(١٠).

كل هذا يرشدنا إلى أن الإمام الصادق بلغ درجة الولاية، وأنه من المقربين، والشهداء الصالحين، ومن أئمة الهدى والرشاد، قال عمرو بن أبي المقدام: «كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين»(١١).

ولقـد بشـر أبـوه البـاقـر بإمـامته، قال سدير الصيرفي: سمعت أبا جعفر(ع) يقول: إن من سعادة

الرجل أن يكون له الولد، يعرف فيه شبه خَلْقه وخُلُقه وشمائله، وإني لأعرف من ابني هذا شبه خلقي وخُلقي وشمائلي، يعني أبا عبد الله(ع)[١٢].

وقال أيضاً: «ثلاثة تورث المحبة: الدين والتواضع والبذل»[١٣].

وحذَّر الإمام رضوان الله عليه من البلاء العام الذي يعم البر والفاجر، والصالح والطالح، والتقي والعاصي، لينذر الناس عاقبة سلوكهم، ويجنبهم سوء سلوكهم، ومغبة عصيانهم، فقال: «وقد يتعلق هؤلاء بالآفات التي تصيب الناس، فتعم البر والفاجر، أويُبتلى بها البر، ويسلم الفاجر منها، فقالوا: كيف يجوز هذا في تدبير الحكيم وما الحجة فيه؟ فيقال لهم: إن هذه الآفات، وإن كانت تنال الصالح والطالح جميعاً، فإن الله عز وجل جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما، أما الصالحون فإن الذي يصيبهم من هذا يزدهم نعم ربهم عندهم في سالف أيامهم، فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر.

وأما الطالحون فإن مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم، وردعهم عن المعاصي والفواحش، وكذلك يجعل لمن سلم منهم من الصنفين صلاحاً في ذلك. أما الأبرار فإنهم ليغتبطون بما هم عليه من البر والإصلاح، ويزدادون فيه رغبة وبصيرة. وأما الفجار فإنهم يعرفون رأفة ربهم، وتطوله عليهم بالسلامة من غير استحقاق، فيحضهم ذلك على الرأفة بالناس، والصفح عمن أساء إليهم»[١٤].

وقد أكسبه إخلاصه لربه وتقواه وورعه في دينه نفاذ البصيرة وقوة الإدراك، ونور الحكمة، فكان ذلك مع ذكائه ويقظته الفكرية سبباً في إدراك معاني الشريعة ومراميها وغاياتها بقلبه النيّر، وعقله المتفتح[١٥].

أصول الاجتهاد أو الفقه عند الإمام الصادق:

الإمام جعفر الصادق أحد أعلام الاجتهاد السباقين، وربما كان نبوغه وتفوقه الاجتهادي بسبب عيشه في المدينة المنورة من المولد إلى الوفاة، وتأثره بفقهاء المدينة السبعة ومنهم جده لأمه فاطمة: القاسم بن محمد بن أبي بكر، والتزامه سيرة آل البيت في التقوى والعلم، وتمثل الشريعة المطهرة عقيدة وعبادة، وعلماً، وخبرة، ودراية بالنصوص وإدراك معاني الشريعة وروحها العامة.

برع الإمام الصادق في الاجتهاد، فكان بحق مرجع الفقه الإمامي كله، وإليه ينسب المذهب الإمامي أو الجعفري، ويرى الإمامية أن أول من تكلم في أصول الفقه: الإمامان الصادق وأبوه الباقر، وقالوا: إن أول من ضبط أصول الاستنباط: الإمام الباقر، وأملاها على تلاميذه، وجاء من بعده ابنه الإمام الصادق، فأملى ضوابط الاستنباط، غير مختلف مع أبيه؛ لأن المعين واحد. ولقد أبدع الصادق في اجتهاده وتقريره أن باب الاجتهاد مفتوح لمن كان أهلاً له، وأن التقليد مذموم[١٦].

وأحسن الشيعة الإمامية أتباعه حين أبقوا باب الاجتهاد مفتوحاً مع تسلسل أدوار التاريخ وتعاقب

الأجيال، وأن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام، وأن الأخبار لم تستوف كل شيء، وأن الاجتهاد فيها بموازنتها بالكتاب والسنة من الأخبار. قال الصادق(ع): إن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام حتى يُعرف. وإن الأرض لا تخلو إلا وفيها إمام. وما زالت الأرض إلا ولله فيها الحجة، يعرِّف الحلال والحرام، ويدعو الناس إلى سبيل الله. إن الله لم يدع الأرض بغير عالم، ولولا ذلك لم يعرف الحق من الباطل(١٧).

وهذا يتفق مع مبدأ خلود الشريعة، وصلاحها لكل زمان ومكان، وينسجم مع تمام الإخلاص لشريعة الله، ويدل على مرونة الشريعة، وأن الله تعالى لم يهمل عقول الأمة، وإنما ترك لها مجال الاجتهاد، لتوائم ما عليه الشريعة مع ما تقتضيه المصلحة الزمنية المتجددة أو المتطورة.

والمنهاج الأصولي للإمام الصادق يتفق مع منهاج الإمام الشافعي، والأصول المقررة عند الإمامية أربعة: الكتاب، السنة، الإجماع، العقل. وإذا كان الإمام الشافعي أول من دون جميع أصول الفقه تقريباً، ورتبها وفصلها، فلا يدل على أنه هو الذي وضع هذا العلم، ولا يعني أن قواعد هذا العلم لم تكن معروفة عند من سبقه من أئمة الاجتهاد، ولا يغض هذا من شأن الإمامين: أبي حنيفة ومالك، ولا من مقام الإمامين: الباقر والصادق رضي الله عنهما.

أثر عن الإمام الصادق كلام إجمالي في الاستنباط، فتراه يقرر أن الكتاب أصل هذا الدين، وأنه مقدم على السنة، وأن السنة لا يؤخذ بها إذا خالفته. قال: «إن الله تبارك وتعالى أنزل في القرآن تبيان كل شيء، حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا أُنزل في القرآن؟ إلّا وقد أنزل الله فيه»(١٨). وقال أيضاً: «إن الله تبارك وتعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلّا أنزله في كتابه، وبيّنه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وجعل لكل شيء حدّاً، وجعل عليه دليلاً يدل عليه، وجعل على من تعدّى ذلك الحد حداً»(١٩). هذا في بيان شمول القرآن وإقامة الأدلة على كل شيء، فلم يفرط الله في شيء من كتابه إلا أبانه وأوضحه، كما قال سبحانه: **﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ (الأنعام: ٣٨).**

وقال مبيناً وجوب الأخذ بالكتاب والسنة: «إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه»، «إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهداً من كتاب الله أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم - أي فاقبلوه -، وإلا فالذي جاءكم به أولى به»(٢٠).

وحدد الصادق(ع) موقع اجتهاده بما رواه من الحديث، جاء في الكافي عن هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبد الله(ع) قال: «خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمنى فقال: **[أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله، فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله، فلم أقله]**(٢١).

هذه النقول تدلنا على أصول ثلاثة: أن القرآن أصل الأحكام الشرعية، والحديث يرجع إليه، واستنباط الأحكام من القرآن يحتاج إلى عالم مدقق عميق النظر، والقرآن مقدَّم على السنة(٢٢).

أدلة مصادر الاستنباط عند الصادق(ع):

المصادر عنده أربعة كما بينا: القرآن والسنة والإجماع والعقل. أما القرآن والسنة: فلا خلاف بين المسلمين قاطبة في حجيتهما ووجوب اتباع ما جاء فيهما؛ لأن الله تعالى أوجب ذلك علينا كما بيّن في القرآن الكريم بقوله: **﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ (النساء: ٥٩)**.

ويرى الإمامية أن فهم القرآن بالرأي لا يجوز إلا لمن تشبع بعلم الأوصياء؛ لأن علم القرآن كله عند الأوصياء، وإن باب الفهم بالنص متسع عندهم، والنص لا يقتصر على الحديث النبوي، بل يشمل أقوال الأئمة[٢٣]. روى العياشي في تفسيره عن الصادق رضي الله عنه أنه قال: **«من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء»**.

والذي يراه المحققون الأثبات من الإمامية كغيرهم من أئمة الإسلام أن القرآن الكريم لا تبديل ولا نقص فيه، ولا تغيير ولا تحريف، وأنه ثابت بالتواتر تواتراً لا شك فيه، وما ينسب إلى الإمام الصادق من مرويات خلاف هذا باطل ومكذوب عليه رضي الله عنه. جاء في كتاب التبيان للطوسي: **«أما الكلام في زيادته ونقصانه - أي القرآن - فما يليق به؛ لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها، وأما النقصان منه، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا، وهوالذي نصره المرتضى، وهو الظاهر في الروايات، غير أنه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن، ونقل شيء منه من موضع إلى موضع: طريقها الآحاد التي لا تُوجد علماً، فالأولى الإعراض عنها، وترك التشاغل بها..»**[٢٤].

لكن يوجد ألفاظ مجملة وأحكام غير مفصلة في القرآن، وهذا صحيح، يتفق فيه جميع المسلمين، إلا أن الإمامية يرون أن المبين ليس هو النبي فقط، بل إن الأئمة يبينون أيضاً بما أودعوا من علم، كما يرون أن بعض الآيات ليس فيها إجمال خلافاً لأهل السنة، مثل آية: **﴿حُرِّمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهِلَّ لغير الله به..﴾** (المائدة: ٣) لا إجمال فيها ولا تحتاج إلى بيان، وقال غيرهم: قد تحتاج إلى بيان إذ ما المراد بالدم أهو المسفوح أم الجامد؟ وما طريقة التذكية؟. ومثل آية السرقة: **﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما..﴾** (المائدة: ٣٨) لا إجمال فيها، وقال بقية الفقهاء: فيها إجمال حول بيان نصاب السرقة ومعناها، ومدى شمولها، فهل تشمل النباش والطرار (النشال) أم لا؟.

وأما السنة النبوية:

يقتصر قبول رواياتها على أئمة آل البيت، ذكر الطوسي في عدة الأصول: أن خبر الواحد إنما يكون حجة في العمل إذا كان راويه من الطائفة المحقة، وهم الاثنا عشرية، فلا يقبل خبر الواحد إلا إذا كان الراوي إمامياً، والمروي عنه إمامياً، وهذا محصور في أئمتهم وهم علي وفاطمة والحسن والحسين وبقية

الأئمة، فلا تقبل الرواية عن ذرية فاطمة من ولد الحسن رضي الله عنه، لأنهم ليسوا أئمة عندهم. ورأى بعض فقهاء الشيعة قبول خبر غير الإمامي إذا وثقه إمامي، وكان في السند بعض الإمامية، فلا يقبل الحديث إذا كان السند كله غير إمامي(٢٥) (١*)

ولا يشترط جمهور الإمامية التعدد لقبول خبر الواحد، بل يأخذون بخبر الواحد المفرد، وذكر الطوسي أن بعضهم يشترط التعدد؛ لأن الإمام علي رضي الله عنه كان لا يقبل حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا إذا رواه اثنان فأكثر.

ويشترطون اتصال السند بالمعصوم فقط، سواءاً أوصله المعصوم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أم لم يوصله، أما الحديث المرسل فيقبل عندهم إذا أرسله الثقة (٢*)، ولم يعارض الحديث المتصل السند، لكنه أضعف من المتصل المسند وهذا يشبه قول الإمام الشافعي رضي الله عنه.

وينقسم الحديث الصحيح عند الإمامية بالنظر إلى عدالة الراوي إلى أربعة أقسام: صحيح، وحسن، وموثق، وضعيف. والحديث الصحيح كما جاء في معالم الدين للشيخ حسن زيد الدين: ما اتصل سنده إلى المعصوم بنقل العدل الضابط عن مثله في جميع الطبقات(٢٦). والخلاصة: أن خبر الثقة الواحد يؤخذ به في الأحكام عند الإمامية كغيرهم(٢٧).

ويرى الإمام الصادق أن الحديث ينسخ كما ينسخ القرآن، ويرد خبر الآحاد إذا عارض أمراً مجمعاً عليه، وقال: إن المشهور من الأحاديث يرد غير المشهور؛ لأن الشاذ لا يلتفت إليه ولا يؤخذ به. والمتأخر من الأخبار والأحاديث ينسخ المتقدم إذا لم يمكن الجمع والتوفيق بينهما بوجه من الوجوه، ولم يمكن ترجيح أحدهما بأحد وجوه الترجيح؛ لأن المتأخر يعد ناسخاً للمتقدم.

ويقول الإمامية: إنهم أول من دَوَّن الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فإن الإمام علي كرم الله وجهه أول من دون الحديث في كتاب عظيم، وهذا يدل على أن الحديث دُوِّن في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وهذه نظرة تخالف ما عليه جماهير المسلمين وهو أن السنّة لم تدون إلا في عهد عمر بن عبد العزيز في أواخر المئة الأولى من الهجرة، وفي آخر العصر الأموي.

أما الأحاديث المروية في الكافي وعددها ١٦٠٩٩ حديثاً فأكثرها ينتهي عند الأئمة المعصومين، ولا يتصل سندها بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وأكثر ما يروى في الكافي واقف عند الإمام الصادق رضي الله عنه،

(١*) المدار في الحجية هو خبر الثقة من دون فرق بين أن يكون أساس الوثاقة شهادة الإمامي أو غيره.

(٢*) لا يكفي إرسال الثقة له، إلا إذا ثبت بشهادة الثقة أو بغير ذلك أنه لا يروي إلا عن الثقة ليكون ذلك حجة على وثاقة المجهول الذي أرسل الثقة عنه.

وقليل منها يصل إلى أبيه الباقر، والأقل من ذلك يتصل بأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه، والنادر ما ينتهي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وأما الأحاديث المروية في كتاب «من لا يحضره الفقيه» لأبي جعفر محمد بن موسى القمي الملقب بالصدوق وعددها ٩٠٤٤ حديثاً، فأكثرها مرسل غير مسند، بدليل قول المؤلف نفسه «وضعت هذا الكتاب بحذف الأسانيد لئلا تكثر طرقه»(٢٨).

ولشيخ الطائفة في عصره الطوسي كتابان مشهوران في أحاديث الأحكام هما التهذيب وفيه كما ذكر السيد حسن الصدر ١٣٠٠٠ حديث(٢٩)، والاستبصار وفيه نحو ٥٠٠٠ حديث.

وأما الإجماع:

فهو حجة عند الإمام الصادق والشيعة، كالإجماع على الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، مثل أعداد الصلوات المفروضة وأركانها وهيئاتها، ومناسك الحج، وأركان الصوم، وأنواع الزكاة ومقاديرها، إلا أن حجية الإجماع عند الإمامية بسبب موافقة الإمام المعصوم، وقوله هو الحجة في الحقيقة؛ لأنهم عرّفوا الإجماع بأنه اتفاق جماعة يكشف اتفاقهم عن رأي المعصوم. والزمان ـ كما يذكر الطوسي مقرراً مذهب الإمامية ـ لا يخلو من إمام أبداً.

يتبين مما ذكر أن الإمام عند الإمامية هو الحجة والأصل، فهو القطب في فهم القرآن، وهو الأصل في نقل سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكلامه في ذاته سنة، والإجماع حجة لأنه السبيل لكشف آراء الإمام؛ لأن الأرض لا تخلو قط من إمام، ولا تتفق الأمة على ضلالة، وكاشف الضلالة هو الإمام(٣٠).

والإجماع عند الإمامية يمكن وقوعه، وقد وقع بالفعل، قال صاحب القوانين المحكمة: «ثم إن أصحابنا متفقون على حجية الإجماع ووقوعه».

ولا بد عند الإمامية وغيرهم من سند أو دليل للإجماع، فإن المجتهدين لا يمكن أن يقرروا حكماً شرعياً إلا إذا كان معتمداً على دليل من الكتاب أو السنة، والإجماع في ذاته حجة من غير نظر إلى أصله. والعقل كما ذكر صاحب القوانين المحكمة يمكن أن يكون سنداً للإجماع إذا بني على الحسن والقبح الذاتيين أو على تخريج أو استنباط واضح المأخذ يتفق عليه جماهير علمائهم في الأمصار.

أما العقل باعتباره مصدراً:

فهو دليل في مذهب الإمام الصادق رضي الله عنه، حيث لا دليل من الكتاب والسنة ولا إجماع يعتمد عليه، ويقف المجتهد عنده، لأن الإجماع يكون كاشفاً عن رأي الإمام في نظر الإمامية ومنهاجهم،

والمبادىء العقلية، مثل قبح العقاب بلا بيان، وتقديم الأهم على المهم، وإيجاب مقدمة الواجب، واختيار أهون الشرّين، والضرورات تبيح المحظورات، ودرء المفسدة أولى من جلب المصلحة، والأصل براءة كل إنسان حتى تثبت إدانته والعلم بالتكليف.

ولا بد عندهم للحكم التكليفي أن يكون مسبوقاً بشرع من الله تعالى، خلافاً لما يراه المعتزلة، والعقل في ذاته غير آمر ولا ناه، ولكنه كاشف لأمر الله ونهيه، وكاشف عن رأي الإمام في الأمر، وهم كالزيدية يرون ـ كما صرح صاحب القوانين المحكمة ـ أن العقل يدرك الأمر بالحسن، والنهي عن القبيح، كوجوب قضاء الدين، ورد الوديعة، وحرمة الظلم، واستحباب الإحسان ونحو ذلك.

ودور العقل في المذهب الجعفري يأتي بالنظر لما في الأشياء من مصلحة، وما يخالطها من مضرة، فإن رجحت المصلحة حكم بأنه مطلوب، وإن رجحت المضرة منع، وليس من المعقول أن يطلب العقل الشيء الضار، ويدفع النافع. وهذا قريب مما كان يسود أهل المدينة وهو أن الرأي يعتمد على المصلحة المجانسة لما دعا إليه الشارع. أما الرأي في العراق فكان جل اعتماده على القياس[٣١].

ويمكننا القول بأن الإمام الصادق رضي الله عنه قد التزم في شأن العقل مصدراً للتشريع منهاج المدينة الذي يبني الرأي على المصلحة التي هي من جنس المصالح التي أمر بها الشارع الإسلامي، وبذلك يلتقي المذهب الجعفري مع مذهب مالك رضي الله عنه.

قال صاحب القوانين المحكمة: «إن العقل والشرع متطابقان، فكل ما حكم به الشرع فقد حكم به العقل، وبالعكس إن كل ما حكم به الشرع لو اطلع العقل على الوجه الذي دعا الشارع إلى تعيين الحكم الخاص في ذلك الشيء، لوافق عليه، وذلك لأن الحكيم العدل الذي لا يفعل القبيح لا يصدر عنه القبيح.. مثلاً الصلاة والزكاة وتعيين التحريم للخمر والخنزير إنما كان ذلك لجهة ما فيها من حسن أو قبح ذاتي، أو بحسب زمان ومكان أو شخص.. وتلك الجهة علة تامة لاختيار الله سبحانه وتعالى ذلك الحكم، فلو فرض اطلاع عقولنا على تلك العلة، لحكمنا فيه مثل ما حكم لسان الشرع.. وبالجملة العقل تابع لما أفاده الشارع».

وأما الاستصحاب:

وهو استمرار بقاء حكم أو وصف يقيني ثبت في الماضي، في الحاضر، وإذا عرض شك في بقائه لا يلتفت إليه، فيأخذ به الإمامية، متفقين في تحديد معناه مع غيرهم من الجمهور، مثل الحكم ببقاء الطهارة إذا ثبتت، وحصل شك في وقوع ما ينقضها، فإنه يبقى حكمها، ولو حصل شك في نقضها. ويحكم ببقاء حياة الغائب أو المفقود الذي لا تعرف حياته أو موته، فإن حال الحياة وصف يستمر قائماً حتى يوجد دليل على ذلك.

قال أستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله : إنه يلاحظ أن الفقه الذي لا يعتمد على القياس أو ينفيه ، يكثر من الاستصحاب ، وإنه كلما قل الاعتماد على الأدلة المستنبطة من غير النصوص ، كثر الأخذ بالاستصحاب ، فالظاهرية الذين ضيقوا الاستدلال ، وقصروه على النصوص ، ونفوا تعليل الأحكام ، أكثروا من الاستصحاب ، والشافعي مع إقراره القياس قد نفى الاستحسان والمصالح المرسلة ، ولذلك كثر عنده الأخذ بالاستصحاب . والإمامية الاثنا عشرية قد أغلقوا باب القياس ، وأخذوا بالمصلحة على أساس أن التحسين العقلي والتقبيح العقلي مبنيان على دفع الضرر وجلب المصلحة ، ولذلك كثر عندهم الاستصحاب ، وقد وردت الأخبار عن الأئمة عندهم تفيد وجوب الأخذ بالاستصحاب كأصل شرعي(٣٢) .

ولا يأخذ الإمامية بالقياس المستنبط العلة ، ويعد القياس المنصوص فيه على العلة حجة عندهم وهو القياس الجلي . واستدلوا على نفي القياس بأدلة نفاة القياس ، وهي في الحقيقة محمولة على القياس الفاسد الاعتبار ، أو المصادم للنص . مثل حديث : «تعمل هذه الأمة برهة بالكتاب ، وبرهة بالسنة ، وبرهة بالقياس ، وإذا فعلوا ذلك فقد ضلوا»(٣٣) . قال الإمام الصادق أبو عبد الله(ع) : «إن أصحاب المقائيس طلبوا العلم بالمقائيس ، فلم تزدهم المقائيس من الحق إلا بعداً ، وإن دين الله لا يصاب بالمقائيس»(٣٤) .

وأما **الاستحسان** بالمعنى الذي أخذ به أبو حنيفة ومالك وأحمد والزيدية ، فيرفضونه ، وهو كما قال الكرخي : «أن يعدل المجتهد عن أن يحكم في مسألة بمثل ما حكم به في نظائرها ، لوجه أقوى اقتضى ذلك» أي فهو العدول عن مقتضى القياس الظاهر إلى قياس أشد تأثيراً منه ، وإن كان أخفى ، أو إلى نص أو إجماع أو ضرورة .

وبما أن الإمامية رفضوا القياس كما تقدم ، فما قام عليه مرفوض أيضاً . ولكنهم يأخذون بالنص والإجماع والضرورة .

وكذلك **المصالح المرسلة** التي لا يشهد لها دليل بالإلغاء ولا بالإثبات ، كما ذكر المالكية ، يرفض الإمامية الأخذ بها ، جاء في القوانين المحكمة في القسم الثالث من أقسام المصالح : «وإما مرسلة يعني لم يعتبرها الشارع وما ألغاها ، وكانت راجحة وخالية من المفسدة ، وهذا هو الذي ذهب إلى حجيته بعض العامة ، ونفاها أصحابنا وأكثر العامة ، وهو الحق ، لعدم الدليل على حجيته ، ولأنا نرى أن الشارع ألغى بعضها ، واعتبر بعضها ، فإلحاق المرسلة بأحدهما دون الآخر ترجيح بلا مرجح» . هذا ما يصرحون به ، ولكن عند تمحيص المذهب الإمامي الاثني عشري نجدهم كما بينا يعتبرون المصلحة ؛ لأنهم يدخلونها في الدليل العقلي ؛ لأن شروط الأخذ بالمصالح عند المالكية (وهي ألا تصادم نصاً في موضوعها ، وأن تكون ملائمة لمقاصد الشارع ، وأن يكون في الأخذ بها دفع حرج وجلب يسر) لا يمكن أن يجافيها العقل ، فهي داخلة في حكم العقل ، وتحسينه وتقبيحه ، وإنها بمقتضى المذهب الاثني عشري لا تعتبر مرسلة(٣٥) .

أما **العرف** بذاته فليس مصدراً من مصادر التشريع عند الإمامية، أي ليس طريقاً صحيحاً لمعرفة الأحكام الشرعية، وإنما يرجع للعرف في تشخيص موضوع الحكم لا في الحكم نفسه، مثل تشخيص الخراج والضمان والضرر والنية ونحوها. كذلك لا يكون العرف أصلاً من أصول الإثبات في القضاء، ويكون أحياناً وسيلة لمعرفة الشيء الذي اختلف فيه المتخاصمان(٣٦).

فقه الإمام الصادق:

الإمام الصادق رضي الله عنه إمام عظيم ومجتهد كبير في الفقه الإسلامي شهد له الأئمة والعلماء بفقهه وقدرته على الاجتهاد المطلق، لذا لا يخرج فقه الإمامية عن فقهه، وكل ما لديهم من أحكام فقهية مأخوذ عنه، وكان عالماً بطرق الاختلاف وأسبابه ومرجحاً بين العلماء ما يراه أصوب وأحق بالاتباع، بل له فضل السبق على أكثرهم.

كان الإمام أبوحنيفة يروي الحديث عنه، ويراه أعلم الناس باختلاف الفقهاء في عصره، فقال منوهاً به: «**أعلم الناس هو أعلمهم باختلاف الناس**» وسئل أبوحنيفة: من أفقه الناس ممن رأيت؟ فقال: **جعفر الصادق ابن محمد**. وكان يقول: «**لولا السنتان لهلك النعمان**» أي لولا العامان اللذان تتلمذ فيهما على الإمام الصادق لهلك أبوحنيفة.

وكان أوسع الفقهاء إحاطة ودراية وفهماً وغزارة علم ومعرفة، وكان الإمام مالك يتردد عليه دارساً راوياً، ويقول إذا حدث عنه: حدثني الثقة، أي الإمام جعفر الصادق. ووصفه بقوله المتقدم: «**مارأت عين ولا سمعت أذن، ولا خطر على بال بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعاً**».

جمع الصادق رضي الله عنه بين تفسير القرآن، ورواية الحديث النبوي، والفقه والاجتهاد، واتفق الإمامية على أن كل ما جاء عن أئمتهم عامة وعن الصادق وأبيه خاصة: حجة في ذاته، ما دامت صحته قد ثبتت.

وكان من أبرز فقهاء عصره، روى عنه المحدثون والفقهاء الذين عاصروه، مثل سفيان بن عيينة وسفيان الثوري ويحيى بن سعيد الأنصاري، وغيرهم كثير، وروى عنه أبوحنيفة ومالك، وحسبه في ذلك فضلاً. وهو فوق ذلك كله حفيد علي زين العابدين الذي كان سيد أهل المدينة في عصره فضلاً وشرفاً وديناً وعلماً. وتتلمذ عليه ابن شهاب الزهري وكثير من التابعين، وهو ابن محمد الباقر الذي بقر العلم ووصل إلى لبابه، فجمع الله له الشرف الذاتي وشرف النسب والقرابة الهاشمية، والعترة المحمدية، كما ذكر أستاذنا الشيخ محمد أبوزهرة في مقدمة كتابه عن الصادق.

وروى عنه مسلم وأصحاب السنن: أبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة والدارقطني، وكان من الثقات عند أهل الحديث.

وأخـذ الكثـير ون عنـه فقهه المختلط بالحديث، وصارت هذه صبغة كتب الفقه عند الإمامية، فهي كتب فقـه وروايـة معـاً. وحديثه هو حديث أبيه الباقر وأجداده، قال الكليني في الكافي: سمعنا أبا عبد الله عليـه السـلام يقـول: «حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث الحسين، وحـديث الحسـين حديث الحسن، وحـديث الحسن حديث أمـير المؤمنين ـ أي علي ـ وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله، وحديث رسول الله قول الله»(٣٧).

ولم يكن فقه الإمام الصادق مستقلاً عن فقه الأئمة سواه، وإنما هو أحد أئمة الاجتهاد، ومن أصدق الرواة والمحدثين، وكان يروي عن التابعين أمثال سعيد بن جبير، وليست روايته مقصورة على آل البيت، ويـلاحـظ أن فقـه الصادق(ع) يغلب عليه الحديث، والحديث يشمل عند الإمامية أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأحاديث الأئمة، فليست أقوالهم آراء، ولكنها سنة متبعة، ونصوص ثابتة هي حجة في ذاتها، وقـد أخـذ أهـل السنـة عن الصـادق روايتـه كما بينـا، كما أخذوا عنه الفقه بمدارسة القرآن والأحاديث وما يستنبط منها(٣٨).

ومن مصادر فقهه: الأخذ بفتوى الصحابي، مثل عبد الله بن عمر، والأخذ عن كبار التابعين، وقد أخذ علم أهل المدينة من أهل المدينة.

أنواع الأحكام الفقهية في نظر الإمامية ومدى قابليتها للاجتهاد:

الأحكـام الشـرعيـة المتعلقـة بأفعـال العبـاد وهي مادة الفقـه ومواضيعها تنقسم بالنظر إلى قابليتها للاجتهاد إلى أقسام خمسة(٣٩).

١ ـ العبــادات: وهي فرائض الإسـلام من صلاة وصيـام وحـج وزكـاة ومـا يتبعهـا من النـوافـل أو التطـوعـات، وهي توقيفيـة حكماً وموضوعاً ومن صنع الشارع وحده، لا مجال فيها للاجتهاد، ولا شك فيها إطـلاقـاً لعـرف وعقـل؛ لأنـه قاصـر بذاتـه عن معـرفة السر لشكل العبادة وهيئتها، ولكنها لا تتناقض ولا تصطدم مع العقل شكلاً وأساساً؛ لأن الإسلام في جوهره دين العقل بأوسع معاني الكلمة، خلافاً للحنابلة وابن تيميـة الـذين اعتـبروا الـدين فوق العقل، وحصروا مهمته في الأمور الدنيوية فقط كالفلاحة والتجارة والطب والهندسة والصناعة ونحو ذلك.

٢ ـ المعـامـلات: من عقود البيع والشراء والإجازة والشركة والهبة والصلح والزواج والطلاق والوصية والجهـاد والمعـاهـدات بأفعـال العبـاد وعاداتهم كتحريم الغش والزنا والخيانة والغدر والظلم ووجوب الوفاء بالدَّين والعهد، وهذه محل اجتهاد؛ لأنها قائمة على مراعاة المصالح والحاجات، ومنع المساوىء والمضار عن النفس الإنسانية.

٣ ـ الأخلاق الاجتماعية: كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي من الأمور الاجتهادية، لكونها من

باب الإرشاد إلى المصلحة والبعد عن المفسدة.

٤ ـ **المباحات**: مثل الأكل والشرب والزراعة والرعي والصناعة والتجارة والطب ونحوها من الحقوق الطبيعية، وهي مجتهد فيها، وجاء الأمر الإلهي بها تعبيراً عن الواقع المعاشي، مثل قوله تعالى: **﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً، ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** (البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩) وقوله سبحانه: **﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا، إنه لا يحب المسرفين﴾ (الأعراف: ٣١) وقوله عز وجل: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم، إن في ذلك لآيات لأولى النهي﴾** (طه: ٥٤).

٥ ـ **الأحكام القابلة للتغير**: الأحكام الشرعية نوعان: أصلية وفرعية. أما الأحكام الأصلية أو الطبيعية كحرمة المحارم، ووجوب التراضي في العقود، والمسئولية الفردية ونحوها، فهي ثابتة ودائمة تصلح لجميع الناس في كل زمان ومكان، ولا تقبل التغير والتبديل؛ لأن طبيعة الإنسان النقية تقتضيها الإنسانية. وعلى هذه الأحكام وحدها يحمل الحديث النبوي الشريف: [حلال محمد صلى الله عليه وآله وسلم حلال إلى يوم القيامة، وحرام محمد صلى الله عليه وآله وسلم حرام إلى يوم القيامة].

وأما الأحكام التي تقبل التغيير والتبديل: فهي التي ترتبط بأوضاع الجماعة، وتدور مدارها وجوداً وعدماً ويمكن تبديلها، في ظل المبادىء الشرعية العامة مثل إنفاق على الزوجة يتفاوت بين الفئات والأسر والأفراد، قال الله تعالى: **﴿لينفق ذو سعة من سعته، ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله﴾ (الطلاق: ٧)** ومثل حكم الجهادوالقتال، كان منهياً عنه حينما كان المسلمون قلة مستضعفين بمكة المكرمة، ثم أذن به حينما صاروا أقوياء بالمدينة المنورة.

نماذج من فقه الإمام الصادق(ع):

ليس الخلاف بين السنة والشيعة خلافاً اعتقادياً، فالعقيدة واحدة، ولا خلافاً فقهياً، فالفقه يعتمد على الاجتهاد، والمجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر واحد، ولا خلافاً فكرياً، فكل المسلمين ينشدون القوة والعزة والكرامة والحفاظ على الحقوق وطرد العدو من ديارهم، وإثبات المقدرة على الاستقلال الذاتي من جميع وجوه الاقتصادية والاجتماعية. وأكد هذا كله وقوف الفريقين جبهة واحدة أمام الاستعمار والصهيونية، وقد أخذت بعض قوانين مصر في الأحوال الشخصية من آراء الإمامية، مثل وقوع الطلاق الثلاث بلفظ الثلاث طلقة واحدة، وإجازة الوصية لوارث، وهو رأي عند الإمامية، وإن كان المأثور عن الإمام جعفر الصادق خلافه، وهو الحق، للحديث المتواتر: «ألا لا وصية لوارث»[٤٠].

وإنما الخلاف بين السنة والشيعة تاريخي سياسي محض، ولا يجوز في ميزان الشرع والعقل أن يتحمل جيل أو فرد تبعة أو مسؤولية جيل أو فرد آخر، ويجب الالتزام بالوحدة الشاملة بين المسلمين، لقوله تعالى:

﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ (الأنبياء: ٩٢) وإعلان التمسك بمبدأ الأخوة الإيمانية لقوله تعالى: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (الحجرات: ١٠). ويستتبع كل ذلك التقارب لا التباعد، والتفاهم والتلاقي لا الخصام والتنافر والتدابر، وإنهاء مظاهر العصبية الدينية، فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نهى عن العصبية النسبية بقوله: [ليس منا من دعا إلى عصبية](٤١). فلا يكون هناك توارث الخلافات؛ لأن عصبية الدين منبوذة مثل عصبية النسب، بل إنها أولى وأجدر بالمنع والإنهاء، ولأن التفرق بسبب هذا الإرث البغيض لا يقره دين ولا عرف ولا منهاج حياة، ولأن الخصومة الموروثة تزيد في النفرة والتباغض وعداء الأجيال والطوائف، وما علينا إلا أن نظهر جميعاً قدراً كبيراً من التسامح والصفاء من الأحقاد، وألا يتحمل الخلف ما قد وقع بين السلف، لقول الله تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت، لها ماكسبت ولكم ماكسبتم﴾ (البقرة: ١٣٤، ١٤١).

مظاهر الخلاف الفقهي:

الخلاف الفقهي بين السنة والشيعة أقل من الخلاف بين مذهبي الحنفية والشافعية، وأحكام الفقه عند الإمامية قريبة من فقه الشافعية، وقد نجد تطابقاً بينها وبين فقه الحنفية في جزئيات أو فروع؛ لأن مصدر الأحكام واحد وهو القرآن والسنة.

وليس هذا الخلاف في الأصول، وإنما هو في نطاق الفروع فقط، ومرجعه إلى الاجتهاد الذي يعذر فيه المجتهدون.

ولقد تصفحت فقه الإمامية، فوجدت المخالفة بينهم وبين مذاهب أهل السنة محصورة في مسائل معدودة، وليست في الغالب جوهرية، ويتضح ذلك فيما يأتي، ومرجعها في الأكثر إلى اجتهاد الإمام الصادق رضي الله عنه(٤٢):

في الطهارات:

١) الماء المشتبه فيه بين إناءين، قال الإمام: يهريقهما ويتيمم، أما المشتبه فيهما من ثوبين، فيصلي فيهما جميعاً مرتين.

٢) كل شيء يطير لا بأس بخرئه وبوله، وإن كان غير مأكول اللحم.

٣) الحكم بنجاسة أهل الكتاب، ويطهرون إذا تطهروا بالماء، وعقب على ذلك الشيخ محمد جواد مغنية بقوله: وليس من شك أن القول بالطهارة يتفق مع مقاصد الشريعة الإسلامية السهلة السمحة، وإن القائل بها لا يحتاج إلى دليل؛ لأنها وفق الأصل الشرعي والعقلي والعرفي والطبيعي، أما القائل بالنجاسة فعليه الإثبات.

٤) يغسل الإناء الذي ولغ فيه الكلب مرة بالتراب لا سبعاً، ثم بالماء.

٥) وجوب الوضوء لإقامة الصلاة، كما يجب للصلاة نفسها إجماعاً ونصاً، ولا يجب الوضوء للأذان.
٦) الاكتفاء بمسح الرجلين في الوضوء، عملاً بقراءة «وأرجلِكم» بالكسر.
٧) قضاء الصوم لمن صام جنباً، وعليه كفارة كبرى: العتق أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً، أي عليه القضاء والكفارة.
٨) وجوب الغسل على من مسّ الميت بعد أن يبرد جسده وقبل أن يغسَّل.
٩) لا يصح ولا يشرع المسح على الخفين.

في العبـــــادات:

١٠) السجود على طين قبر الحسين(ع) ينوِّر إلى الأرضين السبع.
١١) يزاد في الأذان بعـد الحيعلتين: «حي على خير العمـل» وليس قول: «أشهـد أن علياً ولي الله» من فصول الأذان وأجزائه بالاتفاق.
١٢) يخير المصلي في الركعتين الأخيرتين من الرباعية بين قراءة الفاتحة أو ذكر الله.
١٣) يجزىء في التشهـد أن تقـول: «أشهـد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله» ويجب التشهد في الثلاثية والرباعية مرتين: الأول والأخير، ومن أخل بذلك عامداً، بطلت صلاته.
١٤) صيغة التسليم من الصلاة: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».
١٥) إبطال الصلاة بتعمد قول «آمين» بعد قراءة الفاتحة، كالزيدية والإباضية.
١٦) وجوب سجود السهو إذا تكلم المصلي ساهياً أو تشهد أو سلم في غير موضع التشهد والتسليم أو شك بين الأربع والخمس.
١٧) يجب الترتيب في قضاء الصلوات المفروضة بعد أداء صاحبة الوقت.
١٨) يجوز قضاء الصلاة عن الميت تبرعاً، وله الأجر والثواب، ويجوز الاستئجار على ذلك.
١٩) يخير المقتدي في الركعتين الأوليين من الصلاة الجهرية بين قراءة الفاتحة والسكوت.
٢٠) تقطع صلاة النافلة إذا أقيمت الصلاة المكتوبة جماعة.
٢١) سقوط صلاة النافلة في السفر.
٢٢) لا يجوز القصر بنية الإقامة عشرة أيام، ومسافة السفر المبيحة للقصر ثمانية فراسخ (٤٦,٨٠كم) علماً بأن الفرسخ (٥٧٦٠متراً). ويجب القصر في سفر بريدين أو ثمانية فراسخ، وعند الصادق(ع) وأبيه: أدنى المسافة بريد أو أربعة فراسخ (٢٣,٤٠كم). وتحديد الوطن متروك للعرف، ويصح القصر حال التردد في السفر لمدة شهر. وكل موضع يجب فيه القصر حتماً، يجب فيه الإفطار في شهر رمضان وبالعكس.

٢٣) يشترط لصلاة الجمعة وجود الإمام المعصوم أو نائبه الخاص للصلاة. وعقب الشيخ مغنية عليه بقوله: والحق مشروعية صلاة الجمعة في حال غيبة الإمام على سبيل التخيير بينها وبين الظهر.

٢٤) صلاة العيدين وصلاة الكسوف (أو صلاة الآيات) فريضة في حضور الإمام المعصوم أو نائبه الخاص، وقال أكثر الإمامية باستحبابها جماعة وفرادى في زمن الغيبة، وليس فيها أذان ولا إقامة، ولكن يُنادى: «الصلاة» ثلاث مرات. وصلاة الكسوف والخسوف بعشرة ركوعات أي خمسة في كل ركعة.

٢٥) يفسد الصوم، وتجب الكفارة بتعمد الكذب، والحق أنه حرام لا يفسد الصوم، ويفسد الصوم أيضاً بغمس الرأس في الماء، وبالبقاء على الجنابة مع الكفارة في حال الجنابة.

٢٦) من أصابه العطش حتى خاف على نفسه، له في الصوم أن يشرب ما يمسك رمقه ولا يرتوي. وتجب الكفارة الكبرى على من أفطر في صوم يوم نذره على نفسه أو جامع في أثناء الاعتكاف. ويكفي استغفار الله لمن عجز عن كفارة الصيام.

٢٧) وجوب الإفطار في رمضان أثناء السفر إلا في أربع حالات.

٢٨) وجوب قضاء الصوم على الولي عن الميت.

٢٩) تستحب الزكاة ولا تجب في التجارة بشروط، وكذا في ناتج العقارات المعدّة للاستثمار كالدكان والبستان ونحوهما، ولكن يجب الخمس في الزائد على مؤنة السنة من أرباح التجارة والصناعة والزراعة.

٣٠) يجب إعطاء الزكاة للمستحقين من الشيعة الاثني عشرية.

٣١) يجب الخمس على الذمي فيما اشتراه من المسلم، وعلى المال الحرام إذا اختلط بالحلال ولم يتميز. وللإمام من الخمس ثلاثة أسهم، وهي نصف الخمس. ويعطى سهم الإمام في حال غيبته إلى السادة من قرابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

٣٢) تجوز النيابة في الحج والطواف عن الحي استحباباً.

٣٣) من مات حاجاً في الحرم أجزأه عن حجة الإسلام، أما من مات دون الحرم، فيقضي عنه وليه حجة الإسلام.

٣٤) يجب ما يسمى بطواف النساء في العمرة المفردة، ولا يجب في عمرة التمتع، وهو أن يطوف بالبيت ثانية بعد السعي والطواف الأول، ويصلي ركعتين وجوباً في الطواف الواجب. وكذلك يجب في حج التمتع طواف النساء، فيكون عليه ثلاثة أطوفة: للعمرة، وللحج، وللنساء.

٣٦) يتحقق الإحرام بدون لبس الثوبين، ولا يجوز للمحرم الاستظلال بمظلة.

٣٧) يشترط إذن الإمام في جهاد الغزو في سبيل الله وانتشار الإسلام، وإعلاء كلمته في بلاد الله وعباده. أما في جهاد الدفاع عن الإسلام وبلاد المسلمين، فلا يشترط فيه إذن الإمام.

في المعاملات، والخلاف فيها أقل من غيرها:

٣٨) النهي لا يدل على الفساد، وإنما يدل بالمطابقة على التحريم فقط، ولا يدل بنفسه على الفساد، لا في العبادات ولا في المعاملات.

٣٩) يثبت «خيار الحيوان» لكل من اشترى أي حيوان ثلاثة أيام.

٤٠) الشرط الفاسد لا يفسد عقد الزواج الدائم، ويفسد غيره من العقود إلا شرطاً واحداً فقط: وهو ما كان مناقضاً لمقتضى العقد كشرط عدم الاستمتاع بالزوجة إطلاقاً، أو شرط الخيار في الفسخ.

٤١) الغبن الفاحش وإن لم يكن معه تغرير يثبت الخيار على الفور للمغبون بين الرد أو الإمساك، سواء كان بائعاً أو مشترياً.

٤٢) يثبت خيار التأخير على الفور في فسخ البيع للبائع بعد ثلاثة أيام، إذا تأخر المشتري في دفع الثمن. ولا يجري خيار المجلس والحيوان والتأخير في الإجارة.

٤٣) يجوز عند متأخري الفقهاء بيع الشيء قبل قبضه قليلاً كان أو موزوناً، ولكن مع الكراهة.

٤٤) يجوز الاتفاق على تعجيل الدين بإسقاط بعضه، أي أنهم لا يقولون بقاعدة «ضع وتعجل» ولا يجوز تأجيل المعجل بشرط الزيادة؛ لأنه ربا محرم، فهم كغيرهم في هذا الحكم الأخير.

٤٥) ليس القبض بشرط لصحة الرهن ولا للزومه، لعدم الدليل على ذلك.

٤٦) لا تؤكل ذبيحة الكتابي ولا صيده، لاشتراط إسلام الصائد والمذكي عندهم. ويحل الصيد بالأسلحة الحديثة كالبارودة. وتشترط التسمية في الصيد والتذكية.

في الأطعمة:

٤٧) كل حيوان بحري غير السمك لا يحل أكله، وهذا قريب من مذهب الحنفية.

٤٨) يحرم من الذبيحة خمسة عشر شيئاً كالقضيب والأنثيين والنخاع والمثانة.

في الأيمان والنذور والشهادات:

٤٩) كفارة العهد «أعاهد الله أن أفعل كذا» كفارة كبرى مثل كفارة الجماع في نهار رمضان: عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ستين مسكيناً.

٥٠) يثبت اللواط والسحاق بأربعة رجال فقط.

في الأحوال الشخصية:

٥١) الإشهاد على الزواج الدائم مستحب وليس بواجب.

٥٢) يحرم الزواج من الكتابية .(٣*)
٥٣) لا يحرم من الرضاع إلا رضاع يوم وليلة أو خمس عشرة رضعة، حتى ينبت اللحم ويشتد العظم، في مدة الحولين.
٥٤) يباح زواج المتعة بشروط. والتمتع يكون بالعفيفة، ويجوز بأكثر من أربع نساء، ومن تمتع بزانية فهو زانٍ. وعدة المتمتع بها خمسة وأربعون يوماً.
٥٥) لا يصح الطلاق إلا بحضور شاهدي عدل، وأن يكون في طهر لم يواقعها فيه، فلا يقع الطلاق في الحيض إلا في خمس حالات.
٥٦) لا تزيد مدة الحمل ساعة عن السنة، وهو ما أخذت به القوانين في مصر وسوريا.
٥٧) لا يقع طلاق المكره والسكران.
٥٨) الطلاق الثلاث بلفظ واحد يقع واحدة.
٥٩) لا عدة على من لم تكمل التسع إن كان قد دخل بها الزوج ثم طلقها.
٦٠) عدة الكتابية مثل عدة المسلمة عدداً وحكماً وحداداً.

في القضاء والوصايا والحدود:

٦١) يشترط في القاضي طهارة المولد، فلا يجوز لابن الزنا تولي القضاء.
٦٢) الإقرار مرتين على ما يوجب الحد غير الزنا كشرب المسكر والسرقة والقذف.
٦٣) وضع اليد دليل على الملك في المنقولات والعقارات بشرطين: جهالة ابتداء الوضع، وقابلية العين تحت اليد للنقل والتملك، بخلاف الموقوف.
٦٤) يجوز الإثبات بوسائل المختبر الجنائي والطب الشرعي كفحص البصمات والكتابات والملابس ونحوها من القرائن.
٦٥) تصح الوصية للوارث لإطلاق أدلة الوصية في الكتاب والسنة.
٦٦) على الإمام أن يزوج الزانية رجلاً يمنعها من الزنا.
٦٧) الزاني بالمحارم كالأم والبنت والأخت وبنت الأخ والعمة والخالة يجب قتله، وكذا الزاني بامرأة أبيه. ويقتل أيضاً غير المسلم إذا زنى بمسلمة، ومن أكره امرأة على الزنا، سواء كان محصناً أو غير محصن.
٦٨) عقوبة الزاني غير المحصن: مئة جلدة، وحلق شعر رأسه، ونفيه عن بلده سنة كاملة.

(٣*) هناك الكثيرون من فقهاء الإمامية الذين يرون جواز الزواج من الكتابية مع الكراهية.

٦٩) من وجد مع زوجته رجلاً يزني بها، فله قتلهما معاً، ولا شيء عليه، وهذا موافق لمذاهب السنة، وإذا تاب المذنب قبل أن تقوم عليه البينة يسقط عنه الحد، كما يقول الحنابلة.

٧٠) عقوبة المحصن: الجلد والرجم معاً للشيخ والشيخة المحصنين، والرجم فقط للمحصن والمحصنة غير الشيخ والشيخة.

٧١) حد السحاق مئة جلدة. وحد القواد (الذي يجمع بين الرجل والمرأة) خمس وسبعون جلدة.

٧٢) من سب الجلالة أو الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم أو أحد الأئمة المعصومين يقتل. ويقتل أيضاً مدعي النبوة والساحر، وهذا موافق لرأي بعض فقهاء السنة.

٧٣) الجناية على الميت بقطع عضو منه كالرأس واللسان والذكر توجب مئة دينار.

هذه أهم المسائل الخلافية التي عثرت عليها في فقه الإمامية، وهي كما يبدو محل اجتهاد، والاجتهادات يعذر فيها أصحابها، وإن كنت شخصياً لا أقر الاجتهاد القائل بزواج المتعة والوصية للوارث، لمخالفة الإجماع والأحاديث المتواترة.

أسأل الله الكريم أن يجمع المسلمين على كلمة واحدة، وأن تنتهي الخلافات المذهبية فيما بينهم، وأن يوحدوا صفوفهم للقاء العدو المشترك المتمثل في أئمة الكفر والصهاينة.

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله



الحواشي

(١) تفسير ابن عطية ١٣/١٦٢.

(٢) المدارك نقلاً عن كتاب الإمام الصادق لأستاذنا الشيخ محمد أبو زهرة: ص ٧٦-٧٧.

(٣) أخرجه مسلم والترمذي عن ابن مسعود، وهو حديث صحيح.

(٤) أخرجه الإمام أحمد.

(٥) من أمالي الإمام الصادق(ع): ٢/ ٣٣ وما بعدها.

(٦) المصدر السابق: ص٣٢.

(٧) أخرجه البخاري ومسلم.

(٨) من أمالي الإمام الصادق ٤/ ١٧٤.

(٩) قيم أخلاقية في فقه الإمام جعفر الصادق للشيخ محمد جواد مغنية: ص١٣.

(١٠) انظر ما ختم به كتاب أمالي الصادق ٤/ ١٥٧ وما بعدها.

(١١) الخاتمة السابقة.

(١٢) الأصول من الكافي لأبي جعفر الكليني ١/ ٣٠٦.

(١٣) المصدر والمكان السابق.

(١٤) المصدر السابق: ٤/ ٥٢ـ٥٤.

(١٥) الإمام الصادق للشيخ محمد أبو زهرة: ص٧٨.

(١٦) الأصول من الكافي ١/ ٥٣.

(١٧) الأصول من الكافي لأبي جعفر الكليني الرازي: ١/ ١٧٧ـ١٧٨.

(١٨) الأصول من الكافي ١/ ٥٩.

(١٩) المصدر والمكان السابق.

(٢٠) المرجع السابق: ص٦٩، جواب الشرط في الجملة محذوف أي فاقبلوه، ومعنى الجملة الثانية: ردوه عليه، ولا تقبلوا منه، فإنه أولى بروايته، وأن يكون عنده لا يتجاوزه.

(٢١) المرجع والمكان السابق.

(٢٢) الإمام الصادق للشيخ محمد أبو زهرة: ص٢٧١.

(٢٣) المرجع السابق: ص٣١٦.

(٢٤) الصافي: ص١٥.

(٢٥) الإمام الصادق للشيخ أبي زهرة: ص٣٨٠، ٣٨٤.

(٢٦) معالم الدين: ص٢١٦.

(٢٧) فقه الإمام جعفر الصادق للشيخ محمد جواد مغنية ١/ ٣٩.

(٢٨) الإمام الصادق للشيخ الأستاذ محمد أبو زهرة: ص٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٨، ٤٤٨.

(٢٩) لكن الطوسي صاحب الكتاب ذكر في كتابه عدة الأصول أن أحاديث التهذيب وأخباره تزيد على خمسة آلاف حديث.

(٣٠) الإمام الصادق للشيخ أبي زهرة: ص٤٦٧.

(٣١) المرجع السابق: ص٤٨٩.

(٣٢) الإمام الصادق للشيخ أبي زهرة: ص٥٠١ـ٥٠٢.

(٣٣) رواه ابن المسيب عن أبي هريرة.

(٣٤) الأصول من الكافي ١/ ٥٦.

(٣٥) المرجع السابق: ص٥٢٩.

(٣٦) فقه الإمام جعفر الصادق للشيخ محمد جواد مغنية ٦/ ١٢٣، ١٢٤.

(٣٧) الكافي ١/٥، طبع بيروت.

(٣٨) الإمام الصادق لأبي زهرة: ٢٥٤-٢٥٦.

(٣٩) انظر وقارن قيم أخلاقية في فقه الإمام جعفر الصادق للشيخ محمد جواد مغنية: ص٣٢-٤٠.

(٤٠) حديث متواتر عن اثني عشرة صحابياً منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه عند ابن أبي شيبة والدار قطني وابن عدي.

(٤١) أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٤٢) انظر فقه الإمام جعفر الصادق للأستاذ محمد جواد مغنية ـ ٦ أجزاء.



الدكتور عبد الكريم الأشتر



تراث الإمام الصادق (عليه السلام) من الوجهة الفنية



بسم الله الرحمن الرحيم

أيها السادة:

السلام عليكم ورحمة الله.

أرجو، في البدء، أن يأذن لي سماحة حجة الإسلام الشيخ محمد شريعتي، المستشار الثقافي للجمهورية الإسلامية، والعاملون معه في دار المستشارية، في أن أوجه إليهم الشكر، لما يبذلون من جهد في درس تراثنا ونشره.

وبعد، فالموضوع الذي اخترت الكلام فيه، في هذه الندوة، تشغلني بعض مسائله منذ زمن طويل. فإني وجدت تاريخ الأدب العربي يكاد يُغفل - إذا استثنينا الشعر في جميع العصور -

صفحـات لا تحصى من الأدب الحي الـذي كتبـه أو أمـلاه رجـال الحكمـة والفلسفـة والكـلام، ورجـال التـاريـخ والسير والتراجم والطبقات والأسمار وغيرها؛ شغلته عنها، فيما يبدو، أنواع الكتابة الأخـرى التي كتبت لمقـاصـد أدبية صرف، مهما تواضع حظها من جمال التصـويـر أو التعبـير، ومهـما تدنت قيمتهـا الفكـريـة أو الـوجـدانية، وعلى ما حفلت به في العصور المتأخرة، من ضروب التـزويق والتنميق، وطغيـان النـزعة اللفظية وألاعيبها التي شبهها أحد المستشرقين الفرنسيين بألعاب (الأكروبات).

فعلى هذا النحـو، لصق بأذهـاننـا أن النثر العربي تقلّبت مذاهبه وانتهت في العصور المتأخرة إلى ما سماه أحـد البـاحثـين «مـذهب التصنيـع»، بعيداً عن الكتابات الطلقة التي كانت الحياة، في هذه العصور نفسها، تمليها على لسان ابن حزم مثلاً وابن خلدون ومحيي الدين بن عربي وابن جبير وابن بطوطة وغيرهم.

وعلى هذا النحـو أيضـاً عُنينـا، في تاريخ هذا الأدب، بالشريف الرضي وشعره، ولكنا لم نُعن بأخيه الشـريف المـرتضى وأمـاليـه الرائعة التي تشف عن قدرة بيانية خارقة يغذوها علم غزير وذوق يبلغ الغاية في الـدقـة والـرهافة، وعنينا بابن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل، ولم نعن بالمسعودي والطبري وابن الجوزي وابن عساكر، فلم ننظر إليهم في تاريخ هذا الأدب إلا من حيث هم أصحاب أخبار تنفع في الدراسات والبحوث.

من هذا الباب، ومن باب التضييق الذي أمليناه على أنفسنا، باسم صراع المذاهب، ونفخ في بوق أصحاب الأغراض، انطمست في تاريخ هذا الأدب صفحات متألقة من كلام رجال آل البيت وأئمتهم، في أماليهم وخطبهم وأدعيتهم وحكمهم، فلم يكد الفريق الأكبر منا يعرف عنها شيئاً يغني.

ولـو أننـا كسـرنـا هذا الخـط في تاريخ أدبنا لوجب أن تتغير أو تتعدل كثير من الأحكام فيه، ولاغتنينا بنصـوص أدبيـة عاليـة القيمة الفكرية والفنية، ولازددنا وعياً بخصائص جنسٍ أو نوع أدبي لم نعن به، فيما أعلم، العناية اللازمة، وهو أدب المناظرات والجدل، الذي تفرقت نصوصه في كتب التراث بمجموعه، في اللغـة والأدب والفقـه والقضـاء والتـاريـخ والفلسفـة وعلم الكلام وغيرها، وألفت فيه كتب أغفلها تاريخ الأدب، مثـل (كتـاب الإهليلجـة) ـ ثمرة شجر في الهند، لعله شجر الأناناس كما نسميه اليوم ـ الذي طال كلام المصـادر على نسبتـه إلى الإمـام الصـادق، في مناظرة طبيب هندي لا يؤمن إلا بالمعرفة التي تحصّلها

الحواس، وينكر أسباب المعرفة الأخرى، ومثل (كتاب الحيدة) الذي كتبه عبد العزيز الكناني، في مناظرة بشر المريسي من المعتزلة، في حضرة المأمون، حول قضية خلْق القرآن.

إن ما لفتني إلى هذا الموضوع بجملته لفت رجلاً آخر من الهند، اسمه أبو الحسن علي الحسني الندوي، وكيل ندوة العلماء في الهند، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق. فقد جمع في كتابه (مختارات من الأدب المعرب) نصوصاً جميلة من كتب الحديث والسيرة والتاريخ والاجتماع، إلى جانب نصوص أخرى تمثل للأدب الخالص، بعد أن نعى علينا أن نهمل ذلك الأدب الحي، ونعنى كثيراً بأدب الصنعة والمهارات اللفظية، فنضيع على الأدب العربي تراثاً ضخماً كتبه أناس امتلؤوا بقوة العقيدة وحرارة الحياة وصدق الحافز، واتصف أدبهم بالقرب من الطبيعة، وبروعة الأداء ونفوذ الأثر.

ثم إني كنت أمضيت، مع طلبة الدراسات العليا بجامعة دمشق، عاماً كاملاً درسنا فيه، تحت عنوان (الأدب في غير كتب الأدب) نصوصاً اخترتها من كتاب الحيدة الذي ذكرت منذ قليل، وكتاب التوهم للحارث المحاسبي، من رجال القرن الثالث. ونصاً من كتاب الوزراء والكتاب للجهشياري، من رجال القرن الرابع، ونصين من كتاب رسوم دار الخلافة لهلال الصابىء، والمنقذ من الضلال للغزالي، من رجال القرن الخامس، ونصوصاً من كتاب الاعتبار لأسامة ابن منقذ، وكتاب التوابين لابن قدامة المقدسي، ورسالة روح القدس لابن عربي، من رجال القرنين السادس والسابع.

وإنما عدّدت أسماءهم وذكرت كتبهم، تعزيزاً لهذا الرأي..

أيها السادة:

كل كلام يجمع إلى موضوعة، مهما يكن موضوعه، القدرة على بلوغ الأثر، بما يتوافر في صياغته وأسلوب تناوله، من صفات المهارات الفنية وخصائصها، فهو أدب. ذلك لأنه لم يتجه في خطابه، كما يتجه أصحاب العلوم البحتة، إلى العقول وحدها، وإنما اتجه إلى قوى النفس بمجموعها، بقصد التأثير فيها، عقلاً وشعوراً وخيالاً وذوقاً للجمال، وهذا كله ينطبق على كثير مما كتب هؤلاء وأمثالهم من رجال العلم والادارة والسياسة. وينطبق، علىَ نحو لا يحتمل الخلاف أبداً على كلام الأئمة وغير الأئمة من أعلام مدرسة النبوة، **ومنهم الإمام الصادق الذي امتلأت الكتب بأدعيته وحكمه ووصاياه ورسائله وتحليلاته الفكرية والفقهية والفلسفية وأدلته العقلية، وتوافر له، في التعبير عنها، ما يتوافر في كلام أئمة البيت النبوي ورجاله ونسائه، من قدرات فنية تجعل من تراثهم، في الحكمة والدعاء والمناجاة والمناظرة والحوار والخطابة وغيرها، أدباً إنسانياً ساطع الروح، عامراً بالحياة، ملتزماً تطهير النفس الإنسانية من نزعات الجشع والحسد والكِبْر، وما تغري به القوة الغاشمة أصحابها من الظلم والقهر وتزوير الحقائق، وإزاحة الإنسان عن فطرته الخيّرة، وتقوية إيمانه بوحدانية الله وعدله، ودعوته إلى إحكام الصلة بين قوله وعمله، مما ننصرف، في كلمتنا هذه، إلى بيانه في أدب الإمام الصادق، واستخلاص خصائصه الفنية.**

- ٢ -

عاش الإمام الصادق عقدين من القرن الهجري الأول، وما يقرب من خمسة عقود، من القرن الثاني. فحتى نفهم خصائص تراثه، لابد من أن نلمّ بصفات عصره، على قدر من التركيز والاختصار، يعين على استخلاص أبرز خطوط تكوينه الفكري والنفسي.

نحن في غنى عن الإفاضة في ما اكتسب من نشأته في حجر والده الإمام العالم محمد الباقر، ابن الإمام علي زين العابدين الملقب بالسجّاد ذي الثَفِنات، مما لحق بجبينه من أثر الإطالة في السجود بن الإمام الحسين ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع). فهذا إرث النبوّة في فقهها للدين وصفاء روحها وعمق إيمانها وروعة بيانها وقوة التزامها بهدي الإنسان، وإشاعة الحق والخير في مجتمعه، وتطهير روحه من أدران التعصب والكره وطغيان الأثرة والجنوح إلى الظلم.

ثم إنه ولد في السنة التي ولد فيها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، من رؤوس المعتزلة وعاصر الحسن البصري إمامهم الأول. فقد شهد إذن ظهور الاعتزال والإرجاء (المرجئة) في دولة الأمويين. والاعتزال في اختصار، دعوة إلى إعمال العقل في فهم الدين وعقائده، وإلى تحريره من فهم الجَبْر (رسوف الإنسان في قيود الأقدار) وتنمية وعيه بقدرة العقل على اختيار الطريق، وبعدل الله في محاسبة الإنسان من بعد. ثم هو دعوة إلى الإيمان بوحدانية الله المطلقة، بعيداً عن التشبيه والحلول وما يتصل بهما من أفكار الشعوب والعقائد التي بدأ المسلمون يخالطونها على إثر الفتوح في العصر الأموي. ودعوة إلى وصل الإيمان بالعمل بأحكام الدين، على عكس ما بدأ المرجئة (الدعوة إلى الفصل بينهما في الحكم على المسلم) يشيعونه في الناس، بتأييد من السلطة الأموية، على ما يبدو، للتغطية على ما يتناقل الناس من ضعف التزام بعض رجالها وخلفائها بأوامر الدين ونواهيه، ونرى، بالرجوع إلى مجموع تراث الإمام الصادق، قربه من فكر المعتزلة لما يرشح به واقع الدولة الأموية السياسي والإداري، وما يشيع فيها من الدعوات، ومن سدى العقائد الوافدة.

على أن في المصادر ما يشير إلى نقد وجّهته المعتزلة وأطراف من المعارضة السياسية إلى الإمام الصادق، لما يبدي من الحذر في سرعة الانضمام إلى حركات الثورة بالأمويين وبالعباسيين بعدهم، ولقعوده عنها. والحق أننا نجد في بعض ما وصل إلينا من تراثه ما يذكّر بهذا النقد. ولكن ينبغي أن نذكر هنا أن الإمام كان يشهد بعينيه مآسي الثائرين من آل البيت، واحداً بعد الآخر، منذ فتح عينيه على الحياة إلى انقضاء دولة الأمويين. يكفي أن نذكر إخفاق ثورة عمه زيد ابن علي، وهو في الثانية والأربعين (١٢٢هـ)، وإخفاق ثورة ابن عمه يحيى بن زيد، وهو في الخامسة والأربعين (١٢٥هـ)، وإخفاق ثورة النفس الزكية (محمد بن عبد الله بن الحسن). وثورة أخيه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، وهو في حوالي الخامسة والستين (١٤٥هـ). ويشهد مصارعهم جميعاً وما حفلت به كتب التاريخ من صور القسوة في التنكيل بهم. فإذا

أضفنا إلى هذا ذكرى مأساة جدّه الأول (الإمام الحسين بن علي) في كربلاء، وهي أم المآسي قاطبة، وكان وعاها منذ أيام الطفولة، أدركنا سرّ الحذر الذي كان يبديه في مجالسه، في وجه السلطة وعيونها، وفي وجه معارضيها أو المدسوسين عليهم ومايشيع في تراثه من قوة الإحساس بخوف المكيدة وشرّ الخلق، حتى لقد بدا ذلك في نقش خاتمه الذي يحمله في يده، في جميع الروايات المنقولة: «اللهم أنت ثقتي، فقِني شرّ خلقك. أنت ثقتي فاعصمني من الناس. يا ثقتي قني شرّ جميع خلقك!». وفي بعض أدعيته، وهذا المعنى شائع فيها: «اللهم من أرادني بسوء فأرده، ومن كادني فكده، واصرف عني هم من أدخل عليّ همه، وامكر بمن مكر بي، فإنك خير الماكرين، وافقأ عني عيون الكفرة الظلمة، الطغاة الحسدة».

ويشير تاريخ الإمام إلى أن أناساً خاطبوه في ما يتخذ لنفسه من حسن اللباس. وذكّروه بما نعرف من زهد جده أمير المؤمنين وتقشفه. وفي كلام منتقديه أيضاً، من أطراف المعارضة السياسية، إشارة إلى ما يميل إليه من الراحة وإيثار الظل. ففي أخباره وبعض كلامه وأدعيته ما يذكّر بما يشير إليه هذا التاريخ. يقول: «إن الله عزّ وجل يحب الجمال والتجمّل ويبغض البؤس والتباؤس». «البس وتجمّل، فإن الله جميل يحب الجمال. وليكن من حلال». ويقول، في ردّه على سفيان الثوري: «اسمع مني وع ما أقول لك، فإنه خير لك عاجلاً وآجلاً إن أنت مُتَّ على السنة ولم تمت على بدعة. أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم كان في زمان مقفر جدب. فأما إذا أقبلت الدنيا فأحق الناس بها أبرارها لا فجّارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفارها. فما أنكرت يا ثوري؟ فوالله إني، مع ما ترى، ما أتى عليّ، منذ عَقَلْت، صباح ولا مساء ولله في مالي حق أمرني أن أضعه موضعاً إلا وضعته». وفي دعائه يقول: **«أسألك اللهم الرفاهية في معيشتي ما أبقيتني، معيشة أقوى بها على طاعتك، وأبلغ بها رضوانك... ولا ترزقني رزقاً يُطغيني، ولا تبتلني بفقر أشقى به، مضيَّقاً عليّ. اعطني حظاً وافراً في آخرتي، ومعاشاً واسعاً هنيئاً مرئياً في دنياي. ولا تجعل الدنيا عليّ سِجناً، ولا تجعل فراقها عليّ حزناً. أجرني من فتنتها سليماً، واجعل عملي فيها مقبولاً، وسعيي فيها مشكوراً».**

والقصد مما نقوله هنا أن نلمّ، أولاً بعض المحاور الفكرية والنفسية التي يدور من حولها كلام الإمام وأدعيته، وأن ندلّ، ثانياً، على قرب النصوص التي خلّفها من واقع الحياة، الفكرية والسياسية في عصره، ونتلمّس، ثالثاً، متانة الصلة بين قوله وسيرته، مما يرفع تراثه الفكري والأدبي إلى أن يكون صورة صادقة لحياته، في مرحلة مضطربة من التاريخ يعسُر فيها على غير الممتازين من قادة الرأي أن يحتفظوا فيها بوضوح الرؤية ووحدة الفكر والعمل.

- ٣ -

نرجع الآن إلى التراث الذي خلّفه الإمام الصادق، فنرى ما وصل منه موزّعاً في كتب الفقه وأصوله وكتب التاريخ والأدب والمذاهب والأخبار والأمالي والتراجم وغيرها. فنتمنّى لو انّ أناساً فكّروا في جمعه

وتصنيفـه، وأصـدروه، في مثـل هذه المنـاسبـة المبـاركـة، في مجمـوعة موحدة كاملة، وفي جمع تراث الأئمة الآخرين، وتراث رجال آل البيت، على النسق نفسه.

في يدي من هذا التراث الذي ينفعني في هذا الموضوع رسائله التي قالوا: إن تلميذه جابر بن حيان كان جمعهـا في ألف ورقـة، وبمـدتهـا خمسمائة رسالة. والكتاب الذي سمّوه توحيد المفضل، مما أملاه على تلميذه المفضّل بن عمر الجعفي، ومقاطع من أدعيته، وجمل من حكمه إلى جانب طائفة من وصاياه وردوده.

فأما كتاباه (مصباح الشريعة) و(كتاب الإهليلجة) ففي نسبتهما إليه كلام يصعب الآن الفصل فيه وكنت أتمنى أن يشمل كلامي للكتاب الثاني، ليكون مثلاً من أمثلة أدب المناظرات الذي أشرت إليه.

لا مفرّ إذن من أن أكتفي الآن بهذا القدر من تراث هذا الإمام العظيم الذي ملأ الأرض علماً، كما قالوا. وهو في كل حال يفي، في هذه الكلمات، بما نقصد إليه من استخلاص أبرز خصائص فكره الأدبي، بما يمكن إجماله فيما يلي:

١ ـ إطـالـة الفكـر في الأشيـاء ومعانيها مع دقة الملاحظة وغزارتها. وتبدو، أوضح ما تبدو، في حكمه وردوده على أصحاب المذاهب المادية من الدُّهرية وغيرهم، وإثبات وجود الصانع الواحد، وتفسير أسباب الصنعـة على هذا الـوجـه، والـدلالـة على إحكـامها بما يضمن سلامة العيش وحسن التدبير، على مثال قوله، في خلق العينين والحواس في الإنسان، مما رواه عنه المفضل بن عمر: «**انظر الآن يا مفضل إلى هذه الحواس التي خُصّ بها الإنسان في خلقه، وشرُف بها على غيره: كيف جُعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة، ليتمكن من مطالعة الأشياء. ولم تجعل في الأعضاء التي تحتهن كاليدين والرجلين، فتعترضها الآفات ويصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعللها ويؤثر فيها وينقص منها، ولا في الأعضاء التي وسط البـدن كالبطن والظهـر، فيعسـر تقلبهـا واطـلاعها نحو الأشياء. فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع، كان الرأس أسنى المواضع للحواس، وهو بمنزلة الصومعة (المنارة) لها**».

فهذا كلام من أعمل فكره طويلاً في خلق الأشياء، ووصل إلى الحكمة فيه، على الوجه الذي تم فيه الخلق. وكتاب التوحيد (أمالي المفضل) يجري كله على هذا النسق من عمق التأمل في الكون وكائناته، واستخـلاص حقـائق خلقهـا، في مثـل هذا البيـان الـدقيق الـواضح، البعيد عن كل تعمّل، القريب من الطبيعـة، الـوافي بالقصـد في غير تطـويل ولا حشو ولا تكرار، والقادر على استيعاب ما تولّده قوة الملاحظة ودقّتها من تشعب الفكرة وقوة الإحساس بها.

وفي حكمـه الكثـيرة التي سماهـا بعضهم (نثر الـدرر) مثـل هذا الغـوص في حقـائق الخلق وأسـرار النفوس، لا تكتمل عدّته إلا لمن جمع مع قوة الفطرة طول النظر وحدة الملاحظة، وتوافرت له ثقافة إنسانية منوّعة وخبرة عميقة بأحوال النفس الإنسانية وحقائقها:

يقول في بعض حكمه: «**السريرة إذا صلُحت قويت العلانية**» الربط بين الظاهر والباطن.

ويقول: «**من لم يغضب من الجفوة لم يشكر النعمة**». الرجوع في فهم النفس إلى قاعدة التكوين الجامع.

ويقول: «**ليس لإبليس جند أشد من النساء والغضب**».

ويقول: «**إزالة الجبال أهون من إزالة قلب عن موضعه**».

ويقول: ـ وهذه تروى للحسن البصري معاصره أيضاً ـ: «**لم يخلق الله يقيناً لا شك فيه، أشبه بشك لا يقين فيه، من الموت**».

كيف يتيسر، إلا للممتازين الذي أطالوا النظر في الحياة والإنسان، الوصول إلى مثل هذه المعرفة بالنفس الإنسانية فيما تظهر وتبطن، وما تعني قوة إحساسها بالحياة ومواقفها، وما يقرّ في أعماقها من ذهول الرؤية في مواجهة الموت؟ وما أعرف قولاً، في وصف حدّة الغضب وما يقوله إليه من ضلال الرشد، كقول الإمام في جمعه بينه وبين أعتى الغرائز البشرية.

٢ ـ تنوّع المعرفة وتماسكها، فيما يتصل بشؤون الدين والدنيا جميعاً، وسعة الاطلاع على الثقافات المختلفة. والذي أعاده الإمام على الإلمام بهذه المعارف والثقافات إدراكه الحي بها تولّد المعرفة في النفس من سعادة الإحساس بقوة الحياة وخصوبة معانيها، واختلاف ألوانها وطعومها. يمثل لهذا قوله: «**لا ينبغي لمن لم يكن عالماً أن يُعَدّ سعيداً**»! وقوله: «**الناس اثنان: عالم ومتعلم. وسائر الناس همج**». ومن هنا تكثر دعواته إلى تنشيط العقل بتطويل التفكير في الأشياء. يقول: «**دعامة الإنسان العقل... وبالعقل يكمل، وهو دليله وهويته ومبصرّة ومفتاح أمره**». ويقول: «**العامل على غير بصيرة كالسائر على غير طريق، فلا تزيده سرعة السير إلا بعداً**». ويقول: «**إياكم والغفلة. فإنه من غفل فإنما يغفل عن نفسه**»!.

٣ ـ توجهه في أدبه إلى الفرد والجماعة معاً وتقوية روح الجماعة: «**لكل شيء شيء يستريح إليه، وإن المؤمن يستريح إلى أخيه المؤمن كما يستريح الطير إلى شكله**». وتأتي دعوته إلى العمل، وإلى تقوية اللحمة بين القول والعمل، في هذه الطريق. وهو ما كنا أشرنا إليه من قبل، في إشارتنا إلى ماكانت المرجئة تدعو إليه، من الفصل بينهما. يقول الإمام: «**الإيمان عمل كله**». و«**لا يثبت الإيمان إلا بعمل**». و«**كونوا دعاة الناس بأعمالكم ولا تكونوا دعاة بألسنتكم**». و«**إنما تفاضل القوم بالأعمال**».

وفي هذه الطريق أيضاً، تقع دعوته إلى اليقظة والحذر ووضع الأشياء في مواضعها، وتحرير الإنسان من عبودية الإنسان: «**من أطاع المخلوق في معصية الخالق فقد عبده**»! وفي إجابته من سأله عن حد اليقين: «**ألّا تخاف مع الله شيئاً**». و«**كل رياء شرك. إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله**». وفي توصيته بالمساكين والضعفاء: «**إن عيسى بن مريم عليه السلام لما أراد وداع أصحابه، جمعهم وأمرهم بضعفاء الخلق، ونهاهم عن الجبابرة**».

٤ ـ قوة الصياغة، وإيجازها بما لا يخل بالقصد ويفي بالمعنى، مع حرارة الروح، وسطوع الاستجابة النفسية لدواعي الحياة، والقرب فيها من الطبيعة الجارية، وبناء الصورة، إذا احتاجها في تشخيص معانيه وتقوية اثرها في النفس، من معطيات الحواس، لتكون أنفذ وأوضح. وهذه صفحات أدب كله. بل لعلها صفات أدب المدرسة التي ينتمي إليها، مدرسة آل البيت، ابتداء من أدب أمير المؤمنين ربيب رسول الله(ص)، وانتهاء بأدب الأئمة ورجال آل البيت جميعاً. ينطبق ذلك على الفكر الأدبي، وينطبق أيضاً، بمقدار ما يستدعي القصد، ويستلزم التعبير، من الدقة والوضوح والاتزان، على الفكر العلمي، في الفقه والسياسة والاجتماع والتفسير.

وإنما يجتمع ذلك من امتلاء النفس بالفكرة، وحرارة الإحساس بها، وبما تستلزم العقيدة، في بيان مقاصدها، من قوة التركيز ونفي الفضول اللفظي، وما يدعو تقريبها إلى الناس، من شخوص الصورة ووضوح التمثيل.

وفي كلام الإمام الصادق أقوال عن البلاغة وصفاتها تقرّب ما انتهينا إليه. يقول: «**ثلاثة فيهن البلاغة: التقرب من معنى البغية، والتبعد من حشو الكلام، والدلالة بالقليل على الكثير**». ويقول: «**من عرف شيئاً قلّ كلامه فيه**» يريد: أن من يعرف الشيء يصل إليه في أقل الكلام. ويقول: «**وإنما سمي البليغ بليغاً لأنه يبلغ حاجته بأهون سعيه**». ويقول: «**ليست البلاغة بحدة اللسان ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة**».

فمن هنا نصل إلى فهم خصائص ما نقلنا وما ننقل في هذا الحديث، من أقوال وحكمة التي تتحقق فيها صفات البلاغة التي نص عليها. يقول مثلاً: «**كثرة النظر في الحكمة تلقح العقل**». فد جمع ما يتمثل في النفس من صور اللقاح ومعانيه وأثره في تنشيط حركة الحياة وتوليد المعاني وإخصابها، في لفظ واحد موح بهذه الدلالات كلها. ويقول: «**من تعلّق قلبه بحب الدنيا، تعلّق من ضُرّها بثلاث خصال: هم لا يغني، وأمل لا يُدرك، ورجاء لا يُنال**». جمع حب الدنيا وأذاها ،معاً في لفظ واحد كرره «التعلق» كأنهما وجهان لحقيقة واحدة لا تنفصل إحداهما عن الأخرى. ووسع في ألفاظ قليلة مقسّمة، معاني الخيبة كلها. ويقول أيضاً في مثل هذا المعنى «**ما فتح الله على عبدٍ باباً من الدنيا إلا فتح عليه من الحرص مثليه**». فكم يحتاج مثل هذا الكلام، في كثافة دلالاته ومعانيه، وما توحي الصورة فيه، وبيان ما طبعت عليه النفس البشرية من حب التملك، من الشرح والتفصيل؟ ويقول: «**ما الدنيا؟ وما فيها؟ هل هي إلا سَدَّة خورة (يريد: سكتة الجوع)، وستر عورة**»؟ فقد لجأ في تشخيص المعنى وتكثيفه إلى صورتين حسيتين، وجمع حياة الإنسان المادية كلها في أربع كلمات!

ـ ٥ ـ

ننتهي أخيراً إلى أدب الدعاء، فهو أكثر صفحات تراثه حرارة، وأدلُّها على سعة الروح وخصوصية

النفس وغنى اللغة وطواعيتها. والدعاء يقتضي ما لا تقتضي الحكمة من الإيجاز، إذ تسيل النفس فيه برجائها وخوفها وظمئها إلى السكينة، وتطلعها إلى الخلاص، مما لا تستريح فيه القلوب المتعبة إلا باستخدام مكنونها ونثره أمام الله. فمما يلفت الناظر في أدب الإمام أن يجمع بين ما تقتضيه الحكمة والموعظة والخطاب الفقهي والأدبي، من كلف بالإيجاز، وبين ما يقتضيه الدعاء من الإفاضة والتلوين والإلحاح في الرجاء والبث، وأن يبلغ من القدرة في الحالين ما يصعب الوصول إليه إلا على من يملك من رحابة الفكر والخبرة بأسرار البيان وغنى اللغة ومرونة استجاباتها لحاجات التعبير، ما كان يملكه الإمام. ولنقرأ الآن أسطراً من دعاء دعا به في آخر شهر رمضان: «**إلهي! فإني أعترف لك بذنوبي، وأذكر لك حاجتي، وأشكو إليك مسكنتي وفاقتي وقسوة قلبي، وميل نفسي، فإنك قلت: ﴿فما استكانوا لربهم وما يتضرّعون﴾. وها أنذا قد استجرت بك، وقعدت بين يديك مسكيناً متضرعاً، راجياً لما أريد من الثواب بصيامي وصلاتي. وقد عرفت حاجتي ومسكنتي إلى رحمتك، والثبات على هداك، وقد هربت إليك هرب العبد السوء إلى المولى الكريم**»... «**أعوذ بجلال وجهك الكريم أن ينقضي عني شهر رمضان، أو يطلع الفجر من ليلتي هذه، ولك عندي تبعة أو ذنب تعذبني عليه يوم ألقاك**...».

فهذا الدعاء يمثل لخصائص أدب الدعاء في تراثه كله، وهي الخصائص التي ذكرتها منذ قليل. وفيه نلمس عمق الإحساس بمكان الله من القلب، وحرارة النفس في توجهها إليه، وقد يعجب قارىء هذا الأدب أن تلوّن المعاني والإحساسات، في مواقف الدعاء المتشابهة، هذا التلوين.

أيها السادة:

لا يزيد ما قلته في هذه الكلمة، عن أن يكون نظرة طائرة في تراث الإمام الصادق، قصدت منها أن ألفت النظر إلى درسه من الجانب الفني، ففيه من الغنى والرحابة والعمق والجمال والصدق والاستجابة للطبع والبعد عن اللفظية ما تصغر إلى جانبه آلاف الصفحات التي ننكب على درسها، من أدب الصنعة في عصور الهُزال الفكري والروحي التي ما نزال نعاني من بعض رواسبها إلى اليوم.

أشكركم والسلام عليكم ورحمة الله





السيد حسن الأمين



الجانب العلمي والفكري من شخصية الإمام الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

لكي ندرك الجانب الفكري والعلمي من شخصية الإمام الصادق(ع) لابد لنا من أن نعود قليلاً إلى ما قبل عصر الصادق، إلى عصر أبيه محمد الباقر أولاً، ثم إلى عصر جده زين العابدين بن علي بن الحسين(ع) ثانياً.

إذ أن حياة الصادق العلمية والفكرية هي امتداد لحياة أبيه وجده، في هذا الجانب.

فعلي بن الحسين الذي لم تلق شخصيته من الدراسة ما يجب أن تلقاه، والذي لا يزال دوره في انبعاث العلم الإسلامي في كل نواحي الانبعاث ـ لا يزال مجهولاً.

ولو كان المجال الآن مجال الحديث عن علي بن الحسين، لأوضحنا الحقيقة كاملة فيها نقوله ولأثبتنا أنه هو أبو الحضارة الإسلامية التي تفجرت علماً وفكراً وبحثاً ودرساً، وكان أساس ذلك كله مدرسته في المدينة، التي أخرجت من أخرجت من رجال العلم، ثم أخرجوا هم من أخرجوا.

وبعد موته تولى أمرها ولده محمد الباقر حتى وصلت إلى حفيده جعفر الصادق(ع).

والسبب في أن دور الإمام الصادق كان أشهر من دور أبيه وجده، هو أنهما كانا أكثر اضطراراً للابتعاد عن الظهور بسبب ضغط السلطات عليهما ضغطاً أدى إلى خفاء دورهما، وعدم انطلاقه انطلاقاً واسعاً في حين أن ظروف الإمام الصادق كانت أكثر ملاءمة للبروز والإنطلاق. لأن حياته صادفت ضعف السلطات وانشغالها بنفسها، فالسلطة الأولى كانت ماشية إلى الزوال، والسلطة الثانية كانت في بدء التأسيس، فأتاح له ذلك أن يعمل بعيداً عن رقابة السلطة وتضييقها فاتسعت مدرسته وكثرتلاميذه وتنوّعت دروسه، وقام لمدرسته بزوغ في غير مقرها في الحجاز لا سيما في العراق.

ومن هنا اشتهر دور الصادق أكثر من اشتهار دور أبيه ودور جده، وإني لأدعو جميع محبي الحقيقة الباحثين عنها إلى أن يكشفوا عن حياة زين العابدين علي بن الحسين(ع)، وأن يولوا تلك الحياة ما تستحقه من الدراسة، فعند ذلك سيبين لهم فضل مؤسس المدرسة الأول في الإسلام، وسيرون أن سيرته لا تقتصر على ما هو مشهور منها فقط، وأن تلك السيرة أعمق وأكثر شمولاً وأبعد أثراً مما هو معروف.

وقد كان بروز الصادق(ع) ذاك البروز يعود إلى تلك القيادة الفكرية التي نصبته علماً للفكر والعلم فباشرها على نطاق واسع مبيناً الحقائق العلمية والاصطلاحات الشرعية والمفاهيم والأحكام الإسلامية، وهو بهذا يجدد ويبعث الشريعة بعد فترة من الركود الفكري.

وقد اعتزل النشاط السياسي العلني للمستلزمات الظرفية التي عاصرت عهده، في الوقت الذي لم ينفك فيه عن تعضيد الحركات السياسية للثوار الأحرار محاولة منه لاسماع الأمة صوته وإظهار سخطه على الحكم الاستبدادي الفردي، وكشف حقيقته وانحرافه عن القواعد الإسلامية في الحكم والسياسة والتشريع.

لقد استفاد الصادق من ضعف القوى السياسية التي كانت من قبل تضيق عليه وعلى الأئمة من آبائه لأن عصره شهد ـ كما قلنا ـ ضعف الكيان الأول ثم انهياره، ثم نشاط الكيان الثاني ثم قيامه وسط خضم من المنازعات والفتن فانشغل الحكام بأمورهم هذه عنه، مما مكنه من فتح أبوابه لطلاب العلم والحقيقة وجعله على اتصال مباشر مع الامة يشحنها بمقومات الفكر والاصلاح والهداية.

وقد طولب الصادق أن يبايع لبعض بني عمه فأبى فاتهم بالحقد والحسد فاعتزل واتخذ مسجد النبي في المدينة مدرسة له ينشر منها العلم إلى جميع الآفاق.

وأعلنت الثورة العباسية، والصادق لم يتحول عن رأيه غير أنه تحول إلى مسجد أبيه الجامع في الكوفة حيث وجد مجموعة خيرة من طالبي العلم، فاندفع إلى نشر المعارف والعلوم فوزع طلابه، بعد أن درس نفسياتهم واتجاهاتهم وقابلياتهم، فصرف قوماً إلى الفلسفة وآخرين إلى المناظرة، وقوماً إلى الفقه، وآخرين إلى الكيمياء، وهذا إلى الطب وذاك إلى رغبته من طلب العلم وإلى ما يهوى.

فقد ارتأى الصادق أن السلاح في ذلك الوقت لا يحل مشكلة اجتماعية ولا يرفع ظلامة مظلوم ولا يقلص ظل الزمرة الحاكمة الجائرة.

وقد كان يرى أن لا ثورة مع الجهل ولا خنوع مع العلم. وهكذا كان لديه أربعة آلاف طالب، كل يقول درست على جعفر بن محمد الصادق.

لقد كانت الفترة التي عاشها الصادق فترة مضطربة تتميز بالغليان من ناحية سياسية واجتماعية، فإلى جنب الحركات السياسية المتضاربة، كانت المذاهب العقائدية المختلفة التي ولدت داخل الأمة من أثر الواقع الذي تعيشه آنذاك. فقد كثرت النظريات المنحرفة واندس بين المسلمين أناس كل هدفهم أن يفسدوا على المسلمين عقيدتهم وتكاثر الوضاعون من جهة والغلاة والملحدون من جهة أخرى، وساهموا جميعاً في أبعاد الأمة عن الواقع الإسلامي، وكادت العقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي يضيعان وسط هذه التيارات المتباينة، إلى جنب انحراف السلطة وطغيانها.

وقد كان على الإمام الصادق أن يواجه كل ذلك، أن يواجه أسباب الانحراف العقائدي والتشريعي، وأن يواجه الفساد في السلطة، فماذا فعل الصادق؟ وكيف نهض بهذه المسؤولية الضخمة؟.

لا شك أن امتلاك الاداة السياسية أمر مهم، وإزالة الأجهزة الفاسدة أمر يسهل انجاز الأهداف الإصلاحية التي يرمي إليها في جميع المجالات، ويضع حداً لكل أنواع الفساد التي ابتليت بها الأمة.

فهل خاض الصادق المعركة السياسية في هذا السبيل؟

وهل استثمر ذلك الظرف في تحقيق هذه الغاية؟..

لا لم يفعل ذلك.

فقد ذكر المؤرخون أنه رفض كل العروض التي جاءته من بعض الزعماء السياسيين رفضاً باتاً شديداً. فقد جاء رسول أبي سلمة الخلال يحمل منه كتاباً يذكر فيه للصادق استعداده للدعوة إليه وتخليه عن بني العباس.

فقال الصادق: مالي ولابي سلمة وهو شيعة لغيري، فقال الرجل: اقرأ الكتاب. فقال الصادق أدن السراج مني فادناه، فوضع الكتاب على النار حتى احترق.

فقال الرسول: ألا تجيبه، قال قد رأيت الجواب، عرّف صاحبك بما رأيت.

ولم يستطع أصحابه أن يحولوا رأيه إلى دخول المعركة برغم رغبتهم وإلحاحهم فقد كان الوضع الذي عليـه الامـة من الانقسـام السيـاسي والمـذهبي والاضطـراب الفكـري الذي يشملها بصورة عامة، يجعل الصـادق يجزم مقـدمـا بأن الـدخـول في معركة كهذه لا يعدو أن يكون مغامرة مؤكدة الفشل، وبالتالي فإنه يعرض نفسه ومن ثم البقية الباقية من المؤمنين والفكرة الإسلامية الصحيحة التي يمثلها إلى خطر لا حد له ولهذا أبى أن يخوض المعركة بنفسه.

لقـد كان الاسلوب والطـريقـة التي سلكهـا الصادق من أدق وأحكم الطرق الإصلاحية، فالصادق ليس من بغاة المغامرة والظهور، وإنما هو مسؤول، ومصلح يريد أن يصل إلى الإصلاح، ولهذا رأى على ضوء الـواقـع الـذي تحيـاه الأمة، ن يصرف جهده بالدرجة الأولى في عملية إيجابية هامة، رأى أن ينصرف ليقيم الكيان الفكري للإسلام، ولوضع أصول التشريع الإسلامي.

إن الصـادق وهـو يبني بأحـاديثـه الشـريعة الإسلامية في واقعها النقي الأصيل، ويدلل على شمولها واستيعـابهـا، ويحملهـا عدداً ويـزامن العلماء لم يكتف بذلـك بل حرص أيضـا على أن يجعل من مريديه في أقوالهم وأعمالهم وتفكيرهم تجسيداً للفكرة الإسلامية، فقال يخاطبهم: كونوا لنا دعاة صامتين. فقالوا كيف ندعـو ونحن صامتـون؟. قال تعملون بها أمـرنـاكم به من العمـل بطـاعـة الله، وتعاملون الناس بالصدق والعـدل وتؤدون الأمـانـة وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، وألا يطلع الناس منكم إلا على خير. فإذا رأوا ما أنتم عليه علموا فضل ما عندنا.

ولقد وقف الصادق موقفاً شديداً صارماً، وباشر بنفسه المعركة الفكرية وعبأ تلاميذه ومريديه في هذا المجال. لقد حارب الخطابية وغيرها من فرق الغلاة حرباً لا هوادة فيها وتبرأ من أتباعهم وأنكر غلوهم.

وقـد بدأت في عصـره تطغى الـروح الانهـزاميـة في المجتمـع بدعـوى الـزهـد والإيغال في التصوف والاستغراق فيه لذلك كان الصادق يحث على الجدية في الحياة والكفاح من أجل العيش الكريم، فكان من أقواله: «**إن الله يحب الجمال والتجمل ويبغض البؤس والتباؤس، فإن الله إذا أنعم على عبده نعمة أحب أن يرى أثرها عليه، فقيل له كيف ذلك؟ فقال: ينظف ثوبه ويطيب ريحه ويجصص داره ويكنس افنيته**».

هذا ومـرد سلامـة الصـادق فيـما نرى إلى منهجـه البعيد عن العنف في معارضة السلطة، وإلى أخذ نفسه بالقصد والاحتياط التام يدل على ذلك ردّه للأموال ورفضه للرسائل التي أمر المنصور بكتابتها إليه وإلى غيره من الطالبيين على لسان أنصارهم لتكون حجة له عليهم.

فالصادق من هذه الناحية منقطع النظير بين الطالبيين. وقد يتوهم متوهم أن منهجه والحالة هذه كان منهجاً سلبيا بالنسبة إلى بني عمه الحسن، والواقع غير ذلك، ومن يستبطن أسرار التاريخ ويقف على روح ذلـك العصـر يتضـح له أن الصـادق كان من رابـه عقم تلك الثـورة على الـدولة العباسية في مرحلة شبابها وعنفوان قوتها وغلبتها، هذا مضافاً إلى ضعف الطالبيين وأن ثورتهم كانت ثورة محلية في الحجاز وفي البصرة

بعد ذلك، وإن أيدها أهل العلم والفتوى في العراق والحجاز.

هذا وبالإضافة إلى ما تقدم من توضيح موقف الصادق وشرح منهجه وأنه لم يكن منهجاً سلبياً انقطاع الصادق لبث العلم والأثر النبوي وتأسيس مدرسة أهل البيت في هذا الشأن.

ولعل الميزة الكبرى والسمة البارزة لذلك التراث الخالد أنه لم يقتصر على تفسير القرآن واحكام الفقه وشؤون الدين، بل شمل جوانب متعددة من علوم مختلفة، وأوضح خفايا كثيرة من الحقائق الكونية الغامضة، مما يدل على أن قصد الصادق كان متجهاً نحو قيام حضارة إسلامية متميزة تقوم على العلم والفكر فيما تقوم عليه من دعائم وما تتجه نحوه من أهداف.

وبفضل هذه الكثرة من الروايات والأمالي والأحاديث عن الإمام الصادق انتشر لدى الناس وفي التاريخ اصطلاح المذهب الجعفري والفقه الجعفري، فكثرة الرواية وكثرة الرواة عن الصادق بالخصوص كانت السبب في هذه النسبة، في حين أن المتحري للحقيقة يعلم أن الفقه هو فقه أهل البيت بأجمعهم.

وتتجلى عظمة الصادق لنا بوضوح حينما نتصور الألوف من المسلمين وهم يفخرون بسماع علمه وحديثه حتى لقد جمع الحافظ ابن عقدة في كتابه اسماء اربعة آلاف رجل من الثقات رووا عن الصادق.

وكما قال ابن حجر في كتابه (الصواعق): نقل الناس عن جعفر بن محمد من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر في جميع البلدان.

وأول جانب من جوانب المعرفة عني به الإمام الصادق هو تفسير القرآن، ثم كان الجانب الثاني من الجوانب التي أوضحها الصادق: علم الفقه والشريعة، ثم كان جانب الفلسفة ثالث الجوانب التي أولاها الصادق اهتمامه، بالنظر إلى ما توارد على العقل العربي من شبه وشكوك فلسفية نتيجة الاختلاط بالأمم الجديدة الداخلة في الإسلام.

وهناك جانب آخر أولاه الصادق كثيراً من عنايته ألا وهو علم الكيمياء.

يقول الدكتور محمد يحيى الهاشمي فيما يقول في هذا الموضوع: إن أول شبح من أشباح التاريخ الذي يظهر أمامنا في حقل الكيمياء هو جابر بن حيان ويمكننا أن نعد رسائله أول مظهر من مظاهر الكيمياء في المدرسة الإسلامية، وقد اتصل جابر بالإمام الصادق وتلقى علم الكيمياء في مدرسته وأصبح هذا الرجل بذلك كيماوي العرب الأول. ثم اعتبر على مر القرون قمة شامخة في تطور هذا العلم.

ولم يكن لجابر هذا استاذ غير الإمام الصادق وقد كرر جابر ذكر اسم استاذه في أكثر كتبه وبتعابير مختلفة.

وقد كان مقر مدرسة الصادق في المدينة، وكانت الدروس تلقى في المسجد وأحياناً في بيت الإمام. ثم كانت لها فروع في أرجاء العالم الإسلامي. وأهم فرع لها هو فرع العراق في الكوفة، ففي مسجد الكوفة كان

يحتشد الطلاب وشيوخهم، ولقد حدث أحد الرواة قائلاً عن مسجد الكوفة: سمعت في هذا المسجد تسعمائة شيخ، كل يقول: حدثني جعفر بن محمد.

وقد كان الإمام يتعهد فرع الكوفة بنفسه فيأتي من المدينة إلى الكوفة ليشرف على سير الدراسة ويشارك في التدريس، وأحاديث زياراته للعراق مستفيضة في كتب التاريخ.

ومن أهم انجازات الصادق في تاريخ الحضارة الإسلامية، هي دعوته إلى التأليف، فقد كان التأليف والتدوين حتى عهد الصادق في ركود وهمود لأسباب ليس هنا مكان ذكرها.

ومن الأنصاف أن نقول أن محاولة قام بها عمر بن عبد العزيز للدعوة إلى التأليف، وقد كان يمكن لهذه الدعوة أن تنجح لولا قصر مدة خلافته.

وبقي الأمر كذلك حتى جاء عهد الصادق فتفرغ لهذا الأمر ودعا تلاميذه وخريجي مدرسته إلى التأليف، فكان يقول لأصحابه: اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا. وقال للمفضل بن عمر: اكتب وبث علمك في إخوانك فإن مت فورث كتبك بنيك. وكان يكرر قوله: احتفظوا بكتبكم فإنكم سوف تحتاجون إليها.

فأقبل أصحاب الإمام على تدوين العلوم التي تلقوها في مدرسته، فألف ابان بن تغلب في (معاني القرآن) و(كتاب القرآن). وألف المفضل بن عمر كتاب (التوحيد). وألف جابر بن حيان في علم الكيمياء. وألف غيرهم في علوم أخرى، ومن أشهرهم: زرارة، وأبو بصير، ومحمد بن مسلم، وإسماعيل بن أبي خالد، حتى لقد بلغ عدد المؤلفات أربعمائة كتاب لأربعمائة مؤلف.

والمبادىء الكبرى التي اعتمدها الصادق هي:

١ ـ كل ما فيه خير للجميع فهو حلال، وكل من اضطر إلى شيء فهو له مباح، فالجائع الذي تضيق به سبل العيش لا يعاقب على السرقة. والمدين الذي يعجز عن الوفاء لا يحبس ولا يحجز له ما لا بد له منه من مسكن ومأكل وملبس.

٢ ـ لكل بالغ عاقل صفة ذاتية تؤهل للالزام والالتزام بما له وما عليه.

والشرط الرئيسي لصحة الالزام والالتزام أن يكون العمل حقاً للملتزم وسائغاً في نفسه لا يستدعي ضرراً على من ألزم أو التزم ولا على غيرهما. فكل معاهدة تخرج عن اختصاص المتعاهدين أو تضر بهما أو بأحدهما أو بغيرهما أو تكون مجهولة الحقيقة فهي تضليل يجب إلغاؤها، وكل تجارة أو زراعة أو صناعة فيها شائبة الضرر فهي فاسدة. وكل من نذر أو أقسم أو عاهد الله أن يفعل ما يضر به أو بغيره فنذره وقسمه وعهده لغو.

٣ ـ في الفقـه : شدد في الطـلاق واشـترط فيه حضور شاهدين عدلين، وأن يجري عند مرجع صالح بصيغة معينة، وضيق دائرته إلى أقصى الحدود بفرضه القيود الصارمة على المطلق والمطلقة وصيغة الطلاق وشهوده ولم يجز وقوع الطلاق ثلاثاً بلفظ واحد.

وفي القضايا الأخرى لم يأخذ بالقياس وأجاز الوصية لوارث واعتمد في الإرث قاعدة الأقرب فالأقرب فجعل الأولاد والآباء أولى بالإرث من الأخوة والأجداد. والأخوة أولى من الأعمام والأخوال. فالبنت عنده تحجب عمها كما يحجبه الابن من غير فرق وكذلك اعتمد نفس القاعدة في النفقات.

٤ ـ الثقة بالإنسان. فقد جاء في أقواله: «**بُنِيَ الإنسان على خصال فمهما بني عليه فإنه لا يبنى على الخيانة والكذب، وكل من يدين بدين يرتب على أعماله آثار الصحة ما دامت موافقة لما يعتقد وإن خالفت الإسلام**».

٥ ـ شجبه للعصبية العمياء، وتحديده مقياساً لها بقوله الرائع: ليس من العصبية «**أن تحب أخاك، ولكن العصبية أن ترى شرار قومك خيراً من خيار غيرهم**».

ولا يفـوتنـا في النهـايـة أن نشـير إلى تشجيعـه للأدب ورعـايته للشعر فقد عاش في ظله من الشعراء أمثال: السيد الحميري وأشجع السلمي والكميت وابنه المستهل وأخوه الورد وأبو هريرة الأبّار وأبو هريرة العجلي وجعفر بن عفان والعبدي وسليمان بن فتة العددي وسديف وإبراهيم بن هرفة ومنصور النمري.

على أنـه هو نفسـه كان يقـول الشعـر ومن قولـه هذا البيت الـذي يدل على الحياة العلمية التي كان يحياها مع تلاميذه بين الإملاء والتدوين والتأليف مما لابد منه يومذاك من وصول المداد إلى الأنامل والأيدي والملابس:

لا تجزعـن من المـداد فإنـه ... عطـر الـرجـال وحـليـة الآداب

ولما مات وحمل إلى البقيع انشد أبو هريرة العجلي:

أقـول وقـد راحـوا به يحمـلونـه ... على كاهـل من حامـليـه وعـاتـن

أتـدرون ماذا تحمـلون إلـى الـثـرى ... بشـيراً ثوى من رأس عليـاء شاهـن

* * *

الإمام الصادق(ع) مؤسس حركة التأليف

قبل خمسة عشر قرناً قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لسلمان الفارسي: [سلمان منا أهل البيت] ولم يكن هذا القول تكريماً لسلمان وحده ولم يكن يقصد به سلمان فقط، كان للقول مغزى أبعد من ذلك وحتى لو كان يقصد به سلمان وحده فهو يعني به الوحدة الإسلامية فإن الرجل الفارسي الذي أصبح منا نحن بعد إسلامه وإيمانه وإخلاصه للإسلام أصبح واحداً لا من العرب بل واحداً من أهل بيت النبوة من أهل البيت الذين هم أشهر بيت بين العرب.

وها هي المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية وعلى رأسها رجل العلم والفضل والإخلاص والعمل المجدي حجة الإسلام الشيخ محمد تقي شريعتي. ها هي بعد خمسة عشر قرناً تقول لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم هانحن الآن نردُّ لك بعض جميلك وننفذ بعض ما أرشدتنا إليه، ونقول لك من وراء القرون من وراء خمسة عشر قرناً أن الإمام العربي الهاشمي حفيدك هو منا نحن أهل البيت.

كما قال مقدم المؤتمر. طويت محاضرتي لأن المشرفين على المؤتمر محقون حين يطلبون الإيجاز في الكلام، كما أن أهل الكلام محقون أيضاً في الإطالة ليؤدوا ما يريدون من الكلام، وإنني لأحيي رجل العلم والفضل والانصاف الحقيقي الدكتور الاشتر لما قدمه هو من الحقائق وأخذه من التقصير في تاريخ الأدب العظيم، التقصير الذي عملت القرون المظلمة على إحكامه وعلى طي تلك الصفحات الرائعة من أدب أهل البيت وشعرائهم وكتابهم وجلسائهم.

وهناك شيء آخر أود أن أعلق به على ما قاله أستاذنا الكبير وإنّ الشعر العربي ينسب إليه إنه لم يصل في الشعر القصصي إلى ذروة ما وصلت إليه آداب الأمم في الشعر القصصي، وإنني أقول لكلّ مؤرخينا لو أنكم بحثتم في الأدب العربي لوجدتم أن الشعر القصصي هو في طليعة الشعر العربي، وأن الشعراء العرب والذهنية العربية لم تتأخر في غزو الشعر القصصي، بل نظم الشعر الملحمي إنه يتمثل في شعراء أهل البيت(ع)، إنني أقدم نموذجين من شعراء الأدب الملحمي العربي لا من شعراء الشعر القصصي العجمي وحده. إني أقدم السيد الحميّري أولاً هذا الذي بلغ الأساليب العربية المتكاملة بكل شروطها الفنية وبكل ما نتحدث عنه اليوم مقابل الأدب العربي من شروط أهمها أنهم يجسدونها في شعر السيد الحميّري، لقد نظم قصصاً متكاملة تجمع كل خصائص الشعر القصصي ولكن أدب السيد الحميّري يهمل ويُزرى به ويرمى والأستاذ الدكتور لن يعرف لماذا..

وأقدم شاعراً آخر متأخراً في طليعة شعراء الشعر القصصي الملحمي العربي هو هاشم الكعبي هذا الذي نظم روائع الملاحم العربية، هذا الذي كان من حقه أن يُدرس شعره في أول تاريخ الأدب العربي في مدارسنا الثانوية والجامعات العربية، ولكن هذا الشعر القصصي مهمل ورضينا مع الأسف أن ننسب إلى

التقصير ورضينا أن يقال أن قرائننا لم تصل إلى قرائن الآخرين، رغم الشعر القصصي، لأغراض وأغراض وأهملنا هذا.

لا نحنُ العرب في طليعة الأمم التي نظم شعراؤ ها الأدب القصصي، الشعر القصصي، الشعر الملحمي وهناك ملحمة شعرية، ملحمة حديثة بل غير بعيدة تجمع كلَّ شروط الملحمة هي الملحمة التي عرفت باسم القصيدة الأدبية التي هي ملحمة من أروع الملاحم في الشعر العالمي. هذه لو قدر لها من يلفت النظر إليها ويضعها أمام عيون الناس لرأينا أنَّ الشعر القصصي والشعر الملحمي العربي قد مشى مع القرون منذ بدء الشعر العربي وإلى العصر الحاضر.

إنني أحيي الدكتور من أعماق قلبي فهي الصرخة التي تنبعث من قلب عربي مؤمن مخلص، ونود لو تشمل جميع قلوب العاملين في مجال الأدب العربي وأن تنبعث من قلوبهم وأفواههم.

لا يدري الدكتور خطورة المقال، لا يدري عظمة المقال الآن، إنَّ هذا الذي قاله الآن شيء نجمل به ولا نستطيع أن نقوله كنا نخشى أن نتهم بتهم، كنا نخشى أن نفسر الأقوال بكل التفاسير، فجاء هذا الرجل العظيم أقول رجل عظيم بمقاييس معينة للعظمة، جاء هذا الرجل العظيم اليوم يفتح صفحة جديدة في الأدب العربي فحق له منّا التكريم وحق له منّا التعظيم وحق له منا بصفتنا عرب فقط، بصفتنا عرب نحرص على أدبنا العربي، على كيان أمتنا، نحرص على شرف أمتنا، نحرص على ترابنا، نحن عرب قبل كل من يدعي العروبة فعندما نقول ذلك وعندما ندعو إلى العناية بدرس الأدب القصصي العربي الملحمي إنما ندعو له كعرب مخلصين لأمتهم حريصين على أن تكون في مصاف الأمم الراقية وأن يكون أدبها في طليعة الآداب العالمية.

كما قلت سأطوي محاضرتي وأكتفي بشيئين اثنين مما يتعلق بالإمام الصادق(ع)، شيئين اثنين يرفعانه إلى أعلى درجات السمو أولهما تعريفه للتعصب هذا الذي خرب النفوس، خرب العقول، خرب التاريخ، بعث الفتن لا في الأفراد بل في المجتمعات، بل في الأمم حدد له إطاراً معيناً هو من أروع ما تحلم به الأمم قال: (**ليس من العصبية أن تحب أخاك**)، طبيعة الإنسان أن يحب أخاه، سواء أكان في النسب أو أخاه في الإنسانية، أخاه في كل مجالات الأخوة، ليس من العصبية أن تحب أخاك «**ولكن العصبية أن ترى شرار قومك خيراً من خيار غيرك**» هذا هو الذي بعث الفتن، هو الذي بعث الشرور، هو الذي خرب النفوس، هكذا حدّث الإمام الصادق وهكذا دعا.

وهناك شيء آخر أردت أن أتشرف وأن ألفت نظر الدكتور إليه هو أن التأليف في الحياة الإنسانية والعربية كان متوقفاً، أقول متوقفاً وأتحمل مسؤولية هذا القول. لم يكن هناك تأليف بالمعنى الصحيح حتى خلاف عصر الصادق، وإنصافاً مني للتاريخ أقول: إن محاولة جرت من قبل عمر بن عبد العزيز حاول أن ينشيء التاريخ حاول أن يدعو الأمة العربية والإسلامية بأن تكتب وتؤلف هذا إنصاف له، نحن ننصف

كل إنسان فنعطيه حقه، إن عمر بن عبد العزيز حفيد مروان بن الحكم إلا أننا ننصفه، فنحن لسنا كما يقال نحارب عائلة لمجرد حرب عائلية أو نحارب جماعة ما بذنب أحدهم، نحن عندما يأتي حفيد مروان بن الحكم بعمل عظيم ننصفه، فلقد دعا عمر بن عبد العزيز إلى التأليف ولكن لقصر حياته لم تنجح دعوته وبقي التأليف متوقفاً.

أنا أريد من مؤرخي الأدب العربي أن يستعرضوا التأليف منذ صدر الإسلام حتى عصر الإمام الصادق ليروا أنه لا نقول معدوماً بل شبه معدوم، لأسباب لا يوجد مجال لذكرها حتى جاء الإمام الصادق، جاء يدعو تلامذته وخريجيه والناس أجمعين، يدعوهم إلى الكتابة، إلى التاريخ، إلى التأليف كأن يقول لبعض تلامذته (**اكتبوا اكتبوا**) وكان يقول أيضاً: (**اكتب إنك لا تحفظ العلم إلا بعد كتابته اكتبوا ودونوا كتبكم لأبنائكم**) فانطلق تلاميذه يؤلفون ويكتبون فقامت حركة التأليف في العالم العربي، قامت بدعوة من جعفر الصادق(ع) وبدأ التأليف.

إن الحضارة الإسلامية والعربية هي حضارة العلم والفكر هي الحضارة التي قامت على هذا الخط وأعظم ركائزها هي الكتابة، إن حركة التأليف في العالم العربي وفي العالم الإسلامي دعا إليها الإمام جعفر الصادق(ع).

هذا ما أرجو من المنصفين أن يدرسوه بعناية فائقة وأن يؤدوا لصاحب الحق حقه.





الأستاذ عبد الفتاح قلعه جي

عطر النبوّة



اسقِ البسيطةَ من كروم سمائي فاليومَ مولدُ سيدِ الشفعاء

اليومَ تزحمُ بالمناكبِ أرضنا كتفَ النجومِ شديدةَ الخُيَلاء

الكونُ يرقصُ والملائكُ تعتلي هامَ النخيلِ المنصتِ المترائي

والطيرُ في الأعشاشِ تحلُم سُحْرةً وتعيدُ عندَ الفجرِ فضلَ غناء

وعلى الرمالِ الظامئاتِ إلى الحيا نَجْوى تردد فوقَ كل خباء

وصلتْ مَسامعَ قد غفَتْ فتيقظت وتلجلجتْ في الصدِّ والإبطاء

صدقَتْ نبوءتُهم وخابَ رجاؤهم أن سوف يُبعث سيدُ الحكماء

* * *



أقريشُ تكفيكِ الغوايةُ فانظري — نورَ الهدى ينداحُ في الصحراء
وتسمَّعي في الفجرِ ألحانَ التقى — وتَبيَّني في الصخب رَجْع ندائي
فلقد حملتُ إليكِ خمرةَ فكرتي — ممزوجةً بأزاهر وسناء
يا قاطعَ الصحراء عجّل بالسرى — فلقد تَرامى الكونُ تحتَ لوائي
وتمزقَتْ بالنورِ ألويةُ الدجى — واستُلَّ سيفُ مغمدٌ بقضاء
يا منشدَ الأمجادِ ما عُزِفَ الهدى — إلا على قيثارةِ النجباء
هذي الصحارى كم تغنَّت دعوةً — لله تُطلعُ زاهرَ الأسماء
من عهدِ إبراهيمَ تتلو سورة — تروي رياضَ الأنفس الحنفاء
واليوم تعلو في البيارى صيحةٌ — ويهزُّ عرشَ الشركِ صوتُ دعاء
هذا محمدُ باسماً في مهدهِ — ودروبُ مكّةَ منظر للرائي
والكائناتُ تزينت وتَراقصت — وأتت تجرُّ مطارفَ الخُيلاء
هذا لسانُ الحقِ يرفعُ صوته — فتلعثمي يا ألسُنَ الشعراء
وأبكي قريشُ اللات والعزى معاً — وبقيةَ الأربابِ قبلَ فناء
اليوم لا يُجدي النحيبُ فاقصِري — واليوم لن تجدي صديقَ عزاء
فامشي على الأشواكِ لا تتقرَّبي — من نبعةِ الأنداء عندَ خبائي
فيداكِ آثمتانِ لا تجدي هنا — نهلاً بكفٍ خُضِّبت بدماء

* * *

الركبُ فوقَ الرملِ ركبُ محمد — والصوتُ عندَ الفجرِ صوتُ حداء
والنورُ يُنشرُ في الدروبِ وينثني — متكبراً في خِفةٍ وصفاء
يا قِبلةَ التاريخِ ما سجَد النُهى — إلا بقبلةِ سيدِ البُلغاء



ومـراكـبُ الأيـامِ أرسـتْ ها هنـا ... في الـشـاطـىء المأمـونِ بعـد بلاء
كانـت تقـاذفُهـا الـريـاحُ وتـرتمي ... في لُجة الأمـواجِ رهـنَ تنـاء
ضوءُ المنـارةِ عادَ يبـسـمُ داعـيـاً ... للمـرفأ الـمـيـمـونِ صُنـعِ سماء
فكـفـى المـواخـرَ ضيعـةً وتخبطـاً ... إن الحـقـيـقـةَ قد بَدتْ بجـلاء

* * *

عِطـرُ الـنـبـوة في الأئـمـة سِرُّه ... والـسـادسُ المـخـتـارُ فيضُ سنـاء
ما زال كوثـره يفـيـضُ بيـائـه ... وجـداولُ الحـوزات وِرْدُ ظماء
من بحـرِ حوزتـه المـراكبُ أشرعتْ ... حمَلَتْ تراثَ الـنـورِ للأبـنـاء
وأكـادُ أبـصـرُ جعـفـراً في لحدِه ... حيـاً يقـودُ كتـيـبـةَ الـعـلماء

* * *

يا مُدلجـين الـليـلُ أحـكـمَ طوقَـه ... قدرٌ علينـا الـسـيرُ في الظلماء
سَقـطَ القنـاعُ عن العـداةِ وأطلعَتْ ... شوهُ الـوجـوهِ حوالـكَ الـبـغـضـاء
قتـلٌ وإفـسـادٌ بدعـوى أنهـم ... رُسُـلُ الـسـلامِ وملجأ الـضعفـاء
حتـمٌ على من رامَ من أعـدائـه ... قيـمَ الحـيـاة الـعـيشُ في البـلواء
داوودُ أدلَـج نجـمـةَ الـتـوارة ... والـتـلمـود كي يمتـدَ في البطْحـاء
وشعـوبُنـا انتبـذتْ هُدَى قرآنها ... فغـدتْ تفـاريـقَ الـنُـوى والـداء
الـفـكـرُ في ساحِ المـعـاركِ أولٌ ... وهـو الـنـجـاةُ لراكـب الأنـواء
إن كانتِ القـدسُ الـذبيحـةُ قصدكم ... أو مهـدُ عيـسـى أو دمُ الـشـهـداء
عودوا إلـى «الله أكـبر» إنها ... للمـسـلمـين بدايـةُ الاسـراء



الدكتور محمود العكام



المعقولية السياسية التاريخية لنظرية الإمامة عند الشيعة الإمامية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب الأرباب والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بالكتاب، وآله الأطهار الأبرار أهل الصواب.

ورضي الله عن السادة الأصحاب.

ولئن سبقني الشعر فلا زلت متأثراً به وحسبي أن أقدم بين يدي كلماتي بيتين أتوسل من خلالهما بالنبي وآله:

يا رب عبد قد أسى بفعاله وببذله قد مدَّ كف سؤاله
وأتى حبيبك طامعاً بنواله عبدٌ توسل بالنبي وآله

فبحقهم يارب لا تخزيه

أيها الأخوة هيجني وهيج فكري ما قاله بالأمس سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين إذ تحدث عن موضوعين أساسيين، أحببت أن أغامر في الحديث عنهما، أما **الموضوع الأول**: فلقد أثار قضية المعرفة

وقـال: هل المعـرفـة بذاتها تبر رذاتها، وهل المعرفة فوق الخير والشر أم أن للمعرفة معياراً أخلاقياً يحكمها، وأنـا أقـول: إن للمعـرفـة معيـاراً أخـلاقيـاً يحكمها بلا شك، هذا المعيار الأخلاقي هو قيمة القيم هو بكل اختصار عبادة الله وحده لا شريك له ولذلك قال الله عز وجل: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. ويروي الطبراني حديثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام يقول فيه: [إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله فلابورك لي في شمس ذلك اليوم].ولأن كان مؤتمرنا هذا حركةً معرفية فإن المعيار الأخلاقي الذي يحكمه هو ما نأخـذه من الآيـة التي سجلهـا منظمـو هذا المؤتمـر على بطـاقة الدعوة: ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾.

إذاً فالحـركـة المعـرفية التي تتجسد بهذا المؤتمر يحكمها سعي من أجل التناصر والوحدة واللقاء وربط الـوشـائـج، يحكمهـا أيضـاً صراحة ينبغي أن تكون بيننا لطالما أثرت التقيّة التي في غير موضعها على تبادل الأفكار فيما بيننا. وإني لأقول لا أدري بأيهما أُسَرّ بالحديث عن جعفر، أم بحضور المؤتمر وتداول الفكر مع أهل النظر..

إن المعيـار الأخـلاقي الـذي يحكم مؤتمـرنـا أيها الأخوة وحدةٌ أخذناها من كتاب الله كما قلنا فصّلتُها وألبَسْتُهـا لبـوس الأدب فقلت هيـا نعتصم مهتـدين بقـول الله تعـالى: ﴿واعتصمـوا بحبـل الله جميعاً ولا تفـرقـوا﴾، هيـا نلتحم ونحن نجهد في تحقيق أمر المصطفى عليه الصلاة والسلام [مثل المؤمنين في توادِّهم وتـراحمهم وتعـاطفهم كمثـل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر].
هيا نقتحم سدوداً بيننا أقامها عدونا ومُسلّمات ليس لها في دنيا الإسلام رصيداً بالعلم المَوْثِقِ والمُوْثَقْ وبالفهم المُحقِقِ والمُحَقَقْ ناظرين مقولة صاحب الرعاية في مؤتمرنا هذا الإمام الصادق رضي الله عنه: «اطلبوا العلم ولو بغوصِ اللُجَجْ وشَقِ المُهَجْ». هيا نغتنم بإقامة صِلاتٍ صادقةٍ بين قلوبنا ونتناسى واهم الأحقاد متأملين قول جعفر الخير(رض) وعليه السلام: «لا يرى أحدكم إذا أدخل على مؤمن سروراً أنه عليه أدخله فقط بل والله علينا بل والله على رسول الله(ص)».

وأما الفكرة الثانية التي طرحها سماحته بالأمس فلقد قال لماذا لا يدرس السني سنة الشيعة والشيعي سنة السنة وفعلاً انطلقت من هذه المقولة ورأيتها مبادرة منه طيبة، انطلقت منها لأبحث في أمرٍ أساسي عند الشيعـة من خلال نظـرة سني يرجـو من العـلي القـدير أن لا يجعل بينه وبين أي شيعي إلا رباطَ الأخوة التي عقـدهـا ربنـا عز وجل بقوله: ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ فلِمَ لا نجتمع والناس في آفاق الأرض يلمّون أنفسهم جماعـات، وينظمـون في مبـادىء ومـذاهـب ومـع أن معظم مبادئهم ومذاهبهم من صناعة المادة ولمعة خيوط الـدنيـا، فإنهم يرون فيهـا القوة ويظنون فيها العزة.. والأسلام أجدر أن يَلُمّ أهله ويجمع شمله. الإسلام صِلاةٌ ووشائج، والشمل لا بد بالإسلام مجتمع، والأهل بالإسلام لا بد ملمومون.

أيها الأخوة قبل أن أطرح القضية التي نظرت إليها وأنا السني إلى ما سجلته كتب الشيعة أحببت أن

أقول إن الوضوح ربح ولن يكون الرابح إلا الواضح والمجاملة على حساب الفكر مفسدة له **﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾** . مع الإعتقاد أن الاختلاف في الرأي في ما يحتمله النص المتفق عليه لا يفسد للودّ قضية بل يعمق الصلة ويزيد في أواصر اللقاء والاجتماع . أخذت موضوعاً أيها الأخوة أساسيا عند الشيعة الإمامية من خلال أربعة كتب ، قاطعت هذا الموضوع من خلال هذه الكتب الأربعة . مع كتابين لمؤلفين من أهل السنة ، هذا الموضوع هوالنص على الإمام الذي يقول به اخواننا الشيعة ، أما الكتب الأربعة التي جعلتها محل دراستي ومكان بحثي فهي الإمام الصادق قدوة وأسوة . لمحمد تقي المدرسي . والكتاب الثاني الإمام الصادق والواقع المعاش . لعبد الحسين القزويني ، وأما الكتاب الثالث فأشعة من بلاغة الإمام جعفر للشيخ عبد الرسول الواعظي ، وأما الكتاب الرابع فهو الكتاب المنسوب لجعفر عليه السلام مصباح الشريعة ، أما الكتابان اللذان أخذتهما لمؤلفين من أهل السنة فهما الأول : كتاب الإمام الصادق آراؤه وعصره وحياته . للشيخ محمد ابي زهرة ، رحمه الله وأما الثاني فكتاب جعفر بن محمد للشيخ عبد العزيز سيد الأهل .

وها أنا أيها الأخوة أُخرج أمامكم ببعض ما صدرت عنه من خلال هذين الكتابين وعبّرت أو وضعت عنواناً لذلك قلت فيه **المعقولية السياسية التاريخية لنظرية الإمامة عند الشيعة** من خلال ما ذكرت من مصادر. بعبارة أخرى هل يمكن أن يتعرف أهل السنة على ما يذكره علماء الشيعة من نصوص حول قضية النص على الإمام . هذا ما أريد بحثه ولذلك قلت قاصداً المعقولية كما يلي . أشرح المعقولية التي أقصدها فيما يخص المعقولية التي لم أردها مجردةً وإنما التشخيص فيها يأخذ بُعده من الإسلام بشكل عام نصوصه وفهومه ، وأردتها إضافة لذلك تتسع للنقل الذي اعتمده الإسلام ، فكان التوثيق له عبر العقل ، ووصفتها بالسياسية والتاريخية لأختصر فيها على ما يتعلق بقضية الحكم والحكومة أو بالجانب السياسي بالإسلام . طريقة وممارسة تنظيراً وتطبيقاً وما التنظير إلا النص ومفرزاته وفهومه واستنباطاته المحتملة . وما التطبيق إلا التاريخ والوقائع التي كانت محاولة لتنزيل النصوص فأصابت تارة في التحقق وأخطأت أخرى ، وحسبنا في ذلك أن نصرح لنقول المعقولية السياسية والتاريخية تعني المعيار الإسلامي النصي والتطبيقي ومدى انطباقه على المنظور الشيعي لمنظومة الإمامة بشكل عام وإمامة الصادق بشكل خاص(ع) .

أيها الأخوة أما المنظومة الفكرية لنظرية الشيعة في الإمامة فلقد لخصتها من أجل أن أتحدث عنها ، هذه المنظومة تقول من حيث ما قرأت ، **﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾** ، آية في كتاب الله حسمت تساؤ ل العقلاء لصالح الاختيار الالهي والاصطفاء الرباني حين وقع على فلان دون فلان ليكون نبياً أو رسولاً ، أوليس الذي اختار واصطفى حكيماً عليماً خبيراً بإقرار العقل وتوثيق النقل . إلا أن التساؤ ل يأخذ منحى آخر فلم يعد منصباً على المختار وإنما غدا يتعلق بالتوقف وعدم التعدي لمن بعد الرسول(ص) ، فهل الحكمة الربانية القابعة خلف الإصطفاء والتعيين في عالم الرسالة والنبوة غُيبت للذين أتوا بعدهم - بعد

الـرسـول والأنبيـاء ـ أم أنهـا لا تزال قائمة قيامها الأول أي في عالم الرسل والأنبياء، وإن لم نقل إنها فيها بعد النبـوة والـرسـالـة أظهر في ضرورة إبقاء واستمرار التعيين تطبيقاً لقول الله عز وجل: **﴿لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾**، وكان الشيعة يقولون في توضيح هذه الآية لكي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل أو من يقوم مقامهم من الأئمة ونتج عن ذلك، أن معرفة الإمام المنصوص عليه أضحت قاعدة أسـاسيـة في الإسـلام بالنسبة لهم بلا شك تساوي في أصلها فريضة معرفة الرسول عليه الصلاة والسلام، وإن كانت تختلف في وضعها وما يترتب على إنكار كل منهما.

وأرجع إلى كتاب أوائل المقالات للشيخ المفيد في الصفحة التاسعة والعاشرة لتلقى كلاماً حول ذلك وكأنني أخـذتـه منـه حرفيـاً لابـد إذاً من قائم مقام النبي في ميدان النبوة وذلك من خلال الإمامة وفي ميدان الحكـومـة من خلال الخـلافـة، أوما يعبر عنه اليوم بالسلطة الزمنية لأن النبي عليه الصلاة والسلام في دولة المدينة جمع بين النبوة والحكم واعتمد الثاني فكانت النبوة أُسّاً والحاكم حارساً، وهكذا الإمام فهو في حكمه يعتمـد على النبـوة وبـالفعـل هكـذا يقـولـون فقـد نص النبي(ص) على علي(ع) قائماً بعده إماماً وحاكماً وخليفة. ونص على بقية الأئمة الأثني عشر كذلك، وقام كل منهم بنقل النص الآخر عبر طريق الوصية، وهكذا تقول كتبهم.

أما في الواقع فلقد انفصلت الإمامة عن الحكم حين استلم الثاني الحكم أي أبي بكرالصديق(رض)ثم عمر ثم عثمان وعاد لينضم إلى الإمامة أي عاد الحكم لينضم إلى الإمامة في شخصية الإمام علي(رض)، وانتقلت منضمـة مجمـوعة فترة وجيزة إلى الحسن(رض) و(ع)، المنصوص عليه ضمن السلسلة ثم انفصل الحكم فاستلبـه ظلماً وجـوراً الأمـويـون والعباسيون، واستمر هذا الانفصال في كل عهود الأئمة رضوان الله عليهم، ولمـا كان الأمـويـون والعبـاسيـون مغتصبـين حق الحكم من الأئمـة إذاً فما عليهم إلا أن يزيدوا في اغتصـابهم من خلال التشـريـد والتنكيـل لهؤلاء حتى لا ينطلقـوا إليهـا أبداً بل إنهم إذا سئلوا عن القضية المتعلقة بهم لم يجيبوا وأخفوا ذلك على سبيل التقية وهنا يورد الشيعة على لسان جعفر الصادق(ع) (التقية ديني ودين آبائي)، هذه المنظومة الفكرية المتناسقة القوية ترد عليها أسئلة من خلال التقاطع الذي قمت به بين الكتب التي ذكرتها فكانت الأسئلة التالية:

من خلال الكتب تسأل الكتب الأخـرى إذا كانت القضيـة نصاً معروفاً مشهوراً يبين فريضة أسـاسيـة وينشؤ هـا فما بالنـا لا نراه منقـولاً عن تلامـذته الذين حضروا عليه وكان عددهم يربو على أربعة آلاف[(*)1]، وهل سمعه هؤلاء فأخفوه وكتموه تقية وهم الذين عهدناهم يجهرون بالحق ويسعون لأظهاره. ثم

(١*) لقـد نقـل الكثـير ون من تلامـذته من علماء الشيعة ذلك وهومذكور في كتاب الكافي، وربما لم يُنقل للآخرين انطلاقاً من بعض ظروف التقية الضاغطة آنذاك، مع ملاحظة أن كتب الأربعة آلاف لم تصلنا بأجمعها.

يقول الشيخ أبوزهرة إن الفترة الواقعة بين نقل الإمام الكليني لأقوال جعفر الصادق عن شيخين يروي عنهما وبين الإمام الصادق إن الفترة هذه تعد سبعين عاماً، لايقول الكليني ولا يذكر السلسلة[2*] التي توصل هذين الشيخين إلى الإمام جعفر الصادق. ويقول هو ويجيب نفسه: ولعل التواتر بين جعفر الصادق(ع) وبين الشيخ الذي يروي عنه الإمام الكليني لعل هذا التواتر تواتر شفوي وليس تواتراً كتابياً.

ومن العجب أيها الأخوة أني وجدت لكاتب من الفرقة الإثني عشرية أو الاثنى عشرية كلاماً يقول فيه وهو محمد يحيى الهاشمي في كتابه الإمام الصادق ملهم الكيمياء يقول في الصفحة الثالثة والخمسين بعد المئة: ليس عندنا حتى الآن تواتر واضح يوصلنا بالإمام الصادق، هذا ما نقله الإمام أبوزهرة أو الشيخ أبو زهرة ثم يتابع الأخوة المؤلفان الأسئلة ليوردوها فيقولون بالله عليكم انظروا ما ورد في مصباح الشريعة حديثاً عن النبي عليه الصلاة والسلام يحدد فيه صلوات الله وسلامه عليه الأئمة ويسميهم بأسمائهم، واحكموا انتم. هكذا يقولون على هذا الحديث وعلى امكانية أن يكون من مقولات الحبيب الأعظم عليه صلوات الله وسلاماته. أقول هذا الحديث بشكل سريع: جاء في مصباح الشريعة[3*] في الصفحة الثالثة والستين قال الصادق روي بإسناد صحيح عن سلمان الفارسي قال «دخلت على رسول الله(ص) فلما نظر إلي قال يا سلمان إن الله عز وجل لن يبعث نبياً ولا رسولاً إلا وله اثنا عشر نقيباً. قال قلت يا رسول الله عرفت هذا من أهل الكتابين. قال يا سلمان هل عرفت نقبائي الاثني عشر الذين اختارهم الله تعالى للإمامة بعدي. فقلت الله ورسوله أعلم. فقال ياسلمان خلقني الله تعالى من صفوة نوره ودعاني فأطعته، فخلق من نوري علياً ودعاه فأطاعه، فخلق من نوري ونور علي فاطمة ودعاها فأطاعته، فخلق مني ومن علي ومن فاطمة الحسن والحسين فدعاهما فأطاعاه، فسمانا الله تبارك وتعالى بخمسة أسماء من أسمائه تعالى فالله تعالى هو المحمود وأنا محمد، والله العلي وهذا علي، والله الفاطر وهذه فاطمة، والله ذو الإحسان وهذا الحسن، والله المحسن وهذا الحسين.

اعذروني أيها الأخوة فأنا أنقل التقاطع. يقولون لا يمكن إذ اللغة في هذا الحديث ضعيفة فأين

(٢*) لوكان الشيخ أبوزهرة مطلعاً على كتاب الكافي لرأى أن صاحبه يذكر سلسلة السند بينه وبين الإمام الصادق(ع) ولكن يبدو أنه اعتمد على كتاب آخر ينقل عن الكافي، بشكل مختصر.

(٣*) لم يثبت نسبة مصباح الشريعة إلى الإمام الصادق(ع) وقد جاء في كتاب أعيان الشيعة ج١ ـ طبعة دار التعارف ص ٦٦٨:

قال: ولكن المجلسي في مقدمات البحار قال: أن فيه ما يريب اللبيب الماهر وأسلوبه لا يشبه سائر كلمات الأئمة وآثارهم.

وقال صاحب الوسائل في آخر كتاب الهداية الثالث: ما ثبت عندنا أنه غير معتمد فلذا لم ننقل عنه فمن ذلك كتاب مصباح الشريعة المنسوب إلى الإمام الصادق(ع) فإن سنده لم يثبت، وفيه أشياء منكرة مخالفة للتواتر.

وقال صاحب رياض العلماء عند ذكر الكتب المجهولة: ومن ذلك مصباح الشريعة في الأخبار والمواعظ، كتاب معروف متداول (إلى أن قال) بل هو من مؤلفات بعض الصوفية كما لايخفى.

العلاقة بين فاطر وفاطمة، أين العلاقة بين فاطر وفاطمة ولقد ورد في حديث يرويه الترمذي: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: [يا علي أتدري لِمَ سميت فاطمةُ فاطمة. قال لِمَ يا رسول الله. قال يا علي لأن الله فطمها وذريتها عن النار]. إذاً ليس هناك علاقة بين الفاطر وفاطمة. هكذا يقول أولئك الذين يعترضون على هذا. أيضاً حينما نجد حديثاً يذكره السيد عبد الحسين القزويني في كتابه الإمام الصادق والواقع المعاش في الصفحة السابعة عشر عن النبي(ص) [إذا وُلِدَ ابني جعفر ابن محمد ابن علي ابن الحسين فسموه الصادق فإنه سيكون في ولده سميٌ يدعي الإمامة بغير حقها ويسمى كذاباً].

يقول أولئك الذين يعترضون في هذا التقاطع من هو الكذاب ومن الذي سميّ جعفراً فقام بالكذب. لم يذكر مؤلفنا ذلك الذي سيسمى كذاباً. وهل بالنقول بالنص على الإمام جعفر من قبل النبي عليه الصلاة والسلام. وما وجد على سبيل المثال من حيث الكتاب لا من حيث المجموع في كل ما جمعه الشيخ عبد الرسول الواعظي في كلام ورسائل ومواعظ للصادق في كتابه أشعة من بلاغة الصادق(ع) ذكراً لنص على إمامته وأنه منصوص عليه باسمه ونسبه من قبل المصطفى(ع) اللهم إلا ما ورد في الصفحة الخامسة عشر.

حين نقل عن الإمام ضرورة معرفة الإمام الذي نأتم به فقال: «وبعد فريضة معرفة الرسول تأتي فريضة معرفة الإمام»، فلم يقل من هو ذلك. هذا الكلام الذي قاطعنا به بين الكتب حملني أيها الأخوة لأقول واسمعوا مني وأرجو أن أكون مجتهداً متواضعاً لأخواني أهل السنة في ما يخص الإمامة وبعد ذلك أترك الأمر لحكمكم، أنا أقول استغفر الله على سبيل القصر أقول أنا ليس على سبيل المد، أقول هل يمكننا أن نجتهد في الإمامة من خلال نظرة سنية في عالم الشيعة، الإمامة اصطفاء إلهي في النهاية تتجلى من خلال الواقع من خلال النص من خلال العلم والفهم والدعوة والجهاد ومحلها الأوسع الذي تنبثق عنه هو العترة النبوية الطاهرة، استناداً للحديث القائل **[إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله وعترتي]** وهذا الحديث يرويه الترمذي، ولئن وردت رواية أخرى تقول حسبما جاء في موطىء الإمام مالك «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة رسوله» فإن حمل الرواية الثانية على الأولى هو الأولى، فأولى الناس بفهم السنة والكتاب العترة النبوية، ومنها من العترة النبوية يظهر الأئمة الذين يُقنعون الناس بإمامتهم من خلال التميز العلمي والفقهي والفهمي، إضافة للإصطفاء النسبي الذري. وقد ظهر فعلاً أئمة من هذه العترة الطاهرة على رأسهم الإمام علي(ع) وكرم الله وجهه، الذي قال عنه عمر(رض) (لولا علي لهلك عمر). وكان (يردد أيضاً قضية ولا أبا حسن لها)، ثم تتابع هؤلاء .الأئمة (رضي الله عنهم) فكان منهم الحسن أيضا والحسين وزين العابدين والباقر وجعفر الصادق(رض) (وعليهم السلام). لكننا في نفس الوقت نتحرز من ضرورة انضمام الخلافة إلى الإمامة في شخص الإمام فقد يكون الخليفة هو الإمام أو من يرضى عنه الإمام أو الأئمة، وهم الذين يتبعون الإسلام في رضاهم وسخطهم.

بهذا نقر بخلافة الصديق وعمر وعثمان(رض)، فالإمام علي رضي بهم في النهاية. وكذلك نبعد الظلم والجور عن بعض الخلفاء الذين حكموا فعدلوا وعرفوا للأئمة مكانتهم فسعوا لإرضائهم والتشفع بهم وبذريتهم. ومن هؤلاء على سبيل المثال عمر بن عبد العزيز(رض) ويذكر صاحب فضائل أهل البيت المقريزي أن عمر(رض) دخل عليه رجل من ذرية الحسن فقام إليه وأخذ ببعض جسمه وعركه هكذا عركة فقال: هكذا أردت من أجل أن يذكرني دائماً ومن أجل أن يذكرني يوم القيامة ليكون لي شفيعاً عند الله عز وجل.

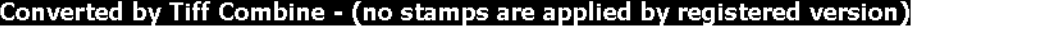
فإن احتج محتج على عدد الأئمة الاثني عشر بحديث رواه الإمام مسلم والإمام مسلم هو من المصادر العليا لدى السنة والذي يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام: [**لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش**] وحديث آخر روي في نفس المصدر يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام: [إن هذا الأمر لا ينقضي حتى يمضي فيهم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش]، وصحيح مسلم مصدر سني. اجبنا بأن الرسول عليه الصلاة والسلام، أي نجيب على هذا التساؤل، أن النبي(ص) قال اثنا عشر خليفة ولم يقل إماماً، وذلك يدل على أن المراد هو الحاكم صاحب السلطة الذي يرضى عنه الإمام في عصره أو الأئمة وبقية عقلاء الأمة من المسلمين. ومن هؤلاء كما قلنا الخلفاء الراشدون نعم نريد للإمامة الاستمرار ليبقى الإمام داعم الخليفة المرضي وليستمر التطلع إلى الذرة النبوية والعترة المحمدية على أنها الحاضنة للإمامة إلى يوم القيامة، ومنها تبقى الفهوم والعلوم مشعةً منيرة، فهل هذا مقبول.

وإذا ما أصلنا عصر الصادق على هذا قلنا: إن الصادق هو الإمام في عصره بلا شك وما أروعها من أيام لو أنه حكم واستلم الخلافة التي تعني السلطة مع الإمام، أما وأنه لم يستلم فإننا ننظر من رضي عنهم من الخلفاء وقد عاصر كثيرين عددنا حكمه غير خارج عن المعيار الشرعي ومنبثقاً عن الإمامة مستنداً إليها فهو الذي أرادها في عبد الله المحض على سبيل المثال ابن الحسن المثنى ـ إذ قال له كما أسلفنا ـ أمدد يدك أبايعك إذا رضي الإمام جعفر عن خليفة اعتبرنا خلافة هذا المرضي عنه من قبل الإمام أو الأئمة اعتبرنا خلافته مقبولة.

أخيراً يشفع لنا في هذا أن الإمامة من الظنيات في الدلالة حتى عند الشيعة كما رأيت في هذه الكتب. فليقبلوا هذا الرأي للمدارسة ضمن المحتملات ونرجو ملحين في الرجاء أن لا يعتبروا ذلك خروجاً عن عالم الأخوة التي عقدها ربنا بيننا وبينهم فقال: ﴿**إنما المؤمنون أخوة**﴾ وليعلم الجميع أن الجميع متفقون على آل البيت في القرن العشرين إلا ما يشاء التاريخ أن يسجل ويكتب.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته







برنامج اليوم الثالث من مؤتمر الإمام جعفر الصادق(ع) الدولي
السبت ١٩/ ربيع الأول/ ١٤١٢هـ - ٢٨/ ٩/ ١٩٩١ م

الجلسة الختامية الساعة ٤,٣٠ عصراً

١ ـ تلاوة القرآن الكريم .
٢ ـ سماحة الشيخ زيدان الغزالي (سورية) .
٣ ـ الأستاذ عز الدين سليم (العراق) .
٤ ـ د. وجيه فانوس (لبنان) .
٥ ـ د. محمد سعيد رمضان البوطي (سورية) .
٦ ـ سماحة آية الله الدكتور الشيخ واعظ زاده خراساني (إيران) .
٧ ـ د. حسن جابر (لبنان) .
٨ ـ كلمة الختام لسماحة الشيخ محمد حسن أختري سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق .



الشيخ زيدان الغزالي



الجهود التغييرية عند الإمام الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله ولا توكل إلّا عليه والحمد لله ولا ثناء إلّا له والصلاة والسلام على سيّدنا محمد رسول الله وعلى آله ومن والاهم ووالاه.

أيها الأخوة الأكارم السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. خالص الشكر للمستشارية الثقافية لجمهورية إيران الإسلامية على سعيها الدؤوب في تحريك الفكر وضخّه في العقول من خلال نشاطاتها المتدفقة على مدار الأيّام والشهور والأعوام.

أيها الأخوة:

عندما شرعت بالكتابة عن الإمام الصادق عليه السلام تصاغر القلم بيدي وصغرت أمام نفسي وأنا في غمرة الحيرة وأمواج علمه تطوح بي من لجه إلى لجه فماذا عساني أن أحيط بشيء من هذا الفجاج الواسع سعة العبقريات المتفتحة على كل جوانب الحياة، وبعد التردد والحذر تمالكت نفسي وعزمت على أن أقف

على شاطىء خليج صغير من خلجان بحار الصادق الفكرية فأكتب فيه ما أسعفني البيان وأعانتني عليه الجرأة ثم اخترت آية من كتاب الله كان الإمام سلام الله عليه يتحرّك في خطها من جهة أنها تركز منهجية وحيدة لنشدان الخير في حركة التاريخ البشري وهي قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾.

والذي حبب إليّ هذا الاختيار ثبات الإمام في مواقع تغيير ما بالأنفس كلّما كان يستجر إلى اعتساف الوسائل لتغيير ما بالقوم مدركاً أن تغيير ما بالأنفس من مهمة الإنسان وهو السبب لتغيير ما بالقوم الذي هو وعد من الله ولن يخلف الله وعده.

إن الإمام سلام الله عليه شهد في حياته مفصلاً من مفاصل التاريخ شهد انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العبّاسية مما يوحي بوجود فوضى سياسية في الأمة من شأنها أن تغري الكثير من الطامعين في الحكم بالتحرّك والململة السياسية لا سيما وأن الحكم المتقوض قد استهلك نفسه وانكشف عواره وأن الدولة الصاعدة قد تحرّكت خلف شعارات وعناوين تقحم الإمام الصادق عليه السلام في خضم الأحداث الانقلابية لكن الإمام سلام الله عليه لم تستخفه هذه الظروف التي بدت مواتيه في ظواهرها بل ظلّ في دائرة الحكمة المتعقلة يرصد الأحداث بعين بصيرة.

أيها السادة الأعزاء لا بدّ لنا من إلمامة قصيرة بما آلت إليه حال الأمة في ظل القيادة المنحرفة من أجل أن ندرك أن منهج الإمام مما لا يسعه تركه أو تبديله.

إن الشيخ أبا حامد الغزالي شبه الحاكم بالسوق والأمة تتاجر مع حاكمها كما يجلب التاجر البضاعة الرائجة في السوق فإذا كان لا يرضى الحاكم إلاّ الصدق فإن الأمة تتخلق بأخلاق الصدق وإذا كان لا يرضى الحاكم إلاّ التملق والنفاق كثر المتملقون والمنافقون وإذا صحّت هذه القاعدة والناس على دين ملوكهم فإن الأمة وأقصد بالأمة غالبيتها قد تخلّقت بأخلاق حكّام بني أمية فالحاكم منهم الذي كان همه الطعام والشراب تقلده الأمة فتمسي وتصبح وحديثها الموائد والحاكم منهم الذي همه المزارع والضياع تقلده الأمة فتمسي وتصبح وحديثها الممتلكات وإذا حدّثنا التاريخ عن نماذج متباينة ممن تعاقبوا على القصور علمنا أن الأمة قد تقلبت في أحضان الضلا ل والفساد وفي شتّى مستوياته وألوانه وإليكم بعض ملامح هذا الفساد ومن عالم الأدب والشعر فقد روى ابن الكلبي أنه لّما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبدالعزيز(ر) وفدت إليه الشعراء كما كانت تفد على الخلفاء من قبل فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم بالدخول حتى قدم عدي بن أرطاة وكان من بمكانه فتعرّض له جرير وقال:

يا أيها الرجل المزجي مطيته	هذا زمانك إني قد خلا زمني
أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه	أني لدى الباب كالمشدود في قرنِ
لا تنسى حاجتنا لاقيت مغفرة	قد طال مكثي عن أهلي وعن وطني

فلمّا دخـل ابن أرطأة على الخليفـة قال يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وألسنتهم مسمومة وسهامهم صائبه فقال عمر(ر) مالي وللشعراء فقال يا أمير المؤمنين إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مدح فأعطى وفيه أسوة لكل مسلم قال صدقت فمن بالباب منهم قال ابن عمك عمر بن أبي ربيعة فقال لا قرّب الله قرابته ولا حيّا وجهه أليس هو القائل :

ألا ليـتـني في يوم تدنـو منـيـتي شممـت الـذي ما بين عينـك والـفم
ويـا ليـت سلمى في الـقبـور ضجيعتي هنـالـك أو في جنـة أو جهـنـم

ثم قال فمن بالباب غيره قال جميل بن معمر العذري قال والله لا يدخل عليّ أبداً إليس هو القائل :

ألا ليـتـنـا نحـيـا جميعـاً فإن نمت يوافي لدى المـوت ضريحـي ضريحـهـا
أظـلّ نهاري لا أراهـا وتـلـتـقـي، مع الـليـل روحـي في المنـام وروحـهـا

ثم قال عمر فمن بالباب غيره قال ابن أرطأة كثير عزه قال والله لا يدخل عليّ أبداً أليس هو القائل :

رهـبـان لديـن والـذيـن عهـدتهـم يبـكـون من حذر الـفـراق قعـودا
لو يسـمـعـون كما سمعـت حديثـهـا خرّوا لعـزه ركـعـاً وسـجـوداً

حتّى عدّد الكثير من الشعـراء وأمير المؤمنين لا يأذن لأحـد منهم لكثـرة سوابقه المخزية ومن هذه الـروايـة يبـدو أن شريحة واسعة من الشعراء قد احترفوا التسوّل والتسكع على أبواب القصور يهينون رساله الأدب والشعـر ويـزرون بالكلمـة ليجعلوهـا رسـول أطماعهم إلى مال الأمة الذي عبثت به أهواء الحكّام ونـزواتهم فقـد رُوي أن هشام بن عبد الملك قد ترك بعد موته أثني عشر ألف قميص وعشرة آلاف تكة حرير وحملت كسـوتـه لما حج على سبعـمايـة بعير وترك أيضاً بعد وفاته أحد عشر ألف ألف ديناراً ولم تأتِ دولة بني العبّاس إلاّ وجميع أولاده فقراء وذلك خلال مدة سبع سنوات فقط وهكذا نـرى أن مال الأمة لم يكن أحسن حالاً من أدبها إذ أن الفساد في المجتمع ينسحب على كل جوانب الحياة نظراً لترابط وتشابك جوانب الحياة الإنسانية .

أيّهـا الأخـوة الأكـارم ما الـذي سيفعله الإمـام الصـادق سلام الله عليه والخط البياني لمسيرة الأمة في انحـدار شديـد وبعـد العهـد بينها وبين حياة الروح وتجاوزت مرحلة الحياة العقلية التي يطغى عليها منطق المعاوضه وبدأت المرحلة الغريزية تقلد فيها الرعية راعيها .

ماذا سيفعل الإمام ومد الظلم لا يزال في عنفوانه وعيون الظالمين ترصد من كل حركة وتحاسب على الشبهة حساب من لا يرجو لقاء الله أبداً إنه البطش والتنكيل والتشريد والتعذيب ذلك الذي يغلق النفوس على أحقادها وأن من بعض طبائع الناس إذا طالت فترة الذل استمرأه وربما انقلب الحقد الغائر في أعماق النفوس إلى نوع من الإجلال والحب للظالمين لكن مشيئة الله تعالى قدرت ألاّ يتجمد التاريخ وأن تكون

المدافعه من أجل تحريكه ومن خلال الحوادث التاريخية المتدفقة اتخذت المدافعة أشكالاً ثلاثة :

أولاً : الطريقة الإصلاحية الترميمية ولم تثبت جدواها إلاّ بشكل نسبي ولن تكون إلاّ بأيدي الذين يملكون القرار والقوّة على تنفيذه فهم كلّما تصدّع جانب من المجتمع رمّموه بتكاليف أكثر من تكاليف التصدّع وكانوا كمن يلتجىء من الرمضاء بالنار.

ثانياً : الطريقة الانقلابية أو النهج الثوري ومن لوازمه كثرة الضحايا واختصار الزمن وفي النهاية الموت الانتحاري ولا تصدر هذه الطريقة إلاّ عن استعجال متهور وعجز عن سلوك المراحل المجدية في معالجة الأمور كالأب الذي يضيق صدره بتربية أبنائه وما تتطلبه من قدوة طيبة وعاطفة صادقة ومنهجية متكاملة فيستعيض عن كل ذلك بالزجر والعنف.

وكذلك معلم الأطفال عندما يفشل في الارتقاء بهم علمياً وخلقياً لا يجد إلاّ الغضب والعصا في فرض النظام الذي كان يجب أن ينبع من أعماق نفوسهم.

ورحم الله الجاحظ حينما قال إنما حياة الحلم بالعلم فالعلم بالمقدمات يوصلك إلى النتائج دون خسارة في الأناة وهدوء الأعصاب.

وأمّا الشكل الثالث فهو طريقة التغيير وهي النظرية القرآنية السديدة في التعامل مع الإنسان من أجل تصميم بنائه النفسي أولاً وفي هذا الاتجاه يذكر صاحب الظلال أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن خلال منهجية القرآن قد ركّز على البناء النفسي ومعالجة الفطرة بالوسائل الصحيحة ليشيد عليه البناء الاجتماعي. لقد كانت حال العرب في بداية البعثة تشهد انحطاطاً في الأخلاق وكان بإمكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعلنها ثورة أخلاقية ولو أعلنها لوجد الأعوان والأنصار ولاختصر المسافات ووفر الجهد ولكنه يعلم أنه ليس هذا الهدف وكان العرب مستعمرين من الروم والفرس فلو أعلنها ثورة قومية لاستجاب له الكثير. وكانت الحياة الاقتصادية مضطربة ولو أعلنها ثورة اقتصادية لاتبعه الكثير لكنه كان يعلم أن البداية غير كل هذا إن البداية هي تغيير المرتكزات النفسية والفكرية والعقائدية وأن الطريق طويلة وشاقّة وعسيرة لكنها الطريق الواصلة وما إن تمّ له ذلك حتى حلّت جميع العقد فاستقامت الأخلاق وتحرّر العرب من هيمنة الروم والفرس وساد العدل والتكافل الاجتماعي وأمحى الفقر وانتشر الأمن والسلام.

وهذا أستاذنا الشيخ جودت سعيد حفظه الله قد ألّف كتاباً كاملاً وأسماه حتى يغيروا ما بأنفسهم وهو من أنقى الكتب وأجداها تدور فصوله حول هذه الاستراتيجية القرآنية المرتكزة على مشيئة الله التكوينية في عالم الماديات والمعنويات على حد سواء تلك المشيئة التي جعلت السننية تحكم حركة المادة والإنسان من أجل أن يصح في عقل الإنسان شرعية المشيئة التكليفية التي تجعل من الإنسان مسؤولاً عن إعمار الحياة في الدنيا وعن عمله في الآخرة إذ كيف يعقل أن يطلب إلينا الخالق عزّ وجل أن يتعبدنا بإعمار الحياة وسيادة الحق إذا كان يحول بيننا وبين ذلك عبثيه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أيّها الأخوة الأعزاء لا يليق برجل كالإمام جعفر الصادق سلام الله عليه أن تغيب عنه هذه المنهجية وهو في اعتقادنا معصوم مسدد بل كانت هذه المنهجية كما يبدو من خلال الإطلاع على حياته الفكرية المحور الذي تلتقي عنده آراؤ ه ومواعظه وطموحاته لقد كان في مواجهة الإمام سلطه طاغية وجماهير لا مبالية وكان عليه من أجل استئناف التجربة الإسلامية أما أن يواجه السلطة الطاغية بمنهج سياسي حيث تغلّب عليه لغة الشعارات ولغة السلاح وأمّا أن يواجه الجماهير اللامبالية بلغة التربية والتثقيف وإيقاظ الأرواح وتنوير العقول من أجل إرساء الأصالة الفكرية والثقافة العقائدية وبناء الفرد بناء إسلامياً صحيحاً. أمّا السلطة الطاغية فتدخل بدائرة ما بالقوم حيث قيل كما تكونوا يول عليكم وأمّا التربية والروح والعقول والأصالة الفكرية والمحتوى النفسي كله فيدخل في دائرة ما بالأنفس إذن المسألة كيف تكون الأمة في روحيتها وعقليتها وأخلاقها من أجل ضمان قمة قيادية مخلصة من خلال علاقة سببية تربط النتائج بالمقدمات لا بدّ أن هذه المسألة مسألة تغيير المحتوى النفسي والفكري للأمة هي التي دارحولها اهتمام الإمام الصادق عليه السلام من خلال عمق نظرته السننية في حركة التاريخ والمجتمع ليلغي السبب الذي أفرز النتيجة فارتبطت به ارتباطاً اقترانياً.

لذلك الإمام عليه السلام أوقد مشاعل العلم وفجّر ثورة الفكر وافتتح جامعته وبدأ طلّاب العلم من كل أنحاء العالم الإسلامي يتوافدون إلى مجلس الإمام يتزودون من المعارف والعلوم بشتّى فروعها وتخصصاتها ويتلقون التربية العالية من منابعها الصافية ومعينها الدفّاق من شخصية الإمام وسيرته التي كانت تجسيداً عملياًلكل الفضائل الإسلامية.

أيها الأخوة الأعزاء لقد أدرك المستكبر ون بعد أن فشل سلاحهم في قهر إرادة الشعوب أدركوا دور الفكر في استعباد الشعوب فرحلت جيوشهم المدججة بالسلاح لتحلّ جيوشهم المدجّجة بالأقلام ليقتلوا بها الإيمان ويخربوا بها الإسلام مستعينين بسماسرة الغزو الفكري الذين ألبسوا الحق بالباطل فميعوا العقائد ودمّروا الأخلاق وزرعوا في نفوسنا عقدة الضعف والهزيمة وكذلك أدرك الطغاة دور الفكر في استعباد الشعوب فامتلأت الأسواق بالأدب الرخيص وامتلأت البيوت بالأعلام الخبيث الذي يقتل في الإنسان روح العزة ومشاعر التمرد والتحدّي ولم يدرك المسلمون وللأسف الشديد دور العلم في مناهضة الباطل ومنازلة الطغيان وراحوا يجتر ون أحفادهم من خلال سلبية في المواقف وعطالة في الإرادة وربما كانوا في أحسن حالاتهم ينشؤ ون الأحزاب السياسية ويطلقون الشعارات أويتورطون في العنف السياسي ويمنون بالنكسة تلو النكسة والهزيمة بعد الهزيمة ولو أنّهم نهجوا نهج الإمام الصادق فعبّؤ ا الطاقات الفكرية والروحية وغرسوا القيم والفضائل في النفوس وتمكّنوا من نشر الوعي والثقافة واصطلحوا مع الله سبحانه وتعالى لأصلح الله ما بينهم وبين حكّامهم.

والآن أيها الأخوة الأعزاء لا بدّ من ذكر الجهود التغييرية التي بذلها الإمام عليه السلام وهويتوجه إلى

سواد الأمة مربياً ومعلماً يبتغي الارتقاء بها من السفوح إلى القمم ومن البا بلة الفكرية والعقائدية والأخلاقية إلى صفاء العقيدة وسماحة الأخلاق الإسلامية الرفيعة.

ففي مجال العقيدة كان عليه السلام يعتبر معرفة الخالق أسمى المعارف ويحض على معرفة أركان العقيدة فيقول (أحسنوا النظر فيما لا يسعكم جهله وجاهدوا في طلب معرفة ما لا عذر لكم في جهله فإن لدين الله أركاناً لا تنفع من جهلها شدة اجتهاده في طلب ظاهر عبادته إن الإمام هنا يضع أصبعه على الداء العضال وهو التمسك بظاهر العبادات والاجتهاد بها مع اغفال جذورها في عمق الوعي الإنساني وماتعكسه هذه العبادات من ايحاءات ومشاعر إلى عمق الوجدان وإلى عمق الذهنية وكيف أن هذه العبادات تصوغ الإنسان صياغة خاصة عندما يتفاعل الإنسان مع مفرداتها المختلفة ولعلّ الذي حمل الإمام عليه السلام على التركيز على العقيدة مع أنّها منطلق الدعوة وغايتها هو الأجواء العامّة التي ساهمت في تلوث البيئة العقائدية للأمة وشهدت ظهور اتجاهات في الإلحاد والزندقة على المستوى النظري وانقلاباً على الأعقاب على المستوى العملي لذا نقرأ كثيراً أقوالاً للإمام في التوكل وفي الرزق والحياة والخوف والرجاء والنفاق والتفكر والغضب لله والشرك والذكر والإخلاص والآخرة والإيمان والشكر والصبر إلى آخر مفردات الإيمان وفي مجال الأخلاق ركّز الإمام عليه السلام بكل ما أوتي من حكمة وبيان على تزكية النفوس وتطهيرها من كل رذيلة عملاً بقول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم [إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وإن هذا الدين لا يزينه إلّا السخاء وحسن الخلق فزيّنوه بهما ما صحبتموه] ولقد غاص الإمام في كل مسارب النفس الإنسانية والتواءاتها يبيّن منافذ الشيطان إليها محذراً.

ويبيّن جمال الفضائل مرغباً تعينه في ذلك سيرته الحميدة والتزامه الكامل بكل ما يقول وترجمته الحية لكل الكمالات الإنسانية التي استهدفها الدين في غاية وجوده.

فنصح الإمام وأوصى وعلّم وله من الأقوال المأثورة في التواضع والوقار واللهو وآفات اللسان والجود وغنى النفس والغضب والعجب والعشرة والظن والصدق والزهد والسخرية والحلم والجار والحسد والبخل والإلفة له في كل ذلك كلام له صوله في الضمائر وفي مجال الفقه ما تكلم وسيتكلم به أهل الاختصاص للإمام مفخرة أرساء مذهب فقهي صافي المنابع عذب المناهل لا تجد فيه عوجاً ولا أمتاً وفي مجال العلوم المختلفة شهدت جامعته شتّى التخصصات العلمية مما تحتاجه الأمة في ذلك الزمان وفي مجال الفلسفة والأدب والسياسة كان له الباع الطويل مما جعل الكثير من أعلام الأمة يشهدون له بالسبق المطلق وإن كان موسوعة علمية لقد ملأ الدنيا بعلمه وتخرّج على يديه العلماء وستظل تركته الفكرية المورد العذب الذي يرتوي منه العرفانيون والفقهاء وطلّاب الآخرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وستظل قلوبنا خافقة بحبه وعقولنا مستنيرة بعلمه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الأستاذ عز الدين سليم



الحركة التغييرية عند الإمام الصادق (ع)

ضوابطها ـ معالمها ـ مصاديقها



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـد لله الـذي منّ علينـا بمحمـد صلى الله عليه وآله وسلم دون الأمم الماضية والقرون السالفة، والصلاة والسلام على محمد أمين الله على وحيـه، ونجيبـه من خلقه وصفيه من عباده، إمام الرحمة، وقـائـد الخـير ومفتـاح البركة[1] وعلى آله الطيبين الطاهرين (أزمة الحق، وأعـلام الدين، وألسنة الصدق)[2] و(شجرة النبوة، ومحط الرسالة، ومختلف الملائكة ومعادن العلم، وينابيع الحكم)[3].

والسلام عليكم أيها السادة المؤتمرون ورحمة الله وبركاته..

وبعـد..

فمن خلال المتابعة لسيرة حفيد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الإمام أبي عبد الله جعفر ابن محمد الصادق

عليه السلام تتكشف خطة عمل اصلاحي واسعة، غنية في مضمونها وشكلها، حية في أهدافها غضة في أساليبها وأدوات عملها . .

وهي لا تشكل تراثاً يأنس المتتبع التاريخي في قراءته واستنطاقه كما يتعامل مع التراث الحضاري أو الأدبي أو ما إليه، وإنما تحمل تجربة الإمام الصادق عليه السلام بين جوانبها الخير والعطاء والخصب وتقدم لأجيال المسلمين أطروحة عمل اجتماعي وثقافي وسياسي متكاملة تغني المسيرة وتلهم السائرين وتهدي الصالحين العاملين . .

وفي هذا البحث الذي أسميته (الحركة التغييرية عند الإمام الصادق عليه السلام) التقيت مع معالم راسخة لهذه التجربة الرائدة أوجزها بين أيديكم إيجازاً، على أن هذا البحث قد بسط الحديث في تلك المعالم، وإن لم يدَّعِ أنه قد أحاط إلّا بالجوانب العريضة البارزة من حركة الإمام التغييرية :

فما هي تلك المعالم الأساسية للتجربة الاصلاحية الكبرى التي انتهجها صادق أهل البيت عليهم السلام؟

١ ـ توطئة :

حين يطلق مصطلح الحركة التغييرية عند أي إمام من أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام، فإنما يراد بذلك مجموعة الفعاليات والأعمال التي باشرها الأئمة عليهم السلام باتجاه تغيير مفاهيم الناس وأفكارهم وحركتهم في ضوء قيم الإسلام ومفاهيمه وأحكامه . .

وفي مقدمة هذه العملية التي يباشرها الأئمة(ع) من أجل تعبيد الناس لله رب العالمين وتلوين حياتهم بصبغة دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده . . أقول في مقدمة هذه العملية الكبرى تأتي الخطة والبرنامج المتبنى في ضوء تعاليم الإسلام لإقامة الحدود وإشاعة المعروف وإرساء قواعد الدين الحق في إطار الظروف الاجتماعية والسياسية والعقلية التي يعيشها الناس في عصر أي إمام من أئمة أهل البيت(ع) .

وفي ضوء هذه الحقيقة فإن الحركة التغييرية من ناحية المهام والطموحات والمصاديق قد تتبدل من إمام إلى آخر تبعاً لطبيعة المراحل والظروف التي يعيشها كل إمام من الأئمة، بل إن الإمام الواحد قد يمارس مجموعة من النشاطات والبرامج تخطيطاً وتنفيذاً حسب الظروف المحيطة به وما يستجد من أوضاع سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو نفسية أو عقلية تحيط بالإمام عليه السلام .

هذه اشارات من السيرة المطهرة تعطي ضوء حول هذه الحقيقة :

أ ـ يرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لواء الدعوة والجهاد عبر عدد من المراحل لخصها أحد المؤرخين المسلمين في العبارات الآتية :

(أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى ، أن يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك أول نبوته ، فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ثم أنزل عليه ﴿يا أيها المدثر ، قم فأنذر﴾ فنبأه بقوله : ﴿اقرأ﴾ وأرسله ﴿يا أيها المدثر﴾ ، ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم أنذر قومه ثم أنذر من حوله من العرب ثم أنذر العرب قاطبة ثم أنذر العالمين ، فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويؤمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له في الهجرة ، وأذن له في القتال ، ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله ، ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر أن يقاتل من نقض عهده . . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، أو يدخلوا في الإسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، فجاهد الكفار بالسيف والسنان والمنافقين بالحجة واللسان وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم . . وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام : قسماً أمره بقتالهم ، وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم ، وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم ، وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم . . فقتل الناقض لعهده ، وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر وأمره أن يتم الموفي بعهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم وضرب على أهل الذمة الجزية ، فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . . ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب . . وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلي عليهم ، وأن يقوم على قبورهم وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم . .)(٤).

ب ـ بينما يقاتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام القاسطين والناكثين والمارقين بسيف قاطع يرفع حفيده الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) لواء المجاملة واللين ـ في ضوء ظروفه ـ ولنقرأ منهاجه المرن المحكوم بظروف سياسية وثقافية خاصة في رسالته الموجهة إلى شيعته وأصحابه :

((أما بعد ، فسلوا ربكم العافية ، وعليكم بالدعة والوقار(٥) ، والسكينة والحياء والتنزه عما تنزه عنه الصالحون منكم ، وعليكم بمجاملة أهل الباطل ، تحملوا الضيم منهم ، وإياكم ومماظتهم(٦) ، دينوا فيما بينكم وبينهم ـ إذا أنتم جالستموهم وخالطتموهم ونازعتموهم الكلام ، فإنه لا بد لكم من مجالستهم

ومخالطتهم ومنازعتهم ـ بالتقية التي أمركم الله بها فإذا ابتليتم بذلك منهم فإنهم سيؤذونكم ويعرفون في وجوهكم المنكر، ولولا إن الله يدفعهم عنكم لسطوا بكم، وما في صدورهم من العداوة والبغضاء، أكثر مما يبدون لكم، مجالسكم ومجالسهم واحدة)(٧).

جـ ـ والإمام الحسن بن علي العسكري(ع) حين قست الظروف السياسية على أهل البيت(ع) في عهد أحمد المعتمد الخليفة العباسي أصدر أمراً لشيعته جاء فيه ما يلي: (أمرناكم بالتختم في اليمين، ونحن بين ظهرانيكم والآن نأمركم بالتختم في الشمال.. إلى أن يظهر الله أمرنا وأمركم.. فخلعوا خواتيمهم من إيمانهم بين يديه، ولبسوها في شمائلهم)(٨).

٢ ـ صيانة الخط وتغيير الوسائل

صيانة خط الرسالة السماوية الخاتمة قيمة أساسية يحرص أئمة أهل البيت عليهم الصلاة والسلام على التمسك بها مهما قست الظروف وتلبدت آفاق الواقع بغيوم الشك والتنكر للحق، يبذلون لها نفوسهم الزكية، وينفقون كل غال ونفيس من أجلها إذْ هُم (شجرة النبوة، وبيت الرحمة ومفاتيح الحكمة، ومعدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وموضع سر الله)(٩)

وموقف أبي عبد الله السبط الثاني لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحسين بن علي(ع) يوم الطفوف عام ٦١هـ من أوضح المواقف المخلدة في تاريخ الإسلام حيث خرج حين خرج على الظلم والظالمين طالباً الإصلاح في أمة جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع وثوقه بالمأساة الحمراء التي ستمر على آل البيت(ع) والصالحين من هذه الأمة..

لنسمعه معاً وهو يعلن الهدف من تحركه، كما يعلن النتائج:

(وإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا مفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي صلى الله عليه وآله وسلم أريد أن آمر بالمعروف وأنهي عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي بن أبي طالب، فمن قبلني بقبول الحق فالله أولى بالحق ومن رد عليَّ هذا أصبر حتى يقضي الله بيني وبين القوم وهو خير الحاكمين)(١٠)

(إني أعلم اليوم الذي أقتل فيه والساعة التي أقتل فيها وأعلم من يقتل من أهل بيتي وأصحابي أتظنين أنك علمتِ ما لم أعلمه وهل من الموت بدٌ فإن لم أذهب اليوم ذهبتُ غداً).

وقال لأخيه عمر الأطرف إن أبي أخبرني بأن تربتي تكون إلى جنب تربته أتظن أنك تعلم ما لم أعلمه؟ وقال لأخيه محمد بن الحنفية شاء الله أن يراني قتيلاً ويرى النساء سبايا.

وقال لابن الزبير: لو كنت في جحر هامة من هذه الهوام لا ستخرجوني حتى يقضوا فيَّ حاجتهم وقال

لعبد الله بن جعفر: إني رأيت رسول الله في المنام وأمرني بأمر أنا ماضٍ له وفي بطن العقبة قال لمن معه: ما أراني إلا مقتولاً فإني رأيت في المنام كلاباً تنهشني وأشدها عليَّ كلب ابقع ولما أشار عليه عمرو بن لوذان بالانصراف عن الكوفة إلى أن ينظر ما يكون عليه حال الناس قال(ع): ليس يخفى علي الرأي ولكن لا يغلب على أمر الله وإنهم لا يدعوني حتى يستخرجوا هذه العلقة من جوفي)[١١].

وسبط رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأول الحسن بن علي(ع) ضحى بزعامته السياسية حين أحس بالخطر على الإسلام إذا دخل في صراع عسكري مع معاوية بن أبي سفيان حاكم بلاد الشام في عصره حيث يقول موضحاً الضابط الذي تحكم في موقفه التاريخي المعروف:

(**إني خشيت أن يجتث المسلمون عن وجه الأرض، فأردت أن يكون للدين داع**)[١٢].

وقد تذكر الإمام محمد بن علي الباقر(ع) هذه المبادرة الحسنية الخالدة، وما أسدته من خدمات جلى للإسلام والمسلمين فقال: «**والله للذي صنعه الحسن بن علي كان خيراً لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس**»[١٣].

إن عملية صيانة الخط كهدف أعلى عند أئمة أهل البيت عليهم السلام قد جسدها الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) في مواقع عديدة من حركته الإصلاحية الكبرى، ولم تثنه عن التمسك بهذا الخط الظروف الاستثنائية التي حسبها البعض أنها كانت مواتية لتحقيق مكاسب سياسية هامة. .

فقد عرضت عليه الخلافة بعد سقوط الحكم الأموي من أعلى قرار في الثورة على الأمويين، ولكنه أبى أن يثنيه الوضع الاستثنائي عن الاستمرار في إرساء قواعد الرسالة مقدراً وضع الأمة الحقيقي وضعف قواعد المؤمنين، وتنظيمهم القادر على النهوض بأعباء قيادة دولة بكل متطلباتها الشرعية والقانونية. .

وهنا نذكر قضيتين اثنتين ليتميز حرص الإمام الصادق(ع) على تحقيق الأهداف العليا للإسلام في الوقت الذي يحرص فيه على عدم التفريط بخطة العمل لارساء قواعد الحق بسبب بريق الظروف الاستثنائية التي قد تغري العاملين فينحرفوا عن الطريق، ويخطئوا الأساليب السليمة:

ـ **القضية الأولى**: عن سدير الصيرفي قال: «دخلت على أبي عبد الله(ع) فقلت له: والله ما يسعك القعود قال: ولِمَ يا سدير؟ قلت لكثرة مواليك وشيعتك وأنصارك والله لو كان لأمير المؤمنين مالك من الشيعة والأنصار والموالي، ما طمع فيه تيم ولا عدي فقال: يا سدير وكم عسى أن تكونوا؟ قلت: مائة ألف، قال: مائة ألف؟. قلت: نعم، ومائتي ألف: فقلت: ومائتي ألف. قلت: نعم ونصف الدنيا. قال: فسكت عني ثم قال: يخفُ عليك ان تبلغ معنا إلى ينبع؟. قلت: نعم، فأمر بحمار وبغل أن يسرجا، فبادرت، فركبت الحمار، فقال: ياسدير ترى أن تؤثرني بالحمار؟، قلت: البغل أزين وأنبل، قال: الحمار أرفق بي، فنزل فركب الحمار وركبت البغل، فمضينا فحانت الصلاة، فقال: ياسدير إنزل بنا نصلي، ثم قال: هذه

أرض سبخة لا يجوز الصلاة فيها، فسرنا حتى صرنا إلى أرض حمراء ونظر إلى غلام يرعى جداء، فقال: والله ياسدير لو كان لي شيعة بعدد هذه الجداء، ما وسعني التعود ونزلنا وصلينا، فلما فرغنا من الصلاة عطفت إلى الجداء فعددتها فإذا هي سبعة عشر[١٤].

ـ القضية الثانية: وتتمثل في العرض التاريخي الذي عرضه عليه أبومسلم المروزي الخراساني مؤسس الدولة العباسية حيث كتب للإمام أبي عبد الله الصادق(ع) يدعوه للخلافة والتصدي السياسي لقيادة نتائج الثورة على الأمويين ومما جاء في رسالة المروزي ما يلي: (إني دعوت الناس إلى موالاة أهل البيت، فإن رغبت فيه فأنا أبايعك، فأجابه الإمام(ع):

(ماأنت من رجالي ولا الزمان زماني)[١٥].

وهكذا يحرص الإمام الصادق(ع) على رعاية مصلحة الإسلام العليا دون الاكترات بظواهر الأشياء والظروف التي تغري السياسيين وطلاب الحكم والجاه عادة ببريقها وظواهرها الخارجية.

٣ ـ نماذج من أساليب الأئمة ضمن العملية الإصلاحية:

الأساليب التي سلكها أئمة أهل البيت(ع) تتعدد وتتفاوت حسب الظروف التي يعيشها الأئمة(ع) وتعيشها الأمة فتؤثر في هذه الأساليب وطرق العمل الظروف السياسية والثقافية والنفسية والعقلية والاجتماعية وما إليها.

وبناء على ذلك فإننا نستطيع أن نرصد صوراً شتى لعمل الأئمة عليهم السلام كانوا قد سلكوها لمواصلة الحركة التغييرية في الأمة مع ثبات الهدف أو الإصرار على صيانة خط الرسالة.

أ) القنوات المألوفة في خدمة مفاهيمهم:

حين يتعذر على أئمة أهل البيت(ع) نقل أفكارهم من خلال قنواتهم المتبناة ـ بسبب ظروف سياسية أو ثقافية غير عادلة ـ فإنهم يعتمدون اسلوب الاستفادة من القنوات والعناوين والمؤسسات التي تقرها الأوضاع العامة.

فإن كثيراً من أئمة أهل البيت عليهم السلام ـ في ظروف، استثنائية عديدة ـ لا يروون الأفكار والمفاهيم التي تلقوها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة أو بالواسطة، رعاية للظروف التي لا تعطي فرصا من هذا القبيل، وإنما ينقلون أفكارهم للناس بقنوات أخرى يقرها العرف العام أو الأوضاع الرسمية.

فالإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام مثلاً كان يروي كثيراً من المفاهيم التي يريد إبلاغها للأمة بواسطة، جابر بن عبد الله الأنصاري وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عباس وزيد بن أرقم وأبي ذر الغفاري وغيرهم.

فهو يروي ـ مثلاً ـ عن عمر بن الخطاب قوله : (سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم **يقول : كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة إلّا سببي ونسبي**)[١٦]

ويروي عن جابر قوله : (أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يتختم بيمينه)[١٧] .

ويروي عن زيد بن أرقم قوله : (كنا جلوسا بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم **فقال : ألا أدلكم على من إذا استرشدتموه لن تضلوا ولن تهلكوا؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : هذا ـ وأشار إلى علي بن أبي طالب ـ ثم قال : وآخوه ، ووازروه ، وصدقوه ، وانصحوه ، فإن جبريل أخبرني بما قلت لكم**)[١٨] .

وقد انتهج الإمام الصادق(ع) ذات المنهج الذي انتهجه أبوه الباقر(ع) في استخدام القنوات المألوفة .

فقد روى عن عطاء بن أبي رباح عن عائشة ومحمد بن المنكدر ويروى عن أبي سعيد الخدري وعن يزيد بن هرمز وغن جابر بن عبد الله الأنصاري وعن عبيد الله بن جعفر وعن عبيد الله بن أبي رافع عن مسور بن مخرمة كما روى عن عكرمة مولى بن عباس .

وهذه بعض روايات بهذا الخصوص كما أوردها أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني في حلية الأولياء بأسانيده .

ـ عن جعفر بن محمد عن عبيد الله بن أبي رافع عن المسور بن مخرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[**إنما فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ، ويبسطني ما يبسطها**][١٨] .

ـ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : (كانت تلبية النبي صلى الله عليه وآله وسلم : **لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك**][١٩] .

ـ عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**][٢٠] .

ب) مراعاة الظروف المحيطة بالأمة :ـ

ومن ظواهر اهتمام الأئمة الهداة عليهم السلام بصيانة مبادىء الرسالة رغم تغيير الأساليب والأدوات التي يعتمدون عليها في تبليغ الأمة وتوجيهها وتثقيفها بالإسلام ومبادئه القويمة رعاية منهم لظروف الأمة النفسية والعقلية والسياسية .

وهذه بعض مصاديق هذا الاتجاه الحكيم في مسيرة التغيير الاجتماعي :ـ

عن يعقوب السراج قال : (سألني أبو عبد الله(ع) عن رجل ، فقال : إنه لا يحتمل حديثنا ، فقلت : نعم ، قال : فلا يغفل ، فإن الناس عندنا درجات منهم على درجة ، ومنهم على درجتين ، ومنهم على ثلاث ، ومنهم على أربع ، حتى بلغ سبعاً)[٢٢] .

عن أبي بصـير قال: (دخلت على أبي عبـد الله(ع)، فسألتـه عن حديث كثير، فقال: هل كتمت عليّ شيئاً قط، فبقيت اتذكر، فلما رأى ما حلّ بي قال: أما ما حدثت به أصحابك، فلا بأس به إنما الإذاعة أن تحدث به غير أصحابك)[٢٣].

وعن عمار بن الأحـوص قال: (قلت لأبي عبـد الله(ع): إن عنـدنـا قوماً يتولون بأمير االمؤمنين عليه السلام، ويفضلونه على الناس كلهم، وليس يصفون ما نصف من فضلكم، أنتولاهم؟ فقال لي:

نعم في الجملة، ليس عند الله ما لم يكن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولرسول الله تعالى عند الله ما ليس لنا، وعندنا ما ليس عندكم، وعندكم ما ليس عند غيركم إن الله وضع الإسلام على سبعة أسهم: على الصبر والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثم قسم ذلك بين الناس، فمن جعل فيه هذه السبعـة الأسهم فهـو كامـل محتمـل، ثم قسم لبعض النـاس السهـم، ولبعضهم السهمين،ولبعض الثلاثة أسهم ولبعض الأربعة أسهم، ولبعض الخمسة أسهم، ولبعض الستة أسهم، ولبعض السبعة أسهم، فلا تحملوا على صاحب السهم سهمـين، ولا على صاحب السهمـين ثلاثـة أسهم، ولا على صاحب الثلاثة أربعـة أسهم، ولا على صاحب الأربـع خمسـة أسهم ولا على صاحب الخمسة ستـة أسهم، ولا على صاحب الستـة سبعـة أسهم فتثقلوهم وتنفـروهم، ولكن ترفقـوا بهم وسهلوا لهم المـدخـل ـ ويقـدم الإمام الصـادق(ع) نمـوذجـاً لأساليب العمل الخاطئة بقوله: وسأضرب لك مثلاً تعتبر به: أنه كان رجل مسلم، وكـان له جار كافـر، وكـان الكـافر يرافق المؤمن، فلم يزل يزين له الإسلام حتى أسلم، فغدا عليه المؤمن فاستخرجه من منزله فذهب به إلى المسجد ليصلي معه الفجر جماعة، فلما صلى قال له: لو قعدنا نذكر الله حتى تطلع الشمس، فقعـد معـه، فقـال له: لو تعلمت القـرآن إلى أن تزول الشمس وصمت اليـوم كان أفضل، فقعد معه وصام حتى صلى الظهر والعصر، فقال له: لو صبرت حتى تصلي المغرب والعشاء الآخر كان أفضـل، فقعـد معـه حتى صلى المغـرب والعشـاء الآخرة ثم نهضا، وقد بلغ مجهوده، وحمل عليه ما لا يطيق، فلما كان من الغد غدا عليه وهو يريد مثل ما صنع بالأمس، فدق عليه بابه، ثم قال له: اخرج حتى نذهب إلى المسجد، فأجابه أن انصرف عني فإن هذا دين شديد لا أطيقه، فلا تخرقوا بهم، أما علمت أن إمـارة بني أميـة كانت بالسيف والعسف والجـور، وإن إمـامتنا بالرفق والتآلف والوقار والتقية وحسن الخلطة والورع والاجتهاد، فرغبوا الناس في دينكم وفي ما أنتم فيه)[٢٤].

هذا وتشكل ظاهرة التقية التي تبناها أئمة أهل البيت(ع) لتكون جنة لهم من الأعداء أوضح ظواهر التمسـك بخـط الـرسـالـة رغم التغيير للأساليب والوسائل حسب الظروف السياسية والثقافية والاجتماعية المحيطة بالأمة.

فالتقيـة ـ وهـو مصطلح شرعي مستـل من الوقاية ـ هي التي كانت وسيلة لاخفاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعـوتـه في أول أمـره حتى دعـاه الله إلى أن يصـدع بالأمـر في دعوة عشيرته الأقربين، والتقية هي التي

حملت المسلمين على عدم إظهار أمرهم أول المسير، وهي التي حملت النبي صلى الله عليه وآله وسلم على إخفاء هجرته إلى المدينة المنورة.

والتقية هي التي تفرض على جميع العقلاء من البشر أن يخفوا كثيراً من مشاريعهم عن الطواغيت والجهلاء...

وكان الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) أكثر الأئمة إرساء لمفهوم التقية لخصوصيات عصره وتعقيداته السياسية والثقافية..

فقد كان يكثر من توجيه أصحابه وشيعته للتمسك بالتقية: (**التقية ديني ودين آبائي، ولا دين لمن لا تقية له، وإن المذيع لأمرنا كالجاحد به**). (**رحم الله امرىء اجتر مودة الناس إلينا فحدثهم بما يعرفون وترك ما ينكرون**). (**ما قتل المعلى ـ بن خنيس ـ إلا من جهة إفشائه لحديثنا الصعب**)[٢٥].

إن مفهوم التقية ركن وثيق يأوي إليه المستضعفون ليقيهم من عاديات الظلم والظالمين، وطريق نجاة يسلكها المصلحون العاملون.

٤ ـ من مخططات الحركة التغييرية وبرامجها العملية عند الإمام الصادق(ع).

ليس بمقدور هذا البحث المتواضع أن يحيط بكافة خصوصيات الحركة التغييرية عند الإمام أبي عبد الله جعفر ابن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام، لأن هذه المهمة تتطلب دراسة واسعة وجهداً طويلا.

ولذا فإن هذا البحث المتواضع سيحاول أن يقدم بين أيدي المؤمنين نماذج من خطط الإمام الصادق(ع) في التغيير ونماذج أخرى من نشاطاته العملية في هذا الطريق:

أ) أوراق عمل في طريق التغيير:

وهذه بعض خططه ومشاريعه عليه السلام التي قدمها للمسيرة الإسلامية عبر الأجيال من خلال وصايا أو توجيهات أو مواعظ صدع بها أمام تلاميذه أو شيعته، وهي تصلح لكل المجموعات الإسلامية عبر مراحل التاريخ المختلفة تستلهم منها، وتنهل منها الخير والخصب والنماء:

١ ـ ورقة عمل يدعو شيعته للتمسك بمضامينها: ـ قال زيد الشحام قال لي أبو عبد الله عليه السلام: (اقرأ من ترى أنه يطيعني منكم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أدوا الأمانة إلى من أئتمنكم عليها براً أو فاجراً، فإن رسول الله كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق

الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري ويسرني ذلك، ويدخل علي منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر وإذا كان غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر فوالله لحدثني أبي أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي عليه السلام فيكون زينها، أدّاهم للأمانة، وأقضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسل العشيرة عنه، ويقولون: من مثل فلان إنه أدانا للأمانة، وأصدقنا للحديث)[٢٦].

٢ ـ **وهذه خطة عمل دعا أصحابه للتمسك بها**: (اكثروا من الدعاء فإن الله يحب من عباده الذين يدعونه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة، والله مصير دعاء المؤمنين يوم القيامة لهم عملا يزيدهم به في الجنة، واكثروا ذكر الله ما استطعتم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، فإن الله أمر بكثرة الذكر له، والله ذاكره من ذكره من المؤمنين، إن الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلا ذكره بخير وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين كما أمر الله به المؤمنين في كتابه من قبلكم، وعليكم بحب المساكين المسلمين، فإن حقرهم وتكبر عليهم فقد زل عن دين الله والله له حاقر ماقت، وقد قال أبونا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [أمرني ربي بحب المساكين المسلمين منهم]، واعلموا أن من حقر أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت منه والمحقرة حتى يمقته الناس أشد مقتاً فاتقوا الله في إخوانكم المسلمين المساكين، فإن لهم عليكم حقاً أن تحبوهم، فإن الله أمر نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بحبهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله ، ومن عصى الله ورسوله ومات على ذلك مات من الغاوين.

إياكم والعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله، فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة.

إياكم أن يبغي بعضكم على بعض، فإنها ليست من خصال الصالحين، فإنه من بغى صير الله بغيه على نفسه وصارت نصرة الله لمن بغي عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله.

إياكم أن يحسد بعضكم بعضاً فإن الكفر أصله الحسد.

إياكم أن تعينوا على مسلم مظلوماً يدعو الله عليكم ويستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة.

إياكم أن تشره نفوسكم، إلى شيء مما حرم الله عليكم، فإنه من انتهك ما حرم الله عليه ههنا في الدنيا حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها ولذتها وكرامتها القائمة الدائمة لأهل الجنة أبد الآبدين)[٢٧].

٣ ـ **وهذا برنامج لتابعيه**: (أما بعد فاسألوا الله ربكم العافية، وعليكم بالدعة والوقار والسكينة، وعليكم بالحياء والتنزه عما تنزه عنه الصالحون قبلكم، واتقوا الله وكفوا السنتكم الا من خير، وإياكم أن تذلقوا ألسنتكم بقول الزور والبهتان والإثم والعدوان، فإنكم إن كففتم السنتكم عما يكرهه الله مما نهاكم عنه كان خيراً لكم عند ربكم من أن تذلقوا ألسنتكم به، فإن ذلق اللسان فيما يكرهه الله وفيما ينهى عنه مرادة للعبد عند الله، ومقت من الله، وصمم وبكم وعمي يورثه الله إياه يوم القيامة، فتصيروا كما قال الله:

﴿صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾ يعني لا ينطقــون ولا يؤذن لهم فيعتــذرون وعليكم بالصمت إلا فيــما ينفعكم الله به من أمر آخرتكم ويؤجركم عليه، اكثروا من أن تدعوا الله فإن الله يحب من عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة، والله مصيّر دعاء المؤمنين يوم القيامة عملاً يزيدهم في الجنة، فاكثروا ذكر الله ما استطعتم في كل ساعة من ساعات الليل والنهار، فإن الله أمر بكثرة الذكر له، والله ذاكر من ذكـره من المؤمنـين، واعلمـوا أن الله لم يذكـره احـد من عبـاده المؤمنـين الاّ ذكـره بخير فاعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعته، فإن الله لا يـدرك شيء من الخير عنده إلا بطاعته واجتناب محارمه التي حرم الله في ظاهر القرآن وباطنه قال في كتابه وقوله الحق: ﴿وذروا ظاهر الأثم وباطنه﴾ واعلموا أن ما أمر الله به أن تجتنبوه فقد حرمه.

ولا تتبعوا أهواءكم وآراءكم فتضلوا فإن أضل الناس عند الله من اتبع هواه ورأيه بغير هدى من الله، واحسنوا إلى أنفسكم ما استطعتم، فإن احسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها، واعلموا أنه لن يؤمن عبد من عبيده حتى يرضى عن الله فيما يصنع الله إليه وصنع به على ما أحب وكره ولن يصنع الله بمن صبر ورضي عن الله إلاّ ما هو أهله، وهو خير له مما أحب وكره.

وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين كما أمر الله به المؤمن في كتابه من قبلكم.

وإيـاكم والعظمـة والكـبر، فإن الكـبر رداء الله عز وجـل فمن نازع الله رداءه قصمـه الله واذلـه يوم القيـامـة، وإيـاكم أن يبغي بعضكم على بعض فأنهـا ليست من خصال الصالحين، فأن من بغي صيّر الله بغيه على نفسه وصارت نصرة الله لمن بغى عليه، ومن نصره الله غلب، وأصاب الظفر من الله، وإياكم أن يحسد بعضكم بعضا، فإن الكفر أصله الحسد وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم، فيدعو الله عليكم فيستجاب له فيكم، فإن أبانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: [**إن دعوة المسلم المظلوم مستجابة، وليعن بعضكم بعضـا**] فإن أبـانـا رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: [**إن معاونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام**].

واعلمــوا أن الإسـلام هو التسليم، والتسليم هو الإسـلام، فمن سلّم فقـد أسلم ومن لم يسلم فلا إسـلام له، ومن سره أن يبلغ إلى نفسـه في الإحسـان فليطـع الله، فإن من أطاع الله فقد أبلغ إلى نفسه في الاحسـان وإيـاكم ومعـاصي الله أن ترتكبوها، فإنه من انتهك معاصي الله فركبها فقد أبلغ في الاساءة إلى نفسـه، وليس بين الإحسـان والأسـاءة منـزلـة، فلأهـل الإحسان عند ربهم الجنة ولأهل الأساءة عند ربهم النار، فاعملوا لطاعة الله واجتنبوا معاصيه)(٢٨).

ب) خطط الإمام في حقل التطبيق:

وإذا استعرضنا نشاطات الإمام الصادق(ع) وفعالياته التغيير ية التي قادها عبر مشروعه الإصلاحي

العام، لما كدنا أن نحصيها كثرة على اننا سنستعرض بعض عناوين تلك الفعاليات العظيمة التي ساهمت في بناء الإسلام، وإرساء قواعده في دنيا الناس.

وهذه بعض تلك العناوين:

١ ـ مكانة الأمة في حركة الإمام التغييرية:

الأمة في خط الإمام(ع) أداة التغيير والنهضة، ومصلحة الأمة ورعاية شؤونها في نظره تحتل الموقع الثاني بعد مصلحة الإسلام كدين ورسالة.

وتتجلى أهمية الأمة في خط الأئمة من خلال محورين:

أ) محور الحرص على المسلمين كأمة.

ب) محور الحرص على رفع غائلة الظلم والأذى الذي يلحق المسلمين بسبب التطبيق المنحرف للتشريع الإسلامي.

ونستطيع أن ندوّن قائمة طويلة من مصاديق عمل الإمام(ع) على كلا المستويين:

ـ عن ابن فضال، عن ابن بكير عن بعض أصحابه قال: (كان أبو عبد الله ربما أطعمنا الفراني والاخبصة، ثم يطعم الخبز والزيت فقيل له: لو دبرت امرك حتى يعتدل فقال، إنما تدبيرنا من الله إذا وسّع علينا وسعنا وإذا قتّر قتّرنا)(٢٩).

ـ عن طاهر بن عيسى، عن جعفر بن أحمد، عن أبي الخير، عن علي ابن الحسن، عن العباس بن عامر، عن مفضل بن قيس بن رمانة قال: (دخلت على أبي عبد الله(ع) فشكوت إليه بعض حالي وسألته الدعاء فقال: يا جارية هاتي الكيس الذي وصلنا به أبو جعفر، فجاءت بكيس فقال: هذا كيس فيه اربعمائة دينار، فاستعن به قال: قلت: والله جعلت فداك، ما أردت هذا، ولكن أردت الدعاء لي فقال لي: ولا أَدَعُ الدعاء، ولكن لا تخبر الناس بكل ما أنت فيه فتهون عليهم)(٣٠).

ـ محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد عن أبيه، عن علي بن وهبان، عن عمه هارون بن عيسى قال: قال أبو عبد الله(ع) لمحمد ابنه: كم فضل معك من تلك النفقة؟ قال: اربعون ديناراً قال: اخرج وتصدق بها قال: إنه لم يبق معي غيرها قال: تصدق بها، فإن الله عز وجل يخلفها، أما علمت أن لكل شيء مفتاحا؟ ومفتاح الرزق الصدقة، فتصدق بها، ففعل فما لبث أبو عبد الله(ع) إلا عشرة حتى جاءه من موضع أربعة آلاف دينار، فقال: يا بني أعطينا لله أربعين دينارا فأعطانا الله أربعة آلاف دينار)(٣١).

علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عبدة الواسطي عن عجلان قال: تعشيت مع أبي عبد الله(ع) بعد عتمة، وكان يتعشى بعد عتمة فأتي بخل وزيت ولحم بارد، فجعل ينتف اللحم فيطعمنيه، ويأكل هو الخل والزيت ويدع اللحم فقال: إن هذا طعامنا وطعام الأنبياء(٣٢).

- محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن علي بن الحكم، عن الكاهلي عن أبي الحسن عليه السلام قال: كان أبي يبعث أمي وأم فروة تقضيان حقوق أهل المدينه(٣٣).

- أحمد بن أدريس وغيره، عن محمد بن أحمد، عن علي بن الريان عن أبيه، عن يونس أو غيره عمن ذكره، عن أبي عبد الله(ع) قال: قلت له: جعلت فداك بلغني أنك كنت تفعل في غلة عين زياد شيئا، وأنا أحب أن اسمعه منك قال: فقال لي: نعم كنت آمر إذا أدركت الثمرة أن يثلم في حيطانها الثلم ليدخل الناس ويأكلوا، وكنت آمر في كل يوم أن يوضع عشر بنيات، يقعد على كل بنية عشرة كلما أكل عشرة جاء عشرة أخرى، يلقى لكل نفس منهم مد من رطب، وكنت آمر لجيران الضيعة كلهم الشيخ، والعجوز، والصبي، والمريض، والمرأة، ومن لا يقدر أن يجيء فيأكل منها، لكل إنسان منهم مد، فإذا كان الجذاذ وفّيت القُوام، والوكلاء، والرجال اجرتهم، واحمل الباقي إلى المدينة، ففرقت في أهل البيوتات والمستحقين، الراحلتين والثلاثة والأقل والأكثر على قدر استحقاقهم، وحصل لي بعد ذلك اربعمائة دينار، وكان غلتها أربعة آلاف دينار(٣٤).

- محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن محمد بن إسماعيل، عن حنان عن شعيب قال: تكارينا لأبي عبد الله(ع) قوما يعملون في بستان له وكان أجلهم إلى العصر فلما فرغوا قال لمعتب: أعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم(٣٥).

- عن حماد بن عثمان قال: (أصاب أهل المدينة غلاء، وقحط حتى أقبل الرجل الموسر يخلط الحنطة بالشعير ويأكله، ويشتري ببعض الطعام، وكان عند أبي عبد الله الصادق(ع) طعام جيد قد اشتراه أول السنة فقال لبعض مواليه: اشتر لنا شعيراً، فاخلطه بهذا الطعام أو بعه، فإنا نكره أن نأكل جيداً، ويأكل الناس ردياً)(٣٦).

أما الرعاية الفكرية والمعنوية للأمة فستتضح بعض مصاديقها في الصفحات القادمة.

٢ - التزام التدرج في عملية التغيير:

التدرج في الدعوة للمبادىء وفي عملية البناء والتغيير الاجتماعي ضرورة تفرضها طبيعة مهمة تلك الدعوة، وليست هي حاجة آنية أو ظرفية تستغني عنها الرسالة إذا انتفت تلك الحاجة أو تغير ذلك الظرف.

ثم إن التدرج في دعوة الناس للرسالة يتطلب تحقيق هدفين معا:-

أ) اعداد المخاطبين بالأفكار الجديدة نفسيا لتقبل تلك الأفكار قبل القاء (تفصيلات الأفكار) عليهم دفعة واحدة.

ب) ونقل المخاطبين من اجوائهم وقناعاتهم السابقة، وتطوير عقلياتهم في اتجاه تبني الرسالة الجديدة.

فإذا تحقق هذان الهدفان للرسالة صار بمقدور العملية التغييرية في الناس أن تجري لحساب الرسالة، أما إذا أريد أن تجري عملية رفع الناس إلى مستوى الرسالة دون توفير الهدفين المذكورين فإن القاء الفكرة الكلية بتفاصيلها على الناس دون مراعاة للظروف النفسية ولا للأجواء الفكرية، ولا لقناعات الجمهور - إن ذلك - سيؤدي إلى هزة اوردة فعل عنيفة تفقد الرسالة أهم شروط النجاح في مهمتها:

﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن.. فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾.

وقد وفقت تجربة أهل البيت(ع) في العمل الاجتماعي في اعطاء ضرورة التدرج في العمل التغييري بُعده العملي الحكيم اتماماً لمسيرة المصطفى(ص) في هذا السبيل، وربما كان لظروف الأئمة(ع) الخاصة، وطبيعة معاناتهم والأجواء النفسية والعقلية والسياسية التي عاشوها دورا أساساً في إثراء تجربتهم في هذا الجانب من خطهم ومسيرتهم الهادية.

ونستطيع أن نلتقي مع مئات الشواهد التي تكرس منهج الأئمة(ع) التدريجي في العمل في سبيل الله تعالى من خلال وصاياهم(ع) في هذا الاتجاه أو من خلال الممارسة العملية أو من خلال المفاهيم التي يبثونها في الذين يندمجون بخطهم المبارك أو من حولهم.

- قضية التدرج في مستوى التخطيط:

وعلى مستوى التخطيط لهذه القضية يبث الإمام(ع) فكرة التدرج في العمل الاجتماعي على أصعدة شتى وفي العديد من الآثارات الفكرية.

وهنا يوضح الإمام أبو عبد الله الصادق عليه السلام فكرة التدرج بعبارة موحية:

(إن الله رفيق يحب الرفق، فمن رفقه بعباده، تسليله أضغانهم ومضادتهم لهواهم، وقلوبهم، ومن رفقه بهم: أنه يدعهم على الأمر يريد إزالتهم عنه رفقاً بهم لكيلا يلقي عليهم عرى الإيمان ومثاقلته جملة واحدة فيضعفوا فإذا أراد نسخ الأمر بالآخر فصار منسوخا).

(يا عبد العزيز: إن الإيمان عشر درجات بمنزلة السلم، يصعد منه مرقاة، مرقاة فلا يقولن صاحب الاثنتين لصاحب الواحدة لست على شيء (حتى ينتهي إلى العاشرة)، فلا تسقط من هو دونك، فيسقطك من هو فوقك وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة، فارفعه إليك برفق، ولا تحملن عليه ما لايطيق، فتكسره، فإن من كسر مؤمنا فعليه جبره).

- التدرج في مستوى التطبيق:

حرص الإمام عليه السلام على تنفيذ مشروع التدرج في العمل الاجتماعي الذي أشرنا إلى الحيثيات الموجبة لتبنيه في نظرهم، على مستوى حركتهم هم، وعلى مستوى حركة المندمجين في خطهم من

المؤمنين وفي السيرة المطهرة للإمام(ع) مصاديق كثيرة نذكر منها ما يلي :

ـ عن يعقوب بن الضحاك، عن أبي عبد الله(ع) (في حديث) أنه جرى ذكر قوم قال : (فقلت له : إنا لنبرأ منهم أنهم لا يقولون ما نقول، قال : فقال : يتولونا ولا يقولون ما تقولون تبرأون منهم؟ قلت : نعم، قال : فهوذا عندنا ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرأ منكم (إلى أن قال :) فتولوهم ولا تبرأوا منهم إن من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان، ومنهم من له ثلاثة أسهم، ومنهم من له أربعة أسهم، ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستة أسهم، ومنهم من له سبعة أسهم، فليس ينبغي أن يحمل صاحب السهم على ما عليه صاحب السهمين ولا صاحب السهمين على ما عليه صاحب الثلاثة، ولا صاحب الثلاثة على ما عليه صاحب الأربعة، ولا صاحب الأربعة على ما عليه صاحب الخمسة، ولا صاحب الخمسة على ما عليه صاحب الستة، ولا صاحب الستة على ما عليه صاحب السبعة.

ويقدم الإمام(ع) نموذجاً عملياً حول أهمية مفهوم التدرج في العمل فيقول :

وسأضرب له مثلا، أن رجلا كان له جار وكان نصرانياً فدعاه إلى الإسلام وزينه له فأجابه، فأتاه سحيراً فقرع عليه الباب، فقال : من هذا؟ قال : أنا فلان، قال : وما حاجتك؟ قال توضأ والبس ثوبيك ومر بنا إلى الصلاة، قال : فتوضأ ولبس ثوبيه وخرج معه، قال : فصليا ما شاء الله، ثم صليا الفجر، ثم مكثا حتى أصبحا، فقام الذي كان نصرانياً يريد منزله، فقال الرجل : أين تذهب النهار قصير، والذي بينك وبين الظهر قليل، قال : فجلس معه إلى أن صلى الظهر، ثم قال : وما بين الظهر والعصر قليل، فاحتبسه حتى صلى العصر، قال : ثم قام وأراد أن ينصرف إلى منزله فقال له : إن هذا آخر النهار وأقل من أوله، فاحتبسه حتى صلى المغرب، ثم أراد أن ينصرف إلى منزله فقال له : إنما بقيت صلاة واحدة : قال فمكث حتى صلى العشاء الآخرة ثم تفرقا، فلما كان سحيرا غدا عليه فضرب عليه الباب، فقال : من هذا؟ قال : أنا فلان، قال : وما حاجتك؟ قال : توضأ والبس ثوبك واخرج فصل، قال : اطلب لهذا الدين من هو افرغ مني، وأنا إنسان مسكين وعلي عيال، فقال أبو عبد الله(ع) أدخله في شيء واخرجه منه، أو قال : ادخله من مثل ذه وأخرجه من مثل هذا)[٣٧].

٣ ـ ظاهرة العموم والخصوص في عمل الإمام الصادق(ع) :

تميزت حركة الأئمة عليهم السلام من أجل التغيير الإسلامي باهتمامها بمحورين اثنين معا :

أ ـ محور عموم الأمة.

ب ـ ومحور العمل الخاص الهادف لبلورة المتمسكين بخطهم ضمن إطار الأمة لتحمل متبنيات الأئمة(ع) في الفكر والعمل.

وتناول اهتمام الإمام(ع) في الحقل العام : المستوى الفكري للأمة وحمل همومها، والحدب عليها

والتخفيف من المظالم الواقعة عليها من الظالمين وما إلى ذلك من أمور.

وانصب الاهتمام في الإطار الخاص على انتقاء الأشخاص القادرين على تحمل أعباء المسؤولية، ومن ثم تأهيلهم فكرياً وروحياً وسلوكياً لحمل هموم الرسالة، ومباشرة عملية التغيير الإيجابي في الأمة.

وفي السيرة المدونة عن أهل البيت(ع) مصاديق جمة حول حركة الأئمة(ع) على المستويين:

أ) **من مصاديق العمل العام:**

وهذه بعض مفردات حركة الإمام(ع) العامة:

ـ (حججنا مع أبي جعفر عليه السلام في السنة التي حج فيها هشام بن عبد الملك وكان معه نافع مولى عمر بن الخطاب، فنظر نافع إلى أبي جعفر(ع) في ركن البيت وقد اجتمع عليه الناس، فقال نافع: يا أمير المؤمنين من هذا الذي قد تداك عليه الناس؟)[٣٨].

ـ (وعن زكريا بن إبراهيم: كنت نصرانياً، فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبد الله الصادق(ع) بمنى، والناس حوله كأنه معلم صبيان هذا يسأله، وهذا يسأله)[٣٩].

تلك مصاديق لحركة الإمام(ع) على المستوى العام للأمة، حيث يوفر الهداة عليهم السلام الرعاية المعنوية والمادية لحركة الأمة وفقاً للامكانات المتاحة وما تتوفر من ظروف مناسبة.

ب) **من شواهد التحرك الخاص:**

أما على مستوى بناء جهاز (الخواص) من هذه الأمة، فللإمام عليه السلام برنامج دقيق لبناء تلك الكتلة وتنميتها كميا وكيفيا.. وهذه بعض مفردات ذلك البرنامج كما نص عليه الإمام الصادق(ع):

ـ (اتقوا على دينكم فاحجبوه بالتقية، فإنه لا إيمان لمن لا تقية له...)[٤٠].

ـ (اقرا من ترى أنه يطيعني منكم، ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عز وجل، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث وأداء الأمانة، وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أدُّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براً أو فاجراً، فإن رسول الله كان يأمر بأداء الخيط، والمخيط، صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدّى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفري ويسرني ذلك، ويدخل علي منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر، وإذا كان غير ذلك دخل عليَّ بلاوه وعاره وقيل، هذا أدب جعفر)[٤١].

ـ عن إسحاق بن عمار قال: (قلت لأبي عبد الله(ع) قد هممت أن أكتم أمري من الناس كلهم حتى أصحابي خاصة، فلا يدري أحد عليَّ ما أنا عليه، فقال: ما أحب ذلك لك، ولكن جالس هؤلاء مرة وهؤلاء مرة).

(استقبلت أبا عبد الله عليه السلام في طريق ، فاعرضت عنه بوجهي ومضيت،فدخلت عليه بعد ذلك ، فقلت : جعلت فداك إني لألقاك فاصرف وجهي كراهة أن أشق عليك ، فقال لي : رحمك الله ، ولكن رجلاً لقيني أمس في موضع كذا وكذا فقال : عليك السلام يا أبا عبد الله ما أحسن ولا أجمل) .

عن علي بن الحسين(ع) قال : (وددت والله إني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي النزق، وقلة الكتمان) .

(إن أولياء الله وأولياء رسوله من شيعتنا من إذا قال صدق وإذا وعد وفى ، وإذ ائتمن أدى، وإذا حمل احتمل في الحق ، وإذا سئل الواجب أعطى ، وإذا أمر بالحق فعل ، شيعتنا من لا يعدوعمله سمعه ، شيعتنا من لا يمدح لنا معيبا ، ولا يواصل لنا مبغضا ، ولا يجالس لنا خائنا ، إن لقي مؤمنا أكرمه ، وإن لقي جاهلاً هجره ، شيعتنا من لا يهر هرير الكلب ، ولا يطمع طمع الغراب ، ولا يسأل أحدا إلا من إخوانه وإن مات جوعا ، شيعتنا من قال، بقولنا وفارق احبته فينا ، وأدنى البعداء في حبنا ، وأبعد الغرباء في بغضنا) .

وإذا تتبعنا حركة الأئمة(ع) من الناحية التاريخية لوجدنا أن كلا المحورين المذكورين من عملهم قد مورسا في عهد أي إمام منهم ولكون مساحة عمل أي إمام أومجموعة من الأئمة(ع) على صعيد هذا المحور أو ذاك تتسع أو تضيق حسب الظروف المحيطة والإمكانات المتاحة للحركة .

والإمام الذي تتاح له ظروف العمل بشكل مناسب يتسع إطار عمله العام ، وعمله الخاص معا ، وعلى العكس تماماً تكون حركة الإمام الذي لا تتاح له ظروف العمل .

٤ ـ المناظرات ورد الشبهات :

بسبب انفتاح المسلمين على الحضارات والأفكار التي كانت تهيمن على البلاد التي فتحها المسلمون خلال القرن الأول والثاني الهجريين كثرت الشبهات والأفكار المنحرفة في بلاد المسلمين ، فقد ظهر الزنادقة ونشطت حركة التصوف وظهر الجبر والتفويض، والقياس، ونشط أصحاب التشبيه والتعطيل وما إلى ذلك . .

وكان للإمام الصادق(ع) وتلاميذه دور مشرف فعال في صد تلك الموجات الفكرية الشاذة . .

وقد شهدت الحركة الفكرية في عصر الإمام الصادق(ع) ظاهرة من الحوار والمناظرات لرد شبهات المنحرفين وأصحاب النظريات الغافلة عن الحق وكان على رأس المحاورين الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) .

وهذه نماذج من حواراته ومناظراته الهادية :

أ) موقف من الزنادقة :

عن عيسى بن يونس قال : (كان ابن أبي العوجاء من تلامذة الحسن البصري ، فانحرف عن

التوحيد، فقيل له: تركت مذهب صاحبك ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة؟

قال: إن صاحبي كان مخلطا، يقول طورا بالقدر وطورا بالجبر، فما أعلمه اعتقد مذهبا دام عليه، فقدم مكة متمردا، وانكارا على من يحجه، وكان تكره العلماء مجالسته لخبث لسانه، وفساد ضميره فأتى أبا عبد الله(ع) فجلس إليه في جماعة من نظرائه، فقال: يا أبا عبد الله إن المجالس بالأمانات، ولا بد لكل من به سعال أن يسعل افتأذن لي في الكلام؟ فقال تكلم، فقال: إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر وتهرولون حوله كهرولة البعير إذا نفر، إن منّ فكر في هذا وقدر علم أن هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذي نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه، وأبو أسه ونظامه!

فقال أبو عبد الله(ع): إن من أضله الله وأعمى قلبه، استوخم الحق ولم يستعذبه وصار الشيطان وليه، يورده مناهل الهلكة ثم لا يصدره، وهذا بيت استعبد الله به عباده ليختبر طاعتهم في إتيانه، وحثهم على تعظيمه وزيارته، جعله محل أنبيائه وقبلة للمصلين له، فهو شبعة من رضوانه، وطريق يؤدي إلى غفرانه، منصوب على استواء الكمال، ومجتمع العظمة والجلال، خلقه الله قبل دحو الأرض بألفي عام، فأحق من أطيع فيما أمر وانتهى عما نهى عنه وزجر، الله المنشيء للأرواح والصور.

فقال ابن أبي العوجاء: ذكرت الله فأحلت على الغائب.

فقال أبو عبد الله(ع): ويلك!! كيف يكون غائباً من هو مع خلقه شاهد وإليهم أقرب من حبل الوريد، يسمع كلامهم ويرى أشخاصهم ويعلم أسرارهم؟!.

فقال ابن أبي العوجاء: فهو في كل مكان، أليس إذا كان في السماء كيف يكون في الأرض وإذا كان في الأرض كيف يكون في السماء؟

فقال أبو عبد الله(ع): إنما وصفت المخلوق الذي إذا انتقل من مكان اشتغل به مكان، وخلا منه مكان، فلا يدري في المكان الذي صار إليه ما حدث في المكان الذي كان فيه، فإما الله العظيم الشأن، الملك الديان، فلا يخلو منه مكان ولا يشتغل به مكان، ولا يكون إلى مكان أقرب منه إلى مكان.

وروي أن الصادق(ع) قال لابن أبي العوجاء: إن يكن الأمر كما تقول ـ وليس كما تقول ـ نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول وهو كما نقول ـ نجونا وهلكت.

وروي أيضاً: أن ابن أبي العوجاء سأل الصادق(ع) عن حدث العالم فقال: ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلا إذا ضم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى ولو كان قديماً ما زال ولا حال لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأزل دخول في القدم، ولكن يجتمع صفة الحدوث والقدم في شيء واحد.

قال ابن أبي العوجاء: هبك علمك في جرى الحالتين والزمانين على ما ذكرت استدللت على

حدوثها فلو بقيت الأشياء على صغرها من أين كان لك أن تستدل على حدوثها؟

فقال(ع): إنا نتكلم على هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالماً آخر كان لا شيء أدل على الحدث، ومن رفعنا اياه ووضعنا غيره، لكن أجيبك من حيث قدرت أن تلزمنا، فنقول: إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم أنه متى ضم شيء منه إلى شيء منه كان أكبر، وفي جواز التغير عليه خروجه من القدم، كما إن في تغيره دخوله في الحدث، وليس لك وراءه شيء يا عبد الكريم.

وعن يونس بن ظبيان قال: (دخل رجل على أبي عبد الله(ع) قال: أرأيت الله حين عبدته؟ قال: ماكنت أعبد شيئاً لم أراه، قال: فكيف رأيته؟ قال: لم تره الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه)[٤٢].

وفي كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي والكافي للشيخ الكليني وغيرهما مصاديق رائعة من مناظرات الإمام أبي عبد الله الصادق مع زنادقة عصره.

ب) حواره مع أبي حنيفة (النعمان بن ثابت):

ورغم مناظرات الإمام الصادق(ع) مع الزنادقة وأمثالهم من حملة الباطل فإن له حوارات ومناقشات مع فقهاء عصره ومفكريهم من المسلمين وهذه نماذج من حوارات مع أبي حنيفة:

ـ عن بشير بن يحيى العامري عن ابن أبي ليلى قال: دخلت أنا والنعمان أبوحنيفة على جعفر بن محمد، فرحب بنا فقال:

يا ابن أبي ليلى من هذا الرجل؟

فقلت: جعلت فداك من أهل الكوفة له رأي وبصيرة ونفاذ.

قال: فلعله الذي يقيس الأشياء برأيه؟ ثم قال: يا نعمان! هل تحسن أن تقيس رأسك؟ قال: لا، قال: ماأراك تحسن أن تقيس شيئاً فهل عرفت الملوحة في العينين، والمرارة في الأذنين، والبرودة في المنخرين، والعذوبة في الفم؟ قال: لا.

قال: فهل عرفت كلمة أولها كفر وآخرها إيمان؟ قال: لا.

قال ابن أبي ليلى: قلت: جعلت فداك لا تدعنا في عمياء مما وصفت.

قال: نعم حدثني أبي عن آبائه(ع) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله خلق عيني ابن آدم شحمتين فجعل فيهما الملوحة، فلولا ذلك لذابتا ولم يقع فيهما شيء من القذى إلا أذابه، والملوحة تلفظ ما يقع في العين من القذى، وجعل المرارة في الأذنين حجاباً للدماغ، وليس من دابة تقع في الأذن إلا التمست الخروج، ولولا ذلك لوصلت إلى الدماغ فأفسدته، وجعل الله البرودة في المنخرين حجابا للدماغ ولولا ذلك لسال الدماغ، وجعل العذوبة في الفم مناً من الله تعالى على ابن آدم ليجد لذة الطعام والشراب.

وأما كلمة أولها كفر وآخرها إيمان فقول لا إله إلا الا الله، ثم قال: يا نعمان إياك والقياس: فإن أبي حدثني عن آبائه(ع) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من قاس شيئاً من الدين برأيه قرنه الله تبارك وتعالى مع إبليس، فإنه أول من قاس حيث قال: خلقتني من نار وخلقته من طين، فدعوا الرأي والقياس فإن دين الله لم يوضع على القياس.

وفي رواية أخرى أن الصادق(ع) قال لأبي حنيفة، لما دخل عليه من أنت؟ قال: أبوحنيفة، قال(ع): مفتي أهل العراق؟ قال: نعم قال: بما تفتيهم؟ قال: بكتاب الله، قال(ع): وإنك لعالم بكتاب الله، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه؟ قال: نعم.

قال: فأخبرني عن قول الله عز وجل ﴿وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين﴾ أي موضع هو.

قال أبوحنيفة: هو ما بين مكة والمدينة، فالتفت أبوعبد الله إلى جلسائه، وقال: نشدتكم بالله هل تسيرون بين مكة والمدينة ولا تأمنون على دمائكم من القتل، وعلى أموالكم من السرق؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال أبوعبد الله(ع): ويحك يا أبا حنيفة إن الله لا يقول إلا حقا أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ أي موضع هو، قال: ذلك بيت الله الحرام، فالتفت أبوعبد الله إلى جلسائه وقال: نشدتكم بالله هل تعلمون: أن عبد الله بن الزبير وسعيد بن جبير دخلاه فلم يأمنا القتل؟

قالوا: اللهم نعم.

فقال أبوعبد الله(ع): ويحك يا أبا حنيفة، إن الله لا يقول إلا حقاً.

فقال أبوحنيفة، ليس لي علم بكتاب الله، إنما أنا صاحب قياس.

قال أبوعبد الله: فانظر في قياسك إن كنت مقيسا إيما أعظم عند الله القتل أو الزنا؟

قال: بل القتل.

قال: فكيف رضى في القتل بشاهدين، ولم يرضى في الزنا إلا بأربعة؟ ثم قال له: الصلاة أفضل أم الصيام؟ قال: بل الصلاة أفضل.

قال(ع): فيجب على قياس قولك على الحايض قضاء ما فاتها من الصلاة في حال حيضها دون الصيام، وقد أوجب الله تعالى، عليها قضاء الصوم دون الصلاة.

قال له(ع): البول أقذر أم المني؟

قال: البول أقذر.

قال(ع): يجب على قياسك أن يجب الغسل من البول دون المني، وقد أوجب الله تعالى الغسل من المني دون البول.

قال: إنما أنا صاحب رأي.

قال(ع): فما ترى في رجل كان له عبد فتزوج وزوج عبده في ليلة واحدة فدخلا بامرأتيهما في ليلة واحدة ثم سافرا وجعلا امرأتيهما في بيت واحد وولدتا غلامين فسقط البيت عليهم، فقتلت المرأتين وبقي الغلامان، أيهما في رأيك المالك وأيهما المملوك وأيهما الوارث وأيهما الموروث؟

قال: إنما أنا صاحب حدود.

قال(ع): فما ترى في رجل أعمى فقأ عين صحيح وأقطع قطع يد رجل، كيف يقام عليهما الحد.

قال: إنما أنا رجل عالم بمباعث الأنبياء.

قال(ع): فأخبرني عن قول الله لموسى وهارون حيث بعثهما إلى فرعون ﴿لعله يتذكر أو يخشى﴾ ولعل منك شك؟ قال: نعم.

قال: وكذلك من الله شك إذ قال: ﴿لعله﴾؟ قال أبو حنيفة: لا علم لي.

قال(ع): تزعم أنك تفتي بكتاب الله ولست ممن ورثه، وتزعم أنك صاحب قياس وأول من قاس ابليس لعنه الله ولم يبن دين الإسلام على القياس، وتزعم أنك صاحب رأي وكان الرأي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صوابا، ومن دونه خطأ، لأن الله تعالى قال: ﴿فاحكم بينهم بما أراك الله﴾ ولم يقل ذلك لغيره، وتزعم أنك صاحب حدود، ومن أنزلت عليه أولى بعلمها منك، وتزعم أنك عالم بمباعث الأنبياء ولخاتم الأنبياء أعلم بمباعثهم منك، ولولا أن يقال: دخل على ابن رسول الله فلم يسأله عن شيء ما سألتك عن شيء، فقس إن كنت مقيسا.

قال أبو حنيفة: لا أتكلم بالرأي والقياس في دين الله بعد هذا المجلس[٤٣]

٣ ـ مناظرات مع المعتزلة:

وللإمام(ع) مناقشات دقيقة مع أهل الاعتزال وكانوا في عصره قد شكلوا خطاً فكرياً مميزاً تجاه المدارس الفكرية الأخرى.

ونذكر هنا نموذجاً من مناقشات الإمام(ع) معهم:

ـ عن عبد الكريم بن عتبة الهاشمي: (كنت عند أبي عبد الله(ع) بمكة إذ دخل عليه أناس من المعتزلة، فيهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وحفص بن سالم، وأناس من رؤسائهم، وذلك أنه حين قتل الوليد، واختلف أهل الشام بينهم، فتكلموا فأكثروا وخطبوا فأطالوا فقال لهم أبو عبد الله جعفر بن محمد(ع): إنكم قد أكثرتم علي فأطلتم فاسندوا أمركم إلى رجل منكم، فليتكلم بحجتكم وليوجز.

فأسندوا أمرهم إلى عمرو بن عبيد فأبلغ وأطال، فكان فيما قال أن قال: قتل أهل الشام خليفتهم، وضرب الله بعضهم ببعض، وتشتت أمرهم، فنظرنا فوجدنا رجلاً له دين وعقل ومروة، ومعدن للخلافة وهو محمد بن عبد الله بن الحسن فأردنا أن نجتمع معه فنبايعه ثم نظهر أمرنا معه، وندعو الناس إليه، فمن بايعه كنا معه وكان منا، ومن اعتزلنا كففنا عنه، ومن نصب لنا جاهدناه ونصبنا له على بغيه ونرده إلى الحق

وأهله، وقد أحببنا أن نعرض ذلك عليك، فإنه لا غنى بنا عن مثلك، لفضلك، ولكثرة شيعتك، فلما فرغ قال أبو عبد الله(ع): أكلكم على مثل ما قال عمرو؟

قالوا: نعم، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ثم قال: إنما نسخط إذا عصي الله فإذا أطيع الله رضينا أخبرني يا عمرو لو أن الأمة قلدتك أمرها فملكته بغير قتال ولا مؤونة، فقيل لك: (ولها من شئت) من كنت تولي؟

قال: كنت أجعلها شورى بين المسلمين، قال: بين كلهم؟ قال نعم.

فقال: بين فقهائهم وخيارهم؟ قال: نعم.

قال: قريش وغيرهم؟ قال: العرب والعجم.

قال: فأخبرني يا عمرو أتتولى أبا بكر وعمر أو تتبرأ منهما؟

قال: أتولاهما.

قال: يا عمرو إن كنت رجلاً تتبرأ منهما، فإنه يجوز لك الخلاف عليهما وإن كنت تتولاهما فقد خالفتهما قد عهد عمر إلى أبي بكر فبايعه ولم يشاور أحداً، ثم ردها أبو بكر عليه ولم يشاور أحدا، ثم جعلها عمر شورى بين ستة، فخرج منها الأنصار غير أولئك الستة من قريش، ثم أوصى الناس فيهم بشيء ما أراك ترضى أنت ولا أصحابك قال: وما صنع؟

قال: أمر صهيبا أن يصلي بالناس ثلاثة أيام وأن يتشاور أولئك الستة ليس فيهم أحد سواهم إلا ابن عمر ويشاورونه وليس له من الأمر شيء، وأوصى من كان بحضرته من المهاجرين والأنصار أن مضت ثلاثة أيام ولم يفرغوا ويبايعوه أن يضرب أعناق الستة جميعاً، وإن اجتمع أربعة قبل أن يمضي ثلاثة أيام وخالف إثنان أن يضرب أعناق الأثنين أفترضون بهذا فيما تجعلون من الشورى في المسلمين؟

قالوا: لا.

قال: يا عمرو دع ذا أرأيت لو بايعت صاحبك هذا الذي تدعو إليه، ثم اجتمعت لكم الأمة ولم يختلف عليكم منها رجلان فافضيتم إلى المشركين الذين لم يسلموا ولم يؤدوا الجزية، كان عندكم وعند صاحبكم من العلم ما تسيرون فيهم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المشركين في الجزية؟ قالوا: نعم.

قال: فتصنعون ماذا؟ قالوا: ندعوهم إلى الإسلام فإن أبوا دعوناهم إلى الجزية.

قال: فإن كانوا مجوساً وأهل كتاب وعبدة النيران والبهائم وليسوا بأهل كتاب؟ قالوا: سواء.

قال فاخبرني عن القرآن أتقرؤونه؟ قال: نعم.

قال: اقرأ **﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يُحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾** قال: فاستثنى الله عز وجل

واشترط من الذين أوتوا الكتاب فهم والذين لم يؤتوا الكتاب سواء قال: نعم.

قال(ع): عمن اخذت هذا؟ قال: سمعت الناس يقولونه.

قال: فدع ذا فإنهم إن أبوا الجزية فقاتلتهم فظهرت عليهم كيف تصنع بالغنيمة؟ قال: أخرج الخمس وأقسم أربعة أخماس بين من قاتل عليها.

قال: تقسمه بين جميع من قاتل عليها؟ قال: نعم.

قال: فقد خالفت رسول الله في فعله وفي سيرته، وبيني وبينك فقهاء أهل المدينة ومشيختهم، فسلهم فإنهم لا يختلفون ولا يتنازعون في أن رسول الله إنما صالح الأعراب على أن يدعهم في ديارهم وأن لا يهاجروا، على أنه إن دهمه من عدوه دهم فيستفزهم فيقاتل بهم، وليس لهم من الغنيمة نصيب، وأنت تقول بين جميعهم، فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سيرته في المشركين، دع ذا ما تقول في الصدقة؟.

قال: فقرأ عليه هذه الآية ﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها..﴾ إلى آخرها قال نعم، فكيف تقسم بينهم؟

قال: أقسمها على ثمانية أجزاء فأعطي كل جزء من الثمانية جزءاً.

فقال (ع): إن كان صنف منهم عشرة آلاف وصنف رجلاً واحداً أو رجلين أو ثلاثة، جعلت لهذا الواحد مثل ما جعلت للعشرة آلاف؟ قال: نعم.

قال: وما تصنع بين صدقات أهل الحضر وأهل البوادي فتجعلهم فيها سواء؟ قال: نعم.

قال: فخالفت رسول الله في كل ما أتى به، كان رسول الله يقسم صدقة البوادي في أهل البوادي، وصدقة الحضر في أهل الحضر، ولا يقسم بينهم بالسوية إنما يقسمه قدر ما يحضره منهم، وعلى قدر ما يحضره فإن كان في نفسك شيء مما قلت لك فإن فقهاء أهل المدينة ومشيختهم، كلهم لا يختلفون في أن رسول الله كذا كان يصنع، ثم أقبل على عمرو وقال: اتق الله يا عمرو وأنتم أيضاً الرهط فاتقوا الله، فإن أبي حدثني وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله ورسوله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: **[من ضرب الناس بسيفه، ودعاهم إلى نفسه، وفي المسلمين من هو أعلم منه، فهو ضال متكلف]**[٤٤].

٤ ـ نموذج من حوارات مع منكري خط الإمام بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

وهذا نموذج من حوار الإمام عليه السلام مع مخالفي خط إمامة أهل البيت(ع):

روي عن يونس بن يعقوب قال: (كنت عند أبي عبد الله(ع) فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إني رجل صاحب كلام وفقه وفرائض وقد جئت لمناظرة أصحابك.

فقال له أبو عبد الله(ع): كلامك هذا من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو من عندك؟ فقال: من كلام رسول الله بعضه ومن عندي بعضه.

فقال أبو عبد الله: فأنت إذا شريك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال: لا.

قال: فسمعت الوحي من الله تعالى؛ قال: لا.

قال: فتجب طاعتك كما تجب طاعة رسول الله؟ قال: لا.

قال: فالتفت إلي أبو عبد الله(ع) فقال: يا يونس هذا خصم نفسه قبل أن يتكلم، ثم قال: يا يونس لو كنت تحسن الكلام كلمته قال يونس: فيالها من حسرة، فقلت: جعلت فداك سمعتك تنهى عن الكلام، وتقول: ويل لأصحاب الكلام يقولون: هذا ينقاد وهذا ينساق وهذا لا ينساق وهذا نعقله وهذا لا نعقله!

فقال أبو عبد الله(ع): إنما قلت ويل لقوم تركوا قولي بالكلام وذهبوا إلى ما يريدون، ثم قال اخرج إلى الباب فمن ترى من المتكلمين فأدخله!

قال: فخرجت فوجدت حمران بن اعين وكان يحسن الكلام، ومحمد بن نعمان الأحول وكان متكلما، وهشام بن سالم وقيس الماصر وكانا متكلمين وكان قيس عند احسنهم كلاما وكان قد تعلم الكلام من علي بن الحسين، فأدخلتهم، فلما استقر بنا المجلس كنا في خيمة لأبي عبد الله(ع) في طرف جبل في طريق الحرم، وذلك قبل الحج بأيام، فأخرج أبو عبد الله رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخب قال: هشام ورب الكعبة.

قال: وكنا ظننا أن هشاماً رجل من ولد عقيل، وكان شديد المحبة لأبي عبد الله، فإذا هشام بن الحاكم، وهو أول ما اختطت لحيته وليس فينا إلا من هو أكبر منه سناً، فوسع له أبو عبد الله(ع) وقال: (ناصرنا بقلبه ولسانه ويده) ثم قال لحمران: كلم الرجل - يعني الشامي.

فكلمه حمران وظهر عليه ثم قال: يا طاقي كلمه، فكلمه فظهر عليه محمد بن نعمان، ثم قال لهشام ابن سالم، كلمه، فتعارفا ثم قال لقيس الماصر: كلمه وأقبل أبو عبد الله(ع) يبتسم من كلامهما وقد استخذل الشامي في يده ثم قال للشامي: كلم هذا الغلام، يعني: هشام بن الحكم فقال: نعم.

ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة - هذا يعني - أبا عبد الله(ع)؟

فغضب هشام حتى ارتعد ثم قال له: اخبرني يا هذا أربك أنظر لخلقه، أم خلقه لأنفسهم؟ فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه.

قال: ففعل بنظره لهم في دينهم ماذا؟ قال: كلفهم واقام لهم حجة ودليلا على ما كلفهم به، وأزاح في ذلك عللهم.

فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصبه لهم؟ قال الشامي هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قال هشام: فبعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من؟ قال الكتاب والسنة.

فقال هشام: فهل نفعنا اليوم الكتاب والسنة فيما اختلفنا فيه، حتى رفع عنا الاختلاف، ومكننا من الاتفاق؟ فقال الشامي: نعم.

قال هشام: فلم اختلفنا نحن وأنت جئتنا من الشام تخالفنا، وتزعم أن الرأي طريق الدين، وأنت مقر بأن الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين؟

فسكت الشامي كالمفكر: فقال أبو عبد الله(ع) مالك لا تتكلم؟

قال: إن قلت: أنا ما اختلفنا كابرت، وإن قلت: أن الكتاب والسنة يرفعان عنا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه، ولكن لي عليه مثل ذلك.

فقال له أبو عبد الله(ع): سله تجده مليا، فقال الشامي لهشام من أنظر للخلق ربهم أم أنفسهم؟ فقال: بل ربهم أنظر لهم.

فقال الشامي: فهل اقام لهم من يجمع كلمتهم ويرفع اختلافهم ويبين لهم حقهم من باطلهم؟ فقال هشام: نعم.

فقال الشامي: من هو؟ قال هشام: اما في ابتداء الشريعة فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأما بعد النبي فعترته.

قال الشامي: من هو عترة النبي القائم مقامه في حجته؟ قال هشام: في وقتنا هذا أم قبله؟ قال الشامي: بل في وقتنا هذا، قال هشام: هذا الجالس يعني، أبا عبد الله(ع) الذي تشد إليه الرحال ويخبرنا بأخبار السماء وراثة عن جده.

قال الشامي: وكيف لي بعلم ذلك؟ فقال هشام: سله عما بدا لك.

قال الشامي: قطعت عذري، فعلي السؤال، فقال أبو عبد الله(ع): أنا أكفيك المسألة يا شامي: اخبرك عن مسيرك وسفرك، خرجت يوم كذا، وكان طريقك كذا، ومررت على كذا، ومر بك كذا، فأقبل الشامي كلما وصف له شيئاً من أمره يقول: صدقت والله، فقال الشامي: أسلمت لله الساعة فقال له أبو عبد الله(ع): بل آمنت بالله الساعة، إن الإسلام قبل الإيمان وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون، قال: صدقت فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنك وصي الأنبياء(٤٥).



الحواشـي

١ ـ فقرات من الدعاء الثاني من أدعية الصحيفة السجادية .
٢ ـ نهج البلاغة خطبة رقم ٨٧.
٣ ـ نهج البلاغة خطبة رقم ١٠٩ .
٤ ـ معالم في الطريق سيد قطب ص٧٥ ـ ٧٧ ط دار دمشق نقلاً عن ابن القيم.
٥ ـ الدعة: الخفض والطمأنينة.
٦ ـ المماظة: شد المنازعة.
٧ ـ تحف العقول للشيخ الجليل أبو محمد الحراني ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ط بيروت لبنان.
٨ ـ تحف العقول ص٣٦٢ ـ ٢٦٣ (الأسباب واضحة لهذا التغيير في لبس الخاتم. لأن لبس الخاتم كان في ذلك العصر من علامات التشيع لأهل البيت(ع)).
٩ ـ الكافي ج١ للشيخ الكليني ص٢٢١ .
١٠ ـ مقتل الحسين(ع) للسيد عبد الرزاق المقرم ص١٣٩ .
١١ ـ نفس المصدر ص٦٥ .
١٢ ـ حياة الحسين بن علي: باقر شريف القرشي ج٢ ص٢٨١ ط٣ النجف ١٩٧٣ .
١٣ ـ روضة الكافي ج٨ ص٣٣٠.
١٤ ـ بحار الأنوار ج٤٧ ط٣ بيروت ١٩٨٣ م ص ٣٧٢ ـ ٣٧٣ نقلا عن الكافي.
١٥ ـ ينابيع المودة: الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ط٨، ١٣٨٥ دار الكتب العراقية وكاظمية كما ينظر حديث ٤١٢ في روضة الكافي للشيخ الكليني.
١٦ ـ حياة الإمام الباقر(ع) للشيخ محمد باقر القرشي ص١٧٢ نقلا عن طبقات ابن سعد ٤٦٣/٨ .
١٧ ـ نفس المصدر ص١٧٢ عن علل الشرائع للصدوق.
١٨ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الأصبهاني مجلد ٣ط ٤ص ٢٠٦.
١٩ ـ نفس المصدر ص٢٠٠ .
٢٠ ـ نفس المصدر ص٢٠٠ .
٢١ ـ نفس المصدر السابق ص١٧٢ نقلا عن مناقف المغازلي الخوارزمي.
٢٢ ـ مختصر بصائر الدرجات ص٩٧.
٢٣ ـ نفس المصدر ص١٠٢ .
٢٤ ـ وسائل الشيعة ج٦ ص٤٢٩ ـ ص٤٣٠ .
٢٥ ـ الإمام الصادق (ع) ج١ للشيخ محمد حسين المظفري ط٢، ١٩٥٠م ص٩٦.
٢٦ ـ الإمام الصادق(ع) ج٢ للشيخ محمد حسين المظفري ط٢، ١٩٥٠ ص٥٣.
٢٧ ـ تحف العقول للشيخ الحرّاني، ط لبنان ص٢٣١ ـ ٢٣٢ .
٢٨ ـ الإمام الصادق(ع) ج٢، محمد الحسين المظفري، ط٢، ١٩٥٠ص ٤٠ ـ ٤٣ .
٢٩ ـ المحاسن ص٤٠٠ .
٣٠ ـ رجال الكشي ص١٢١ .
٣١ ـ الكافي ج٤ ص٩.
٣٢ ـ الكافي ج٦ ص٣٣٣ .
٣٣ ـ نفس المصدر ج٣ ص٢١٧ .
٣٤ ـ المصدر السابق ج٣ ص٥٦٩ .
٣٥ ـ المصدر السابق ج٥ ص٢٨٩ .
٣٦ ـ حلية الأبرار ج٢ السيد هاشم البحراني ص١٩٣ .
٣٧ ـ وسائل الشيعة ج٦ ص٤٢٧ .
٣٨ ـ حلية الأبرار ـ السيد هاشم البحراني ت ١١٠٧ ج٢ ص٩٨.
٣٩ ـ نفس المصدر ص١٤٥ .
٤٠ ـ الأصول من الكافي ج٢ ص٢١٨ طهران ط١٣٨٨ .

٤١ ـ الإمـام الصـادق(ع) محمـد حسين المظفرج٢ ص٥٣ ط٢ النجف الأشرف.

٤٢ ـ الاحتجاج، أبي منصور الطبرسي ص٣٣٥ ـ ٣٣٦، ط بيروت.

٤٣ ـ المصدر السابق ص٣٥٨ ـ ٣٦٢.

٤٤ ـ المصدر السابق ص٣٦٢ ـ ٣٦٤.

٤٥ ـ المصدر السابق ٣٦٤ ـ ٣٦٧.





الدكتور وجيه فانوس



نظرة في حركية الممارسة الإمامية عند الإمام جعفر الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

أولاً: في حركية عصر الإمام الصادق(ع).

عاش الإمام جعفر الصادق(ع) في مرحلة هامة جداً من مراحل الحياة الإسلامية التي كانت تشهد تطورات أساسية في تاريخها. لقد عاصر الإمام الحقبة الأخيرة من زمن العصر الأموي، بكل ما تميزت به هذه المرحلة من تنقّل سريع في السلطة بين أشخاص الأسرة الأموية الذين كانوا يتهالكون على منصب الخلافة، ويستهينون في سبيل هذا المنصب بكل أمر. ومن جهة ثانية، فقد عاصر الصادق(ع) بدايات تأسيس الحكم العباسي، بكل ما رافق هذا التأسيس من دعوةٍ إلى الانقضاض على الحكم الأموي، ومن دعوة إلى الرضا من آل البيت، ثم تحوّل في هذه الدعوة إلى بناء خلافة لبني العباس تحكمها قوى سياسية تميل إلى العنف والبطش وسفك الدماء مع كل قوة معارضة بما في ذلك آل البيت.

وكما عايش الإمام(ع) هذا التنوع السياسي في الحياة الإسلامية، فقد عايش، كذلك، بدايات جديدة في التفتح العقلي في الفكر الإسلامي الذي كان يتعرف على تيارات عقدية متنوعة متعددة. وكان هذا الفكر الإسلامي على المحك أمام آراء ونظريات غريبة عنه، أو وافدة إليه من حضارات مختلفة ليس

أقلها حضارتا اليونان والفرس بكل ما تختزناه من تراث إنساني ممض في عراقته وعمقه.

هذا التنوّع الشديد والسريع في حركة العصر، عهد ذاك، دفع بإيقاع الحياة لأن يكون خادماً للأغراض الدنيوية أكثر منه خادماً للأغراض الأخروية. ويبدو أن سرعة حركة العصر قد أنست كثيراً من ناسه ضرورة التروي والميل إلى الهدوء في قياس الأمور، وانستهم، فيما أنستهم، أن للوجود معنى آخر يكمن في غير سرعة حركته، ويتجلى في مبادىء الإسلام الحق. ولذا، فلقد سعى كثير من أهل السياسة في ذلك الزمن إلى تسخير الدين لدعم مواقفهم أومواقعهم السياسية. ونظرة على تاريخ الفرق الدينية وبعض المذاهب زمنذاك تشهد، وعلى سبيل المثال، أن كثيراً من الخلفاء الأمويين سعوا إلى تسخير جماعة من المتعاطين في شؤون التفسير والحديث لخدمة أغراض الحكم، مما أدى إلى كثير من النحل وإلى كثير من الروايات والأحاديث عن أحداث مختلفة أومحوّرة في الحياة الإسلامية. ولا يظنن الباحث أن الأمر قد اختلف كثيراً مع العباسيين؛ لقد انقسم المسلمون في معظمهم إلى فرق سياسية تتوسل المذاهب الدينية لإثبات موقع أوحكم أورأي. فبات الإسلام في كثير من مجالاته، ومع كثير من رجالاته مسخراً لخدمة أمور السياسة اليومية أو الآنية، بينما الأصح أن تكون السياسة مسخرة لخدمة الدين الذي هو المبدأ العام للحياة الدنيوية وللحياة الأخروية على حد سواء.

وفي هذه المرحلة بالذات شهد المجتمع العربي الإسلامي تغيراً كبيراً أيضاً. هذا المجتمع الذي بدأ مع الجيل الأول من المسلمين حياة كدٍ وتعب، حياة تجمع إلى جانب قوة الإيمان ورحابة الصبر على ممارسته، صعوبة عيش مادي وشظف حياة تمثّل أبرز ما تمثل في سلوك الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم وكثير من صحابته الأجلاء الذين ماذاقوا طعاماً طيباً أو ارتدوا لباساً فاخراً في حياتهم أبداً. لقد أصبح العيش في المرحلة التي عاصرها الإمام الصادق(ع) يميل إلى كثير من بحبوحة ما كانت أيام العهد الأول من الإسلام. فاشتداد القوة السياسية للدولة الإسلامية، وانتشارها الواسع، زاد من قدراتها المالية والمادية، مما ساعد في ميل كثير من الناس إلى التنعم بالحياة والتلذذ بطيباتها التي باتت ميسرة لجماعة لا بأس بها منهم. فلقد شهد العصر الأموي، على سبيل المثال، مجالات كبرى من ترف ورفاهية العيش كانت مجرد أحلام لكثير كثير من رجالات الإسلام الأول. ونظام الحياة العربية الإسلامية نفسه قد تغيّر. فلقد تعرف القوم وقتذاك على عادات جديدة على المجتمع العربي، عادات وفدت إليهم من المناطق والبلدان التي فتحوها، ومن أهل الحضارات التي امتزجت بهم ودخل كثير من أهلها الإسلام أوتعاطوا مع أهله معاطاة الند للند، أوالغريم مع الغريم، أوالمتفوق الحضاري مع المتخلف، أو المتملق مع الأقوى، لكن، أياً كانت الحال، فهذه الأنواع من التعاطي ساعدت على تغيرات كثيرة في الحياة الإسلامية عامة. وهي ذي الدراسات الحضارية والاجتماعية التي بحثت في تلك الفترة من حياة العرب والمسلمين تشهد بهذا، وفي طيات صفحاتها أمثلة كثيرة على ما نذهب إليه؛ بل إنها شهادات مفصلة مدعومة بالوثائق والأدلة، مبنية على تعمق في الأسباب والمظاهر وكذلك النتائج.

لقد أدى هذا الأمر إلى وضع كثير من الممارسات والقيم التي قام بها أو عاشها رجال الجيل الأول من الإسلام أمام امتحان عسير. فهل لهذه الممارسات ولتلك القيم ضرورة البقاء والصمود أمام تغيرات الزمن، أو أنه لابد لها من قابلية للتطور بها يناسب تبدل أحوال الأيام، ولكن ضمن ثبات المبدأ الإسلامي الذي انبثقت عنه؟!

إن المرحلة الزمنية التي عاش فيها الإمام جعفر الصادق(ع) كانت مرحلة حركة سريعة وكبيرة في الحياة الإسلامية. وقد تميزت هذه الحركة، إجمالاً، بالخروج عن أمور كثيرة من جوهر ممارسات حياة الجيل الأول من المسلمين. لقد أضحى الدين في كثير من مجالات العيش فيه في خدمة السياسة الآنية، ولم تعد السياسة الآنية في خدمة البعد النهائي للدين الذي هو في صلاح الخلق لتحقيق إرادة الخالق. أما المجتمع فقد تغير، وبات يميل إلى الترف والدعة أكثر من انغماسه في عيش قاسٍ يدعو وانما إلى التحدي وإلى السعي باتجاه الأفضل من خلال تقوى الله وعبادته. من جهة ثانية، فإن الأذهان ما عادت تتلقى الأمور بعفوية، بل مالت إلى تعقيد الفكر وإلى امتحان الأمور والبحث فيها. بل إن التقيد الفاعلين في الحياة كانوا يشهدون أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ثم يختلفون فيما عدا ذلك. هي إذن حركية قوية، لكن محور وجودها يعتمد على الوجود الإسلامي، فما كان لأي حركة أن تكون، يومذاك، لولا الإسلام. ما كان للأمويين أن يكونوا في ذلك الخضم لولا أنهم مسلمون، وما كان للعباسيين أن يكونوا لولا أنهم كذلك، وما كان للأغنياء أن يتمتعوا بالبحبوحة لولا أنهم مسلمون. وما كان لأهل الفكر أن يكونوا ما كانوه لولا إسلامهم، وحتى الزنادقة وأهل الإلحاد، ماكان لهم أن يكونوا في الجانب الذي كانوا فيه لولا وجود الإسلام الذي بوجوده فرقهم عن سواهم، وفصل بينهم وبين الآخرين.

حركية إنطلاق سريعة تؤدي، إلى تناثر في مرات كثيرة، وإلى توازن أحياناً، لكن دائماً ضمن المحور الثابت، محور الوجود الإسلامي. ومن جهة ثانية، فإن كادت هذه الحركية تطغى في مرات كثيرة على حقيقة هذا المحور، بل وكادت أن تستغل هذا المحور لصالحها دون صالحه، فإن قوة هذا المحور الهائلة كانت، وبحكم وجودها، تحول أبداً دون ذلك التحول أو هذا الاستغلال. لقد ظل الإسلام الحق، رغم كل ما حدث وضاء، باقياً، موجوداً، محفوظاً في كتاب الله عز وجل ومن خلال صدور الجماعات التي أسلمت وجهها لله العلي العظيم وتمسكت حقاً بوعي الحق وهدى الرسول، فأضحت نبراس الطريق المظلم، ومقياس العمل الإسلامي الصحيح، بل ضمير العصر ووازعه.

ثانياً: في حركية بيئة الإمام الصادق(ع)

لعل بالإمكان القول أن الحياة التي عاشها الإمام جعفر الصادق(ع) قد تميزت بالثبات أكثر منها بالتحول أو بالتغير. ومن أبرز مظاهر هذا الثبات الطول النسبي للمدة الزمنية التي عاشها الصادق(ع)، ثم

ثبات منابع تجربة تربيته الدينية والعلمية، وكذلك الثبات النسبي في محل إقامته. ولعل هذا الثبات الإجمالي قد أدى بدوره إلى تعميق نهج الممارسة الحياتية التي مثّلها الصادق(ع) في الفعل الإمامي في الحياة الإسلامية.

لقد عاش الإمام جعفر الصادق(ع) عمراً طال نسبياً عن العمر الذي امتد بسواه من الأئمة. فهو، كما يقال، شيخ الأئمة، إذ عمّر أطول من باقيهم، وامتدت به الحياة زهاء خمس وستين سنة. وهذا الأمر قد أمّن له استمراراً في تجربة منهجه في العيش، وأعطاه، ربما، مجالاً أرحب من سواه لممارسة هذا المنهج.

من جهة ثانية، فقد كان للإمام(ع) أن عاصر إثنين من آبائه الأئمة معاصرة حميمة كانت له فيها معهما فائدة الرفقة المستمرة والأخذ المباشر للفكر الإمامي من منابعه. لقد احتضنه جده الإمام زين العابدين(ع) قرابة أربعة عشر سنة، ثم استمر الصادق(ع) بعد هذا أربعاً وثلاثين سنة في رعاية وتدريب والده الإمام الباقر(ع). وبعد هذا كان له أن يتسلم مسؤولية مباشرة المهام الإمامية حتى نهاية عمره. وهذا النهل المباشر من منابع الفكر والممارسة الإماميين أمر قلما تسنى لسواه من الأئمة قد أمن للصادق(ع) منابع ثريَّة في الفكر، وفرصاً نادرة في ثبات الخط العلمي والتربوي والنفسي. ولعل هذه الحال قد ساهمت، أيضاً، في إعطاء تجربة الفعل الإمامي عند الصادق(ع) عمقاً محورياً مكنه من مواجهة تقلبات الأحداث وتغير المواقف بكثير من الهدوء، والاستقرار الفكري، الأمر الذي أعطاه مجالاً أرحب في حركية الممارسة الإمامية، وفي التنقل بها من إسلوب إلى آخر، ولكن ضمن محورية نهج ثابت أحسن التمكن منه والاستفادة من قوته.

يضاف إلى ما سبق أن الإمام الصادق(ع) ولد ونشأ في المدينة المنورة، ومنها مارس وجوده في معظم مراحل حياته، فما تركها إلا قليلاً ليقيم في غيرها ثم ليعود إليها. وكانت المدينة عهدذاك موقعاً حظي باستقرار أكثر من سواه من المدن والعواصم الإسلامية. وثمت من يرى أن الحكم الأموي آثر أن يرى في المدينة موئل استقرار رغدٍ تعيش فيه الجماعات التي يخشى من أفكارها وأعمالها على سلطته السياسية في الشام فكانت المدينة مركزاً فكرياً وعلمياً أكثر منها مركز فعل سياسي يعاني ما تعانيه المراكز الهامة الأخرى في الحواضر الإسلامية من خضات الخلاف أو الموالاة مع الحكم. وها هو التاريخ الإسلامي يحكي لنا عن الإزدهار الفكري والاجتماعي والحياتي الذي عاشه أهل المدينة بتميز واضح عن سواهم من أهل المدن والعواصم الإسلامية الأخرى، ويبدو أن هذا العيش في الموقع المستقر قد ساهم في تأمين مناخ هادىء للفكر عند الإمام الصادق(ع). وهذا المناخ الهادىء قد ساعد، بدوره، وبدون ريب في إعطاء الإمام(ع) الفرص الطيبة للتأمل الملي غير المرتبط بردات الفعل المباشرة لآنية الأحداث المتلاحقة للحياة السياسية والفكرية والاجتماعية التي كان يعيشها العالم الإسلامي وقتذاك. فكان للإمام(ع) المجال الأرحب ليبتعد عن قشور الفعل وردات الفعل على تلك القشور، وليتمكن من الدخول إلى صلب جوهر القضايا التي كان يعيشها العالم الإسلامي في ذلك الحين. , وهذا أمر شكل لبنة واضحة من لبنات محور الممارسة الإمامية عند الصادق(ع).

ومع كل ما تقدم من ذكر لعناصر الثبات، كان أمام الصادق(ع) خمس تجارب من الفعل الإمامي قد سبقته، وكان له أن يعتبر منها، وأن يمحص من خلالها المسار الواجب إتباعه في تلك المرحلة حفاظاً عل الوجود الإمامي، وسعياً في تحقيق أهدافه.

لقد كان للصادق(ع) أن ينظر في الممارسة الإمامية لجده الإمام علي(ع)، ويتفكر فيها. فيرى أن الإمام قد آثر أن يحافظ على وحدة الصف المسلم، والمسلمون أحوج ما كانوا إلى وحدة صفهم في أوائل تجربة عيشهم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ورأى الصادق(ع) كيف أن الإمام علي(ع) قد آثر أن يركن إلى النصح والإرشاد والممارسة الهادفة، فكان مرجع القوم وضميرهم قبل أن يكون خليفة فيهم وحاكماً سياسياً لهم في تلك المرحلة. ثم إنه لما رأى أن الوقت قد حان ليكون موضوع خلافته لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عامل وحدة للمسلمين، وعنصر لمٍ لشملهم وجمع لما تفرق من أمرهم، فإنه عمل حتى أقصى ما أمكنه لتحقيق هذا الأمر. وبعد إمام علي(ع) كانت التجربة لابنه الإمام الحسن(ع). فلقد كان لهذا أن يجعل من عدم إثارة موضوع خلافته عامل جمع للمسلمين وفعل توحيد لصفوفهم بعد الخضة الكبرى التي حصلت بمصرع والده وتسلط بني أمية. وبعد وفاة الإمام الحسن(ع)، رأى شقيقه الإمام الحسين(ع)، أن لابد من إعلاء الصرخة، ولا بد من الثورة رغم قلة الأمل بالنصر والفوز المباشر، عسى أن يكون في الصرخة ما يجمع المسلمين ويوحد شملهم بعدما فرقتهم احسن الأطماع الدنيوية ومصالح النفس الأمارة بالسوء. ثم جاء دور ابنه السجَّاد زين العابدين(ع) الذي رأى أنه ما من طريق لجمع الأمة إلا من خلال إعادة العمل على تركيز أسس إيمانها وفعل وجودها، فلجأ إلى البحث الفقهي والإصلاح الديني، واعتمد الصلاة وفعل الدعاء سبيلاً لإصلاح النفوسَ وتهذيب الأخلاق. ثم أتت التجربة الإمامية مع إبنه الباقر لتتابع هذا النهج الهادىء والمسؤول في إعادة تأهيل البنية الإسلامية؛ حتى كان دور الإمام الصادق(ع) الذي مارس التعمق في الفقه وسعى إلى بناء المؤسسة الفكرية الإسلامية الأولى والأبرز، وكل هذا من وحي النهج الأساس لكل تلك الممارسات التي قام بها آباؤ ه وأجداده من الأئمة. هذا النهج الذي آمن به أصحابه وسيلة إلى تقوية الوجود الإسلامي الحق. لذا، فإن الفعل الإمامي عند الصادق(ع) لم يكن إلا وليد تراث وممارسات متعددة متنوعة قام بها الأئمة من قبله، وتابعهم هو فيها على نهج واحد، ولكن مع مراعاة للأسلوب الذي يتكيف مع المرحلة ومع احتياجاتها.

وهنا يمكن القول أن حركية حياة الإمام الصادق(ع) كانت تقوم على محور أساس تسنى له من أمور الثبات أكثرها، كما تسنى له من مجالات حرية التكيف مع متطلبات كل حال وكل مرحلة الكثير الكثير من الليونة.

ثالثاً: في حركية فكر الصادق(ع)

أدرك الإمام الصادق(ع) أن للحياة حركة، وأن الدنيا في تغير أدوار وأطوار. ولعله من هذا المنطلق رأى أن ما قد يكون حسناً في ظرف أو بيئة ما، وقد لا يكون حسناً في ظرف مختلف أو بيئة مختلفة. ولذا، فلقد مارس الصادق(ع) حرية معينة في مواقفه وتصرفاته تتفق وما تقتضيه طبيعة المرحلة الحياتية والظروف البيئية التي يمر بها. بيد أن الإمام(ع) لم يترك هذه الحرية في حركة الكفر والممارسة عنده مطلقة دون قيد أو وازع. لقد جعل الصادق(ع) من مبادىء الدين الإسلامي وتعاليمه وجوهر روحيته نبراساً يضيء له دروب ممارسته، ومقياساً يعتمده في أحكامه وأفكاره. لذا، ورغم تشعب الحركية التي مارسها الصادق(ع) في حياته وفكره، فإن الرجل فيه لم يدخل في غياهب التعقيد أو لجلجة الفكر أو وهن التصور أو ضعف الثقة في النفس. ومن الواضح أن الخلفية الإيمانية المسلمة التي عاشها الصادق(ع) قد وفّرت له هدوءاً رائعاً في شخصيته وطمأنينة ظاهره في كل تصرفاته؛ كما أنها قادته إلى بساطة في أداء مهام الحياة رائعة، كانت ترتكز إلى أعماق بعيدة الغور في إيمانه وإسلامه.

عاش الإمام في عصر بحبوحة مادية تنعَّم بها كثير كثير من مسلمي زمانه. ولذا، فالرجل لم يَسْعَ إلى شظف عيش ومرارة حياة يمارسها بينما نِعَمُ الله على عباده تحيط به. وإذا ما كان الله تعالى قد قال في كتابه العزيز: ﴿وأما بنعمة ربك فحدِّث﴾، فإن الصادق(ع) طبق أمر الله، فتنعم في ملبسه ومأكله ومنزله، وتصدق وأعطى مما منّ الله به عليه. ولما سُئِلَ الصادق(ع) عن تنعمه في عيشه بينما كان جدّه الإمام علي(ع) يعيش عيشة الكفاف ويلبس الأقل الضروري من اللباس، قال الصادق(ع) ببساطة وعمق مبنيان على إيمان هادىء رصين أن علي بن أبي طالب(ع) كان يلبس ذلك في زمن لا يُنْكِر، ولو لبس مثل ذلك اليوم شُهِّر به؛ فخير لباس كل زمان لباس أهله. لقد رأى الصادق(ع) أنه إذا ما أقبلت الدنيا فأحق الناس بها أبرارها لا فجارها، ومؤمنوها لا منافقوها، ومسلموها لا كفارها. لكن الصادق(ع) ظل في الوقت عينه رقيباً على ذاته، غير منجرف في طمأنينة البحبوحة ورغد العيش عن حقيقة التزاماته وواقع مهامه الإمامية.

إضافة إلى هذا، فإن الصادق(ع) قد حافظ على مبدأ أساسي من مبادىء الوجود الإسلامي، ألا وهو الاجتهاد في العمل والتسليم في النتائج لله عز وجل. وها إنه يبتلى بمرض ولد له، فيجزع، ويتلهف قلبه على وجع ابنه؛ لكن عندما تقتضي رحمة الله أن يتوفى ذلك الطفل، فالصادق(ع) يعود إلى صفاء طبيعته ونقاء سريرته مسلماً أمره إلى رب العزة، مشيراً إلى أنه من أهل بيت يجزعون قبل المصيبة، فإذا وقع أمر الله رضوا بقضائه وسلموا لأمره.

إن هذه الحركية في الفكر عند الإمام الصادق(ع) والتي تؤكد أن ثمت أساس وجوهر لكل الاختلافات، قد قادته إلى إعطاء الأولوية للفعل الفكري على الفعل السياسي في الحياة العامة. فلقد تميز الفعل السياسي، عهدذاك، بغلبة مراكز القوى التي ما كانت في كل حالاتها تعتمد الممارسة الإسلامية التي

يراها الإمام(ع) حقة. وكانت هذه القوى أشد في قوتها السياسية والعسكرية من قوة الإمام ومن معه. ولعل الصادق(ع) رأى أن القوة العسكرية أو السياسية التي لا تستند إلى حقيقة دينية تدعمها وتكون مبرراً لوجودها واستمرارها ليست بالقوة القمينة بالحياة؛ بل إنها، ومهما طال الزمن بها، سوف تستهلك نفسها بنفسها، وتصير إلى طريق التلاشي. وهكذا، فقد وجَّه الإمام الصادق(ع) كل جهده إلى الطريق التي رسمها جده الإمام علي(ع) بأن يهتم بالفعل الفكري أكثر من اهتمامه بالفعل السياسي.

إن الفعل الفكري هو الأسمى وهو الأرسخ، لأن الفعل السياسي عادة متعلق بطبيعة الظرف الحياتي الآني؛ أما الفعل الفكري منطلق من طبيعة الوجود الإنساني الأساسي. وقد وجد الصادق(ع) في ممارسة جده زين العابدين(ع) ووالده الباقر(ع) ما أكد له حقيقة هذا التوجه ومصداقيته. ووجد من خلال كل هذا أن مصلحة الإسلام البعيدة المدى تقتضي تعميق أثر الفعل الفكري تمهيداً لإرساء دعائم الفعل السياسي الصحيح والقائم على هذا الفكر. من هنا، فقد قادت حركية الفكر عند الإمام الصادق(ع) صاحبها إلى أن يكون الباعث الأساس لحركة الفكر الإسلامي في زمنه، وفيما تلاه من أزمنة، وإلى أن يبتعد مجتازاً عن الهواجس الآنية للفعل السياسي في عصره. ولذا، فليس من الحيف أن يصف المرء الإمام(ع) بأنه مفكر سياسي ذو طابع استراتيجي أكثر منه مفكر سياسي منهك بقضايا التكتيك الآني. ولعل هذا يشكل منطلقاً للنظر في مواقف الإمام الرافضة لتولي الزعامة السياسية التي عرضها عليه كثيرون إما صدقاً أو عن زيف ورياء. بل إن في هذا ما يساعد على فهم مواقف الإمام(ع) الرافضة لأن يتولى أحد من آل البيت مقادير الزعامة السياسية في عصره. الزعامة السياسية هذه كانت زيفاً، وكانت عبثاً ومقتاً في مسار تأسيس الفكر الديني الذي عجب أن يتولد عنه فكر سياسي صحيح. لذا، فإن الصادق(ع) آثر الجهد البعيد المدى والمثمر، على الجهد القريب المدى والذي كان، ولا شك، سيضر بالقضية التي آمن بها.

وثمة أمر آخر أساس تفرَّع عن هذه النظرة عند الإمام الصادق(ع). فقد كان الزمن، يومذاك، زمن مشافهة وقلة تدوين. وكان التراث الإسلامي الفكري في قابلية كبرى للضياع والتزوير في عالم الوجود الشفهي هذا. فكانت مبادرة الإمام الرائعة في الدعوة إلى التدوين إذ أوصى من معه بالكتابة وبث العلم في إخوانه. وقال، كذلك، لبعض أصحابه أنك لو مت فأورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمن هرج لا يأنسون إلا بكتبهم. ولقد صدق الإمام(ع)، ولولا حركة التدوين التي حث عليها وشجعها ونفذها، وكان الباعث الأول لها، فإن الوجود الإسلامي برمته كان قابلاً للضياع والتزوير. لقد أعطى الصادق(ع) بدعوته هذه للفكر الإسلامي، كما قيل، قدرة البقاء، واستمرارية العطاء والبذل، وإليه يعود الفضل الأكبر فيما وصلنا من تراث فكري إسلامي وعلمي أصيل.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن حركية الفكر عند الصادق(ع) لم تكن في رحابها المنطلق من إيمانه الإسلامي القوى لتلجأ إلى التقوقع والإنعزال. وهكذا لم تكن مدرسة الصادق الفكرية الجامعة لتقتصر

على علم من العلوم دون سواه، بل إنها حوت أبرز علوم عصره وأشملها. ولم تكن كذلك لتقتصر على جماعة من المسلمين دون سواهم. فكانت أبوابها مفتوحة، وحلقاتها مشرعة لكل من أراد أن ينهل من معينها ويرتوي من عذب موردها. ولذا، فالصادق(ع) استطاع أن يكون أستاذاً لكل المفكرين الإسلاميين في عصره. أستاذاً لهم بالتعليم المباشر أو عبر السماع والرواية. ولذا، فإن الرجل عبر حركية فكره المتفتحة استطاع أن يحوي الجميع؛ واستطاع، إضافة إلى هذا، أن يكون منطلقاً للجميع؛ ومرجعاً لهم وهكذا، فإن هدوء الصادق(ع) النفسي، وبُعد نظره الفكري قد أمّنا له أن يكون مؤسس حركة الفكر الإسلامي في رحابة وجودها وقوة إنطلاقها بغض النظر عن أية مذهبية.

من هنا، يمكن التأكيد أن الهدوء الذي تميزت به البينة الفكرية للإمام الصادق(ع)، قد ساهم في إغناء الرجل بقدرة على النظرة البعيدة المدى في أحداث عصره. لم ينجرف الصادق(ع) في تيار الأحداث الآنية وإغراءاته، بل استطاع أن يدرك كنه الفعل الحياتي ويحدد مستقره الأبعد، ثم كان له أن يتصرف على أساس هذا التحديد. وهكذا لم يترد الإمام الصادق في مهاوي الفعل السياسي المرحلي، بل ظل في صموده في وجه مراكز القوى السياسية فعل معارضة سلبي تحوَّل من خلال قوة وجود صاحبه ومبادئه إلى عمق إيجابي في هذا الفعل أقض مضجع أخصام الإمام، ومهد لدور سياسي تمثل بفعل الضمير الصارخ أبداً في وجه أعوجاجات العيش.

خلاصة:

في عصر إزدادت حركيته حتى كادت أن تتفلت من محورها، في جذور تربية ثابتة راسخة، ومن خلال تجربة عيش طويلة مستقرة نفسياً وفكرياً، استطاع الإمام جعفر الصادق(ع) أن يضمن لنفسه هدوءها الذاتي، وأن يؤمن لفكره عمقاً متجذراً في تراثه الفكري والديني. ومن خلال هذه الخصال استطاع الإمام(ع) أن يمارس مهامه الإمامية في حركية تميزت بالبساطة والعمق في آن، وفي حركية اتسمت بالجرأة والقوة البعيدتين عن قشور الممارسات الظاهرية.

لقد أرسى الإمام جعفر الصادق(ع) من خلال حركية فعله الإمامي مدرسة وأسساً في الفعل الإمامي كانت ضمير عصره وجماعته، وتابعه فيها ابناؤه الأئمة، وما زالت إلى اليوم حية عامرة بالعطاء، تشهد له بصحة النظر ورجحان التقدير، في حين ذوت كل الفرق السياسية التي عارضته وناوءته وأضطهدته بالرغم من كل الجبروت السياسي والعسكري الذي تمتعت به.

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي



الإمام الصادق (ع) والوحدة الإسلامية



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد.

فلعل في كلمة أخي الأستاذ المقدِّم نصف الاعتذار عن تقصيري والنصف الثاني ينبغي أن أتممه أنا، لقد شُرِّفت حقاً عندما تلقيت التكليف بالاشتراك في هذا المؤتمر المبارك عن الإمام الصادق رضي الله عنه، وعليه الصلاة والسلام. ولقد حَمَّلْتُ نفسي أعباء تحضير هام على مستوى هذا المؤتمر ذاته. ولكن فوجئت بسلسلة مشاغل أقصتني عن هذا القطر. وبقيت بعيداً عنه، وبعيداً عن القيام بالواجبات التي أنيطت بي إلى ما قبل يومين أو ثلاثة أيام، ولم يكن لي اختيار في أن استبدل بالكتابة التامة وضع خطوط عريضة للحديث الذي سأتناوله علماً بأن القضاء يقوم مقام الأداء عند جمهور الفقهاء. فإذا لم يتح لي أن أؤدي ما أنيط بي في وقته المناسب فلسوف أحمل نفسي بإذن الله وتوفيقه على كتابة هذه الخطوط العريضة كتابة وافية تامة بإذن الله.

أيها السادة: الإمام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه معلمة حب وعلم وعرفان. هو معلمة حب ينبع من قلوب المسلمين جميعاً لحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيت رسول الله، ومن ثم فهذه المعلمة لم تكن يوماً ما خاصة بفئة من فئات المسلمين، وهو معلمة علم وفقه، وهذه المعلمة تتمثل في مائدة

علمية منذ أن بسطها الله سبحانه وتعالى أفادت منها هذه الأمة الإسلامية جمعاً، ولم تكن هذه الإستفادة أو هذا التفاعل مع هذه المائدة وقفاً على فئة دون أخرى، وهو معلمة عرفان أيضاً، وقد عرفنا أن هذه المعلمة العرفانية كانت محوراً لسائر من يسمون العلماء الربانيين أو العلماء المتفوقين من جماهير المسلمين الذين يسمون أهل السنة والجماعة، وكل الذين أخلصوا لله سبحانه وتعالى، في الإيمان به وفي حبه، وفي حب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وآل بيته. وأعتقد أن هذه الأبيات التي فاضت بها مشاعر الفرزدق رداً على ذلك الذي ضاق ذرعاً عندما وجد إقبال الناس العجيب إلى الإمام الصادق[1*] وهو يطوف في البيت ضاق ذرعاً في هذا الحب. وقال من هذا. أعتقد أن الأبيات التي رد بها الفرزدق عليه لم تكن نابعة منه فقط ولكنها كانت مشاعر صادقة تنبع من قلوب هذه الأمة الإسلامية جمعاء لاسيما تلك الأبيات المشهورة المعروفة.

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته	والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم	هذا التقي النقي الطاهر العلم
وليس قولك من هذا بضائره	العرب تعرف من أنكرت والعجم

هذه الأسرة بعضها من بعض ذرية بعضها من بعض وما يصدق على علي زين العابدين يصدق على محمد الباقر ويصدق على جعفر الصادق، والمهم أن هذه المشاعر لم تكن ذات يوم مشاعر نابعة من فئة من المسلمين دون أخرى.

المحور الذي يدور حوله حديثي أيها السادة عن الإمام الصادق وأصدقكم القول هو تلمس شخصية الإمام الشيعي فيه. بكل ما يفترض أن يبرز فيه من خصائص التشيع التي نراها ونعلمها في هذا الوصف، وسلفاً أقول لكم إنني بعد البحث الذي سأذكر بعض جوانب التفصيل فيه لم أجد في شخصية هذا الإمام الجلي إلا معين يلتقي عليه شمل المسلمين جميعاً، وشمل علمائهم جميعاً من فقهاء ومحدثين ومفسرين، وعلماء كلام ومتصوفة، ورأيته كما يعطي يأخذ. ورأيته يقدم على مائدة العلوم والمعالم الإسلامية أنّا رآها مبسطون. ومن أي الجهات الأصولية. ورأيت أنه الإمام الذي تفتح قلبه لهذه الأمة كلها. وهو الإمام الذي تفاعلت مشاعره، وتفاعلت عقليته العلمية مع كل ما يسمى علماً. ومع كل ما يسمى علماء في هذه الأمة.

ثم نظرت إلى شعاره الذي نسب إليه، والذي روي صحيحاً عن والده الباقر أيضاً رضي الله تعالى عنهما. **«إياكم والخصومة في الدين. فإنها تحدث الشك وتورث النفاق»**. هذا هو الذي انتهيت إليه. وذلك هو الرصيف الذي وقفت عليه، بعد هذه الدراسة التفصيلية التي سأسير معكم في بعض من فجاجها، الخلاف الوحيد الذي رأيته ظاهرة تتجلى في حياة جعفر الصادق مع الآخرين هو الخلاف في الفروع الفقهية الاجتهادية، ومن ثم فقد رأيته يتحرك كغيره من الأئمة، الإمام مالك، والإمام أبي حنيفة، والإمام

(1*) هو الإمام زين العابدين علي بن الحسين وليس الإمام الصادق كما ذكر المتحدث.

الشـافعي، والإمـام أحمد، والإمام الأوزاعي، رأيتهم جميعاً يتمركزون في ساحة اجتهادية واحدة، **ونظرت إلى هذا الخلاف فرأيته خلافاً تعاونياً، ولم يكن إطلاقاً في يوم من الأيام خلاف شقاق، أو خلاف تمزق أو خلاف جدل** حذّر منه كل من جعفر الصادق أو والده الباقر رضي الله تعالى عنهم، ذلك لأننا نعلم جميعاً أن الصـادق رضي الله عنـه نشأ في المـدينـة المنورة حيث العلم المدني الموروث عن أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم جميعاً وعن أكابر التابعين.

ونظرنا ولا أستطيع أن أفصِّل القول فالوقت يضيق عن ذلك فوجدنا أنه لم يكن يشعر بأي غضاضة أن يجلس في حلقات العلم لله أيّاً كان صاحب هذه الحلقة، بل نظرت فوجدته يأخذ من علم الحجاز كما يأخذ من علم العراق، ويقارن بين هذا وذاك، فربما وافق أحد الطرفين. وربما وافق الطرفين عند اتفاقهما، وربما خالفهما إلى رأي ثالث. ولم يكن له رائد خلال هذا كله إلا تتبع الدليل ومعرفة الحكم الذي يستنبط بعلم حقيقي، ويجد من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله، ونظرت فوجدت أن الصادق رضي الله عنه ورث هذه المـزيـة من أبيـه. بل من أجـداده جميعاً، وكلنا يعلم أن علياً رضي الله تعالى عنه زين العابدين، كان يغشى حلقـات العلم في مسجد المدينة، وكان يغشى حلقة زيد بن أسلم ويجلس إليها فيستفيد منها. ولقد سألـه مرة نافـع بن تبـير ولعله سألـه على سبيـل المباسطة قال له أأنت تتخطى الرقاب والأعناق لتجلس في حلقة هذا الأسود. ما أغناك عن ذلك. فقال إن الإنسان يجلس حيث ينتفع، والعلم يطلب في كل مكان، هذا هو منهج الإمام علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم جميعاً.

ولا شك أن الصادق رضي الله عنه ورث هذا المعنى. بل هذا السلوك من آبائه وأجداده. فلم يكن ينتقي معينـاً مُعينـاً يصطفيـه، في ينـابيـع العلم دون معين آخر قط. بل كان رضي الله تعالى عنه يأخذ من الجميع. ومن الجدير أن نذكر هنا قصة أبي جعفر المنصور، عندما همس في أذن أبي حنيفة قائلاً: إن الناس قد فُتنوا بجعفر الصادق فلو هيأت له بعض المسائل الشّداد، وسألته عنها، ولم يكن أبو حنيفة قد رأى الإمام الصـادق بعـد، وهُيء لذلـك مجلس في الحيرة، يقول أبو حنيفة: (دخلت المجلس فوجدت جعفر الصادق جالسـاً عن يمـين أبي جعفـر المنصـور فوالله دخَلت مهـابـة الصادق في قلبي أكثر مما دخلت مهابة الخليفة، وأخذت أسأل في الأمور التي خطرت في بالي، فكان يقول لي في الجواب عنها: أما أنتم أهل العراق فتقولون فيهـا كذا.. وأمـا أهـل المـدينة فيقولون كذا.. ثم ربما وافق أحد الرأيين، وربما خالف الرأيين، وربما اتبع أحـد الـرأيـين عند اختلافهم). طرح عليه ما يقارب أربعين مسألة من هذا القبيل، ثم قال أبو حنيفة لأبي جعفر المنصور في نهاية المجلس (قال يا أمير المؤمنين: إن أعلم الناس أعلمهم بالخلاف)، وتلك شهادة من أبي حنيفـة على أن جعفـر الصـادق هو أعلم أهـل عصره بالفقه الإسلامي، وبعلم الخلاف، وكان رصيد علم يحوي في ذهنه مناطق الاختلاف وساحات الاتفاق، ثم كان يتوج ذلك برأيه الخاص الذي يصدر عنه.

نعم أيها الأخوة، إنني عندما أنظر إلى هذا النشاط الفقهي، في شخص الإمام الصادق أجد أن له مذهباً. وأنه ربما اتفق في مذهبه مع مذاهب أخرى وربما خالف، **ولكن هل أَعَدُّ هذا الخلاف، خلافاً ينبىءعن انشطارالأمة الإسلامية إلى شطرين**، معاذ الله. **إنه كما قلت لكم اختلاف تعاوني وليس خلاف شقاق ولا نزاع قط**. ورضي الله عن عمر بن عبد العزيز. واسمحوا لي أني عندما أذكر خلفاء بني أمية أشعر بما تشعرون، وسأتحدث عن ذلك بعد قليل إن شاء الله ولكني استثني عمر بن عبد العزيز، عندما قال: (لا أحب أن لي بالخلاف الذي نعلمه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمر النعم)، ولو اتفقوا لضاق من ذلك رحب واسع على المسلمين، والحقيقة أن عمر بن عبد العزيز، عبر بهذا عن كل المشاعر التي تستكن في ضمائر العلماء، الغيارى على شريعة الله سبحانه وتعالى.

ولذلك فقد كان سيدنا جعفر الصادق إماماً من أئمة الفقه، أغنى المكتبة الفقهية ولا أقول التراث الفقهي بآرائه سواء خالف أو وافق، وهو مصيب في كلها ومثوب عليها أجمع. هذه هي النقطة التي يمكن أن أرى بالإمام الصادق مذهباً ينفصل آناً ويتصل آناً بالمذاهب الأخرى. فهل للمواقف الأخرى التي رأيتها للإمام الصادق مايسمى، أو ما يجب، أن يسمى موقفاً خلافياً. أنا أقول في الجواب سلفاً، ثم اتبع الكلام بالدليل، **لم أجد أي خلاف، لم أجد أي موقف للإمام الصادق يجعلني أصنفه في فرقة من فرق الإسلام آنذاك**، ولأبدأ أولاً:

أحب أن أحدث وأن استعرض معكم مظاهر الغلو والجنوح والتطرف التي تفجرت في أواخر القرن الأول إلى نهاية القرن الثاني، كلنا يعلم أن هذا التطرف والغلو، إنما ساق كلاً منهما زنادقة مقنّعون. وكان المجتمع الإسلامي يفيض آنذاك بالزنادقة، وكلهم كانوا يتحركون من وراء قناع، وهنا نتذكر قاعدة من قواعد علم النفس، لا تغيب عن أحد منا. أيسر سبيل لإشاعة فكرة، أو نحلة، أو تصور باطل، أن تتبين عاطفة رائجة، طغت على الأمة في وقت من الأوقات. فتمتطي بفكرتك هذه تلك العاطفة. فإن هذه الفكرة تتسرب وتتسلل إلى أعماق مشاعر الناس، دون أن يتبينوا من أي نافذة دخلت ومن أي نفق أو قناة سرت إلى عقولهم أو إلى ألبابهم، وهذا ما صنعه أولئك الزنادقة، انتقوا كلاً من شعورين اثنين، شعور بالمرارة التي كان يشعر بها المسلمون جميعاً.

أيها الأخوة، ونحن نظلم هذه الأمة، إن قلنا هذه المشاعر، مشاعر المرارة كانت نابعة من فئة واحدة من فئات المسلمين، انتقى الزنادقة مشاعر المرارة من الظلم، والجور اللذين حطّا على آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، سواء من خلفاء بني مروان، أو من غيرهم. العاطفة الثانية التي امتطوها عاطفة الحب، الحب الطبيعي لآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، وتسربوا بعد امتطاءهم هاتين المطيتين، إلى سبيل استطاعوا أن يتحركوا في ساحتها، وأن يهيمنوا على مشاعر بعض الناس، فماذا كان موقف الصادق رضي الله عنه.

وهنـا أقـول أيهـا الأخـوة . إن آل بيت الـرسول صلى الله عليه وسلم بدءاً من النكبة التي تفجرت في ميعـادهـا في أواخـر أيـام عثـمان رضي الله عنه . وإلى النهاية التي تعرفون ، آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم حُمّلوا تبعتـين اثنتـين ، كل منهـما أشق من الأخـرى ، أما التبعة الأخرى ، فتحمل الظلم والجور ، وأما التبعـة الثـانيـة فربطهـا إلى التطـرف ، بيَـدٍ كان عليهم أن يردوا غائلة الجور والظلم قدر المستطاع ، وباليد الأخرى كانوا يردون غائلة التطرف التي كان يسوقها الزنادقة وقد انتهزوا أحلك وقت وأسوأ فرصة ، ولكنها كانت لهم أجمل فرصة ، وأستطيع أن أضع أمامكم بعض الأمثلة قبلاً :

المغيرة بن سعد وأبان ابن سمعان هذان من الزنادقة اللذان جالا هذه الجولة التي تعرفون ، أولهما كان يتظاهر بانتمائه إلى الباقر رضي الله عنه . ثانيهما كان يتظاهر بانتمائه إلى الصادق رضي الله عنه ، وكان كل منهما إذا نطق كأنه ينطق باسم مولاه وسيده وأستاذه ، وكانا يدخلان إلى أفئدة الناس أو يحاولان أن يدخلا إلى أفئـدة النـاس في كثـير من اللغووالباطل . من ذلك أن الإمام الصادق يعلم الغيب وأن الإمام الصادق يعلم ما لايعلمه كثير من الرسل والأنبياء ، بل لقد صح أن المغيرة بن سعد ، جلس إلى الصادق رضي الله عنـه وقـال له : أقـرَّ بأنـك تعلم الغيب ، وأنا آتيك بخراج العراق كله ، فأغلظ له الإمام الصادق من القول وطرده من المجلس .

من هؤلاء الناس أبو الخطاب الأسدي وهو رئيس الفرقة الخطابية . هذا الإنسان الذي تظاهر في حبه لآل بيت رسـول الله وتظـاهـر في حبـه للصـادق رضي الله تعـالى عنه . ثم ننظر في هذا التظاهر إلى أن قفز فادعى أن الصـادق قد بلغ مبلغ الألـوهيـة وادعى أنـه إلـه وكـما يقـول المقدسي في خطبه هو أول من نسب للصادق رضي الله عنه ما يسمى بالجفر ، وادعى أن هنالك جلدة خاصة للصادق رضي الله عنه نقش على هذا الجلد كل الحقائق الغيبية التي لا يمكن أن يتطلع عليها أحد إلى يوم القيامة ، وأن هذا الجفر موروث منـه إلى من يليـه فمن يليـه إلى أن تقوم الساعة ، ماذا كان عمل الصادق رضي الله عنه والصادق(رض) ، هنـا نمـوذج لآل بيت رسـول الله جميعـاً كما قلت لكم أيهـا السادة كانت المهمة مزدوجة المهمة الأولى الصبر والمصـابـرة على الظلم ورد غائلتهـا ما أمكن ، والمهمـة الثانية سحق هذا الغلو ومحاربته أنّا ظهر وأي الأقنعة مشى إلى أفئدة الناس وعقولهم ، **فهل نجد في هذا الموقف إلاّ ما يؤكد وحدة الأمة الإسلامية ، إلا ما يؤكد أن هذه الأمة الإسلامية سواء أسميناها أهل السنّة والجماعة ، أو أسميناها شيعة آل بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم ، هل نرى إلا ما يؤكد أن المسمى تحت هذين الإسمين واحد .**

وإني لأسألكم من ذا الـذي يدعي أنـه ينتسب إلى أهـل السنـة حقـاً ثم لا يفيض قلبه حباً لآل بيت رسول الله وشيعة رسول الله(ص) ، ومن ذا الذي يستطيع أن يدعي أنه من شيعة آل المصطفى(ص) ثم لا يكـون هو الحـامي الأول لحوزة الكتـاب والسنـة ثم لا يكـون هو الممثـل الأول لسنة المصطفى(ص) أليس الاسمان متظافرين ليكونا اسماً أو اسمين لمسمى واحد . هذه هي **النقطة الأولى .**

النقطة الثانية : موقف الصادق رضي الله عنه وأبيه وجده من أصحاب رسول الله(ص) ومن الأئمة أبي بكر وعمر وعثمان . نظرت فما وجدت منهم لا والله إلا التوقير وما وجدت منهم إلا التعظيم لهؤلاء الأئمة وقد سار الصادق في هذا على نهج آبائه البررة الكرام . ولعلكم تعلمون قبل أن أعلم أن نفراً من أهل العراق جاؤوا إلى سيدنا علي زين العابدين رضي الله عنه وعليه الصلاة والسلام ، جاءوا فتكلموا فوقعوا في حق أبي بكر، انتظر علي رضي الله عنه إلى أن انتهوا من الكلام ثم قال لهم : ألا تخبرونني من أنتم؟ أأنتم المهاجرون الأولون الذين أخرجوا من ديارهم . إلى آخر الآية؟ قالوا لا . قال أفأنتم الذين تبوؤا الدار والايمان من بعدهم يحبون من هاجر إليهم؟ قالوا لا . قال فاشهدوا إذن أنكم إذاً لستم ، ممن قال الله عز وجل عنهم بعد ذلك **﴿يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غِلًّا للذين آمنوا﴾**، اخرجوا مني، وأخرجهم سيدنا علي زين العابدين من مجلسه ذلك لأنهم وقعوا في حق أبي بكر(رض) .

ولعلكم تعلمون أيضاً أن جابراً الجعفي جاء إلى الصادق(رض) وبعد حديث قال له الصادق يا جابر بلغني (وهذا نص كلامه) أن قوماً بالعراق يزعمون أنهم يحبوننا ويتناولون أبا بكر وعمر(رض) فاخبرهم أنني إلى الله منهم بريء والذي نفس محمد بيده لو وليت لتقربت إلى الله بدمائهم لا نالتني شفاعة محمد(ص) إن لم أكن استغفر لهما واترحم عليهما، وقد رأيت في حلية الأولياء في ترجمة سيدنا محمد الباقر أنه سئل عن قول الله عز وجل : **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون . .﴾** من هم فقال هم أصحاب محمد(ص) : فقال السائل يقولون إنه علي(رض) وقال الإمام : المتبع علي منهم، علي واحد منهم . هذا هو المظهر الثاني أيها الأخوة .

وكما قلت لكم أنا أقف أمام معلمة الإسلام في هذا الإنسان، وأطوف من حولها لأتبين فيه ظاهرة تنم عن أنه كان يمثل شطراً واحداً من الأمة الإسلامية الواحدة، ونحن نسير لنصل إلى النهاية، وكل ما وصلنا إليه إلى الآن يدل على أنه مظهر لوحدة هذه الأمة، ومظهر لقلب واحد وعقل يعي هذه الحقيقة الإسلامية، لنتجاوز هذا إلى رواية الصادق عن أهل السنة، وروايتهم عنه، والعلاقة السارية مابينهم وبينه .

كان الصادق كما قلت قبل قليل مع فقهه ومع إمامته في الفقه عالماً من علماء الرواية . فقد تلقى عنه محدثون من علماء السنة روى عنه سفيان ابن عيينة، وروى عنه سفيان الثوري، وروى عنه ابن شهاب الزهري، الذي كان تلميذاً لعلي زين العابدين وأخذ منه جعفر الصادق بالمقابل . فانظروا إلى التفاعل وانظروا إلى توارث العلم مدّاً وجذراً في قناة واحدة، كما روى عنه مالك وروى عنه أبو حنيفة ويحيى بن سعيد الأنصاري، وروى عنه كل أئمة كتب السنة، أبوداود، الإمام الترمذي، ابن ماجه، النسائي، الإمام مسلم، كلهم رووا عنه، ولقد رجعت إلى كتب الرجال فما رأيت إنساناً إلاّ وتشرف من علماء النقد بالثناء على الإمام جعفر الصادق، وبيان أنه يتبوأ الدرجة العليا من حيث الوثوق بروايته وأخباره .

بقي هنا أن نطرح أطروحة لماذا لم يروي عنه البخاري. حقاً البخاري لم يرو عنه، ربما توهم بعض الناس أن السبب في ذلك تحفظ البخاري تجاه شخص الصادق(رض). ولا والله لا أتصور عاقلاً منا يدرك كيف يقف البخاري موقف تحفظ عن إنسان أجمعت الأمة على صدقه، ولكن الأمر ليس كذلك. الأمر كما قال العلماء، كما قال ابن حجر العسقلاني كان الإمام البخاري يرتاب في السند الذي يصل إلى سيدنا جعفر الصادق وكان هذا هو سبب تحفظه، ولا أريد أن أفتح الملف عن سند يتعلق بمن أو بما دون جعفر الصادق(رض)، فلذلك بحث خاص سأعود فأشير إليه عند نهاية حديثي الذي لن يطول بإذن الله (٢*)

أخيراً لعل فينا من يسأل وللأمانة ماذا كان رأي الصادق منها بل مذهب الصادق فيها. لعل له رأياً ينفصل وينشطر به عن موقف هذه الأمة. أيها الأخوة: أنا لست في هذا الصدد أكثر من ناقل، ولست في هذا الصدد أكثر من طائر كما قلت لكم بهذه المعلمة العلمية في شخص الصادق(رض). كل ما قد فهمته من مواقف الصادق وكلماته عن الإمامة في شخصه أو في شخص غيره من آل البيت، أنه ما كان ينظر إلى نفسه إلّا على أنه عالم يهدي ويرشد وأنه بعيد عن السياسة(٣*) وأن لا عصمة لقوله، هكذا نراه مع سمو مكانته إذا قارنا بينه وبين الآخرين من العلماء في عصره، أنه في مايقول ويفعل كسائر العلماء عرضة للخطأ والصواب، فمن أين استنبطت هذا وما الذي يدل على ذلك:

يدل على ذلك مواقفه نصائحه عندما كان يأتيه سفيان الثوري فيستنصحه، فيجلس إليه سفيان متعلماً ويحدثه الصادق مرشداً ربانياً موجهاً، والوقت يطول لو وقفنا أمام هذه النصوص الرائعة النورانية التي كان ينطق بها الصادق ناصحاً ومُذكراً لسفيان الثوري (رض)، من هذه المواقف أن فئة من المعتزلة جاؤوا إلى مجلسه فأطالوا الكلام. والحديث يطول، فلما انتهوا من حديثهم قال الصادق(رض): اتق الله يا عمر(يعني عمر بن عبيد) وأنتم أيها الرهط فإن أبي حدثني وكان خير أهل الأرض وأعلمهم بكتاب الله وسنة رسوله أن رسول الله(ص) قال: من ضرب بسيفه الناس ودعاهم إلى نفسه وفي المسلمين من هو أعلم منه فهو ضال متكلف».

كلنا يعلم أن هذا الكلام يدل على أن جعفر الصادق(رض) كان يرى أن الخلافة إنما تأتي انتقاءاً واصطفاءاً وأنها إنما تترسخ عن طريق البيعة، وأن مقياس ذلك هذا الكلام الذي قاله رسول الله(ص).

وبعد أيها السادة: فأنا حتى لو كتبت هذه الكلمات ما ينبغي أن أطيل في عرضها أكثر مما أطلت وأعدكم أنني سأفصل لا القول فيها، بل الكتابة عنها. ولكني أنتهي إلى هذه الكلمات الأخيرة، هذا ما

(٢*): علماً بأن سائر أصحاب الصحاح قد اعتمدوا في بعض ما نقلوه من روايات على السند الذي نقل عن الإمام الصادق(ع)

(٣*): يدل موقف الإمام الصادق(ع) الإيجابي من الثورات التي قامت في عصره من أجل إقامة العدالة الإسلامية، على خلاف ما ذهب إليه الباحث.

رأيناه في شخص الصادق مظهر لوحدة الأمة مظهر لوحدانية الأمة الإسلامية، كما قلت لكم فما الذي حصل بعد هذا؟. ولماذا نجد أشياء أخرى تروى اليوم عن جعفر الصادق، ما الموقف منه أوما صفوة القول في حديث علمي موضوعي تجاهها؟ هنا المسألة تتعلق بالرواية، وقواعد الرواية، وما الذي ينبغي أن يلتقي عليه جمهور المسلمين في أمر الرواية هذه.

وأنا عندما أشكر القائمين على هذا المؤتمر. الذي له ما بعده من الخير للأمة جمعاء. أحب أن أضع اقتراحاً وألح عليه. أتمنى لوأن المؤتمر الثاني الذي يأتي على أعقاب هذا المؤتمر تكون أطروحته الرواية. مسألة الرواية في التاريخ الإسلامي، وكيف لعبت هذه الرواية دوراً في جمع ما تفرق، ثم كيف لعبت فيها بعد ذلك دوراً في تفريق فيما هو مجتمع وملتحم. وأقول قولي هذا وأعيد شكري. وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل جهودكم مبرورة وأن يتوج أعمالنا جميعاً بالإخلاص لوجه الله سبحانه وتعالى والسلام عليكم.



حجة الإسلام الدكتور واعظ زاده خراساني
امين عام مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية
في الجمهورية الإسلامية الإيرانية



دور الإمام الصادق (ع) في الحركة العلمية في صدر الإسلام



بسم الله الرحمن الرحيم

يسرني غاية السرور وأنا أشارك في هذا الملتقى العظيم المكرّس لدراسة الأبعاد الفكرية المترامية الأطراف لأحد الأئمة العظام من عترة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، راجياً السماح لي بالدخول في صلب الموضوع:

بالقطع إن سيدنا الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، يُعد من الرعيل الأول للحركة والنهضة العلمية في الإسلام، في أوائل القرن الثاني الهجري، وذلك بعد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس، وهو من الوجوه المشرقة التي استقطبت من حولها طبقة العلماء سيما من المحدثين والفقهاء وأهل الكلام وتفسير القرآن.

ونحن نغور في أعماق شخصية الإمام العلمية، تتجلى لنا الكثير من الحقائق المطمورة حول كيفية تنامي وانتشار وتبلور الثقافة والعلوم الإسلامية.

وكما هو أسلوب هذا الإمام العلوي الجليل، في رحاب السياسة، والتربية والتعليم وتأهيل وتخريج العلماء الملتزمين في أيامه الغابرة، فإن حياته وسيرته هي الأخرى حافلة بالدروس والعظات لجميع العلماء والمفكرين والمصلحين على توالي العصور..

ومن خلال التحقيق وسَبر أغوار كتب الحديث والتفسير والسيرة والتاريخ تبرز معالم شخصيته الفذة في جميع مدارج العلم، وحضوره في الأحداث السياسية المختلفة بشكل غير مباشر وقد اعترف من منهله العذب تلامذة كبار من الفقه والتاريخ والتفسير والكلام وردت أسماؤهم وآثارهم وأحياناً آراؤهم في الكتب. ولئن كان حديثنا مكرّساً لدراسة تأثير الإمام الصادق(ع) في الحركة العلمية للقرن الثاني الهجري، فإننا وكمدخل للموضوع وتوضيح ما يلزم إيضاحه سنحاول وعلى قدر الايجاز الأخذ بجوانب هذه الحركة العلمية، كي نأتي بعدئذ على شرح مهمة الإمام الكبير في انضاج ثمار هذه الحركة.

مطلع الحركة العلمية في الإسلام

العلوم الإسلامية بمعناها الخاص تعني الفقه والعقيدة والكلام والتفسير والأخلاق والتاريخ وهي مخزونة في الصدور كانت تتناقلها الألسن، رعيل بعد رعيل حتى أواخر القرن الأول. وحسب أقوال المؤرخين والمحدثين فإن العلوم الإسلامية عموماً والحديث خصوصاً وحتى ذلك التاريخ لم يصار إلى تدوينها، حتى كان النصف الأول من القرن الثاني حيث باشر المحدثون في المدن الكبرى والمراكز العلمية الإسلامية بتدوين الحديث سنأتي على شرحه.

إن هذا الكلام وعمومياته حول تدوين الحديث، يجافي الصواب، وللإيضاح، أن أغلب صحابة الرسول لم يكونوا من أهل الكتابة فلم يُدونوا ما كانوا يسمعونه من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وحول الإذن بضبط الحديث، هناك قولان في الظاهر مختلفان ومتضادان عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد بحث وجدل طويل انتهى المحققون إلى الجمع بين القولين على النحو التالي:

الأول - إن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم منع تدوين الحديث في البداية خشية أن يختلط الحديث، بالقرآن، وفي أواخر حياته وبعد نشر القرآن زال الخطر فسمح بالتدوين.

الثاني - كان يسمح بصفة خاصة للأشخاص الموثوق بصحة ضبطهم وتدوينهم، بتدوين كلامه، ولكن المنع كان الصفة العامة، هذا الكلام إذا كان يصح بحق جميع الصحابة، فإنه لا يصح بحق مصادر الشيعة الإمامية وخاصة (علي) عليه السلام الذي دوَّن حديث الرسول في كتاب باسم كتاب علي انتقل ارثا لأئمة أهل البيت. مهما يكن فهذا الأمر كان يخص الصحابة غير أن المسلَّم به أن التابعين دُرجوا على تدوين الحديث، وقد تجمعت الأحاديث لدى بعض التابعين ومنهم محمد بن شهاب الزهري المتوفى سنة مائة

وخمس وعشرين هجرية واستاذ مالك بن أنس حتى قيل أنه كان يجلس في بيته بين مجاميع الكتب.

ونقل عن الذهبي وابن حجر أن مباشرة التدوين بدأت في منتصف القرن الثاني، قال الذهبي: «في سنة مائة وثلاث وأربعين شرع علماء الإسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه فَصَنَّف ابن جريج بمكة، ومالك المُوطَّأ بالمدينة، والأوزاعي بالشام، وابن أبي عروبة وحمّاد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، ومعمر باليمن، وسفيان الثوري بالكوفة، وصنّف ابن اسحاق المغازي. وصنّف أبو حنيفة رحمه الله الفقه والرأي، ثم بعد يسير صنف هشيم والليث وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب، وكثر تدوين العلم وتبويبه، دونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة.»

أما ابن حجر فيقول في شرح البخاري: «أول من جمع ذلك. (أي الحديث) الربيع بن صبيح المتوفى سنةمائةوستين هـ،وسعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة مائة وست وخمسين هـ، إلى أن انتهى الأمر إلى كبار الطبقة الثالثة، وصنف الإمام مالك الموطّأ بالمدينة المتوفى سنة مائة وتسع وسبعين هـ، وعبد الملك بن جريج بمكة المتوفى سنة مائة وخمسين هـ، والأوزاعي المتوفى سنة مائة وست وخمسين هـ، بالشام، وسفيان الثوري المتوفى سنة مائة وواحد وستين هـ، بالكوفة، وحماد بن سلمة بن دينار المتوفى سنة مائة وست وسبعين هـ بالبصرة، ثم تلاهم كثير من الأئمة في التصنيف كلٌّ حسب ما سنح له وانتهى إليه علمه.».

إذا أردنا استكمال أو تصحيح أقوال الذهبي وابن حجر، فلا بد أن نضيف إليها ملاحظتين:

الأولى: المقصود بمباشرة التدوين في هذا العصر من قِبَل هؤلاء ليس أن الذين سبقوهم لم يخطّوا الحديث على الصحائف أو نقل الحديث من الحافظة إلى الورق، لكن المقصود هو أنه في السابق لم يجر تدوين الحديث في كتب مصنفة ومبوبة وذاك لا يعني أن المحدثين، لم يدونوا ما كانوا يسمعونه في ورق أو حسب قول الذهبي في صحائف. . ثم أنه وفقاً لتحقيق الدكتور أحمد أمين: هذه الفترة من تدوين الحديث، هي غير تلك التي قرر فيها الخليفة الثاني، وكذلك عمر بن عبد العزيز القيام بالتدوين. وللمزيد من التوضيح: فقد كتبوا، أن الخليفة الثاني طرح هذا الموضوع مع الصحابة، وقال يُجمع سنة الرسول كما جُمع القرآن وانهم وافقوه على ذلك، ولكن بعد شهر، قال الخليفة ذلك ليس من الصلاح فالذين سبقونا من أهل الكتاب فعلوا ذلك حتى كان من بني إسرائيل، أن وضعوا التوراة جانباً وتمسكوا بالسنة.

في نهاية القرن الأول، شاء عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموي أن يعمل بهذا الرأي فكتب إلى عُماله في المدن ومنها المدينة وكتب إلى أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم قاضي المدينة يطلب منه جمع حديث الرسول وإرساله له، ومع شكّنا في نجاح الخليفة الأموي في عمله، فقد جاء في تاريخ البخاري أنه أنجز العمل، وحتى إذا كان قد أنجزه لم يبق له أثر.

ونضيف على هذا التوضيح أن ما تم في القرن الثاني كان يختلف عما طلبه الخليفتان بجمع السنة

والحديث لتكون السنة كالقرآن في كتاب واحد، غير أن علماء القرن الثاني اكتفوا بجمع الحديث الدائر في مدنهم.

الملاحظة الثانية: كل ما قيل حتى الآن كان يخص تاريخ الحديث عند أهل السنة، أما تاريخ الحديث لدى الإمامية هناك شواهد تقول: إن بعض أنصار علي(ع) ومنهم أبو رافع كاتبه وابنيه عبيد الله وعلي، جمعوا قضاء الإمام بين دفتي كتاب واحد. وهناك آثار مخطوطة عن علي(ع) والأئمة(ع) من بعده، سبقت تاريخ تدوين الحديث.

ومما يتضح أنه حتى التابعين لم يرضوا عن نشر كتبهم وكانوا يتلفونها قبل موتهم، وفي القرن الثاني راجت حركة التدوين والنشر بالشكل الذي أوضحناه.

رواج كتب الحديث وتدوينه

١ ـ القضية التي تستحق النظر هنا، هي لماذا بوشر بتدوين الحديث في وقت واحد تقريباً في المدن المختلفة ومن الذي كان السبّاق في هذا المضمار؟!

يذهب البعض إلى القول بما أن (ابن جريج) قد توفي قبل الآخرين ربما كان رائد حركة التدوين. ولكونه كان في مكة، فإن حجاج بيت الله استنسخوا كتابه وتداولوه في مدنهم المختلفة، ثم تبع المحدثون نهجه، فجمع كل منهم ما تيسر له من الأحاديث ودونوه في كتبهم. أما العامل الأخير المحفز لجمع الحديث في ذلك العهد كما قالوا هو ان فقهاء العراق وعلى رأسهم الإمام أبو حنيفة راحوا يعملون بالقياس ثم إن علماء باقي الأمصار الذين أبوا الأخذ بالقياس والرأي وعلى نحو خاص فقهاء مكة والمدينة وبغية الوقوف أمام أهل الرأي والقياس نشطوا في جمع الحديث للحفاظ حسب تقديرهم على سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ونبذ الأخذ بالرأي التي اعتبروها بدعة..

وكما هو الملاحظ فهذه الأسباب يمكن قبول كل واحدة منها في مكانها، لكنها لا تعكس السبب الأساس أو علة العلل، ولا بد من إضافة ملاحظتين عليهما:

الأولى: يبدو أن الشوق واللهفة كانت تحدو العلماء للتأليف والتصنيف وتدوين الحديث منذ فجر الإسلام، وهذا أمر لا يُنكر، لكن ما يستحق التأمل، هو تحري السبب في تأخر هذا العمل، ولماذا لم يأخذوا بالتدوين في وقت مبكر؟!.

يمكن الإشارة إلى عدة أمور بهذا الشأن:

أ : يتبع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو المصدر الأول للحديث. عن كتابته حسب ما سبق القول فيه.

ب: منع الخليفة الثاني الذي يبدو أنه تحول إلى سُنة، ثم تابع خلفاء بني أمية ما عدا عمر بن عبد العزيز هذه السنة بمنع تدوين الحديث أو في الأقل عدم الترحيب به أو تشجيع الآخرين عليه.

ج: المجادلات والخلافات السياسية والدينية، بين الفرق المتباينة، مثل الخوارج والشيعة والمرجئة، والنزاع بين الحسن البصري وواصل بن عطاء والذي انتهى بظهور مذهب المعتزلة إلى جانب استمرار الحروب الدامية بين علي عليه السلام ومعاوية وبين أسرة الزبير وبني أمية وبين الأخيرين والمختار ثم الحركات المتتابعة لآل وأولاد الإمام علي(ع) والتي غطت فترة من حكم بني أمية. حتى قامت خلافة بني العباس على عهد منصور الدوانيقي، واستتب الا ستقرار النسبي الذي أتاح الأجواء وشجع على تدوين الحديث. لهذا يمكن القول أن المادة كانت متوفرة لمباشرة هذا العمل مع وجود الموانع الذي زال بانتقال الخلافة. ثم إن المنصور شخصياً كما قيل كان رجلاً مستنيراً محباً للعلم ومشجعاً العلماء على التأليف، وطلب من محمد بن اسحاق صاحب المغازي أن يدون سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لابنه المهدي، فألّف المغازي.

وأساساً فإن الفرس وهم العامل الأصلي لانتقال الخلافة إلى بني العباس كانوا يهتمون أكثر من العرب بالعلوم والفنون ولهم باع طويل في هذا الميدان، وهذا ساعد بدوره على تقدم العلوم في هذا الوقت.

الملاحظة الثانية: وهي ترتبط بموضوع بحثنا الأصلي الذي سنأتي على ذكره بعد هذه المقدمة، ونقول صحيح أن الباحثين والمحققين خاضوا في جميع أسباب هذه النهضة العلمية، غير أنهم أغفلوا سبباً مهماً، وهو دور أئمة أهل البيت عليهم السلام سيّما الإمام الصادق(ع) شخصياً في تفتح وازدهار هذه النهضة العلمية المباركة.

دور أئمة أهل البيت في النهضة العلمية:

يعود دور أهل بيت الرسول عليهم السلام في نشر العلوم الإسلامية إلى عهد الإمام علي(ع) وزيادته لهذه النهضة. فعلي عليه السلام وبشهادة الصحابة والتابعين كان، أعلم الصحابة بالكتاب والسنة والفقه والقضاء، والشواهد على ذلك تفوق العد والحصر. فكتب الفريقين زاخرة برواياته نقلاً عن الرسول، وبكلماته هو.

فالإمام أحمد بن حنبل أفرد فصلاً من مسنده باسم (مسند علي) نقل عنه ما يقرب من ثلاثة آلاف حديث، وعلي عليه السلام يعتبر في هذا المسند في عداد المكثرين في الحديث وهو بعد ابي هريرة فاق الآخرين في أحاديثه.

وهذه الأحاديث الكثيرة والمبعثرة في ذات الوقت كانت تتناقلها الألسن، وكل كان يحفظ مجموعة منها ينقلها للآخرين، أما مجموعتها الكاملة حسب عقيدة الشيعة، كانت محفوظة لدى أئمة أهل البيت عليهم

السلام يرثها بعضهم من بعض وينشرونها بين أتباعهم، ولقد وصلتنا أحاديث علي عليه السلام من خمسة طرق. الأولى: من كتب أهل السنة بطرقهم الخاصة. وهذا كأكثر مافي مسند أحمد وباقي مسانيد أهل السنة. الثاني: عن طريق أئمة أهل البيت(ع)، ولكن بواسطة رواة جمهور أهل السنة وعددهم كبير سنأتي على هذا الجانب بشكل خاص في حينه، الثالث: عن طريق رواة الشيعة الإمامية الذين نقلوا الجانب الأكبر لروايات الأئمة(ع). الرابع: عن طريق رواة طائفة الزيدية وهي منسوبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب عليهم السلام، وزيد هو رجل العلم والزهد والثورة الذي انتفض سنة مائة واثنين وعشرين هـ ضد خلافة بني أمية، وأخفق واستشهد في الكوفة لكنه وجَّه ضربة قاتلة إلى خلافة بني أمية ومهد لانقراضها. وهذه الروايات جاءت في كتاب (المجموع الفقهي) أو (مسند زيد بن علي) وكتاب (رأب الصدع) المعروف لصاحبه (الأمالي) (لأحمد بن عيسى بن زيد) وأمالي الشجري وسائر كتب الزيدية ومنها كتاب (البحر) الزخار وحجمها مما يعتد به، الخامسة: عن طريق طائفة الإسماعيلية (أو شيعة الأئمة الستة) المنسوبة إلى (إسماعيل بن جعفر بن محمد). وهذه الفرقة وبعد وفاة الإمام الصادق(ع) عام مائة وثمان وأربعون هـ إعتقدت بإمامة نجله إسماعيل المتوفى قبل ذلك ولم يعترفوا كالشيعة الأثني عشرية بإمامة موسى بن جعفر(ع)، ثم تفرعت إلى عدة فرق وبقيت منها فرقتان معروفتان: الأولى (البهرة) والثانية (الأغاخانية).

وروايات أهل البيت عن طريق الإسماعيلية تنحصر تقريباً بالكتاب المعروف والمعتبر (دعائم الإسلام) تأليف (القاضي نعمان المصري) وهوالفقيه الكبير والقاضي وداعي دعاة الخلفاء الفاطميين وله مؤلفات جمة غنية بالمضامين، توفي سنة ثلاثمائة وثلاث وستين في القاهرة.

ونقل القاضي نعمان مجموعة فقهية عن سيدنا الصادق والأئمة(ع) من قبله دون سند، ووصل الكثير منها عن طريق الأئمة عن علي عليه السلام والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم. فما هو مستند (القاضي نعمان) في نقل روايات الأئمة(ع) مع تفصله عن الإمام الصادق عليه السلام فترة زمنية طولها مائة وخمسين عاماً فهذا بحث طويل نصرف النظر عنه.

وما ذكر من طرق روايات علي عليه السلام وفي طرق روايات الأئمة الآخرين حتى الإمام الصادق(ع)، سيما وأن حجم روايات كثيرة عن طريق الفريقين وأحد البحوث المهمة التي لم تُحظى بعناية المحققين هي مقارنة روايات أهل البيت عليهم السلام المروية عن هذه الطرق الخمسة لتقدير مواضع الاتفاق والمعارضة بينها، ومعرفة أكثر الطرق اعتباراً وثقة، وإذا كان هناك تعارض فما هو السبب له؟ ثم لمعرفة عدد الروايات الخاصة بطريق واحد من هذه الطرق الخمسة وعدد الروايات المشتركة بينها فاختلاف هذه الروايات هو بالتأكيد أحد أسباب اختلاف السنة والشيعة، وكذلك اختلاف الشيعة الإمامية مع سائر الفرق الشيعية. وحتى الاختلاف داخل إحدى هذه الفرق أنفسهم وليد هذه الروايات المتعارضة. . أهمية

هذا البحث ليس بغائب عن أذهان المحققين برغم إهماله وتغافله .

كتاب حديث العترة عن طريق أهل السنة :

لقد لفت انتباهي قبل خمس وثلاثين عاماً أن روايات أهل البيت(ع) لم تأت عن طريق الشيعة الإمامية وسائر فرق الشيعة فحسب، وإنما هي شائعة بكثرة لدى أهل السنة . وسجلت هذه الملاحظة في وقتها في مقدمة كتاب (المقنع والهداية) للشيخ الصدوق، ثم عكفت شخصياً بعد سنوات على جمع هذه الروايات من الكتب المعتبرة والمهمة للحديث والسيرة والتفسير من القرن الثاني وحتى السادس وأخذتني الحيرة والدهشة حينما استخرجت أكثر من عشرة آلاف حديث لموضوعات مختلفة ضبطتها حسب أبوابها، وقدّمتها لعدد من مدرسي قم من المنكبين بشوق على هذا الجانب ليزيدوا عليها روايات الكتب الأخرى ولطبعه أخيراً، ولا زالوا يواصلون عملهم، فإذا قدّر لهذا الكتاب أن ينشر بالصورة المتوخاة وبمقدمته الحافلة بالفوائد الزاخرة، فسيقدم خدمة كبرى للفقه والحديث والتاريخ و. . . وربما أحدث تحولاً في هذه العلوم . وإحدى ثمار هذا العمل، هو الكشف عن هذه الحقيقة، وهي أن الآواصر الودية بين علماء ومحدثي أهل السنة الأعلام وأئمة أهل البيت(ع)، سيما مع سيدنا الإمام الصادق(ع) والتتلمذ على يديه وأخذ الأحكام والأحاديث عنه كانت رائجة ومألوفة يومذاك وهذه إحدى سبل التقريب بين المذاهب.

عدد الرواة وأصحاب سَيدنا الصادق(ع) :

بين أئمة أهل البيت عليهم السلام فإن حظ الباقر والصادق عليهما السلام أوفر من غيرهم في نشر العلوم ونقل الروايات، وأحاديثهم المدونة في بطون الكتب أكثر بشكل ملموس من أحاديث الآخرين . ومرد ذلك أن الأئمة من أهل البيت وبعد علي(ع) وخاصة بعد واقعة كربلاء وعلى عهد الحجاج بن يوسف الثقفي الحاكم الأموي الدموي على العراق، كانوا يعانون من الضغوط فما كانوا يفلحون في نشر علومهم حتى كان العام خمس وتسعين بعد موت الحجاج، حيث خفّ الضغط عليهم، وشاعت بعض أجواء الحرية . ومن الصدف، أن الدعوة العباسية راحت تنتشر خلال هذه السنوات، ذلك لأن إبراهيم الإمام كان باشر نشر دعوته منذ بداية القرن الثاني، وتواصلت بضعة عقود،حتى أثمرت العام مائة واثنين وثلاثين وحل بنو العباس مكان بني أمية .

وطوال هذه الفترة انشغل الأمويين والعباسيون بحروبهم الداخلية ولهذا سَلُم أهل البيت(ع) من مضايقاتهم الكثيرة . وهذه الفترة التي بدأت منذ خمس وتسعين، امتدت حوالي سبعين عاماً حتى بلغت حقبة إمامة سيدنا الباقر(ع) (مائة وأربعة عشر هـ) وسيدنا الصادق(ع) (مائة وثمانية وأربعين هـ) . وشطراً

من حقبة أمامة سيدنا موسى بن جعفر عليه السلام، وخلال هذه الحقبة الطويلة تفرّغ الإمامان وإلى حد ما الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لنشر علومهم وأفكارهم النيرة.

وفيما يخص الإمام الصادق(ع) فإن الأرضية كانت متاحة لعدة أسباب:

أولاً: فترة إمامته كانت ممتدة منذ وفاة والده (مائة وأربعة عشر هـ) حتى (مائة وثمانية وأربعين هـ) بمعنى امتدادها اربع وثلاثين عاماً.

ثانياً: إمتداد التحولات والمشاحنات السياسية والعسكرية التي أتاحت فرصة ذهبية للإمام، ولانتشار العلوم، ذلك لأن الأحداث التي سبقت وتلت الخلافة العباسية جرت على عهده.

ثالثاً: إلمام وإحاطة الكثير من الطلبة والمحدثين بمعارف أهل البيت(ع)، الذين استلذوا حلاوة الكلام وهم يسمعونه من سيدنا الباقر(ع)، فزادهم الظمأ بالاغتراف من ينابيع علوم أهل بيت الرسول العذبة النقية فانعقدت حلقاتهم بشوق لاهب حول الإمام الصادق(ع).

رابعاً: مما زاد في شدة هذا الشوق ذياع صيت سيدنا الصادق(ع) في الآفاق..

خامساً: إعراض الإمام الصادق(ع)عن جميع الأحداث السياسيةمباشرة وانكبابه على نشرالعلوم مما ساعد طلاب العلم على ارتياد مجالسه دون خشية أو خوف.

سادساً: رواج سوق العلوم والمعارف وتعاظم أعداد العلماء والباحثين عن العلوم، واتساع دائرة العلوم الإسلامية وكذلك العلوم الدخيلة والتي كانت (كما أسلفنا سابقاً) مؤثرةً شأن سيدنا الصادق(ع).

سابعاً: الإمام الصادق(ع) فضلاً عن إحاطته بالعلوم الدينية كالفقه والتفسير والكلام ومعارف القرآن، وبشهادة روايات كثيرة منها الآثار المنسوبة إلى جابر بن حيّان والتي هي في حاجةٍ إلى أفراد بحث خاص به) محيطاً بالعلوم الطبيعية.

وانعكست معالم إحاطته بهذه العلوم في هذه الكتب وفي روايات مفضّل بن عمروآخرين غيره. وهذا الجانب من علومه الزاخرة جمع لا محالة من حول الإمام أعداداً من الطلبة الخواصّ.

وهذه الأسباب وغيرها رسمت بمجموعها صورةً منيرةً مشرقةً زاهيةً للإمام الصادق(ع) في الأذهان، وربما لم تتوفر حتى ذلك التاريخ، لغير الإمام دواعي مثل هذه الشهرة والمكانة العلمية المرموقة الشاملة، كما لم تتوفر لسواه مثل هذا العدد الكبير من الرواة والتلامذة.

ومن هنا يمكن مقارنة مكانة الإمام الصادق(ع) في عصره بمكانة علي عليه السلام في زمانه، وربما كانت كفة الصادق(ع) وبحكم ظروف زمانه، أرجح حتى من كفة جدّه علي(ع).

على أية حال لقد تظافرت كل هذه الأسباب والعلل أن يكون الإمام الصادق أوفر حظاً باغتنام هذه الفرصة الذهبية التي وفرّها الزمان من أبيهالعظيم سيدنا الباقرونجله الكريم سيدنا موسى بن جعفرعليهم السلام.

حلقة أو حوزة تدريس الإمام الصادق(ع) في الكوفة :

الإمام الصادق(ع) إلى جانب نشره العلوم في المدينة، كان قد انتقل غير مرة إلى الكوفة وحلّ فيها، كقلعة حصينة لظهور وانتشار التشيع، وكان يُلقي دروسه في مسجد الكوفة في زاوية تسمى حتى اليوم بمقام الإمام الصادق(ع). ويظهر من التحقيق في أحوال رواته، أن غالبيتهم كانوا من أهل الكوفة.

وقد تقيد الشيخ الطوسي في كتابه الفهرست، وأبو العباس نجاشي في كتابه المعروف (رجال النجاشي) بذكر مثال هؤلاء الرواة باسم (الكوفي) لأن التقيد بذلك قد يعني التلميح بقوة أو ضعف الراوي أو هو رمز إلى تشيّعه لكثرة من بها من الشيعة، ومهما يكن من حال فالواضح تماماً أن الكوفة كانت المحطة الأولى والأهم لنشر التشيع وعلوم أهل البيت(ع) وهي كالأم لباقي المراكز العلمية الشيعية، ونذكر للمثال: ما نقله النجاشي: أن أحمد بن محمد بن عيسى الأشعري القمي الذي كان أحد المحدثين والرؤساء الكبار في قم يقول: ذهبت إلى الكوفة لتحصيل الحديث، وحضرت مجلس حسن بن علي الوشّاء أحد أصحاب الإمام الرضا عليه السلام، لأخذ الحديث عنه، فأعطاني كتاباً وقال: استنسخ هذا لأقرأه عليك بعدئذ، قلت له لا آمن حوادث الدهر، إقرأه الساعة عليّ (يقصد أخشى أن تموت أو يحدث ما يحرمني من فيض سماع الحديث عنك) قال رحمه الله لوالدي إذهب اكتب وتعال، ولو كنت أعلم أن طلاب هذا الحديث بهذه الكثرة، لجمعته قبل ذلك، لأني رأيت في هذا المسجد (مسجد الكوفة) تسعمائة شيخ يقولون: حدثنا جعفر بن محمد. !!

عدد رواة الإمام الصادق(ع):

أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد المعروف (ابن عقدة) من علماء الزيدية ومشايخ الرواية عن رجال الشيعة الإمامية المتوفى سنة ثلاثمائة وتسعة وأربعين هـ وضع كتاباً برواة الإمام الصادق(ع) فعد منهم أربعة آلاف راوي، وإن كان هذا الكتاب غير موجود حالياً، فمن المؤكد أن الشيخ الطوسي، وسائر العلماء في العصور الأولى، قد استفادوا منه.

فالشيخ الطوسي في كتابه الرجال فَهْرَسَ أسماء أصحاب الإمام الصادق(ع) حسب حروف (الألف باء)، فبلغ عددهم ثلاثة آلاف ومائتين وثلاث وعشرين وهو أقل بمقدار سبعمائة وسبع وسبعين شخصاً عن العدد الذي ذكره ابن عقدة، وإذا كان الشيخ الطوسي قد رأى كتاب ابن عقدة وفيه رقم أربعة آلاف شخص، فغير واضح السبب في عدم ذكرهم في كتابه تماماً.

على أية حال إن مراجع الشيخ الطوسي ومصادره في ذكر عدد الرواة وأصحاب الإمام الصادق(ع) وسائر الأئمة غير واضحة لنا، فهل نقل ذلك من أقوال الآخرين، أو أنه استخرج هذا الرقم بعد التحقيق

في الأسانيد والأحاديث والفهارس وبعض كتب الرجال.

والطريق الأسلم والأصوب لتسجيل أسماء رواة هذا الإمام وباقي الأئمة عليهم السلام هو التحقيق والبحث في جميع كتب الشيعة والسنة، لتثبيت أسماء رواة كل إمام.

ولقد كان المرحوم الأستاذ الكبير آية الله البروجردي وضع مجموعتين من الكتب حول عدد من أمهات كتب الحديث مثل الكافي للكليني، والتهذيب للشيخ الطوسي، ومن لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق وباقي كتبه، وعدد من كتب الرجال، وهي معدّة للطبع تحت إشرافي في مؤسسة البحوث الإسلامية بالروضة الرضوية في مشهد المقدس. والتعرف على هذه الكتب يحتاج إلى بحث طويل جاء في مقدمة الكتاب المسمى (ترتيب أسانيد الكافي). وهو أول كتاب من هذه المجموعة يُطبع، وهو بالفعل تحت الطبع.

صحيح أن كتاب الرجال للشيخ الطوسي لم ترد فيه أسماء جميع رواة الإمام الصادق وسائر الأئمة وأن الشيخ اكتفى بكل ما سنحت له من الأسماء ولكن مع ملاحظة ومقارنة الأرقام يتضح تماماً أن أصحاب سيدنا الإمام الصادق هم أضعاف أصحاب كل واحد من هؤلاء الأئمة، ويعادلون تقريباً جميع رواتهم.

تحديد مذهب رواة سيدنا الصادق(ع):

نظراً لشخصية الإمام الرفيعة ومنزلته الكريمة قد يتصور البعض أن جميع طلابه كانوا من الشيعة، ومثل هذا التصور موجود لدى الناس بالنسبة لصحابة وأنصار علي عليه السلام وباقي أئمة أهل البيت(ع)، غير أن الشواهد تظهر خلاف ذلك أما بالنسبة لأنصار علي(ع) سوى تلك النخبة الخاصة من أصحابه فإن البقية، كانوا من الفقهاء والمحدثين المشهورين لأهل السنة، وارتباطهم بعلي(ع) كان من باب تأييدهم لخلافته الرسمية والشرعية بعد عثمان، مقابل أصحاب الجَمَل وصفين وأهل النهروان الذين لم يعترفوا بخلافته فإذا كان هؤلاء يحبون علياً وأهل البيت(ع) كانوا بوصفهم من الشيعة عامة وليسوا من الخواص.

أما بالنسبة لأصحاب وطلاب الإمام الصادق(ع) فقد ثبت تماماً بمراجعة الكتب وشرح أحوالهم أن بعضهم كانوا من العلماء المعروفين لأهل السنة لهم منزلة الافتاء والقضاء. وبينهم الكثير من أسر الصحابة والخلفاء وعدد منهم من المتكلمين المشهورين وبينهم أشخاص من آل علي(ع) قاموا ضد الحكومة وقتذاك[1].

ارتباط الأئمة الأربعة بالإمام الصادق(ع):

الإمام أبو حنيفة

الإمام أبو حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠)، من حيث الزمان أقدم الأئمة الأربعة وكانت تربطه صلة وثيقة بالإمام الصادق ووالده الكبير سيدنا الباقر(ع)، ويتقارب تاريخ مولده ووفاته مع الإمام الصادق(ع) المولود (خمس وثمانين) والمتوفى (مائة وثمان وأربعين)، ولهذا يرى بعض العلماء ومنهم الشيخ أبو زهرة في كتابه الإمام الصادق، أن ارتباطهما هي رابطة المعاصرة وليس رابطة الطالب بالاستاذ، وتذهب بعض الروايات إلى القول أن الإمام الصادق(ع) كان يخاطبه بفقيه العراق، وكان يتعامل معه كعالم وليس كطالب.

وهناك روايات في جامع المسانيد تقول: أن أبا حنيفة نقل روايات عن الإمام الصادق عليه السلام

الإمام مالك:

الإمام مالك بن أنس إمام أهل المدينة (٠ ـ ١٧٩) وزعيم المذهب المالكي أدرك الصادق وهو في أواسط حياته ونهل من ينبوعه. ويروى مالك في كتابه (الموطأ) ثلاثون حديثاً عن أئمة أهل البيت بعدة طرق:

١ ـ مالك عن ابن شهاب عن علي بن الحسين(ع).
٢ ـ مالك عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن محمد بن علي بن الحسين(ع).
٣ ـ مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي بن أبي طالب(ع).
٤ ـ مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ونقل مالك وسائر أهل السنة كيفية حج رسول الله بهذا الطرق. ولهذا قال أبو حنيفة (لولا جعفر بن محمد ما علم الناس مناسك حجّهم).

وفضلاً عن مالك، فقد نقل محمد بن إسحاق في كتابه المغازي روايات مباشرة «عن سيدنا الصادق والباقر عليهما السلام.

الإمام الشافعي ـ الإمام أحمد بن حنبل:

وأما الإمام الشافعي(١٥٠ ـ ٢٠٤)، والإمام أحمد بن حنبل(م ٢٤١) وبرغم انعدام السند الذي يثبت اتصالهم بواحد من الأئمة، ولكن هناك أحاديث في كتاب (ترتيب مسند الشافعي) (ومسند أحمد بن حنبل) منقولة بالواسطة عن الصادق والأئمة من قبله(ع) عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

ونخلص من البحث إلى القول إن الإمام الصادق(ع) كان له الدور الرئيسي ليس في فقه وحديث

الشيعـة وإنـما في حديث أهـل السنة في شتى الجوانب الفقهية والكلامية والتاريخية والتفسيرية ، وإن الكثير من العلماء نهلوا بالـواسطـة أو بلا واسطـة من بحـر علومـه الزاخر. فضلاً عن دوره الذي انفرد به في العلوم الطبيعية والتي انعكست في جملتها في آثار (جابر بن حيان) وفوق كل ذلك دوره غير المباشر والذي لا ينكر في الحركات السياسية العلوية وكان بعضهم من تلامذته .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين



الحواشـي

(١) للأسف الكتـاب لم يذكـر ترتيب أسـماء رواة كل إمـام على حدة ، وإنما ترد الأسماء بعد كل حرف ، حيث قمتُ بمحاسبة أرقام رواة سيدنا الصادق(ع) فقط ، ولكن بمقايسة نسبية واحدةٍ من صفحات الكتاب يمكن الحصول على أرقام الرواة وهي كالآتي :

مثل :

إسماعيل ابن زياد الكوفي ، اسماعيل بن عبد الرحمن الأعمى ، الحسن بن صالح بن حماد وهو من كبار الزيدية ، الحكم بن عتبة ، حماد بن أبي حنيفـة القـاضي ، حفص بن غيـاث القـاضي ، خارجـة بن مصعب ، سليـمان بن مهـران الأعمس ، سفيان سعيد الثوري ، سفيان بن عُيينة ، عبد الله بن عبد الرحمن ، عبد الله شبرمة ، عبد الله بن الحسن الشيباني اخو محمد ابن الحسن ، عبد الـرحمن بن غمـر الأوزاعي ، رضى عبـد الملك بن جريـج ، عمـرو بن حجيـج قاض المـوسى ، هشـام بن عروة ، عمـر بن عبـد البصري ، محمد بن إسحاق ، موسى بن عقبة ، عباس بن إبراهيم .



الدكتور حسن جابر



المدلول السياسي لحركة الإمام جعفر الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

دراسة التجربة السياسية للإمام الصادق(ع) واحدة من الدراسات التي سبق وتناولتها الكثير من الأقلام في مختلف العصور السابقة، وطاولت ليس فقط الإمام السادس من أئمة أهل البيت(ع) بل مختلف تجارب الأئمة(ع). غير أنّ ما يميز بعض الكتابات المعاصرة عمّا سبقها ملاحظتها لخصوصيات التجربة الخاصة في إطار المجرى العام لسياسة الأئمة(ع)، فلم تعد الدراسة مجرد سرد حوادثي ـ وقائعي لتفاصيل حياة كل إمام وإنما تخطت ذلك إلى الدراسة الموضوعية العامة لمسار الخط السياسي الشامل لمختلف الأئمة؛ بحيث يتم تحديد الشكل الخاص من الممارسة في إطار الدراسة العامة والرؤية الواحدة لمختلف أشكال الفعل السياسي عند الأئمة(ع).

إلّا أن الـدراسـات المـوضـوعيـة المعـاصـرة لم تصل في معالجاتها إلى حدود حل الإشكالات الفقهية والسياسية التي لا تزال تفعل فعلها في أذهان شرائح واسعة من فقهائنا وعلمائنا وأتباعهم، وبقيت تتحرك في إطـار تسجيـل مسطـح لمختلف الأسـاليب، وإن كنت أشـك في دقة المعالجة وبالتالي صحة النتائج التي تم التوصل إليها والتي في كل الأحوال تبقى دون المستوى المطلوب.

إن أرضيـة الخـلاف في ما أنجـز من دراسـات حديثة عن الأئمة(ع) والإمام الصادق(ع) تحديداً، لم تتعد أفق المقارنة العملية بين تجربة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مكة والمدينة ومجموع تجارب الأئمة(ع)، فكان تعدد أدوار الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تماماً كتعدد أدوار الأئمة مجتمعين.

وهـذا التقـويم المـوجـز يفترض وجود حالة ضعف في الدراسات المختلفة عن الأئمة(ع)، ويفترض بالتـالي ضرورة إعـادة النظـر بمجمـل الـدراسـات والانكبـاب على المخزون الهائل من الروايات والكتب التاريخية لدراستها بدقة وشمول لأنه بغير هذا الجهد سبتقى الأحكام السابقة التي أطلقها مختلف الدارسين متزلزلة وغير ثابتة ولا تبعث على الطمأنينة والإرتياح.

ما ذكر، حتى الآن، يطرح جملة تساؤلات حول البعد الزمكاني لبعض المواقف والممارسات، وفيما إذا كانت التجـارب العمليـة بمثـابـة قوانـين عامـة وثـابتـة يلزم من استخـدامهـا في ظرف ما وواقـع ما تقيم استخدامها، لزوماً، في كل الظروف، أم أنها شكل من أشكال الممارسة التي لا تدل على اللزوم وإنما تدل في الحد الأدنى على الإباحة، أي إباحة التصرف سياسياً بشكل ما إذا تشابهت الوقائع والظروف. ما تقدم بات كافياً ليشكل مقدمة تشرع الباب أمام معالجة تجربة الإمام الصادق(ع) السياسية، على مستوى أفق الدراسة وشكلها المنهجي.

لكن قبـل الخـوض في خصـوص الحياة السياسية للإمام السادس(ع)، لا بدّ من إطلالة سريعة جداً على المراحل السابقة لأنها وكما سيظهر فيما بعد ساهمت إلى حدٍ كبيرٍ في رسم المسار العام للأئمة(ع) ومنهم الإمام أبو عبد الله الصادق(ع).

وعندما نذكر المراحل السابقة نقصد تجربة أمير المؤمنين(ع) وما تلاها حتى الإمام الصادق(ع).

لا شك أن تجربة الإمام علي(ع) أرخت بظلها على مختلف أساليب الأئمة(ع)، بإعتبار ما تخللها من معـوقـات وعـوائق حالت دون انتظـام أمـر المـمارسـة السياسية وبالتالي أدائها المستقر والسليم، الأمر الذي أضعف من وهج أصالة وعدالة وسلامة اطروحة الإمام في السلطة والحكم، وجعل الأطروحة ملتبسة على الرأي العام آنذاك وعاصية على الأفهام، مما حوّل الرأي العالم إلى دمية تتقاذفها أهواء الطامحين والطامعين

بالسلطـة وعلى رأس هؤلاء معـاويـة بن أبي سفيـان الذي أسعفه الحظ باستشهاد الإمام فاندفع بكل قوته لإزاحـة الإمـام الحسن(ع) من أمـام طمـوحـاتـه الشخصيـة غير المحدودة التي لم تكن ترضى بأقل من محو

اطروحة الأئمة(ع) من ذاكرة الناس ومنعها من البقاء كإحدى الأطروحات الإسلامية أمام خيارات الرأي العام.

لقد أدرك الإمام الحسن هذه الحقيقة بالكامل غير أنّ المعطيات التي بحوزته لم تسمح له بمواجهة هذه السياسة الفظة. ويأتي دس السم للإمام(ع) في إطار التوجه نفسه إن لم نقل أنه أحد أبرز تعبيرات السياسة التغييبية لأطروحة آل البيت(ع)، وتنسق الوصية بالولاية ليزيد في الإطار نفسه، بل يمكن القول أنّ تذليل الطريق أمام وصول يزيد إلى السلطة هو أبرز مؤشر أو تعبر عن حقيقة السياسة الأموية التي يشكل السكوت عنها تخلياً عملياً عن الأطروحة أو مساهمة كبيرة في تغييب الأطروحة. من هنا كانت ثورة الإمام الحسين(ع) بحق ضرورة رسالية وتاريخية وإنسانية، لأن تطاول زمن الصبر على التهميش للأطروحة هو لمصلحة التمييع غير المحدود لرسالة السماء، وأنّ إمكانيات الحد من التغييب ستضعف مستقبلاً كلما تأخر زمن التصدي عن وقت الاستحقاق الواقعي للمجابهة.

انطلاقاً من هذا الفهم ندرك دقة وخطورة وعظمة ثورة الإمام الحسين(ع)، التي أعادت بهذا الكم الهائل من الدم المقدس الإعتبار لإطروحة آل البيت التي كان قد أوشك غبار الإهمال المتعمد والتعسف في تمييعها على إخفائها بل ونأي بها بعيداً.

لقد أعاد دم الإمام الحسين الروح إلى جسم إطروحة آل البيت والتوازن إلى الرأي العام الذي أوشك أن يختل بالكامل لمصحلة الأمويين، وفي الواقع، كان الدم، وفق المعطى التاريخي ثمناً باهظاً لتجربة الإمام علي(ع) التي كان مضطراً على ممارستها في غير زمانها وموقعها في حركة وتطور الممارسة السياسية الإسلامية.

لعل الإمام الحسين)(ع) أدرك بالكامل أن تأخر تصدي الأطروحة للسلطة السياسية لن يجبره التصدي المتأخر، وهي حقيقة أثبتتها تجربة أمير المؤمنين وباتت تشكل قناعة ثابتة ومستمرة في مختلف مراحل الأئمة على امتداد العقود والقرون التي عاشوها، كما أدرك أن الصعوبات التي حالت دون السير الطبيعي لتجربة الإمام علي(ع) ستبقى هي نفسها إذا ما كانت الظروف التي أنتجت تلك الصعوبات مستمرة، لهذا لم ير الإمام الحسين(ع) مكسباً لثورته أهم من إعادة الاعتبار للأطروحة لتبقى في دائرة الاستقطاب ولتمارس دورها في بلورة الإسلام وتصحيح مسيرة المسلمين وضبط انحراف الحكام ما أمكن، وهذا يعني أن الإمام لم يستهدف أساساً الوصول إلى موقع سياسي لأنه في ظل الظروف الخاصة التي كان يعيشها سيصل إلى الواقع نفسه الذي وصل إليه الإمام علي(ع).

هذا البعد لثورة الإمام الحسين(ع) كان في غاية الوضوح عند الأئمة الذين تولوا مسؤولية الإمامة من بعده، حيث عمل الإمام زين العابدين(ع) تماماً وفق معطيات الواقع الموضوعي، فاستثمر وهج دم الحسين(ع) كأفضل ما يكون الاستثمار فأكثر من رواية الأحاديث عن فضل إحياء عاشوراء والبكاء على

الإمام الحسين(ع) وزيارة قبره وغيرها من أشكال التعبير عن الإرتباط بأطروحة الإمام الحسين(ع). وكان الإمام زين العابدين(ع)، يرى في إحياء عاشوراء والإرتباط العاطفي بثورة الإمام حضوراً أولياً للأطروحة لا بدّ أن يعقبها خطوة ثانية وهي تثقيف الأمة بالإسلام المحمدي الأصيل وفق أطروحة آل البيت(ع). وهو ما كان من أمر تجربة الإمام زين العابدين (ع) العملية حيث أدى دوره كاملاً في إطار وظيفتي حفظ حرارة الدم المستتبعة لإبقاء الأطروحة حاضرة ووظيفة بلورة الأطروحة نفسها.

والوظيفة المزدوجة الآنفة الذكر هي نفسها التي طبعت تجربة الإمام الباقر(ع)، حيث عمل على إبقاء حرارة الدم الحسيني في نفوس المسلمين، مشجعاً في الخفاء مختلف الحركات الحسينية المسلحة، لأن ذلك يخدم هدف كشف زيف الأمويين وتأجيج حرارة الدم من جهة ويسهم في تحفيز الرأي العام للاطلاع والبحث عن دقائق أطروحة آل البيت، دون أن يعني ذلك التصدي الفعلي والجذري للسلطة السياسية لأن الأئمة، كما سبقت الإشارة، ليسوا في وارد التصدي لمسؤولية الممارسة السياسية للمحذور الذي ذكرناه، سابقاً، وهو الخوف من الوقوع في دوامة صراع شبيه إلى حدّ بعيد بالصراع الذي ابتلي به أمير المؤمنين(ع).

وهذا التحديد يسمح لنا بالحكم جازمين بأن التقية السياسية التي طبعت حياة الأئمة(ع) كانت قد وضعت في حيز التنفيذ مباشرة بعد استشهاد الإمام الحسين(ع)، ونعني، تحديداً في عهد الإمام زين العابدين(ع)، والإمام الباقر(ع).

نهج الإمام الصادق(ع) في إطار الممارسة العامة:

ساهمت التطورات الكبيرة التي حصلت في حياة الإمام الصادق(ع) الذي ولد في سنة ثلاث وثمانين من الهجرة[1] ومضى في سنة ثمان وأربعين ومائة[2]، في جلاء النهج الذي حددنا، سابقاً، مساره العملي، واعتبرناه نهجاً عاماً التزم الأئمة كلهم به.

وخصوصية مرحلة الإمام الصادق(ع) وتنوعها كفيلان بإثبات التصور الخاص للأئمة في إطار حركتهم المتطاولة في العصرين الأموي والعباسي.

فالإمام الصادق(ع) الذي تولى مهامه كإمام منصوب بالنص بعد استشهاد أبيه الإمام الباقر سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة[3]، عاصر سلطتين متعارضتين؛ الأموية والعباسية، فقد عايش مرحلة ضعف الدولة الأموية وواكب مختلف الاستعدادات التي كانت تقوم بها الأسرة العباسية للإطاحة بالأمويين، كما أنه(ع) أحاط بعناصر القوة التي استند إليها العباسيون في نهضتهم ضد خصومهم والتي كان في مقدمتها رفعهم لشعار الرضا لآل محمد[4]، حيث ارتفع هؤلاء بأسمهم وعلى اكتاف شيعتهم[5]. حتى أن اختيارهم لخراسان كمركز أساسي لنشر دعوتهم كان يتوافق والمنحى التضليلي والأيهامي بإعتبار أن خراسان

كانت أحد أهم معاقل العلويين حين ذاك[٦].

والعنصران السابقان (الشعار والرأي العام) اللذان كان يمتلكهما، في الواقع، الإمام الصادق(ع) لم يحركهما في وجه الأمويين أو لإعاقة حركة العباسيين، مما يكشف عن عدم رغبة الإمام(ع) في التصدي للسلطة السياسية ويمكن أن نضيف إلى هذه الإلفاتة المهمة، الموقف، ذا الدلالة الخاصة، الذي اتخذه الإمام من مبادرة أبي سلمة الخلّال لتسليم الصادق(ع) زمام الأمر، حيث أحرق الإمام كتاب أبي سلمة[٧]. والموقف الذي اتخذه، أيضاً، من محاولة أبي مسلم الخرساني الذي تضمن كتابه روح ما تضمنه كتاب أبي سلمة، وكان جواب الإمام غنياً بالدلالات: «ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني»[٨].

إذاً، لم يكن الإمام الصادق(ع) وقبله الإمام الباقر الذي شهد بدايات الإعداد العباسي للإطاحة بالأمويين، ضعيفين من حيث إمكانيات التحرك، سواء على مستوى الإمتداد الشعبي أو على مستوى شرعية التصدي نفسه، قياساً بالعباسيين الذين كانت قوتهم مستعارة وقضيتهم كذلك. وهنا سيتحكم السؤال ويستحق؛ لِمَ اختار الإمام الصادق(ع) موقف غير المعني بالسلطة؟.

والإجابة على هذا السؤال يكشفها التمهيد السابق، الذي أوضحنا فيه قناعة الأئمة بعدم جدوى الإمساك بالسلطة طالما أنها قد تؤول فيها الأوضاع إلى ما آلت إليه عندما كان أمير المؤمنين علي(ع) في السلطة مما قد يجلب فادح الضرر على الأطروحة، ويدفع أصحابها إلى الخيار الحسيني ليس من أجل استعادة السلطة وإنما لإعادة الحياة إليها والاعتبار لحقيقتها الإسلامية، إذ قد يفعل التضليل فعله في خنقها وإخفائها من ساحة الصراع. على ضوء هذا الفهم لحركة الإمام الصادق(ع) المنسجمة مع من سبقه من الأئمة(ع)، وتحديداً، الإمامين زين العابدين ومحمد بن علي الباقر، يمكن تفسير مختلف ألوان النشاط الذي كان يمارسه الإمام الصادق(ع)، وبالتالي الاختلاف بين الحسنيين والحسينيين في مجرى الصراع مع العباسيين.

النشاط العلمي والتبليغي:

لما كانت الوظيفة العملية التي حددها الأئمة بعيد استشهاد الإمام الحسين تتمثل بمهمتي الحفاظ على حرارة الدم الحسيني الذي يتكفل ـ الدم ـ بأداء دور التذكير بالأطروحة وبيان مظلومية حامليها، ومهمة تثقيف الرأي العام ممن يعتقد بصحة الأطروحة أو الذين يرغبون في الإطلاع عليها ومعرفتها. فقد وجه الإمام عنايته لهاتين المهمتين بالدرجة الأولى؛ فمال إلى تأييد ثورات الحسنيين لأنها تذكر بثورة الإمام الحسين[٩] وكثف من رواية الأحاديث عن فضل إحياء مراسم الإمام الحسين(ع) من جهة وعمل على نشر الأطروحة وبلورتها من جهة أخرى، وقد سجل له نشاط عظيم جداً في إطار المهمة الثانية؛ ويروي

الطبرسي في المقام أنه لم ينقل عن أحد من سائر العلوم ما نقل عن الإمام الصادق(ع)، وإن أصحاب الحديث قد جمعوا أسامي الرواة عنه من الثقاة على اختلافهم في المقالات والديانات فكانوا أربعة آلاف رجل[10].

وزّع الإمام الصادق(ع) نشاطه العلمي والتبليغي في أكثر من إتجاه فكان يروي الأحاديث ويصحح ماهو بأيدي الناس، ويتصدى للمسائل الفقهية حتى سلم كل من عاصره بأعلميته المطلقة، وقد سئل أبو حنيفة عن أفقه الناس في زمانه فقال: جعفر بن محمد[11].

ولم يهمل علم الكلام الذي كان ميداناً للجدل العقائدي والمذهبي، وقد خصص عدداً من طلابه ليضطلعوا بمهام المناقشات الكلامية والحوارات العلمية في الإطار الإعتقادي كهشام بن الحكم وزرارة بن أعين وعلي بن يقطين وغيرهم الكثير، وقد أوقعت غزارة علوم هؤلاء الطلبة الخليفة المهدي في لبس عندما اعتبر كل واحد من هؤلاء صاحب مدرسة ومذهب فقال بالهشامية نسبة لهشام بن الحكم والزرارية نسبة لزرارة بن أعين والشيطانية نسبة لشيطان الطاق (مؤمن الطاق) وهو من تلاميذ الإمام الصادق(ع)[12].

كذلك تصدى لمسألة تفسير القرآن الكريم وبيان المحكم والمتشابه والعام والخاص، وقد عالج الكثير من المسائل العاصية على الفهم[13].

ولم يهمل الفقه السياسي فعالج قضايا الشورى ومدى مشروعيتها وتمثلاتها التاريخية ومدى مطابقة التجربة مع المفهوم[14] إلى غير ذلك من المسائل.

هذا النشاط المكثف في الحقلين العلمي والتبليغي، قابله انسحاب شبه كامل من دائرة الصراع على السلطة، ومارس عوضفا عوضاً عن ذلك التقية في معناها الخاص.

التقية في مدلولها العملي:

لا شك أن مختلف ألوان التحرك الذي باشره الإمام الصادق(ع) كان يصب في مجرى المشروع الإسلامي الأصيل الذي يهدف إلى تعبيد الخلق كلهم لله تعالى، والتصدي للقضايا العلمية والتبليغية يصب في فؤاده النهائي في هذا المجرى. أومسألة حصر النشاط فيهم إلى جانب مهمة الحفاظ على حرارة الدم الحسيني هي مما اقتضتها طبيعة المرحلة الخاصة التي عاشها الإمام الصادق(ع) والإمامان اللذان سبقاه، الأمر الذي يعني بالتالي أنّ ممارسة التقية في مدلولها السياسي أملتها طبيعة المرحلة أيضاً، كما سبق وأوضحنا في غير محل من المحاضرة.

والروايات، في هذا الإطار، متضافرة وكثيرة، وقد عبر الإمام عن مضمون التقية في أكثر من مناسبة وخاصة عندما كان الوشاة يوغرون صدور الخلفاء حيث تكررت الوشايات ضده في عهد الخليفة العباسي

أبي جعفر المنصور كثيراً[١٥].

وينقل عن الإمام الصادق(ع)، كما في بعض الروايات، قوله: «اتقوا الله، وعليكم بالطاعة لأئمتكم قولوا ما يقولون، واصمتوا عمّا صمتوا، فإنكم في سلطان من قول الله تعالى: ﴿وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال﴾، ويعني بذلك كما يوضح تلميذه أبو بصير، ولد العباس، ويختم الإمام كلامه بجملة تكاليف لشيعته؛ «صلوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم وأدّوا الأمانة إليهم»[١٦].

وفي رواية أخرى ينقل أن أبا عبد الله دخل على أبي العباس بالحيرة مرة، فقال الأخير: «يا أبا عبد الله ما تقول في الصيام اليوم؟ فقلت: ذاك إلى الإمام، إن صمت صمنا وإن أفطرت أفطرنا، فقال: يا غلام عليّ بالمائدة فأكلت معه، وأنا أعلم والله أنه يوم من أيام شهر رمضان، فكان إفطاري يوماً وقضاؤه أيسر عليّ من أن يضرب عنقي، ولا يُعبد الله»[١٧].

والتقية السياسية لم تمنعه من جمع الحقوق الشرعية من شيعته، الأمر الذي كان يزعج الخلفاء ويغيظهم وبالتالي يعرضه لمخاطر القتل والتنكيل، وقد تواترت الروايات التي تحكي قضية معاناة الإمام في هذا الإطار[١٨].

كما أن التقية لم تبعد عنه رقابة الخلفاء وسوطهم، إلاّ أن الإمام لم يعدم وسيلة إلاّ واستخدمها ليؤكد عدم رغبته في السلطة، ويذكر في هذا السياق أن المنصور ـ الخليفة العباسي الثاني ـ أخرج مرة إضبارة كتب ورمى بها إلى الإمام الصادق(ع) وقال: «هذه كتبك إلى أهل خراسان تدعوهم إلى نقض بيعتي، وأن يبايعوك دوني فقال ـ عليه السلام ـ: والله يا أمير المؤمنين ما فعلت، ولا استحلّ ذلك، ولا هو من مذهبي..»[١٩].

إذاً انصب اهتمام الإمام السادس من أئمة أهل البيت على مواجهة التيارات المنحرفة في غرض مهمة توضيح وبلورة وتعليم أطروحة الإسلام المحمدي الأصيل، دون أن يغيب عن الساحة الفكرية التي كانت تشهد كل يوم تطوراً جديداً لما كانت تحدثه الترجمة وتعدد الثقافات وتفاعل الحضارات من نشاط متزايد على الصعيد الفكري.

والظاهرة البارزة في البين أنّ الإمام الصادق(ع) لم يتعال عن الوافد من الفكر بل أقبل عليه قارئاً ومناقشاً وناقداً، فكان بحق رجل عصره[٢٠] فحاز على محصول الفكر الإنساني حتى زمانه دون أن يتردد في الاكتساب والأخذ والعطاء، وهذه سمة مميزة في شخصيته(ع).

الفهم الملتبس:

التبس أمر التقية على أفهام الكثيرين، ولم يبق الالتباس في إطاره النظري وإنما انعكس على سلوك

ووعي الملتزمين بأطروحة آل البيت.

فمن قرأ نصوص التقية في مختلف مراحل الأئمة بعد الإمام الحسين(ع) على أنها حاكية عن حكم شرعي أولي، بمعنى أن التقية واجبة مطلقاً بعد الإمام الحسين(ع)، لم يقرن، هذا القارىء، التقية بالظرف الموضوعي الذي انتجها، واعتبرها لا ظرفية، أي فوق معطيات الواقع، وبالتالي فهي واجبة الامتثال في مختلف العصور حتى ظهور الإمام الحجة(عج) بمقتضى الإطلاق الذي استظهره من مجمل النصوص المبثوثة.

هذا الفريق التزم بالتقية في عهد الأئمة(ع) وما بعد الغيبة ولا يزال ملتزمها وسيبقى حتى ظهور الإمام المهدي(عج)، ولا يرى هذا الفريق غضاضة في أن يلتزم بيته أو يكتفي في أحسن الأحوال بالتصدي للمسائل الفكرية المعادية، دون أن يتحرك فيه أي غزو سياسي أو عسكري غربي الشعور بضرورة النهوض والمقاومة. وبعض هذا الفريق لا يشعر حتى بضرورة التصدي للمسألة الفكرية ويرى أن التقية في عصر الغيبة لا تقتصر على الجانب السياسي بل تتعداه إلى الدائرة الفكرية، وهذا البعض هو الذي يعرف بالحجيتين.

أما من قرأ تلك النصوص على ضوء معطيات تجربة أمير المؤمنين علي(ع) والإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، فقد لحظ عنصر الإضطرار في ممارسة التقية، وبأنها ليست عنواناً أولياً أصلياً وإنما هي عنوان اقتضاه الاضطرار والحرج الشديد، بدليل أن الممارسة السياسية والفكرية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم التي هي الأصل لم تكن محكومة للتقية، وكذلك الأئمة علي والحسن والحسين(ع)، مما يعني أن ممارسة التقية في مرحلة ما بعد استشهاد الإمام الحسين(ع) كانت نتيجة استيعاب دقيق لتجربة الأئمة السابقة وفهمٍ وافٍ لمقتضيات العمل الرسالي في المراحل اللاحقة. وقد يقال إن صح منكم هذا التفسير لمعنى التقية ومبرراتها الظرفية، كيف تفسرون استمرار العمل بالتقية طيلة مرحلة عمل الفقهاء بعد غيبة الإمام المهدي(عج)؟

والسؤال هنا مشروع، لكن يجاب عليه بأن استخدام التقية التي هي عنوان حرجي اضطراري ثانوي في مراحل حياة الأئمة(ع) لا يمنع من استخدامها في عهد الفقهاء إذا ما تشابهت الظروف.

ونحن إذا تفحصنا تلك الظروف نجد أن ما يحتمل كثيراً كونه سبباً لاستخدام التقية وهو الصراع الداخلي الذي شبت أظافره في عهد الإمام علي(ع)، والخوف من وقوعه فيها إذا تكررت التجربة وما قد يعكسه هذا الصراع من تضييع لمصالح المسلمين وتشتيت لوحدتهم وبالتالي تعريض وجودهم لخطر الإلغاء بسبب التهديدات والتحديات المتزايدة من قبل المتربصين الدوائر بالدولة الإسلامية، هذه كلها تشكل عنواناً للحرج الشديد والاضطرار التي أجاز الشرع في حال وقوع المكلف أو المجتمع فيه الانتقال من العنوان الأولي إلى العنوان الثانوي.

وبما أن صورة المجتمع الإسلامي التي حالت دون نهوض الأئمة من الإمام زين العابدين(ع) إلى

الإمام العسكري(ع)، وتصديهم للسلطة السياسية، بقيت دون تبدلات جذرية في عصر الغيبة أي مرحلة عمل الفقهاء، فإن تكليف الفقهاء يفترض به أن يبقى كما كان تكليف الأئمة(ع)، مما يعني ضرورة العمل بالتقية طالما كانت الظروف والمبررات التي سببت استخدامها موجوده.

قد يقال أيضاً، إذا كان تكليف الفقهاء في مرحلة ما بعد الغيبة هو العمل بالتقية فلِمَ أخلَّ جملة من المجتهدين والفقهاء بالوظيفة العملية في القرن الحالي ومنتصف بل طيلة القرن الماضي؟.

في الواقع هذا الاستفسار يسهل عملية توضيح المضمون الشرعي لمختلف الثورات والانتفاضات الاسلامية التي قادها الفقهاء والمراجع العظام في القرنين الأخيرين ويوضح في المقابل سبب عدم نهوض مجموعة كبيرة من الفقهاء بأعباء التحديات المعاصرة. فالفقهاء الذين باشروا التصدي بدءاً من فتوى الفقهاء بوجوب التصدي للغزو الروسي سنة ١٨٠٩م مروراً بثورة التنباك والثورة الدستورية وفتوى علماء النجف بوجوب التصدي للغزو الايطالي لليبيا سنة ١٩١١ وموقف النجف من الغزو الانكليزي للعراق ومطالبتها بعودة الخلافة العثمانية مروراً بمختلف مراحل التصدي التي توجت أخيراً بثورة الإمام الخميني(قدس سره)، هذه كلها ووفق ظاهر حركتها مخالف لسيرة الفقهاء الذين عملوا بالتقية طيلة عشرة قرون، غير أن التفسير العلمي والتاريخي لهذه الظاهرة يكشف عن كون هذه المجموعة أدركت دون غيرها أن الظروف والمعطيات التي حتمت العمل بالتقية انتهت بعد التحولات في ساحة العالم الإسلامي واختراق الغرب لها. فإذا كان هاجس الصراع الداخلي التفتيتي هو الذي أملى على الأئمة(ع) والفقهاء فيما بعد العمل بالتقية فإن هذا الهاجس زال بسبب دخول عنصر جديد إلى الحياة السياسية وهو الغرب الذي لن يكتفي بأقل من إحلال قيمه ومفاهيمه وعادته، وبكلمة مختصرة ثقافته محل الإسلام كثقافة وتعبير حضاري كما أن هذه المجموعة الناضجة من الفقهاء أدركت أن استمرار العمل بالتقية والتزام المعاهد الدينية والعلمية سيؤول حتماً إلى بسط الغرب سيطرته وقيمه على العالم الإسلامي مما سيهدد كل وجودنا وحضارتنا لخطر الإلغاء، ولهذا أوقفت العمل بالتقية لأنها أصبحت سالبة بانتفاء الموضوع.

بخلاف المجموعات الأخرى من الفقهاء الذين قرأوا النصوص التي تدعو للعمل بالتقية على أنها لا ظرفية وأنها مطلقة، فقد استمرت على صورتها السابقة ولم تحرك ساكناً، ولا يزال حتى اليوم أعداد كبيرة من الفقهاء تقرأ المسألة بالصورة التي تم تقديمها.

هذا التفسير لحركة الأئمة والفقهاء ماكان له أن يتبلور ويتحدد لولا تجربة الإمام الصادق(ع) الذي ساهم الظرف الذي تصدى فيه لمسؤولية الإمامة، وهو في غاية الدقة، في بلورة مفهومَ التقية وبالتالي المنهج العملي في الإطار السياسي حينذاك.

ما تقدم هو مجرد عرض مكثف يفسر منطلقات وضوابط الحركة السياسية كما استوحيت من تجربة الإمام الصادق(ع)، ونسأل الله تعالى القبول والسلام عليكم ورحمة الله.

الحواشي :

١ ـ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن، إعلام الورى بأعلام الهدي، تصحيح علي أكبر الغفاري، بيروت، دار المعرفة، ١٩٧٩، ص٢٦٦.

٢ ـ (م. ن).

٣ ـ (م. ن)، ص٢٦٤.

٤ ـ الطبرسي، أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠، تاريخ الأمم والملوك، ج٥، القاهرة، ١٩٣٩، ص١٠١.

٥ ـ الحسين، غاية الاختصار، ص٨٢.

٦ ـ الشامي، فضيلة عبر الأمير، تاريخ الفرقة الزيدية، العراق ـ النجف، ١٩٧٤، ص١٢١.

٧ ـ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، ت٣٤٦، مروج الذهب، ج٣، بيروت، الاندلس، ١٩٦٥، ص٢٦٨.

٨ ـ الشهرستاني، محمد عبد الكريم بن أبي بكر أحمد، ت ٥٤٨، الملل والنحل ج١، القاهرة، ١٩٦٨، ص١٥٤.

٩ ـ راجع الأصفهاني، أبو الفرج، ت ٣٥٦، مقالت الطالبيين، دار صادر ـ بيروت، ص٢٧٧ راجع أيضاً القيرواني، أبو أسحاق، حصيرة زهرة الآداب وثمرة الألباب، دار الجيل، بيروت، ص١٢٤.

١٠ ـ الطبرسي، إعلام الورى، (م، س)، ص٢٧٧.

١١ ـ المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، ط٣، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ١٩٨٣، ص٢١٧.

١٢ ـ الكشي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي، د. ت، رجال الكشي، قم، ١٣٤٨، ص٢٢٧.

١٣ ـ البحار، ج٤٧، (م، س)، ص٢٢٥.

١٤ ـ (م. ن)، ص٢١٣ ـ ٢١٤.

١٥ ـ الطبرسي، إعلام الورى، (م، س)، ص٢٧١.

١٦ ـ البحار، (م، س)، ج٤٧، ص١٦٢.

١٧ ـ (م، ن)، ص١٢٠.

١٨ ـ راجع رواية صفوان الجمال، البحار، ج٤٧، (م، س)، ص٢٠٤.

١٩ ـ (م، ن)، ص١٩٧.

٢٠ ـ راجع المطهري، الشهيد مرتضى، السيرة النبوية، تعريب مالك وهبي، ط١، دار الهادي ـ بيروت، ١٩٩١. ص١٣١ وما بعدها.



كلمة اختتام المؤتمر



بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين الطاهرين

في ختام هذا المؤتمر المبارك يسرني أن أشكركم جميعاً أيها الأخوة والأخوات والسادة العلماء والمحققون الأعزاء الكرام وخصوصاً إخواننا المشاركين الذين عانوا مشقة السفر وقدموا من البلدان البعيدة وخاصة من لبنان ومن إيران ومن العراق ومن دمشق وأخص بالشكر باسمي وباسم سفارة الجمهورية الإسلامية ومستشاريتها مشاركتكم وحضوركم خلال هذه الأيام مهما تحملتم من نواقص وإمكانيات قليلة ونتمنى لكم التوفيق وأن يجزيكم الله تبارك وتعالى أجراً.

أريد أن أذكر نقطة صغيرة، إن إخواننا في هذا المؤتمر قدموا أسئلة أو قدموا ملاحظات واعتراضات على الكلام والمسائل التي طرحت من قبل بعض الأساتذة والمحققين، وكان لهم حق، وطلب بعض الأخوة أن يُفتح مجالٌ للبحث والمناقشة في هذه المسائل أو يطلب الجواب فيما سألوا أو فيما طرحت من إشكالات حصلت عند البعض، ولكن هذا المؤتمر كان التجربة الأولى لمستشاريتنا وإن شاء الله سيستمر عقد المؤتمرات في المستقبل ونتمنى في المؤتمرات القادمة أن نستطيع فتح المجال أمام كل المشاركين، وأن أي محقق أو محاضر يكون عنده مجال بعد إلقاء محاضرته وإلقاء خطابه ليرد على الأسئلة الموجودة في خطابه .

ونحن نرى أن إقامة هذا المؤتمر وأمثال هذه المؤتمرات سيفتح أمام الباحثين والمحققين المجال في المسائل السياسية وفي المسائل الإسلامية في أن يناقشوا وأن يتذاكروا ومن خلال هذه المؤتمرات ستقرّب وجهات النظر وتتجه الأفكار إلى هدف واحد وهو توحيد الصف الإسلامي.

كما ونطالب العلماء المحققين في كل الدول الإسلامية أن يهتموا في موضوع المؤتمرات في شتى المسائل الإسلامية، والجمهورية الإسلامية منذ إندلاع الثورة الإسلامية وإقامة الحكم





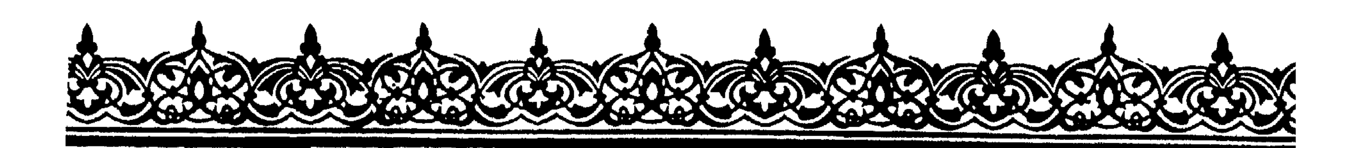
الإسـلامي في إيـران بقيـادة الإمام الخميني الراحل المفدى(قدس الله سره) قد اهتمت إهتماماً بالغاً وكبـيراً في إحيـاء الفكـر الإسـلامي في إقامة هذه المؤتمرات ومناقشة المسائل الإسلامية وإحياء أئمة الفكـر وأئمـة العلم وأئمـة المسلمـين وعلماء المسلمـين، وقـد شاهـدتم أنتم في سوريا ومن خلال مستشاريتنا إقامة مؤتمراتٍ كثيرة لإحياء ذكرى شخصيات الفكر ورجال المسلمين ونحن نتمنى أن تتوسع هذه المسيرة وأن يهتم كل المسلمين وكل العلماء بهذا الأمر.

نحن بحـاجـة ماسـة إلى التقـارب إلى النقـاش إلى البحث في كل مسـائلنـا وعلى أي عالم إسلامي وعلى أي محقق وعلى أي مجمـوعـة من المجمـوعـات الإسـلامية أن تتحمل الأفكار التي تعارض أفكارها وتناقض ما وصل إليها من النتائج، ولا يمكن هذا إلا في المناقشة وإلا في المباحثة بين الطـرفـين بين المجمـوعـات لنصل إلى وحدة الفكر، إلى التنسيق في المواقف وإلى التنسيق في الدفاع عن الإسلام.

كيف يسكت علماء المسلمـين والإسـلام يُهاجَم من قِبـل بعض المؤلفـين أو بعض المحققـين المرتـزقـة أمثـال سلمان رشـدي ومـا يدور في هذه الأيـام من هجوم بعض المسؤولين في فرنسا على الإسلام وعلى الأحكام الإسلامية، هذه مسؤولية شرعية على كل حال، على كل محقق على كل مسلم أن يدافع عن الإسلام أن يدافع عن المسلمين أن يدافع عن مبادئه وعن أحكامه وعن دينه وعن قرآنه.

فنحن نتمنى أن نستمـر على هذه الطـريقـة ونحن عاهـدنـا الله تبـارك وتعالى على ذلك، ونعلن أن الجمهـوريـة الإسـلامية وفي ظل قيادة الإمام الراحل قد فرضت على نفسها الدفاع عن الإسـلام والـدفـاع عن الوحدة الإسلامية وتوحيد صفوف المسلمين والسير في هذا الدرب وسماحة آيـة الله خامنئي وليّ أمـر المسلمـين وقـائـد الأمة الإسلامية في يومنا هذا مستمر على هذا الدرب، ونحن جنود في هذه الطريقة وفي هذه المسيرة نتحرك ونتمنى أن إخواننا علماءنا في كل العالم في كل





المدن في كل الجامعات في كل مراكز التحقيق أن يساعدونا وأن يهدوا الأمة الإسلامية ويرشدوا ويوجهوا المسلمين إلى هذا الطريق وإلى هذا الدرب.

وفي الختام أشكر جميع إخواني وأخواتي الذين ساهموا وشاركوا بكل قلوبهم وبكل محبتهم وأظهروا وأعلنوا بمشاركتهم محبتهم وولائهم للجمهورية الإسلامية وللإمام الصادق عليه الصلاة والسلام.

وأشير إلى نقطة قد ذكرها البعض أن هذه الأيام أو المناسبة هي ولادة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وولادة الإمام الصادق عليه السلام فلماذا لم يذكر إلا الإمام الصادق عليه السلام فنقول:

أولاً: إحياء ذكرى الإمام الصادق هو إحياء ذكرى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وثانياً: المؤتمر انعقد باسم فكر الإمام الصادق عليه الصلاة والسلام.

فالمؤتمر كان مخصصاً لهذا، وكانت هناك احتفالات من قبل مستشاريتنا ومن قبل سفارة الجمهورية الإسلامية بمناسبة مولد الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم قد أقمناها.

نتمنى من الله تبارك وتعالى أن يتقبل منا ومنكم جميعاً وعلي أن أشكر إخواني المسؤولين في الجمهورية العربية السورية وخصوصاً الرئيس حافظ الأسد الذي يشملنا عطفه دائماً وبعنايته وعطفه وبمحبة المسؤولين وعنايتهم استطعنا أن نقيم هذا المؤتمر واحتفالات أخرى ونشكرهم جميعاً ونشكر المسؤولين والأخوة في هذا المركز على مساهمتهم وعلى ما قدموا لنا من التسهيلات وأشكركم جميعاً وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

سماحة الشيخ محمد حسن أختري
سفير الجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق







المقالات والبحوث التي أرسلت إلى المؤتمر ولم تلق

١ ـ سماحة الشيخ محمد علي التسخيري (إيران).
٢ ـ سماحة العلامة السيد مرتضى العسكري (إيران).
٣ ـ سماحة حجة الإسلام السيد رسولي محلاتي (إيران).
٤ ـ سماحة الشيخ زهير كنج (لبنان).
٥ ـ سماحة الشيخ عفيف النابلسي (لبنان).
٦ ـ د. عبد المهدي فضل الله (لبنان).
٧ ـ د. مصطفى الرافعي (لبنان).
٨ ـ الأستاذ محمد علي اسبر (سورية).
٩ ـ الأستاذ علي أكبر ضيائي (إيران).



حجة الإسلام الشيخ محمد علي التسخيري



خطان قياديان في حياة الإمام الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

* بناء الأمة وصياغة الواعين

إن عمليـة صيـاغـة الفئـة الواعية إن لم تكن مقـدّمة على عملية بناء الأمة الواعية فهي مقارنة لها بلا ريب، ذلك أنّ الاستعدادات متفاوتة «فسالت أودية بقدرها»(١) وخصوصاً في المجال التربوي في إطار بناء إنسـاني متقـدم، لأنهـا تتـوقف على: توفر معرفة يقينية معمّقة، وانسجام عاطفي إحساسي كامل مع تلك العقيدة، وتلقٍ تعليمي وتربوي حكيم، وكلّها أمور لا تتوفر بمستوى واحد للجميع، وما نراه طبيعياً هو أن تتربّى الفئـة الـواعيـة عقـائـدياً وعاطفياً وسلوكياً ثم تنتشر كالعافية في أوصال الأمة وعروقها، فتبث فيها ما اكتسبته، وتحفظ الجسم العام من أي تآكل أو مرض بل تضعه على خط النمو والتكامل.

إلّا أن القادة والمربّين لا يستطيعون التريّث حتّى تتم عملية تربية الطليعة لأنّ تربية الأمّة وصيانتها حاجة ملحّة فعلية قائمة، ومن هنا فإن من الطبيعي أن يتوازى هذان الخطّان ليؤثر كلّ منهما في الآخر. فجو الأمة المناسب يترك أثره الإيجابي على تربية الطليعة، وتربية الطليعة بدورها لها أكبر الأثر في تحقق الأهداف التربوية العامّة.

وعلى أي حال، فإننا نجد القرآن الكريم من خلال ما يحكيه من قصص من أمثال، يركّز على ذلك.

فهو يتحدث عن السابقين السابقين، والمقرّبين والحواريين والمؤمنين العابدين الحامدين السائحين.

وتصفية النبي موسى لقومه واختياره مجموعة منتقاة.

وقيام القائد طالوت بامتحان قومه واختيار الصفوة منهم ليكونوا هم الفئة القليلة التي غلبت فئة كثيرة بإذن الله تعالى.

هذا إلى جانب قيام الأنبياء والشرائع بتربية الأمم وهداية الناس جميعاً بشكل طبيعي. وعلى هذا النسق نجد الأنبياء والقادة الإلهيين يعملون على تحقيق هاتين العمليتين:

ولمّا كان أهل البيت(ع) قدوة الأمم وتلامذة رسول الله المخلصين وحاملي لواء التربية العقائدية فهم على هذا الخط سائرون وله عاملون، وها نحن نركّز في ما يلي على مظاهر ذلك في حياة الإمام الصادق (عليه السلام) سادس أئمة أهل البيت(ع)، وأستاذ أئمة المذاهب الأربعة والصادق القول البار الأمين لهذه الرسالة الخالدة.

* الأجواء التي عاصرها الإمام

لن نستطيع أن نتبيّن معالم العملية التربوية للإمام إذا لم نحط ـ ولو إجمالاً ـ بالأجواء والظروف التي عاصرها الإمام (ع) وتفاعل معها، واستطاع أن يؤدي رسالته من خلالها.

وباستعراض هذه الأجواء نجد أمامنا ظواهر بارزة قد لا تحتاج منّا للاستدلال على وجودها وهي:

أولاً: الخلل السياسي وصراع الأهواء:

فلقد عاصر الإمام(ع) أكبر حادث في العصر الذي تلا عصر صدر الإسلام وهو انقراض الخلافة الأموية وسيطرة الخلافة العبّاسية كما واجه الكثير من الأحداث الجسام.

وفي أيّامه قامت ثورة الرجل الصالح زيد بن علي بن الحسين ضد هشام بن عبدالملك وحينما استشهد أبّنه الإمام بكلمات معبّرة، ثم تلا ذلك خلل سياسي كبير أطاح بخلافة الأمويين، واستطاع العبّاسيون من خلال شعار برّاق هو (الدعوة إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن يستغلّوا الموقف ويسيطروا على الساحة، وبويع السفّاح عام ١٣٢ هـ حيث دامت خلافته أربع سنين قضاها في مطاردة الأمويين متظاهراً بالثأر لقتلة الحسين (ع) ثم تلاه المنصور بسياسة ديكتاتورية قمعية تستخدم السيف والسمّ والاغتيال لتوطيد أركان حكم العبّاسيين.

ورغم ما حمله هذا الخلل وذلك الصراع من عواد ومصائب فإنه وفّر للإمام فرصة ثمينة ليظهر فيها

علمه الغزير وينزل إلى الساحة الاجتماعية التربوية كأروع ما يكون.

ثانياً: تشكّل المذاهب:

وفي هذه الفترة بالذات بدأت المذاهب الفقهية المعروفة تنطلق نتيجة عوامل كثيرة، منها، اتساع الحركة العلمية والفقهية، والحريّة الطبيعية التي لاقاها العلماء نتيجة ذلك الخلل السياسي الذي أشرنا إليه، وكذلك نتيجة لعمل السلطة في كثير من الأحيان على أبعاد اتجاه فقهي معين لا ينسجم معها وترجيح آراء فقهاء آخرين عليه. كما إننا لا ننسى الدور الذي تلعبه الشخصية العلمية لأئمة المذاهب في جلب الأتباع والتلامذة والتأثير القوي على تصوراتهم واتجاهاتهم الفقهية، ولا ننسى أيضاً دور العامل الجغرافي في تعدد الاتجاهات فقد كان قوياً.

كل هذا وغيره أثّر في إيجاد نواة المذاهب الكثيرة التي تنوّعت وتعدّدت قبل أن تنحصر بعد ذلك بزمن طويل تقريباً بمذاهب معيّنة، وذلك لعوامل أخرى وافقت عملية غلق باب الاجتهاد.

ثالثاً: ظاهرة الإفراط في اتباع الرأي أو رفضه:

ونستطيع أن نؤكد هنا أن الصراع حول (الرأي) بدأ عملياً وبشكل طبيعي، فهل للمجتهد أن يعمل رأيه في فهم الحديث والتعدّي عن مورده وتنقيح مناطه واستخراج قاعدة أوسع تنفعه في مجالات أكبر؟! أم أن عليه أن يتقيّد تمام التقيد بملابسات النص دونما جرأة على التعدّي عن حدوده؟! ولكن اتجاه وجهة نظر واستدلال.

وربما كان هذا النزاع العملي سيثمر ضيراً لولا تدخل الأهواء السياسية والعوامل الأخرى التي قادته إلى عواقب لا تحمد.

فراح هذا يركّز على أهمية الرأي والقياس والاستحسان واتباع المصلحة إلى حدّ قد يتجاوز كلّ نص ويؤدي ـ أحياناً ـ إلى دخول الفكر الإنساني إلى ساحة التشريع الإلهي، وهو خطر كبير. في حين راح الآخر يركّز ـ احتياطاً على دينه ـ على حدود النص والحديث إلى حدّ أدّى أحياناً إلى جمود خطير في الفكر.

أمّا دور الإمام الصادق(ع) في هذا الالتحام العلمي فقد كان ـ كما نرى ـ الدور الحكيم المربي، إذ رفض حالات الرأي المفرطة، مستدلاً بأروع استدلال، كما لم يرضَ للفكر الفقهي أن يجمد على حدود ضيقة دونما مسوّغ. وقد أدّى موقفه الفقهي الرائع إلى أن تتم عملية التقييد والاحتياط من استعمال القياسات الباطلة، مما خفّف الوطأة بل ربّما أزالها كما في قضية (الاستحسان). إذ تحوّل من عملية قول سيتحسنه المجتهد فيفتي به إلى عملية تقديم الأهم على المهم عند التزاحم وهو أسلوب عقلائي مقبول تماماً لدى الشرع.

كما بدرت ظواهر جيدة للتفقيد والانطلاق لاتفاق أوسع من حدود النص الظاهرية لدى مدرسة الحديث، مما ساعدها على الثبات أمام الحوادث المستجدة التي اتّسعت باتّساع التمدّن وتعقّد المجتمعات.

رابعاً: شيوع الانحرافات الفكرية الخطيرة:

والـذي يطـالـع الفـترة التي عاصـرهـا الإمـام الصـادق يجد أمـامه بعض أنماط الانحراف الفكري العقائدي الخطير وربّما الطارىء على حياة المسلمين، وربما كان ذلك معلولاً للخلل السياسي الآنف الذكر ـ من جهة ـ وشيوع الأفكار المعادية للإسلام ـ من جهة أخرى ـ وانفساح المجال لذوي الأهواء والنزاعات الفردية أو التحليلية ـ من جهة ثالثة ـ ليدلّوا بدلوهم وينضجوا أكلهم ويحصدوا ما يشاؤ ون.

ومن تلك الأنماط:

ـ مسألـة انتشـار الـزنـدقـة والتشكيك في المعتقدات الإسلامية (والغريب أن ذلك كان يتم أحياناً في البيت الحرام والمسجد النبوي الشريف ـ كما تحدّثنا الروايات ـ مما شكّل ظاهرة واسعة خطيرة).

ـ ومنها موضوع الغلو في الشخصيات العلمية كأهل البيت(ع).

ـ كما أنّ منهـا ظاهـرة التحلّل من الـواجبـات بحجـج واهية ككفاية حب أهل البيت(ع) عن العمل الصالح.. وأمثال ذلك.

خامساً: اتّساع ظاهرة الوضع في الأحاديث الشريفة:

وظاهرة الوضع لم تكن جديدة في الأصل على المجتمع الإسلامي، وذلك بعد أن لعبت يد الأهواء منذ عصر الرسول صلى الله عليه واله وسلم فأوجدت فئة من الوضّاعين عين المستأكلين بالحديث ارضاء لأهوائهم ولسلطـاتهم أو اتجـاهـاتهم، إلاّ أننـا في هذا العصـر ظاهرة متفشية تستخدمها السلطة، أومن هم في طريق التسلّط، لتحقيق المآرب الضيّقة الخبيثة.

ومن الغريب أن العلاّمة الكبير الأميني صاحب (الغدير) أحصى (٤٠٨,٦٧٤) حديثاً[٢] مكذوب ملفق أومقلوب لجمع قليل من الوضّاعين الذين قاربوا هذا العصر ـ تقريباً ـ والغريب أن نشهد تعبيرات من قبيل ما قيل في أحمد بن محمد بن عمروأبي بشر الكندي المروزي أنه (أحد الوضّاعين الكذّابين مع كونه محدّثـاً إمـامـاً في السنّـة والـرد على المبتدعة)[٣] وفي أحمد بن محمد بن غالب الباهلي أنه كان (من كبار الزهّاد ببغداد كذّاب وضّاع)[٤] وفي أحمد بن موسى الجرجاني الفرضي أنه (أحد الحفّاظ كذّاب)[٥]!!! حتّى لتجد يحيى بن سعيد القطّان يقول: (ما رأيت الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث)[٦].

وهنا يعلّق المرحوم الأميني بعد درج قائمة رهينة من وضّاعي الحديث قائلاً:

(فمن هنا ترى كثيراً من الوضّاعين المذكورين بين إمام مقتدى وحافظ شهير، وفقيه حجّة، وشيخ في الـروايـة، وخطيب بارع، وكـان فريق منهم يتعمّدون الكذب خدمة لمبدأ أوتعظيماً لإمام أوتأييداً لمذهب، ولذلك كثر الافتعال ووقع التضارب في المثالب والمناقب بين رجال المذاهب. وكان من تقصير يده عن الفرية على رسول الله صلى الله عليه واله وسلم بالحديث عنه فإنه يبهت الناس باختلاف أطياف حول المذاهب ورجالاتها)

سادساً: انتشار المفاسد الخلقية وظواهر الترف أو الزهد الكاذب:

وهذه أيضاً ظاهرة يلمحها المرء في مثل العصر المشار إليه، ذلك أن خلفاء بني أمية انحرفوا عن المسير الإسلامي الرشيد، من خلال ترفهم وقصورهم، مما أدّى إلى انتشار الكثير من الأوبئة الخلقية في المجتمع الإسلامي، وربّما ساعدت فترة الخلل السياسي على أن يستغلّ ذوو الأطماع ذلك لإظهار عبثهم ومجونهم.

هذا إلى جانب اتجاهات من الزهد الكاذب والرهبنة رحنا نجدها هنا وهناك كانت في الأغلب ـ كما نتصـور ـ تعبّر عن عملية تحايل على الرأي العام ومحاولة لاستجلاب الأنظار.

* الإمام الصادق في مواجهة هذه الظواهر:

لقد كانت كل تصرفات الإمام الصادق وتصريحاته تنبىء عن شعوره بالمهام القيادية الملقاة على عاتقه باعتبـاره أحـد أئمـة أهـل البيت وعـترة الـرسـول صلى الله عليه وآله وسلم التي جعلت أماناً للأمة وسفينة للنجاة ومتمسكاً يعصمها من الضلال.

ولقـد كانت هذه الأهليـة القيـادية موضع عناية الأئمة من أهل البيت واحداً بعد الآخر، يوصي كل منهم إلى من يليه ويعلّم أصحابه بخصائصه. وكمثال على ذلك نلاحظ النص التالي:

دخل يزيد بن سليط ـ وهو من أهل الورع والعلم ـ على أبي عبدالله الصادق(ع) فبادره يسأله عن الحجّة من بعده قائلاً:

بأبي أنتم وأمي أنتم الأئمـة المطهّـرون والمـوت لا يعـرى منه أحد فمن القائم من بعدك؟ فأشار إلى ولده موسى وراح يصفه (فعنده علم الحكمة، والفهم، والسخاء، والمعرفة بما يحتاج الناس إليه فيما اختلفوا فيـه من أمـر دينهم، وفيـه حسن الخلق، وحسن الجـوار، وهو باب من أبواب الله، وفيه أخرى هي خير من هذا كله)..

فيسأل الراوي قائلاً: بأبي أنت وأمي ما هي؟

فيردّ الإمام الصادق:

(يخـرج الله تعـالى منـه غوث هذه الأمة وغياثها وعلمها ونورها وفهمها وحكيمها، خير مولود وخير ناشىء يحقن الله به الـدمـاء، ويصلح به ذات البـين ويلمّ به الشعث، ويشعب به الصـدع، ويكسـو به العـاري، ويشبـع به الجـائـع، ويـؤمن به الخـائف وينـزل به القطـر، ويأتمـر له العباد، خير كهل، وخير ناشىء، قوله حكم، وصمته علم، يبيّن للناس ما يختلفون فيه..)[٨].

وهي كلّهـا صفـات قيـاديـة يتمتع بها الإمام ويعمل على تحقيقها. فما هي الخطّة التي سلكها الإمام الصادق لمواجهة هذه الظواهر والقيام بالواجب القيادي العام؟

إننا نجد الإمام يعمل على نفس الخطّين الآنفين بكلّ دقّة، فهو ـ من جهة ـ وبشكل عام يؤكد على بناء الأمة الإسلامية وتقوية أواصرها، وحفظ كيانها وصيانة تراثها وتنمية وعيها العام، وبالتالي على امتلاكها للخصائص التي ذكرها القرآن الكريم والسنّة الشريفة للأمة ـ وهو من جهة أخرى ـ يعمل بشكل خاص على تربية الفئة الواعية لأهدافه المتفاعلة تماماً مع خطته، والمتحملة بكل جدارة للمهام الصعبة التي يلقيها عليها، مما يجعلها تشكل شعاعاً من نوره ونماذج لسيرته ومظاهر لقيادته.

* مظاهر الخطّ التربوي العام:

ويمكننا أن نلخص أهم مظاهر هذا الخط عبر النقاط التالية:

أ ـ العمل على إيجاد حركة علمية واسعة جداً:

وبدأت هذه الحركة تنشر الحقائق بين الناس وتنمّي معلوماتهم، وتدفعهم نحو الكمال العلمي المنشود.

يقول الشيخ القرشي: (وفجّر الإمام الصادق(ع) ينابيع العلم والحكمة في الأرض، وفتح للناس أبواباً من العلوم لم يعهدونها من قبل، وقد ملأ الدنيا بعلمه ـ كما قال الجاحظ، ونقل عنه الناس من العلوم ما سارت به الركبان وانتشر صيته في جميع البلدان ـ كما أدلى بذلك ابن حجر)[٩].

ويتحدث الأستاذ عبدالعزيز سيد الأهل عن البعثات العلمية التي التحقت بمدرسة الإمام فيقول: (وأرسلت الكوفة، والبصرة، وواسط والحجّاز، إلى جعفر بن محمد أفلاذ أكبادها من كل قبيلة، من بني أسد ومن غنى، ومخارق، وطيّ، وسليم، وغطفان، وغفّار، والأزد وخزاعة، وخثعم، ومخزوم، وبني ضبة، ومن قريش، لا سيّما بني الحارث بن عبدالمطلب وبني الحسن بن علي، ورحل جمهور من الأحرار وأبناء الموالي من أعيان هذه الأمة من العرب وفارس ولا سيما مدينة قم..)[١٠].

وقد صنّف الحافظ أبو العبّاس بن عقدة الهمداني الكوفي كتاباً في أسماء الرجال الذين رووا الحديث عن الإمام فذكر ترجمة أربعة آلاف راو منهم[١١].

وقد شملت هذه المدرسة الواسعة دراسات في مختلف العلوم كالفلسفة وعلم الكلام، والفقه وأصوله، والتفسير، في حين تجاوزت ذلك إلى العلوم الطبيعية كالكيمياء وغيرها.

وألّف تلامذته مئات الكتب والرسائل، حتى أن المرحوم الشيخ آغا برزك الطهراني ترجم لمئتي رجل من مصنفي تلامذة الإمام(ع)[١٢].

وهكذا أوجد الإمام هذه الحركة العلمية الواسعة الأبعاد، واستطاع أن ينشر الوعي على أوسع نطاق.

ب ـ تبيين الموقف الصائب في مسألة (الرأي):

وهذا الجانب ركّز عليه الإمام كثيراً ليلغي الإفراط والتفريط حول هذه المسألة.

فقد يعني العمل بالرأي: التماس العلل الواقعية للأحكام الشرعية من طريق العقل وجعلها مقياساً لصحة النصوص الشرعية، فما وافقها فهو حكم الله الذي يؤخذ به، وما خالفها كان موضعاً للرفض والتشكيك. وقد يعني الاستحسان: ما استحسنه المجتهد بعقله فأفتى به، وهي معان لو دققنا فيها النظر لوجدناها منفذاً للآراء الإنسانية إلى التشريع.

في حين قد يعني العمل بالرأي استنباط علل الأحكام من النصوص الشرعية من خلال الظواهر الكلامية التي تشكّل حجّة شرعية ثم تعميم الحكم على الحالات الأخرى.

أو يعني تقديم الأهم على المهم.

أو يعني قيام الحاكم المجتهد في مجال الحكم والإدارة باتباع المصلحة الاجتماعية في إصدار الأحكام الولائية.

فهذه أمور يقبلها التشريع الإسلامي ويؤكد عليها. وبهذا نعرف أن (الرأي) على بعض المعاني مرفوض، وعلى بعضها الآخر مقبول، وهو ما وضّحته مدرسة الإمام الصادق في روايات مفصّلة(١٣).

والذي نعتقده بصراحة هو أنه لولا وقوف مدرسة الإمام الصادق إمام هذه الظاهرة وتبيانها الموقف الصحيح منها لكنّا نرى الكثير من الإفراط والتفريط الأمر الذي يكاد يعصف بالتشريع كله. ولكنّا نلاحظ أن هناك تقارباً كبيراً حدث بعد ذلك بين الاتجاهين حتى ليكاد النزاع أحياناً يكون لفظياً، وهذا كما في موضوع الاستحسان والمصالح المرسلة، بل وحتى في القياس أحياناً، إذ يركّز هؤلاء على نفي القياس ويعنون الأقيسة المظنونة العلّة، في حين يؤمن أولئك بالقياس المقطوع بعلّته إمّا قطعاً وجدانياً أو تعبدياً وهو أمر لا يرفضه الطرف الآخر.

جـ ـ القيام بحملة حجاج واسعة ضد المشككين والملحدين:

وللحديث في هذا الصدد مجال واسع، فقد أشرنا إلى انتشار أفكار مشكّكة وآراء، متزندقة وعلى مدى كبير، وقد قام الإمام وأصحابه وتلامذته بمناقشة هؤلاء بكل قوّة ومتانة كشفتا من جهة عن قوة العقيدة الإسلامية، ومن جهة أخرى عن روح التسامح وأسلوب الجدال بالتي هي أحسن والتي تطبع أساليب الجدال الإسلامي القويم.

يقول الشيخ حيدر في كتابه الرائع (الإمام الصادق والمذاهب الأربعة) ص ٣٦١:

(وقد نهض الإمام الصادق لمقارعة أهل الباطل، وباحث الفلاسفة والدهريين، وأهل الكلام الجدليين الذين تصدّوا لافساد معتقدات الناس، فأبطل بنور حكمته مقالاتهم الفاسدة وسفسطتهم الفارغة).

وكتب الحديث حافله بمقارعته لهذه الحركات وزعمائها من قبيل ابن أبي العوجاء وأبي شاكر الديصاني، وعبدالملك المصري، والجعد بن درهم وغيرهم.

وربما كان (عليه السلام) يربّي أصحابه على الحجّاج ليقوموا بمهمة الدفاع عن الإسلام بأنفسهم.

د ـ التركيز على الحفاظ على الخلق العام:

وهنا أيضاً تواجهنا مجموعة ضخمة من الأحاديث الأخلاقية التي يحمل كل منها ثروة من الإرشادات والتوجيهات، وقد انتشرت هذه الأحاديث بين أبناء الأمّة وتناقلتها الركبان وتهذبت بها الجموع الغفيرة وعادت منهلاً من مناهل الخلق القويم، فلنطالع مثلاً الأحاديث القصار التالية لنكتشف بعض جوانب العظمة:

* ـ ثلاثة لا يعذر المرء فيها: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد والتحية إلى الناس.
* ـ العجب يكلم المحاسن، والحسد للصديق من سقم المودة، ولن تمنع الناس من عرضك إلّا بما تنشر عليهم من فضلك.
* ـ العزّ أن تذل للحق إذا ألزمك.
* ـ خمس خصال من لم تكن فيه لم يكن فيه كثر مستمتع؛ الدين والعقل والأدب، والحرية وحسن الخلق.
* ـ ومن حكمه (عليه السلام): العلم جنّة، والصدق عزّ، والجهل ذلّ، وحسن الخلق مجلبة للمودّة، والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس، والحزم مشكاة الظن، والله من عرفه، والعاقل غفوروالجاهل ختور وإن شئت أن تكرم فلن، وإن شئت أن تهان فأخشن، ومن كرُم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده، ومن فرّط تورّط، ومن خاف العاقبة تثبّت فيما لا يعلم، ومن هجم من غير علم جدع أنف نفسه[١٤].

ولن نستطيع هنا الإشارة إلى أكثر من هذا، وبحر العلم أمامنا زخار بالمعارف الأخلاقية التي تركت ـ كما قلنا ـ أثرها الكبير في إيجاد نهضة أخلاقية في المجتمع آنذاك.

هـ ـ توضيح الموقف السليم من الحاكمين وذوي الأهواء التسلطية:

لقد أدرك الإمام الصادق أبعاد الموقف السياسي الذي أحاط به تماماً، وعلم بأن جلّ الصراع حول الحكم إنما هو صراغ أهواء ونزاع نزعات، قبل أن يكون صراعاً على المبادىء. وقد أثبت التاريخ بعد ذلك هذه الحقيقة بوضوح، فلم يكن العهد العبّاسي للمسلمين بأفضل من العهد الأموي، من حيث الاستبداد والترف والانحراف.

وإن المرء ليشعر تماماً بعظم الخسائر التي ترتبت ـ دونما أية إضافة حضارية أو إنسانية ـ على المسيرة الإسلامية.

نعم، شعر الإمام بذلك، ولم يفرّط بطاقاته في نزاع من هذا القبيل، وإنما استغلّ الموقف ـ كما قلنا ـ

لينشر الحقائق العلمية الواسعة، إلّا أن ذلك لا يعني عدم توضيح الموقف السياسي، فقد كان موقفه واضحاً تماماً سواء تجاه الأمويين أو العبّاسيين أو قادة الثورة فيما بين العهدين، إذ لم يستطع هؤلاء أن يجروه لتحقيق مآربهم، أو تأييد مواقفهم مطلقاً، فكان مغضوباً عليه من قبل هؤلاء الطغاة إلى نهاية حياته. فكم هدّدوه بالقتل، وأحرقوا عليه داره، وجلبوه أسيراً، وأشاعوا الإشاعات حوله، إلّا أنه بقي رغم كل ذلك صامداً لا تهزّه عواصفهم، وبقيت له مواقفه الخالدة وتعليقاته اللاذعة ضدهم.

روى أحمد بن عمر بن مقداد الرازي أنه وقع الذباب على وجه المنصور فذبه فعاد فذبه فعاد حتى أضجره، وكان عنده جعفر بن محمد (عليه السلام) في ذلك الوقت، فقال المنصور يا أبا عبدالله، لم خلق الله الذباب؟ فقال له الإمام (ع) (ليذلّ به الجبابرة) فسكت ولم يحر جواباً[١٥].

وقد أعلن الإمام الصادق كلمته الصريحة عندما قال: (إن في ولاية الجائر دروس الحق كله، وإحياء الباطل كله، وإظهار الظلم والجور).

وكان يقول: (العامل بالظلم والمعين له والراضي به شركاء).

ودخل عليه عذافر فقال (ع): (بلغني أنك تعامل أبا أيوب والربيع ـ وهما من رجال الحكم آنذاك ـ فما حالك إذا نودي بك في أعوان الظلمة؟).

وسأله رجل من أصحابه عن البناء للحكّام الظلمة وكراية النهر فأجابه (عليه السلام): (ما أحبّ أن أعقد لهم عقدة أو وكيت لهم وكَاء ولا مدة بقلم، أن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد)[١٦].

وهكذا نجده (عليه السلام) يعمل على الصعيد العام على صيانة الأمّة عقائدياً وتشريعياً وخليقياً وسياسياً وبشكل واسع الأبعاد.

مظاهر الخط التربوي الخاص:

وهنا نستطيع أن نلحظ حركة منظمة واسعة الأبعاد لتربية الطليعة الواعية التي تبثّ العافية في أوصال الأمة، وهي ما حملت العناوين المختلفة من قبيل (شيعتنا، أصحابنا، غرر الأصحاب) وأمثالها من التعبيرات.

وها نحن نشير إلى بعض مظاهر هذه التربية:

الشد العاطفي:

وقبل أي شيء نلحظ الشد العاطفي لهؤلاء الواعين بخط أهل البيت (ع)، ولا ريب في أن الشد العاطفي بالقائد أمر ركّزت عليه التعاليم الإسلامية بدءاً من التذكير بالعلاقة التي يملكها القائد بالله

العظيم محل الحب الرفيع ومنبع الفيض والحنان على الأرض، ومروراً بالآيات الكريمة والأحاديث الشريفة المركّزة على حب أهل البيت (ع) ومودّتهم وانتهاء بالعطاء الفعلي الذي يلمسه المجنون لهذه الشخصيات العظيمة العطاء.

دخل المفضل بن عمرو على الصادق(ع) فلمّا بصر به ضحك إليه ثم قال: (إليّ يا مفضل فوربي إني لأحبك وأحب من يحبك، يا مفضل: لو عرف جميع أصحابي ما تعرف ما اختلف اثنان).. ثم يضيف.. (فنحن نحن إليكم وأنتم تحنون إلينا.. الخبر)(١٧).

التركيز على تحلّي الأصحاب بالورع:

يقول (ع): (عليكم بالورع فإنه لا ينال ما عند الله إلّا بالورع)(١٨).

ويقول (ع): (عليكم بتقوى الله والورع، والاجتهاد، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وحسن الخلق، وحسن الجوار، وكونوا دعاة إلى أنفسكم بغير ألسنتكم وكونوا زيناً ولا تكونوا شيناً..)(١٩).

ومن طريف ما يروى أنه شهد أبو كدينه الأزدي ومحمد بن مسلم الثقفي عند قاضٍ بشهادة فنظر في وجهيهما ملياً ثم قال: جعفريين فاطميين، فبكيا فقال لهما: ما يبكيكما؟ فقالا: نسبتنا إلى أقوام لا يرضون بأمثالنا أن نكون من إخوانهم لما يرون من سخف ورعنا، ونسبتنا إلى رجل لا يرضى بأمثالنا أن نكون من شيعته، فإن تفضّل وقبلنا فله المنّ علينا والفضل قديماً فينا فتبسم القاضي ثم قال: إذا كانت الرجال فلتكن أمثالكم.

وقد قال لجميل بن درّاج:

(من صالح الأعمال: البرّ بالإخوان، والسعي في حوائجهم وذلك مرغمة للشيطان، وتزحزح عن النيران، ودخول في الجنان. يا جميل، اخبر بهذا الحديث غرر أصحابك).

فقال: جعلت فداك ومن غرر أصحابي؟

فقال الإمام: (هم البارّون بالإخوان في العسر واليسر)(٢٠).

التعريف بفضل أصحابه السابقين ليتخذوا قدوة:

يقول (ع): (ما أحد أحيا ذكرنا وأحاديث أبي الازرارة وأبو بصير المرادي، ومحمد بن مسلم، وبريد بن معاوية، ولولا هؤلاء ما كان أحد يستنبط هدى. هؤلاء حفّاظ الدين وأمناء أبي على حلال الله وحرامه، وهم السابقون إلينا في الدنيا وفي الآخرة)(٢١).

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إذ يقول لأصحابه: (لأحملنّ ذنوب سفهائكم على علمائكم، ما يمنعكم إذاً بلغكم عن الرجل منكم ما تكرهون وما يدخل به الأذى علينا أن تأتوه فتؤنبوه وتعذلوه وتقولوا له قولاً بليغاً).

فقال له بعض أصحابه إذن لا يقبلون منّا.

فقال (ع): (اهجروهم واجتنبوا مجالسهم)(٢٢).

التركيز على أداء الأمانات:

فمن وصيته للمفضل بن عمرو: (أوصيك بست خصال تبلغنّ شيعتي) قال المفضل: وما هي يا سيدي؟ قال (ع): (أداء الأمانة إلى من ائتمنك، وأن ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك، واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب، وأن للأمور الفتات فكن على حذر، وإيّاك ومرتقى جبل إذا كان المنحدر وعراً، ولا تعدن أخاك ما ليس في يدك وفاؤه)(٢٣).

والدعوة إلى المنهج الأصيل عبر العمل والالتزام:

يقول (ع) لأصحابه: (أوصيكم بتقوى الله وأداء الأمانة لمن ائتمنكم وحسن الصحبة لمن صحبتموه وأن تكونوا لنا دعاة صامتين).

قالوا: يا ابن رسول الله وكيف ندعوا ونحن صامتون؟

قال (ع): (تعملون بما أمرناكم به من العمل بطاعة الله، وتعاملون الناس بالصدق والعدل، وتؤدون الأمانة، وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر، ولا يطلع الناس منكم إلاّ على خير فإذا رأوا ماأنتم عليه علموا فضل ما عندنا فتنازعوا إليه)(٢٤).

ثم التربية على الصمود والثبات:

يقول لأحد أصحابه: (قد كان قبلكم قوم يقتلون ويحرقون وينشرون بالمناشير، وتضيق عليهم الأرض برحبها فما يردهم عمّا هم عليه شيء مما هم فيه، من غير ترة وتروا من فعل ذلك بهم ولا أذى، بل ما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العرير الحميد فاسألوا درجاتهم، واصبروا على نوائب دهركم تدركوا سعيهم..)(٢٥).

ويقول (ع): (صبّروا النفس على البلاء في الدنيا، وأن تتابع البلاء فيها، والشدة في طاعة الله وولايته، وولاية من أمر الله بولايته.. فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام، وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحق حتى يتوفّاكم وأنتم على ذلك، وأن يجعل منقلبكم منقلب الصالحين).

الانضباط والكتمان والتقية:

يقول (ع) والله ما الناصب لنا حرباً بأشد علينا مؤنة من الناطق علينا بما نكره فإذا عرفتم من عبد إذاعة فامشوا إليه وردّوه عنها..)(٢٦).

وربما أرسل بعض الرسائل الرمزية إلى أصحابه.

يحدث حمّاد بن عثمان أنه أوصاه بوصيته لابن أبي يعفور بالكوفة قائلاً: اقرئه السلام صلى الله عليه

وقل كن على ما عهدتك عليه[٢٧].

التحذير من التعاون مع السلطة:

(يقول لأحد كتّاب بني أمية: لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم لما سلبونا حقّنا)[٢٨].

وعندما طلب منه أحد أصحابه أن يكلّم له داوود دين علي أو بعض حكّام العبّاسيين ليمنحوه منصباً وأقسم له وأعطاه الوعود على أن لا يظلم أحداً قال (ع): تفاؤل السماء أيسر عليكم من ذلك[٢٩].

تطهير الاعتقاد من الغلو والسلوك من الرجاء الكاذب:

قال له رجل: إن قوماً من شيعتكم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو فقال: (كذبوا ليسوا من شيعتنا كل من رجا شيئاً عمل له والله ما شيعتنا منكم إلاّ من اتقى الله)[٣٠].

وروى المفضل بن عمرو قال: كنت أنا وخالد الجوان ونجم الحطم وسليمان بن خالد على باب الصادق (ع) فتكلمنا فيما يتكلم فيه أهل الغلو فخرج علينا الصادق (ع) بلا حذاء ولا رداء وهو ينتفض ويقول: يا خالد يا مفضل يا سليمان يا نجم لا «بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون»[٣١].

وسئل (ع) عمّا روى عن أبيه (إذا عرفت فاعمل ما شئت) وإن بعضهم يستحلّ بعد ذلك كل محرّم فقال(ع) ما لهم لعنهم الله إنما قال أبي (إذا عرفت الحق فاعمل ما شئت من خير يقبل منك)[٣٢].

والمعروف أنه (ع) كان يربّي في أصحابه روح النقاش الحاسم دفاعاً عن الحق.

عن هشام بن سالم قال: كنّا عند أبي عبدالله(ع) جماعة من أصحابه فورد رجل من أهل الشام فاستأذن فأذن له فلمّا دخل سلّم فأمره أبو عبدالله (عليه السلام) بالجلوس، ثم قال له: ما حاجتك أيها الرجل؟ قال بلغني أنك عالم بكل ما تسأل عنه فصرت إليك لأناظرك فقال أبو عبدالله (ع) فبماذا؟ قال: في القرآن قطعه وإسكانه وخفضه ونصبه ورفعه فقال أبو عبد الله(ع) يا حمران دونك الرجل. فقال الرجل: إنما أريدك أنت لا حمران فقال أبو عبدالله: إن غلبت حمران فقد غلبتني فأقبل الشامي يسأل حمران حتى ضجر وملّ وعرض وحمران يجيبه فقال أبو عبدالله(ع): كيف رأيت يا شامي؟ قال رأيته حاذقاً ما سألته في شيء إلاّ أجابني فيه فقال أبو عبدالله يا حمران سل الشامي فما تركه يكشر فقال الشامي: أرأيت يا أبا عبدالله أناظرك في العربية فالتفت أبو عبدالله (ع) فقال: يا أبان بن تغلب ناظره فناظره فما ترك الشامي يكشر: قال: أريد أن أناظرك في الفقه فقال أبو عبدالله: يا زرارة ناظره، فما ترك الشامي يكشّر قال: أريد أن أناظرك في الكلام فقال: يا مؤمن الطاق ناظره فسجّل الكلام بينهما ثم تكلّم مؤمن الطاق بكلامه فغلبه فيه.. وهكذا تستمر الرواية حتى يطلب الشامي أن يكون من شيعته»[٣٣].

وأخيراً :

فقد كانت هذه شذرات أردنا من خلالها أن نلمح إلى خطه التربوي الخاص والذي كان يصب في النهاية في الخط التربوي العام ليحقق الهدف المنشود وهو نشر المعارف الإسلامية وتحصين الأمة وسدّ أبواب الانحراف وبالتالي ضمان سيرها على الخط اللاحب نحو تحقيق أهدافها الكبرى .

وفقنا الله للعمل في سبيله وإقامة حكومته ورحم الله إمامنا الراحل الخميني العظيم ، وحفظ لنا إمامنا الحالي الخامنئي ، وجعلنا جميعاً على خط الإسلام العظيم والقرآن الكريم إنه السميع المجيب .



الحواشي

(١) ـ الرعد / ١٧ .
(٢) ـ الغدير / ج ٥ / ص ٢٩٠ .
(٣) ـ الغدير / ج ٥ / ص ٢١٦ .
(٤) ـ الغدير / ج ٥ / ص ٢١٦ .
(٥) ـ الغدير / ج٥ / ص ٢١٧ .
(٦) ـ الغدير / ج ٥ / ص ٢٧٥ نقلاً عن مقدمة صحيح مسلم .

(٨) ـ بحار الأنوار / ج ١١ / ص ٢٣٤ .
(٩) ـ حياة الإمام موسى بن جعفر / ج ١ / ص ٧٦ ، نقلاً عن رسائل الجاحظ للسندوبي / ص ١٠٦ ، والصواعق المحرقة / ص ١٢٠ .
(١٠) ـ الإمام جعفر بن محمد / ص ٥٩ .
(١١) ـ حياة الإمام موسى بن جعفر / ج ١ / ص ٨٠ نقلاً عن تاريخ الكوفة / ص ٤٠ .
(١٢) ـ الذريعة إلى تصانيف الشيعة / ج ٥٦ .
(١٣) ـ للوقوف على التفاصيل راجع مثلاً : أصول المظفر / مبحث القياس .
: الأصول العامة للفقه المقارن / ص ٣٠٣.

(١٤) ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / ج ١ / ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .
(١٥) ـ الفصول المهمة / لابن الصباغ المالكي / ص ٢٢٤ / طبعة الأعلمي .
(١٦) ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / ج ١ / ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥ .
(١٧) ـ بحار الأنوار / ج ٤٧ / ص ٣٩٥ .
(١٨) ـ حياة الإمام موسى بن جعفر / ص ١٠٠ نقلاً عن أصول الكافي / ج ٢ / ص ٧٦ .
(١٩) ـ حياة الإمام موسى بن جعفر / ص ١٠٠ نقلاً عن أصول الكافي / ج ٢ / ص ٧٦ .
(٢٠) ـ حياة الإمام موسى بن جعفر / ج ١ / ص ٩٨، نقلاً عن خصال الصدوق .
(٢١) ـ بحار الأنوار / ج ٤٧ / ص ٣٩٠، عن الاختصاص / ص ٦٦ .
(٢٢) ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / ج ٤ / ص ٢٩١ .
(٢٣) ـ حياة الإمام الصادق / ج ٣ / ص ١٣٦ .
(٢٤) ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / ج ٤ / ص ٣٢٢ .
(٢٥) ـ حياة الإمام موسى بن جعفر عن روضة الكافي .
(٢٦) ـ بحار الأنوار / ج ٤٧ / ص ٣٧٢ نقلاً عن الكافي / ج ٢ / ص ٢٢٢ .
(٢٧) ـ بحار الأنوار / ج ٤ / ص ٣٧٤ نقلاً عن الاختصاص / ص ١٩٥ .
(٢٨) ـ بحار الأنوار / ج ٤ / ص ٣٧٣ نقلاً عن الكافي / ج ٥ / ص ١٠٦ .
(٢٩) ـ المصدر نفسه .
(٣٠) ـ روضات الجنّات / ج ٣ / ص ٣٤٤ .
(٣١) ـ بحار الأنوار / ج ٤٧ / ص ١٢٥ .
(٣٢) ـ وسائل الشيعة / ج ١١ / ص ١١٦ ـ ١١٧ .
(٣٣) ـ بحار الأنوار / ج ٤٧ / ص ٤٠٧ ـ ٤٠٩ نقلاً عن رجال الكشي / ص ١٧٨



العلامة السيد مرتضى العسكري



الإمام الصادق (ع)
محيي السنة النبوية



بسم الله الرحمن الرحيم

في السابع عشر من ربيع الأول مناسبتان اسلاميتان نيِّرتان :

أولاهما ـ ولادة خاتم الأنبياء وسيد الرسل محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

والثانية ـ ولادة حفيده الإمام جعفر الصادق(ع) .

وبين النورين نسبة كنسبة نور القمر المكتسب من ضوء الشمس ، وذلك انَّ الله تبارك وتعالى أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالهدى ودين الحق وقال سبحانه وتعالى :

﴿هو الذي بعث في الأميِّين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكِّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾ الجمعة/ ٢ .

وقـال تعـالى: ﴿وأنـزلنـا إليـك الـذكر لتبينّ للناس ما نُزِّل إليهم﴾ النحل/ ٤٤.

فصـدع صلوات الله عليـه وآلـه وسلم بالـرسالة، وبلّغ من حضره آيات القرآن وسوّره متدرجًا حتى أتقنوها وجمعوها وحفظوها، وكذلك بيّن للنّاس عامّة من علوم القرآن ماأوحى إليه لهدايتهم، وخصّ منهم ابن عمـه عليّـاً فأملى عليـه ما أوحى إليه منها، فوعاها، وأمره فكتبها. وفي هذا الصدد نجد في روايات مدرسة الخلفاء ما رواه النسـائي وابن ماجه في سُنَنِهما، وأحمد في مسنده واللفظ للأول، عن الإمام علي(ع) إنه قال:

«كـانت لي منـزلـة من رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم تكن لأحد من الخلائق، فكنت آتيه كل سحر فأقول: السلام عليك يا نبيَّ الله. فإن تنحنح انصرفت إلى أهلي وإلاّ دخلت عليه».

وفي رواية: «إن وجدته يصلي تنحنح وإن وجدته فارغاً أذن لي»[1].

وفي الطبقات لابن سعد بسنده قال:

«قيـل لعـلي: مالـك أكثـر أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حديثاً؟ فقال: إنّي كنت إذا سألته أنبأني، وإذا سكتّ ابتدأني».

وفي روايــة قال: «والله ما نزلت آيـة إلاّ وقـد علمت في ما نزلت، وأين نزلت، وعلى من نزلت. إنَّ ربِّي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً طلقاً».

وفي ثالثة قال: قال علي: «سلوني عن كتاب الله فإنه ليس من آية إلاّ وقد عرفت بليل نزلت أم بنهار، في سهل نزلت أم في جبل»[2].

كان ذلكم بعض ما ورد في هذا البـاب في مصـادر الـدراسـات الإسلامية بمدرسة الخلفاء، وورد في مدرسة أهل البيت(ع) ما يأتي ـ وأهل البيت أدرى بما فيه:

في بصائر الدرجات وآمالي الشيخ الطوسي ـ واللفظ بإيجاز ـ عن الإمام الباقر عن آبائه(ع) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلي(ع): اكتب ما أملي عليك. قال: يا نبيَّ الله! أتخاف عليَّ النسيان؟ قال صلى الله عليـه وآلـه وسلم: لست أخـــاف عليـــك النسيـانَ، وقـد دعـوت الله أن يُحفِظـك ولا ينسيـك، ولكن أكتب لشـركـائـك. قال: قلت: ومن شركـائي يا نبيَّ الله؟ قال: الأئمة من ولدك... وأومى إلى الحسن وقال: هذا أولهم، وأومى إلى الحسين وقال: الأئمة من ولده.[3].

وفي رواية قال الإمام علي(ع):

«كنت إذا سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أجابني، وإن فنيت مسائلي ابتدأني، فما نزلت عليه آية

في ليل ولا نهار، ولا سماء ولا أرض، ولا دنياً ولا آخرة، ولا جنة ولا نار، ولا سهل ولا جبل، ولا ضياء ولا ظلمة؛ إلاّ أقرأنيها وأملاها عليَّ وكتبتها بيدي، وعلَّمني تأويلها وتفسيرها، ومحكمها ومتشابهها، وخاصَّها وعامَّها، وكيف نزلت، وفي من نزلت، إلى يوم القيامة، ودعا الله لي أن يعطيني فهماً وحفظاً، فما نسيت آيةً من كتاب الله إلاّ أملاهُ عليَّ»(٤).

وفي رواية ما موجزه:

«كان إذا غاب الإمام يحفظ عدد الأيام التي غاب فيها، فإذا التقيا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا علي! نزل عليَّ في يوم كذا؛ كذا وكذا، وفي يوم كذا؛ كذا، حتى يعدَّها عليه إلى آخر اليوم الذي وافى فيه»(٥).

كذلك أتمَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم تبليغ جميع القرآن لجميع من حضره كما أنزل الله، وبيَّن لمن حضر ما يحتاجونه من تفسير الآيات في العقائد والأحكام وسائر علوم الإسلام. ومن بيانه أحاديثه بالاضافة إلى سيرته التي كان يجسِّد فيها الإسلام؛ منها جميعاً تكونت سنَّته.

والإسلام كلُّه في الكتاب والسنة، وليس في ما عداهما من كتب بني آدم شيء من الإسلام. وقد ضمن الله تبارك وتعالى حفظ القرآن وقال:

﴿إنّا نحن نزَّلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾(الحجر/ ٩).

وبقي القرآن جميعه محفوظاً كما نزل، وفي متناول أيدي الناس جميعاً إلى أبد الدهر. ولكنّنا لا نستطيع أن نعمل بأحكام الإسلام دون الرجوع إلى بيان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. لا نستطيع أن نؤدِّي ركعة واحدة من الصلاة دون الرجوع إلى سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فماذا كان من أمر سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟

إذا تدبَّرنا ما سبق من روايات كتابة الإمام علي(ع) ما أملاه عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم علمنا أنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كان قد أملى عليه مع القرآن سنته. ضمن تفسيره آيات القرآن له. إذاً فقد كانت سنة الرسول مكتوبة عند الإمام علي(ع) كاملة، وطبيعي أن يتناولها بعد الإمام علي(ع) بنوه، ولكنَّ الإمام عليّاً وبنيه(ع) لم يكونوا وحدهم بحاجة إلى سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم دون سائر المسلمين، بل إنَّ سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كانت للمسلمين عامَّة بما فيهم الأئمة من أهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

من هنا نعرف الحكمة في قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للأمَّة في حديثه:

[أنا مدينة العلم وعليّ بابها، فمن أراد العلم فليأت من الباب»

وقوله: [إنَّه وصيّه من بعده ـ إلى رفعه أمام اكثر من سبعين ألفاً من الحجيج في غدير خم ـ وقوله:

من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه» إلى كثير من الأحاديث التي أوردناها في آخر المجلد الأول من (معالم المدرستين).

وكذلك عيَّن المرجع بعد الإمام عليّ(ع) في قوله:

[إنِّي مخلِّف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسَّكتم بهما لن تضلُّوا بعدي، وقد أنبأني اللطيف الخبير أنَّهما لا يفترقان حتى يردا عليَّ الحوض].

وعيَّن عددهم في حديث تعيين عدد الإثني عشر الذين يأتون بعده وأنه يكون بعدهم فناء الدنيا.

وإن معنى التمسك بأهل البيت إلى جنب القرآن؛ أخذ الإسلام من القرآن والسنة بواسطة حَمَلَةِ السنة.

فكيف كان أمر نشر الكتاب والسنة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؟

كيفيَّة نشر الكتاب والسنة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

إتَّجه المسلمون في أمر نشر الكتاب والسنة بعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اتجاهين:

ألف ـ نشر كتاب الله وكتابته، والمنع من كتابة سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

باء ـ نشرهما وكتابتهما معاً.

والأول منهما هو اتِّجاه مدرسة الخلفاء، والثاني هو اتِّجاه مدرسة أهل البيت(ع) كالآتي بيانه.

ألف ـ مدرسة الخلفاء:

أدَّى اجتهاد مدرسة الخلفاء ـ منذ عصر الخليفة الثاني ـ إلى منع كتابة حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ورووا عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم روايات تؤيِّد تلك السياسة؛ مثل ما رواه مسلم في صحيحه، والدارمي في سننه، وأحمد في مسنده، واللفظ للأول:

«إنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: [لا تكتبوا عنِّي، ومن كتب عنِّي غير القرآن فليمحه].

وفي رواية قال: [لا تكتبوا عنِّي، ومن كتب عنِّي غير القرآن فليمحه].

وفي رواية عن الصحابي أبي هريرة؛ أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا رآهم يكتبون قال: [أكتاب مع كتاب الله! إمحضوا كتاب الله. أكتاب غير كتاب الله!!؟].

قال أبو هريرة: فجمعنا ما كتبنا في صعيد واحد ثم أحرقناه بالنار.

هكذا حرَّموا كتابة حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وبقي التحريم نافذاً حتى عصر الخليفة

الأمويّ عمر بن عبد العزيز، حيث رفع المنع، وكتب إلى أهل المدينة: «أن أنظروا حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاكتبوه، فإنّي خفت دروس العلم وذهاب أهله»، وكذلك إلى سائر البلاد. غير أنه لم يطل حكمه لينفّذ أمره؛ بل سمّته بنو أميّة بعد سنتين ونيّف من تولّيه الحكم، فعاد أمر سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى ما كان عليه قبل ذلك، حتى وَلِيَ أبو جعفر المنصور، ولمّا استتبَّ الأمر له إتجه إلى سدِّ حاجة الأمة من كتب العلم، وحرَّض العلماء على التأليف. وفي هذا الصدد قال الذهبي في ذكره حوادث السنة الثالثة والأربعين ومائة بعد الهجرة:

(وفي هذا العصر شرع علماء الإسلام في تدوين الحديث والفقه والتفسير؛ فصنف ابن جريج التصانيف بمكة، وصنف سعيد بن أبي عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، وصنف الأوزاعي بالشام، وصنف مالك الموطّأ بالمدينة، وصنف ابن إسحاق المغازي، وصنف معمر باليمن، وصنف أبو حنيفة وغيره الفقه والرأي بالكوفة، وصنف سفيان الثوري كتاب الجامع، ثم بعد يسير صنف حثيم كتبه، وصنف الليث بمصر وابن لهيعة ثم ابن المبارك وأبو يوسف وابن وهب. وكثر تدوين العلم وتبويبه، ودوِّنت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس. وقبل هذا العصر كان سائر الأئمة يتكلمون عن حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة. فسهل ـ ولله الحمد ـ تناول العلم، وأخذ الحفظ يتناقص، فللّه الأمر كله)[٦].

وأشهر ما أُلِّفَ في السنة النبوية يومذاك؛ الموطّأ، لمالك بن أنس الأصبحي المدني (ت: ١٧٩هـ) إمام المالكية، جمع فيه ما انتهى إليه من أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفتاوى الصحابة والتابعين وفق اجتهادهم، وكان ممّن أخذ العلم منه؛ محمد بن إدريس الشافعي ـ إمام المذهب الشافعي ت: ٢٠٤هـ ـ، قال الذهبي: حفظ الموطّأ وعرضه على مالك[٧].

وأضاف الشافعي إلى حمل الحديث؛ تأسيسه علم أصول الفقه، وأخذ أمام الحنابلة أحمد بن جنبل (ت: ٢٤٠هـ) الحديث من الشافعي[٨]، وأضاف إلى ما أخذ منه، وألّف المسند وجوّد فيه، وأصبح من أشهر علماء الحديث.

وفي مقابل مدرستي الحديث والفقه تينكما أسس أبو حنيفة النعمان بن ثابت (ت: ١٥٠هـ) مدرسة الرأي في علم الفقه وابتكر للإجتهاد قواعد القياس والإستحسان والمصالح المرسلة. ونرى أنّ أبا حنيفة ـ أيضاً ـ اقتدى بالصحابة في العمل بالإجتهاد، غير أنّه أسس له أصوله المعروفة، وكذلك انقسمت مدرسة الخلافة في أمر استنباط الأحكام من الكتاب والسنة إلى مدرسة الحديث، ومدرسة أصول الفقه المبتنى على الحديث، ومدرسة الرأي التي تستند إلى الرأي والسنة في استنباط الأحكام.

إذاً فقد انتهى حديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عصر التدوين إلى المدارس الإسلامية (الفقهية منها وغير الفقهية) عبر ثلاث وثلاثين ومائة من السنين، ينتقل فيها من فم إلى أذن حفظاً وشفويّاً، وينقل

أحياناً بالمعنى فتختلف ألفاظه لدى الرواة، وينتج الغموض والالتباس في المعنى، وليس الأمر كذلك عند أئمة أهل البيت(ع) كما يأتي بيانه:

السنّة النبوية لدى مدرسة أهل البيت(ع) في القرن الأول الهجري

مرّ بنا أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أملى على ابن عمه عليّ(ع) ما نزل عليه من علم من ربّه وأمره فكتبه، وتقتضينا الأمانة العلمية في دراسة السنة النبوية في مدرسة أهل البيت(ع) بعد ذلك أن نرجع إلى مصادر السنة لديهم، وإذا رجعنا إليها في هذا الصدد ظهر لنا ممّا ورد من الروايات في الكافي وغيره؛ أنّ الإمام عليّاً(ع) عندما أراد أن يسير إلى العراق استودع أمّ المؤمنين أمّ سلمة قسماً من كتب العلم، وعندما رجع الإمام الحسن(ع) من العراق إلى المدينة سلّمته تلك الكتب.

كما ورد الخبر ـ أيضاً ـ في رواية وصية الإمام علي(ع) حين أوصى إلى ابنه الحسن(ع)، وأشهد على وصيته الحسين ومحمّداً وجميع ولده ورؤساء شيعته وأهل بيته، ثم دفع إليه الكتاب والسلاح وقال لابنه الحسن(ع):

«يا بنيَّ! أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنْ أوصيَ إليك، وأن أدفع إليك كتبي وسلاحي كما أوصى إليَّ رسول الله ودفع إليَّ كتبه وسلاحه، وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين، ثم أقبل على ابنه الحسين فقال له: وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تدفعها إلى ابنك هذا، ثم أخذ بيد علي بن الحسين ثم قال لعلي بن الحسين: وأمرك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تدفعها إلى ابنك محمد بن عليّ وأقرأه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومنّي السلام».

وكانت تلك الكتب عند الإمام الحسن(ع)، وبعد أن توفّي مسموماً صارت عند الإمام الحسين(ع).

ولمّا توجه الإمام الحسين(ع) إلى العراق دفع إلى أمّ سلمة ـ زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ الوصية والكتب وغير ذلك وقال لها:

«إذا أتاك أكبر ولدي فادفعي إليه ما دفعت لك».

فلما قتل الحسين(ع)، ورجع عليُّ بن الحسين(ع) إلى المدينة ـ عام واحد وستين من الهجرة ـ دفعت إليه أمُّ سلمة كل ما أعطاه الحسين(ع).

ولمّا حضر عليَّ بن الحسين السجاد(ع) الموت عام خمسة وتسعين من الهجرة وولده مجتمعون عنده؛ التفت إلى ابنه ـ محمد بن علي(ع) ـ وقال:

«يا محمد! إحمل هذا الصندوق إلى بيتك» فحمل بين أربعة رجال ثم قال: **«أما إنّه ليس فيه دينار**

ولا درهم، ولكنه مملوء علماً».

ولمّا توفّي جاء إخوته يدّعون في الصندوق فقالوا: أعطنا نصيبنا من الصندوق، فقال:

«والله مالكم فيه شيء . . . كان في الصندوق سلاح رسول الله وكتبه».

وبهذا العمل أعلِن عن وجود كتب العلم الموروثة عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لدى الإمام محمد الباقر(ع).

وفي عصره شاخت الدولة الأموية وضعفت، وظهرت دعوة بني العباس، فأتيحت الفرصة للإمام الباقر(ع) أن يظهر لأصحابه بعض ما ورثه من كتب العلم. كما ورد في الكافي عن زرارة ما موجزه أنّه قال: سألت أبا جعفر ـ محمد الباقر(ع) ـ عن إرث الجدّ ما أجد أحداً قال فيه إلاّ برأيه، إلاّ أمير المؤمنين! قال:

«إذا كان غد فالقني حتّى أُقرئكه في كتاب». فأتيته من الغد فقال لابنه جعفر: **«أقرء زرارة صحيفة الفرائض»** وذهب لينام. فبقيت أنا وجعفر في البيت، فأخرج إليَّ صحيفة مثل فخذ البعير ـ كانت من الجلد ومطويّةً ـ وقال: **«لست أُقرئكها حتى تجعل لي عليك الله ألاّ تحدِّث بما تقرأ فيها أحداً حتى آذن لك»**. فقلت: لك ذلك. فألقى إليَّ طرف الصحيفة فإذا فيها خلاف ما بأيدي الناس. الحديث.

يظهر أنَّ ذلك التحفُّظ قبل انحلال الدولة الأموية، وبعد ضعفها أظهر الإمام الباقر والصادق(ع) بعض الكتب التي ورثاها من الإمام عليّ(ع)، ومن تلك الموارد ما رواه أبو بصير وقال: (أخرج إليَّ أبو جعفر ـ الإمام الباقر ـ صحيفة فيها الحلال والحرام، والفرائض ـ أي سهام الإرث ـ قلت: ما هذه؟ قال: **«هذه إملاء رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **وخط عليّ(ع) بيده، هي الجامعة أو من الجامعة»**.

وكذلك ذكرنا في الجزء الثاني من معالم المدرستين (ص٣٣٩ ـ ٣٤٢) أخبار آخرين من أصحابهما أرْياهم بعض كتب العلم التي ورثاها من الإمام عليّ(ع).

واستقلّ بأمر كتب العلم الإمام الصادق(ع) بعد وفاة أبيه الإمام الباقر(ع) عام أربعة عشر بعد المائة، وأتيحت له الفرصة في أخريات الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية أكثر من سائر أئمة أهل البيت(ع) للقيام بإحياء سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من تلك الكتب. كما نشير إليه في ما يأتي من البحث.

أولاً ـ إخباره بما ورثه من كتب العلم:

في الكافي وغيره روايات موجزها أنَّ الإمام الصادق(ع) قال في جواب سؤال الراوي عليّ بن رئاب وغيره، عن الجامعة: **«إنّها صحيفة طولها سبعون ذراعاً في عرض الأديم مثل فخذ الفالج. أملاه رسول الله** صلى الله عليه وآله وسلم **من فلق فيه، وخطّه عليّ بيمينه، فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج حتى أرش الخدش**. ومدَّ يده إلى الراوي وقال له: **تأذن؟** قال: جعلت فداك! إنّما أنا لك، فاصنع ما شئت. فغمزه بيده كالمغضب وقال: **حتى أرش هذه»**.

وفي رواية ذكر ابن شبرمة (ت: ١١٤هـ) في فتياه وقال:

«ضل علم ابن شبرمة عند الجامعة إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخط عليّ بيده. إنَّ الجامعة لم تدع لأحد كلاماً. فيها علم الحلال والحرام. إنَّ أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا إلّا بعداً إنَّ دين الله لا يصاب بالقياس».

وكان ابن شبرمة قاضياً لأبي جعفر المنصور على سواد الكوفة.

وفي رواية: كان عنده ستون رجلاً من أصحابه فأخبره أحدهم باستهانة بعض بني عمومته - بني الحسن - بما ورثوه من كتب الإمام علي(ع)، وأنّه قال: ليس ما ورثوه أكثر من إهاب. فقال الإمام الصادق(ع):

«**لا والله! إنّهما عليهما أصوافهما، في أحدهما مدحوس كتباً، وفي الآخر سلاح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**».

ثانياً - رجوع الإمام الصادق(ع) إليهما:

في الكافي وغيره، عن أبي بصير؛ كنت عند أبي عبد الله(ع) فدعا بالجامعة فنظر فيها فإذا فيها:

«**إمرأة ماتت وتركت زوجها لا وارث لها غيره: المال له كلّه**»

وعن الراوي ابن بكير قال: سأل زرارة أبا عبد الله(ع) عن الصلاة في وبر الثعالب والفنك والسنجاب وغيره من الوبر، فأخرج كتاباً زعم أنّه إملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإذا فيه:

«**إنَّ الصلاة في وبر كل شيء حرام أكله فالصلاة في وبره وشعره وجلده وبوله وروثه وكل شيء منه فاسدة لا تقبل تلك الصلاة حتى يصلّي في غيره ممّا أحلَّ الله أكله**». ثم قال: «**يا زرارة! هذا عن رسول الله فاحفظه...**».

وعن الراوي معتّب قال: أخرج إلينا أبو عبد الله صحيفة عتيقة من صحف عليّ فإذا فيها ما نقول إذا جلسنا نتشهّد.

وعن الراوي محمد بن مسلم قال: نشر أبو عبد الله - الصادق(ع) - صحيفة الفرائض، فأول ما تلقاني فيها: **ابن أخٍ وجد: المال بينهما نصفان**. قلت: جعلت فداك! إنَّ القضاة عندنا لا يقضون لابن الأخ مع الجد بشيء. فقال:

«**إنَّ هذا الكتاب خط عليّ وإملاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم**».

كانت تلكم أمثلة من موارد كثيرة قرأ الإمام الصادق(ع) الحكم منها من كتاب عليّ أو الجامعة، وأحياناً كان ينقل عن كتاب عليّ(ع).

ثالثاً ـ نقل الإمام الصادق(ع) عن كتاب عليّ(ع) أو الجامعة :

أوردنا في كتاب (معالم المدرستين) عشرات الأمثلة التي نقل فيها الإمام الصادق(ع) الحكم عن كتاب عليّ(ع) مثل قوله :

«إنَّ في كتاب عليّ ؛ أنَّ الهرَّ سبع فلا بأس بسؤره» .

وأحياناً كان يسند ما ينقله عن كتب عليّ(ع) إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويقول : **«قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم»** .

وأحياناً كان يُسأل عن مسألة فيجيب دون أن يسند الجواب إلى كتاب علي(ع) أو إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي كل ذلك كان يروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يفتي باجتهاده ورأيه ، كما صرح بذلك في الموارد الآتية :

في الكافي : سأل رجل أبا عبد الله ـ الإمام جعفر الصادق(ع) ـ عن مسألة فأجابه فيها ، فقال الرجل : أرأيت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقال له :

«مه! ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله ، لسنا من (أرأيت) في شيء» .

وفي لفظ آخر : **«لسنا نقول برأينا من شيء»** .

وفي رواية ثانية قال :

«إنّا لو كنّا نُفتي الناس برأينا وهوانا لكنّا من الهالكين ، ولكنّها آثار من رسول الله أصول علم نتوارثها كابراً عن كابر ، نكنزها كما يكنز الناس ذهبهم وفضتهم» .

وفي رواية ثالثة قال :

«والله! ما نقول بأهوائنا ، ولا نقول برأينا ، ولا نقول إلاّ ما قال ربُّنا ، أصول عندنا نكنزها كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم» .

وفي رواية رابعة قال :

«. . . بيِّنة من ربِّنا لنبيِّه صلى الله عليه وآله وسلم ، فبيَّنها نبيُّه لنا . فلولا ذلك كنّا كهؤلاء الناس» .

واتخذ الإمام الصادق(ع) في أول الخلافة العباسية ـ وعلى عهد أول خلفائهم السفّاح ـ الحيرة[٩] سكناً له .

روى أبو جعفر محمَّد بن معروف الهلالي وقال :

«مضيت إلى الحيرة إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد(ع) وقت السفّاح ، فوجدته قد تداكَّ الناس عليه ثلاثة أيّام متواليات ، فما كان لي فيه حيلة ، ولا قدرت عليه من كثرة الناس ، وتكاثفهم عليه . فلما كان

في اليوم الرابع رآني ـ وقد خفَّ الناس عنه ـ فأدناني، ومضى إلى قبر أمير المؤمنين(ع) فتبعته.. الحديث»[١٠].

وكذلك اتخذ من مسجد الكوفة معهداً لتدريس سنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وكان يكتظ فيه حملة الحديث لأخذ الحديث منه، بالإضافة إلى من كان يأخذ منه الحديث من الحجيج في المدينة ومكّة ومنى أيام الحج.

قال حسن بن علي الوشّا الكوفي من مشايخ رواة الحديث:

أدركت في هذا المسجد ـ مسجد الكوفة ـ تسع مائة شيخ، كلٌّ يقول: حدثني جعفر بن محمد[١١].

ولا يعني قوله هذا حصر الرواة عن الإمام الصادق(ع) في مسجد الكوفة بهذا العدد، بل يعني أن الوشّا أخذ من هذا العدد ممّن رووا عن الإمام ابن عقدة (ت: ٣٣٣هـ) كتاب «أسماء الرجال الذين رووا عن الإمام الصادق(ع)» ترجم فيه لأربعة آلاف شيخ أخذ منه الحديث عن الإمام الصادق(ع)، وأورد في ترجمة كل واحد منهم رواية واحدة مما أخذ منه[١٢]، وابن عقدة ـ أيضاً ـ لم يقصد حصر من روى عن الإمام الصادق(ع) بهذا العدد، ولا حصر ما أخذ من كل منهم برواية واحدة؛ وإنّما ترجم في هذا الكتاب لشيوخه الذين أخذ منهم الحديث عن الإمام الصادق(ع)، وأورد في ترجمة كل منهم رواية واحدة مما أخذ بواسطته.

ويؤيد ذلك قول الخزرجيِّ (ت: ٦٠٠هـ) الرجالي الكبير بمدرسة الخلفاء في كتابه تذهيب الكمال في ترجمة الإمام الصادق(ع): (روى عنه خلق لا يحصون)[١٣] ولكثرة ما روى العلماء من الحديث في الفقه الإسلامي عن الإمام الصادق(ع) سمّى بعض العلماء؛ الفقه بمدرسة أهل البيت(ع) ب (الفقه الجعفري) واشتهر عند الناس بالمذهب الجعفري. ولست أدري كيف يصحُّ نسبة هذا الفقه إلى الإمام الصادق(ع) وهو يسنده إلى جدّه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بواسطة كتاب أبيه علي، وليس كفقه أبي حنيفة الذي اعتمد الرأي في استنباط بعض الأحكام وصح وصفه بالفقه الحنفي، وإنّما الصحيح أن يقال: «الفقه المحمَّدي أو الفقه الإسلامي».

وهناك خطأ آخر شائع في أوساط بعض العلماء بأنَّ أبا حنيفة تتلمذ عند الإمام الصادق(ع). وكيف يصح ذلك وأبو حنيفة يعتمد الرأي في استنباط أحكام الإسلام، والإمام الصادق(ع) يستنكره ويقول: «**لو كنّا نفتي الناس برأينا لكنّا من الهالكين**»، وفي رواية: «**كنّا كهؤلاء الناس**» ولم يكن اجتماع أبي حنيفة بالإمام الصادق(ع) للإستفادة من الإمام الصادق(ع)، بل للمناظرة مع الإمام الصادق(ع)، وكانت أحياناً بأمر الخليفة المنصور لإفحام الإمام الصادق(ع) ـ على حدِّ زعمهم ـ، فقد استقدم المنصور الإمام الصادق(ع) ـ وهو بالحيرة ـ وبعث إلى أبي حنيفة وقال له:

«إنَّ الناس قد فتنوا بجعفر بن محمَّد، فهيِّء له من مسائلك الشداد».

فهيَّأ أربعين مسألة. قال أبو حنيفة: فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه، فلمّا بصرت به دخلني

من الهيبـة لجعفـر ما لم يدخلني لأبي جعفـر، فسلّمت عليه فأومأ إليّ فجلست، ثم التفت إليه فقال: «يا أبا عبد الله! هذا أبو حنيفة» قال: «نعم. أعرفه» ثم التفت إلى أبي حنيفة فقال: «يا أبا حنيفة! ألقِ على أبي عبد الله من مسائلك»، فجعل يلقي عليه فيجيبه فيقول: «أنتم تقولون كذا، وأهل المدينة يقولون كذا، ونحن نقول كذا»، فرُبَّما تابعنا، وربَّما تابعهم، ورُبَّما خالفنا جميعاً. . الحديث[١٤].

نتيجة البحث

بلّغ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم القرآن كله لجميع من حضره، وبلّغ تفسير مااحتاجه الناس من القرآن ضمن تبليغ سنّته ـ أيضاً ـ لجميع من حضره؛ وأملاهما على ابن عمه عليّ فدوّنهما جميعاً، وحفظ الله القرآن في المجتمـع الإنسـاني أبـد الـدهر من كل تغيير وتبديل، وحفظ سنّة نبيّه عند أهل بيته كذلك، وبعد عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اكتفت مدرسة الخلفاء بتدوين القرآن ومنعت من تدوين سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأصر عمر بن عبد العزيز بتدوينها غير أنّه توفّي قبل تنفيذ أمره، واستمر رواة الحديث ينقلون السنّة من فم إلى أذن حتى سنـة ثلاث وأربعـين بعـد المـائـة من الهجـرة، حيث دوّن العلماء جميع علوم الإسلام بتشجيع من الخليفة أبي جعفر المنصور.

وفي مدرسـة أهـل البيت تداول أئمـة أهل البيت(ع) كتب العلم التي دوّنها الإمام علي(ع) من إملاء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ونقلوا عنها سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للناس، وخفّ الخطر عن المسلمين في آخر عصر الإمام الباقر(ع) فنشر شيئاً من سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على المسلمين، وارتفع الخطر في آخـر عهـد الأمـويـين وعصـر السفـاح من العبـاسيـين فتهـافت حملة العلم ورواة الحـديث على الإمـام الصـادق(ع) درس منـه خلق لا يحصـون سنّـة الـرسـول صلى الله عليه وآله وسلم ومن كلّ ذلـك تمكن الإمـام الصادق(ع) من احياء سنّة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن تغير بعض ألفاظها وتبدلّت على ألسنة الرواة الذين كانوا يتلقونها شفوياً ويروونها كذلك وتبدلّ بعض أحكامها تبعاً لذلك وبسبب الاعتماد على الرأي والاجتهاد.

إذاً فإن الإمـام الصـادق(ع) أحيى السنـة النبـوية ولم يؤسس مذهباً فقهياً في مقابل المذاهب الفقهية الأخرى، وكذلك كان شأن سائر أئمة ـ أهل البيت(ع) قبل الإمام الصادق وبعده في نقلهم السنّة النبوية من كتب الإمام علي التي نسخها ممّا سمعه من فم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما أجود ما قاله الشاعر:

فوالِ أنـاسـاً قولُهـم وحـديـثُـهـم ... روى جدّنـا عن جبرئـيـل عن الـبـاري

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الحواشــي

(١) في سنن النسـائي (١/١٧٨) باب التنحنح في الصـلاة. والروايتان في مسند أحمد (١/٨٥ و١٠٧ و٨٠)، والثانية في سنن ابن ماجة، الحديث (٣٧٩٧).

(٢) بصـائـر الـدرجـات، تأليف محمـد بن الحسن الصفـار (ت٢٩٠هـ) ط. إيـران، عام ١٣٨٥هـ، ص١٦٧، والـشـيـخ الطـوسـي (ت٤٦٠هـ) في أماليه، ط. النجف ١٣٨٤هـ (٢/٥٦).

(٣) بصـائـر الـدرجـات تأليف محمـد بن الحسن الـصـفـار (٢٩٠هـ). ط. إيـران ١٣٨٥هـ، ص١٦٧، والـشـيـخ الطـوسـي (ت٤٦٠هـ) في أماليه، ط. النجف ١٣٨٤هـ(٢/٥٦).

(٤) بصائر الدرجات / صفحة ١٩٨.

(٥) بصائر الدرجات /ص١٩٧.

(٦) تاريـخ الإسـلام، للذهبي (٦/٦)، وراجـع ترجمة أبي جعفر المنصور في تاريخ الخلفاء، للسيوطي.

(٧) راجع تذكرة الحفاظ، للذهبي (١/٣٦٢).

(٨) راجـع تذكـرة الحفاظ، للذهبي (ص٤٥١)، وتـرجمـة أحمـد بن حنبـل في طبقـات الشـافعيـة، للسبكي (ت: ٧٧١هـ) رقم الترجمة ٧(٢/٢٩-٣٠).

(٩) مدينـة كانت في محل أرض النجف اليوم راجع مادة (الحيرة) في معجم البلدان.

(١٠) البحار (٤٧/ ٩٣-٩٤).

(١١) ترجمـة الـوشّـا في رجـال النجاشي (ص٣٠-٣١)، وترجمته - أيضاً - في الكنى والألقاب، للقمي.

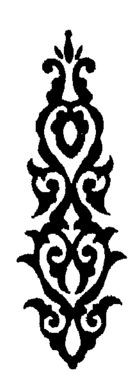
(١٢) ترجمة ابن عقدة في الكنى والألقاب، والبحار (٤٧-٢٧).

(١٣) تذهيب الكمال، ط. الأولى، سنة ١٣٢٢هـ ص٥٤.

(١٤) البحار (٤٧/٢١٧).



حجة الإسلام السيد رسولي محلاتي



من أحاديث سيرة الإمام الصادق [ع] المدونة في كتب السيرة



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الآن إلى يوم الدين. وبعد:

فهذا بعض ما ورد في سيرة الإمام الصادق عليه السلام من الأحاديث الكثيرة المدونة في كتب السيرة، وأرجو من الله سبحانه أن يجعلها تذكرة لي ولإخوتي من المؤمنين، وزادي وذخيرتي ليوم الدين وقد رتبتها على فصول:

الفصل الأول ـ الأحاديث العامة:

١ ـ روى الشيخ الصدوق محمد بن علي بن بابويه في الأمالي والخصال والعيون بسنده عن فقيه أهل المدينة مالك بن أنس، وروى أيضاً ابن شهر آشوب في مناقب آل أبي طالب بسنده عنه أنّه يقول: كنت

أدخل إلى الصادق جعفر بن محمد عليه السلام فيقدم لي مخدة، ويعرف لي قدراً ويقول: يا مالك إنّي أحبك، فكنت أسرُّ بذلك وأحمد الله عليه، قال: وكان عليه السلام رجلاً لا يخلو من إحدى ثلاث خصال: إمّا صائماً، ومّا قائماً، ومّا ذاكراً، وكان من عظماء العباد، وأكابر الزهاد الذين يخشون الله عزَّ وجل، وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اخضرَّ مرة، واصفرَّ أخرى حتى ينكره من كان يعرفه، ولقد حججت معه سنة فلما استوت به راحلته عند الإحرام، كان كلما همَّ بالتلبية انقطع الصوت في حلقه، وكاد أن يخرّ من راحلته فقلت: قُل ياابن رسول الله، ولا بدَّ لك من أن تقول، فقال: ياابن أبي عامر كيف أجسر أن أقول: لبيك اللّهم لبيك، وأخشى أن يقول عزَّ وجلّ لي: لا لبيك ولا سعديك.

٢ ـ وروى الصدوق(ره) في الأمالي بسنده عن النوفي قال: سمعت مالك بن أنس الفقيه يقول: والله ما رأت عيني أفضل من جعفر بن محمد عليه السلام زهداً وفضلاً وعبادة وورعاً، وكنت أقصده فيكرمني ويُقبل عليّ فقلت له يوماً: ياابن رسول الله ما ثواب من صام يوماً من رجب إيماناً واحتساباً؟ فقال: ـ وكانوالله إذا قال صدق ـ حدثني أبي عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [**من صام من رجب يوماً إيماناً واحتساباً غفر له**]، فقلت له: ياابن رسول الله فما ثواب من صام يوماً من شعبان؟ فقال: حدَّثني أبي عن أبيه عن جدّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [**من صام يوماً من شعبان إيماناً واحتساباً غفر له**].

٣ ـ وروى علي بن عيسى الاني في كتاب كشف الغمة عن عبد العزيز بن الأخضر، عن عمرو بن أبي المقدام قال: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد عليه السلام علمت أنه من سلالة النبيين.

٤ ـ وروى فيه أيضاً عن عدَّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، عن محمد بن أبي الأصبغ، عن بندار بن عاصم رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: ما توسَّل إليَّ أحد بوسيلة ولا تذرَّع بذريعة أقرب له إلى ما يريده مني، من رجل سلف إليه مني يد أتبعتها أختها وأحسنت ربها، فإني رأيت منع الأواخر، يقطع لسان شكر الأوائل، ولا سخت نفسي بردِّ بكر الحوائج، وقد قال الشاعر:

وإذا بليت ببذل وجهك سائلاً ... فابذله للمتكرِّم المفضال
إنَّ الجواد إذا حباك بموعدٍ ... أعطاكه سلساً بغير مطال
وإذا السؤال مع النوال قرنته ... رجح السؤال وخفَّ كلُّ نوال

٥ ـ وبسنده، عن ابن أبي يعفور قال: رأيت عند أبي عبد الله عليه السلام ضيفاً، فقام يوماً في بعض الحوائج، فنهاه عن ذلك وقام بنفسه إلى تلك الحاجة، وقال: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أن يُستخدم الضيف.

٦ ـ وعن الكاهلي عن أبي الحسن عليه السلام قال: كان أبي يبعث أُمي وأمَّ فروة تقضيان حقوق أهل المدينة.

٧ ـ وعن حماد ابن عثمان قال: حضرت أبا عبد الله عليه السلام وقال له رجل: أصلحك الله ذكرت أنَّ عليَّ ابن أبي طالب عليه السلام كان يلبس الخشن: يلبس القميص بأربعة دراهم، وما أشبه ذلك ونرى عليك اللباس الجديد؟! فقال له: إنَّ عليَّ بن أبي طالب عليه السلام كان يلبس ذلك في زمان لا يُنكر، ولو لبس مثل ذلك اليوم شُهِّر به، فخير لباس كلِّ زمانٍ لباسُ أهله، غير أنَّ قائمنا أهل البيت عليه السلام إذا قام لبس ثياب عليّ عليه السلام وسار بسيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام.

٨ ـ وعن عبد الأعلى مولى آل سام قال: استقبلت أبا عبد الله عليه السلام في بعض طرق المدينة في يوم صائف شديد الحرِّ فقلت: جعلت فداك، حالك عند الله عزَّ وجلَّ وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنت تجهد نفسك في مثل هذا اليوم!! فقال: يا عبد الأعلى خرجت في طلب الرزق لاستغنى عن مثلك.

٩ ـ وعن أبي عمرو الشيباني قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام وبيده مسحاة وعليه إزار غليظ يعمل في حائط له، والعرق يتصابُّ عن ظهره فقلت: جعلت فداك أعطني أكفك، فقال لي: إنّي أحبُّ أن يتأذّى الرَّجل بحرِّ الشمس في طلب المعيشة.

١٠ ـ وقال ابن شهر آشوب في المناقب: ذكر صاحب كتاب الحلية: الإمام الناطق ذو الزمام السابق أبو عبد الله جعفر بن محمد الصّادق وذكر فيها بالأسناد، عن أبي الهياج بن بسطام قال: كان جعفر بن محمد يُطعم حتى لا يبقى لعياله شيء.

الفصل الثاني ـ في سيرته مع الله (عبادته وخشيته..)

١ ـ روى الكليني(ره) بسنده عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول وهو رافع يده إلى السماء: ربِّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً لا أقل من ذلك، ولا أكثر، قال: فما كان بأسرع من أن تحدَّر الدموع من جوانب لحيته ثم أقبل عليَّ فقال: يا ابن أبي يعفور إنَّ يونس بن متّى وكله الله عز وجل إلى نفسه أقلّ من طرفة عين، فأحدث ذلك الذنب، قلت: فبلغ به كفراً؟ أصلحك الله قال: لا، ولكن الموت على تلك الحال هلاك.

٢ ـ وعن أبان بن تغلب قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وهو يصلي، فعددت له في الركوع والسجود ستين تسبيحة.

٣ ـ وعن حمزة بن حمران، والحسن بن زياد قالا: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام وعنده قوم، فصلى بهم العصر، وقد كنّا صلينا، فعددنا له في ركوعه سبحان ربّي العظيم أربعاً أو ثلاثاً وثلاثين مرّة وقال أحدهما في حديثه: «وبحمده» في الركوع والسجود سواء.

٤ ـ وعن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: مرَّ بي أبي وأنا بالطواف، وأنا حدث وقد اجتهدت في العبادة، فرآني وأنا أتصابُّ عرقاً فقال لي: يا جعفر يا بُنيَّ إنَّ الله إذا أحبَّ عبداً أدخله الجنة، ورضي منه باليسير.

٥ ـ وعن حفص بن البختريِّ وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اجتهدت في العبادة وأنا شابٌّ، فقال لي أبي: يا بني دوِّن ما أراك تصنع، فإن الله عزّ وجلّ إذا أحب عبداً رضي منه باليسير.

الفصل الثالث ـ سيرته عليه السلام مع أقربائه وعشيرته وأولاده..

١ ـ روى ابن شهر آشوب في المناقب عن معتّب قال: قرع باب مولاي الصادق عليه السلام فخرجت فإذا بزيد بن علي عليه السلام فقال الصادق عليه السلام لجلسائه: ادخلوا هذا البيت، وردّوا الباب، ولا يتكلم منكم أحد، فلما دخل قام إليه فاعتنقا وجلسا طويلاً يتشاوران ثم علا الكلام بينهما فقال زيد: دع ذا عنك يا جعفر! فوالله لئن لم تمدّ يدك حتى أبايعك أو هذه يدي فبايعني لأتعبنك ولأكلفنك مالا تطيق، فقد تركت الجهاد وأخلدت إلى الخفض وأرخيت الستر، واحتويت على مال الشرق والغرب فقال الصادق عليه السلام: يرحمك الله ياعم يغفر الله لك يا عم، وزيد يسمعه ويقول: موعدنا الصبح أليس الصبح برقيب، ومضى، فتكلم الناس في ذلك فقال: مه لا تقولوا لعمي زيد إلا خيراً، رحم الله عمي، فلو ظفر لوفى، فلما كان في السحر قرع الباب، ففتحت له الباب فدخل يشهق ويبكي ويقول: ارحمني يا جعفر، يرحمك الله، أرض عني يا جعفر، رضي الله عنك، اغفر لي ياجعفر، غفر الله لك، فقال الصادق عليه السلام: غفر الله لك، ورحمك ورضي عنك فما الخبر يا عم؟ قال: نمت فرأيت رسول الله داخلاً عليّ وعن يمينه الحسن، وعن يساره الحسين، وفاطمة خلفه، وعليٌّ أمامه، وبيده حربة تلتهب التهاباً كأنه نار، وهو يقول: إيهاً يا زيد آذيت رسول الله في جعفر، والله لئن لم يرحمك، ويغفر لك، ويرضى عنك، لأرمينّك بهذه الحربة فلأضعها بين كتفيك ثم لأخرجها من صدرك، فانتبهت فزعاً مرعوباً، فصرت إليك فارحمني يرحمك الله فقال: رضي الله عنك، وغفر لك، أوصني فإنّك مقتول مصلوب محرَّق بالنار، فوصى زيد بعياله وأولاده، وقضاء الدين عنه.

٢ ـ وروى الصدوق في اكمال الدين بسنده عن محمد بن عبد الله الكوفي قال: لما حضرت إسماعيل بن أبي

عبد الله الوفاة جزع أبوعبد الله عليه السلام جزعاً شديداً، قال: فلما أن أغمضه دعا بقميص قصير أو جديد فلبسه ثم تسرَّح وخرج يأمر وينهى قال: فقال له بعض أصحابه: جعلت فداك: لقد ظنّنا أنّا لا ننتفع بك زماناً لما رأينا من جزعك، قال: إنّا أهل بيتٍ نجزع ما لم تنزل المصيبة فإذا نزلت صبرنا.

٣ ـ وعن مرّة مولى محمد بن خالد قال: لما مات إسماعيل فانتهى أبوعبد الله عليه السلام إلى القبر، أرسل نفسه فقعد على حاشية القبر، لم ينزل في القبر، ثم قال: هكذا صنع رسول الله بإبراهيم.

٤ ـ وعن الحسين بن عمر، عن رجل من بني هاشم قال: فلما مات إسماعيل خرج إلينا أبوعبد الله عليه السلام يقدم السرير بلا حذاء ولا رداء.

٥ ـ زرارة بن أعين قال: دعا الصادق عليه السلام داود بن كثير الرقّي وحمران بن أعين وأبا بصير ودخل عليه المفضل بن عمر وأتى بجماعة حتى صاروا ثلاثين رجلاً فقال: يا داود إكشف عن وجه إسماعيل، فكشف عن وجهه، فقال: تأمله يا داود فانظره أحيّ هو أم ميت؟ فقال: بل هو ميّت، فجعل يعرضه على رجل رجل حتى أتى على آخرهم، فقال عليه السلام: اللهم اشهد، ثم أمر بغسله وتجهيزه، ثم قال: يا مفضل احسر عن وجهه، فحسر عن وجهه، فقال حيّ هو أم ميّت؟ انظروه أجمعكم! فقال: بل هو يا سيّدنا ميّت، فقال: شهدتم بذلك وتحققتموه؟ قالوا: نعم وقد تعجّبوا من فعله، فقال: اللهم اشهد عليهم، ثم حمل إلى قبره، فلما وضع في لحده قال: يا مفضل اكشف عن وجهه، فكشف فقال للجماعة: انظروا أحي هو أم ميّت؟ فقالوا: بلى ميّت يا وليّ الله: فقال: اللّهم اشهد فإنه سيرتاب المبطلون يريدون إطفاء نور الله، ثم أومأ إلى موسى عليه السلام وقال: والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون، ثم حثوا عليه التراب، ثم أعاد علينا القول، فقال: الميّت المكفّن المحنّط المدفون في هذا اللحد من هو؟ قلنا: إسماعيل ولدك، فقال: اللهم اشهد ثم أخذ بيد موسى فقال: هو حق والحق معه ومنه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٦ ـ روى الكليني بسنده، عن علي بن وهبان، عن عمه هارون بن عيسى قال: قال أبوعبد الله عليه السلام لمحمد ابنه: كم فضل معك من تلك النفقة؟ قال: أربعون ديناراً قال: اخرج وتصدّق بها قال: إنه لم يبق معي غيرها قال: تصدّق بها، فإن الله عزّ وجلّ يخلفها، أما علمت أن لكل شيء مفتاحاً؟ ومفتاح الرزق الصدقة، فتصدق بها، ففعل فما لبث أبوعبد الله عليه السلام إلا عشرة حتى جاءه من موضع أربعة آلاف دينار، فقال: يا بُني أعطينا لله أربعين ديناراً فأعطانا الله أربعة آلاف دينار.

٧ ـ وفي أمالي الشيخ بسنده، عن عبد الوهاب بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه قال: بعث أبوجعفر المنصور إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام وأمر بفرش فطرحت له إلى جانبه، فأجلسه عليها، ثم

قال: عليٌّ بمحمد، عليٌّ بالمهدي، يقول ذلك مراراً فقيل له الساعة الساعة يأتي يا أمير المؤمنين ما يحبسه إلّا أنه يتبخر، فما لبث أن وافى وقد سبقته رائحته، فأقبل المنصور على جعفر عليه السلام فقال: يا أبا عبد الله حديث حدثتنيه في صلة الرحم اذكره يسمعه المهدي قال: نعم، حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الرجل ليصل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرها الله عز وجل ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصيرها الله ثلاث سنين، ثم تلا عليه السلام «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمُّ الكتاب» قال: هذا حسن يا أبا عبد الله وليس إياه أردت، قال أبو عبد الله: نعم حدثني أبي، عن أبيه، عن جده عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [**صلة الرحم تعمر الديار، وتزيد في الأعمار وإن كان أهلها غير أخيار**]، قال: هذا حسن يا أبا عبد الله وليس هذا أردت فقال أبو عبد الله: نعم حدثني أبي، عن أبيه، عن جده، عن عليّ عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [**صلة الرحم تهون الحساب وتقي ميتة السوء**]، قال المنصور نعم هذا أردت.

٨ ـ وعن أبي كهمس قال: حضرت موت إسماعيل، وأبو عبد الله عليه السلام عنده، فلما حضره الموت شد لحييه وغمضه، وغطاه بالملحفة، ثم أمر بتهيئته، فلما فرغ من أمره دعا بكفنه وكتب في حاشية الكفن: إسماعيل يشهد أن لا إله إلّا الله.

وعنه أيضاً قال: حضرت موت إسماعيل بن أبي عبد الله عليه السلام فرأيت أبا عبد الله وقد سجد سجدة، فأطال السجود، ثم رفع رأسه فنظر إليه قليلاً ونظر إلى وجهه، ثم سجد سجدة أخرى أطول من الأولى، ثم رفع رأسه وقد حضره الموت فغمّضه، وربط لحييه، وغطّى عليه ملحفة، ثم قام وقد رأيت وجهه وقد دخله منه شيء الله أعلم به، قال: ثم قام فدخل منزله فمكث ساعة ثمَّ خرج علينا مدهناً مكتحلاً عليه ثياب غير الثياب التي كانت عليه، ووجهه غير الذي دخل به، فأمر ونهى في أمره حتى إذا فرغ دعا بكفنه فكتب في حاشية الكفن: إسماعيل يشهد أن لا إله إلا الله.

٩ ـ وروى الشيخ (ره) في كتاب الغيبة بسنده، عن سالمة مولاة أبي عبد الله قالت: كنت عند أبي عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام حين حضرته الوفاة وأغمي عليه فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي بن علي بن الحسين وهو الأفطس سبعين ديناراً، وأعط فلاناً كذا، وفلاناً كذا، فقلت: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة يريد أن يقتلك؟ قال: تريدين أن لا أكون من الذين قال الله عزّ وجلّ ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربّهم ويخافون سوء الحساب**﴾ نعم يا سالمة إن الله خلق الجنة فطيّبها وطيّب ريحها، وإنّ ريحها لتوجد من مسيرة ألفي عام، ولا يجد ريحها عاقٌّ ولا قاطع رحم.

١٠ ـ وروى في كتـاب الإقبـال باسنـاده عن شيـخ الطائفة ، عن المفيد والغضائري ، عن الصدوق عن ابن الوليد ، عن الصفّار ، عن ابن أبي الخطاب ، عن ابن أبي عمير ، عن إسحاق ابن عمّار.

وأيضـاً بالإسنـاد ، عن الشيـخ ، عن أحمـد بن محمد بن سعيد بن موسى الأهوازي ، عن ابن عقدة ، عن محمد بن الحسن القطراني ، عن الحسين بن أيوب الخثعمي ، عن صالح بن أبي الأسود ، عن عطيـة بن نجيـح بن المطهـر الـرازي ، وإسحاق بن عمار الصيرفي قالا : إن أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام كتب إلى عبد الله بن الحسن حين حُمل هو وأهل بيته يُعزيه عمّا صار إليه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى الخلف الصالح والذرية الطيبة من وُلد أخيه وابن عمه .

أمّـا بعـد : فلئن كنت قد تفـردت أنت وأهـل بيتـك ممن حُمل معـك بما أصـابكم ، ماانفردت بالحزن والغيظ والكئآبة وأليم وجع القلب دوني ، ولقد نالني من ذلك من الجزع والقلق وحرٌ المصيبة مثل مانالك ، ولكن رجعت إلى ما أمر الله جلّ وعزّ به المتقين ، من الصبر وحسن العزاء ، حين يقول لنبيـه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فـاصبر لحكم ربّك فإنك بأعيننا﴾ وحين يقول ﴿فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت﴾ وحين يقول لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم حين مُثِّل بحمزة ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ فصبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يعاقب .

وحـين يقـول ﴿وأمـر أهلك بالصـلاة واصطـبر عليهـا لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقـوى﴾ وحـين يقـول ﴿الـذين إذا أصـابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمـة وأولئـك هم المهتـدون﴾ وحين يقول : ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وحين يقول لقمان لابنه «واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور» وحين يقول عن موسى ﴿وقال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقـين﴾ وحـين يقـول ﴿الـذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ وحين يقول ﴿ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة﴾ وحين يقول ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقصٍ من الأموال والأنفس والثمرات وبشّر الصابرين﴾ .

وحين يقول ﴿وكأيّن من نبيٍّ قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا ومـا استكـانوا والله يحب الصابرين﴾ وحين يقول ﴿والصابرين والصابرات﴾ وحين يقول ﴿واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ وأمثال ذلك من القرآن كثير .

واعلم أي عمٍّ وابن عم أن الله جلّ وعزّ لم يبال بضر الدنيا لوليه ساعة قط ولا شيء أحب إليه من الضـر والجهـد والبـلاء مع الصبر ، وأنه تبارك وتعالى لم يبال بنعيم الدنيا لعدوه ساعة قط ، ولولا ذلك ما كان أعداؤه يقتلون أولياءه ويخوفونهم ويمنعونهم وأعداؤه آمنون مطمئنون عالون ظاهرون ، ولولا ذلك لما قُتل زكريا ويحيى بن زكريا ظلماً وعدواناً في بغي من البغايا ، ولولا ذلك ما قُتل جدُّك عليُّ

ابن أبي طالب عليه السلام لما قام بأمر الله جل وعز ظلماً، وعمك الحسين بن فاطمة صلى الله عليه اضطهاداً وعدواناً.

ولولا ذلك ما قال الله جلّ وعزّ في كتابه ﴿ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقفاً من فضّة ومعارج عليها يظهرون﴾.

ولولا ذلك لما قال في كتابه ﴿أيحسبون أنّما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾

ولولا ذلك لما جاء في الحديث: لولا أن يحزن المؤمن لجعلت للكافر عصابة من حديد فلا يصدع رأسه أبداً، ولولا ذلك لما جاء في الحديث: إن الدنيا لا تساوي عند الله جلّ وعزّ جناح بعوضة، ولولا ذلك ما سقى كافراً منها شربة من ماء، ولولا ذلك لما جاء في الحديث: لو أن مؤمناً على قُلّة جبل لابتعث الله له كافراً أو منافقاً يؤذيه ولولا ذلك لما جاء في الحديث: إنّه إذا أحبّ الله قوماً أو أحب عبداً صبَّ عليه البلاء صباً، فلا يخرج من غمٍّ إلا وقع في غم.

ولولا ذلك لما جاء في الحديث، ما من جرعتين أحب إلى الله عزَّ وجلَّ أن يجرعهما عبده المؤمن في الدنيا، من جرعة غيظ كظم عليها، وجرعة حزن عند مصيبة، صبر عليها بحسن عزاء واحتساب، ولولا ذلك لما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدعون على من ظلمهم بطول العمر وصحة البدن وكثرة المال والولد، ولولا ذلك ما بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا خصَّ رجلاً بالترحم عليه والاستغفار استشهد فعليكم يا عم وابن عم وبني عمومتي وإخوتي بالصبر والرضا والتسليم والتفويض إلى الله جلّ وعزّ والرضا بالصبر على قضائه، والتمسك بطاعته، والنزول عند أمره أفرغ الله علينا وعليكم الصبر، وختم لنا ولكم بالأجر والسعادة، وأنقذنا وإياكم من كل هلكة، بحوله وقوته إنه سميع قريب، وصلى الله على صفوته من خلقه محمد النبي وأهل بيته.

أقول: وهذا آخر التعزية بلفظها من أصل صحيح، بخط محمد بن علي بن مهجناب البزّاز تاريخه في صفر سنة ثمان وأربعين وأربعمائة، وقد اشتملت هذه التعزية على وصف عبد الله بن الحسن بالعبد الصالح، والدعاء له وبني عمه بالسعادة، وهذا يدل على أن الجماعة المحمولين كانوا عند مولانا الصادق عليه السلام معذورين وممدوحين ومظلومين، وبحبه عارفين.

الفصل الرابع ـ سيرته عليه السلام مع شيعته ومحبّيه..

١ ـ وعن شعيب بن ميثم قال أبو عبد الله عليه السلام: يا شعيب أحسن إلى نفسك، وصل قرابتك،

وتعاهد إخوانك، ولا تستبدَّ بالشيء فتقول ذا لنفسي وعيالي إنّ الذي خلقهم هو الذي يرزقهم فقلت: نعى والله إليَّ نفسي، فرجع شعيب فوالله ما لبث إلّا شهراً حتى مات.

٢ ـ وعن صندل عن سورة بن كليب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا سورة كيف حججت العام؟ قال: استقرضت حجتي، والله إني لأعلم أن الله سيقضيها عني، وما كان حجتي إلا شوقاً إليك، وإلى حديثك، قال: أما حجتك فقد قضاها الله فاعطكها من عندي، ثمَّ رفع مصلّى تحته، فأخرج دنانير فعدَّ عشرين ديناراً فقال: هذه حجتك، وعدَّ عشرين ديناراً وقال: هذه معونة لك حياتك حتى تموت قلت: أخبرتني أن أجلي قد دنا؟ فقال: ياسورة أما ترضى أن تكون معنا، فقال صندل: فما لبث إلّا سبعة أشهر حتى مات.

٣ ـ وعن داود بن زربي، قال: أخبرني مولى لعليٍّ بن الحسين عليه السلام قال: كنت بالكوفة، فقدم أبو عبد الله عليه السلام الحيرة، فأتيته فقلت: جعلت فداك لو كلمت داود بن علي أو بعض هؤلاء فأدخل في بعض هذه الولايات؟ فقال: ما كنت لأفعل قال: فانصرفت إلى منزلي، فتفكرت فقلت: ما أحسبه منعني إلا مخافة أن أظلم أو أجور، والله لآتينه ولأعطينه الطلاق والعتاق والأيمان المغلظة أن لا أظلم أحداً أو أجور، ولأعدلنَّ قال: فأتيته فقلت: جعلت فداك إني فكرت في إبائك عليَّ فظننت أنك إنما كرهت ذلك مخافة أن أجور أو أظلم، وإن كل امرأة لي طالق، وكل مملوك، لي حرٌّ، وعليَّ وعليَّ إن ظلمت أحداً، أو جرت عليه، وإن لم أعدل، قال: كيف قلت؟ قال: فأعدت عليه الأيمان، فرفع رأسه إلى السماء فقال: تناول السماء أيسر عليك من ذلك.

٤ ـ عن زكريا بن إبراهيم قال: كنت نصرانياً فأسلمت وحججت فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت: إني كنت على النصرانية، وإني أسلمت فقال: وأي شيء رأيت في الإسلام؟ قلت: قول الله عزَّ وجلَّ **﴿ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء﴾** فقال: لقد هداك الله، ثم قال: اللهم أهده ثلاثاً، سل عما شئت يا بنيَّ فقلت: إن أبي وأمي على النصرانية، وأهل بيتي، وأمي مكفوفة البصر، فأكون معهم، وآكل في آنيتهم فقال: يأكلون لحم الخنزير؟ فقلت: لا ولا يمسونه. فقال: لا بأس، فانظر أمك فبرَّها، فإذا ماتت، فلا تكلها إلى غيرك، كُن أنت الذي تقوم بشأنها، ولا تخبرن أحداً أنك أتيتني، حتى تأتيني بمنى إن شاء الله قال: فأتيته بمنى والناس حوله، كأنه معلم صبيان، هذا يسأله، وهذا يسأله، فلما قدمت الكوفة، ألطفت لأمي، وكنت أطعمها وأفلي ثوبها ورأسها وأخدمها، فقالت لي: يا بني ماكنت تصنع بي هذا، وأنت على ديني، فما الذي أرى منك منذ هاجرت، فدخلت في الحنيفية؟ فقلت: رجل من ولد نبيّنا أمرني بهذا، فقالت: هذا الرجل هو نبيٌّ؟ فقلت: لا ولكنه ابن نبي فقالت: يا بني هذا نبيٌّ إنّ هذه وصايا الأنبياء، فقلت يا أمِّ إنه ليس يكون بعد نبينا نبيٌّ ولكنه ابنه فقالت: يا بنيَّ دينك خير

دين، اعـرضـه عليّ فعـرضتـه عليها فدخلت في الإسلام، وعلمتها فصلت الظهر والعصر، والمغرب والعشـاء الآخـرة، ثم عرض بها عارض في الليـل فقالت: يا بني أعد عليّ ما علمتني، فأعدته عليها فأقرت به وماتت، فلما أصبحت كان المسلمون الذين غسلوها، وكنت أنا الذي صليت عليها ونزلت في قبرها.

٥ ـ وعن حفص بن عمر البجلي قال: شكوت إلى أبي عبد الله عليه السلام حالي، وانتشار أمري عليّ قال: فقـال لي: إذا قدمت الكـوفـة فبع وسادة من بيتك بعشرة دراهم، وادع إخوانك، وأعدَّ لهم طعاماً، وسلهم يدعـون الله لك، قال: ففعلت، ومـا أمكنني ذلـك حتى بعت وسـادة، واتخذت طعاماً كما أمرني، وسألتهم أن يدعوا الله لي قال: فوالله ما مكثت إلاّ قليلاً حتى أتاني غريم لي فدق الباب عليّ وصالحني من مال لي كثير، كنت أحسبه نحواً من عشرة آلاف درهم قال: ثم أقبلت الأشياء عليّ.

٦ ـ عن سالم بن أبي حفصـة قال: لمّا هلك أبـوجعفـر محمـد بن علي البـاقر عليهما السلام قلت لأصحابي: انتظروني حتى أدخل على أبي عبد الله جعفر بن محمد عليهما السلام فأعزيه به فدخلت عليه فعزيته ثم قلت: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب والله من كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا يسأل عن من بينه وبين رسول الله، لا والله لا يرى مثله أبداً قال: فسكت أبو عبد الله عليه السلام ساعة، ثم قال: قال الله تعالى: ﴿**إن من عبادي من يتصدق بشق تمرة فأربّيها له كما يربّي أحدكم فلوه حتى أجعلها له مثل جبل أحد**﴾، فخرجت إلى أصحابي فقلت: ما رأيت أعجب من هذا، كنا نستعظم قول أبي جعفر عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم» بلا واسطة، فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: «قال الله تعالى بلا واسطة.

٧ ـ وروى الكشّي(ره) في رجاله عن أبي كهمس قال: دخلت على أبي عبد الله فقال لي: شهد محمد بن مسلم الثقفي القصير عند ابن أبي ليلى بشهادة فرد شهادته؟ فقلت: نعم، فقال: إذا صرت إلى الكوفة فأتيت ابن أبي ليلى، فقل له: أسألك عن ثلاث مسائل لا تفتني فيها بالقياس ولا تقول قال أصحابنا، ثم سله عن الرجل يشكُّ بالركعتين الأوليين من الفريضة، وعن الرجل يصيب جسده أو ثيـابـه البـول كيف يغسله؟ وعن الرجل يرمي الجمار بسبع حصيات فيسقط منه واحدة كيف يصنع؟ فإذا لم يكن عنـده فيهـا شيء فقـل له: يقـول لك جعفـر بن محمد: ما حملك على أن رددت شهادة رجال أعرف بأحكام الله منـك، وأعلم بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منك.

٨ ـ وعن هشـام بن سالم قال: كنّـا عنـد أبي عبـد الله عليه السلام جماعة من أصحابه، فورد رجل من أهل الشام فاستأذن فأذن له، فلما دخل سلم فأمره أبو عبد الله عليه السلام بالجلوس.

ثم قال له: ماحـاجتـك أيهـا الـرجـل؟ قال بلغني أنـك عالم بكـل ما تسأل عنه فصرت إليك لأناظرك فقال أبو عبد الله عليه السلام فيما ذا؟ قال: في القرآن وقطعه وإسكانه وخفضه ونصبه ورفعه

فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا حمران دونك الرجل.

فقال الرجل: إنما أريدك أنت لا حمران فقال أبو عبد الله عليه السلام: إن غلبت حمران فقد غلبتني فأقبل الشامي يسأل حمران حتى ضجر وملّ وعرض وحمران يجيبه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: كيف رأيت يا شامي؟! قال: رأيته حاذقاً ما سألته عن شيء إلا أجابني فيه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا حمران سل الشامي، فما تركه يكشر فقال الشامي: أرأيت يا أبا عبد الله أناظرك في العربية فالتفت أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا أبان بن تغلب ناظره فناظره فما ترك الشامي يكشر، قال: أريد أن أناظرك في الفقه فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا زرارة ناظره فما ترك الشامي يكشر قال: أريد أن أناظرك في الكلام، فقال: يا مؤمن الطاق ناظره فناظره فسجل الكلام بينهما، ثمَّ تكلم مؤمن الطاق بكلامه فغلبه به.

فقال: أريد أن أناظرك في الاستطاعة فقال للطيار: كلمه فيها قال: فكلمه فما ترك يكشر، فقال: أريد أناظرك في التوحيد فقال لهشام بن سالم: كلّمه فسجل الكلام بنهما ثم خصمه هشام، فقال أريد أن أتكلم في الإمامة فقال: لهشام بن الحكم كلّمه يا أبا الحكم فكلمه ما تركه يرتم ولا يحلي ولا يمر، قال: فبقي يضحك أبو عبد الله عليه السلام حتى بدت نواجده.

فقال الشامي: كأنك أردت أن تخبر ني أن في شيعتك مثل هؤلاء الرجال؟ قال: هو ذلك، ثم قال يا أخا أهل الشام أما حمران فحرفك فحرت له فغلبك بلسانه وسألك عن حرف من الحق فلم تعرفه، وأما أبان بن تغلب فمغث حقاً بباطل فغلبك. وأما زرارة فقاسك فغلب قياسه قياسك، وأما الطيار فكان كالطير يقع ويقوم وأنت كالطير المقصوص [لا نهوض لك] وأما هشام بن سالم قام حبارى يقع ويطير وأما هشام بن الحكم فتكلم بالحق فما سوَّغك بريقك، يا أخا أهل الشام إن الله أخذ ضغثاً من الحق وضغثاً من الباطل فمغثهما ثم أخرجهما إلى الناس، ثم بعث أنبياء يفرقون بينهما، فعرفها الأنبياء والأوصياء فبعث الله الأنبياء ليفرقوا ذلك وجعل الأنبياء قبل الأوصياء ليعلم الناس من فضل الله ومن يختص، ولو كان الحق على حدة والباطل على حدة كل واحد منهما قائم بشأنه ما احتاج الناس إلى نبي ولا وصي، ولكن الله خلطهما وجعل يفرقهما الأنبياء والأئمة عليهم السلام من عباده.

فقال الشامي: قد أفلح من جالسك فقال أبو عبد الله عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يجالسه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل يصعد إلى السماء فيأتيه الخبر من عند الجبار، فإن كان ذلك كذلك فهو كذلك، فقال الشامي: اجعلني من شيعتك وعلّمني فقال أبو عبد الله عليه السلام لهشام: علّمه فإني أحب أن يكون تلماذا لك.

قال عليُّ بن منصور وأبو مالك الحضرمي: رأينا الشامي عند هشام بعد موت أبي عبد الله

عليه السلام ويأتي الشامي بهدايا أهل الشام وهشام يردّه هدايا أهل العراق قال عليٌّ بن منصور وكان الشامي ذكي القلب.

٩ - وعن مالك الجهني قال: إني يوماً عند أبي عبد الله عليه السلام وأنا أُحدِّث نفسي بفضل الأئمة من أهل البيت، إذ أقبل عليَّ أبو عبد الله عليه السلام فقال: يا مالك أنتم والله شيعتنا حقاً، لا ترى أنك أفرطت في القول وفي فضلنا، يا مالك إنه ليس يقدر على صفة الله وكنه قدرته وعظمته، ولله المثل الأعلى، وكذلك لا يقدر أحد أن يصف حق المؤمن ويقوم به، كما أوجب الله له على أخيه المؤمن، يا مالك إن المؤمنين ليلتقيانِ فيصافح كل واحد منهما صاحبه، فلا يزال الله ناظراً إليهما بالمحبة والمغفرة، وإن الذنوب لتتحاتُّ عن وجوهما حتى يفترقا، فمن يقدر على صفة من هو هكذا عند الله؟.

١٠ - وفي كتاب مجالس الشيخ بسنده، عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: اتّقوا الله، وعليكم بالطاعة لأئمتكم قولوا ما يقولون، واصمتوا عما صمتوا، فانكم في سلطان من قال الله تعالى: ﴿**وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال**﴾ يعني بذلك ولد العباس فاتقوا الله فإنكم في هدنة، صلّوا في عشائرهم واشهدوا جنائزهم، وأدّوا الأمانة إليهم الخبر.

الفصل الخامس - سيرته عليه السلام مع مخالفيه وأعدائه ومبغضيه . .

١ - وروى الكليني (ره) بسنده، عن مسعدة ابن صدقة قال: دخل سفيان الثوري على أبي عبد الله عليه السلام فرأى عليه ثياب بياض، كأنها غرقىء البيض فقال له: إن هذا اللباس ليس من لباسك فقال له: اسمع منّي وعُ ما أقول لك، فإنه خير لك عاجلاً وآجلاً إن أنت متَّ على السنة والحق، ولم تمت على بدعة، أخبرك أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان في زمان مقفر جدب، فأما إذا أقبلت الدنيا، فأحق أهلها بها أبرارها، لا فجّارها، ومؤمنوها، لا منافقوها، ومسلموها لا كفّارها، فما أنكرت يا ثوري؟! فوالله إنني لمع ما ترى، ما أتى عليّ مذ عقلت صباح ولا مساء، ولله في مالي حق أمرني أضعه موضعاً إلا وضعته، قال: وأتاه قومٌ ممن يظهرون التزهد ويدعون الناس أن يكونوا معهم على مثل الذي هم عليه من التقشف فقالوا له: إن صاحبنا حصر عن كلامك، ولم يحضره حججه فقال لهم: فهاتوا حججكم! فقالوا له: إن حججنا من كتاب الله فقال لهم فأدلوا بها فإنها أحقُّ ما اتبع وعُمل به.

فقالوا: يقول الله تبارك وتعالى، مخبراً عن قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾ فمدح فعلهم.

وقال في موضع آخر ﴿**ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً**﴾ فنحن نكتفي بهذا، فقال رجل من الجلساء: إنا رأيناكم تزهدون في الأطعمة الطيبة ومع ذلك تأمرون الناس بالخروج من أموالهم حتى تمتعوا أنتم منها، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: دعوا عنكم ما لا ينتفع به، أخبروني أيها النفر ألكم علم بناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابهه الذي في مثله ضل من ضل، وهلك من هلك من هذه الأمة؟ فقالوا له: أو بعضه، فأما كلّه فلا، فقال لهم: فمن ههنا أتيتم وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأما ما ذكرتم من إخبار الله عزَّ وجلَّ إيانا في كتابه عن القوم الذين أخبر عنهم بحسن فعالهم، فقد كان مباحاً جائزاً، ولم يكونوا نهوا عنه وثوابهم منه على الله عزَّ وجلَّ، وذلك أن الله جلّ وتقدس أمر بخلاف ما عملوا به، فصار أمره ناسخاً لفعلهم، وكان نهي الله تبارك وتعالى رحمة منه للمؤمنين ونظراً لكي لا يضرُّوا بأنفسهم وعيالاتهم، منهم الضعفة الصغار، والولدان، والشيخ الفاني، والعجوزة الكبيرة، الذين لا يصبرون على الجوع، فإن تصدقت برغيفي ولا رغيف لي غيره ضاعوا وهلكوا جوعاً، فمن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [**خمس تمرات أو خمس قرص، أو دنانير أو درهم يملكها الإنسان وهو يريد أن يمضيها، فأفضلها ما أنفقه الإنسان على والديه، ثم الثانية على نفسه وعياله، ثم الثالثة على قرابته الفقراء، ثم الرابعة على جيرانه الفقراء، ثم الخامسة في سبيل الله، وهو أحسنها أجراً.**].

وقال صلى الله عليه وآله وسلم للأنصاري حين أعتق عند موته خمسة أو ستة من الرقيق، ولم يكن يملك غيرهم وله أولاد صغار: [**لو أعلمتموني أمره ما تركتكم تدفنوه مع المسلمين يترك صبيته صغاراً يتكففون الناس!.**].

ثمَّ قال: حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: [**ابدأ بمن تعول الأدنى فالأدنى**] ثم هذا ما نطق به الكتاب رداً لقولكم، ونهياً عنه مفروضاً من الله العزيز الحكيم قال: ﴿**والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً**﴾ أفلا ترون أنّ الله تبارك وتعالى قال غير ما أراكم تدعون الناس إليه من الأثرة على أنفسهم وسمّى من فعل ما تدعون إليه مسرفاً، وفي غير آية من كتاب الله يقول: ﴿**إنّه لا يحبُّ المسرفين**﴾ فنهاهم عن الإسراف، ونهاهم عن التقتير، لكن أمر بين الأمرين لا يعطي جميع ما عنده ثمَّ يدعو الله أن يرزقه فلا يستجيب له للحديث الذي جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم [إنَّ أصنافاً من أمّتي لا يستجاب لهم دعاؤهم: رجل يدعو على والديه، ورجل يدعو على غريم ذهب له بمال، فلم يكتب عليه، ولم يشهد عليه، ورجل يدعو على امرأته،. وقد جعل الله عزَّ وجلّ تخلية سبيلها بيده، ورجل يقعد في بيته ويقول: ربِّ ارزقني ولا يخرج، ولا يطلب الرزق، فيقول الله عزَّ وجلَّ له: عبدي ألم أجعل لك السبيل إلى الطلب والضرب في الأرض بجوارح صحيحة، فتكون قد أعذرت فيما بيني وبينك في الطّلب لاتباع أمري ولكيلا تكون كلًّا

على أهلك فإن شئت رزقتك وإن شئت قترت عليك، وأنت معذور عندي. ورجل رزقه الله عزّ وجلّ مالاً كثيراً فأنفقه، ثمَّ أقبل يدعو يا ربِّ ارزقني فيقول الله عزّ وجلّ: ألم أرزقك رزقاً واسعاً فهلاّ اقتصدت فيه كما أمرتك، ولم تسرف، وقد نهيتك عن الإسراف، ورجل يدعو في قطيعة رحم، ثم علّم الله عزَّ وجلَّ اسمه نبيه صلى الله عليه وآله وسلم كيف يُنفق، وذلك إنه كانت عنده أوقية من الذهب فكره أن تبيت عنده، فتصدق بها، فأصبح وليس عنده شيء، وجاءه من يسأله، فلم يكن عنده ما يعطيه، فلامه السائل، واغتم هو حيث لم يكن عنده ما يعطيه وكان رحيما رقيقاً فأدّب الله عزَّ وجلَّ نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بأمره فقال: ﴿**ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً**﴾ يقول: إن الناس قد يسألونك، ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال كنت قد حسرت من المال فهذه أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يصدقها الكتاب والكتاب يصدقه أهله من المؤمنين، وقال أبو بكر عند موته، حيث قيل له: أوص، فقال: أوصي بالخمس، والخمس كثير، فإن الله جلَّ وعزَّ قد رضي بالخمس، فأوصى بالخُمس، وقد جعل الله عزّ وجلّ له الثلث عند موته، ولو علم أنَّ الثلث خير له أوصى بها، ثمَّ من قد علمتم بعده في فضله وزهده سلمان ـ رض ـ وأبو ذرّ ـ ره ـ.

فأما سلمان فكان إذا أخذ عطاءه رفع منه قوته لسنته، حتى يحضر عطاؤه من قابل، فقيل له: يا أبا عبد الله أنت في زهدك تصنع هذا؟ وأنت لا تدري لعلّك تموت اليوم أو غداً؟ فكان جوابه أن قال: ما لكم لا ترجون لي البقاء، كما خفتم عليَّ الفناء؟! أما علمتم يا جهلة أن النفس قد تلتاث على صاحبها، إذا لم يكن لها من العيش ما تعتمد عليه، فإذا هي أحرزت معيشتها اطمأنت.

وأمّا أبو ذر ـ رض ـ فكانت له نويقات وشويهات يحلبها ويذبح منها إذا اشتهى أهله اللحم، أو نزل به ضيف، أو رأى بأهل الماء الذين هم معه خصاصة، نحر لهم الجزور أو من الشاة على قدر ما يذهب عنهم بقرم اللحم، فيقسمه بينهم، ويأخذ هو كنصيب واحد منهم، لا يتفضل عليه، ومن أزهد من هؤلاء؟ وقد قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما قال، ولم يبلغ من أمرهما أن صارا لا يملكان شيئاً البتة، كما تأمرون الناس بإلقاء أمتعتهم وشيئتهم، ويؤثرون به على أنفسهم وعيالاتهم.

واعلموا أيها النفر إني سمعت أبي يروي عن آبائه عليهم السلام أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال يوماً: ما عجبت من شيء كعجبي من المؤمن، إنه إن قرض جسده في دار الدنيا بالمقاريض كان خيراً له، وإن ملك ما بين مشارق الأرض ومغاربها كان خيراً له، وكلّ ما يصنع الله عزَّ وجلَّ به فهو خير له، فليت شعري هل يحق فيكم ما قد شرحت لكم منذ اليوم أم أزيدكم.

أما علمتم أن الله عزَّ وجلَّ قد فرض على المؤمنين في أول الأمر يقاتل الرجل منهم عشرة من

المشـركـين ليس له أن يولي وجهـه عنهم، ومن ولاّهم يومئذ دبره فقد تبوّأ مقعده من النار، ثم حولهم من حالهم رحمـة منـه لهم،فصـار الـرجل منهم عليه أن يقاتل رجلين من المشركين، تخفيفاً من الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين فنسخ الرجلان العشرة.

وأخبروني أيضاً عن القضاة أجورة هم حيث يقضون على الرجل منكم نفقة امرأته إذا قال: إني زاهـد، وإني لا شيء لي؟ فإن قلتم جورة ظلمكم أهـل الإسـلام وإن قلتم بل عدول خصمتم أنفسـك، وحيث يردون صدقـة من تصـدق على المسـاكين عند الموت بأكثر من الثلث، أخبروني لو كان النـاس كلهم كالـذين تريـدون زهّـاداً لا حاجـة لهم في متـاع غيرهم، فعلى من كان يصـدَّق بكفـارات الأيـمان والنـذور والصدقات من فرض الزكاة من الذهب والفضة والتمر والزبيب وسائر ما وجب فيـه الـزكـاة من الإبـل والبقـر والغنم وغـير ذلك، إذا كان الأمر كما تقولون لا ينبغي لأحد أن يحبس شيئاً من عرض الـدُّنيـا إلاّ ـ قدَّمه، وإن كان به خصاصة، فبئس ما ذهبتم فيه وحملتم الناس عليـه من الجهـل بكتـاب الله عزَّ وجلَّ، وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم وأحاديثه التي يصدقها الكتاب المنـزل، وردكم إيـاهـا بجهـالتكم، وتركـكم النظر في غرائب القرآن من التفسير بالناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشـابـه، والأمـر والنهي. وأخبروني ين أنتم عن سليمان بن داود عليه السلام حيث سأل الله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده، فأعطاه الله عزَّ وجلَّ اسمه ذلك وكان يقول الحق ويعمل به.

ثم لم نجـد الله عزَّ وجـلَّ عاب عليـه ذلـك، ولا أحـد من المؤمنين، وداود النبي قبله في ملكه وشدَّة سلطانه.

ثمَّ يوسـف النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال لملك مصر: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيـظ عليم» فكـان من أمـره الذي كان أن اختار مملكة الملك وما حولها إلى اليمن، وكانوا يمتارون الطعـام من عنـده لمجـاعة أصابتهم، وكان يقول الحق ويعمل به، فلم نجد أحداً عاب ذلك عليه، ثم ذو القـرنـين عليـه السـلام عبـد أحب الله فأحبـه الله طوى له الأسبـاب، وملّكه مشارق الأرض ومغاربها، وكان يقول الحق ويعمل به، ثم لم نجد أحداً عاب ذلك عليه، فتأدبوا أيها النفر بآداب الله عزَّ وجلَّ للمؤمنين، اقتصروا على أمر الله ونهيه، ودعوا عنكم ما اشتبه عليكم مما لا علم لكم به، وردوا العلم إلى أهله تؤجروا وتعذروا عند الله تبارك وتعالى، وكونوا في طلب علم ناسخ القرآن من منسـوخـه، ومحكمـه من متشـابهه، وما أحلَّ الله فيه مما حرم فإنه أقرب لكم من الله، وأبعد لكم من الجهـل، ودعـوا الجهـالـة لأهلهـا، فإن أهـل الجهل كثير، وأهل العلم قليل، وقد قال الله عزَّ وجلَّ **﴿وفوق كلّ ذي علمٍ عليم﴾**.

٢ ـ روى الصدوق (ره) في العلل باسناده، عن الربيع صاحب المنصور قال: قال المنصور يوماً لأبي عبد الله عليـه السـلام وقـد وقـع على المنصـور ذبـاب فذبَّه عنه ثمَّ وقع عليه فذبّه عنه ثم وقع عليه فذبّه عنه

فقال: يا أبا عبد الله لأي شيء خلق الله عزَّ وجلَّ الذباب؟ قال: ليذلَّ به الجبَّارين.

٣ ـ وعن عبيد بن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كنت عند زياد بن عبيد الله وجماعة من أهل بيتي فقال: يا بني عليّ وفاطمة ما فضلكم على الناس؟ فسكتوا فقلت: إنَّ فضلنا على الناس أنّا لا نحبُّ أن نكون من أحد سوانا، وليس أحد من الناس لا يحب أن يكون منّا إلا أشرك، ثم قال: ارووا هذا الحديث.

٤ ـ وفي المناقب عن علي بن أبي حمزة قال: كان لي صديق من كتّاب بني أمية فقال لي: استأذن لي على أبي عبد الله عليه السلام فاستأذنت له، فلما دخل سلّم وجلس ثم قال: جعلت فداك إني كنت في ديوان هؤلاء القوم، فأصبت من دنياهم مالاً كثيراً وأغمضت في مطالبه فقال أبوعبد الله عليه السلام: لولا أن بني أمية وجدوا من يكتب لهم، ويجبي لهم الفيء ويقاتل عنهم، ويشهد جماعتهم، لما سلبونا حقّنا، ولو تركهم الناس وما في أيديهم، ما وجدوا شيئاً إلا ما وقع في أيديهم، فقال الفتى: جعلت فداك فهل لي من مخرج منه؟ قال: إن قلت لك تفعل؟ قال: أفعل قال: اخرج من جميع ما كسبت في دواوينهم، فمن عرفت منهم رددت عليه ماله، ومن لم تعرف تصدَّقت به وأنا أضمن لك على الله الجنة، قال: فأطرق الفتى طويلاً فقال: قد فعلت جعلت فداك قال ابن أبي حمزة: فرجع الفتى معنا إلى الكوفة فما ترك شيئاً على وجه الأرض إلاّ خرج منه، حتى ثيابه التي كانت على بدنه قال: فقسمنا له قسمة واشترينا له ثياباً وبعثنا له بنفقة قال: فما أتى عليه أشهر قلائل حتى مرض، فكنا نعوده قال: فدخلت عليه يوماً وهو في السياق ففتح عينيه ثمَّ قال: يا عليُّ وفى لي والله صاحبك قال: ثمَّ مات فولينا أمره، فخرجت حتى دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فلما نظر إليَّ قال: يا علي وفينا والله لصاحبك قال: فقلت: صدقت جعلت فداك هكذا قال لي والله عند موته.

٥ ـ وروى الصدوق (ره) بسنده، عن حيّان السراج قال: سمعت السيد ابن محمد الحميري يقول: كنت أقول بالغلو وأعتقد غيبة محمد بن علي بن الحنفية رضي الله عنه، قد ضللت في ذلك زماناً، فمنَّ الله عليَّ بالصادق جعفر بن محمد عليه السلام، وأنقذني به من النار وهداني إلى سواء الصراط، فسألته بعد ما صحَّ عندي بالدلائل التي شاهدتها منه أنه حجة الله عليَّ وعلى جميع أهل زمانه، وأنه الإمام الذي فرض الله طاعته وأوجب الاقتداء به.

فقلت له: يا ابن رسول الله قد روي لنا أخبار عن آبائك عليهم السلام في الغيبة وصحة كونها فأخبرني بمن يقع؟ فقال عليه السلام: ستقع بالسادس من ولدي وهو الثاني عشر من الأئمة الهداة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوّلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآخرهم القائم بالحق، بقية الله في الأرض، وصاحب الزمان، والله لو بقي في غيبته ما بقي نوح في قومه، لم يخرج من الدنيا حتى يظهر، فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً قال السيد: فلما سمعت ذلك من مولاي

الصادق جعفر بن محمد عليهما السلام تبت إلى الله تعالى ذكره على يديه، وقلت قصيدة أولها:

فلما رأيت الناس في الدين قد غووا ... تجعفرت باسم الله فيمن تجعفروا
تجعفرت باسم الله والله أكبر ... وأيقنت أن الله يعفو ويغفر
ودنت بدين غير ما كنت ديّناً ... به ونهاني واحد الناس جعفر
فقلت فهبني قد تهودت برهةً ... وإلّا فديني دين من يتنصّر
وإنّي إلى الرحمان من ذاك تائب ... وإنّي قد أسلمت والله أكبر
فلست بغال ما حييت وراجع ... إلى ما عليه كنت أخفي وأظهر
ولا قائلاً حيٌّ برضوى محمدٌ ... وإن عاب جهّال مقالي فأكثروا
ولكنّه ممن مضى لسبيله ... على أفضل الحالات يُقفى ويخبر
مع الطيبين الطاهرين الأولى لهم ... من المصطفى فرع زكيٌّ وعنصر

الفصل السادس ـ في النوادر والأحاديث المتفرقة التي لا يجمعها فصل خاص. . .

ـ عند نزول المصيبة. . .

١ ـ روى الصدوق (ره) في العيون باسناده، عن أحمد بن الحسن الحسيني، عن أبي محمد، عن آبائه عن موسى بن جعفر عليهم السلام قال: نُعي إلى الصّادق جعفر بن محمد عليه السلام ابنه إسماعيل ابن جعفر، وهو أكبر أولاده، وهو يريد أن يأكل وقد اجتمع ندماؤه، فتبسم ثم دعا بطعامه، وقعد مع ندمائه، وجعل يأكل أحسن من أكله سائر الأيام، ويحث ندماءه، ويضع بين أيديهم، ويعجبون منه أن لا يروا للحزن أثراً، فلما فرغ قالوا: يا ابن رسول الله لقد رأينا عجباً أصبت بمثل هذا الأبن، وأنت كما نرى؟! قال: ومالي لا أكون كما ترون، وقد جاءني خبر أصدق الصادقين أني ميت وإياكم إن قوماً عرفوا الموت فجعلوه نصب أعينهم، ولم ينكروا من تخطّفه الموت منهم وسلّموا لأمر خالقهم عزَّ وجلٍّ.

٢ ـ دعوات الراوندي: كان للصادق عليه السلام ابن فبينا هو يمشي بين يديه إذ غصَّ فمات، فبكى وقال: لئن أخذت لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت ثمَّ حُمل إلى النساء، فلما رأينه صرخن، فأقسم عليهم أن لا يصرخن، فلما أخرجه للدفن قال: سبحان من يقتل أولادنا ولا نزداد له إلّا حباً، فلما دفنه قال: يا بُنيَّ وسّع الله في ضريحك، وجمع بينك وبين نبيّك وقال عليه السلام: إنّا قوم نسأل الله ما نحبُّ فيمن نحبُّ فيعطينا، فإذا أحبَّ ما نكره فيمن نحبّ رضينا.

في الكـافي مسنـداً، عن العـلاء بن كامـل قال: كنت جالسـاً عنـد أبي عبد الله عليه السلام فصرخت الصارخة من الدار، فقام أبوعبد الله عليه السلام ثمّ جلس، فاسترجع، وعاد في حديثه، حتى فرغ منه ثمّ قال: إنّا لنحبُّ أن نعافى في أنفسنا وأولادنا وأموالنا، فإذا وقع القضاء فليس لنا أن نحبَّ ما لم يحب الله لنا.

وعن قتيبـة الأعشى قال: أتيت أبـا عبـد الله عليه السلام أعود ابناً له، فوجدته على الباب، فإذا هومهتم حزين فقلت: جعلت فداك كيف الصبّيُّ؟ فقال: والله إنه لما به ثمّ دخل فمكث ساعة ثم خرج إلينـا وقـد أسفـر وجهـه، وذهب التغيـر والحـزن قال: فطمعت أن يكون قد صلح الصبيُّ فقلت: كيف الصّبيُّ جعلت فداك؟ فقـال لقـد مضى لسبيله، فقلت: جعلت فداك لقد كنت وهو حيٌّ مهتماً حزيناً، وقد رأيت حالك الساعة، وقد مات، غير تلك الحال فكيف هذا؟ فقال: إنّا أهل بيت إنما نجزع قبل المصيبة، فإذا وقع أمر الله رضينا بقضائه، وسلّمنا لأمره.

ـ فضل الصدقة . . .

٣ ـ في الكافي مسنداً، عن علي بن أسباط، عمن رواه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان بيني وبين رجل قسمة أرض، وكان الرجل صاحب نجوم وكان يتوخى ساعة السعود فيخرج فيها وأخرج أنا في ساعـة النحـوس، فاقتسمنـا فخرج لي خير القسمين، فضرب الرجل بيده اليمنى علي اليسرى، ثم قال: ما رأيت كاليوم قط! قلت: ويك ألا أخبرك ذاك؟ قال: إني صاحب نجوم أخرجتك في ساعة النحوس، فخرجت أنا في ساعة السعود، ثم قسمنا، فخرج لك خير القسمين فقلت: ألا أحدّثك بحديث حدثني به أبي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [**من سرّه أن يدفع الله عنه نحس يومه، فليفتتح يومه بصدقة يذهب الله بها عنه نحس يومه، ومن أحب أن يذهب الله عنه نحس ليلتـه فليفتتـح ليلتـه بصـدقـة، يدفـع الله عنـه نحس ليلتـه**]. فقلت: إنّي افتتحت خروجي بصدقة، فهذا خير لك من علم النجوم.

ـ في إظهار إمامته عليه السلام . . .

٤ ـ وعن صالح بن الأسود قال: سمعت جعفر بن محمد عليه السلام يقول: سلوني قبل أن تفقدوني فإنه لا يحدّثكم أحد بعدي بمثل حديثي.

٥ ـ ومن كتاب الدلائل للحميري عن سليمان بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله **﴿إنَّ الذين قالـوا ربنـا الله ثم استقـامـوا تتنـزَّل عليهم المـلائكـة ألاّ تخافـوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾**

قال أبو عبد الله عليه السلام: أما والله لربما وسّدنا لهم الوسائد في منازلنا.

ـ مع العمّال...

٦ ـ في الكافي مسنداً، عن شعيب قال: تكارينا لأبي عبد الله عليه السلام قوماً يعملون في بستان له وكان أجلهم إلى العصر فلما فرغوا قال لمعتب: أعطهم أجورهم قبل أن يجف عرقهم.

ـ في إصلاح ذات البين...

٧ ـ في الكافي مسنداً، عن أبي حنيفة سائق الحاجّ قال: مرّ بنا المفضل وأنا وختني نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة ثمّ قال لنا: تعالوا إلى المنزل فأتيناه، فأصلح بيننا بأربعة مائة درهم، فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كل واحد منا من صاحبه قال: أما إنها ليست من مالي، ولكن أبو عبد الله عليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما، وأفتديهما من ماله، فهذا من مال أبي عبد الله عليه السلام.

ـ في التكسب والتجارة...

٨ ـ في الكافي، عن معمر بن خلّاد قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: إنّ رجلاً أتى جعفراً صلوات الله عليه شبيهاً بالمستنصح له فقال له: يا أبا عبد الله كيف صرت اتخذت الأموال قطعا متفرقة، ولو كانت في موضع واحد كان أيسر لمؤنتها وأعظم لمنفعتها، فقال أبو عبد الله عليه السلام: اتخذتها متفرقة، فإن أصاب هذا المال شيء سلم هذا، والصرة تجمع هذا كله.

٩ ـ وعن عمر بن يزيد قال: أتى رجل أبا عبد الله عليه السلام يقتضيه وأنا عنده فقال له: ليس عندنا اليوم شيء، ولكنه يأتينا خطر ووسمة فيباع، ونعطيك إنشاء الله فقال له الرجل: عدني فقال: كيف أعدك وأنا لما لا أرجو أرأى منّي لما أرجوا.

١٠ ـ ابن مسكان، عن سليمان بن خالد في خبر طويل أنه دخل على الصادق عليه السلام آذنه وآذن لقوم من أهل البصرة فقال عليه السلام: كم عدّتهم؟ فقال: لا أدري فقال عليه السلام: اثنا عشر رجلاً فلما دخلوا عليه سألوا في حرب عليٍّ وطلحة والزبير وعائشة قال: وما تريدون بذلك؟ قالوا: نريد أن نعلم علم ذلك قال: إذا تكفرون يا أهل البصرة فقال: عليٌّ عليه السلام: كان مؤمناً منذ بعث الله نبيه إلى أن قبضه إليه ثمّ لم يؤمّر عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحداً قط، ولم يكن في سريّة قط

إلّا كان أميرها وذكر فيه أن طلحة والزبير بايعاه، وغدرا به، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين، فقالوا: لئن كان هذا عهداً من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقد ضل القوم جميعاً فقال عليه السلام: ألم أقل لكم إنكم ستكفرون إن أخبرتكم أما إنّكم سترجعون إلى أصحابكم من أهل البصرة فتخبرونهم بما أخبرتكم فيكفرون أعظم من كفركم، فكان كما قال.

ـ أبو بصير قال موسى بن جعفر عليهما السلام: فيما أوصاني به أبي عليه السلام أن قال: يا بنيَّ! إذا أنا متُّ فلا يغسلني أحد غيرك، فإن الإمام لا يغسله إلا الإمام وأعلم أن عبد الله أخاك سيدعو الناس إلى نفسه، فدعه فإن عمره قصير، فلما أن مضى أبي غسَّلته كما أمرني، وادَّعى عبد الله الإمامة مكانه، فكان كما قال أبي وما لبث عبد الله يسيراً حتى مات، وروى مثل ذلك الصادق عليه السلام.

١١ ـ وفي الكافي مسنداً، عن عبد العزيز بن نافع قال طلبنا الإذن على أبي عبد الله عليه السلام، وأرسلنا إليه فأرسل إلينا ادخلوا إثنين إثنين، فدخلت أنا ورجل معي فقلت للرجل: أحبُّ أن تسأل المسألة فقال: نعم فقال له: جعلت فداك إنَّ أبي كان ممن سباه بنو أمية، وقد علمت أن بني أمية لم يكن لهم أن يحرِّموا، ولا يحلّلوا، ولم يكن لهم مما في أيديهم قليل ولا كثير، وإنما ذلك لكم، فإذا ذكرت الذي كنت فيه، دخلني من ذلك ما يكاد يفسد عليَّ عقلي ما أنا فيه، فقال له: أنت في حل مما كان من ذلك، وكل من كان في مثل حالك من ورائي فهو في حلّ من ذلك، قال فقمنا، وخرجنا، فسبقنا معتّب إلى النفر القعود الذين ينتظرون إذن أبي عبد الله عليه السلام فقال لهم: قد ظفر عبد العزيز بن نافع بشيء ما ظفر بمثله أحد قط، قيل له: وما ذاك؟ ففسّره لهم فقام إثنان فدخلا على أبي عبد الله عليه السلام فقال أحدهما: جعلت فداك إنَّ أبي كان من سبايا بني أمية، وقد علمت أن بني أمية لم يكن لهم من ذلك قليل ولا كثير وأنا أحبُّ أن تجعلني من ذلك في حلّ فقال: ما ذلك إلينا، مالنا أن نحلّ ولا أن نحرِّم فخرج الرجلان وغضب أبو عبد الله عليه السلام، فلم يدخل عليه أحد في تلك الليلة إلّا بدأه أبو عبد الله عليه السلام، فقال: ألا تعجبون من فلان يجيئني فيستحلّني مما صنعت بنو أمية كأنّه يرى أن ذلك لنا، ولم ينتفع أحد في تلك الليلة بقليل ولا كثير إلّا الأوّلين، فإنهما غنيا بحاجتهما.

١٢ ـ المفضّل بن عمر قال: كنت أنا وخالد الجوّان، ونجم الحطيم، وسليمان بن خالد على باب الصادق عليه السلام فتكلّمنا فيما يتكلّم فيه أهل الغلوّ، فخرج علينا الصادق عليه السلام بلا حذاء ولا رداء وهو ينتفض ويقول: يا خالد يا مفضّل يا سليمان يا نجم، لا «بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون».

١٣ ـ في الكافي بالاسناد، عن هارون ابن الجهم قال: كنّا مع أبي عبد الله بالحيرة حين قدم على أبي جعفر

المنصور، فختن بعض القوّاد ابناً له، وصنع طعاماً ودعا الناس، وكان أبوعبد الله عليه السلام فيمن دعـا فبينـما هوعلى المـائـدة يأكـل ومعـه عدَّة في المائدة، فاستسقى رجل منهم ماء، فأوتي بقدح فيه شراب لهم، فلما أن صار القدح في يد الرجل قام أبوعبد الله عليه السلام عن المائدة فسئل عن قيامه فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ملعون من جلس على مائدة يشرب عليها الخمر.

وفي رواية أخرى ملعون ملعون، من جلس طائعاً على مائدة يُشرب عليها الخمر.

١٤ ـ ومحمد بن أحمد، عن أبي عبد الله قال: دخل عليه قوم من أهل خراسان فقال ابتداء من غير مسألة: من جمع مالاً من مهـاوش أذهبـه الله في نهابـر، فقـالـوا: جعلنا فداك لا نفهـم هذا الكلام فقال عليه السلام «از باد آيد بدم بشود».





الشيخ زهير كنج



منهج الإمام الصادق [ع]
في مواجهة مشكلات العصر



بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الخلق وأعز المرسلين سيدنا وحبيبنا محمد وعلى آله الطاهرين.

وبعـد:

إنني إذ أشكر المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق على دعوتها لهذا المؤتمر ورعايتها له. وإذ أعبر عن اغتباطي بتلك الثقة التي أولتني إياها عندما دعتني لأكون أحد المتكلمين في هذه المناسبة المباركة، فإنني أتوجه، أول ما أتوجه إلى صاحب المناسبة الإمام الصادق(ع) أسأله أن يقبل عذري في تقصيري وعجزي عن الإحاطة باليسير اليسير مما أتصدى له. فأنى لمثلي أن يدخل محراب مثله(ع) مستقرئاً باحثاً؟! هل أوتيت فطرة يوماً أن تستشرف آفاق المحيط وأن تكتنه أسراره؟

لقد دخل إلى هذا المحراب قبلي آلاف الداخلين ووقفوا في رحابه خاشعين متأملين متفحصين، وما شعروا يوماً أنهم شبعوا تأملاً وتفحصاً واستقراء وبحثاً. بل احسّوا دوماً أن هذا المحراب يزيدهم حُسناً كلما زادوه نظراً، ويزيدهم علماً كلما زادوه اعتباراً وتبصراً وتدبيراً.

فهل أعود، في موقفي هذا، إلى ما استجلاه السابقون واللاحقون والقدماء والمحدثون من محراب

الإمام الصادق(ع) وما استخرجوه من كنوزه مما تفيض به مئات المصنفات؟.

هل أتحدث عن الإمام الصادق(ع) في حكمته وتجلياتها، أم أتكلم عن شريف نسبه وعلو مكانته، أم أقرضه في علمه وتقاه وفضله أم أردد ما قاله خصومه وأعداؤه قبل أتباعه في كل هذه الصفات الساميات؟!.

وإذا فعلت أمامكم. ألا أكون كحامل الثمر إلى هجر؟! ألا تقولون وأنتم تستمعون إليّ: هذه بضاعتنا ردت إلينا؟!.

لقد فضلت أن أترك كل هذا، اعتقاداً مني أني لن أضيف جديداً، ولن أعود من محراب الإمام بمكرور معاد وخصوصاً أني عاجز اللمح والاستخراج ورؤية ما لا تراه إلا عين ثاقبة أو بصيرة تنفذ إلى ما وراء الظواهر.

ما الذي يبقى لي أن أفعل أو أقول؟.

سأحمل همومي ومشكلاتي والتحديات التي يطرحها علي عصري، وأذهب بها إلى محراب الإمام(ع) بوصفه عالماً بالقرآن والسنة، وبوصفه عالماً بأحوال عصر عاش فيه واختلفت أحواله ومشكلاته وتحدياته عن أحوال ومشكلات وتحديات عصر مبلغ القرآن والسنة صلى الله عليه وآله وسلم. أذهب إليه أسأله كيف تعامل مع عصره المختلف عن عصر جدِّه بوحي من القرآن والسنة، وبها يحفظ القرآن والسنة وأمة القرآن والسنة، وبها يستجيب لمشكلات العصر وتحدياته، وهدفي من كل ذلك أن أقتبس بعض نور المنهج الذي أرساه الإمام، علّنا نستفيد منه في مواجهة مشكلات عصرنا. إنه هدف عملي جهادي.

بالعودة إلى عصر الإمام الصادق(ع) أي ما بين عامي ثلاثة وثمانين وتسعة وأربعين بعد المئة من التقويم الهجري. نلاحظ أنه عاش نحواً من ثمانية وأربعين عاماً في عهد الأمويين وبقية حياته في عهد العباسيين، كانت وفاته(ع) بعد عشر سنوات من خلافة المنصور.

في هذا العصر كانت الفتوحات قد توقفت أو كادت، وكانت عناصر حضارات متباينة تتلاقى وتتواجد مستفيدة من ضعف سلطة الأمويين ومن انفتاح سلطة العباسيين على العناصر الأعجمية لتوظف خبراتها في إدارة الدولة وفي ترجمة العلوم والمنطق والفلسفة.

في هذه المواجهة كان الإسلام من جهة، وبقايا المزدكية والمانوية والزرادشتية والزنادقة وبعض أهل الكتاب، أو من لهم شبهة كتاب من جهة ثانية.. وأهل المعرفة من هؤلاء كانوا متشبعين بآثار الفلسفة اليونانية كما انتهت إليه في مدارس الاسكندرية والرها وانطاكيا ونصيبين، أي بصورتها الأفلاطونية المحدثة وتأويلاتها الغنوصية بالإضافة إلى الهرمسية نسبة إلى هرمس الحكيم الذي أخذت مقولاته طريقها إلى الشيوع في زمن مبكر. أما فكر أرسطو فسيظل باستثناء بعض كتب المنطق مغيّباً حتى عهد المأمون.

إلى ذلك، وتحت تأثير هذا اللقاء والمواجهة من جهة، وتحت تأثير الصراعات السياسية الداخلية من

جهـة ثانيـة ، أخـذت تظهـر بين المسلمين تيارات كان أخطرها فيها يبدوذلك التيار المغالي والذي تشكل من المنـدسـين في صفـوف أصحـاب أهل البيت قصد التشويه والتخريب وذلك من خلال الغلوفي أهل البيت وجعلهم فوق مستوى البشر، وإعطائهم صفات الآلهة مع زعمهم أنهم ممثلون ورسل لآل البيت، ليسهل عليهم خداع الناس وتضليلهم، لما يحملون من محبة وولاء داخلي لآل البيت عليهم السلام .

يضاف إلى ذلك أخذت تظهر إتجاهات في علم الكلام وفي رواية الحديث وفي تأويل القرآن ظهر أن الهدف منها تبرير وجود السلطات التي تحكم باسم الإسلام دون أن تطبق شريعته إلا بالحدود الدنيا التي لا تتعارض مع استمرار سلطاتها .

ولا ننسى ظاهـرة الانفصـام بين المعتقـد والسلوك بين القول والفعـل التي أخـذت تنتشر في صفوف المسلمين وتصل إلى اتباع الإمام الصادق(ع) أنفسهم . .

على أن أخطر ما واجهه الإمام الصادق(ع) هي تلك الدعوات للخروج على السلطات الحاكمة في عصـره . خصـوصاً عندما كانت الأجواء مؤاتية إبان الدعوة للخلاص من الأمويين، حيث كان العباسيون يدعـون للرضـا من آل محمـد، في محاولـة فهم لاستغـلال مشاعر مجمل المسلمين الموالية لآل البيت والمعادية لمظالم معظم السلاطين الأمويين .

لقد عاش الإمام الصادق(ع) عصره وقضاياه ووضع نصب عينيه أن يواجه مشكلاته وتحدياته باتجاه حفظ الشريعة من الأخطار المحدقة بها : فكيف تصرّف تجاه هذه الأخطار! يمكن أن نلاحظ :

١ ـ أن الإمام الصادق(ع) لم يغمض عينه ولم يصم أذنيه عن هذه الوقائع المستجدة، بل انفتح عليها وعرفها جيـداً، ليتمكن من مواجهتهـا، انطـلاقاً من العقيدة الإسلامية وإلا فكيف نفهـم هذه القدرة على مواجهة كافة الخصوم بما يلزم السكوت والاندحار. يقول الشيخ محمد أبوزهرة في كتابه : الإمام الصادق(ص ـ ٩٥) «إن الصـادق كان على علم دقيق بالفلسفـة ومنـاهج الفلاسفة وعلى علم بمواضع التهافت عندهم، وإنه كان مرجع عصره في رد الشبهات وقد كان بهذا جديراً وذلك لانصرافه المطلق إلى العلم ولأنه كان ذا أفق واسع في المعرفة لم يتسن لغيره من علماء عصره، فقد كانوا محدثين أو فقهاء أو علماء كلام أو علماء في الكون وكان هو كل ذلك» .

بهذا العلم وبهـذه المعـرفـة إستطـاع الإمـام أن يواجـه الأطـروحـات الغـريبة وتحدياتها الموجهة ضد الإسلام، ومن شاء التفاصيل فهو يجدها في مظانها .

٢ ـ إن الإمام الصادق(ع) لم يكتف بالرد على الخصوم وتهفيت حججهم . بل سعى لتعليم وتدريب أعداد كبيرة مهيئة للقيام بمثل ما يقوم به في أمكنة أخرى وفي أزمنة أخرى . لتظل امكانات المواجهة متاحة حفاظاً على المسلمين من الخداع والتضليل. . . فلنلاحظ هنا مايعطيه من دور للتعليم وللإعلام في العمل الإسلامي .

٣ ـ إن الإمام الصادق(ع) لم يسمح للغلاة أن يقولوا فيه وفي آل البيت ما ليس فيهم مما يسيء إلى العقيدة بأصولها ومبادئها، ولم يمنعه تقريبهم منه ولا محاباتهم له أو الدعوة إليه أن يقف ضدهم بحزم ويلعنهم ويكفرهم ويبرأ منهم. وأن يُعلّم أتباعه المخلصين أن ينقلوا عنه وأن يعلّموا الناس أن لا يقبلوا كل ما يرويه الرواة عنهم وأن لا يقبلوا إلا ما وافق القرآن والسنة أو ما يجدون عليه شاهداً من أحاديثهم المتقدمة، وقال الإمام الصادق عليه السلام بعد أن بلغه أن أحد الغلاة (بشار الشعيري) يقول فيه ما يؤدي إلى الإشراك، قال(ع): «إني عبد الله وابن عبد الله ضمتني الأصلاب والأرحام وإني لميت ومبعوث ثم مسؤول..».

٤ ـ إن الإمام الصادق حذّر أصحابه ورواد دروسه من الإنفصام بين القول والفعل أو بين المعتقد والسلوك ونصحهم بأن يعلّموا الناس ويستميلوهم بسلوكهم لا بمواعظهم وإرشاداتهم.

٥ ـ إن الإمام الصادق تعامل مع الظروف السياسية لعصره بأقصى ما يمكن من الحكمة وتقدير ما نسميه في اللغة السياسية الحديثة موازين القوى بصورة دقيقة لكي لا يتحول الخروج إلى فتنة تتصبب لها دماء المسلمين ولا تزيد الظالم إلا ظلماً وانتقاماً. على أن ذلك لم يكن يعني السكوت، بل مجاهدة الظالم ولكن بإسلوب يقوم على الإسلام عقائد وعبادات ومعاملات وسياسيات، وانتظار التغيير في موازين القوى، والسهر على الأتباع ومساعدتهم لكي لا يقعوا في فخاخ الظالمين بفعل الحاجة إلى اللقمة أو بعض المكاسب.

* * *

والآن ما هي الدروس التي يمكن استخلاصها من سيرة الإمام الصادق(ع) ومن جهاده.

١ ـ ضرورة الاطلاع على مشكلات العصر وتحدياته. وضرورة العودة إلى القرآن والسنة في استيعابها ومواجهتها وإيجاد حلول ملائمة لها بها يحفظ الشريعة ويحفظ الناس، وهذا ما يجب أن يكون في أولويات عمل المجاهدين الإسلاميين خصوصاً بعد الصحوة الإسلامية التي فجرها الإمام الخميني(قدس سره) وأعطى نموذجاً حياً لاستيعاب مشكلات العصر ومواجهتها بروح الإسلام وتعاليم الإسلام.

٢ ـ اعتماد التربية الإسلامية ومواجهة الإنحرافات الحديثة المتأثرة بالليبرالية والاشتراكية وسائر الفلسفات الغربية عن مقاصد الشرائع السماوية عموماً والإسلام خصوصاً والسعي إلى مواصلة تحصين الناس والدعاة ضد هذه الأفكار باستيعابها أولاً ونقدها بعمق ثانياً.

٣ ـ تصفية أطروحاتنا وأفكارنا من كل مظاهر الغلو بعد رصدها ونقدها.

٤ ـ السعي لردم الهوة بين ما نقول وما نفعل، ما ندعو إليه وما نمارسه خصوصاً على مستوى الدعاة وفي مقدمتهم العلماء الأفاضل.

٥ ـ وكل هذا لا يكون ممكناً إلا إذا شعر المسلمون خصوصاً قادتهم من العلماء والمفكرين بالمسؤولية العميقة

عن مستقبل أمتهم، وضبطوا فكرهم وسلوكهم على إيقاع دينهم الحنيف وتصدوا لمشكلات عصرهم بوحي من تعاليم الإسلام وبتطلع إلى مستقبل الأمة، تطلع مسكون بهواجس حفظها ومنعتها وتقدمها. كما فعل الإمام الصادق في عصره وأساس كل ذلك ومنطلقه إنما هو الإيمان بالله وإخلاص الوجه إخلاصاً تاماً لله ولمقاصد شرائعه السماوية مكتملة ومتجسدة بالإسلام الحنيف.

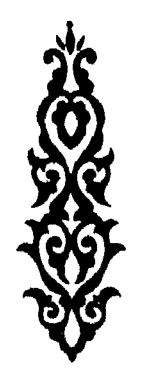
من جديد أشكر المستشارية وأشكر إصغائكم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين





الشيخ عفيف النابلسي



الإمام جعفر الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إليك يا مجدد الدين ومفجّر الثورة الإسلامية الحديثة .

إليك يا حافز الأجيال ومحرك الأمم .

إليـك يا من حوّل الصحـاري الجـدباء إلى حدائق غنّاء ويا من أعاد للإسلام مجده وللقرآن دولته وللإنسان حياته .

إليك أيها المقدس المجاور لجدك الصادق في مقعد صدق عند مليك مقتدر .

إليـك هذا الحـديث المقتضب عن جدك الصادق الذي أحيا الشريعة وأدب الشيعة .

إليـك أيهـا الخميني الذي ارتحل إلى ربه راضياً مرضياً هادئاً مطمئناً لما قدم وعمل وترك الآثار الصالحة والأمة الواعية .

وكـل ما نرجـو يا سيـدي الإمـام قبول هذه الهدية المتواضعة والمزينة بحديث آبائك وسيرة أجدادك والذين كانوا ولا يزالون غرةً في جبـين الـدهـر، وخـالاً في وجنـات الفخـر، ولتطمئن روحـك الجيـاشـة السعيدة بلقاء الله، إننا على العهد وسنتابع الطريق مهما كان مليئاً بالصعاب.

ولدك المخلص و الوفي عفيـــف

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد، فنحن أمام بحر طامٍ عم جوده وبدر سام أشرق وجوده. نحن أمام شمس المعارف الكبرى وأستاذ الأئمة وقائد جميع الأمة، الذي لم يُر إلا صائماً أو قائماً أو قارئاً للقرآن.

نسب أزهـر في التـاريـخ فحـول الصحـاري إلى أزاهـير وحسب تجاوز في علوه المريخ فسطعت منه المجامير، وعزم فلّ به حراب الدهر وحلم ملأ به أهاب الفخر، وبحر بعيد قعره، زخّار موجه يفيض عطاء دون توقف، حتى شهد بفضله القاصي والداني مسحت شمس هداه دياجير الجهل وأضاءت تعاليمه كل حنايا الروح والعقل.

منهله عذب لرواده ومنتجـع لقصّـاده. يزدحم أهـل الفضل في رحابه ويتشرفون بتقبيل أعتابه والكل يرجعـون بطـانـا مروّيـين يشهـدون بقـوة حجتـه وشـدة عارضته، يذعنون له تسليما واطمئنانا، ويعترفون بمرجعيته تقديراً واحتراماً.

لقد مني الإمام الصادق(ع) بعصر أقل ما فيه أنه عصر الاتجاهات غير المتجانسة فكان عليه السلام يجمع بين المتفرقات ويفرق بين المجتمعات.

مدرسة سيارة ولكنها شاملة ومستوعبه لكل ما تحتاجه الأمة في حاضرها ومستقبلها معبراً عن طموحها وتطلعاتها.

والده بقر العلم بقراً وأورثه ما عنده من أدب كأحسن ما يرام حتى بزّ الأولين والآخرين عدا ما استثني فإن الله تبارك وتعالى سخرّه لإكمال السلسلة وقيادة المرحلة.

يهدي التائهين من جانب ويعلم الجاهلين من جانب آخر.

يخاطب النـاس بقـدر عقـولهم ويؤدبهم. بحسب استعـدادهم يظهـر على الـزنادقة فيطبعّهم وعلى الفياهقة فيطوعهم وكم نصبوا له المكائد ليوقعوه فيها ولكنه كان أحذر من ذئب وأجرأ من أسد.

يعالج الأمور بحكمة علي وصبره وقوة الحسين وجهاده له من جده النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المثل الأعلى والقدوة الحسنى، لم تغرّه بهارج الدنيا وزينتها ولم يجر إلى بعض مزالقها وأثبت أنه الأعلم والأفقه بل الأستاذ الأوحد في تلك الدنيا التي كثر فيها العلماء وكانوا ظاهرتها الأبرز.

ولكنه استطاع بواسع علمه ورحابة صدره أن يستوعب الجميع ويعلم الأئمة المتأخرين، كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، ويثبت استاذيته للمدارس الفكرية والجامعات العلمية كلها حتى أصبح حديث الناس وشغلهم الشاغل، ولشدة إقبال الناس إليه وتتلمذ العلماء عليه وتأسيسه المدارس وتخريجه العلماء نسب المذهب الجعفري إليه وانعطف الموالون لأهل البيت إليه مع أنه جزء من السلسلة المباركة وليس أصلها لكن الوضوح الذي حدث في عصره والانتصار الثقافي الكبير الذي حققه جعل الاتجاه الثقافي والإعلامي يميل نحوه بالخصوص.

وعلى كلٍ فسوف نعرض على القارىء الكريم نتفاً من زنابقه وعطراً من وروده وحزمات من أزاهيره وقصدنا بذلك تعريف الأمة على قيادتها الحكيمة وحصنها الحصين.

راجين المولى جلّ شأنه أن يمتعنا بالأمن والاستقرار ونصر الإسلام وكبت الأعداء ببركة هذا الإمام الزاهد والراكع الساجد العالم المعلم الذي ملأ الدنيا وشغل الناس وأدب شيعته فأحسن تأديبهم.

بيت النبوه.. ميراث العظمة

ينحدر الإمام الصادق جعفر بن محمد الباقر من أسرة أغنت العالم بالكفاح والجهاد والعطاء وسنت للناس شرائع الحق ووجهت أنظار الأحرار إليها في حفظ الدماء والدفاع عن حقوق الإنسان المظلوم الذي يأكل قوته الأغنياء ويحتقره الملوك والأفراد.

فالإمام محمد بن علي زين العابدين الذي لقب بالباقر أتيحت له الفرصة ليبدأ بتأسيس الجامعة الإسلامية الأولى وفي حديقة الكوفة بالتحديد غير أنه أسس أسسها الأولى في المدينة وكان كلما رأى الانفراجات لصالحه بنى حجراً وأعلى مدماكاً وعلم علماً وزرع غراساً وبتسلسل الزمن بدأ التحول لصالح آل محمد وأتباعهم وبدأ نجم الدولة الأموية بالأفول.

ولد الإمام الصادق(ع) في سنة ٨٣ هـ ثلاث وثمانين للهجرة في أواخر الدولة الأموية المتداعية والتي لم يعد باستطاعتها متابعة الأحداث لانهماك زعمائها بالجواري الحسان واللذائذ الفانية، والتي سهلها وأمنها لهم سيل الفتوحات التي وصلت إلى إسبانيا في عهد هشام بن عبد الملك، وجيء بجواري إسبانيا الحسناوات وينقل التاريخ إن بنات الملوك وامراء المقاطعات في إسبانيا كانت الجارية على جمالها تعرض في سوق النخاسين بدمشق كل جارية بعشرين درهماً.

أقول إن هذا وأمثاله انهى الحكم الأموي عن التعرض للثورة الفتية وظن الحاكمون أن الدنيا لهم حانية وخالصة. فما راعهم إلا وصرف الدهر يعكر صفوهم ويبدل حلوهم مرا ورغد عيشهم ضنكاً ونكداً، مما سمح للإمام الباقر أن يدفع بالثورة الفتية من وراء الستار ويخلد إلى منبره يعلم ويرشد ويحث الناس على الجهاد والوقوف في وجه الظلمة.

ولد الإمام الصادق(ع) في هذا البيت الذي أصبح مزاراً للعارفين ومحجة لكل مريدي الوصول إلى الله وفي هذا الجو الزاخر بالعلم والتقوى نشأ الإمام الصادق وترعرع.

المحضن الدافيء

من الواضح أن طهارة الأبوين تنعكس على طهارة الوليد من هنا أكد الإسلام على استنقاء الأم الطاهرة مع الصلب الطاهر ليكون الانتاج طاهراً، وبما أن دنيا الأئمة مليئة بالطهارة كيف وهم القوم الذين اصطفاهم الله واختارهم لهداية خلقه وطهرهم من الرجس تطهيراً **﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾**، كان لابد أن تكون آثارهم طاهره وأولادهم طاهرين وأينما حلّوا وارتحلوا يملؤون الدنيا علماً وكرماً وفضلاً وينشرون البر والخير والإحسان.

مطهرون نقياتٌ ثيابهمُ تجري الصلاة عليهم إينما ذكروا

والده الإمام الباقر الذي لم يعرف عصره أفضل منه صدقاً وورعاً وعبادة وزهداً وتقوى وخوفاً من الله وشوقاً إلى رضوانه حتى قال محمد بن المكندر ما كنت أرى أن مثل علي بن الحسين عليهما السلام يدع خلفاً لفضل علي بن الحسين عليهما السلام حتى رأيت ابنه محمد بن علي[1].

والدته أم فروه بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر التي عرفت بصلاحها وطهارتها وفقهها وعبادتها.

لقد كانت السيدة أم فروه من النساء الصالحات العابدات التي ذاع صيتها في بعض مسائل الحج الشهيرة حيث أبوها فقيه المدينة وجدها محمد من هو المعروف بصلاحه وورعه. والذي استشهد على يد عمر بن العاص في مصر وكان صبياً قريباً لأمير المؤمنين(ع).

والمهم من ذلك كله إن هذه المرأة الصالحة والتي نشأت في ذلك البيت الصالح انتقلت إلى بيت النبوه ومعدن الرسالة فازدادت نوراً على نور وطهارةً على طهارة.

ولا غرابة بعد ذلك أن تنجب رجل العصور ومفخرة الدهور وعبقري الأمم من خلد الشيعة لخلوده وطابت أرومة آبائه وجدوده.

إمام الهدى والصدق وعلم الشريعة الحقه وإمام الطائفة المحقة بهي الأنوار وقائد الأخيار شمس

هداية الطريقة ومعلم سالكي الحقيقة الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه وعلى آبائه آلاف التحيات والصلوات.

التربية الصالحة

من المستحسن لكل علماء التربية أن يدرسوا الآثار التربوية عند أهل البيت عليهم السلام ليتعرفوا على الكنوز الكبرى في هذا المضمار وليلاحظوا سير التربية الناجحة والتي على أساسها حصل الانتاج في العبقرية والتفوق حيث لا نعرف مدرسة قدمت للبشرية نماذج صالحة في هياكل البشرية كما قدمت مدرسة النبوة التي جاء بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتزمها بعده أوصياؤه وأولياء الله على خلقه، ولقد كان لهذه التربية أثر صالح وكبير في حياة الأمة، ومن يستطيع أن ينكر قيمة هذه المدرسة فكرياً وتربوياً وقيمة روادها وطلابها وقيمة نتاجها المبارك.

ولو أردنا تعداد خريجي هذه المدرسة والذين تفوقوا فقط لعسر علينا العد، دعنا عن آل البيت فإنهم الكواكب المضيئة لهذه المدرسة والهياكل القوية التي غذت البشرية بسيل دافق من المعارف خلال القرون الماضية ولا تزال.

كما أنهم عليهم السلام لم يكتفوا بإلقاء المعارف التجريديه والذهنية على طريقة المتصوفيين واللاهوتيين بل قدموا لنا النوذج الحي والقدوة الحسنة.

هذا أمير المؤمنين علي(ع) يقول لأصحابه ما أمرتكم بشي إلا وكنت أول من أئتمر به وما نهيتكم عن شيء إلا وكنت أول من انتهى عنه.

إن آل البيت يقدّمون النموذج السلوكي ويطلبون منا أن نحذو حذوهم في تقديم هذا الشعار حتى لا يبقى هذا الشعار خاوياً من مضمونه وفارغاً من مصداقه.

وهنا لابد لنا من الإشارة إلى ما كتبه أحد أهم علماء التربية والذي له باع طويل في هذا الفن حيث يقول وهو الاستاذ (بستالوذي).

تتمثل لي التربية بشجرة مثمرة. بجانب جدول مياه جار وما أصلها إلا حبة صغيرة أودع الخالق فيها شكل هذه الشجرة وخواصها وأثمارها فلما غرست وتعهدها الزارع بما يساعد الطبيعة على عملها ظهرت تلك الحبة في شكل نبات ثم نمت وترعرت حتى كبرت وأينعت وأثمرت وما هي إلا الحبة الصغيرة مكبرة نامية.

وهذا هو الحال في الطفل الذي أودع فيه الخالق تلك القوى التي تنمو وتظهر معه بالتدريب فتنمو أعضاؤه وملكاته تدريجياً حتى يصبح من مجموعها وحده فيجب على المربي أن يساعد قوى الطفل البدنية

والأدبية والعقلية على النمو الطبيعي دون استعمال الطرق الصناعية، فينبغي أن ينمي الإيمان في الطفل لا بالكلام النظري بل بما ينشأ عليه الطفل بتصديقه الفعلي ورسوخ الاعتقاد في نفسه[٢].

هذا تمثيل حقيقي لعمل التربية في صفاء القوى الأدبية وما إليها، وهي لا تزال تعمل عملها حتى تعود الأدبيات ملكات راسخة وبذلك يتحقق الغرض الأسمى من التربية الأخلاقية الذي هو أن تستحيل الأفعال الأخلاقية الإرادية أفعالاً لا إرادية هذا الغرض التربوي هو الذي أراد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يشيعه في نفس الطفل الجديد من أبنائه ولذلك كان الإمام علي(ع) يمد أطفاله بالمعنويات المتدفقة حتى صارت أدبيات الإسلام في نفوس أطفاله من الصنف اللاإرادي.

وإذا كان الإسلام هو النظرية المثلى في التربية فآل البيت(ع) هم الأمثلة الحقيقية والصالحة لمصاديق هذه التربية، ولم يكن أهل البيت(ع) في تربيتهم يهملون جانباً على حساب جانب آخر من جوانب الطفل المعنوية وإنما كانوا يقومون بعملية تربوية متكاملة في الثقافة والوعي والنشاطين الذهني والعصبي حتى تتكامل وتنمو فيه كل مواهب الطفولة فيتكامل عقله وجسده فتقوى جرأته الأدبية ويشتد ساعده وعضلاته فيسدد سهام كلامه كما يسدد سهام قوسه.

ومن هنا لم يتفتح جانب من عضلات أطفال آل البيت على ضمور جانب آخر.

ولقد عرف عنهم اتقانهم لكل أنواع الرياضيات العسكرية المعروفة في زمانهم من حمل سيف أو رمح أو ركوب الخيل أو تسديد الرمي وللإمامين الباقر والصادق قصتهما المعروفة حينما وفدا على عبد الملك بن مروان الأموي، وأراد امتحانهما ليحط من شأنهما في نفوس الناس، فأخذ الإمام الباقر القوس وسدد رميته ثم أصاب الهدف خمس مرات متواليات. وكذلك فعل ولده الإمام الصادق وكان صغيراً وعندما سأل القوم عن كيفية تعلم هذه العلوم أجاب الإمام نحن قوم نتعلم هذه العلوم منذ صغرنا.

فبينما الوليد اليافع يعب من ينبوع المعرفة الإسلامية على لسان أبيه وإذ به يمارس أنواع الرياضيات العسكرية ويتقنها فهو ذو نشأة متكاملة عقلياً وذهنياً وجسدياً وهذا كثير في حياة الأئمة(ع).

أستاذية متفوقة وقابلية متميزة.

سألتني بعض الطالبات العراقيات وأنا أدرسهن كتاب إقتصادنا للشهيد السعيد السيد محمد باقر الصدر(رض) لماذا لم يوجد إلا علي واحد في الدنيا؟ فقلت سؤال وجيه، أن توجد الدنيا علياً آخر يحتاج إلى شروط غير متوفرة في غيره.

الأول: الأستاذ المعصوم والذي ينهل من معين السماء دون عد ولا حساب، وهذا ما سيمكن الأستاذ من

العطاء المطلق وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله [أدبني ربي فأحسن تأديبي].

ثانياً: استعداد التلميذ وقابليته والتي تتحمل استيعاب هذه العلوم والمعارف المطلقة.

ثالثاً: الجو الذي يمكن الأستاذ من إعطاء التلميذ ويمكن التلميذ من أخذ علومه من الأستاذ دون مانع.

وقد توفر هذا الجو لعلي(ع) دون سواه لأسباب كثيرة وبعض من توفر له شيء من الجو لم يتوفر له شيء من الاستعداد لاستيعاب المعارف اللدنية.

أما علي فقد عبّر عن هذا الجو التربوي الساحر في كثير من كلامه وأهمها انطباقاً قوله في نهج البلاغة.

«وقد علمتم موقفي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكتنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه وكان يمضغ الشيء ثم يلقمنيه وما وجد لي كذبةً في قول ولا خطلة في فعل ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيما أعظم ملك من ملائكته يسلك به سبل المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره وكنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور كل سنةٍ بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوّة ولقد سمعت رنّة الشيطان فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة فقال هذا الشيطان قد يئس من عبادته إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى، إلا أنك لست نبي وإنك لوزير وإنك لعلى خير[٣].

وهذا الكلام على إيجازه يعبر أصدق تعبير عن الشروط التي ذكرناها لاختنا الطالبة المؤمنة.

وبالطبع لم تقتصر هذه التربية على عليّ وحده فقد انتقلت منه إلى أولاده إمام بعد إمام.

فقد صح عن علي(ع) قوله علمني رسول الله ألف باب ينفتح من كل باب ألف باب من العلم.

واستطاع آل البيت(ع) والذين هم عيبة علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ينقلوا هذا التراث من العلوم من إمام إلى إمام عبر أساليبهم الخاصة.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قوله:

[إلا أن أبرار عترتي وأطايب أرومتي أحلم الناس صغاراً وأعلمهم كباراً لا تتقدموا عليهم فتهلكوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم[٥]

ويعني هذا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد تكفل بجعل أهل بيته أعلاماً للأمة جامعين مانعين وهيأهم لتكون لهم الرياسة والزعامة والولاية، وهذا لا يتم إلا أن يكون علمهم من طريق غير مألوف وقد عرف عنهم العدو والصديق انهم زقوا العلم زقا.

وقد سبر التاريخ أغوار حياتهم فما فيهم إلا العالم الأستاذ المتفوق في كل علوم عصره دون أن يدخلوا مدرسة أو يتتلمذوا على أستاذ ولقد عرف عن الإمام الصادق(ع) استيعابه لكل علوم عصره وقد شهد بهذا

القاصي والداني والعدو والصديق .

ومن أبرز مميزات عصر الإمام الصادق(ع) انه عصر العلوم وعصر الترجمة وعصر النشاط الثقافي الفلسفي والذي نشط فيه الزنادقة أيما نشاط لضرب الفكر الإسلامي كما هو واضح .

ولكن الإمام الصادق(ع) تصدى لهذه الظاهرة وادحضها فكرياً كما سيأتي في باب مناظراته .

فالحديث والتفسير والفقه والأصول وأصول الاعتقادات شيء كبير ولكن الإمام تعدى ذلك إلى بقية علوم العصر من علم الهيئة والكيمياء والفيزياء وقد أُثر عنه الشيء الكثير ويكفي أن ينقل عنه تلميذه ملهم الكيمياء جابر بن حيان أكثر من ألف صفحة في هذا الفن والذي لم يكن العرب يعرفون عنه شيئاً .

فمن أين للإمام الصادق هذه العلوم ومن أي مدرسة حظي فيها وحصل عليها ، واين هم أساتذته وهل يعقل أن يكون لديه كل هذه المعارف كما سنوضح ولا يوجد له أساتذة وهؤلاء لو وجدوا! لماذا يعلمونه وحده؟ وهل التي انتمى إليها له فقط وهل هناك فئة تحتكرها؟ مما يجعلنا نخلص من الظهر إلى اليقين ، أن آل البيت(ع) سلسلة ذات معدن خاص وقابلية متميزة استطاعوا استيعاب هذه العلوم الجمة عن طريق القوة القدسية التي أودعها الله فيهم فكانوا قمةً فريدة في الأخذ وقمةً فريدةً في العطاء .

النص المبارك

هل الإمامة بالنص أو بالشورى أو الذي غلب وانتصر وقهر الناس بسيفه يعين نفسه؟

هذه مسألة أخذت حيزاً كبيراً في الذهنية الكلامية وتشبث كل فريق بمواقفه ، وقدّم أدلة على صحة عقيدته وعلى أساسها تفرق الناس كل بحسب قناعته وتجزأت الأمة أجزاء متباينة وأفكاراً متباعدة .

ومهما كان فالإماميه الذين اتخذوا أهل البيت قدوة لهم يُقدّمون الأدلة الكافية لصحة مدعاهم ويثبتون بها لامزيد عليه أن الإمامة لا تكون إلا بالنص الشرعي المبارك من الله على نبيه ومن النبي على الأئمة واحد بعد الآخر ويعتقد الشيعة الإمامية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نصّ على الإمام علي(ع) يوم الغدير ونصّبه ولياً وحاكماً على المسلمين وقال صلى الله عليه وآله وسلم : [**من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه**] . وبايعه المسلمون جميعاً . كما نص عليه في مواقع أخرى كحديث المنزله ـ [**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي**] وبعد المبايعة لعلي نزل قوله تعالى : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾(٥) .

كما نصّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الحسنين في مرات متعددة وأمام جموع الصحابة ليذكرهم وليؤمن لهم الطريق فقال في حقهما [**ولداي هذان إمامان قاما أو قعدا**] وكثير غيرهما وانحدرت الإمامة من أمير المؤمنين(ع) إلى ولديه الحسن والحسين ، وهكذا إمام يعد إمام حتى نهاية العدد المبارك والذي يصل

إلى إثني عشر إماما بالإمام المهدي صاحب الزمان(ع).

النص على الإمام الصادق(ع)

يوجد نوعان من النصوص نوع عام ونوع خاص.

النوع العام: حديث اللوح والمروي عن جابر بن عبد الله الأنصاري كما رواه الصدوق(ع) عن أبيه الباقر(ع) أنه قال الإمام لجابر بن عبد الله الأنصاري أخبرني عن اللوح الذي رأيته في يد أمي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وما أخبرتك به قال جابر: أشهد بالله إني دخلت على أمك فاطمة في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اهنئها بولادة الحسن(ع) فرأيت في يدها لوحاً أخضر ظننت أنه زمرد ورأيت فيه كتاباً أبيض يشبه نور الشمس فقلت لها بأبي أنت وأمي يا بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ما هذا اللوح فقالت أهداه الله تعالى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه اسم أبي واسم بعلي واسم ابني واسم الأوصياء من ولدي فأعطانيه أبي ليسرني بذلك.

وقال جابر أن فاطمة أعطته إياه فقرأه وانتسخه وفيه أسماء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأثني عشر(ع) باعيانهم وصفاتهم[٦].

روى البخاري عن جابر بن سمره، قال سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: [**يكون اثنا عشر أميراً**] فقال كلمة لم اسمعها فقال أبي أنه قال: [**كلهم من قريش**][٧].

وفي صحيح مسلم بسنده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم [**لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش**][٨].

وفي رواية أحمد عن مسرون قال كنا جلوساً عند عبد الله بن مسعود وهو يقرئنا القرآن فقال له رجل يا أبا عبد الرحمن. هل سألتم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يملك هذه الأمة من خليفة؟ فقال عبد الله ما سألني عنها أحد منذ قدمت العراق قبلك ثم قال نعم ولقد سألنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اثني عشر كعِدّة نقباء بني اسرائيل[٩].

ولهذه الروايات نظائر كثيرة ومضامين عديدة ذكرها أبو داوود والبزار والطبراني وغيرهم وطرقها كثيرة وبخاصة في صحيح مسلم ومسند أحمد.

والذي يستفاد من هذه الروايات أن عدد الأمراء لا يتجاوز الإثني عشر وكلهم من قريش وهي نص عام ينطبق على الإمام الصادق(ع) كما ينطبق على غيره من الأئمة.

الأدلة الخاصة:

روى الكليني بسنده عن الصادق(ع) قال لما حضرت أبي الوفاة قال يا جعفر أوصيك بأصحابي خيراً، ومعلوم أنه عندما يوصي إليه بوصية بأصحابه كما قال علي(ع) عند البيعة الأولى عندما سأل عن الأنصار ومطالبتهم بالخلافة. قال سلوهم هل أن النبي أوصى بهم أولهم. قالوا ما علاقة هذا بالخلافة قال: عليه السلام لو أوصى لهم لما أوصى بهم.

ونقل ابن أبي الحديد قصة مشابهة بعد نقله الأولى عن عبد الملك بن مروان عندما مات أبوه وكان صغيراً فقال له البعض يا غلام لمن أوصى بك أبوك قال: إن أبي أوصى إلي ولم يوصي بي.

وذكر السيد الأمين في المجالس عن عدة روايات أن الباقر(ع) قال لما أقبل ابنه جعفر(ع) قال هذا خير البرية بعدي، وأوصى إليه أبوه الباقر(ع) وأشهد على وصيته واستودعه ما كان محفوظاً عنده من الكتب والسلاح وميراث الأنبياء[١٠].

وهناك أدلة عقلية كثيرة نتركها طلباً للاختصار وأهم ما فيها أن الإمام الصادق(ع) اثبت عصمته بسلوكه واسناديته بعلمه الجم الغزير وقيادته للمسيرة وعطفه عليها ومظهره الإسلامي الذي لا غبار عليه، ويكفي أن الإمام الصادق(ع) ناظر العلماء مجتمعين فبزّهم، والزنادقة فغلبهم وصمد في وجه العاصفة التي كادت تودي بالمسيرة فغير مسارها وصحح مواقف سلوك الأمة حتى خلصها من الأدران والأشواك التي علقت بها من جراء الجو التفاعلي الذي أوجده عصر الترجمة وانتشار الإسلام في بقعة كبيرة على سطح الكوكب الأرضي.

فبينما كان الأمراء والحكام غارقين في أجواء اللهو واللذة والطرب كان الإمام الصادق يناقش هذا ويدفع ذاك ويعلم العلماء ويرد أقاويل رهبان النصارى والدهريين والزنادقة وأحبار اليهود، وما ترك مكاناً إلا وعلم فيه علماً أورد فيه شبهه أو صحح فيه وضعاً.

فلو لم يكن عليه نص عام ولا نص خاص لكان له من فيض علمه وطهارة ذاته وصلابة موقفه واستيعابه لحركة الأمة نص جدير بأن يجعله الإمام العادل الذي يجب على الناس طاعته.

مدرسة العصمة

تعريف العصمة:

العصمة هي التنزه عن الذنوب صغائرها وكبائرها وعن الخطأ والنسيان، وإن لم يتمنع عقلاً على النبي أو الإمام أن يصدر منه ذلك بل يجب أن يكون منزهاً حتى عمّا ينافي المروّه كالتبذل بين الناس من أكل في الطريق أو ضحك عال وكل عمل يستهجن فعله عند العرف العام.

والدليل على وجوب العصمة: أنه لو جاز أن يفعل النبي أوالإمام المعصية أو يخطأ وينسى وصدر منه شيء من هذا القبيل: فإما أن يجب، اتباعه في فعله الصادر منه عصياناً أوخطأ أولا يجب، فإن وجب اتباعه فقد جوزنا فعل المعصية برخصة من الله تعالى بل أوجبنا ذلك وهذا باطل بضرورة الدين والعقل وإن لم يجب اتباعه فذلك ينافي فكرة النبوة والإمامة التي لابد أن تقترن بوجوب الطاعة أبداً.

على أن كل شيء يقع من النبي أو الإمام من قول أوفعل تحتمل فيه المعصية أو الخطأ فلا يجب اتباعه في شيء من الأشياء فتذهب فائدة البعثة(١١).

وعقيدتنا في آل البيت(ع) إنهم معصومون مطهّرون من الرجس تطهيراً وإنهم السلسلة الطاهرة التي شهد القاصي والداني بفضلهم وعلمهم وورعهم وكانوا الأعلام الهادية والشموس المضيئة تهدي الضالين وتنير الدرب للسالكين.

ورغم إقصائهم عن مناصبهم وإبعادهم عن مراكزهم ومحاربتهم على الوجوه ومن جميع الجوانب، ما استطاع مخالفوهم أن يذكروا لهم عيباً أونقيصة بل كانوا موضع الإعزاز والتقدير حتى عند أشدّ خصومهم وأعتى معانديهم.

وأما الإمام الصادق الذي كان النجم الساطع في القرن الثاني للهجرة فلم يسجل عليه الملاحظون إلا عدالته وعبادته وزهده وورعه وخلوصه لربه وارتفاعاً عن كل شين والتجمل بكل زين وكان طيلة حياته المثل الأعلى والقدوة الحسنة.

الأدلة على عصمة آل البيت(ع)

١ ـ آية التطهير: وهي إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا(١٢)، وتقريب الإستدلال بها على عصمة آل البيت(ع) ما ورد فيها من حصر إرادة ذهاب الرجس ـ أي الذنوب عنهم بكلمة إنما وهي من أقوى أدوات الحصر واستحالة تخلف المراد عن الارادة بالنسبة له تعالى من البديهيات لمن آمن بالله عز وجل وقرأ في كتابه العزيز.

﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾(١٣).

ونخرجها على أساس فلسفي من البديهيات أيضاً لمن يدرك أن إرادته هي العلة التامة أو آخر اجرائها بجميع مخلوقاته واستحالة تخلف المعلول عن علته من القضايا الأولية ولا أقل من كونها من القضايا المسلمة لدى الطرفين كما سبقت الإشارة إلى ذلك وليس معنى العصمة إلا استحالة صدور الذنب عن صاحبها عادةً(١٤).

إذاً ثبت بالنص القاطع الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، إن

هذه الأنوار الإلهية والهياكل القدسيه شاءها الله أعلاماً للأمة ومناراً يمسح عنها مملوكات الظلام .

وإذا كان الإمام الصادق إحدى حلقات هذه السلسلة فلا بد أن ينعكس علمه وخلقه وطيب أحاديثه وعطورة أخلاقه على الأمة ولقد كان كذلك .

فالإمام الطاهر المعصوم عكس طهارته على شيعته وجماعته فأدبهم ودفعهم نحو ارتكاب الطاعة وترك المعصيـة بل راقب سلوكهم فكـان أحيـانـاً يمنعهم حتى من ارتكـاب المكروه أو يحثهم كثيراً على ما يقرب النـاس لآل البيت الذين هم ورثـة النبي صلى الله عليه وآله وسلم حقـاً ومدرسة العصمة عندما تقود حركة الأمة سوف توصلها إلى الشاطىء الأمين وتمنعها الورود في حياض المذلة والمهانة .

فالقائد المعصوم دائماً يصحح المسيرة ويحفظها من المتاهات ويدفع عنها عاديات الزمن .

ومن هنـا كان الإمـام الصـادق(ع) يقوم بدورين الأول حفظ المسيرة من الانحراف فكرياً وسلوكياً . والثـاني حمايتهـا من سهـام الأعـداء والتي كانت توجـه إليهـا فكـريـاً لارغامها على التراجع أو العمل على تحجيمهـا وكـانت مواقف الإمـام أكثـر وضـوحـاً وأشد ثباتاً في حماية الشريعة والدفاع عنها في حال ظل أهل الحكم والحكـومـة مشغـولـين بلذات الجواري الحسان والحدائق الغناء مع عزف طنبور ورقص مخمور وغناء المخنثـين حتى كأنـك لا ترى في قصـور هؤ لاء شيئاً للخلافة الإسلامية ومقامها السامي فضلاً عن اهتمامها بحماية المسيرة أو الدفاع عنها .

أمـا الإمـام الصـادق(ع) فكـان القلب النـابض والـروح الخلاقة والفارس المقدام في حماية أمة جده ورسالته المباركة وهكذا كانت مواقف آبائه وأجداده انصهاراً كاملاً في الإسلام وذوباناً مطلقاً في الله حتى نما الإسلام وارتفع بناؤ ه ودوى صوت القرآن وسمع نداؤ ه .

الجامعة الكبرى

ليس مبـالغـةً إذا قيـل عن مدرسة الإمام الصادق(ع) بأنها جامعة إسلامية كبرى خلّفت ثروة علمية وخـرجت عدداً وافـراً من رجـال العلم وأنجبت خيرة المفكرين وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء وقد عدت أسـماء تلامـذتـه والمتخـرجين من مدرسته فكانوا أربعة آلاف رجل[15] . قال الشيخ المفيد : في الإرشاد : إن أصحـاب الحـديث قد جمعـوا الرواة عن الصادق(ع) من الثقات على اختلافهم في الآراء والمغالات فكانوا أربعة آلاف رجل[16] .

وقـال الشهيـد في الـذكـرى : إن أبا عبد الله الصادق جعفر بن محمد كتب من أجوبة مسائلة أربعماية مُصَنِّف لأربعماية مصنِف ودون من رجاله المعروفين أربعة آلاف رجل من أهل العراق [illegible] از[17] .

والبحث عن هذا النوع كبير وطويل ولسنا في صدد الاستقصاء لكننا نمر عليه كمقدمة.

وعلى أي حال فإن مدرسة الإمام الصادق كانت مصدراً وينبوعاً يفيض على الأمة بالعلوم والمعارف الإسلامية بل أغدقت على العالم الإسلامي خدماتها الجليلة في بث روح تلك التعاليم القيمة في عصر ازدهر فيه العلم وأقبل المسلمون على انتهاله.

ولو تسنى لمدرسة الإمام الصادق(ع) الظهور التام لأدت رسالتها على أحسن ما يتطلبه واقع المسلمين وما هم فيه من الحاجة إلى نشر التعاليم القيمة في بث روح الأخوة الإسلامية والعدالة الاجتماعية ومحو المعتقدات الفاسدة ولكن بمزيد من الأسف إن السلطة الحاكمة قد اتخذت جميع التدابير لمحاربة تلك المدرسة لأن شهرة الإمام الصادق(ع) في العالم الإسلامي كانت تقض مضاجعهم وتبعث في قلوبهم الوجل من نشاطه العلمي، إلى جانب ما لأهل بيته من النشاط السياسي. ولهذا فقد كانوا يضعون الخطط التي يأملون فيها الوصول إلى غلق أبواب تلك المدرسة والقضاء على الإمام الصادق بكل وسيلة، لأن الأنظار أصبحت متجهةً إليه وكانت وفود رجال الأمة وطلاب العلم يتسابقون إلى الحضور عنده والاستماع إليه والاستفادة منه حتى كان ذكره حديث الركبان وكانت أندية العلم في العواصم الإسلامية تلهج بذكره وينتهي الاحتجاج بالاستشهاد بقوله.

والحقيقة، إن مدرسة الإمام جعفر الصادق(ع) الفكرية قد أنجبت خيرة المفكرين وصفوة الفلاسفة وجهابذة العلماء وإذا كانت هناك حقيقة يجب أن تقال: فهي:

إن الحضارة الإسلامية والفكر العربي مدينان لهذه المدرسة الفكرية بالتطور والخلود والتراث النفيس.

كما أنها وجهت الأمة إلى قواعد الاستنباط ونقد الحديث وبعثت على النشاط في مجال التأليف، وتبويب الأحكام فكانت ملتقى العلماء ومجمعاً لطلاب المعرفة، رغم تلك المحاولات التي تبذل في طريق شهرتها والوقوف أمام انتشار ذكرها. ولا بد من الإشارة بأن مدرسة الإمام الصادق(ع) كان طابعها الذي اختصت به هو استقلالها الروحي وعدم خضوعها لنظام السلطة ولم تفسح المجال للسلطة الجائرة أن يتدخلوا في شؤونها أو يكون لهم أي مشاركة في توجيهها[١٨].

وقد بذل المنصور كل ما بوسعه لكسب رضا الإمام فلم يفلح وبقي الإمام عالماً قائماً بذاته مستقلاً في فكره ومسيرته غير خاضع لأي تأثير داخلي أو خارجي وغير خاضع لأي ضغط مادي أو معنوي.

الثورة الهادئة

للثورة أسلوبان: الأول اسلوب العاصفة التي تقلب الأوضاع بسرعة أو تنتحر. الثاني اسلوب

الشمس التي تنفث بحرارتها ودفئها فتغلب وتنتصر.

ولقد ذكر لكل اسلوب محاسنه ومساوئه وإيجابياته وسلبياته. فالثائر العاصف يظهر للناس والهادىء يستتر أحياناً ويظهر حيناً آخر وربما يضطر إلى مسايرة السلطة أو اظهار نفسه معها يتربص بها الدوائر حتى إذا جاءت الساعة المشروطة انقض عليها انقضاض الباشق أو الصقر وأجهز على خصمه.

الثورة العاصفة تبدأ بمهاجمة خصومها من بعيد والهادئة تهاجم من الداخل وعن طريق فك الارتباط بينها وبين من يعمل لها ويدعمها. الثورة الهادئة تعمل كالعاصفة على تدمير الخصوم لكن الأولى تدمر بقوة والثانية تفتت بقوة ولكن ببطء.

وقد ذكر للثورة الهادئة قوتها وتأثيرها بل أفضليتها على الثورة العاصفة وذكر بعضهم هذا المثل: «الشمس والريح».

وقال إن الشمس والريح رأيا شخصاً متأبطاً معطفاً صوفياً فقالت الشمس للريح أتستطيعين أن تنتزعي منه هذا المعطف قالت الريح نعم وبدأت بإرسال نفحاتها الباردة وكان الرجل كلما جاءته البرودة وأحس بقوة الريح تشبث بمعطفه أكثر فأكثر حتى عجزت الريح عن انتزاع معطفه وعندئذٍ تدخلت الشمس فنفثت شيئاً من حرارتها مما جعل صاحب المعطف يترك التشبث به ثم تركه وكان كلما قويت الحرارة ينزع منه شيئاً حتى ألقاه جانباً وأحياناً لا يعرف الناس قيمة، للثورة الهادئة بل ربما كانوا ينحون باللائمة على أصحابها وأنهم متقاعسون بينما يكون أصحاب الرؤيا الثاقبة أكثر ثورة إلا أنهم لم يكن بحسب رؤيتهم أن المقدمة الجهوزية تامة فيعملون على إكمالها وجهوزيتها، ومن الطرائف أن بعض العلويين على غزاة علمه لم يكن يلتفت إلى هذه القاعدة وكان يرى أن طريقته هي الصواب في العمل الثوري وإن الثوري هو الذي يحمل السيف وينزل إلى المعركة ويثير الناس في مواجهة الظالم والآخرون قاعدون.

وفي مقدمة الصحيفة السجادية حديث من هذا النوع عن يحيى بن زيد بن علي بن الحسين(ع) الذي كان ثائراً على طريقة أبيه زيد(ع) الذي قتله الأمويون.

في الصحيفة حديث طويل نقتصر على آخر الخبر.

حدثني أبي المتوكل قال لقيت يحيى بن زيد بن علي بن الحسين رضي الله عنه بعد قتل أبيه وهو متوجه إلى خراسان فسلمت عليه. فقال: من أين أقبلت. فقلت: من الحج. فسألني عن أهله وبني عمه فأخبرته بخبرهم وحزنهم على أبيه. فقال: كان عمي رضي الله تعالى عنه يعني أبا جعفر رحمه الله. أشار على أبي بترك الخروج وعرّفه ما صار إليه أمره فهل لقيت ابن عمي جعفرا. قلت: نعم. قال: فهل سمعته يذكر شيئاً من أمري، قلت: جعلت فداك، ما أحب أن استقبلك بما سمعت منه فتبسم ثم قال: أبالموت تخوفني هات ما سمعته يقول. فقلت له: سمعته يقول (أنك تقتل قِتلَة أبيك). فقال: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ يامتوكل إن الله أيَّدَ هذا الدين بنا وجعل لنا العلم والسيف وجعل لبني عمنا العلم

وحده، فقلت: جعلت فداك إني رأيت الناس إلى إبن عمك أميل منهم إليك وإلى أبيك. فقال: إن ابن عمي وأباه دعوهم إلى الحياة ونحن دعوناهم إلى الموت. فقلت: فهم أعلم أم أنتم. فأطرق ملياً ثم رفع رأسه فقال: كلنا له علم غير أنهم يعلمون كل ما نعلم ولا نعلم كل ما يعلمون(١٩).

أقول هذا الفهم سرى حتى إلى هؤلاء الثوار الكبار دون أن يدرسوا طبيعة المعركة ورأوا أن الثورة هي الخروج بالسيف فقط دون الالتفات إلى الأسباب والمقدمات والإعداد والظروف المؤاتية فقد يأتي الثائر عشرة وعشرون ويزينون له الخروج فيخرج في عملية انتحارية ثم يذهبون إلى ربهم دون أن تؤثر ثورتهم في الجماهير شيئاً، ومن المعلوم أن الثورة بهذا المستوى لا تغير في الواقع الجائر شيئاً وإن كانت تهز بعض جوانب الناس العاديين.

أما الثورة الحقيقية، فهي الثورة الواعية والتي تبدأ بتوعية الجماهير حتى تصبح القاعدة صلبة وقوية وكبيرة والتي فيما إذا انتصرت تتمكن من إمساك الإدارة والسياسة لا أنها تثور تقتل تدمر ولا تحسن من أمر الإدارة شيئاً.

ولقد كان الإمام الصادق يعمل على هذه الوتيرة ويهيء الكوادر التي تستلم هذه المؤسسات في المستقبل، وما ذكرناه عن إعداد الكوادر العلمائية كان يصب في خدمة الثورة، لكن لما كانت الثورة الهادئة لا تنتج سريعاً وتتربص الدوائر للانقضاض على الخصوم كان الكثيرون يغفلون عن نتائجها، وربما يجهل المقربون أهدافها واستراتيجيتها، ومع أن الإمام كان ذا طريقة هادئة كما ذكرنا كان يتعاطف كثيراً مع الثوار الأحرار ويدافع عنهم وعن مسيرتهم ويدعو لهم ويبارك عملهم ويأمر شيعته باتباعهم وإعانتهم لأنه كان يعتبر أن مثل هذه الثورات هي التي تحدث هزة كبيرة في الوجدان الشعبي الذي يهيء الجو لإحداث الثورة الشعبية الكبرى.

وبعض الثورات لم يكن لها طابع عام وشمولي كثورة زيد بن علي(ع) الذي كان طابعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما ذكر ابن الأثير في الكامل عن زيد قوله: «ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن اجتمونا سعدتم وإن أبيتم فلست عليكم بوكيل(٢٠).

وقال الطبري «وكانت بيعته التي يبايع الناس عليها إننا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم وجهاد الظالمين والدفاع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ورد الظالمين وإقفال المجمر، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا(٢١).

وبما أن هذه الثورات كانت مشاعل تهدي المضللين ومقدمة تمهيدية للثورة الكبرى احتضنها الإمام وأيد عمه زيداً سراً لأن وضعه لم يكن ليسمح له بتأييد عمه زيداً علانية، وثناء الإمام الصادق على عمه زيد ورعايته لأسر الشهداء الذين استشهدوا معه دليل احتضانه لهذه الثورة الإسلامية المفجعة.

وإليك بعض النماذج من أقواله وأفعاله ومواقفه تجاه الثورة الزيدية.

عن فضيل الرسان قال دخلت على أبي عبد الله(ع) بعد ما قتل زيد بن علي، فأُدخلت بيتاً جوف بيت فقال لي: يا فضيل قتل عمي زيد؟ قلت نعم جعلت فداك.

قال إنه كان مؤمناً وكان عارفاً وكان عالماً وكان صدوقاً أما أنه لو ظفر لوفى أما أنه لو ملك لعرف كيف يضعها[٢٢].

ومع كثرة الثورات العلوية لم نجد الإمام يولي مزيد عناية لثورة كثورة زيد فقد روى عبد الرحمن بن سيابه قال: دفع لي أبو عبد الله(ع) ألف دينار وأمرني أن اقسمها في عيال من أصيب مع زيد.

وقول الإمام في حق عمه زيد كما ذكر يؤكد أن زيداً عمه كان معروفاً في نهجه وصلاحه وأنه لا يدعو لنفسه وإنما يدعو لخط الإمامة والمتمثل يومها في الإمام الصادق(ع) ولذا وقف الإمام منه هذا الموقف مع علمه بأنه لن يؤثر وأنه سيقتل لكن المهم أن مثل هذه الثورات تمنع الجو من التلبد في الغيوم ويبقى الإنسان من خلالها يشعر ويتألم لجور الجائرين وظلم الظلمة.

الايجابية الفاعلة

بما أن الرسالة الإسلامية صيغة فريدة لتربية الإنسان لاخراجه من الوحول الجاهلية الآسنة والارتفاع به إلى أجواء الكمالات والفضائل كان لابد أن يكون لهذه الرسالة قادة عقائديون بمستوى القمة ليقدموا النموذج الأفضل في التربية والسلوك الظاهر وقمة فريدة في التفاني في حفظها والدفاع عنها.

وحيث لم يوفق أهل البيت(ع) للإمساك بزمام الأمور وقيادة التجربة الإسلامية من القمة إلى القاعدة وإزالة الأشواك والعراقيل في طريق هذه التربية الفريدة لتخرج نقية صافية كأفضل ما يكون، وقفوا في وجه دعاة الزندقة والتخريب كأشد ما يكون ومنعوهم من بث سمومهم الفكرية في أذهان الأمة.

فبينما يغرق الحاكمون في بحور اللذة الجنسية ومتع الحياة وزينتها ويدعون الفرصة سانحةً لكل السموم المعادية أن تفتك في جسم الأمة وتهدِّم في كيانها الفكري ما استطاعت.

يقف أهل البيت(ع)، من هؤلاء موقف الأسود الضياغم يذودون عن حياض الإسلام ويمنعون هؤلاء اللئام من التفرد بأيتام الأمة وفقرائها.

ودور الأئمة يتلخص بأمرين الأول محاولة القضاء على الانحراف وإرجاع الوضع السياسي إلى ما كان عليه أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الأمر الثاني تعميق الرسالة فكرياً وروحياً وسياسياً في حياة الأمة.

ولا يتم الأمران إلا بدفع غوائل الزمان وعاديات الأحداث ودحر الزنادقة وكل المشوهين فكرياً الذين يتربصون بالإسلام الدوائر للانقضاض عليه.

وفي عصر الإمام الصادق(ع) حيث الترجمة للفلسفة الإغريقية والهندية والفارسية وحيث انتشار الإسلام في بقعة أكبر وحيث ورود المعتقدات والديانات بعضها في بعض ظهر جو الزندقة والإلحاد وظهرت المانوية والمزدكية ونشط علماء اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة في بث أفكارهم وسمحت الحكومات المتسلطة لمثل هذه الأفكار من الانتشار ودعمت جهات علمائية وفقاهتيه مقابل مدرسة أهل البيت(ع) الذين كان عليهم أن يدافعوا عن الطرح الإسلامي الأصيل فيردوا شبهات الملاحدة والزنادقة ومن جانب آخر يبينون لعلماء الأمة وفقهاء العامة أحقية أهل البيت(ع) في منصب الإمامة وأنهم السلسلة الطاهرة التي شرفها الله وعصمها من الذنوب.

ولقد كان للإمام الصادق(ع) مواقف واضحة من الجميع فهو تارة يرد شبهات الزنادقة كابن المقفع وابن أبي العوجاء وغيرهما وتارة يرد شبهات الفياهقة من الذين نصّبهم الحكام قضاةً على الناس مقابل مدرسة آل البيت(ع)

بعض مناظرات الإمام الصادق(ع)

وقد وجد الزنادقة في الإمام الصادق أخطر خصم يواجهونه في حربهم للإسلام فكانوا يحاولون إثارته بجدلهم المتعنت وتحدياتهم الهوجاء، وكان الإمام يجيبهم بكل هدوء وثقة واطمئنان مما جعلهم يذعنون تقديراً واحتراماً. فقد ورد ان ابن المقفع وهو من اقطاب الزنادقة في عصر الإمام قال: «هذا الخلق وأومأ بيده إلى موضع الطواف ما منهم أحد أوجب له اسم الإنسانية إلا ذلك الشيخ الجالس يعني الإمام الصادق(ع) فأما الباقون فرعاع وبهائم»[٢٣].

ويتساءل ابن أبي العوجاء كيف أوجبت هذا الإسم لهذا الشيخ دون هؤلاء قال ابن المقفع لأني رأيت عنده مالم أره عندهم.

فقال ابن أبي العوجاء لا بد من اختيار ما قلت فيه منه فقال له ابن المقفع لا تفعل فإني أخاف أن يفسد عليك ما في يدك.

فقال له ابن المقفع وكيف ذلك؟ قال: جلست إليه فلما لم يبق عنده غيري ابتدأني فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء مشيراً لمن في المطاف وهو كما يقولون فقد سلموا وعطبتم، وإن يكن الأمر على ما تقولون وليس كما تقولون فقد استويتم وهم.

فقلت يرحمك الله وأي شيء نقول وأي شيء يقولون ما قولي وقولهم إلا واحد.

فقال كيف يكون قولك وقولهم واحداً، وهم يقولون إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً ويدينون بأن في السماء إلهاً، وإنما عمران وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد، قال: فاغتنمتها منه وقلت له ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه ويدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف عليه منهم اثنان، ولم أحتجب عنهم وأرسل إليهم الرسل ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به؟

فقال لي ويلك وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك ولم تكن وكبرك بعد صغرك وصحتك بعد سقمك ورضاك بعد غضبك وغضبك بعد رضاك وحزنك بعد فرحك وفرحك بعد حزنك وحبك بعد بغضك وبغضك بعد حبك وعزمك بعد أناتك وأناتك بعد عزمك وشهوتك بعد كراهتك وكراهتك بعد شهوتك ورغبتك بعد رهبتك ورهبتك بعد رغبتك ورجاؤك بعد يأسك ويأسك بعد رجائك وخاطرك بما لم يكن في وهمك وغروب ما أنت معتقده في ذهنك وما زال يعدد عليّ قدرته التي هي في نفسي حتى ظننت سيظهر فيما بيني وبينه[٢٤].

وينهزم ابن أبي العوجاء أمام هذا المنطق الفطري الرائع ويؤخذ لا شعورياً ببساطة الحجة التي أغلقت في نفسه منافذ الشك والاعتراض فتعقد الحيرة لسانه وتختلط عليه مواقف الحوار ـ ليتصور أن الذي يحاوره إنسان ولكن ليس من جنس البشر.

اكتفي بنقل هذا النموذج من المحاورات لأنتقل إلى محاورته الكلامية الأخرى مع العلماء والفقهاء.

للإمام مناظرات علمية واسعة مع علماء وأئمة المذاهب المنتشرة في العالم الإسلامي آنذاك.

وقد اهتمت الدولة العباسية على وجه الخصوص بتأييد المدارس الأخرى وإهمال مدرسة آل البيت بل حاولت جهدها جعل المدرسة التابعة للدولة مقابل مدرسة آل البيت حيث قامت بتحويل أنظار الناس باتجاه المدارس الأخرى وكان أبوحنيفة في رأس القائمة من المدارس الأخرى وقد حاول الحكم منح أبي حنيفة لقب الإمام الأعظم ليوهنوا من قدرالإمام الصادق وأبنائه. ولكن الإمام كان واثقاً من علمه يناظر ويعلم ويبين للناس خطأهم.

مرات عديدة جمع المنصور العلماء لمناظرة الإمام الصادق ويرجعون منهزمين يلعنون الساعة التي جلسوا فيها للمناظرة.

أبوحنيفة كان قطباً كبيراً من أقطاب مدرسة الرأي يدخل مع عبد الله ابن شبرمة على الإمام الصادق(ع). قال الإمام لابن أبي ليلى من هذا معك؟

قال هذا رجل له بصر ونفاذ في الدين: قال الإمام لعله يقيس الدين برأيه، قال: نعم. فقال الإمام جعفر لأبي حنيفة ما اسمك؟ قال نعمان قال الإمام هل قست رأسك بعد؟ قال كيف أقيس رأسي قال الإمام ما أراك تحسن شيئاً. قال علمت ما الملوحة في العينين والمرارة في الأذنين والحرارة في المنخرين

والعذوبة في الشفتين؟ قال لا . قال الإمام : ما أراك تحسن شيئاً!!! قال فهل علمت كلمة أولها كفر وآخرها إيمان؟فقال ابن أبي ليلى يابن رسول الله أخبرنا عن هذه الأشياء التي سألتنا عنها قال الإمام : أخبرني أبي عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الله تعالى بمنه وفضله جعل لابن آدم الملوحة في العينين لأنهما شحمتان ولولا ذلك لذابتا وإن الله تعالى بمنه وفضله ورحمته على ابن آدم جعل المرارة في الأذنين حجاباً من الدواب فإن دخلت الرأس دابة والتمست الدماغ فإذا ذاقت المراة خرجت وإن الله تعالى بمنه وفضله ورحمته على ابن آدم جعل الحرارة في المنخرين يستنشق بها الريح ولولا ذلك لأنتن الدماغ وإن الله تعالى بمنه وكرمه ورحمته لابن آدم جعل العذوبة في الشفتين يجد بها استطعام كل شيء ويسمع الناس بها حلاوة منطقه .

قال : أخبرني عن الكلمة التي أولها كفر وآخرها إيمان قال الإمام : إذا قال العبد لا إله فقد كفر فإذا قال لا إله إلا الله فهو إيمان .

ثم أقبل الإمام على أبي حنيفة فقال يا نعمان حدثني أبي عن جدي : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال أول من قاس أمر الدين برأيه إبليس قال الله تعالى : **﴿اسجد لآدم فقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾** فمن قاس الدين برأيه قرنه الله تعالى يوم القيامة بإبليس لأنه أتبعه بالقياس .

وزاد ابن شبرمة في حديثه : ثم قال جعفر أيها أعظم قتل النفس أو الزنا؟ قال أبو حنيفة : قتل النفس

قال الإمام : فأن الله عز وجل قبل في النفس شاهدين ولم يقبل في الزنا إلا أربعة . ثم قال الإمام أيها أعظم الصلاة أو الصوم؟ قال أبو حنيفة الصلاة قال الإمام فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة فكيف ويحك يقوم لك قياسك اتق الله ولا تقس الدين برأيك(٢٥) .

هذا غيض من فيض وبعض من كل وقليل نزر من كثير فائض صدر عن مجالس الإمام والتي كانت مدرسة علمية في هذا الفن اقتصرنا على القليل لأن موضوعنا الإيجاز لا التفصيل .

نتف الزنابق

لعلاقة الإمام الصادق المتينة والمخلصة بالله تحول ينبوع حكمه ومصدر الهام وكانت الحكم تصدر عنه كما يصدر الكلام العادي ، وأسلوبه السهل الممتنع في الحكم والأمثال والمعارف الكبرى هو الذي ميزه عن غيره من العلماء والمفكرين في عصره وغير عصره .

ولا تزال وصاياه وتعاليمه العاملة منارات تشرق على القلوب المظلمة فتضيئها وينابيع تتحدر نحو الأرواح العطشى فترويها .

وصيته لعنوان البصري

وعنوان شيخ بصري قدم المدينة لطلب العلم اتصل بمالك بن أنس ثم اتصل بالإمام الصادق(ع) فقال له الإمام إنني رجل مطلوب للسلطان وعليّ أوراد وأنا ضنينٌ بنفسي ووقتي وقد كنت تختلف إلى مالك فاذهب إليه وتعلم منه. يقول عنوان ذهبت منزعجاً وقلت في نفسي لو أن الإمام تفرس بي خيراً لما طردني عن بابه فبقيت لا أخرج إلا للصلاة المكتوبة، وبعد مدة ذهبت إلى قبر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصليت ودعوت الله تحت قبة النبي ودعوت اللهم بحق صاحب هذا القبر اعطف عليّ قلب جعفر بن محمد. ثم ذهبت فقرعت الباب خرج الخادم قال ماذا تريد قلت السلام على الشريف قال مكانك ثم ذهب وعاد وقال لي تفضل فدخلت فوجدت الإمام جالساً على مصلاه قلت السلام على الشريف قال لي لا تقل الشريف وقل أبا عبد الله. ثم قال الإمام ما اسمك؟ قلت عنوان قال ما كنيتك قال أبو عبد الله قال ثبت الله كنيتك فقلت في نفسي لو لم أحصل من الإمام إلا هذا الدعاء لكفى. ثم قال ما تريد قلت العلم مما علمك الله فقال له الإمام إذا أردت العلم فاطلب من نفسك أولاً حقيقة العبودية. فقال عنوان وما حقيقة العبودية فقال الإمام: ثلاثة أشياء الأولى أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوّله الله ملكاً لأن العبيد لا يكون لهم ملك بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً وجملة اشتغاله هي فيما أمر الله به ونهاه عنه وإذا لم ير العبد فيما خوله الله ملكا هان عليه الانفاق فيما أمره الله.

وإذا فرض تدبير نفسه إلى مدبره هانت عليه مصائب الدنيا.

وإذا اشتغل العبد فيما أمر الله به ونهاه عنه لا يتفرغ إلى المراء والمباهات مع الناس فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا فلا يطلبها تفاخراً وتكاثراً ولا يطلب عند الناس عزاً وعلواً ولا يدع أيامه باطله فهذا أول درجة المتقين.

قال الله تعالى: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾**.

فقال عنوان أوصني: فقال الإمام أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها ثلاثة منها في رياضة النفس وثلاثة منها في الحكم وثلاثة منها في العلم فاحفظها وإياك والتهادن بها.

أما اللواتي في الرياضة: فإياك أن تأكل ما لاتشتهيه فإنه يورث الحماقة والبله ولا تأكل إلا عند الجوع وإذا أكلت فكل حلالاً وسم الله واذكر حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه فإن كان ولا بد فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه.

وأما اللواتي في الحلم فمن قال لك: إن قلت واحدة سمعت عشراً فقل له: إن قلت عشرا لم تسمع واحدة ومن شتمك فقل له إن كنت صادقاً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لي وإن كنت كاذباً فيما تقول فأسأل الله أن يغفر لك.

ومن وعدك بالخيانة فعده بالنصيحة والوفاء وأما اللواتي في العلم فأسأل العلماء ما جهلت وإياك أن تسألهم تعنتاً وتجربة وإياك أن تعدل بذلك شيئاً وخذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلاً وأهرب من الفتيا فرارك من الأسد ولا تجعل رقبتك للناس جسراً(٢٦).

نتف الزنابق

حكـــم العارفين

١ ـ أفضـل الملوك من أعطي ثلاث خصـال: الـرأفـة والجود والعدل ـ وليس يُحب للملوك أن يفرطوا أي، يقصروا في ثلاث حفظ الثغور وتفقد المظالم واختبار الصالحين لأعمالهم.

٢ ـ ثلاثة لا يعذر المرء فيها: مشورة ناصح ومداراة حاسد والتحبب إلى الناس.

٣ ـ احذر من الناس ثلاثة: الخائن والظلوم والنمام لأن من خان لك خانك ومن ظلم لك سيظلمك ومن نمّ إليك سينم عليك.

٤ ـ ثلاثة من تمسك بهن نال من الدنيا بغيته من اعتصم بالله ورضي بقضاء الله وأحسن الظن بالله.

٥ ـ إذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة أشياء تعرضوا لدخول الوهن عليهم وشماتة الأعداء بهم وهي ترك الحسـد فيما بينهم لئلا يتحـزبـوا فيتشتت أمـرهم والتـواصـل ليكون ذلك حاوياً لهم على الإلفة والتعاون لتشملهم العزة.

٦ ـ ثلاثة لا يصيبون إلا خيراً: أولو الصمت وتاركوا الشر والمكثرون ذكر الله عز وجل ورأس الحزم التواضع.

٧ ـ إن خير ما ورث الآباء لأبنائهم الأدب لا المال فإن المال يذهب والأدب يبقى.(٢٧).

نكتفي بهذا العـرض المـوجـز وإلا فحكمـه ملأت الـدهر وزينت جيد الأداب بالفخر. وزنابقه فائح أريجها مخضرة مروجها.

ألسنةُ الخلق أقلام الحق

لقـد اخـترق نور الإمـام الصـادق حجبـات القلوب ونـوّر حناياها وأضاء مالك الدروب، وأشعل

خفـايـاهـا حتى أجمـع محبوه ومبغضوه على احترامه وكان كلما ذكر في محفل ينهمر الثناء عليه انهماراً ويزداد له القوم احتراماً وتقديراً وإكباراً .

ولم تقف الحالة عند أهل زمانه بل سارت محبته عبر الأجيال اللاحقة ولم يخف ذلك على دارسيه من المسلمين وغيرهم فأذعنوا له طوعاً وقرظوه محبةً وكرما ومدحوه لأنه أهل للمدح .

أقوال العلماء فيه :

في كل زمان رجل من أهل البيت يحتج الله به على خلقه وحجة زماننا ابن أخي جعفر الذي لا يضل من تبعه ولا يهتدي من خالفه ——————— زيد بن علي بن الحسين

كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين . ——— عمر بن المقدام

«جعفر بن محمد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلا على إحدى ثلاث خصال إما مُصلٍّ وإما صائم وإما يقرأ القرآن وما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمد الصادق علماً وعبادة وورعا . ——————————— مالك بن أنس

ما رأيت أفقه من جعفر بن محمد لما أقدمه المنصور بعث إليّ فقال يا أبا حنيفة إن الناس قد افتتنوا بجعفـر بن محمـد فهيء له من المسـائـل الشداد فهيأت له أربعين مسألة ، ثم بعث إليّ أبو جعفر وهو بالحيرة فأتيته وجعفر بن محمد جالس عنده على يمينه فلما أبصرته دخلني من الهيبة لجعفر بن محمد مالم يدخلني لأبي جعفـر فسلمت عليـه وأومأ إليّ فجلست ثم التفت إليـه فقـال يا أبا عبد الله هذا أبو حنيفة قال جعفر نعم ثم أتبعها قد أتانا كأنه كره ما يقول فيه إنه إذا رأى الرجل عرفه ثم التفت المنصور إليّ فقال يا أبا حنيفة ألق على أبي عبـد الله من مسـائلك فجعلت ألقي عليـه فيجيبني فيقـول : أنتم تقولون كذا وأهل المدينة يقولون كذا ونحن نقول كذا فربما تابعهم وربما خالفنا جميعاً حتى أتيت على الأربعين مسألة ، ثم قال أبو حنيفة ألسنا روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس . ——————————— أبو حنيفة النعمان

جعفر بن محمد كان من سادات أهل البيت فقهاً وعلماً وفضلاً. ـــــــــــ ابن حيان

جعفر بن محمد ثقة لا يسأل عن مثله. ـــــــــــ الجاحظ أبو حاتم

جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب فقيه صدوق. ـــــ ابن حجر العسقلاني

جعفر بن محمد الصادق بن محمد الباقر الإمام السيد أبو عبد الله الهاشمي والعلوي الحسيني المدني المدني وكان يلقب بالصابر والفاضل والطاهر وأشهر ألقابه الصادق حدث عنه أبو حنيفة وابن جرع وشعبة والفياتان ومالك وغيرهم. ـــــــــــ جمال الدين أبو المحاسن

لولا السنتان لهلك النعمان. ـــــــــــ أبو حنيفة

كان جعفر بن محمد مستجاب الدعوة إذا سأل الله شيئاً لا يتم قوله إلا وهو بين يديه. ـــــــــــ الشبلنجي في نور الأبصار

وأكبر الشخصيات في هذا العصر أي عصر التشريع الشيعي بل ربما كان أكبر الشخصيات في تلك العصور المختلفة الإمام جعفر الصادق(ع) وعلى الجملة فقد كان الإمام جعفر من أعظم الشخصيات في عصره وبعد عصره وقد مات في العام العاشر من حكم المنصور. ـــــ الدكتور أحمد أمين المصري

جعفر بن محمد كان إماماً مفخرة من مفاخر المسلمين لم تذهب قط وإنما بقي منها في كل غد قادم حتى القيامة صوت صارخ يعلم الزهاد زهداً ويكتسب العلماء علماً.
يهدي المضطرب ويشجع المقتحم يهدم الظلم ويبني للعدالة وهو ينادي بالمسلمين جميعاً أن هلموا واجتمعوا. ـــــــــــ عبد العزيز سيد الأهل

أبو عبد الله الصادق جعفر بن محمد بن علي زين العابدين هو أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية كان من سادات أهل البيت النبوي لقب بالصادق لصدقه في كلامه ـــــ فريد وجدي

جعفر بن محمد الصادق وهو بن محمد الباقر بن علي زين العابدين كان من سادات أهل البيت ولقب بالصادق لصدقه وفضله. عظيم له مقالات في صناعة الكيمياء والزجر والفال[٢٨] وكان تلميذه جابر بن

حيـان قد ألف كتـابـاً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل الصادق وهي خمسماية رسالة إليه ينسب كتاب الجفر وسيذكر وكان جعفر أديباً نقياً ديِّناً حكيماً في سيرته . ———————— بطرس البستاني

هذا بعض ما قيل ولو أردنا الاستقصاء لاحتجنا إلى أوراق كثيرة لكثرة محبيه ومقدريه .

الرجل الأبدي

فداحة الخطب :

عظم المصـاب والحـديث عن النهـاية المباركة والتي تجسدت فيها خسارة الأمة ، وأي خسارة أكبر من خسارة الأمة بقائدها وإمامها وهاديها والذي حمى سياجها وعلم جاهلها ورعى أيتامها وذاد عن حياضها .

أي خســارة أكـبر من موت العلم والـورع والسؤدد والشـرف فقـدنـاه فقدان الربيع فليتنا فديناه من ساداتنـا بألـوف . لقـد عاش الإمـام الصـادق عمـره في خدمـة الأمـة وخـدمة قضاياها والدفاع عن أصولها وعقائدها وكان أمل المعذبين وحصن الملهوفين وغياث المستغيثين ما جاءه أحد يطلب مالاً أو علماً إلا وفض حاجته ورجع موفوراً مرتاح البال والضمير .

من هنا تأكلنا اللوعة وتجتاحنا المصيبة في رحيله لأننا أصبحنا كالأيتام على موائد اللئام .

ولم يكتف الإمـام الصـادق بما قدمـه للأمـة طيلة حيـاته من مواعظ بل أراد أن يودعهم في آخر حياته بمواعظ حسنة ووصية تاريخية لها شأنها وأثرها في الإسلام .

وقد روى عن الإمام الكاظم . قال لما حضرت أبي الوفاة قال يا بني إنه لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة . وعن أبي بصير قال : دخلت على أم حميده اعزيها بأبي عبد الله فبكت وبكيت لبكائها ثم قالت يا أبا محمد لو رأيت أبا عبد الله لرأيت عجبا فتح عينيه ثم قال : اجمعوا لي كل من بيني وبينه قرابة فلم نترك أحداً إلا جمعناه فنظر إليهم ثم قال إن شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة[٢٩] ، ثم أغمض عينيه وانتقل إلى رحمـة ربـه مفـارقـاً أهله مشتـاقـاً إلى جوار جده محمد وأبيه علي وجدته الزهراء تاركاً لنا تركة كبرى في العلم والحكمة والورع والصدق وجامعة إسلامية ملأت الدنيا فضلاً وعلما .

وحرقة كبرى وفجيعة عظمى لأمته وشيعته ومحبيه ومع كل هذا فقد ظل الإمام الصادق خالداً في زهده وعلمه ومدارسه وطلابه وكل عطاآته وإبداعاته . فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حيا .

خلصنـا من كتـابـة المسـودة في ٦ ربيـع الأول ١٤١٢ هـ عند غروب الشمس ثم أعيدت الكتابة مرة أخرى . وانتهينا صباح يوم الجمعة الموافق للثاني عشر من ربيع الأول يوم مولد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على رواية الكليني .

المصادر:

القرآن الكريم

الإرشاد .... للمفيد

أيام الحسين .... العلايلي

سيرة الأئمة .... سيد هاشم معروف الحسني

العقد الفريد .... ابن عبد ربه

المجالس السنية .... السيد محسن الأمين العاملي

عقائد الإمامية .... محمد رضا مظفر

أصول الفقه المقارن .... السيد محمد تقي الحكيم

الإمام الصادق .... أسد حيدر

الصحيفة السجادية .... تقديم السيد أحمد الفهري

الكامل .... ابن الأثير

الطبري .... محمد بن جديد الطبري

الكافي .... الكليني الرازي

حلية الأولياء .... لإبن نعيم

الإمام الصادق .... محمد حسين مظفر

كشكول .... البهائي

معادن الجواهر .... السيد الأمين العاملي

الحواشي:

(١) ـ المفيد الارشاد للمفيد ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤ .

(٢) ـ أيام الحسين العلايلي ص٢٨٤ .

(٣) ـ سيرة الأئمة ص١٥٢ سيد هاشم معروف ط دار التعارف.

(٤) ـ العقد الفريد ج٤/ ص٦٧.

(٥) ـ المائدة آية ٣ .

(٦) ـ المجالس السنة السيد الأمين ج٥ ص٢٥٢ نقلاً عن كتاب الصدوق.

(٧) ـ البخاري ج٩ ص١١ .

(٨) ـ صحيح مسلم ج٦ ص٤ .

(٩) ـ أضواء على السنة المحمدية ص٢١٠ وما بعدها للعالم الأزهري محمد أبو زهرة.
(١٠) ـ المجالس السنية نقلاً عن الكافي ص٣١١.
(١١) ـ عقائد الإمامية ص٣٥.
(١٢) ـ سورة الأحزاب ـ ٣٣ ـ.
(١٣) ـ ياسين آية ٨١.
(١٤) ـ أصول الفقه المقارن محمد تقي الحكيم ١٤٩.
(١٥) ـ الإمام الصادق أسد حيدر ص٦٧ ج١.
(١٦) ـ الإرشاد للمفيد ص٢٧١.
(١٧) ـ الإمام الصادق أسد حيدر ص٦٧ ج١.
(١٨) ـ الإمام الصادق أسد حيدر ص٦٨ج١.
(١٩) ـ الصحيفة السجادية ٢٢٦ تقديم السيد الفهري.
(٢٠) ـ الكامل لابن الأثير ج٥ ص٢٤٣ احداث ١٢٢.
(٢١) ـ الطبري ج٧ ص ١٧٢ احداث ١٢١.
(٢٢) ـ الإمام الصادق محمد جواد فضل الله نقلاً عن رجال الكتب ص٢٤٢.
(٢٣) ـ الكافي ١ ـ ٧٤.
(٢٤) ـ الكافي ١/٧٤/٧٥.
(٢٥) ـ حلية الأولياء ج٣ ـ ١٩٧.
(٢٦) ـ الإمام الصادق للمظفر ج٢ ـ ص٥٨ ـ ٦١ وذكر في كشكول البهائي ومعادن الجواهر للسيد الأمين العاملي.
(٢٧) ـ أسد حيدر الإمام الصادق ص١٣٥.
(٢٨) ـ هذا اشتباه بينه وبين جعفر بن محمد المعروف بأبي معشر الفلكي كان مشهوراً بالرجز والفال وهو غير الصادق.



السيد عبد المهدي فضل الله



السياسة التربوية عند الإمام الصادق (ع)



بسم الله الرحمن الرحيم

هل ثمة علاقة بين السياسة والتربية؟ وإذا وجدت، ما هي طبيعتها؟ هل هي تفعيلية؟ أم هي علاقة إمضائية؟ أم تنموية؟ أم تقاطعية؟ بمعنى التلاقي في محور والإفتراق في باق المحاور. أم بيئوية؛ تخضع لعوامل داخلية كلياً أو جزئياً في تأهيلها لمنطق الترابط الداخل في تأثيرات البيئة تلك؟ أم تداخلية تقتضيها طبيعة تداخل الحاجات؟. أم تلقيحية إنجابية؟. وإذا صح هذا، كيف نتصور طبيعة هذا المولود وعلاقته بأبويه ـ إن صح التعبير؟ أم أن العلاقة مرحلية بسيطة شفافة وعابرة لا تستحق الإهتمام أو الإنتباه؟.. وبالتالي فهي هامشية يقتضي إهمالها؟ أم مرحلية أصيلة أو مشاركة في التأصيل والتأهيل؟ لأن المشاركة بهذا المعنى تدخل، والتدخل ذو حدين: إما أن يكون بانياً أو هادماً، وعليه يقتضي التمحيص حقيقة المتدخل بعداً وعمقاً... ولزوم هذا يظهر بعد التدقيق في هويتيّ: «سياسة» و«تربية». وماذا عن التدقيق في الهويتين؟.. وبروز النتوءات في هذه الأثناء محبط أم حافز؟ والإحباط ملزم بالتسليم دون اعتراض؟ أم داع إلى الكمون؟.. وهل هذا يحمل معنى القيمومة لمصلحة المحبط أم المحبَط؟ والحافز في أي حقل ينمو ويتوالد؟... في حقل الذات؟ أم في الحقل العام؟ وفي هذه الحال، هل ينشأ صراع بين الذات وغيرها؟

ماذا ينتج في الحالين؟ هل تدعو الحاجة إلى تدخل آخر لبعض المفردات؟ وهل ما يحدث في عالم الناس يحدث في عالم المفردات أيضاً؟ وإذا كانت حقاً أصيلة، هل هي إنصهارية توحيدية إلى حد ضياع المعالم في كليهما. . بحيث يلغيهما استقلال الجزء؟. وهب أن التدخل مطلوب؟ فمن الجدير بحمل هذا العبء؟ واحدة من فئة؟ أم واحدة بفئة؟ أم واحدة مجردة عن المتعلقين والمتعلقات؟ وأي من هذه الواحدات أو تلك هل بإمكانها أو من شأنها أن تكون موضوعية تقوم بدورها دون تدخل الذات؟ وفي هذه الحال، ما يصدر عنها: لها أم عليها؟ أم لمصلحة الجهة صاحبة الحاجة إلى التدخل؟ أم أنها تتحول بفعل تدخلها إلى شريك له وعليه؟ وإذا صارت شريكاً؟ هل تُنزع عنها صفة المتدخل؟ حيال هذا ـ وهول قليل من كثير ـ ألا تتشابك الخطوط وتتداخل الألوان تداخلاً يصعب معه التمييز فضلاً عن الفرز والتوظيب وتحديد الخانات؟ ومن هنا مست الحاجة لذوي الخبرة المؤهّلة للتعاطي مع الأحداث تعاطياً بانياً وحامياً. . . ولما قلوا إلى حد التلاشي، وقع الخلل، وأطل برأسه زور الإدعاء مموهاً، مطلياً، براقاً حتى استحكم وتحكم، ثم استشرس. . . من كرس هذا الواقع: تشابك الخطوط وتداخل الألوان أم موضوعية الحاجة أم لا ذي ولا تلك وإنما طبيعة الحركة التي اقتضتها الحاجة إلى التوظيب؟ أم أن التماس والإحتكاك بين فصائل المفردات. انبثق عنه واقع آخر؟ ونظراً لغياب ذوي الخبرة أو ندرتهم وقعت الواقعة؟ وإذا كانت الحاجة موضوعية فهي أساس، وأدعياء البناء هدّد البيت، أنذرهم بأن السقف سيخر عليهم من فوقهم. . . هذه حقيقة أم إدعاء؟ إن كانت هذه حقيقة، فأين مصاديقها؟ أو كانت إدعاء؟ فالإدعاء روحه الدليل فأين هو؟ وطبيعة الحركة التي اقتضتها الحاجة إلى التوظيب، هل هي حركة ذاتية؟ أم أنها تتحرك بفعل قوة خارجة عنها تماماً؟ وإن وجدت هذه القوة. ما هي حدودها وأبعادها وتطلعاتها؟. . وسواء علينا اتسعت التساؤلات، ثم امتدت وانتشرت أم تقلصت وقلّت ثم تقوقعت، فالنتيجة ربما كانت واحدة، وهي حقاً كذلك، وهي أنها؟ (أي الحركة التي اقتضتها الحاجة إلى التوظيب) فقدت استقلالها، فهي بالتالي ليست مسؤولة عن النتائج. . في هذه الحال، هل هي ملومة، لأنها لم تحافظ على استقلالها؟ أم ملومة لأن تفاعلها أخلّ بتوازنها فضاع منها الإستقلال؟ أم أنها ليست مسؤولة لأنها لا تملك القدرة على مواجهة الوافد إن لم نقل الغازي الذي أزال تحصيناتها، وتركها تتقبل كل ما يلقى إليها أو عليها باعتراضات واهمة؟ من هنا يكون ظهور العوارض الوبائية أمراً طبيعياً جداً، لأن صانع الأجواء والمتحكم بالمناخ هوذا. والهواء الذي يجود به ملوث يتحكم بمؤهلات الجسد إلى هنا. .

وإذا فقدنا السند الذي يدعم إيجاباً أو سلباً كلما مر، أو بعضه، نسأل: هل من مسافة بين السياسة والتربية؟ ما هي حقيقتها؟ امتدادية مزامية معقدة؟ وهل لها آلة قياس؟ وهل بعدهما تقابلي لا لقاء فيه؟ وإذا لم يكن كذلك، هل بالإمكان تقريب المسافة ولمّ الشمل؟ وهل التقريب ـ إن حصل ـ يغري بتوحيد البيئتين؟ والعامل في هذا الحقل، مهمته صعبة أم مستحيلة؟ وإذا كانت صعبة ما هي أسباب الصعوبة فيها؟ هل تدرك؟ متى؟ كيف؟ الخ. . . وحتى لا نضيع في رحاب التساؤلات وهي ولود. نطرق باب اللغة

علّه يسلك بنا طريقاً قاصداً. فاللغة ملاذ، وعندها كلمة السر وبيدها المفتاح. . ها هي تفتح لنا الباب على مصراعيه، لتطلعنا على:

أ ـ السَّوْس: الطبع والخلق والسجية يقال الفصاحة من سوسه أي من طبعه.

ب ـ السُوْس: الأصل. ج ـ السُّوس: العث

السُّوس: مصدر ساس ـ يَساس ويسوس سوساً الطعام إذا وقع فيه السوس.

السُّوس: الرياسة، يقال ساسوهم إذا رأسوهم. ساس الأمر سياسة إذا قام به سُوِّس الرجل أمور الناس، إذا امتلك أمرهم.

فلان مجرب قد ساس وسيس عليه أي أدِّب وأدَّب. يقول الحطيئة:

لقد سوست أمر بنيك حتى   تركتهم أدق من الطحين

السياسة: القيام على الشيء بما يصلحه.

السياسة: فعل السائس. يقال هو يسوس الدواب. إذا قام عليها وأراضها. والوالي يسوس رعيته. سُوِّس فلان لفلان أمراً، أي روّضه وذلّله.

أظن هذا كافياً لنرى في ضوئه وبدون أدنى جهد أن الحوائل بين هذه المفردات ومضامينها المعنوية واهية جداً، إن لم نقل معدومة، ليس من شأنها أن تكون حوائل طبيعية ذات محاور يمكن تسميتها حدوداً بين كيانين. إذن لا ترجى لعون أو مدد.

معرفة الأسباب لا تحتاج إلى شرح لوضوحها، وعليه فإنها تساعد العامل على التوحيد الوظيفي للمخلوق المتكامل هيكلاً وأجهزة. . . فالآصرة التي تشد ساس الطعام إلى ساس الأمر كما يقول الحطيئة:

لقد سوست أمر بنيك حتى   تركتهم أدق من الطحين

تشبه إلى حد بعيد أواصر أعضاء الجسد الواحد. فالسوس إذا دخل الخشب مثلاً يعمل على تحويل حقيقته وقلبها إلى حقيقة أخرى، يصبح الخشب طحيناً بالجد والجهد والكد والمواظبة، فعمل السوس في المادة كعمل السياسي والسائس اللذين يتجهان إلى الطبائع فيحولانها ويغيران حقيقتها متجهين بها إلى ما يصلحها. فالسياسة هي القيام على الشيء بما يصلحه ـ كما مر ـ حتى صار ـ بفضل السياسة ـ الجامح أليفاً، والشارد قريباً ومعيناً وسلساً ومنقاداً والعذار وفياً، والرافض متقبلاً ومستسيغاً.

هذه بعض عطاءات السياسي، فالسياسة بهذا المنظار ـ وهو الحق ـ توضع في خانة المقدسات، والسياسي عامل مقدس في هذا الحقل. . وما يؤسف له هو أن تهتك حرمة هذه الكلمة، ثم يُعتدى على عفتها وتبتذل بدل أن تحمى بالغوالي صارت رديفاً لمعظم الأوبئة الإجتماعية، ونحن بهذه المناسبة نستثني السياسيين الأفذاذ الذين حافظوا على شرف السياسة من أن يذال، وصانوا كرامتها بما قدموا ويقدمون.

السياسيون عاملون مجدون إنقلابيون موضوعيون وظيفتهم أن يستأصلوا الشر من نفس الشرير ليجعلوا منه إنساناً صالحاً، وهذه مهمة عسيرة، من هنا اكتسبت شرفها والكرامة.

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حينما دخل مكة فاتحاً. دخلها سياسياً وفاتحاً، قوله(ص): [إذهبوا فأنتم الطلقاء] أرى من خلال مفرداتها برنامجاً سياسياً ضخماً يحمله إلى كل من ضاع أو التبس عليه الطريق... والحسين(ع) حينما دخل كربلاء دخلها سياسياً وفاتحاً: سياسياً باعتباره الفكرة التي دخل بها رسول الله(ص) مكة المكرة مجسدة. أما أصحابه فهم الذين سموا إلى مستوى الفكرة، لذلك ماتوا في سبيلها، أقول ماتوا تجوزاً،إنهم حقيقة انقلابيون تحولوا عن حقيقتهم الترابية، وحطموا صنم الـ «أنا» في ذواتهم فاستحالوا منارات، لأنهم انقلبوا على حقيقتهم الترابية وسجايا الأنانية وحولوها إلى حقيقة أخرى مغايرة لذلك سماهم الله أحياء **﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾**.

والسياسة بهذا المنظار هي القيام على الشيء بما يصلحه ـ كما تقول اللغة ـ يكون ذلك إذا لم تتنازع السياسي عوامل خارجة عن موضوعية واجبه... هذه العوامل هي أعراض مرضية، ولكنها ذات رسالة بمضامين مدروسة، فإن لم تعالج بالسرعة المطلوبة، حولت القاعدة استثناء.

من هنا، وجب أن يكون المبضع بيد الجراح لا الجزار، لأن لكل منهما طبيعة مغايرة، فاختلاف الوظائف وتداخلها يلغي المطلوب ويطمس الحقيقة، واختلاط الألوان يخلق لوناً آخر مخالفاً تماماً لكل من الألوان الممزوجة، لذلك اختلاط الوظائف القائم على التدخل الغوغائي، إذن، إنه اعتداء... وسنن المعتدي وقوانينه قائمة على عدم الإعتراف بشيء سوى الذات. وهذا من قبيل جنون الخلايا، لذا مست الحاجة إلى التربية القائمة على قواعد لم تمسسها الـ «أنا» بأذى. والإدعاء القائل بأن البيئة بكل تفصيلاتها، وبكافة حيثياتها هي التي تكون طبيعة الأفراد والجماعات وتوجه سلوكها وتحدد أنماط أهدافها فيه نظر، لأنه قائم على قواعد مادية بحتة، تغفل الروح وتلغي دورها، بل لا تعترف بها مطلقاً. لذا لم تكتب له الحياة بغير المنشطات، فكان تنفسه اصطناعياً يلغي الحياة الطبيعية ولا يمنحها، وهذا ما بدأ يتم فعلاً.

وبالعودة إلى استدعاء المفردات نستفتيها بعيداً عن أي استطراد، ننظر فيما ورد عن رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم): [أدبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد] وفيما استعمله الزجاج في الله ـ عز وجل ـ فقال: [إن هذا القرآن مأدبة الله في الأرض، فتعلموا من مأدبته] يعني مدعاته..

«المأدبة من الأدب، ويقال للبعير إذا ذلل أديب ومؤدب. يقول مزاحم العقيلي:

وهن يصرفن النوى بين عالج ... ونجران تصريف البعير المذلل

نرى أدّب ـ ربّى ـ ساس وسيس عليه ـ مأدبة الخ.. نراها تضامينة فربا الشيء مثلاً زاد ونما يقول مسكين الدارمي:

ثلاثة أملاك ربوا في سجورنا ... فهل قائل حقاً كمن هو كاذب

ويقول ابن الأعرابي :

فمن يك سائلاً عني فإني بمكة منزلي وبها رَبيت

ينتج عما تقدم :

١ ـ أن الـزيـادة والنمـو في (ربـا) ليستا دائماً صحيحتين **﴿وما أوتيتم من ربا ليربو في أموال الناس لا يربو عند الله﴾** والنمو غير الطبيعي نتائجه معلومة .

٢ ـ لا يكـون النمـو صحياً . إلا في إطـار التنـامي الطبيعي غير العـدواني . ولا يتأتى ذلك لا ضمن برنـامـج ناجـح داخـل في إطـار معـد لمصلحـة جميـع الأفرقاء إن صح التعبير . وما تراعى فيه خلايا الجسد ينسحب على الأفـراد بنفـوسهـا باعتبارها جميعاً خلايا للجسم الإجتماعي الكبير . والعلائق التضامنية التي لاحظناها في ساس وسيس عليه وأدّب ومأدبة وربا من حيث اللغة ، والقائمة على أساس مصلحة الجسم الواحد مدرسة ولكنها مهملة ببرامجها الإصلاحية وتطلعاتها المستقبلية ، لذا نرى الإنسان منذ قابيل وهابيل يبحث عن حتفـه بظلفـه ، ونـداءات الإصـلاح التي تخرج علينـا بين الحـين والآخـر منذ فجر التاريخ حتى عصرنا الحاضر خارجة في معظمها من الحناجر فقط لذا لم تكتب لها الحياة ، وهي بالتالي غازات سامة تلوث الأجـواء وتكم الأفـواه وتعمـل على خنق كل الأصوات الأصيلة المجردة من المؤثرات الخارجية ، ونزع رداء الأصالة عنها وتحويل حقيقتها للتدخل القائم على مبدأ الإستحواز وطمس المعالم .

والصراع القائم بين الأصالة والزيف وجه من وجوه هذا التدخل الملقي بكلكله على صدر المجتمع الإنساني .

إن الإنتفاضات التي نراها تحدث دائماً في وجه ذلك الغول دلائل عافية ومواد مشعة ولكنها ليست مميتة للغول ذاك أو مهددة لمشاريعه على الأقل . ومع هذا فهي لا تكف عن المواجهة بما تملك من إمكانات مطوقة ولكنها فاعلة على محدوديتها ، وفاعليتها هذه مهددة دائماً من اتحادات القوى العاملة على ترسيخ أقدام المادة وتتويجها ملكة مالكة يجبى كل شيء لها وبإسمها ، وهي صاحبة الحق في التوزيع حسب مقتضيات طبيعتها المـاديـة ، حيث يكـون التـآكـل والتنـامي بالإستحـواذ الفارض كل أشكال الأنانية وأنماطها لحساب الجسد وإهمال كل ما سواه ، لأنه بمقتضى ذلك مشدود شداً إلى مزاولة تلك المهنة ولعب ذلك الدور باعتبارها أمراً طبيعياً جداً .

والإنهيارات الضخمة والكوارث الكبرى والأوبئة الفتاكة التي تحدث في أجوائه لا تعنيه بل تغنيه آنياً .

وبما أنه لا يملك باصرة تخوله الرؤية ولو على مسافة قريبة ، فهو فرح محبور . . وتجربة قابيل مع هابيل أول أمثلتهـا . وبـاكـورة مصـاديقهـا . . . والأخ الذي ضاق بمرأى أخيه ، وقد تحول إلى جثة لم يكن الندم باعث ضيقه . . الندم الذي تعقبه التوبة . . . بل لأنه عجز عن تغطية جريمته لأنها شاهد ناطق ، لا يحتاج

معـه الإدعـاء إلى شهـود الحـال. . . من هنـا كانت جريمـة قابيـل طعنـة في صدر أول مشروع إلهي على الأرض. . . وملاحقة خنجر الجريمة للكوادر الإلهية أمر طبيعي جداً، لأن الصراع القائم بينهما صراع بين ملتـين. لذلـك نرى أن رسـل الله لا تهادن ولا تحمـل مشروعاً وسطاً ترضي بها جنود الشيطان، وترضي بها نفسهـا في آن: قل يا أيهـا الكـافرون، لا أعبد ماتعبدون لأن هذا مخالف لطبيعة كل منهما من حيث التنشئة والتأديب، فمن أدبـه ربـه لا يصغي لمؤدب آخـر، وبالتالي فهولا يصافحه، إلا إذا خضع للحجر الصحي وقبل عمل المؤدب الأصيل. . . مستسلماً لمبضع جراح النجاة. . .

وبالإستماع إلى باب علم مدينة رسول الله(ص) محاوراً عمرو بن ود: قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمـداً رسـول الله، وعنـدمـا رفض عمـرو العـرض الأول قال له: ارجع بجيشك عن رسول الله. ويستمر عمـرو رافضـاً. ويكـون الأمـر الـذي لا مفـر منه وهو اللجوء إلى المبضع. . . بالإستماع إلى هذا نلاحظ الأسلوب الـتر بـوي المتـدرج الذي يحمل المبر ر في اللجوء إلى استعمال آخر الدواء. . إنها طبيعة كل رسالي تخرج من مدرسة إلهية طابعها وأسلوبها ووسائل إيضاحها ومعلومها وحدة منتخبة. وعلي(ع) واحد من حملة المشـروع الإلهي إلى النـاس ومهنـدسي بنـائه القائم على تقوى من الله ورضوان **﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليـم حكيم﴾** (التوبة ١٠٩ - ١١٠).

فالبنـاء في ضوء هذا والأسـاس وأسـاليب إقـامتـه عليـه كلهـا وحدة متراصة وعمل متكامل له غاية وأسلوب مولود من رحم الغاية عينها. وحركة العمل في تأسيسه مشتقة من غاية بنائه أيضاً، ولو لم يكن الأمر كذلك لما أمر رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) بهدم مسجد ضرار مع أنه مسجد من حيث العنوان. ولما انعكس مبر ر وجوده وحب هدمه. لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم أو تقطع قلوب بُناته أي أن تتبدل الغاية الـزئبقيـة فتعـدو مع العـادين خلف سراب خادع. . . أوليست الدنيا سراباً؟ لكن امتلاكها عندهم غاية، والعـدو خلفهـا مموهـاً بالعنـاوين اللابسة لكل حالة لبوسها واضح. . وتتتابع الأدوار وتتلاحق المشاهد فوق خشبـة المسـرح والنـاس نيـام فإذا ماتـوا انتبهـوا. ماتـوا أي حيـل بينهم وبين ملذات الفانية وذهب حسهم بالإستمتـاع بها ليفتحـوا عيـونهم على عالم آخر طالما وعدوا به، وقدمت إليهم عنه صور ناطقة تكاد تلمسها بالحس وتتقراها باللمس، ولما لم تنلها أفواههم بالقضم والخضم قالوا «إن نفيراً من ألف دين لأجدر» حتى إذا رأوهـا في أخـراهم عضـوا يد النـدم وتمنـوا العـودة إلى حيث كانـوا قال رب أرجعـون أعمـل صالحاً فيما تركت. . . ولـو ردوا لعـادوا لما نهوا عنـه. . إنهـا الطبيعـة التي ترعـرعت ونمت ثم ربت المشـاريـع المضادة للمشـروع الإلهي، تشحـذ سيفهـا على عنقـه بدعـوى المحـافظـة عليه وحفظه. والمعركة كانت وما زالت وستبقى وبـالـرغم من عدم التكـافؤ المـادي يظـل صمـود الأصالة متحدياً: بدر ـ كربلاء ـ فلسطين وسائر

الأراضي الإسلامية والعربية المحتلة، كذلك بيتي العزيز في الجنوب. كل هذه أسماء متعددة لمسمى واحد هو المشروع الإلهي في مواجهة العدوان على الإنسان.

ولم يكن ذلك ليحدث، لو أن للتربية الرائدة دوراً في تأصيل الإنسان، أياً كان ومتى وأنى وجد.

ولما كان الإنسان هو الغاية وهو الوسيلة في أن تشابهت الصور، وموهت المفاهيم وتحول الحبل إلى حبائل، وكاد يضيع كل شيء لولا قوة الجذب في حقول الأصيلين واستطالة النور وشموليته عند حماة المشروع الإلهي للاذ الإنسان بالعجز وصار كمن هملا... والإمام جعفر بن محمد الصادق(ع) مصباح ذاتي التوقد على مصباح الشك قطعها باليقين يقدم المشروع كاملاً واضحاً معقماً صحياً، فمن الإمام الصادق(ع)، بل من أنا؟ نكرة أنا، رأس المعارف هو، المعرفة لا تحتاج إلى تعريف، إنما تعرف النكرات، والنكرة تعرف بإضافتها إلى المعرفة، فصلوات الله وسلامه عليك حين جعلتني معروفاً بك لا معرفاً عليك.

الإمام جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام:

أبـوه: الإمام محمد الباقر خامس أئمة أهل البيت(ع) نهض بأعباء الإمامة في ظروف غير مواتية، بل مستحيلة على غيره، فالسنوات الأربع التي عاشها مع جده السبط كافية لأن تغري بالناشىء. لكن الصورة الحقيقة ظلت تكبر وتكبر إلى أن تحولت مدارس، كربلاء أبرز معاهدها ووسائل إيضاحها والسجاد أبوه معلمها الأول أعطاه كلمة السر وعهد إليه برعايتها وسلمه مفاتيحها ثم رحل مطمئناً، وحسبك بالباقر(ع) أباً للصادق(ع) وكفى.

أمـه: فروة بنت القاسم بن محمد. ويروي صاحب البحار عن الجعفي أن اسمها فاطمة. وأياً تكن فحسبها أن تكون له أماً.

ولادتـه: الشريفة كانت في المدينة المنورة سنة ثمانين أو ثلاث وثمانين من الهجرة.

وفاتـه: لحق بالرفيق الأعلى وله من العمر خمس وستون سنة أو ثمان وستون... مات مسموماً في عنب أيام المنصور.. دفن في البقيع. فسلام عليه يوم ولد ويوم استشهد ويوم يبعث حياً.

ظـروف ولاتـه: شهدت البلاد الإسلامية بعد استشهاد الإمام الحسين(ع) مخاضاً ضارياً وعواصف عاتية أنذرت الحكم الأموي بالإستئصال.. .تجلّت إرهاصاته بالانتفاضات الدموية التي كانت تحدث في غير مكان... صحيح أن أفواه قياديها كانت تكم وأصواتهم تخنق ويختم عليها بأبشع وسائل القمع وأفظع أساليب العنف. بيد أنها لم تكن لتجدي أو ترهب. فقد كانت على قسوتها تحمل بذور فنائها. إنها حشرجات محتضر وتخبطات غريق يائس أرعبه عنف الموج وزلزلة صخب التيار. فهذا معاوية بن يزيد يرى الحق وأهله محاربين فيعتزل... والأيام التي تلت استخلافه لم تحمل عنه إشارة رضى بما عهد إليه

به. . . إذ لم يصل بالناس ولم يخرج إليهم إلا مرة واحدة ألقى فيها خطبته الشهيرة التي أماط فيها اللثام عن كل شيء ودل صراحة على أصحاب الحق، وحدد المغتصبين بالأسماء وبلا مواربة ثم لزم بيته إلى أن قضى وهو في ريعان شبابه لم يبلغ الرابعة والعشرين ربيعاً. . حضر دفنه مروان.

سأل الناس: «أتدرون من دفنتم؟!» نعم، معاوية بن يزيد. ثم يعقب مروان قائلاً: «نعم هو أبو ليلي الذي يقول فيه الفزاري:

إني أرى فتنة تغلي مراجلها   والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

بدا من سؤاله وتعقيبه أنه يمد عنقه إلى الخلافة ويتحلب فمه لمطير ضرعها، وقد تأتى له ذلك، إلا أن دخوله في هذا الأتون ما عتم أن صهره. . . قتلته زوجته أم خالد بن يزيد. . .

لا شك أن ذهابه لم يحل مشكلة الأمويين، كما أن مجيء عبد الملك لم يساهم في حلحلتها أيضاً، بل زادها تعقيداً.

الأجواء على تلبدها والإنتقام المتبادل سيد الموقف، والرعب ملق بثقله على صدور العباد والبلاد. . . الأيام حبلى بالأحداث. . . وكل شيء وارد والأمة يدها على قلبها. . لا تدري إلى ما يكون مصيرها تتهيأ للقفز في المجهول. . . تتلاعب بأعصابها النأمة. . وتقلق وهم اطمئنانها هبة نسيم. .

في خضم تلك المرعبات من عهد عبد الملك، ولد الإمام الصادق(ع) محاطاً بسورين عظيمين من ورثة علم رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) علماً وأخلاقاً وأسلوب عمل. . . بيته مدرسته ومسجده ومحور تحركه، فيه تعلم وعلم وصلى وصام. . وهذا الكنف النبوي الحاني من الأبوين الجليلين كاف لتعقيم الأجواء للمولود السعيد. . . تنفس ملء رئتيه هواء نقياً مشبعاً بالإيمان والعلم المحصن.

فالإمام زين العابدين(ع) الذي شهد واقعة الطف، وقرأ في ضوئها، حمل مائدته العامرة بشتى الألوان الموروثة والمكتسبة إلى الحفيد، يأخذ منها ما غذى نفسه الشريفة وأغنى تطلعه لاستشراف الأبعاد. . والجد يعد الحفيد للنهوض بما ينتظره من أعباء، إعداداً مبنياً على قواعد معصومة أهلت الناشىء للمهمة الصعبة تأهيلاً يستحيل على غيره.

فكانت السنوات التسع التي عاشها مع أبيه الباقر(ع) مرحلة تخريج من مدرسة النبوة. لتكون المواجهة بحجم المهمة التي تمخر بحر المستحيل بالسلاح الذي ورثه كابراً عن كابر، فالمراحل الصعبة والمسافة الزمنية الطويلة التي ربت على ثلاث وأربعين سنة منذ عبدالملك حتى يزيد بن الوليد كانت كلها علقماً وجحيماً وسلاسل تتنفس لهباً، قطعها الإمام الصادق(ع) ظافراً مستسهلاً صعابها في سبيل إدراك المنى وتحقيق الهدف. . قطعها بالحكمة والأناة والصبر والبصيرة الثاقبة التي اخترقت حجب الزمن ودلت على ماسيكون. . .

مافت في عضـده شتم من كان من رسـول الله(ص) بمنـزلـة هارون من موسى . . مُر الأذى اللاحق بشيعتهم كان قوة وحافزاً . . مدركاً أن القمع وسيلة الخائف وحشرجة المحتضر . . فدم السبط الشهيد الذي عبوه ظامئين للمزيد من دماء آل محمد(ص) صار براكين مستأصلة والخنجر الذي حز وريد النبوة ارتد إلى عنق الجزار . . .

المشـاهـد تتـلاحق على مسارح الزعامة الغاية . . نشاهدها فصلاً فصلاً ما أثاره أي منها لأنه عالم به قبـل أن يكـون ، وهـو متأكـد أنهم بها ينتحرون . . متأكد من زوالها لأنها غاية . وهو يخطو نحو الهدف الغاية بوسائل هو أبرز رموزها . . . خطواته ثابتة . . . متجذرة . . . قائمة على تقوى من الله ورضوان .

هذا هشـام بن عبـد الملك يقتـل زيـداً بن علي في الكـوفـة والصـادق يؤ بنـه بلسـان يختـزن النـبرة المحمـديـة . . . لاعنـاً قاتله . . . دالاً على مثـالب القتلة الظالمين . . واعظاً إياهم من مغبة التمادي برعاية الأوبئة وصيانتها . . . مبرهناً أنها بدع يجب أن تطفأ بالكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة . . . إرشاداته الصحيـة تلك كانت تدخـل في القلب ، لأنهـا خارجـة من القلب . . . التف الناس حوله . . . كان يعظهم بسلوكـه . . قولـه فعـل . . وفعله حركـة بنـاء وهدم . . سهل إلى حد الإغراء . . . صعب إلى درجة الرهبة المجللة بالفيوضات الإلهية الغنية . . .

الواقف على أعتاب بيته . . واقف على عتبات صومعة ومسجد وجامعة . . عامر إلا من الطنافس ، ومظـاهـر الكـبر ورشـوحـات الجـبر وت . . . أسبـاب الخشوع لمن أمّه للصلاة مكتوبة بالقلم العريض . . ومظـاهـر التنسـك لمن قصده للتأمل تكثر الرهبان . . . وفيوضات العلم للمستنير ين تتجلى للعيان عرائس مغـريـة . . ضيق . . ضيق . . وواسـع . . واسـع معاً . يتسع لحشود الطالبين . . أنت فيه بحاجة إلى دليل وإلا ضعت . . . أليس عجيباً أن يتحـول الكـوخ مسجـداً وصـومعـة وجـامعة تنتج أفكاراً منحوتة وأبدالاً رهبـانـاً . . ثواراً باعـوا جماجمهم لله . . تأثـروا وأثروا ثم استحالوا منارات ذاتية التوهج . . تنطفىء الشمس وهم أحيـاء . . ومـع كل هذا فهي مبنيـة بالطـين والحجـارة غير المنحـوتـة . . من هؤلاء الإمـام الخميني العظيم(قـده) . . كوخـه وليـد ذلـك البيت العظيم . . منـه أطـل . . وفيـه عمل وعلم وخطط ونفذ . . دك أضخم حصن للاستكبـار العـالمي في عصـرنـا الحـديث . . آه . . لو أملك خيـالاً يدرك بعض حدود ذلـك الخيال . . قصر المجد ذاك . .

وبعـد . . أليس عجيباً أن يتسـع بيت الإمـام الصـادق(ع) لألفي طالب إن لم نقـل أربعة آلاف . . يخفـون إليـه من كل صقـع . . تتسـابق القبـائـل إلى إرسال من تتوسم فيه قابلية التلقي من نجباء أبنائها : مخـزوم . . خثعم . . خزاعة . . . سليم «غطفـان» بني ضبة . . غفار . . الأزد وغيرها . . وغيرها . . لا سيما قريش حتى صار وعن جدارة مؤ سس أولى المـدارس الفلسفيـة الإسـلامية ، بالإضافة إلى الإختصاصات الأخـرى كالـريـاضيـات والكيميـاء والفقه وغيرها . . ولا ننسى أن مؤ سسي المذاهب الفقهية لم يغيبوا عن

حلقات التدريس تلك. . كان هذا وباختصار شديد. باكورة إفاضاته العلمية في ظل الدولة الأموية التي ما إن لفظت أنفاسها الأخيرة، حتى أطل السفاح برأسه، من بين جماجم الإنتفاضات التي كانت تدعو بمعظمها إلى العلويين، وفي مقدمها العباسيون. . ساير السفاح التيار وركب الموجة حتى بويع بالخلافة، وكان انشغاله بمطاردة الأمويين فترة سماح للإمام العظيم لأن يستمر في مهمته الرائدة، فركز دعائم مدرسته. . حيث تسللت أشعة شمس عرفانه فأنارت كل الزوايا المظلمة، وترقرق ينبوع معرفته فسقى كل النفوس المتعطشة، ولم يثنه هم هذا الإنجاز المتفوق عن الرد على كل من دعاه إلى المشاركة في الثورة وتزعمها، فعند أفكارهم بالتأكيد، على أن لا نصيب له من ريع تلك الحركات الإنقلابية، وإن كانت في ظاهرها قامت باسم مظلومية البيت العلوي وتحركت تحت هذا الشعار.

لكن الإمام الصادق(ع) قد استشرف المستقبل وقرأه قراءة هادئة مطمئنة، فهو ماثل أمام عينيه. . هو فعلاً كذلك. . يتجلى ذلك في رده على أبي مسلم الخراساني عند ما كتب إليه أنه يدعو الناس إلى موالاة أهل البيت وأن لا مزيد عليه، أي على الإمام الصادق(ع)، فيجيبه صلوات الله عليه: «ما أنت من رجالي ولا من أهل زماني».

لم يقع في الفخ، ظل بعيداً، يعمل بصمت فاعل مخترقاً صدر كل السدود. وظلت حبائل العباسيين المموهة ببراقع الرحمية والإخلاص تترى وتتلون ولا تقف عند حد. والإمام الصادق(ع) كان يلوي بها دائماً ويحل مستعصيات رموزها حتى للسعاة الوشاة، فضلاً عن المتزلفين حتى ألجأهم صبره وأناته ونفاذ بصيرته إلى كشف زور ادعائهم، أنهم مخلصون موالون، فأماطوا اللثام عن سوء طويتهم وخبث نواياهم، مصرحين بذلك أمام مستشاريهم في أكثر من مناسبة.

فهاهو المنصور الدوانيقي يحج عام ١٤٧ هـ ويدخل المدينة آمراً الربيع بإحضار الصادق(ع) مصرحاً أمامه بقوله: «قتلني الله إن لم أقتله. .» ويتغافل الربيع. . لكن الذئب لم ينم. . وأصر على إحضاره فحضر، وكان بينهما كلام لم يخف فيه المنصور نواياه الخبيثة تجاه الإمام لكن الصادق(ع) لم يستطع بحسن تدبره أن يفلت من بين مخالب الذئب وينجو من أحابيله المموهة تهماً وافتراءات ما أنزل الله بها من سلطان فحسب، بل أنهى المقابلة بأن أمر الربيع أن يُلحق أبا عبد الله جائزة وكسوة. . الربيع لم يصدق عينيه ولا أذنيه، وتوهم، محقاً، لو لم يدله الإمام على السفينة التي ركبها ونجا من غضب الكاسر.

إنها مفتاح الكرامة والوسيلة لقطع المسافة بين الأرض والسماء التي كانت جواب المسؤول عن المسافة بينهما وهو الإمام علي(ع) «المسافة بين الأرض والسماء دعوة مستجابة». مفتاح الكرامة الذي لا يحسن استعماله إلا المحترفون أصحاب الصنعة وصنائع ربهم.

ويُذهل الربيع الدعاء الحصن الذي تلاه على مسامعه «اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام، واغفر لي بقدرتك علي. . لا أهلك وأنت رجائي. . اللهم إنك أكبر وأجل ممن أخاف

وأحذر. . اللهم بك أدفع في نحره، وأستعيذ بك من شره».

وكـان للإمـام ما أراد، سلم فسلمت معـه المـدرسة، وتجذرت مفاهيمها، لم يتركها إلا وأصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

شموس هدى وأساطين علم، أثبتوا أن العلم ـ أي علم ـ إن لم يكن وسيلة تخدم الإنسان دمر. من هذا الباب ندخل إلى الإمام الصادق(ع) قاصدين فروع السياسة التربوية. .

نطـل على هذا الفـرع من كوى أربعـة. . نصف من خلالهـا مشاهداتنا، ما وسعتنا القدرة وأسعفنا البصر، علنا نحصل المبتغى، وإلا فليست محاولتنا أول محاولة فاشلة.

أولاً سياسة الجسد:

الجسـد أداة أم وعـاء؟ أم أداة ووعـاء؟ وإذا كان الجسـد هو الـوسيلة التي تترجم النية عند الفرد إلى عمل خارجي فهو أداة تتلقى الأوامر ثم تنفذها دون اعتراض، وهذا ما يحدث فعلاً، فالأوامر التي ينفذها الجسد آتية من النفس الكائنة والقائمة فيه، فهو بهذا مستودع أسرار متأثرة ومؤثرة. . من هنا وجبت رعايته والمحافظة عليه حتى يؤدي وظيفته طبقاً للأصول المرعية، وإلا سقط وتحطم وتحطمت معه كل مخزونات النفس.

فالغـذاء المـادي المـدروس والـريـاضيـات الممنهجـة والمنـوعـة غذاء رديف لا حيـاة طبيعيـة بدونه. والتطـورات البُنيـويـة فيـه يجب مراقبتهـا وتقديم الخدمات اللازمة لها واستعمال الميزان في كل هذه الحالات واجب ولا محيـد عنـه. . فكثيـراً ما يكـون الغـذاء المـادي ضاراً ما لم تكن الأجواء المحيطة به مريحة ملائمة بحيث تغدو مقبلات غير مسرفة، وإلا تضخم وانتفخ ثم انفجر، أو نحل ثم دق فذاب. . حقيقةهذا قائمة وماثلة في المجتمعات والأفراد.

من هنـا، أولى الإسـلام الجسـد عنـايـة تنـاسب وظيفتـه على الأرض، وأكرمه بأن وعده بالبعث، ومواجهة الميزان الحق مؤكداً أن التراب هذا سوف يعود حاملاً حصاد دنياه. وأن كفتي الميزان بانتظاره، فإما أن يكون في أعلى عليين، وإما أن تكون أمه هاوية **﴿فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هي * نار حامية﴾** (القارعة ٦ ـ ١١).

وحتى لا ترجح كفة ميزان المادة في التربية، حذر القرآن الكريم من مغبة طغيانها منذراً بسوء العاقبة في الدارين. . **﴿ألهكم التكاثر * حتى زرتم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألون يومئذ عن النعيم﴾** (التكاثر).

﴿ويل لكل همزة لمزة * الذي جمع مالاً وعدده * يحسب أن ماله أخلده * كلا لينبذن في الحطمة * وما أدراك ما الحطمة * نار الله الموقدة * التي تتطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصدة * في عمد ممددة﴾ (الهمزة).

﴿وما يغني عنه ماله إذا تردى﴾ (الليل ١٠).

هذه عينات معدن جبار تنفس علينا ونفس عنا. . أرتنا الحقيقة في محلو صورتها وصدق رعايتها وحدبها. . والنبي العربي الكريم(ص) أفاض على الإنسانية كلها من وحي تلك المناجم الإلهية الهائلة عظات عملية وإرشادات خرج بها على الناس قولاً مقروناً بالفعل. . كذلك باب مدينة علمه(ع) ومعهما كل فروع الدوحة المحمدية الحانية الدانية. .

فالداخل إلى تلك الرياض مفتتن. . يعجب من هؤلاء الناس وهم بشر. . كيف تعاملوا مع الفانية وخرجوا منها دون أن يعلق بهم رشح من رذاذ أدرانها. . وهي المعروضة عليهم بإلحاح. . يحفظ الحياة ولا يشبع فضول الجسد. . لذلك لم يكونوا بعض صيدها «إليك عني يا دنيا غري غيري. . لقد طلقتك ثلاث»

والكلام في تعاملهم معها طويل. . طول الحياة عينها. . ومتشعب تشعب الحياة ذاتها. . قدروا عليها وعجزت عنهم. .

وحتى لا يأخذنا الإستطراد، ننعطف ناحية الإمام جعفر الصادق(ع) الموسوعة الحدث، لنرى كيف لم يكن للجسد عنده أي اعتبار إلا ضمن الحدود والمعايير والموازين التي تجعله خادماً مطيعاً ووسيلة تميت فيه الطمع في أن يكون غاية. . يعمل في هذه المزرعة خضماً وقضماً.

فمن وصيته(ع) العنوان البصري «إياك أن تأكل ما لا تشتهيه، فإنه يورث الحمق والبله، ولا تأكل إلا عند الجوع، فإذا أكلت فكل حلالاً» واذكر حديث النبي(ص): [ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطنه، فإن كان ولا بد فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه].

ويوصي الصادق(ع) عمرو بن سعيد بقوله: «أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والورع والإجتهاد، واعلم أنه لا ينفع اجتهاد لا ورع معه، وإياك أن تطمح نفسك إلى من فوقك، وكفى بما قال عز وجل لرسوله(ص) **﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾** فإن خفت شيئاً من ذلك فاذكر عيش رسول الله(ص) فإنما كان قوته الشعير، وحلواه التمر ووقوده السعف إذا وجده».

هذا طعام رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم)، ومثل هذا كان طعام التابعين له بإحسان الذين كانت تجبى لهم الأموال فيحاسبون أنفسهم، ولا يرفضون أن يحاسبوا.

يعلم الله أن الجبايات على اختلافها، كانت تذهب لأهلها المستحقين ذوي الخصاصة، لم يلجئهم

غول الإدقاع إلى ذل السؤال وطلب النوال . . أوليست وصايا الصادق(ع) دعوة إلى صنع أقفاص الاتهام، وإنشاء محاكم العدل لتقيم الحد على من يأكلون التراث أكلاً لما ويحبون المال حباً جما، ويخضمون مال الله خضم الإبل نبتة الربيع، ويقيمون المقاصير الناضجة تخمة لهم ولأبنائهم التابعين من أموال اليتامى والأيامى والعجز القاصرين التي تجبى إليهم باسم هؤلاء وتحت عنوان أنهم أمناء عليها . . وظيفتهم إيصالها إلى المستحقين . . والمستحقون الجائعون الحفاة العراة . . يطوفون بأسوار قصور الجفاة القساة . . يريقون ماء وجوههم على تلك الأعتاب التي أكلت لحمهم ودبت في العظام علها تتقيأ باتجاههم بعض تخمتها . . .

الرشيد . . المنصور . . المعتصم . . المتوكل . . الخ . . عندنا بدمهم ولحمهم ومواكبهم الطاووسية . . أمراء المؤمنين هم . . شأنهم غير شأننا يسموننا عواماً، وإذا سألهم المتطفلون بكوا بدموع بلا ملح، لأنهم مضطرون للطاووسية مكرهون على الكبر يرغمون على الأبهة والجلال .

سبحان ربك كلمة هي والخطوب على انسجام

الجواهري

ثانياً سياسة العقل :

لماذا سمي العقل عقلاً؟ يقول ابن الأنباري كما جاء في لسان العرب : «رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه . . مأخوذ من عقلت البعير إذا جمعت قوائمه» وقيل العاقل الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، أخذ من قولهم قد اعتقل لسانه إذا حبس ومنع من الكلام . والعقل أيضاً التثبت من الأمور وسمي عقلاً لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك . . والعقل ضد الحمق . . وقيل العقل هو التمييز الذي يميز الإنسان عن الحيوان .

يستفاد مما قدمته اللغة أن العقل كابح يتولى بنفسه صنع الفعل ووضع المعادلات منكباً عن النتائج لا لأنه يجهلها بل لأنه يريد أن يتعامل معها على أساس خطة وضعها سلفاً وأدرك في ضوئها طبيعة المواجهة، وإذا أخطأ التقدير لا يسقط أويتهالك، بل يتماسك ويعيد الكرة، وإن هو سقط لايعود عقلاً، فقد فقد الزمام . . وفقدان الزمام إحباط، والإحباط انقياد والإنقياد جنون العقل أي اختفاؤه . . فصاحبه مجنون وإن كان شاعراً أوفيلسوفاً أوعالماً فتحت على أيديهم كل المغاليق، أومحارباً أتقن لعبة الموت لأنهم استسلموا ففتحت أبواب عقد لهم فاعتقلها الغازي فتحركت كما يشاء . . ومتى يشاء . . وأنى يشاء . .

ماذا نسمي الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر، ولو بالحد الأدنى، وهم قادرون، والذين يرون الحق رؤيتهم الشمس، ثم ينقلبون على أبصارهم وبصائرهم، فيأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف؟

هؤلاء . . كل هؤلاء . . عقلاء . . ؟ مجانين . . ؟ أم لا عقلاء ولا مجانين . . ؟ نهرب من الإستطراد

متسائلين: هل للعقل أنماط؟ . . يخرج الطفل من ضيق الحيز إلى رحاب بلا حدود، عاقلاً مستطلعاً يتقرى كل ما يقع في متناوله إلى أن يدب ثم يستقل . . حتى ولو عُمر ما عمر نوح . . الرعاية التي يتلقاها على اختلاف وظائفها محكومة . . تتحكم فيها تجارب الأولياء مسافة زمنية محدودة، أي ما دام مكفولاً، فمتى اشتد، استقل استقلالاً محدوداً أي خرج من قفص إلى قفص أكبر بجانحين عليهما بصمات أصابع الكفيل وعمر البصمات هذه يطول أو يقصر حسب فاعلية الكفيل ومصداقية مشاريعه للحياة وأسلوبه في تحقيق تلك المشاريع . . والنادرون الذين يتخذون لأنفسهم محاور مستقلة أي موضوعية، مشتقة من صدق أصالة التعامل مع الحياة.

فالإمام الصادق(ع) يرى أن الحكمة الإلهية تقضي بأن يولد المولود غبياً يقول(ع): «ولو كان المولود يولد فهماً عاقلاً لأنكر العالم عند ولادته» قوله(ع) عاقلاً لا يعني أنه يولد مجنوناً. «ولبقي حيراناً تائه العقل إذا رأى ما لم يعرف وورد عليه ما لم ير مثله من صور العالم والبهائم إلى غير ذلك مما يشاهده ساعة بعد ساعة ويوماً بعد يوم.

ثم لو ولد عاقلاً كان يجد غضاضة إذا رأى نفسه محمولاً . . مرتضعاً . . مسجى في المهد . . لا يستغني عن هذا كله . . . ثم كان لا يوجد له من الحلاوة والوقع في القلوب ما يوجد للطفل لإدراكه عدم مناسبتها، فلا يفعلها، وإذ لم يفعلها لم تكن منه تلك اللطافة، ولم تحصل منه تلك اللذة للأبوين، فلا يقبلان على تربيته كما ينبغي، وبذلك لم يحصل الغرض المطلوب، فكان من الحكمة أن يولد الطفل غير عاقل ولا فهم . . فيلقى الأشياء بذهن ضعيف ومعرفة ناقصة ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً قليلاً حتى يألف الأشياء ويتمرن ويستمر عليها، فيخرج من حد التأمل بها والحيرة فيها إلى التصرف» . . إلى هنا . . نفهم مما تقدم أن المولود عندما دخل الدنيا، دخلها بعقل، لم يتعقل مرئياته ومحسوساته . . فاجأته لأنها جديدة عليه . . نرى الطفل في سنتيه الأوليين يمسك بكل ما تقع عليه يده رغبة بالإستطلاع، لا يمنعه من مد يده إلا أذى يلحق به، فإذا ذهب موسم الأذى أو نسيه أعاد الكرة . . يظل كذلك حتى تتجذر التربية وتنتج لذلك نقول عنه أنه لا يعقل الأشياء أي لا يرتبط معها بسبب . . فمد يده إليها يحمل معنى التساؤل وحب المعرفة . . ألا نراه يتعامل مع أشياء المنزل على هذا الأساس . . إذن هو عاقل بمقدار . . غير متعقل، فهو كما قال(ع): «ثم لا يزال يتزايد في المعرفة قليلاً . . قليلاً، وشيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال، حتى يألف الأشياء».

أليست هذه حال الكبار الذين تحصل لهم اكتشافات علمية هائلة من جراء فضولهم الدافع إلى سبر غور ما لا يعرفون والإطلاع على حقيقة شأنها بدقة وتفصيل بالعين؟ ولولا الفضول هذا لما استطاع الإنسان أن يخترق أجواء الفضاء ويصل إلى ما وصل إليه.

فهذا العقل، الذي سماه الإمام علي(ع) العقل المطبوع، يتعود . . يتسع . . يغنى بالتعاون مع ما

أعطاه فضوله من كشوفات أكسبته قدرات متدرجة سماها الإمام علي(ع) العقل المسموع.

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع

وهـذا التنـامي لذين العقلين لا يقف عنـد حد، ما دامـا عاملين بالتعـامل والتبادل الوظيفي يقع في مراحــل أربعـة متـدرجـة من أدنى إلى أعلى كما يسميهـا العـلامـة القـزويني.. وهي أولاً مرحلة العقـل الهيولاني.. وهي بمثابة وسيلة الإيضاح المستعملة في التعليم، وبها اختلف مولود الإنسان عن باقي المواليد الأخرى.. وبتتابع التجارب، وتوالي الإطلاعات يحصل التطور الآلي تقريباً.. فيكون التمييز البدائي إن صح التعبـير الحـاصـل بالتجـارب، إنهـا المرحلة أو الخطوة الثانية باتجاه النضج المسماة العقل بالملكة.. أما المـرحلة أو الخطـوة الثـالثـة، فهي مرحلة امتحان لفاعلية المحصول والمحصل، فإما أن يكون عاقلاً مؤهلاً للخطـوة الـرابعـة، فيكـون عاقلاً بمعنى ما.. ويسمى هذا عقلاً بالعادة أولا، فيكون وسطاً بين الإنسان وغـير الإنسـان.. بعـد العقـل بالعـادة يأتي كمال العقل، طبعاً الكمال النسبي أي المزاولة على أسس حمل لواءها ونما في ظلها وتكسب عليها، إذ بدأ يفصل ما يقع في متناوله حسب ما يراه الأكمل والأنسب.. ثم يتصرف بالمحاصيل على اختلاف تسمياتها وتشعبها وأبعادها التي أدركها ضمن برنامج وضعه خصيصاً لها، ولا يرضى بديلاً عنه، فهو في نظره الأصلح، يدافع عن هذا بمختلف الوسائل المتاحة، فيقع الصراع بين العقـول المختلفـة وتتـوالد الكوارث، لأن كثيراً من العقول لم تلجمها العبر فعصت وأعرضت، ثم عصت فخسرت. يقول الصادق(ع): «فيخرج من التأمل بها إلى التصرف والإضطرار إلى المعاش بعقله وحيلته وإلى الإعتبار والطاعة والغفلة والمعصية».

يؤكـد الإمـام الصـادق(ع) فيـما نقـرأ بين الكلمات حقيقة ملزمة، ويصر عليها وهي أن الأطفال منذ تصويرهم في الأرحام إلى أن يستقلو ويسعوا في الأرض هم ودائع الخالق عز وجل عند الأبوين.. مطالبون غداً يوم ينصب الميـزان مسؤولـون أمـام العـدل المبـين عن برامـج التربية والتعليم التي طبقت على هؤلاء الودائع وطباعها وإفضاءاتها وأدوارها.. ونتائجها محسوبة بدقة، ولا مفر للأبوين ولا عذر إن لم يكن النتاج مرضياً عند الله.. مطابقاً للأصول المرعية حتى تكون الروابط الإجتماعية موثقة موحدة توحيداً تعاونياً فاعلاً ومنفعلاً بحيث إذا شكى عضو شكت معه باقي الأعضاء.

على هذا الأسـاس يقـوم بنـاء المـدرسـة النمـوذجية وتترسخ قواعد العلم الصالح.. المطمئن على سلامـة المصـير، لأنـه قام على أساس من تقوى الله ورضوانه.. لارتباطه بالقدرة الإلهية إرتباطاً منفعلاً لا حيد فيه.. ودورانه في فلكها دوراناً محكوماً بإرادتها لا يؤذيه تمرد أو محاولة استقلال.. بذا لا يكون العلم مخيفـاً بصـوره ونتـائجه حتى ولو كانت حالية حانية.. العالم.. كل العالم بكل من فيه قلق خائف مرتعد مما تحمله بطن قنبلة أو يأتي به صاروخ على جنـاح السـرعـة.. الخوف هذا آت من اعتقال العقل والإنحراف بغـائيـة العلم.. ولا فائـدة مطلقـاً من كل الإتفـاقـات المعقـودة والمعاهدات بين مالكيها ما لم تكن مفاتيح

ترسـانـاتهـا بأيد تعتصم بحبل الله لا تكبلها أشراك الأنا والدوران في فراغ الحلقة المفرغة سيظل قائماً إلى ما شاء الله، فالعلم بداهـة إمـا أن يكـون أو لا يكـون، فلو أصـاب العلم الضـار متعمد الضرر فقط، لهانت المصيبة ولتوارى الشر، ولكنه لا يبقي ولا يذر. .

والإمـام الصـادق(ع) نبّـه إلى هذه الحقيقـة مرشداً أصحاب العقول دالاًّ إياهم على النهج السوي والصراط المستقيم في أصول التربية والتعليم، محذراً أصحاب العقول من مغبة السهو والخروج من اليقظة إلى الغفلة فالنوم الذي لا يوقظه إلا الموت «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» فالعقول التي لم تنتفع بما قدم إليها الله عبر رسـولـه، ولم تجلس إلى مائـدتـه تأخذ منها ما ينفع الناس ويمكث في الأرض ويحيي فيها ما يضمن استمرار وجودها المزدهر في أجواء الدعة والإطمئنان والحنو. هذه العقول يممت مائدة الشيطان فاستطابت ألـوانهـا. . وافتتنت بها فاستـوعبتهـا الملذات، وغرقت في بحر نعيم زائل وملذات عابرة منها لذة الكشوفات العلميـة الهـائلة التي لا تلبث أن تطفئهـا ريـاح القلق على المصـير، فأدركت أنهـا ذائبة في بوتقته محترقة في جحيمه، ولكنها لا تستطيع الإفلات من شباكه أو تغيير اتجاهه حتى تتحكم باتجاهه صارت محكومة له. . صار عقلها مكبلاً، فلا إفلات ولا حتى تململ، بل رضى مشبع بالخضوع والتسليم والخشوع.

هذا المصير الداكن محصول العقول الخارجة عن مدارها. . المتخذة لنفسها مداراً ذاتياً والنتائج هذه متوقعة.

فما لم تلغ بوصلة العلم، فنحن والحمـد لله الـذي لا يحمـد على مكـروه سواه، هالكـون به وبـه منتحرون أيضاً. . هذه حقيقة مرئية، بيد أن الرائين نيام وما يراه النائم لا يراه اليقظ. . فالعقل الذي سماه الإمام علي(ع) مكتسباً إذا ترافد مع العقل المطبوع وتلاقحا تلاقحاً شرعياً تبعاً لقانون المدبر الحكيم توحدا، ومتى توحدا استقلا عن أي مؤثرات خارجية.

هذا ليس مستحيـلاً ولا حتى صعبـاً. . بل متيسـر حال العمـل الجـاد باتجاهه، لأن ظروف حصوله قائمة وكائنة، ولقد أتاح الله تعالى كل الفرص، وفتح كل الأبواب باتجاهها. دعا إليها ملحاً عبر أنبيائه وما أنـزل عليهم. . لذلـك نسأل ملحيين: إذا كان العقـل هو التمييز بين الإنسان والحيوان، وإذا كان العقل ضد الحمق، وإذا كان العاقل من يحبس نفسه عن هواها، فمع من يكون مستكبر والعالم وما وجه تسميتهم بالعقلاء؟

ونحن، المستضعفـين، لماذا نقتفي آثـارهم، ونترسم خطواتهم، ونتيه فخراً واعزازاً بتقليدهم، وإلا فلسنا حضاريين. . ؟

وأدنـا كل أرصـدتنـا، وعـدونا نلهث خلفه، نتهالك على كل ما يلقيه إلينا من فتات، لا تسمن ولا تغني من جوع، ثم نغني معزوفة وهم الحضارة والمدنية والرقي مبهورين. . محبطين. . قابضين على الماء. . مستـوردين مستهلكـين. . نستهلك البضـائع المقدمة إلينا، عليها ختم الشركة صاحبة الإمتياز. . نلتهمها

بالعيـون وبكـل الحـواس، طعمهـا لذيـذ، ونتائجها مدروسة معقمة. . تعقيماً يناسب كل الأعمار والأذواق والعقول. . هكذا تقول الشركة، وهكذا يجب أن نقول نحن. ألسنا أبواق شركات الحضارة؟ . .

يقول الإمام الصادق(ع): «من كان له عقل كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة». وكلمة دين كما ورد في اللغة تعني الحساب. يوم الدين يوم الحساب والملك والسلطان، ومن متفرعاتها دان له، كقوله: ﴿دانت له الـرقـاب﴾ أي خضعت، والخضـوع يقتضي الإلتـزام بكل ما يفرضه المخضوع له، وعلى هذا يمكن الخـروج عن اللفـظ فنقـول: الـدين يعني النظـام، والنظـام هو مجمـوعـة قوانين تيسر السبيل لبلوغ الأحسن، كما هو المفروض، قال الإمام علي(ع): «أريد من قريش كلمة تدين لهم بها العرب» أي تطيعهم وتخضع لهم. كيف نختار النظام؟

مبدأ ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ مرفوض لأنه مبني على عاطفة العصبية التي تشل التفكير وتجعل العقل في إجازة، من هنا، جاء الرد الإلهي الحاسم، المعبر عن الفطرة الإنسانية، ﴿أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾.

هل نسن لأنفسنـا نظـامـاً بحكم تجربتنـا الطـويلة في الحيـاة، ونلتزم به ونـدين له، وإن فعلنا، كيف نتجنب الوقوع في فخ التناقض؟ كما حدث ويحدث بسبب استحالة قراءة الآتي:

أعـيـى الـفـلاسـفـة الأحـرار جهـلـهـم
ماذا يخبـي لهـم في دفـتـيـه غد

الجواهري

هذا التساؤل يقودنا إلى وجود التفتيش عن المشرع وصفاته وطاقاته حتى نلتزم أو لا نلتزم بنظامه. . نسوق على سبيل المثال بعض ما يجب أن يكون في المشرع حكيم. . عادل. . قادر. . مسيطر. . الخ. . هذه صفات مطلقة وليست نسبية، فواحدة من هذه ليست لأي إنسان أبداً، إنها للخالق الذي صفاته عين ذاتـه، وعليـه يكـون وحـده القـادر على وضـع نظام شامل يكفل سعادة البشرية ويراعي تطورها. . تحركاً وتفـاعـلاً داخلين ضـمن المشيئـة والقدرة الإلهية. يقول تعالى ﴿إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (يوسف)

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

وهـذا ليس ضربـاً من الإسـترقاق المهين لإنسانية الإنسان لبلوغ مأرب أو تحقيق منفعة، أو الوصول إلى هدف أنـاني (هـذه طبيعـة المحتـاج). في هذه الحـال يكون الإنسان أداة في يد محتاج، متى استُهلكت أعـدمت أو أهملت. . وهـذا متفق تمامـاً مع منطق العبـوديـة الأرضية الخاضع لمبدأ الأنانية. أما العبودية لله فمغـايـر لها تمامـاً، لتغـايـر أسسهـا ومنطلقـاتها فهي مبنية على الحب المتفاعل مع المشاعر والوجدان المرتبط بالمحبوب ارتباطاً انصهارياً، وعندما يفنى المحب بمحبوبه ويراه في منتهى الكمال يندفع نحو العمل الذي

يقربه منه اندفاعاً هائلاً وهويشعر أنه بلغ أرقى ملذات السعادة والهناء والإستقرار النفسي، ولو أدى به اندفاعها إلى الموت. والتاريخ الإسلامي حافل بالشواهد.. ومتى فني المحب بمحبوبه تم اتحاد المشيئتين في مسار مبني على الإخلاص والطاعة في كل حركة وسكنة تصدر عن هذا المخلوق سواء في ذلك: العمل الخارجي كالصلاة والتجارة والسياسة والقضاء.. الخ.. أوما ليس له آثار خارجية كالتفكير والنية والمشاعر.. الخ.. ومتى كانت هذه كلها مرتبطة بالله صحت تسميتها ديناً صحيحاً أو عبادة خالصة أوما شئت فقل، ولمثل هذا تشرع الجنة أبوابها. أما من اتخذ إلهه هواه فسائر في الطريق المعاكس خاضع لتقلبات رياح المصلحة الأنانية الفاسدة المفسدة.. فهو محبط لأنه بوق.

ثالثاً سياسة الروح:

قال تعالى: ﴿**فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين**﴾ سواه، جعله سوياً قادراً لاستقبال الوديعة الجوهرة التي خص الله تعالى بها الإنسان دون غيره من المخلوقات، وبها كرمه وسوده مسخراً له ما في السماوات والأرض، واعداً إياه جنة عرضها السماوات والأرض إن هو تصرف بما خوله طبقاً للبرنامج المأمور بتطبيقه وإلا فليس من المتقين والتقوى من الوقاية ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا**﴾ فالأمر بالتوقي لا يتجه إلى النفس فحسب «عليك نفسك هذبها» بل يتعدى إلى كل ما ومن لك عليه ولاية.. وهو من قبيل الأمر بتطبيق برنامج مدرسي متكامل رعته السياسة التربوية المخولة التدخل في شتى شؤون الفرد والجماعة وبوبته وقسمته متدرجة به بدءً من اختيار الزوج أو الزوجة إلى مراعاة ظروف الحمل فالولادة حتى الإستقلال يؤكد هذا كتاب الله العزيز. قال تعالى: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة..**﴾ (البقرة ٣٠ - ٣٣).

﴿**هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحليم**﴾ (آل عمران ٦).

﴿**ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين**﴾ (الأعراف ١١٠).

﴿**هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين**﴾ (الأعراف ١٨٩).

﴿**خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين**﴾ (النحل ٤).

﴿**والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون**﴾(النحل ٧٢).

﴿**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون**﴾ (النحل ٧٨).

﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ (الحج ٥).

﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديرا﴾ (الفرقان ٥٤).

هذا غيض من فيض كتاب الله وفيوضاته الواضحة الدلالة على ما كان من شأنه تعالى وحده ولا شأن فيه للمخلوق الذي لا يملك الجعل حتى ولو استقل، بل لا يملك شيئاً مطلقاً.

ولأنه ادعى الملكية والإستقلال المنفصل وعمل بمقتضياتها بدأ يبحث عن حتفه ويحز وريده بسكين حضارته.

لم يكن هذا ليحصل، لو أن الإنسان وقف عند حده ملتزماً البرامج الإلهية الكفيلة بسعادته في الدارين، وإذا كانت العينات دالة على نوع المعدن فحسبي هذه العينات من كتاب الله وبعض مواقف أشرف المرسلين محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) تقول أم الفضل، مرضعة السبط الشهيد(ع): «أخذ مني رسول الله(ص) حسيناً(ع) أيام رضاعه، فحمله فأراق ماء على ثوبه، فأخذته بعنف حتى بكى، فقال(ص): مهلاً يا أم الفضل إن هذه لإراقة الماء يطهرها، فأي شيء يزيل هذا الغبار عن قلب الحسين» (الطفل بين الوراثة والتربية ص٥٨).

[وقروا كباركم، وارحموا صغاركم، ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا].

الصبي، الصبي، الصبي، الصبية، الصبية، الصبية، فرقوا بين أولادكم في المضاجع إذا بلغوا سبع سنين، وقيل ست سنين] (المصدر السابق ٢٧٣).

[إياكم وتزوج الحمقاء، فإن صحبتها بلاء، وولدها ضياع] (الطفولة والمراهقة ـ عالم الفكر).

[انظروا من يرضع أولادكم، فإن الولد يشب عليه].

[توقوا على أولادكم من لبن البغي من النساء والمجنونة، فإن اللبن يعدي] علي محمد حسين الأديب.

يدخل الإمام الصادق(ع) بقوة ذاتية لها محور مستقل، ولكن استقلاليته هذه ليست منفصلة عن القطب، أعني الإسلام بل اتخذت لها مداراً في فلكه بحيث يشكل هو مع من خصهم الله وخصصهم مجموعة شمسية أرضية تغني وتعتني.. تشارك في بناء الإنسان بناء يؤهله لأن يكون خليفة الله في الأرض ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ فلا يتقبل إلا القويم ولا يستسيغ سوى الصواب، وبهذا يملك قوة التحدي.. وما تدخل الإسلام في خصوصيات الإنسان كبيرها وصغيرها، حتى أكثرها

دقة وحساسية وشفافية إلا دليل على عظيم العناية الإلهية بهذا المستخلف. . يقول الإمام أبوعبد الله الصادق(ع) لداوود الكريم حينما أراد أن يتزوج «انظر أين تضع نفسك» ويقول أيضاً «إن عيال الرجل أسراؤه فمن أنعم الله عليه فليوسع على أسرائه فإن لم يفعل يوشك أن تزول تلك النعمة عنه».

هذا التدخل المحسوب بدقة متقنة مشتق من طبيعة الفلك الذي يدور فيه، فهويلغي في الإنسان دور البهيمية ولا يلغي عنده لذة الإستمتاع المادي بل يحوله شريكاً للروح يتبادلان اللذة ويشتركان في الإستمتاع، وكل منهما يرفد الآخر. . وتبادل الرفد لا يلغي الحدود، تبقى المادة مادة وتظل الروح روحاً ونماؤ ها المادة. . وكلما كان الوعاء نظيفاً معقماً كان الغذاء نافعاً. . والروح يميتها خبث غذاء الجسد، ويحييها طيبة وينعشها. وميت الروح لا يعني أنه ميت الجسد.

فالتي تتقبل الخبائث وتتغذى بها تتخلى عن دورها، وتتخذ لها مداراً بهيمياً تحول المجتمع إلى غابة محكومة بقوى علمية متطورة ومدروسة أساليبها. . . وفرق بين أساليب وحوش بني البشر ووحوش الغابات. .

من هنا كان التأكيد على العناية بالطفل: قبل أن يكون وبعد أن يكون. . بدء باختيار الأم والمرضع مروراً بطبيعة الغذاء عند الأبوين. . حتى الإستقلال. . ومتى كان التدرج مطابقاً للقاعدة منسجماً مع الإشارات الصحية فيما يتعلق بالوجبات الغذائية ذات الإتجاهات الروحية والمادية توطدت الأواصر وتمكنت اللحمة بين الروح والجسد تحت مظلة تبادل العون غير القائم على رجاء الطمع بل على التنافس في سد الخلل ورأب الصدع أينما وجد في أي منهما. . يكون هذا حاصلاً حين التزامنا تجاهالبوصلة التي لا تخطىء. . وإلا. . انقلب ظهر المجن وتحكمت مملكة الغيلان. .

الله تعالى تحبب إلينا بالنعم، فبماذا قابلناه؟ وأية نعمة أجل وأعظم من أن ينفخ فينا من روحه ويكرمنا بجليل العطاء هذا ويفضلنا على سائر خلقه. . والنفخ هوغير شعلة الحياة كما لا يخفى. . فشعلة الحياة متوقدة في كل حي على الإطلاق كما لا يخفى. . وبالنفخ هذا تمت للإنسان كرامة التفضيل وأمر الملائكة بالسجود له. . والإنسان وحده لا يجوز له أن يسجد لغير الله. . تكريم آخر مشتق من تكريم النفخ فيه. . فالحث على إيلاء هذه العظمة فائق العناية هوتكريم أيضاً، ولكنه يحتاج إلى مدرسة. من هنا تتالت الإرساليات الإلهية مزودة ببرامج كاملة واضحة مجردة من أي خلفيات غايتها الإنسان ووسيلتها الإنسان أيضاً. . برامجها التغذوية ذات اتجاهين: روحي ومادي، نبراسهما العلم الوسيلة الدالة على مصدر الفيوضات، وكل منهما متأثر بالآخر، فما لم يكن الغذاء المادي طيباً (حلالاً) انعكس سلباً على الروح، لذا وجب اتباع الإرشادات الصحية الإلهية. . وإن كانت الروح لا تتغذى به مباشرة ولكنها تتأثر فيه، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى، فوجبات الغذاء الروحي آتية من: الصلاة ـ الزكاة ـ الصوم ـ الحج ـ الجهاد ـ الحب ـ المواساة ـ التأمل. . إلخ.

الصلاة سماها بالحديث معراج المؤمن، وهذه التسمية مع إيحاءاتها الشاعرية، وسموّ إطلالاتها تحمل طابع الواقع العلمي المتحرك بميزان، لأن العروج يعني الإنتقال من أدنى إلى أعلى، لذلك سمي الإسراء عروجاً أي انتقالاً من العالم السفلي إلى العالم العلوي . .

عالم لم يباشره التعاطي المشوب بالدنس . . هذا السفر القاصد بهذه الوسيلة المضمونة له دلالات تربوية مرتبطة بالتربية البدنية والعقلية والنفسية كل الإرتباط، وعلاقاتها بالعلم وأساليب تعلمه علاقات رسم من حيث أنها الحبل الذي يصل الأرض وأنماط التعاطي فيها بالسماء . .

والعلم مهما تكن طبيعته ودوره وعطاياه ومنشآته تبق سيفاً مسلطاً وسماً زعافاً مالم تتدخل روحانية الصلاة في حركة بنائه . . ولأن الصلاة عمود الدين، والدين قانون شامل . . كامل . . ضامن . . مضمون يحمل مشروع حل مشكلة الإنسان ومعاناته على الأرض، فلن تكتب الحياة لهذا المشروع ما لم تكن روحه الصلاة، فكيف تكون حال أطروحات الإنسان للإنسان التي تفوح منها روائح الأنانية لأنها صنيعة من اتخذ إلهه هواه . .

سأل رزّام مولى خالد بن عبد الله الإمام الصادق(ع): «أخبرني عن الصلاة وحدودها» فقال له الصادق(ع): للصلاة أربعة آلاف حد لست تؤاخذ بها فقال: أخبرني بما لا يحل تركه ولا تتم الصلاة إلا به فقال أبو عبد الله(ع): لا تتم الصلاة إلا لذي طهر سابغ وتمام بالغ غير نازغ ولا زائغ عرف فوقف وأخبت فثبت فهو واقف بين اليأس والطمع والصبر والجزع كأن الوعد له صُنع والوعيد به وقع بذل عَرَضه وتمثل عرضه وبذل في الله المهجة مرتغم بارتغام يقطع علائق الإهتمام بعين من له قصد وإليه وفد ومنه استرفد، فإذا أتى بذلك كانت هي الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر» (البحار ج٢٧ ص١٨٥ - ١٨٦).

عن معاوية بن وهب عن الصادق(ع)، قال: سألت أبا عبد الله في كم يؤاخذ الصبي بالصلاة؟ فقال فيما بين سبع سنين وست سنين (الوسائل كتاب الصلاة ص١٢).

وعنه (ع) إذا أتى على الصبي ست سنين وجب عليه الصلاة، وإذا أطاق الصوم وجب عليه (و- ص١٢).

وعنه وعن أبيه: إنا نأمر صبياننا بالصلاة إذا كانوا بني خمس سنين فمروا صبيانكم بالصلاة إذا كانوا بني سبع سنين.

يكون الطفل في هذا العمر ذا طبع وله قابلية. والتدخل في شؤونه تحتمه طبيعة العلائق والوشائج والتعاطي المستقبلي معه، ولأن نفسه خالية قابلة للزرع فهو مستعد للتلقي، فما لم تكن يد الزارع نظيفة وبذاره صالحاً أصيلاً وطبيعته مشتقة من تلك الأصالة وقدرته على نجاح المواسم مضمونة تستشري الأمراض وتتعثر المواسم، فالمعلم الهادف يبني مجتمعا هادفاً يؤهل أفراده للإستخلاف في الأرض، يكون المسجد بالنسبة للطفل فيها مدرسة، وأداء الصلاة فرض، واختلاف أوقاتها التزام بالمواعيد، والوقوف

الخاشع إنصات، وخروج من دائرة المحدود إلى دائرة المطلق.. والتزام المعلم بهذه الفريضة في أوقاتها، كذلك الأبوان، وسيلة إيضاح قائمة على نظافة البدن المقدمة الضرورية لنظافة النفس. وتلازم أداء الصلاة على من في سن الخامسة أو السادسة أو السابعة مع التأهيل المدرسي لتلقي المعلومات يعني أنهم يدخلون الحياة من بابين: باب المسجد وباب المدرسة.. هذان جناحا الحياة وبدونهما لايتم التحليق. في المدرسة تتعلم كيف تفجر الصخر عيوناً وجداول وينابيع.. وفي المسجد تتعلم كيف تنسف الخزانات القائمة عبر الجداول والأنهار لمن أراد أن يستفيد بها وحده.. وإدراك هذا المعنى بمضامينه يختزن فعل انقلاب على الذات من أجل الذات باعتبارها خلية يخشى عليها وينبغي أن تحمى وتصان... من هنا كانت الصلاة ورقة حسن سلوك يقدمها الفرد إلى مدرسة الحياة وعلى أساسها يعين صفه وفئته في ضوء غاية المصلي.. فكم من أناس يصلون ولا يصلون.. تولد صلاتهم ميتة لأنهم لا يختزنون قوة الدفع التي تساعد على العروج، وحاجة الصلاة إلى هذا المخزون حاجة الجسد إلى الروح...

من هنا مست الحاجة إلى تأهيل الأطفال والتدرج بهم ورعاية البذار الروحي في نفوسهم.. ومتى كان الرعاة أكفاء والزارعون خلصاً غنيت النفوس واكتسبت صلاتهم صفة الصلاة التي حددها الإمام الصادق(ع) لرزام... حتى إذا ولج الأطفال باب الإستقلال صلوا أحراراً من أي قيد مادي.. فعندما أفوض أمري إلى الله أكون قد تحررت من أي سلطان غيره فأنا ملكه وحده، يتصرف بي وبوجودي تصرفاً طلقاً.. وهذا خروج وتمرد على كل القوى المحيطة بي. ومن يعتقد أنه مملوك لخالقه ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ير أن تصرفه فيما حوله من ثروات إنما حصل بتخويل من خالقه، وعليه، فأنا أمارس الحياة وقعاً لمشيئته، وليس لأحد سلطان علي. وهذا أرقى أنواع الحرية، لأنه حررني من الخوف والهوى والشهوات التي تقودني إلى أن أخضع لمثلي في الخلق.

وفي رحاب الصلاة الفسيحة، وتحت ظلالها الهانئة المريحة تحتشد كل التوابع وتتجمهر.. فالزكاة والصيام والحج والجهاد والحب والإيثار والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كل هذه تستضيفها الصلاة وتمد لها البساط. بأنفاسها تتعطر وبغذائها تدوم وتستمر شباباً متألقاً وعطاء خيراً لا يكدره منّ ولا يشوبه أذى.. فالشرائط التي حددها الصادق(ع)، ولا تكون الصلاة تامة بدونها، ليست مستحيلة أو صعبة إلا على مرضى القلب.

رابعاً سياسة النفس:

نحن بين يدي محاور قرآنية أربعة تعاطت مع النفس في أربع مناسبات نستظيف في ظلها بعض موائد عملت في منجمها.

المحـــور الأول: ﴿ونفس ومـا سواهـا * فألهمهـا فجـورهـا وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها﴾ (الشمس ٦ - ٧ - ٨ - ٩).

نبدأ بمائدة الطبرسي في كتابه «جوامع الجامع» ج٢ ص٨٥ «ونفس والخالق الحكيم «وما سواها» أي عدّل خلقهـا، وفي كلامهم سبحـان من سخـركن لنـا فألهمهـا فجـورهـا وتقـواها أي عرفها طريق الفجور والتقوى وأن أحدهما قبيح والآخر حسن ومكنها من اختيار ما شاء منها بدليل قوله قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دسـاهـا، فجعله فاعـل التـزكية والتدسية ومتوليهما، والتزكية الإنماء والإعلاء بالتقوى، والتدسية النقيض والإخفاء بالفجور وأصل دسّ من دسّس كما قيل تقضّى من تقضّض ونكّر قوله ونفس لأنه أراد نفساً خاصـة من بين النفـوس وهي نفس آدم كأنـه قال: وواحـدة من النفـوس أو لأنـه أراد كل نفس فيكون من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه كقول الشاعر: «قد أترك القرن مصفرّاً أنامله» فجاء بلفظ التقليل الذي يُفهم منه معنى الكثرة، ومنه قوله تعالى ﴿ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ (الحجر) ومعناه معنى «كم» أو أبلغ منه، وجواب القسم محذوف وتقديره ليدمدمن الله عليهم أي على أهل مكة لتكذيبهم برسول الله كما دمدم على قوم ثمود لتكذيبهم صالحاً، وأما كلامه قد أفلح من زكاها فكلام تابع لقوله فألهمها فجورها وتقواها. على سبيل الإستطراد وليس من جواب القسم في شيء. انتهى.

ماذا على مائـدة الفـرّاء»؟ يستخرج «الفرّاء» من فألهمها فجورها وتقواها عرّفها سبيل الخير وسبيل الشر وهو مثل قوله وهديناه النجدين (البلد ١٠).

وقوله عز وجل قد أفلح من زكاها يقول: قد أفلحت نفس زكاها الله وقد خابت نفس دساها، ويقال قد أفلح من زكى نفسه بالطاعة والصدقة، وقد خاب من دسّى نفسه فأخملها بترك الصدقة والطاعة. ونرى والله أعلم، أن دسـاهـا من دُسِّست بُدلت بعض سينـاتهـا ياء كما قالـوا تظنيت من الظن وتقضيت يريدون تقضضت من تقضض البازي. وخرجت أتلعى ألتمس اللُّعاع (بنت ناعم في أول ما يبدو) أرعاه، والعرب تبدل في المشدد الحرف منه بالياء والواو.. الخ معاني القرآن ج٣ ص٢٦٦ - ٢٦٧.

هذا بعض ماقدمه الفراء. فماذا في «الميزان»؟

يقـول: تذكـر السـورة أن فلاح الإنسـان وهـو يعرف التقوى والفجور بتعريف إلهي وإلهام باطني أن يزكي نفسـه وينميهـا إنـماء صالحـاً بتحليتها بالتقوى وتطهيرها من الفجور والخيبة والحرمان من السعادة لمن يدسيهـا. ويستشهـد لذلـك بما جرى على ثمـود من عذاب الإستئصـال لما كذبـوا برسولهم صالحاً وعقروا الناقة، وفي ذلك تعريض لأهل مكة، والسورة مكية بشهادة من سياقها ونفس وما سواها أي أقسم بنفسٍ والشيء ذي القدرة والعلم والحكمة الذي سواها ورتب خلقتها ونظم أعضاءها وعدّل بين قواها.

وتنكير «نفس» قيل للتنكير، وقيل للتفخيم، ولا يبعد أن يكون التنكير للإشارة إلى أن لها وصفاً وأن لها نبأ. والمـراد بالنفس النفس الإنسـانيـة مطلقـاً، وقيل المراد بها نفس آدم(ع)، ولا يلائمه السباق وخاصة

قوله قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها. إلا بالإستخدام على أنه موجب للتخصيص.

قوله تعالى فألهمها فجورها وتقواها الفجور على ما ذكره الراغب شق ستر الديانة فالنهي الإلهي عن فعل أو عن ترك حجاب مضروب دونه حائل بين الإنسان وبينه واقتراف المنهي عنه شق للستر وخرق للحجاب. والتقوى - على ما ذكره الراغب - جَعْل النفس في وقاية مما يُخاف، والمراد بها بقرينة المقابلة في الآية بينها وبين الفجور، والتجنب عن الفجور المنافي وقد فسرت الرواية بأنها الورع عن محارم الله.

والإلهام: الإلقاء في الروع، وهو من إفاضته تعالى الصور العلمية من تصور أو تصديق على النفس، وتعليق الإلهام على عنواني فجور النفس وتقواها للدلالة على أن المراد تعريفه تعالى للإنسان صفة فعله من تقوى أو فجور، وراء تعريفه متن الفعل لعنوانه الأولي المشترك بين التقوى والفجور كأكل المال، مثلاً، المشترك بين أكل مال اليتيم الذي هو فجور وبين أكل مال نفسه الذي هو من التقوى، والمباشرة المشتركة بين الزنا الذي هو فجور والنكاح وهو من التقوى وبالجملة، المراد أنه تعالى عرّف الإنسان كون ما يأتي به من فعل فجوراً أو تقوى، وميز له ماهو تقوى مما هو فجور.

وتفريع الإلهام على التسوية في قوله وما سواها فألهمها إلخ. للإشارة إلى أن إلهام الفجور والتقوى، وهو العقل العملي من قبيل تسوية النفس فهو من نعوت خلقتها كما قال تعالى **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾** (الروم ٣٠).

وإضافة الفجور والتقوى إلى ضمير النفس للإشارة إلى أن المراد بالفجور والتقوى الملهمين، الفجور والتقوى المختصين بهذه النفس المذكورة، وهي النفس الإنسانية، ونفوس الجن على ما يظهر من الكتاب العزيز كونهم مكلفين بالإيمان والعمل الصالح.

قوله تعالى قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها الفلاح هو الظفر بالمطلوب وإدراك البغية والخيبة خلافه، والزكاة نمو النبات نمواً صالحاً ذا بركة والتزكية إنماؤه كذلك. والتدسي هو من الدس بقلب إحدى السينين ياء: إدخال الشيء في الشيء بضرب من الإخفاء، والمراد بها بقرينة مقابلة التزكية: الإنماء على غير ما يقتضيه طبعها، ورُكبت عليه نفسها.

والآية - أعني قوله -: قد أفلح جواب القسم، وقوله قد خاب الخ. معطوف عليه والتعبير بالتزكية والتدسي من إصلاح النفس وإفسادها مبتنٍ على ما يدل علية قوله فألهمها فجورها وتقواها على أن من كمال النفس الإنسانية أنها ملهمة مميزة بحسب فطرتها للفجور من التقوى أي أن الدين هو الإسلام لله فيما يريده فطري للنفس. فتحلية النفس بالتقوى تزكية وإنماء صالح وتزويد لها بما يمدها في بقائها. قال تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولي الألباب﴾ (البقرة ١٩٧) وأمرها في الفجور على خلاف التقوى. انتهى. الميزان ج٢٠ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨.

المحور الثاني: كائن في سورة يوسف اية ٥٣ **﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم﴾**.

الدكتور مصطفى الرافعي



الإمام جعفر الصادق (ع) ووحدة المسلمين



بسم الله الرحمن الرحيم

قبل الكلام عن الإمام جعفر الصادق سادس أئمة أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، وما كانت تزخر به حياته من أمور نواصع وأضواء لوامع، لابدّ من توضيح نقطة هامة، وهي أن المسلمين ـ كل المسلمين ـ هم أتباع القرآن وأنصار محمد عليه السلام.

فالأحناف كالشافعية، والشافعية كالإمامية، والإمامية كالمالكية والحنبلية. كل أولئك يستقون من المعين العذب، معين القرآن وسنة محمد(ص).

وما ضاع المسلمون وذهبت ريحهم إلا حينما انسابت عامتهم وخاصتهم وراء سراب خداع، اختلقته أهواء سياسية، وأطماع ترابية، منذ العصر الأموي حتى اليوم.

ولئن جاز للذين سبقونا في هذه الديار، أن تستنجر بينهم الخلافات، وتقوم فيهم الخصومات، فلا يجوز قط، ونحن في عصر النور، أن نتيح الفرصة للنافثين في اللهب، اللاعبين بمقادير الشعوب، أن يعيدوا تمثيل المأساة، طمعاً في مكسب دنيء أو مغنم رخيص، من سيطرة أو سلطان أو رئاسة.

لا يجوز قط أن يتفرق المُوَحِّدون وربهم في عليائه يناديهم:

﴿إن هذه أمتكم، أمة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون﴾.

إن المذاهب الإسلامية، ليست في الحقيقة والواقع، إلا وجهات نظر في زوايا مختلفة.

إنها اجتهادات مستمدة من نص واحد وينبوع واحد، في كلمات الله العلي الأعلى، الذي أرادنا ألا نتفرق كي لا تذهب ريحنا، ومن أحاديث رسوله الأعظم محمد(ص) الذي أرادنا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، فلا يتهاوى ولا يتصدع.

وإذا كان الاستعمار ـ عبر العصور ـ قد استغل هذا الخصب التشريعي عندنا، ليوقع بين أبناء أمتنا، وليقيم السدود بين مذاهبنا، فإنه كما يؤسفنا في هذا العصر ويؤلمنا، أن تظل سياسة الاستعمار التفريقية متبعة في بعض بلادنا الإسلامية على الرغم من انحسار ظله البغيض، وجلائه عن أراضينا إلى غير رجعة. ومن المؤسف أكثر أن تتبنى هذه السياسة المرذولة طغمة من تلاميذ المستعمرين الذين نشأوا في كنف الاستعمار والانتداب، وتنفسوا هواءه الفاسد، ليتاجروا بالناس باسم الدين، وليغنموا المناصب باسم الدين، وليملأوا الجيوب باسم الدين، والدين منهم ومن منحازيهم براء.

إن ناس اليوم، في أنحاء الدنيا الأربع، يلمّون أنفسهم في جماعات، ويتّحدون في أحلاف وأسواق واتفاقات على الرغم مما بينهم من تفاوت في العقائد والمبادىء والنظريات.

أفلا ينبغي لنا ـ معشر المسلمين ـ أن نكون أكثر من أولئك حرصاً على رأب الصدع ولم الأهل، وجمع الشمل؟ لا سيا بين الفئتين الشقيقتين ـ السنيّة والشيعيّة ـ ما دام ربنا واحداً، ونبينا واحداً، وكتابنا واحداً، وقبلتنا واحدة؟ وما دامت ـ بالتالي ـ الخلافات في الفروع الفقهية اجتهادية ومحدودة، لدرجة أن ما بين مذهب أبي حنيفة ومذهب جعفر بن محمد ـ مثلاً ـ من اختلاف في القضايا الجزئية والمسائل الفرعية لا يزيد عن الخلافات الموجودة بين مذهبي أبي حنيفة والشافعي من مذاهب أهل السنة؟

إنني أتطلع ـ بلهفة وشوق بالغين ـ إلى ذلك اليوم القريب الذي تتوحد فيه الكلمة بين أهل كلمة التوحيد، بادئة بتوحيد القضاء الشرعي عند الفئتين، كخطوة أولى على طريق الوحدة الشاملة، بعد أن يجتمع العلماء الأعلام من المذاهب الخمسة لعرض وجهات النظر المختلفة على هدي القرآن والسنة، فيعتمدون منها القول الأصح والأرجح، من أي مذهب كان، ويخرجون بقانون واحد، لمسائل الأحوال الشخصية، يطبقه القضاة الجعفريون والسنيون على حد سواء.

وإنّي لموقن، بأنّ هذا سيتم ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ وستعود للمسلمين وحدتهم في كل الميادين الأخرى،

وسيجتمع الاخوان التوأمان ـ السني والجعفري ـ مثلما اجتمع أبوبكر وعلي في صدر الدعوة، وأبو حنيفة وجعفر في عصور الاجتهاد، ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾.

من هو الإمام الصادق؟

والإمام الصادق، هو جعفر بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم جميعاً السلام. وجدته فاطمة الزهراء، كريمة رسول الله محمد(ص).

ولد جعفر سنة ٨٠هـ، وانتقل إلى جوار ربه سنة ١٤٨هـ. وسمي الصادق، لأنه اشتهر بالصدق، في مراحل حياته كلها، لم يقل إلا ما يعتقده صدقاً، ولم يفعل إلا ما يراه حقاً.

علم الصادق:

أطلّت عين جعفر على مختلف العلوم: الدينية والدنيوية.

خاض في علوم القرآن الكريم، فاجتمع عنده منها ما كان يعلمه قبله، أهل بيت رسول الله، ولا سيما عليٌّ، الذي قال عنه ابن عبّاس: «ما أخذت من تفسير القرآن، فمن عليّ بن أبي طالب».

وابن عباس ـ كما نعلم ـ هو الذي دعا له رسول الله بقوله: [**اللهم علّمه الحكمة وتأويل القرآن**].

ومثلما خاض جعفر في علوم القرآن، فقد خاض في علم الحديث، حيث كان محدثاً ضليعاً، ارتضى علماء السنة طريقه، فرووا عنه الكثير من الأحاديث الشريفة.

وممن أخذ عنه الحديث: أبو حنيفة ـ صاحب مدرسة الرأي في العراق ـ ومالك ـ صاحب مدرسة الحديث في المدينة.

ولقد وضع جعفر بن محمد، للعلم تعريفاً، كله روحانية وخير، حيث قال: «إن استنارة القلب هي روح العلم، والصدق هدفه، والإلهام دليله، والعقل مستقره، والله موجهه».

ومن مثل هذه الكلمات، يمكن للقارىء، أن يدرك الذوق اللغوي الرفيع للإمام الصادق عليه السلام ثم ما أروعه ـ قدّس الله ثراه ـ في إدراكه لسر تعاقب آيات القرآن الكريم حيث يقول: «عجبت لمن خاف، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿**حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾.

فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿**فانقلبوا بنعمة من الله وفضل، لم يمسسهم سوء**﴾. وعجبت لمن اغتمّ، كيف لا يفزع إلى قوله تعالى:

﴿لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين﴾ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فاستجبنا له، ونجيناه من الغم، وكذلك ننجي المؤمنين﴾. وعجبت لمن مُكرَ به كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿وأفوّض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد﴾ فإني سمعت الله عز وجل، يقول بعقبها: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾، وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها، كيف لا يفزع إلى قوله تعالى: ﴿ما شاء الله. لا قوة إلا بالله﴾ فإني سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك﴾.

ومثلما كان جعفر إماماً في العلوم الدينية والفقهية، فقد كان ذا إلمام واسع بمعظم العلوم المدنية، لأنه كان يرى فيها ما يساعده على فهم العلوم الدينية.

فقد كان لجعفر كلام في الكيمياء. ويكفيه فخراً، أن يكون من تلامذته جابر بن حيان الذي ألف كتاباً في الكيمياء، يحتوى على ألف صفحة تضمنت رسائل أستاذه جعفر، البالغة خمسمائة رسالة.

وجابر بن حيان ـ كما هو معروف ـ استاذ لـ: «لا فوازييه» أبي الكيمياء الحديثة، كما كان جعفر صاحب إطلاع واسع بعلوم: الفلك والحيوان والآثار وغيرها، مما لا تتسع لشرحه صفحات هذا المقال.

الصادق ووجود الله:

وأما لجهة جهاده في سبيل الدعوة فحسبه عليه السلام أنه تصدى للفتن التي نشبت في عصره، حيث أخذ الإلحاد يغزو أفكار الناس ـ كما هو حال مجتمعنا اليوم ـ فسهر على المتنطعين والخائضين في ذات الله تعالى، حرباً لا هوادة فيها، وصرخ في وجوههم بالكلمة المدوية: «أن الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا في الله. فإذا سمعتم ذلك قولوا: لا إله إلا الله الواحد الذي ليس كمثله شيء».

هذا الذي قاله جعفر عن وحدانية الله تعالى، وعدم جواز الكلام في ذاته يجاريه فيه أحدث من جاء بعده من الفلاسفة، حيث نجد «سبنسر» يقول: «إن النظر في أصل الوجود، كفر بالإله».

ونجد «ديكارت» الفرنسي، أبا المدرسة العقلية، يثبت بفكره المجرد واجب الوجود فيقول: إني أفكر، فأنا إذن موجود، وليس وجودي بنفسي، فأنا غير كامل، وإذن فالكامل هو الذي أوجدني أو الكامل هو الرب فهو موجود، وهذه حقيقة لا شك فيها، وهو الكمال المطلق».

حتى «فولتير» ـ عدو الدين كما نعلم ـ كان يقول: «بقدر ما أفكر، بقدر ما أشك، بأن هذه الساعة موجودة وليس لها موجد».

الصادق والرأي :

ولقد كان الإمام جعفر، يعتمد على الكتاب والسنة، ويقلل من الاعتماد على الرأي. قال ابن شبرمة: دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد، فقلت له: هذا رجل فقيه من العراق. فقال جعفر: لعله الذي يقيس الدين برأيه! هوالنعمان بن ثابت؟ قال ابن شبرمة: ولم أعلم باسم أبي حنيفة قبل ذلك اليوم. قال أبو حنيفة: نعم أنا ذلك ـ أصلحك الله ـ. فقال له جعفر: اتق الله ولا تقس الدين برأيك، فإن أول من قاس برأيه إبليس، إذ قال «أنا خير منه» فأخطأ قياسه فضلّ.

ثم قال جعفر لأبي حنيفة: أتحسن أن تقيس رأسك من جسدك؟ قال: لا.

قال جعفر: فأخبرني لِمَ جعل الله الملوحة في العينين، والمرارة في الأذنين، والماء في المنخرين، والعذوبة في الشفتين؟ لأي شيء جعل الله ذلك؟.

قال أبو حنيفة: لا أدري!

قال جعفر: إن الله تعالى خلق العينين فجعلهما شحمتين، وخلق الملوحة فيهما منّاً منه على ابن آدم، ولولا ذلك لذابتا فذهبتا، وجعل المرارة في الأذنين، منّاً منه عليه، ولولا ذلك، لهجمت الهوام فأكلت دماغه، وجعل الماء في المنخرين، ليصعد منه النفس وينزل، ويجد الريح الطيبة من الريح الرديئة. وجعل العذوبة في الشفتين، ليجد ابن آدم لذة المطعم والمشرب.

ثم قال جعفر لأبي حنيفة، أيهما أعظم عند الله إثماً: قتل النفس التي حرّم الله بغير حق أو الزنا؟

قال: بل قتل النفس.

قال جعفر: إن الله تعالى، قد قبل في قتل النفس، شهادة شاهدين، ولم يقبل في الزنا إلا شهادة أربعة، فأنّى يقوم لك القياس؟

ثم قال جعفر لأبي حنيفة: أيهما أعظم عند الله: الصوم أو الصلاة؟.

قال أبو حنيفة: الصلاة..

قال جعفر: فما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة!؟ فاتق الله يا عبد الله، ولا تقس الدين برأيك فإننا نقف غداً نحن ومن خالفنا بين يدي الله، فنقول: قال الله وقال رسول الله، وتقول أنت وأصحابك سمعنا ورأينا، فيفعل الله بنا وبكم ما يشاء.

وهكذا دار الحديث، بين القطبين العظيمين، حتى قيل إن النعمان تبع جعفراً، يتعلم منه عامين كاملين، وصار أبو حنيفة يقول: «لم أرَ أفقه من جعفر بن محمد».

كما كان يقول: «لولا السنتان لهلك النعمان»

الصادق والقدر:

ليس غريباً على الإمام الصادق، أن ينفر من الكلام، في القدر، فهو حفيد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الذي سئل مرة عن القدر فقال: «طريق مظلم فلا تسلكوه» وسئل ثانية، فقال: «بحر عظيم فلا تلجوه» ثم سئل ثالثة، فقال: «سرّ الله فلا تتكلفوه». ولما سئل جعفر عن القدر قال «هو أمر بين أمرين: لا جبر ولا تفويض» ثم قال ـ رضي الله عنه ـ: «إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً. فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أظهره لنا، فما بالنا نشتغل بما أراده الله بنا عما أراده منا»؟.

وقال الصادق ـ يوماً ـ لزرارة بن أعين: يا زرارة، أعطيك جملة في القضاء والقدر؟

قال زارة: نعم، جُعلت فداك!

قال الصادق: إنه إذا كان يوم القيامة، وجمع الله الخلائق، سألهم عما عهد إليهم لا عمّا قضى عليهم.

الصادق والفتوى:

كان جعفر، يرجع إلى الأقوم فيما اشتبه الناس فيه، ولا يبالي بأي رأي يقف في طريق الإصلاح مهما أجمع عليه الناس.

ومن ذلك فتواه ـ رضي الله عنه ـ في توسعة البيت الحرام حين شكى الناس ضيقه، وأراد المنصور أن يزيد فيه، وكتب إلى زياد بن عبيد الله الحارثي، أن يشتري المنازل التي تلي المسجد، حتى يزيد فيه ضعفه، فامتنع الناس عن البيع، فذكر ذلك لجعفر بن محمد، فقال: سلهم: أهم نزلوا على البيت، أم البيت نزل عليهم؟.

فكتب بذلك أبو جعفر المنصور إلى زياد ليسأل الناس عما قاله جعفر بن محمد، فقالوا: نحن نزلنا على البيت. فقال جعفر: إن للبيت فناءه.

عندئذ كتب أبو جعفر المنصور إلى زياد بن عبيد الله الحارثي بهدم المنازل التي تلي المسجد الحرام عملاً بفتوى الإمام الصادق.

فهدمت المنازل، وأدخلت عامة دار الندوة فيه، حتى زاد فيه ضعفه.

الصادق والسياسة :

يقولون : إن جعفر شغل نفسه بالعبادة، ولم يُقحمها في ميدان السياسة . والواقع ليس كذلك، فإن جعفراً كان يفهم السياسة بما يقوم به الدين، وتتحقق العدالة، وتتصل المروءات بين الناس .

وتبعاً لهذا المفهوم، فإن جعفراً، عندما شبت ثورة المدينة فإنه وإن لم يشترك شخصياً في القتال، إلا أنه أشرك فيه ولديه : موسى وعبد الله، ليعاونا ابن عمهما في الثورة على المنصور.

ففعلا، ومني جعفر بفقد أعزّ ما لديه، مني بفقد ولديه، عليهم جميعاً السلام .

الصادق والوصايا :

أما وصايا الصادق وعظاته فكثيرة، ولطالما كان ينثرها بين أهله وطلابه وشيعته ومريديه، ومن وصاياه ـ رضي الله عنه ـ قوله : لا تخالطنّ من الناس خمسة :

ـ الأحمق، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك .

ـ والكذاب، فإن كلامه كالسراب، يقرب منك البعيد، ويباعد منك القريب .

ـ والفاسق، فإنه يبيعك بأكلة أو شربة .

ـ والبخيل، فإنه يخذلك وأنت أحوج ما تكون إليه .

ـ والجبان، فإنه يسلمك ويتسلّم الديّة .

أخيراً، ومرة ثانية، أنهي كلامي من حيث بدأت، فأهيب بكبار علماء أهل السنة وفقهائهم، أن يتعمقوا بدراسة المذهب الخامس في الإسلام ـ مذهب الإمام جعفر ـ إلى جانب تعمقهم في معرفة مذاهبهم، فيستفيدوا كثيراً من علمه الغزير، وتراثه الثمين .

جزى الله الإمام جعفر الصادق، خير ما يجزي به العلماء العاملين، ورضي الله عنه، وعن آل بيت رسول الله أجمعين .



المصـادر:

١ ـ أعداد مجلة «الإسلام» ـ جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية في القاهرة.

٢ ـ عقائد الإمامية ـ محمد رضا المظفر.

٣ ـ مع الشيعة الإمامية ـ محمد جواد مغنية.

٤ ـ من هو العلوي؟ ـ عارف الصوص.

٥ ـ الغلو والفرق الغالية في الإسلام ـ د. عبد الله سلوم السامرائي.

٦ ـ فضائل أمير المؤمنين علي ـ قوام الدين القمي المشنوئي.

٧ ـ النبأ اليقين عن العلويين محمود الصالح.

٨ ـ النص والاجتهاد ـ السيد عبد الحسين شرف الدين.

٩ ـ الدعوة والدعاة في الإسلام ـ د. مصطفى الرافعي.

١٠ ـ «إسلامنا» في التوفيق بين السنة والشيعة ـ د. مصطفى الرافعي.

١١ ـ الإمام جعفر الصادق ـ عبد العزيز سيد الأهل (منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في القاهرة).



الأستاذ محمد علي اسبر



الإمام الصادق [ع]
جامعة فكرية وعبقرية رحمانية
وعلوم إنسانية وأخلاق محمدية



بسم الله الرحمن الرحيم

إن من يدرس تاريخ الإسلام حتى عام ـ ٢٦٠ هـ ـ يجد أن كلاً من الأئمة الاثني عشر أهل بيت رسول الله قد أدى دوراً بنّاءاً في الحفاظ على الإسلام . . وترسيخ عظمته ومعانيه في القلوب . . فالتاريخ يرينا الإمام علي بن أبي طالب قوة فذّة . . جعلت نورانية الإسلام تمتد على دنيا الله ناسخةً ظلمات وثنية الكفر . . . وبغي الطا قية . . والإستكبار البغيض . . وذلك ببأسه الأشم . . وعلمه الأنور . . . ثم يأتي بعده ولده الإمام الحسن فيمثل دوراً بارزاً جليلاً في حقن دماء المسلمين . . وبقاء الإسلام قوة ماردة قاهرة بما أبرمه مع معاوية بن أبي سفيان من مواثيق لم يكد يجف مدادها حتى نكث معاوية كل ما أبرمه ، وفرض نفسه (دكتاتوراً) كسروياً على الناس . . . ثم نصب ابنه يزيد بحد السيف حاكماً فرداً على عالم العروبة والإسلام . . وقد وصف المؤرخون يزيد بأنه : سكيرٌ . . ماجن . . عربيد . . خليع . . وقد ظهرت هذه الخصال في أفعاله وأقواله بعدما تسلم مقاليد السلطة أفاعي سامّة . . وأضاف إليها ظلماً يسقي مرارته جماهير الشعب نهلاً . . وعلاً . .

ويرى الإمام الحسين كتاب الله يدعوه إلى الثورة على مفاسد يزيد الخلقية . . والدينية . .

والإجتماعية . . ليعيد للإسلام نضارته الرحمانيّة . . ويعيد للمسلمين صفاء الحياة التي نعموا بمذاقها الشهي أيام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه الراشدين . .

ويلبي الإمام الحسين نداء القرآن، ويخرج على عنفوان يزيد . .

ويقدم دمه الطاهر . .

ودماء أهله وصحبه الغطاريف، فداء مباركاً للإسلام، وعدالة الإسلام . . . فكان دمه الزكي المسلسل من دم جده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الطاقة الصُّلبة التي أعادت للإسلام عزته . . وزحزحت من كابوس العذاب . . عن قلوب جماهير الشعب . .

ويقول لنا التاريخ أن عبد الملك بن مروان كان يفتح القرآن الكريم ويتلو بضع آياتٍ منه بين الحين والحين . . . وبينما هو يُقلّب بصره فيه ذات يوم يأتيه البشير بأنه أصبح للمسلمين حاكماً . . فيطبق القرآن، ويلقي به جانباً، ويقول له : هذا آخر العهد بك» .

وتسري هذه الروح أثناء حكمه في خلايا طبقة المترفين . . . فتنصرف قلوبهم إلى الدنيا . . . وتتسرب عدوى تلك الروح إلى سواد الشعب . . . ويبصر الإمام علي زين العابدين الشهوات الآثمة تستحوذ على مشاعر الناس . . . فيطلع عليهم بأدعيته المكتنزة بنعيم الروح ـ المستمدة مباهجها الساحرة من أنوار الذكر الحكيم . . فما لبثت أن أشعلت في أعصاب الناس الحنين إلى الله رب العالمين . . . وما لبثوا أن اتخذوا منها دواء لأوجاع الظلم التي ينفثها في أحاسيسهم الحكام البطرون . . . المستهترون . . ويجيء دور الإمام الباقر فيرى غواشي الجهل بالإسلام تتلبد في قبته الخضراء . . . فينشيء مدرسة فقهية لتربية الأجيال الصاعدة على نهج الإسلام . . وحضارته . . فيتقدم في ذلك شوطاً راشداً . . . ثم جاء بعده ولده الإمام الصادق في عصر انطفأ فيه الحس الأموي . . . وأخذ المد العباسي يتسلق الدرجات الأولى مغامراً في صعوده . .

وينعم الصادق النظر في أوضاع المجتمع الإسلامي يدرسها دراسةً شاملة من نواحيها : الثقافية . . . والاقتصادية . . . والعمرانية . . و . . و . . فيرى تخلفاً علمياً . . . . وحضارياً . . . ينكره الإسلام . . ويرى أن العلم وحده هو مفتاح خزائن : الاقتصاد . . والعمران . . . والتقدم الحضاري . . . فيعقد العزم على توسيع مدرسة أبيه حتى يجعل منها جامعة إسلامية عُليا . .

ويتهيأ له بحزمه الصادق . . . وإخلاصه . . ة وفي ظلال الأوضاع السياسية السائدة حينذاك . . أن يحقق ما يصبو إليه وإذا جامعته تستقطب في أعوام قليلة أربعة آلاف طالب . . .[1].

ويتحدث إلينا الحسن بن علي الوشّا الذي جاء بعد الإمام الصادق فيقول : «أدركت في هذا المسجد «مسجد الكوفة» تسعمائة شيخ كُلٌّ يقول : حدثني : جعفر بن محمد . .[2].

ودروس جامعة الإمام الصادق كانت متنوعة كدروس الجامعات أيامنا هذه. . فهو إمام في.

آ ـ الفقه والتشريع.

ب ـ تفسير القرآن وعلومه.

جـ ـ الفلسفة ـ علم الكلام ـ في منهج قرآني. . .

د ـ أصول علم الفقه.

هـ ـ علم الأخلاق.

و ـ علم الطب.

ز ـ علم الكيمياء.

حـ ـ علم الفلك.

ط ـ العلوم الكونية.

ي ـ علم الأحياء. .

وكان يفيض من بحر علومه هذه على طلاب جامعته كُلٌّ حسب اختصاصه. . . وعن علومه هذه يُحدثنا أحد علماء الأزهر الشريف وهو الشيخ محمد أبو زهرة فيقول: «إن الإمام جعفر الصادق كان قوة فكرية في هذا العصر، لم يكتف بالدراسات الإسلامية، وعلوم القرآن، والسنة، والعقيدة، بل اتجه إلى دراسة الكون وأسراره، ثم حَلَّق بعقله الجبار في سماء الأفلاك، ومدارات الشمس والقمر والنجوم، ثم علم وحدانية الخالق من إبداع المخلوق، ومن تعدد الأشكال والألوان ـ وإنه وإن كان قد درس الكون، وأصل الكون، وخاض مع الفلاسفة الذين كانوا يشككون الناس في اعتقادهم، متتبعين من سبقهم من مشركي اليونان ـ قد عني عناية كبرى بدارسة النفس الإنسانية»[٤].

وكان نتاج جامعة الإمام الصادق بعث حركة علمية. . . ثقافية. . . طورت العالم الإسلامي تطويراً خلّاقاً، يعطينا السيد مير علي الهندي في كتابه مختصر تاريخ العرب وصفاً حياً لذلك البعث فيقول: «لا مشاحة أن انتشار العلم في ذلك الحين قد ساعد على فك الفكر من عقاله، فأصبحت المناقشات الفلسفية عامة في كل حاضرة من حواضر العالم الإسلامي، ولا يفوتنا أن نشير إلى أن الذي تَزَعَّم تلك الحركة هو حفيد علي بن أبي طالب المسمَّى بالإمام الصادق».

ثم يفتح لنا صفحة خضراء عن فكره الثاقب. . . وإلمامه بالعلوم فيقول: «وهو رَجُلٌ رَحْبُ أُفُقِ الفكر، بعيد أغوار العقل، ملمٌّ كل الإلمام بعلوم عصره».

وينقلنا إلى فردوس جامعته العلمية: فيقول: «ويعتبر في الواقع أول من أسس المدارس الفلسفية المشهورة في الإسلام».

ويطلعنا على أمر مبهج هو: ان ذكر جامعة الصادق روضة معطار في ألسنة العالم. . . وأن طلاب

العلم كانوا يأتونها من كل فج عميق لكي يغنوا عقولهم من ثرواتها العلمية . . ثم يعودون إلى بلدانهم لينشروا فيها ذلك الغنى ثقافةً . . ومدنيةً . . وعمراناً . . . وحباً . . .

لِنُصْغ إليه يقول : «ولم يكن يحضر حلقاته العلمية أولئك الذين أصبحوا مؤسسي المذاهب الفقهية فحسب ، بل كان يحضرها طلاب الفلسفة والمتفلسفون من الأنحاء القاصية»(٥) .

أما أصحاب «منجد الأعلام» فإنهم يخبروننا أن جامعة الأمام الصادق كانت امتداداً لمدرسة أبيه الباقر فيقولون : «كانت مدرسة الصادق امتداداً لمدرسة أبيه الباقر» .

ثم يذكرون النجاح الرحب الذي أحرزته . .
وأنها كانت عُشّاً ذهبياً لطلاب العلوم .

وأنها سعدت بما كانت تنشده من تلقيح الأذهان بسحر البهاء الثقافي . . . فيقولون : «ونجحت نجاحاً كبيراً في نشر الثقافة الإسلامية» .

ثم يعرفوننا شأناً خطيراً من شؤون الصادق هو نسغ الحياة العلمية . . والفاعل الحي في تقدمها . . وسموها . . ألا وهو التأليف والتدوين . .

يقول أصحاب المنجد : «من أعظم إنجازات الصادق دعوته للتأليف والتدوين . . وكان قبله قليل الحدوث» .

ولا مناص لك من أن تأخذ الدهشة بلبك حين يطلعونك على عدد الكتب التي ألفها تلاميذه في ذلك الزمن هاهم يقولون : «وبلغ ما ألفه تلاميذه أربعمائه كتاب لأربعمائة مؤلف»اهـ .(٦) .

وتعال نستمع إلى ابن حجر الهيتمي الشافعي المذهب وهو يتحدث عن علوم الإمام الصادق وانبساطها في العالم انبساط ضياء الصباح . .

قال : «ونقل الناس عن الصادق من العلوم ما سارت به الركبان ، وانتشر صيته في جميع البلدان»اهـ .(٧) .

ولا بُدَّ أنك رأيت أمواج البرق تجوز آفاق السماء إلى شتى المناحي . . هكذا تجاوز الحديث عن جامعة الإمام الصادق منابت العروبة والإسلام ، إلى عالم آخر غير عربي وغير إسلامي يقدر العلم والعلماء حيثما كانوا ، وأينما وجدوا في كوكبنا الأرضي ، ويقدر عملهم لإنارة المجتمع الإنساني بسنا المعرفة . . . والحكمة . . . هذا المستشرق المعروف (رونلدسن) يعرض علينا لوحةً فيها مشهد تاريخي بارز للإمام الصادق ، وهو ينثر من درر علومه على طلابه في أفياء بستانه الأنيق في المدينة المنورة . . ونراه يؤكد وجود شبه بين مدرسة الإمام ، ومدرسة الفيلسوف اليوناني سقراط .

إليك كلماته : « . . ومن الوصف الذي تقرؤه عن إكرام جعفر الصادق ضيوفه في بستانه الجميل في

المدينة، واستقباله الناس على مختلف مذاهبهم، يظهر لنا أنه كانت له مدرسة شبه سُقراطية»اهـ.[٨].

ويخص الأستاذ عبد الحليم الجندي المستشار في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر العربية جامعة الإمام الصادق بالفصل الرابع من كتابه: جعفر الصادق تحت عنوان «المدرسة الكبرى» صَدَّره بقول الإمام الشافعي:

يا أهل بيت رسول الله حبكم — فرضٌ من الله، في القرآن أنزلهُ
كفاكم من عظيم القَدْرِ أنكم — من لم يُصَلِّ عليكم لا صلاة له

ويقول في الصفحة ـ ٢٠٥ ـ من هذا الفصل: «الإمام جعفر يُمثِّل صميم الإسلام... يجتمع في نسبه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر، وعلي... وهو إمامٌ في الدين والفقه... وبحر في العلوم الطبيعية... وهذا البحر إمامٌ يهتدي بهديه واجتهاده أئمة أهل السنة كافَّةً»اهـ.

ونرى الشيخ محمد أبو زهرة يُطل علينا ثانية ليقدم لنا جديداً عن الإمام الصادق...

ونراه بما يقدمه يُلزمنا بإجراء مقارنة بين سقراط الفيلسوف اليوناني... وبين الصادق..

لا جدال أن سقراط أحدث ثورة في الفلسفة بأسلوبه... وفكره..

والإمام الصادق جعل من الفلسفة منهاجاً.. فخلقَ ثورة على الجمود... وأذهل عقول الملحدين.. ولكن، هل وقف الإمام عند تخوم الفلسفة..؟؟

هذا أبو زهرة يعطينا جواباً على ذلك فيقول: «وإذا كان تاريخ الفلسفة يُقرر: أن سقراط قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الإنسان، فالإمام الصادق، قد درس السماء والأرض والإنسان وشرائع الديان.

ولدراسته للكون والإنسان، فهم الأخلاق الإنسانية على وجهها، وما يقوم الإنسان، وما يهديه، وفهم أثر الدين فيه، وفهم الطبائع والغرائز وما يهذبها..»اهـ.[٩].

هكذا يرينا الفرق واضحاً..

فسقراط وقفت ثورته عند حدود الفلسفة...

أما الصادق فقد تجاوز حدود فلسفة: «التوحيد.. والاجتماع.. والاقتصاد.. و.. و.. فدرس الكون ثم نفذ إلى أعماق الروح الإنسانية فدرسها.. وهذه الدراسة يسَّرت له فهم أخلاق الناس.. وهذا الفهم سهلَ عليه أن يهذب أمزجتهم... ويُقَوِّم أخلاقهم.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون..

وكثيراً ما تجري كلمة العلم على لسان الصادق، ويخشى الأستاذ عبد الحليم الجندي أن يفسر بعض الناس هذه الكلمة تفسيراً ضيِّق الجوانب، فيسارع إلى توضيح ما يريده الصادق فيقول: «إن الإمام الصادق يقصد العلم عموماً، ومنه: العلوم التطبيقية، والفلسفات الاجتماعية.. والاقتصادية التي كان لها في مجالس الإمام الصادق مكانٌ هو أول مكان تلقاه في حلقة إمام للدين في مدارس الإسلام..»[*].

والإمام الصادق عبقريٌّ بأرهف وأشرف معاني كلمة العبقرية . .

عبقريٌّ في: أخلاقه ـ المحمدية . . الإسلامية . . الإنسانية . .

عبقريٌّ في أصول العلوم . . وفروعها . . .

يقول صاحب كتاب: الإمام الصادق علم وعقيدة: «الإمام الصادق، موضع للعبقريتين: العلمية والأخلاقية ويقدم لك النبأ اليقين عن الصادق كيف كان يقضي ساعات حياته الوضيئة بالنسبة للعلماء . . . والحياة الاجتماعية . . . فتتبين من كلماته أنك: كما تهيء أنت كتاباً للنشر وترتبه . .

على هذا المثال كان الإمام يصنع العلماء . . . ويربيهم . . .

وكما تتغلغل أشعة الشمس في خلايا الكون فتنعشه . . وتنيره . .

هكـذا كان الصـادق يذيـع المعرفة في المجتمع . . ليشعل أعصابه حبَّ العلم . . والتعلُّم . . وصفاء النفس . . والمحبة المطلقة . . فحياته المقدسة في كل جوانبها الروحية . . والمادية . .

ضياء . . أنّى سار . . .
وكيفما اتَّجه . . .
وحيثما حلَّ . . .

ولا يغفل صاحب الكتاب الأستاذ لاوند عن ذكر مدرسة الصادق ومن خرجتهم من أقيال العلماء . . هلم نقرأ معاً كلماته بذهنٍ حاضر . . .

قال: «كانت حياة الإمام الصادق إشعاعاً لا ينقطع، يصوغ به العلماء، ويشيع به حب المعرفة، كما كانت حياته شعاعاً لا ينقطع يصوغ به الحب سخاء في اليد، وسعة في الصدر، ونبلاً في النفس، ونقاء في الضمـير، ثم ينتقـل إلى التحـدث عن مدرسـة الإمام فيقول: «لقد أخرجت مدرسته رجالاً خالدين كأبي حنيفة، وهو من نعلم من بين صفوة الرجال»اهـ. (١٠).

* * *

فنحن نرى مدرسة الإمام الصادق، وبنطق أخصب وعياً «جامعة» الإمام الصادق تطمئن في أريكة الصدارة في تاريخ الإسلام، ودليلنا القاطع على ذلك، أنه ما من يراعة مؤرخ أوكاتب تبحث أسباب يقظة الفكر العربي ـ الإسلامي . . وانبجاس بحور العلم وتدفقها جداول . . جداول في رحاب العالم، فتخضر للحضارة جنات . . ويعلو للعمران قباب . . وللروح الإنسانية سماء . . أقول: مامن مؤرخ أو باحثٍ يفعل ذلك، إلا ونشاهده يشير بإصبع من نور إلى جامعة الصادق عليه السلام.

ورأى كلانا ـ أنت وأنا الصادق دائرة معارف علمية . . . وذلك السمو العلمي المتعدد الجوانب جعل كل طالب نابه من طلاب جامعته يتطلع إلى التخصص في المادة العلمية التي يتعشقها، فحقق لهم ما أرادوا

فمنهم من اختص بعلم الفقه . . . ومن أبرز هؤلاء :

أبو حنيفة (النعمان بن ثابت الزوطي) إمام المذهب الحنفي .

ومالك بن أنس - إمام المذهب المالكي .

وأبو عاصم النبيل شيخ الإمام أحمد بن حنبل صاحب المذهب الحنبلي .

وسفيان الثوري وهو من شيوخ الفقهاء . . وإمام مذهب . .

ومنهم من اختص باللغة . . وأنبعهم : الكسائي (أبو الحسن علي بن حمزة) .

ومنهم أبان بن تغلب الذي اختص بالفتيا . . والرواية ، وقد روى عن الصادق ثلاثين ألف حديث ، وهو القائل : ما سألت جعفر بن محمد عن شيء إلا قال : قال رسول الله ، وقد احتج بحديثه مسلم في صحيحه ، وأصحاب السنن الأربعة .

ومنهم هشام بن الحكم الذي اختص بعلم الكلام ، قال عنه ابن النديم في الفهرست : «هو من متكلمي الشيعة ممن فتقوا الكلام في الإمامة»[11] .

وقال عنه هرون الرشيد : «إن لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف» ، وعرف بأنه شيخ المتكلمين .

ومنهم : ثابت بن دينار (أبو حمزة الثمالي) الذي اختص بالحكمة(*) . . وصفه الإمام على الرضا فقال : «أبو حمزة في زمانه كلقمان في زمانه» .

ومنهم : مؤمن الطاق (محمد بن علي بن النعمان الأحول) الذي بلغ من العلم شأواً أنه لا يقوم لخصمه أمامه حجة ووصفه الأستاذ الجندي «بأنه كان مناظراً لا يُشق له غبار» .

وممن اختصوا بالرواية أيضاً : جابر بن يزيد الجعفي . . روى عنه مسلم في صحيحه ، والنسائي ، والترمذي ، وأبو داؤود .

واختص السدي الكبير إسماعيل بن عبد الرحمن بتفسير القرآن الكريم .

واختص هشام بن سالم الجواليقي بالتوحيد . . .

وحمران بن أعين بالقرآن . . وعلوم القرآن . .

ومنهم : جابر بن حيان الذي اختص بعلم الكيمياء . .

قال ابن خلكان في الجزء الأول من كتابه «وفيات الأعيان» - ص - ١٠٥ - (باب الجيم) : «جعفر بن محمد أحد الأئمة الاثني عشر على مذهب الإمامية . . تلميذه : ابو موسى جابر بن حيان الصوفي الطرسوسي ، قد ألف كتاباً يشتمل على ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق (في الكيمياء) وهي خمسمائة رسالة» اهـ . الخ .

مشاعل نوريَّة من محاضراته على طلابه.

فلسفة التوحيد

سأله تلميذه هشام بن الحكم، فقال: الله. مِمَّ هو مشتق؟؟

قال: يا هشام. الله مشتق من «إله»، وإله، يقتضي مألوهاً، والاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد كفر، وعبد الاثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التوحيد، أفهمت يا هشام؟؟

وطلب هشام من الإمام شرحاً لكلماته أسطع وضوحاً..

ويجيبه الإمام على سؤاله بمثالٍ.. يكشف عن المعنى، ويجعله متهللاً ببهاء الوضوح..

لنستمع إلى سؤال هشام.. وجواب الإمام.

قال هشام: زدني.

قال: إن لله تسعة وتسعين اسماً، فلو كان الاسم هو المسمَّى، لكان كل اسم منها إلهاً، ولكن الله معنى يدل عليه، فهذه الأسماء كلها غيره».

ثم يتفنن في الإيضاح فيقول: «يا هشام. الخبز اسمٌ للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحروق، أفهمت يا هشام فهماً تدفع به، وتناضل به أعداءنا المتخذين مع الله إلهاً غيره؟؟.

قلت: نعم»اهـ. [١٢]

ومن محاضرة له جواباً على سؤال: هل يوصف الله؟؟

فقال: لا يوصف. بكيف...؟؟ ولا أين..؟؟ ولا حيث..؟؟

وكيف أصفه وهو الذي كيَّف الكيف حتى صار كيفاً، فعرفت الكيف بما كَيَّفَ للناس من الكيف..

أم كيف أصفه بأين، وهو الذي أَيَّنَ حتى صار أيناً، فعرفت الأين بما أَيَّن لنا من الأين.

أم كيف أصفه بحيث، وهو الذي حيَّث الحيث حتى صار حيثا، فعرفت الحيث بما حيث لنا من الحيث.

فالله تبارك وتعالى داخلٌ في كل مكان، وخارج من كل شيء، ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار﴾اهـ. [١٣]

ويقول لهشام: «إن الله تعالى لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء، وكلما وقع في الوهم فهو بخلافه»اهـ.

فلسفة التنزيه

من محاضرة لطلابه في تنزيه الله سبحانه.

قال: «من زعم أن الله في شيء..

أو على شيء..

أو يحول من شيء إلى شيء.

أو يخلو منه شيء...

أو يشتغل به شيء...

فقد وصفه بصفة المخلوقين، والله خالق كل شيء، لا يقاس بالقياس، ولا يُشَبَّه بالناس، لا يخلو منه مكان، ولا يشتغل به مكان، قريبٌ في بعده، بعيد في قربه، ذلك الله رب العالمين لا إله غيره»اهـ.

وفي نفي شبهة الجسم والصورة قال: «إن الجسم محدود متناهٍ، والصورة محدودة متناهية، فإذا احتمل

الحد احتمل الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً».

ويلتبس على أحدهم قول الإمام، فيسأله: ماذا أقول؟؟

فيلطف به الإمام، ويلعمه كيف يُنَزِّه الله عز وجل عن الجسم والصورة فيقول له:

لا جسم، ولا صورة..

الحد احتمل الزيادة والنقصان، وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً».

ويلتبس على أحدهم قول الإمام، فيسأله: ماذا أقول؟؟

فيلطف به الإمام، ويلعمه كيف يُنَزِّه الله عز وجل عن الجسم والصورة فيقول له:

لا جسم، ولا صورة..

وهو مجسِّم الأجسام، ومصور الصور...

لم يتجزَّأ، ولم يتناه، ولم يتزايد، ولم يتناقص، لو كان كما يقولون، لم يكن بين المخلوق والخالق فرق، ولا بين المنشيء والمنشأ»اهـ[١٤].

وفلسفة الخلق..

.. وأجوبة معجزة في درس لملحد، مدادها سكبٌ من سحر العلم.. وضياء العقل..

الصادق يقول: «الأرض تدور.. والفلك يدور.. فيسبق بذلك «كوبرنيكوس» الفلكي البولوني ب(٧٧٨) عاماً.

وفي حلقـة، من حلقـات دروسـه يأتيـه ملحـد يحلق في ذهنـه سؤ ال. . ويهمس إلحاده في أذنه، أن سؤ اله سيأخذ بأنفاس كل حجة للإمام الصادق. .

الصـادق يقـول: إن لهذا الكـون خالقـاً حكيـماً لا يعجـزه شيء. . ولكن أحداً من الناس لم ير هذا الخالق، فيكيف يعبدون خالقاً لا يرونه رأي العين. . ؟؟

ويجلس الـرجـل إلى الإمـام، وبلهجـةٍ يتمطى فيهـا روح الغـروريقـول: «كيف يعد الله الخلق ولم يروه؟؟ فيقول له الإمام: «رأته القلوب بنور الإيمان وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار ربما رأته من حسن التركيب، وإحكام التأليف. . ثم الرسل وآياتها، والكتب ومحكماتها، واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته دون رؤ يته».

فقال الملحد: أليس هو قادراً أن يظهر لهم حتى يروه، فيعرفوه، فيعبدون علي يقين؟

قال له: ليس للمحال جواب»(*جـ).

فقال الملحد: «فمن أين أثبت أنبياء ورسلاً. . ؟؟

قال: إننا لما أثبتنا أن لنا خالقاً متعالياً عنا، وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً، لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا أن يلامسوه، ولا أن يباشرهم ويباشروه، ويحاجهم ويحاجوه، ثبت أن له سفراء في خلقه وعباده يدلونهم على مصالحهم ومنافعهم، وما به بقاؤ هم، وفي تركه فناؤ هم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عن ذلك أن له معبرين وهم: الأنبياء، وصفوته من خلقه، وحكماء مؤدبين بالحكمـة، مبعـوثين عنه، مشاركين للناس في أحوالهم، على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب، مؤيَّدين من الحكيم العليم بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد، من إحياء الموتى وإبراء الأكمة والأبرص»(*د).

فقال: من أي شيء خلق الله الأشياء؟؟

قال الإمام: من لا شيء.

قال: كيف يوجد شيء من لا شيء؟؟

قال الصـادق: إن الأشيـاء إمـا أن تكـون خلقت من شيء، أومن غير شيء، فإن كانت الأشيـاء خلقت من شيء كان معه فإن ذلك الشيء قديم، والقديم لا يكون حديثاً ولا يتغير، ولا تخلو ذلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً، ولوناً واحداً، فمن أين جاءت هذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هذا العالم من ضروبٍ شتى. . ؟؟

ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الذي أنشئت منه الحياة حياً؟؟

أو من أين جاءت الحياة إن كان ذلك الشيء ميتاً. . ؟؟

ولا يجوز أن ينشأ من حي وميت قديمين لم يزالا، لأن الحي لا يجيء منه ميت وهو لم يزل حياً، . . ولا

يجوز أيضاً أن يكون الميت قديماً لم يزل لما هو به من الموت، لأن الموت لا قدرة له ولا بقاء».

ويبهت الملحد..

كان يحسب نفسه نسراً محلقاً... فإذا هو يرى ذاته أمام ذلك المنطق الباهر باستدلاله، القاهر بحجته.. بُغاثاً مسلوب الجناحين..

ويتململ... ويتصلب لسانه.. ثم ينفلت الحبيس من الدهشة فيقول - وكأنه يبرىء نفسه من مفاسد الإلحاد... ويسنده إلى غيره -: «من أين قالوا: إن الأشياء أزلية..؟؟

فيجيبه الإمام: «هذه مقالة قوم جحدوا مدبِّر الأشياء، فكذبوا الرسل ومقالتهم، والأنبياء وما أنبأو عنه، وسموا كتبهم أساطير، ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم واستحسانهم».

ثم يضع أمامه براهين أخرى مبصرة عن حدوث العالم فيقول له: «وإن الأشياء تدل على حدوثها. من دوران الفلك بما فيه من سبعة أفلاك، وتحرك الأرض ومن عليها، وانقلاب الأزمنة، واختلاف الحوادث التي تحدث في العالم من: زيادة ونقصان، وموتٍ وبلى، واضطرار الأنفس إلى الإقرار أن لها صانعاً ومدبِّراً اهـ. (*هـ)(١٥).

ألا ترى أن الحلو يصير حامضاً، والعذب مُرّاً، والجديد بالياً، وكل إلى تغيير وفناء»اهـ..

ويقرأ الشيخ محمد أبو زهرة - أحد علماء الأزهر الشريف هذه المناظرة فيعلق عليها قائلاً: «هذه المناظرة تدل على أمرين: أحدهما أن الصادق كان على علم دقيق بالفلسفة ومناهج الفلاسفة، وعلى علم بمواضع التهافت عندهم، وأنه كان مرجع عصره في رد الشبهات، وقد كان بهذا جديراً، وذلك لانصرافه المطلق إلى العلم، ولأنه كان ذا أفقٍ واسع في المعرفة لم يتسن لغيره من علماء عصره، فقد كانوا محدثين وفقهاء، أو علماء في الكلام، أو علماء في الكون، وكان هو كل ذلك».

والأمر الثاني الذي تدل عليه هذه المناقشة أن الزنادقة صنفٌ واحدٌ في كل العصور، يضربن على وترٍ واحد وهو: أصل الوجود، فإنك تقرأ أو تسمع كلام زنديق هذه الأيام، فتجده يسأل هذه الأسئلة التي وجهها هذا الزنديق إلى أبي عبد الله جعفر الصادق - حفيد علي بن أبي طالب، ومحمد رسول الله، فهي وراثة يتوارثها الزنادقة في كل جيل..»اهـ.

والعدالة الاجتماعية.. والاقتصادية.. والسياسة المدنية..

رسالة الله التي حملها محمد نبي الهدى إلى العالم هي ربيع العيش المتألق بالصفاء... والحياة المنضرة بالجمال والرخاء.. ولقد غالى كثيرٌ من الناس بالاشتراكية.. فاتخذوا منها لهم شرعةً.. ومنهاجاً.. ورأوا فيها خلاص الإنسانية من أوجاعها.. ومتاعبها.. وتخلفها..

ولكن الأعـوام القليلة التي مضت من عمـر الاشـتراكية برهنت على أنها لم تقدم للإنسانية إلا مزيداً من الإرهاق والآلام.

وحقاً أقول: إن البشرية لن تجد لها خلاصاً مما يسودها من: الظلم... والطبقية.. وتسلط الأقوياء المترفين على جماهير الضعفاء.. إلا في جنات الإسلام الوارفات الظلال..

فالإسـلام الحق بما تتضمنـه مبـادئـه من عدالـة اجتماعية.. واقتصادية.. ومباهج إنسانية هو وحده القادر أن يرتفع بالإنسانية إلى الأفق الكريم الأعلى الذي تتشوق إليه..

إنهـا رسـالـة الله... والله محبـة.. ورحمـة.. وهو تعالى يُحب أن يعيش الناس جميعاً بهاء المحبة.. وحنان الرحمة.. ونقاء الإخاء..

ولإمـامنـا الصـادق كلمات محبـوكـات حروفهـا من فردوس العـدالـة الاجتماعية.. والاقتصادية.. والمسـاواة.. سألـه أحـدهـم: ما معنى (الأنفـال) من قولـه تعـالى: ﴿**يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول..**﴾، فأجاب: هي: القرى التي خربت، وانجلى عنها أهلها.. وما كان للملوك.. والأرضون الموات.. والآجسام.. وبطون الأودية والمعادن ـ هذه جميعها ملك «للشعب»اهـ.[١٦].

وسُئل عن أرض السواد (العراق) ما منزلته؟؟

قال: هو لجميع المسلمين، لمن هو اليوم، ولمن يدخل في الإسلام، ولمن يُخْلَقُ بعد»اهـ[١٧].

هكذا، الكل سواسية.

ويخشى أن يشتري الأغنياء أرض العراق التي فتحها المسلمون فيقول: «لا تشتروا أرض السواد فإنها فيء للمسلمين»اهـ[١٨].

أقول: إن ما ينطبق على أرض العراق ينطبق على غيره من البلدان التي فتحها المسلمون.. ومتى كانت الأرض ملكـاً للشعب فإن وسـائـل الانتاج.. والصناعات... وغيرها تَبَعٌ لها ـ أي أنها تصبح ملكاً للشعب.. هذه هي سياسة الإسلام.. إنما المؤمنون إخوة..

الصادق.. وتطور المجتمع..

.. وتنـداح وشـوشـات في مجتمع المدينة المنورة، ثم تعلوا فتصبح حواراً.. فجدالاً.. فخصاماً.. ماذا يقول هؤلاء الناس؟؟

وفيمَ يختصمون.. ويتجادلون؟؟

إنهم يثيرون بينهم نزاعاً حاراً بشأن الحلال... والحرام.

أي العلوم... وأي الأعمال حلال... وأيها حرام..؟؟

والصناعات. . . وأنواعها. . . أيها يقرُّ الشرع حلّيته. . وأيها يحرمه؟؟
ويُنْقَلُ إلى الإمام ما يدور بين الناس في أسمارهم. . ومطارح أعمالهم. . فماذا قال؟؟
الصادق ثورةٌ تذخر بالنشاط الحيِّ لبناء المجتمع على القواعد التي رفعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

فهو يدعو إلى سلوك أي نهج صحيح فيه حياة رضيَّة. . تنشد التجدد. . والاستعلاء فوق كل ما يعوق حركة المد الحضاري. . . مادةً. . . وروحاً. .

لذلك كان جوابه الذي جعل السكينة تفرد جناحيها الذهبيين على الناس، بالنسبة للعلم. . والعمل «كل شيء فيه صلاحٌ للناس بجهةٍ من الجهات، فهذا كله حلال. . وكلُّ أمرٍ فيه وجهٌ من الفساد، فهذا كُلُّه حرام».

أما بالنسبة للصناعات وأنواعها. . . فقد قال: «كل ما يتعلم العباد، أو يعلمون غيرهم من صنوف الصناعات، وأنواع صنوف الآلات التي يحتاج إليها العباد التي منها منافعهم، وبها قوامهم، وفيها بلغة جميع حوائجهم، فحلال فعله وتعلمه، والعمل به. . »اهـ.(١٩).

ذلك هو الإسلام رياض غناء لا حدود لها، تفتح أحضانها لكل جديد مفيد. . علماً كان أو عملاً. . أو صناعة. . ما دام يكسو المجتمع تقدماً مباركاً خصباً. . وعيشاً كريماً رغداً. .

والأخــلاق

الأخلاق الفاضلة نسغ الحياة. . . فإذا انحطت الأخلاق يأخذ النسغ بالجفاف. . وبمقدار الطاقة التي تنحرف فيها الأخلاق عن صراط الله الحميد يكون جفاف نسغ الحياة.

وحقاً إن الأمم الأخلاق. .
وإذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقم عليهم مأتماً. . وعويلا. .

والصادق في أخلاقه بحر تفجر من محيط جده رسول الله الذي وصفه الله بقوله: **﴿وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم. . ﴾** وجده الرسول الأقدس قال: **أقربكم مني مجالس يوم القيامة أحسنكم أخلاقاً»اهـ.**

والإمام يُريد لكل مسلم مؤمن أن يكون مجلسه يوم القيامة في الجنة غير بعيد عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أجل ذلك كان دأبه في جامعته العلمية. . . وفي أفعاله. . . وأقواله. . العمل ليجعل الأخلاق القرآنية تجري دماً نقياً في الصدور. . وابتسامة ضياء في الأرواح. .

جاءه يوماً رجلٌ يتلألأ في عينيه بريق سؤال. . . يطمح أن يعطيه الإمام عليه جواباً. .

يتردد الرجل . . ولكنه يرى في وجه الإمام المتهلل بالبشر ما يشجعه على السؤال . . فإذا هو يقول له: «أريد أن تعلمني ماأنال به خير الدنيا والآخرة، ولاتطوِّل علي . . »

ربما كان يدور في هواجس الرجل أن الإمام سيغرقه في بحرٍ من عبارات التوجيه المألوفة . . ولذا قال له: لا تطول عليَّ . .

فبماذا أجابه الإمام؟؟

قال له كلمتين اثنتين . . كلمتان مؤلفتان من حرف وفعل فالحرف نهيٌ . . والفعل هو المنهيُّ عنه . . قال له: «لا تكذب».

ما أجلها عبارة . . وما أرحب وأشمل ما تنطوي عليه من معانٍ.

لا تكذب.

إن الرجل الذي يعتقد أنه مؤمن بالله . . ولا يعمل بما أمره به . . . ، ولا يترك ما نهاه عنه . . . يكون كاذباً في إيمانه . .

وإن المصدق بنبوة محمد، وما أنزله الله عليه . . ولا يعمل بتعاليمه يكون كاذباً . .

وإذا لم يصدق المؤمن بالله ورسوله مع الأئمة من أهل البيت فيرى لهم حق الولاية . . فقد كذب .

وإن الرجل الذي يستيقن في نفسه الإيمان، ولا يحب في الله ويبغض في الله فقد كذب.

وإذا غَشَّ الناس في تعامله معهم . . فقد خان . . وكذب . .

وإذا عمل المعروف . . رياء . . وسمعه . . فقد كذب . .

وإذا جاهد . . ولم يكن جهاده لجعل كلمة الله هي: العليا . . فقد كذب . .

وإذا اقترف منكراً . . أو فاحشة . . قولاً . . أو فعلاً . . وسُئل عنه، فأنكر فقد كذب . .

وإذا داهن أهل المعاصي فقد كذب . .

وإذا لم يأمر بالمعروف، وينه عن المنكر . . فقد كذب . .

وإذا قال بلسانه غير ما يهب في خاطره . . فقد نافق . . وكذب . .

وإذا لم يكن صادقاً مع ربه ونبيه . . ومع زوجته وأولاده . . ومع جيرانه ومجتمعه . . فقد كذب . . وهكذا . .

إذاً، فالكذب هو المدخل إلى كل رذيلة خلقية . . أو دينية . . أو اجتماعية . .

الكذب يُعري الحياة من جلدها الآدامي الأصيل . .

وفي تركه يتحقق أمران:

الأول: التربع على قمم الفضائل والمحامد الإنسانية . .

والثاني: بناء الشخصية . . بناء شامخاً راسخاً من جوانبها: المادية . . والروحية . . والفكرية . . والأخلاقية . . إن المجتمع حين يتطهر من رذيلة الكذب وخبائثه، تتبدل الأرض غير الأرض. وتشرق

بأنوار الصدق.. وأنوار الصدق تنمي في أفئدة الناس وأحاسيسهم نعيماً سمحاً.. لا يمتص منه دم الصفاء جراثيم المفاسد.. والشرور.. «لا تكذب».

لا تكذب تنل خير الدنيا... والآخرة..

ألا ما أمجد الصادق في عطائه.. الكثير.. الكثير..

العـدل.. وولايـة الفقيـه

العدل أحد أصول الدين الإسلامي..

والله سبحـاه أرسـل الأنبيـاء فيـا أرسـل.. لينصفـوا الضعفـاء المظلومـين.. من بطش الأقـويـاء الظالمين.. وذلك لا يثبت إلا بسلطان العدل..

والله يأمر (أصحاب الولاية = الحكام) أن يعدلوا حتى مع الذين يصلونهم نار البغضاء..

يقول تعالى: «ولا يجر منكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى».(٢٠)

والحاكم الذي يتولى سياسة الناس يجب أن يكون متميزاً بعقله.. فقيهاً في دينه.. جهبذاً في معرفة ما شرع الله من أحكـام.. ليعـرف كيف يطفىء بمراحم العدل.. جمـر الظلم... وبـذلك تكون ولايته مصدر: فرح.. وسلام.. وأمنٍ للجميع..

والإمام يعلمنا أن الإمامة نوعان..

نعم، هي نوعان.. فتمهل... ولا تعجل..

هوذا الإمام الصادق يقول: «الولاية جهتان: ١ ـ ولاية العدل.. ٢ ـ وولاية الجور..

ثم يرينا النعيم الشهي الذي يتفتح عنه حكم الوالي العادل فيقول: «إن في ولاية والي العدل وولاته إحيـاء كل حق، وكـل عدل، وإمـاتـة كل ظلم، وجـور، وفساد، فلذلك كان الساعي في تقوية سلطانه، والمعين له على ولايته، ساعيةً إلى طاعة الله، مقوياً لدينه»(٢١).

بعـد هذه العبارات القـلائـل التي تصلح أن تكـون نواة لتأليف كتاب عن حكومة الوالي العادل.. ينقلنا إلى ولاية الحاكم الجائر.. فيضع أمامنا صورة عنه.. فهويدوس بمنكراته.. قداسة الحق.. فيظلم ويشعـل في الأرض نار الفسـاد.. ويعطـل العمـل بأحكـام كتاب الله.. ويغرق الناس في بحر من ظلمات وثنية الشقاء..

وهو ـ ع ـ من أجل أن يطلع على المجتمع صباحاً مورّداً بمغانم الرخاء.. والخير.. والجمال.. يُحرِّم العمـل معـه ومـع أعـوانه السالكين نهجه الأسود.. بل هوينذره وينذرهم بالعذاب الشديد.. ومن خلال هذا الإنـذار أرى أنـه يدعـو الشعب إلى الثورة على الظلم.. والظالمين.. وهوبذلك يستمد معاني دعوته

الحارة إلى الثورة من جده الرسول الأعظم الذي قال: «**من رأى سلطاناً جائراً، مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا بقول، كان حقاً على الله أن يدخله مدخله . .**»اهـ.

وبعد، فلنصغ إلى الإمام يقرع مسامع وعينا بقوله: «وأما ولاية الوالي الجائر، وولاية ولاته، والعمل لهم، والكسب معهم بجهة الولاية لهم، فحرامٌ، ومحرم، مُعذَّبٌ في النار من فعل ذلك، على قليل من فعله أوكثير، وذلك لأن في ولاية الوالي الجائر دوس الحق كله، وإظهار: الجور، والظلم، والفساد، وإبطال الكتب.

فلذلك، حرَّم الله العمل معهم، ومعونتهم، والكسب معهم، إلا بجهة الضرورة، نظير الضرورة إلى الدم والميتة»اهـ.[٢٢]

عالمية الإسلام في كلمات للصادق يسطع منها عبير الإنسانية . .

كثيرون أولئك الذين يشيلون برؤوسهم . . ويهزون أعطافهم معجبين بأنفسهم . . فخورين بحسبهم . . أونسبهم أوكرمهم . .

ولكن الحسب والنسب والكرم عند الإمام شيء آخر غير ما يراه هؤلاء المتغطرسون . .

إنه يرى نسب الرجل ـ أي رجل، عقلاً مزدهراً بالوعي . . يعبد به الله . . ويمسكه عن إيقاع ضرر في المجتمع . .

ويرى حسبه ديناً رحمانياً يغذيه ثمار التلاحم الإنساني المنسوج من ضياء المحبة . .

ويرى كرمه طاعة لله مشرقةً في قوله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول**﴾.

وهو يرى الناس كلهم إخوة ـ أبوهم آدم، وأمهم حواء . . وان الأنبل منهم هوالذي يعمل بإخلاص . . وتضحية . . لتنقية المجتمع البشري من حُمّى المفاسد . . وتطويره في سلّمٍ حياةٍ أكرم حضارة . . وأرغد عيشاً . . وأهنأ حباً . . كل ذلك نلمسه في الحكاية التالية: سأل الإمام عن رجل من أهل السواد، كان يتردد عليه، ثم انقطع عنه، وأراد نفرٌ من الحضور أن يهونوا من شأن الرجل، فقالوا للصادق: «إنه نبطي»[*٥].

فماذا قال لهم الإمام؟؟

لقد قال لهم زاجراً: «أصل الرجل عقله، وحسبه دينه. وكرمه تقواه. والناس في آدم متساوون».

لا عِرّقَ . .

لا عنصر. . .

لا لون. . .

ذلك هو الإسلام. .

وهكذا يضيء الصادق قلوب الناس بزيت الحياة كما هي حقيقة الحياة. .

العلماء في سجن الاتهام. . .

قال عليه السلام: «إذا رأيتم الفقهاء يركبون إلى الحكام فاتهموهم. .»اهـ(*).

العلماء ورثة الأنبياء كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكما أن الأنبياء هم القدوة الفضلى للناس. .

وكما أنهم جاؤوا ليدمروا شموخ الظلم. . ويجعلوا الناس إخواناً. . فإن على الفقهاء ـ وهم ورثتهم أن ينهجوا نهجهم السمح، الرحيم، السليم. . ويعملوا لخير الجماعة الإنسانية. .

أما حين يمضي هؤلاء إلى الحاكم يتزلفون إليه، ويتمسحون به رغبة بملاذ دنياه. . فإنه يفتح لهم بابه. . ويهش لهم. . ويصب على شفاههم طلاً عذباً. . ثم ما يبطيء أن يستحوذ عليهم. . ويذللهم لأهوائه السياسية. . ويتخذ منهم وجه دعاية له. . يُلهي بها جماهير الشعب. . ليصنعوا له الرتوع في جنات مسراته. . فلا رقيب على جرائمه الأخلاقية. . ولا حسيب على ممارساته الاجتماعية الظالمة. .

إنه بمأمن من غضب الجماهير وعقابها. . كفاه ذلك السادة الفقهاء. .

من أجل هذا حذَّر الصادق الشعب منهم، وطلب منه أن يضعهم في سجن الاتهام، حين يركبون إلى الحاكم ويضعون أعناقهم تحت نيره. .

حذَّره أن ينخدع بما يبدونه من نُسك؛ وصلاح. . وتقوى، لأنهم:

يُبدون نسكاً، وإن حققته شركاً

وحيلة لُبِّستْ بالمكر تلبيسا

ذلك، لو أن حب الله ورسوله وجد في قلوبهم له سكناً لما مضوا إلى الحاكم سائلين، متخشعين، صاغرين. . لأن من ينفتح قلبه لحب الله ورسوله، لا يسأل غير الله، ولا يخشع لمخلوق عاجز مثله، ولا يرى عظيماً إلا الله. . إن الفقيه (رجل الدين) لا يتخذ من الدين وسيلة للكسب، ولا يسبح بحمد أحد من العالمين.

الفقيه الحق، يطلب من الحاكم حين يراه ناكباً عن الصراط السوي ـ أن يعود إليه ويلتزمه.

الفقيه الحق، لا يرى الدنيا من خلال ذاته ومصالحه الفردية، بل يراها من خلال مصالح جماهير

الشعب دوماً . . إنـه مسؤول عن رفـاهها . . وتطبيق أحكـام السماء العـادلة عليها . . في مستوى طاقاته العلمية . . والاجتماعية . .

الفقيه الحق هو المصباح الذي تستضيء الأمة بنور توجيهه الهادي الذي اقتبسه من كتاب الله ، وسنة رسول الله . .

ولكنه حين يجعل من نفسه سيارة أجرة للحاكم ، وأرباب المناصب . . والمترفين . . فإنه يخون الأمانة العلمية . . إنـه يكـون راضيـاً بما يفعله هؤلاء من منـاكـر . . بل إنـه يكـون عونـاً لهم . . وشـريكاً لهم في آثامهم . . ويكون على الشعب ـ في الساحة الاجتماعية ـ أمضى أذىً من قنابل «النابالم» الحارقة على الجنود في ميادين الحروب . ولذا حذر الإمام من هذه الطغمة من الفقهاء . . وقال يخاطب المسلمين جيلاً بعد جيل :

إذا رأيتم الفقهاء يركبون إلى الحكام فاتهموهم»اهـ .

ومعنى اتهمـوهم : لا تثقـوا بهم . . انبـذوهم . . فإنهم يتخـذون من الـدين وسيلة . . للتقلب في أحضان شهوات الدنيا الآثمة . . والصادق يرى العالم كله بمنظار التسامح وحدة اجتماعية . .

التسامح نبيُّ المحبة . . والإخاء . . والتعاون . .

والله رب العباد أجمعين . .

والإسلام دين الله الذي رضيه لعباده .

والإسلام يحب للناس أن يجعلوا من التسامح بينهم إكسيراً يجددون به شباب الحياة . . ومحاسنها . . وأفـراحهـا . . إن التسـامـح هو العـرى الـوثيقـة التي تشد القلب إلى القلب . . والعاطفة إلى العاطفة . . وتؤلف بين قلوب أبنـاء آدم وحـواء . . ومن روح هذا المبـدأ الـرحماني ـ الإنساني جاء قول إمام الأمة علي بن أبي طالب عليه السلام : «الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره» .

ومن فرقـان هذا المبـدأ الـراشـد يرى الصـادق العـالم كله وحـدة اجتماعية . . بلا تفريق بين دين . . ودين . . فالدين لله والأعمال تثبته . .

والخلق كلهم عيال الله كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

من مضـامـين هذا المبـدأ السمـح نرى الإمـام يخاطب النـاس من خلال أبي بصير أحدُ أعيان محبيه فيقول له : «يا أبا بصير لا تفتش الناس عن أديانهم فتبقى بلا صديق»اهـ .

ذلـك هو لبـاب التسـامـح يطلب الصـادق من الناس أن يتخذوا لهم منه شعارا . . ليعيش أبناء هذا الكوكب الأرضي متحابين . . متراحمين . . متعاونين . .

الصادق في محراب.. الطب..

علمت أن الطب من العلوم التي برع فيها الصادق..

ولكن، هل تعلم من هو أستاذه في علم الطب؟؟

لا أشك أن نفسك نزاعة إلى هذه المعرفة..

إذاً فتعال معي إلى مجلس الحاكم العباسي أبي جعفر المنصور..

وانظر فالمجلس غاصٌ بأعيان الدولة.. وفيه من المهابة ما فيه.

والأنظار ترف على طبيب هندي يقرأ في كتاب طبي مفتوح بين يديه.. والصادق الجالس إلى يمين أبي جعفر مُصغٍ إليه.. ويحلو للهندي أن يذر القراءة، ويقول للإمام: يا أبا عبد الله. أتريد مما معي شيئاً؟؟

ترى لماذا اخصَّ الإمام بالسؤال دون الحاضرين من: فقهاء.. وسياسيين..؟؟

لا يخامرني ريبٌ أنه تآمر أحكم فتل خيوطه مع الطبيب الهندي أبوجعفر المنصور. لأنه كان يرضيه أنفس رضىً أن يضمَّ مجلسه من أصحاب العلوم من يستطيع أن يظهر الصادق بمظهر الضعف، ليجعل من ذلك دعاية يشوِّه بها سمعته عند الفقهاء خاصةً.. وجماهير الشعب عامةً.. وكلهم يصفي الإمام الحبَّ.. والإجلال.. ويراه شعاعاً مقدساً مجدولاً ضياؤه من: رسول الله، وعلي، والزهراء.. وهذه الرؤية الجماهيرية كانت غصصاً حارة يتجرعها المنصور ولا يكاد يسيغها..

إنه يخشى منه على سلطانه الفتيِّ.. لذلك فهو لا يحجم عن نصب شراك الكيد للإمام بين الحين والحين..

ويعيد الهندي السؤال باستعلاء: «يا أبا جعفر. أتريد مما معي شيئاً»؟؟

ولا يخفى على الإمام ما يرمي إليه السؤال، فإذا هو يقول بثقة مطلقة: «لا. ما معي خير مما معك».

.. ويعظم وقع كلمات الإمام على الهندي، وهو في مجلس عامر بأركان الدولة وعلى رأسهم المنصور الخليفة العباسي.. إنه يعرف نفسه قمة رفيعة في علم الطب.. فكيف يكون عند الصادق منه ما لا يعرفه؟؟.

فينظر إلى الصادق ويقول له: وما هو؟؟

قال: أداوي الحار بالبارد.. والبارد بالحار.. والرطب باليابس.. واليابس بالرطب.. وأرد الأمر كله إلى الله عز وجل..

وأعلم أن المعدة بيت الداء، وان الحمية هي الدواء، وأعوِّد البدن ما اعتاد».

فقال الهندي: وهل الطبُّ إلا هذا. . ؟؟
فقال الصادق: أتراني عن كتب الطب أخذت؟؟
قال: نعم.
قال: لا والله ما أخذت إلا عن الله سبحانه، فأخبرني أنا أعلم بالطب أم أنت؟؟
فقال الهندي: أنا.
فقال الصادق: فأسألك شيئاً؟؟
قال: سَلْ.
فألقى عليه ثمانية عشر سؤالاً تتعلق كلها بجسم الإنسان - من رأسه حتى أخمص قدميه، وكان جواب الهندي على كل سؤال: لا أدري.

وتظمأ روح الطبيب الهندي إلى أن يرتوي من معين الصادق فيقول له خفيض الجناح: «لو أنعمت عليَّ بمعرفة جواب هذه الأسئلة. .

لم يكن الهندي وحده المتعطش لمعرفة الأجوبة، بل كان المجلس كله يتلهف شوقاً إلى هذه المعرفة. .

ويرى الإمام الخليفة المنصور وكل من في المجلس يتطلعون بعيون جائعة إلى نعيم المعرفة. . فيشرق للغبطة نهارٌ بهيج في صدره الكريم وهو يرى هذه النفوس التي ترفُّ عليه رفيف الفراشات على مصباح يتوقد نوراً. كلها استعداد لتذوق ما يعطي. . وجعله دماً يتألق في خلايا القلوب. .

ويُعطي الإمام - يشرح ببيان وحدانية الله. . ومنطق التشريح جواب كل سؤال. . (*ح)، فتهب أنسام الحبور في المجلس سكيب عبير. . وإعجاباً بحفيد رسول الرحمن الرحيم.

أما الهندي فإن وهج حرارته من سكر الدهشة والإعجاب يتعالى، ويقول للإمام: «من أين لك هذا العلم؟؟».

فقال عليه السلام: أخذته عن آبائي، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، عن جبرائيل، عن رب العالمين جلَّ جلاله الذي خلق الأبدان والأرواح»اهـ.

وكما حدث لسحرة فرعون، حين رأوا آية العصا التي يعجز عنها البشر فقالوا: آمنا برب العالمين. . هكذا كان شأن الطبيب الهندي، فقد انسلخ من جلد إلحاده وقال للإمام: «صدقت. وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسوله وعبده، وأنك أعلم أهل زمانه»اهـ. (٢٣).

الوصية فيض من روح صاحبها

الوصية ترسم لنا صورة بهيّة الظلال والألوان لشخصية صاحبها بكل ما تبطنه تلك الشخصية من:

مبادىء . . وعقائد . . وأخلاق . . وحكمه . . و . . و . .

ولإمامنا الصادق وصايا كثيرة تحس وأنت تقرؤ ها أنك تقرأ وحياً نزل به عليه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . .

تأسرك رصانة العبارة . .

يسحرك جلال المعنى . .

يزكي نفسك التوجيه الحكيم . .

تشعر وأنت تستقريها(*ط) أنك تعيش مع صاحبها في جو تروحه نفحات القدس بأجنحتها الفردوسية . . هيا . أرهف سمعك، وأدر إليَّ لبك لأرتل عليك آياتٍ مبصرات من وصية إمامنا الصادق لولده الإمام موسى الكاظم . .

«يا بني اقبل وصيتي، واحفظ مقالتي، فإنك إن حفظتها تعش سعيداً، وتمت حميداً.

يا بُنيَّ. إن من رضي بما قسم له استغنى، ومن مد عينيه إلى ما في يد غيره مات فقيراً، ومن لم يرض بما قسم الله له عز وجل اتهم الله في قضائه، ومن استصغر زلة نفسه، استعظم زلة غيره، ومن استصغر زلة غيره استعظم زلة نفسه.

يا بنيَّ. من كشف حجاب غيره، انكشفت عورات بيته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن احتفر لأخيه بئراً سقط فيها، ومن داخل السفهاء حُقِّر، ومن خالط العلماء وُقِّر، ومن دخل مداخل السوء اتهم.

يا بنيَّ. إياك أن تزري بالرجال فيزرى بك، وإياك والدخول فيما لايعنيك فتذل لذلك.

يا بنيَّ. قُل الحق لك أو عليك.

يا بنيَّ. كن لكتاب الله تالياً، وللسلام فاشياً، وبالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً.

وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في قلوب الرجال. وإياك والتعرض لعيوب الناس، فمنزلة المتعرض لعيوب الناس بمنزلة الهدف.

يابنيَّ. إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه، فإن للجود معادن، وللمعادن أصولاً، وللأصول فروعاً، وللفروع ثمراً، ولا يطيب ثمرٌ إلا بفرع، ولا فرعٌ إلا بأصل، ولا أصلٌ ثابتٌ إلا بمعدن طيب.

يا بنيَّ. إذا زرت فزر الأخيار، ولا تزر الفجّار فإنهم صخرة لا يتفجر ماؤ ها، وشجرة لا يخضر ورقها، وأرضٌ لا يظهر عشبها»اهـ.

إنها وصيةٌ اجتماعية . . . أخلاقية . . . روحية . . ألقاها الإمام على ولده الكاظم، وهي موجهة إلى الناس افراداً وجماعات ليعملوا بها . . ويرتعوا في مروج العيش النضير . . . ويفوزوا برضوان ذي الجلال والإكرام . .

وتخامرني الفرحة إذا قلت لك: إنَّ عالماً بارزاً من شيوخ الأزهر الشريف قرأ هذه الوصية المباركة وعلَّق عليها.

ولكن، أتعلم ماذا قال..؟

دعنا نصغ إليه وهو يقرأ ما كتب: «تلك هي الحكمة التي أثمرتها دراساتٌ عميقةٌ لطبائع النفوس ومعادنها، مع قلب مشرقٍ بنور الحق، مؤمن بالله والحق والفضيلة، وقد كانت تلك الحكمة تنتقل إلى كل من يتصل به، وصايا رائعة، وهي من جوامع الكلم، وقد كان العلماء يقصدونه ليستمعوا إليه، وليأخذوا عنه هذه الحكم الرائعة».

ويُلخص الأستاذ عبد الحليم الجندي جلال هذه الوصية فيقول: «وتُصبح هذه الوصية تراثاً للأئمة من بعده..»اهـ[٢٦].

رأسٌ في الإلحاد يصدعه البرهان.. فيؤمن بالله..

كثر الملحدون في عصر الإمام الصادق، وطفقوا ينشرون مفاسدهم بين أفراد الشعب وجماهيره..

والملحدون في العصور القديمة هم الملحدون في كل زمان ومكان:

قلوبهم متشابهة... وفي حججهم المضللة يلتقون على صعيد واحد.. فالسفسطة التي اندفعت تياراً عنيفاً أيام الفيلسوف سقراط في اليونان، انبعثت شراً مستطيراً في الأمصار العربية ـ الإسلامية.

ومن لها يلقمها الحجة البالغة.. ويخمد سعيرها؟؟.

من يستطيع أن يسحق بأسها العنيد.. ويجعل كلمة الله هي العليا.

من؟؟

اللهم لا أحد غير الصادق..

لقد ناظر أعلامها، فمنهم من أسلم.. ومنهم من أخذته الحجة العلمية فدهش.. وأبلس..[*ي].

وقد تحدث عن هؤلاء الملحدين.. وردود الإمام عليهم الأستاذ عبد الحليم الجندي عضو المجلس الإسلامي الأعلى في مصر في الفصل الثاني من كتابه: الإمام جعفر الصادق من صفحة ـ ١٦٦ ـ ١٧٠ ـ وعنه نأخذ هذه اللقطة، قال: «ويروي هشام أن زعيم الديصانية وفد على مجلس الإمام، فقال له: دُلّني على معبودي ولا تسألني عن اسمي. فإذا غلام له صغير في كفه بيضة يلعب بها.. فقال: يا ديصاني. هذا حصن مكنون، له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلدٌ رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مائعة، وفضّةٌ ذائبة.. فلا الذهبة المائعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المائعة، فهي على حالها، لم يخرج بها مصلح فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، ولا يدري أللذكر خلقت أم للأنثى، تنغلق عن مثل ألوان الطواويس، أو لا ترى لها مدبراً»؟؟اهـ.

ويطرق الديصاني طويلاً.. ويترك لعقله النظر في المثال الحسي الذي قدمه الإمام.. والذي يثبت

حدوث العالم، وان له محدثا هو: الله سبحانه. .

ثم يرفع رأسه ليقول: «أشهد أن: لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأن محمداً عبده ورسوله، وأنك إمام وحجة الله على خلقه، وأنا تائبٌ مما كنت فيه»اهـ.(٢٧).

هكذا يناظر أساطين الإلحاد. . فمنهم من يدخل في الإسلام كما رأيت. . ومنهم من تلجمه الحجة العقلية العلمية . . . فيدهش . . . ويُلبس. .(*ك)

الصادق يبرهن على وجود الله بدقائق العلوم الطبيعية (الكونية).

ويأتيه المفضل بن عمر يوماً، وفي عينيه ظلال أسىً . . . وفي وجهه لهاثُ ألم. .

فيسأله: مالك؟؟

قال: «كنت ذات يوم بعد العصر جالساً في الروضة بين القبر والمنبر. . . إذ أقبل ابن أبي العوجاء، فجلس بحيث أسمع كلامه، فلما استقر به المجلس، إذ رجلٌ من أصحابه قد جاء، فجلس إليه، فتكلم ابن أبي العوجاء. . . فذكر ابتداء الأشياء، وزعم أن ذلك بإهمال لا صنعة فيه، ولا تقدير، ولا صانع، ولا مدبر، بل الأشياء تتكون من ذاتها بلا مدبر، وعلى هذا كانت الدنيا لم تزل ولا تزال».

. . . فقلت له ـ ولم أملك نفسي غضباً وغيظاً ـ: يا عدوَّ الله ألحدت في دين الله، وأنكرت الباري جلَّ قدسه الذي خلقك في أحسن تقويم، وصورك في أتم صورة، ونقلك في أحوالك حتى بلغ بك إلى حيث انتهيت، فلو تفكرت في نفسك، وصدقك لطيف حسك، لوجدت دلائل الربوبية، وآثار الصنعة فيك قائمة، وشواهده جلَّ وتقدس في خلقك واضحة، وبراهينه لك لائحة».

وقال. . . وقلت. .

فقال الإمام لتلميذه المفضل: «يا مفضل. لألقين عليك من حكمة الباري جل وعلا وتقدس اسمه في خلق العالم، والسّباع، والبهائم، والطير، والهوام، وكل ذي روحٍ من الأنعام، والنبات، والشجرة المثمرة، وغير ذات الثمر، والحبوب، والبقول، المأكول من ذلك وغير المأكول، وما يعتبر به المعتبرون، ويسكن إلى معرفته المؤمنون، ويتحير فيه الملحدون، فبكر عليَّ غداً»(٢٨).

وحقاً أقول: إنك حينما تقرأ ما أملاه الإمام على المفضل إملاء يزملك العجب العجاب ببرده السندسي. .

لم يكن في عصره مخابر. . . ولا أدوات طبية للتشريح. . . وبالرغم من ذلك فإنك تبصر في أقواله ما يوجب عليك القول:

إنه جهبذٌ في: علمي الطب والتشريح. .

ويثبت لك أيضاً معارفه الجليلة في العلوم الطبيعية (الكونيَّات).

وغناه بهذه العلوم التي يديرها عقل رحماني العبقرية.. يمتطي صهوات البلاغة.. ويملك فصل الخطاب.. هو الذي جعل الدكتور محمد يحيى الهاشمي يقول في كتابه «الإمام الصادق - علم الكيمياء» - ص - ١٢٥ - (بعدما أورد ما قاله المفضل للإمام عن ابن أبي العوجاء، وما قال له الإمام): «هذه الحكاية وأمثالها تدل على الخلق العظيم الذي اتصف به الإمام الصادق بشهادة خصومه، ورغبته المجادلة بالحسنى، لأن نشدان الحقيقة هدفه الأسمى.

«إن مثل هذه الأخلاق في الحقيقة هي التي تفتق كنوز الحكمة، وهي أساس الإلهام في التحري العلمي، وفيها أيضاً إشارةٌ لطيفة للاعتبار في آيات الكون، والانتقال من الظاهر إلى الباطن، من المصنوع إلى الصانع الحكيم، حتى ان الصادق لم يقل لمريده اقرأ كتاب الفقه الفلاني، أوكتاب تفسير، أوحديث، أوغير ذلك، بل طلب منه التوغل في العلوم الكونية، لأنها الأساس في إقناع الملحدين، لكنه لم يطلب منه تعلم العلوم الطبيعية والوقوف عندها في شكلها الظاهري فقط، بل الانتقال إلى الباطن ليكون من المعتبرين **﴿واعتبروا يا أولي الأبصار﴾**اهـ[٢٩].

أما الشيخ محمد أبو زهرة فيقول: «وإن الذي نريد أن نسجله في هذا المقام هو: أن الإمام جعفر كان قوة فكرية في هذا العصر، لم يكتف بالدراسات الإسلامية، وعلوم القرآن، والسنة، والعقيدة، بل اتجه إلى دراسة الكون وأسراره، ثم حلّق بعقله القوي الجبار في سماء الأفلاك، ومدارات الشمس والقمر والنجوم، وبذلك علم مقدار نعمة الله على عبيده من الإنسان في تسخير ما في هذا الكون لهم، ثم علّم وحدانية الخالق من الخالق من إبداع المخلوق، ومن تعدد الأشكال والألوان»اهـ[*ل].

ويقول محمد الحسين المظفري في كتابه «الإمام الصادق - ج - ١ - ص - ١٩٩ - تحت عنوان: الطب: «.. وكفى دلالة على علم الصادق بالطب، ماجاء في توحيد المفضل من الأخبار عن الطبائع وفوائد الأدوية، وما جاء فيه من معرفة الجوارح التي تكفَّل بها علم التشريح»اهـ.

ويستوقفنا كتاب الإمام الصادق - خصائصه - مميزاته - ليعرض علينا الصفحة - ٣٣٧ - تحت عنوان - الطب - فنقرأ: «وقد ورد عن الإمام الصادق الكثير من التعاليم الطبية، والآداب بالصحية.. ومن ذلك ما ورد في كتاب توحيد المفضل التي أملاها الإمام على المفضل بن عمر، من الأخبار عن: الطبائع، وفوائد الأدوية، وما يتعلق بعلم التشريح وغيرها مما له ربطٌ بصحة الإنسان ومزاجه..»اهـ.[٣٠].

ويقول الأستاذ رمضان في كتابه «الإمام الصادق - علم وعقيدة - ص - ١٦٦ - تحت عنوان: إنسانية الإمام: «لقد كان الإمام متفوقاً في خلقه، متفوقاً في حسن معاملته للناس، متفوقاً في تصوير المثل الأعلى الأدبي لمن كان يطلب العلم في مجالسه.. كما كان متفوقاً في سعة إدراكه، وغوصه على الحقائق العلمية والفلسفية في عصره، متفوقاً في مشاركته الشاملة التامة، العميقة في كل المعارف التي شاعت في عصره».

ويقـول في الصفحـة ـ ١٦٩ و١٧٠ ـ: لقـد كانت الـركـائب تحمـل إلى الإمـام الصـادق طلاب: الحكمـة، وأصحـاب الفقـه، والفلسفـة، وعلم الكـلام، والعلوم الطبيعية، واللغة، والنحو، والصرف، والبيان، والآداب في شعرها ونثرها، والتفسير، والسنة النبوية، وأيام عرب الجاهلية والإسلام، يضاف إلى هذا كله: وقـار، وهيبـة، واستقـامـة، وصـدق، وصـراحة، وحسن بيان وتصرف، وقيادة حازمة لأتباعه، وسياسة ماهرة لأنصاره»اهـ.

ويقول في الصفحة ـ ١٨٦ ـ: «تحت عنوان «علم الطب»: «وكان من رأي الإمام الصادق أن كتاب الله تعالى قد أوجز مهمة الطبابة في هذه الكلمات الثلاث التي أوردها في معرض النصيحة والتوجيه: «كلوا واشربوا ولا تسرفوا».

«وجاء في رسالة المفضل بن عمر ما يدل على علم الإمام بفنون من الأشربة، والأطمة، وأنواعها، وتأثيرها، وعلاقتها بطبائع الإنسان، ثم الأدوية وفوائدها.

وجـاء مثـل ذلـك أيضـاً في رسالة «الإهليلجة» التي ناظر فيها الطبيب الهندي، فقد أورد خلال هذه المنـاظـرة من الاستشهـادات والإشـارات الطبية، وذكر من أسماء الأدوية ما يدل على معرفته بالثقافة الطبية عهد ذاك»اهـ.

أقـول: غنـاه العلمي... والخلقي... جعـل هؤلاء وغـيرهـم من كبـار مفكـري هذا العصر.. ويشهدون له أنه إمام عصره، في كل علم.. وفن..

*　*　*

.. وتقول لي: إني وعدتك أحدثك عن /توحيد المفضل/ الذي أملاه عليه الإمام الصادق.

نعم. ففي الحـديث عنـه سعـادة روحيـة لأنـه يشتعل في الصدور مصباحاً من الإيمان بالله.. يزيده سرور الأيام والليالي صفاء وكمالا..

إن أنفاس الإمام المسكية تعمر حروفه، ولذا، فإنك ترى فيه:

بيان التوحيد..

وبيان العلم..

يتعـانقـان ليؤلفـا كيـانـاً واحـداً.. يتـوهج فيه البيانان الأقدسان كما يتوهج نهار آذار بشباب الربيع الأخضر.. وقد سمعت ذرواً من القول في توحيد المفضل من أساتذة مشهود لهم بالمعرفة.

ولا ريب أن الحـديث عن توحيـد المفضـل بالتفصيـل يقتضينا كتاباً من عشرات الصفحات.. وإن محاضرة واحدة في ظرف محدود عاجزة عن إبرازه على وجهه النبيل.. الأصيل..

إذاً فحسبنا أن نقدم نماذج من أبحاثه المؤارة بالعطاء.. و..

ولكن، رويداً.

انظـر، هوذا المفضـل يدخـل على الإمام في الساعة التي رسمها له.. ثم هوذا يجلس أمامه.. هلم ندخل خاشعين أرهف سمعك... فالإمام قد بدأ يتكلم.. إنه يقول للمفضل: «يا مفضل إن الله تعالى كان ولا شيء قبله، وهو باقٍ ولا نهاية له، فله الحمد على ما ألهمنا، والشكر على ما منحنا، فقد خصنا من العلوم بأعلاها، ومن المعالي بأسناها، واصطفانا على جميع الخلق بعلمه.. وجعلنا مهيمنين عليهم بحكمه»اهـ.

ويخشى المفضـل أن يفـوتـه شيء مما ينطق به الإمـام فيقـول: «يـا مولاي. أتأذن لي أن أكتب ما تشرحه؟؟» فيأذن له.[٣١].

يتحدث الإمام عن جهل الذين يسمحون للشك في الخالق أن يجد له إليهم مسلكا.. ويتحدث عن العالم.. وخلق الإنسان.. ثم يتحدث عن حواس الإنسان..

حواسُّ الإنسان

الحـواسُّ الخمس في حيـاة الإنسـان.. يكاد يكون لها مالنور الشمس في حياة المخلوقات.. والإمام يدعونا أن نطلق لعقولنا حرية التفكير في هذه الحواس التي يطيب بها عيش الإنسان..

لنتأمل: لماذا العينان في الرأس.. وفي تجويف هذه الكهف..؟؟

لم شكل العين كروي؟؟.

ولماذا هي مؤلفة من طبقات متعددة عجيب تركيبها؟؟

ولم كان القسم الأمامي من العين بلوري الجسم؟؟

لم الجفنان والأهداب..؟؟ الغدد الدمعية.. الخ.

الله وحده وراء هذا الخلق البديع الساحر بكماله.. المذهل بجماله..

يقـول الإمـام: «فـانظـر إلى هذه الحـواس التي خص بها الإنسان في خلقه، وشرف بها على غيره، كيف جعلت العينان في الرأس كالمصابيح فوق المنارة، ليتمكن من مطالعة الأشياء، ولم تجعل في الأعضاء التي تحتهـا كاليـدين والـرجلين، فتعـترضها الآفات، ويصيبها من مباشرة العمل والحركة ما يعلها، ويؤثر فيهما، وينقص منهما، ولا في الأعضاء التي وسط اليد، كالبطن والظهر فيعسر تقلبها واطلاعها نحو الأشياء»اهـ.

بعد ما يكشف لنا عن سر وجود العينين في الرأس.. ينتقل إلى بقية الحواس، والأمكنة التي أنبتها الله فيها فيقول:

فلما لم يكن لها في شيء من هذه الأعضاء موضع . . كان الرأس أسنى المواضع للحواس، وهو بمنزلة الصومعة لها . . ثم يشرح لنا وظيفة البصر والسمع فيقول: «فخلق البصر ليدرك الألوان، فلو كانت الألوان، ولم يكن بصر يدركها لم يكن فيه منفعة . . وخلق السمع ليدرك الأصوات، فلو كانت الأصوات، ولم يكن سمعٌ يدركها لم يكن فيها أرب . . وكذلك سائر الحواس . .

ثم هذا يرجع متكافياً . . فلو كان بصر، ولم تكن الألوان، لما كان للبصر معنى، ولو كان سمعٌ ولم تكن أصواتٌ، لم يكن للسمع موضع . . » ثم يظهر لنا أن لكل حاسةٍ حقلاً خاصاً بها تعمل فيه . . وأنه تعالى خلق لها من الأشياء ما يكملها به . . ثم يقدم البرهان على ذلك فيقول: «فانظر كيف قدر بعضها يلقى بعضاً، فجعل لكل حاسة ـ محسوساً ـ تعمل فيه . . ولكل ـ محسوس ـ حاسة تدركه، لا تتم الحواس إلا بها».

ثم يبرز مثالاً توضيحياً على ذلك فيقول: «كمثل الضياء والهواء، فإنه لو لم يكن ضياء يظهر اللون للبصر، لم يكن البصر يدرك اللون، ولو لم يكن هواء يؤدي الصوت إلى السمع، لم يكن السمع يدرك الصوت».

ثم يتساءل: هل يمكن أن يصدر هذا الخلق المتقن، والتنسيق العجيب إلا من مدبِّر لطيف خبير هو: الله يقول عليه السلام: «فهل يخفى على من صح نظره، وأعمل فكره، أن مثل هذا الذي وصفت من تهيئة الحواس والمحسوسات بعضها يلقى بعضاً، وتهيئة أشياء أخر بها تتم الحواس، أن هذا لا يكون إلا بعملٍ وتقديرٍ من لطيف خبير»اهـ.

وكما أبان إيجابيات . . الحواس في حياة الإنسان، يتحدث عن الإنسان حين يفقد حاسةً منها. أو كلها . . اقرأ كلماته المباركات فإنها لا تحتاج إلى تعليق . . وتحليل . .

قال للمفضل: « فكر يا مفضل فيمن عدم البصر من الناس، وما يناله من الخلل في أموره، فإنه لا يعرف موضع قدميه، ولا يبصر ما بين يديه، ولا يفرق بين الألوان، وبين المنظر القبيح والحسن، ولا يرى حفرة إن هجم عليها، ولا عدواً إن أهوى إليه بسيف، ولا يكون له سبيل إلى أن يعمل شيئاً من هذه الصناعات مثل: الكتابة . . والتجارة . . والصياغة . . حتى أنه لولا نفاذ ذهنه لكان كالحجر الملقى»اهـ.

ذلك هو الإنسان إذا فقد بصره، ترى ماذا يكون شأنه إذا خسر سمعه؟؟

إليك الإمام يقول: «وكذلك من عدم السمع يختل في أمور كثيرة، فإنه يفقد روح المخاطبة والمحاورة . . ويعدم لذة الأصوات واللحون المشجية والمطربة، وتعظم المؤونة على الناس في محاورته حتى يتبرموا به، ولا يسمع شيئاً من أخبار الناس وأحاديثهم».

إنسان ذلك حاله، كيف يكون أمره؟؟

يصفه الإمام فيقول: «يكون كالغائب وهو شاهد، أو كالميت وهو حي»اهـ.

يقتصر الإمام على ذكر هاتين الحاستين: البصر.. والسمع.. ووظيفتهما.. وتأثيرهما في حياة الإنسان.. إيجاباً.. وسلباً.. ليخلص إلى الحديث عن العقل.

إنه عليه السلام يربط بين الحواس والعقل ربطاً محكماً في حياة الفرد.. والجماعة.. والتطور.. المدني.. والحضاري.. ويرى أن الإنسان الذي حرم شرف العقل يهبط إلى مستوى العجماوات..

إليك كلماته: «فأما من عدم العقل، فإنه يلحق بمنزلة البهائم.. بل يجهل كثيراً مما تهتدي إليه البهائم»اهـ.

وهذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، كيف يصبح إذا فقد جارحةً من جوارحه؟؟

تختل حياته... يصبح ناقصاً...

فخلق الجوارح... واختصاص كلٍّ منها بوظيفة تؤديها.. وتعاونها على إصلاح الجسد.. ليطيب العيش.. وتستمر أغنية الحياة.. يؤكد أن لها خالقاً.. وزع عليها أدوار العمل.. وهي تؤديها بإتقان بارع لا نظير له.. يقول الإمام: «أفلا ترى كيف صارت الجوارح والعقل، وسائر الخلال التي بها صلاح الإنسان، والتي لو فقد منها شيء لعظم ما يناله في ذلك من الخلل.. يوافي خلقه على التمام حتى لا يفقد شيئاً منها»اهـ.

ويتساءل عليه السلام: لم كان ذلك؟؟

ويجيب: إنه خُلق بعلم وتقدير»اهـ.

لماذا يفقد بعض الناس جارحة من جوارحهم؟؟

ويخطر للمفضل أن يسأل الإمام عن السر الذي يفقد بعض الناس جارحةً من جسدهم، فيقول: «فَلِمَ صار بعض الناس يفقد شيئاً من هذه الجوارح، فيسبب له ذلك ألماً نفسياً، وقلقاً جسدياً..؟؟

فيقول الإمام: «ذلك للتأديب والموعظة لمن يحل ذلك به، ولغيره بسببه، كما يؤدب الملوك الناس للتنكيل والموعظة فلا ينكر ذلك عليهم، بل يحمد من رأيهم، ويتصوب من تدبيرهم».

هكذا ـ هؤلاء تمردوا على القوانين الإلهية فرفضوا العمل بها.. وصبوا على الناس ضرام الأذى أفراداً وجماعات.. فاستحقوا العقاب على تمردهم.. وعلى أذاهم لإخوانهم في الإنسانية..

وضرب مثلاً على ذلك ـ الحاكم العادل يعاقب السارق.. فيحمده الناس، ويرون عمله عين العدل، لأنه عاقب إنساناً فاسداً.. يضر بأبناء المجتمع.. وينزل بهم فادح الآلام..

ولكن، هل في هذه العقوبة الزاجرة خير لمن تنزلها العدالة بهم؟؟

في الحق إنها تأتيهم بأكرم الخير.. إنها تمحو الذنوب التي اقترفوها.. لنستمع إلى الإمام وهو يجيب المفضل:

«أنّ الـذين تنـزل بهم هذه البـلايا من الثواب بعد الموت ـ إن شكروا وأنابوا ـ ما يستصغرون معه ما ينالهم منها، حتى أنهم لو خيروا بعد الموت لاختاروا أن يردوا إلى البلايا ليزدادوا من الثواب».

ينـالـون ذلـك الثـواب بشرط هو: أن يتوبوا . . ولا يعودوا إلى اقتراف الذنوب ثانية . . رأينا الإمام يقـول: (إن شكـروا وتـابوا) أي إن عليهم أن يعيشوا حياة قول الله: ﴿**وإني لغفار لمن تاب، وآمن، وعمل صالحاً، ثم اهتدى**﴾[٣١].

أعضاء جسد الإنسان

جسم الإنسـان مركب من أعضـاء كثـيرة منهـا ما هو مفـرد لا ثاني له . . ومنهـا ما هو مزدوج . . فإذا أحسنت النظر في هذه الأعضاء وجدتها متناسقة تناسقاً فرداً يضع كلك خاشعاً أمام من خلق فسوّى . .

أتـل على نفسـك كلمات الإمام متأنياً لتتذوق عسل معانيها الباذخات: «فكر يا مفضل في الأعضاء التي خلقت أفراداً وأزواجاً، وما في ذلك من الحكمة والتقدير، والصواب في التدبير . .

فالرأس مما خلق فرداً، ولم يكن للإنسان صلاح في أن يكون له أكثر من واحد؛ ألا ترى أنه لو أضيف إلى رأس الإنسـان رأس اخـر لكـان ثقـلاً عليه من غير حاجة إليه، لأن الحواس التي يحتاج إليها مجتمعة في رأس واحد، ثم كان الإنسان ينقسم قسمين لو كان له رأسان، فإن تكلم من أحدهما كان الآخر معطلاً لا إرب فيه، ولا حاجة إليه، وإن تكلم منهما جميعاً بكلام واحد كان أحدهما فضلاً لا يحتاج إليه، وإن تكلم به من الآخر لم يدر السامع بأي ذلك يأخذ، وأشباه هذا من الأخلاط . . ».

وبعد أن تحدث عن الرأس . . وأظهر حكمة الله في خلقه فرداً لا ثاني له . . انتقل إلى اليدين ليرينا بأسلوبه العلمي حكمته سبحانه في خلقهما زوجاً: «واليدان مما خلق أزواجاً، ولم يكن للإنسان خير في أن يكون له يد واحدة، لأن ذلك كان يخل به فيما يحتاج إلى معالجته من الأشياء».

ثم يعطينا مثالاً توضيحياً على ذلك فيقول: «أنّ النجار والبناء لو شلت إحدى يديه، لا يستطيع أن يعالج صناعته، وإن تكلف ذلك لم يحكمه، ولم يبلغ منه ما يبلغه إذا كانت يداه تتعاونان على العمل»اهـ.

ويتحدث الإمام فيما يتحدث عن:

المخ . . والدم . .

معلوم في الدوائر العلمية أن المخ هو: معظم المادة العصبية في الرأس، أو هو الدماغ كله . . الخ

والنسيـج العصبي الـذي يكـون المـخ من النسـج التي عدد خلايـاهـا محدود منذ الولادة . . ولا يزيد عددها بعد الولادة . . ولا يمكن تعويضها . . وهي سريعة التلف، لذلك أطلق عليها العلماء اسم «النسج النبيلة»، ولأن هذه النسـج تتـولى مركـز القيـادة والسيطـرة على كل فعـاليات الجسد من: ذكاء، وذاكرة،

وحس، وحركة، وإفراز غدي . . قضت الحكمة الإلهية أن تكون مستقرة داخل حصن منيع من العظام لا يصل إليها ما يوجعها . . أو يؤثر في بنيانها الضعيف .

ولقد أدرك إمامنا الصادق هذه الحقيقة العلمية التي اكتشفها الطب بعده بمئات السنين، . . اعمل ذهنك فيما يقوله للمفضل: « فكر يا مفضل لم صار المخ رقيقاً محصناً في أنابيب العظام» .

ثم يتساءل، وفي تساؤله تحريض للعقل أن يكتشف مما أوجزه هو ـ تفصيل ما عرفه علم التشريح في العصور اللاحقة فيقول: «وهل ذلك إلا ليحفظه ويصونه»؟؟

أجل يا إمامي الحكيم ما كان ذلك إلا لتصان تلك النسج النبيلة من التلف . . لأن في تلفها اختلال نظام الجسد . . ثم الموت . . وينتقل الإمام بعد تلك اللمحة المعبرة عن المخ ـ إلى الدم ـ هذا السائل الأحمر المسؤول عن نقل المواد الضارة التي تنتجها الخلايا من غاز سام «ثاني أكسيد الكربون» عن طريق: التنفس . . والتعرق . . والجهاز البولي . . وكما يؤمن نقل غاز الحياة «غاز الأوكسجين» لكل خلية في الجسم . . وكل خليَّةٍ لا تتردد فيها أنفساه الطيبة تصير إلى الهلاك .

تلك هي الوظيفة التي خص الله الدم بها . . ولكي يحفظه من «الأرواح الشريرة» هيأ له حصنا هو: الأوردة والشرايين التي يجري فيها، وقد جعلها مرنة جداً، تتحمل الضغط ولو كان شديداً . . وتتحمل الانثناء . . وكل نوع من أنواع الحركة . . إمامنا الصادق كان على علم بهذه الدقائق العلمية . . وقد سمّى (الأوعية الدموية الشرايين والأوردة) عروقاً وهي تسمية عربية أصيلة، يقول للمفضل: «لم صار الدم سائلاً محصوراً في العروق، بمنزلة الماء في الظروف إلا لتضبطه فلا يفيض»؟؟[٣٤].

الحَلْقُ

ويتحدث عن الحلق وما في وجوده من أسرار . . فما هو الحلق؟؟

تعرف معاجم اللغة الحلق بأنه: «مساغ الطعام والشراب إلى المريء» .

أما علم التشريح فيعرفه بأنه ملتقى طريقي: التنفس والهضم في نهاية الفم باتجاه الرقبة، ويقع في مؤخرة الفم . . وفيه زائدة لحمية هي: اللهاة، أولسان المزمار، وهي تغلق مجرى التنفس أثناء بلع الطعام، وعندما يغلق مجرى التنفس ينزلق الطعام والشراب إلى الأنبوب العضلي المرن المسمى المريء» ومنه إلى المعدة . .

فماذا قال الصادق عن (الحلق)

يقول عليه السلام مرشداً إلى الخالق العظيم: «من جعل في الحلق منفذين: أحدهما لمخرج الصوت وهو: الحلقوم المتصل بالرئة . . والآخر منفذاً للغذاء، وهو المريء المتصل بالمعدة، الموصل الغذاء إليها . .

ثم يقول: «وجعل على الحلقوم طبقاً يمنع الطعام أن يصل إلى الرئة. . فيقتل. . »اهـ.

فإذا دققت النظر بقول الإمام في الحلق تجده ينطبق على ما قاله الإمام ـ أي أن العلم الحديث توصل بعد أعوام طويلة. . وتجارب كثيرة إلى ما أثبته الإمام منذ مئات الأعوام. .

وترى الإمام يسمي «اللهاة» (طبقاً) وهي تسمية فذّة لأنها تنطبق على فتحة مجرى االتنفس فتمنع من دخول الطعام والشاب إلى الرغامى ـ القصبة الهوائية التي تنتهي بالرئة. .

الأذن

يتحدث العلم الحديث عن الأذن ووظيفتها. . وتكريبها فيقول ما خلاصته: «إن الصيوان عندما تلامسه الاهتزازات الصوتيةيوجهها نحو غشاء الطبل إلى داخل الأذن، فتهتز معه العظيات السمعية، وينقل الاهتزازات إلى السائل البلغمي الداخلي الموجود ضمن الحلزون الذي يهتز بدوره، وينبه ألياف العصب السمعي فينقلها العصب السمعي إلى مركز السمع»اهـ.

ويقول الصادق: «لم صار داخل الأذن ملتوياً كهيئة اللولب إلا ليطرد فيه الصوت حتى ينتهي إلى السمع، ولتكسر حمة الريح فلا ينكأ السمع»اهـ[٣٤].

ألا ترى أن ما اكتشفه العلم شرحٌ لعبارات الصادق؟؟

أجل إن الأمر لكذلك. .

والعلم وصف الالتواءات التي داخل الأذن بأنها حلزونية. .

والإمام وصفها بأنها لولبية. . وأرى وصف الإمام أكثر مطابقة لغوية. . كما أنه ألطف وقعاً في السمع. . والإمام يقول: إن الهواء هو الذي ينقل الصوت من خارج الأذن إلى داخلها. . وان الحكمة من تجويف الأذن. . واللولب الداخلي أن يرق الهواء شيئاً فشيئاً. . كيلا تتأذى أجهزة الأذن الداخلية.

وعبارة العلم: إن الصيوان يوجه الاهتزازات الصوتية إلى داخل الأذن. .

ومعلوم أنه لولا الهواء الذي ينقل الصوت من الخارج إلى الصيوان. . فالأذن الداخلية لما حصل اهتزاز، فعبارة الإمام كما هو واضح تتبوأ القمة في التعبير العلمي. .

القلب

ويتحدث الإمام عن القلب وما فيه من لطف في الصنع فيقول: «إن في القلب ثقباً موجهة نحو الثقب التي في الرئة تروح عن الفؤاد. . ولو اختلفت تلك الثقب، وتزايل بعضها عن بعض، لما وصل الروح إلى الفؤاد، ولهلك الإنسان»اهـ[*م][٣٥].

ولعلك تسأل: ما هذه الثقب التي يذكرها الإمام؟؟

وما هي المعاني الواسعة التي أرادها بعباراته. . ؟؟

إن العلم الحديث يشرح لك قوله بأصفى بيان. .

إن الثقب إشارة غنية بالوضوح إلى:

١ ـ الشريان الرئوي الذي يخرج من البطين الأيمن في القلب ويحمل معه الدم القاتم الذي يحمل (ثاني أوكسيد الكربون) إلى الرئتين عبر الشريانين الرئويين.

٢ ـ ثبت علمياً أن هناك أربعة ثقوب أخرى في الأذين الأيسر للقلب تحمل الدم الأحمر القاني الغني (بالأوكسجين) والقادم من الرئتين في الأوردة الرئوية الأربعة. . الخ.

ونجيز لأنفسنا أن نسأل: أليست كلمات الإمام عن القلب وثقوبه المتصلة به سبقاً علمياً للذين جاؤ وا بعده وبحثوا في دورة الدم.

ألم يسبق بقوله هذا ـ عندما نوليه نظراً ثاقباً ـ العالم الألماني (وليم هارفي) مكتشف الدورة الدموية وغيره. . ؟

منافع الأغذية

حياة الإنسان تستمر فيما تستمر به بالطعام والشراب. . والطعام منه الحيواني. . ومنه النباتي. . وقد حلل العلم الحديث في المخابر أنواع الأطعمة. . وبينوا فوائدها الغذائية. .

والصادق تحدث عن عدد من صنوف الأغذية النباتية. . وأبان منافعها. . فإذا قارنت بين ما اكتشفه العلماء في مخابرهم بعد التجارب الكثيرة. . وبين أقوال الإمام. . وجدت العلم لم يقل شيئاً جديداً يختلف عما قاله الإمام منذ أكثر من ألف عام. .

ويحسن أن أورد أسماء طائفة من الأغذية النباتية، وأقوال الإمام في قيمتها الغذائية.

قال عليه السلام: كلوا الثوم فإن فيه شفاء من سبعين داء.

كُل البصل فإن له ثلاث خصال: يطيب النكهة، ويشد اللثة، ويزيد في ماء الجماع. .

كُل الفجل فإن فيه ثلاث خصال: ورقه يطرد الرياح، ولبه يسهل البول والهضم. .

الجزر أمانٌ من القولنج، مفيد للبواسير، ومعين على الجماع. .

كلوا الباذنجان، فإنه جيدٌ للمرة السوداء، ولا يضر الصفراء، ويذهب بالداء، ولا داء له.

العنب يشد العصب، ويذهب النصب، ويطيب النفس.

كُل التفاح فإنه يطفيء الحرارة، ويبرِّد الجوف، ويُذهب الحمى. وقال: لو علم الناس مافي التفاح ما

داووا مرضاهم إلا به، ألا إنه أسرع شيء إلى الفؤاد خاصةً، فإنه يفرحه. وقال: أطعموا محمومكم التفاح.

أطعموا صبيانكم الرمان فإنه أسرع لشبابهم. وقال: كلوا الرمان بشحمه، فإنه يدبغ المعدة، ويزيد في الذهن.. وقال: من أكل سفرجلةً على الريق طاب ماؤه وحسن، وأكله قوةٌ للقلب، وذكاء للفؤاد، وهو يحسن الوجه.

وعن التين قال: إن التين يذهب بالبخر، ويشد العظم، وينبت الشعر، ويذهب بالداء، ولا يحتاج إلى دواء.

وقال عن التمر: إن فيه شفاء من السم، وإنه لا داء فيه، ولا غائلة، ومن أكل سبع تمراتٍ عجوة عند صباحه قَلّت الديدان في بطنه.

وقال: عليكم بالخس فإنه يصفي الدم.

وعن الهندباء قال: نعم البقلة الهندباء، فإنه تزيد في الماء.. وتحسن الولد..

ويعذب عندي أن أقول لك الآن: قارن بين ما ذكره الإمام، وبين ما أورده كتاب: «الغذاء لا الدواء»[٣٦].

لترى لعاب الإمام ينضر كل كلمة من كلماته.

وللإمام نصائح طبية أفرغها في قوالب من الحكمة.. وهي جديرةٌ أن تكون نظاماً لحياة سعيدة. اقرأ متأنياً قوله:

غسل الإناء، وكنس الفناء مجلبةٌ للرزق.

أقلل من شرب الماء فإنه يمد كل ماء..

لو اقتصد الناس في المطعم لاستقامت أبدانهم..

اغسلوا أيديكم قبل الطعام وبعده..

إن لكل ثمرة سماء، فإذا أتيتم بها، فأمسوها الماء، واغمسوها في الماء (أي اغسلوها جيداً).

الاستلقاء بعد الشبع يسمن البدن، ويمريء الطعام، ويسل الداء..[٣٧].

وأخيراً

إن من يكتب عن الصادق. وجامعته العلمية.. وعلومه.. وأخلاقه.. وعدالته.. وزهده..

وإنسانيته.. وحبه للمساكين.. وفصله العدلَ بالقضاء والقدر..

وما أداه للعروبة.. والإسلام، بل وللعالم من تطور في:

التشريع - والعلوم - والاقتصاد - والسياسة المدنية - والتفتح الحضاري ونموّه..

أقول: إن من يكتب عنه يبدأ... ولا ينتهي..

وما ألطف ما قالته دار التقريب المصرية عن الصادق: «كانت له نواحٍ كثيرة يعذب فيها القول، وتفيض في شأنها المعاني والدراسات، ومن أبرز ذلك أنه ـ ع ـ كان بشخصيته وعلمه موضع احترام وتقدير وحب من أهل الإيمان والعلم ـ في عصره، لا فرق بين الخاصة والعامة، ولا بين من يتبعونه ويعتقدون بنصيّة إمامته، ومن يتبعون المذاهب الأخرى.

كلهم عرفوه إماماً جليلاً، وكلهم عرفوه عالماً قوياً، وكلهم عرفوه صادقاً إذا حدَّث، ومنصفاً إذا فكَّر، لا هدف له إلا الحق ولذلك لُقّب بالصادق، وهي نفحةٌ من نفحات جده الأعظم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كان ملقباً بالصادق» اهـ(٣٨).



الحواشي:

(١) ـ راجع الشيخ محمد أبو زهرة: الإمام الصادق ـ صفحة ـ ١١٣ ـ طبع دار الفكر بيروت.

ب ـ منجد الأعلام ـ مادة يزيد.

ج ـ عباس محمود العقاد: أبو الشهداء الحسين بن علي صفحة ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ طبع: دار الهلال ـ مصر.

(٢) ـ راجع آ ـ محمد الحسين المظفري: الإمام الصادق ـ ج ـ ١ ـ ص ـ ٩٨ ـ ط ـ ٢ ـ سنة ـ ١٣٦٩هـ.

ب ـ د. محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق ملهم الكيمياء ـ ص ـ ١٥٤ ـ منشورات المؤسسة السورية ـ العراقية.

ج ـ رمضان لاوند: الإمام الصادق علم وعقيدة ـ ص ـ ١٩٥ ـ.

(٣) ـ محمد جواد فضل الله: الإمام الصادق ـ خصائصه مميزاته ـ ص ـ ١٢٩ ـ ط ـ الزهراء ـ بيروت.

(٤) ـ محمد أبو زهرة الإمام الصادق ـ ص ـ ١٠١ ـ و١٠٢.

(٥) ـ محمد جواد فضل الله: الإمام الصادق ـ ص ـ ١٢٨ ـ.

ب ـ رمضان لاوند: الإمام الصادق ـ ص ـ ١٦٩ ـ طبع مكتبة دار الحياة ـ بيروت.

(٦) ـ منجد الأعلام ـ مادة ـ الصادق.

(٧) ـ ابن حجر الهيثمي: الصواعق المحرقة ـ ص ـ ٢٠١ ـ طبعة ثانية ـ ١٣٨٥هـ.

(٨) ـ عبد الحليم الجندي المستشار في المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر العربية:

الإمـام جعفـر الصـادق ـ صفحـة ـ ٢١٩ ـ طبـع القاهرة سنة ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

(٩) ـ الشيخ محمد أبو زهرة: الإمام الصادق ـ ص ـ ١٠٢.

(١٠) ـ رمضان لاوند: الإمام الصادق ـ ص ـ ١٧

(١١) ـ عبد الحليم الجندي: الإمام جعفر الصادق ـ صفحة ـ ٢٢٣ و٢٢٤ و٢٢٥.

ب ـ واقـرأ كتـاب الإمـام الصـادق ملهم الكيميـاء للدكتـور محمد يحيى الهاشمي الذي نفى كل شبهة أثيرت حول أخذ جابر علم الكيمياء عن الإمام الصادق.

ج ـ رمضـان لاونـد: الصادق ـ ص ـ ١٩٥ و١٩٦ ـ تحت عنوان: بقية العلوم.

د ـ محمد الحسين المظفري ـ الصادق ـ الجزء ـ ٢ ـ من صفحـة ـ ١٤٤ إلى ١٩٦ فقـد ذكر اسماء مشاهير تلاميذ الصادق الذين أخذوا عنه.

هـ ـ شمس الـديـن بن طولـون الحـنفي: الأئمـة الاثنـاء عشـر ـ ص ـ ٨١ إلى ٨٣ ـ طبـع ـ بيروت تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد.

و ـ البستاني: دائرة المعارف ـ مادة ـ جعفر.

ز ـ أحمد أمين: فجر الإسلام ـ الطبعة العاشرة ـ ص ـ ٢٧٦ ـ قال: «أخـذ أبـوحنيفـة الفقـه عن جعفر بن محمد الصادق من أهل البيت.

(١٢) ـ أحمـد بن علي الطـبرسي: الاحتجاج ـ ج ـ ٢ ـ ص ـ ٧٢ ـ طبع النجف الأشرف سنة ـ ١٣٨٦هـ.

(١٣) ـ الشيخ الصدوق: التوحيد ـ باب النهي عن الصنعة بغير ما وصف نفسه.

(١٤) ـ الشيـخ الكليني: الكـافي ـ باب النهي عن الجسم والصورة.

(١٥) ـ محمد الحسين المظفري ـ الصادق ـ ج ـ ١ ـ ص ـ ٢١٣ ـ ٢١٥.

(١٦) ـ الفيض الكـاشـاني، والطـبرسي ـ مجمـع البيان ـ تفسير سورة الأنفال.

(١٧) ـ محمد باقر الصدر: اقتصادنا ـ ص ـ ٤٠٢

ب ـ وسـائـل الشيعـة: المجلد ـ ١٧ ـ ص ـ ٣٤٦ ـ.

(١٨) ـ السيد محمد باقر الصدر ـ ص ـ ٤٠٢ ـ.

(١٩) ـ ابن شعبة الحراني: تحف العقول ـ ص ص ـ ٣٣٥ ـ.

(٢٠) ـ سورة المائدة ـ آية ـ ٧ ـ.

(٢١) ـ الحراني: تحف العقول ـ ص ـ ١٠٦ ـ.

(٢٢) ـ المصدر السابق ـ ص ـ ١٠٧ ـ.

(٢٣) ـ محمد رضا المظفري ـ الصادق ـ ج ـ ١ ـ من ص ـ ٢٢٤ إلى ٢٢٩ ـ نقلاً عن بحار الأنوار.

(٢٤) ـ رمضـان لاونـد: الصـادق ـ ص ـ ١٤٥ و١٤٦ ـ.

(٢٥) ـ محمد أبو زهرة: الصادق ـ ص ـ ٦٧ و٦٨

(٢٦) ـ عبد الحليم الجندي: الإمام الصادق ـ ص ـ ١٨٢.

(٢٧) ـ المصدر السابق ـ ص ـ ١٦٦ ـ ١٧٠.

(٢٨) ـ توحيد المفضل من صفحة ـ ٦ إلى ٨ ـ.

(٢٩) ـ د. محمد يحيى الهاشمي ـ ص ـ ١٢٥ ـ.

(٣٠) ـ محمـد جواد فضـل الله ـ الصـادق ـ ص ـ ٣٣٧ ـ.

(٣١) ـ توحيد المفضل ـ ص ـ ٩ ـ.

(٣٢) ـ المصدر السابق ـ ص ـ ٢١ ـ ٢٥ ـ.

(٣٣) ـ سورة طه ـ آية ـ ٨٢ ـ.

(٣٤) ـ توحيد المفضل ـ ص ـ ٢٤ ـ.

(٣٥) ـ المصدر السابق ـ ص ـ ٣٠ ـ.

(٣٦) ـ الدكتور صبري القباني: الغذاء لا الدواء ـ طبعـة خامسـة ـ بيروت (راجع الصفحات ـ ٦٨ ـ ٨٣ ـ ٨٩ ـ ١٠٦ ـ ١١٠ ـ ١١٩ ـ ١٦١ ـ ١٧٩ ـ ١٨١ ـ ١٨٥ ـ ٢٠٩ ـ ٢٣٧ ـ ٢٣٩ ـ ٤٠٧.

(٣٧) ـ أحمد مغنية: الإمام الصادق من صفحة ـ ١٦٦ ـ ١٧٢ ـ ط ـ ١ ـ بيروت ـ ١٩٥٦.

ب ـ الإمام الصادق علم وعقيدة ـ ص ـ ١٨٧ ـ.

ج ـ محمد الحسين المظفري: الصادق ـ ص ـ ١٩٨و١٩٩.

(٣٨) ـ أسد حيدر: الإمام الصادق ـ المجلد الثاني ـ ص ـ ٤٩ ـ.

(*أ) عبد الحليم الجندي: الإمام جعفر الصادق ـ ص ـ ٢٨٣ ـ طبع القاهرة سنة ١٩٧٧م.

(*ب) الحكمة هي المعرفة.. والتفقه في الدين (الصادق).

قال الصادق: من زعم أن الله من شيء فقد جعله محدثا، ومن زعم أنه في شيء فقد جعله محصوراً، ومن زعم أنه على شيء فقد جعله محمولاً».

(*جـ) قال الإمام علي الرضا: «لا تدركه حاسّة البصر للفرق بينه وبين خلقه الذي تدركه حاسة الأبصار منهم ومن غيرهم، ثم هو أجل من أن يدركه بصر، أو يحيط به وهم، أو يضبطه عقل» (الطبرسي: الاحتجاج ـ ج ـ ٢ ـ ص ـ ١٧٢ ـ طبع عام ـ ١٣٨٦هـ.

(*د) قال ابن شعبة الحراني: «أمام الله رسوله محمداً في سائر عالمه في الأداء مقامه، إذ لا تدركه الأبصار، ولا تحويه خواطر الأفكار، ولا تمثله غوامض الظنن في الأسرار، لا إله إلا هو الملك الجبار» (الحراني: تحف العقول: المقدمة).

(*هـ) بعلبكي: قاموس المورد ـ انكليزي عربي (معجم الأعلام): كوبرنيكوس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) عالم فلكي بولوني برهن أن الأرض تدور على ذاتها وحول الشمس وسائر الكواكب السيارة تدور حول الشمس وحول نفسها»، وفي منجد الأعلام ـ ط ـ ١٣ ـ (دار المشرق): «غاليلو عالم فلك إيطالي (١٥٦٤ ـ ١٦٤٢م) أيد نظرية كوبرنيك أن الأرض تدور حول الشمس» ـ هذه النظرية التي تبناها العلم الحديث أثبتها الإمام الصادق قبل كوبرنيكوس بـ(٧٧٨) سنة، وهذا دليل قطعي الثبوت على عمق الإمام بمعرفة علم الفلك، علماً أن الإمام ولد (٦٩٩ ـ ٧٦٥)م.

(*و) النبطي ـ ج ـ: أنباط قوم من الساميين يرجعون إلى أصلين: أحدهما آرامي والآخر عربي، كانت لهم دولة في القرن السابع قبل الميلاد، وسقطت في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد، وامتدت أملاكهم من الجزء الجنوبي الشرقي من فلسطين إلى رأس خليج العقبة وكانت عاصمتهم: سَلْع ـ أي الصخرة، وهي التي سمّاها اليونانيون «بطره»، وسموا البلاد كلها (أربيا بطرا) ـ أي بلاد العرب الصخرية.. واستعمل أخيراً في أخلاطها الناس من غير العرب» (المعجم الوسيط ـ الجزء الثاني ـ مادة: نبط.

(*ز) الفقيه: العالم الفطن جمع فقهاء.. (الوسيط).

(*ح) كان الطبيب مُلحداً، لذلك جاءت أجوبة الإمام غنية بالبراهين الدالة على وجود الله... كما كانت غنية بالأدلة على أنه بلغ الغاية في علم التشريح بالنسبة لعصره.. ومن أقوال الهندي: «كل ما لم تدركه حواسي فليس بموجود.

قال الإمام: «أنت لما عجزت حواسك عن إدراك الله أنكرته، وأنا لما عجزت حواسي عن إدراك الله صدقت به.

فسأله: وكيف ذلك؟؟.

قال: لأن كل شيء جرى فيه أثر التركيب لجسم، أو وقع عليه بصر للون، فما أدركته الأبصار، ونالته الحواس، فهو غير الله سبحانه لأنه لا يشبه الخلق، ولا يشبهه الخلق، وإن هذا الخلق يتغير بتغير وزوال، وكل شيء أشبه التغير والزوال فهو مثله، وليس الخالق كالمخلوق، ولا المحدَث كالمحدِث». (محمد علي اسبر ـ سطور مضيئة عن الإمام الصادق ـ ص ـ ٧١و٧٢) ط، سنة (١٩٨٠).

(*ط) استقرى الأشياء: تتبعها لمعرفة أحوالها وخواصها (الوسيط) ج - ٢ -.

(*ي) أوردنا مناظرة مع أحدهم فيما سبق.

(*ك) كان الملحدون يرون الصادق روحاً إنسانياً فوق مستوى الناس.. ففي كتاب «الإمام جعفر الصادق» للأستاذ عبد الحليم الجندي - ص - ٢٨٥ و٢٨٦ - يقول الجندي: «ويروي ابن بابويه القمي (ت: ٣٨١هـ)، كان ابن أبي العوجاء وابن المقفع (كلاهما ملحد) يلاحظان الجمع الذي يطوف بالكعبة، فقال ابن المقفع لأصحابه: «لا واحد من هؤلاء يستحق اسم الإنسانية إلا هذا الشيخ الجالس - وأشار إلى جعفر بن محمد - فقام ابن أبي العوجاء إلى الشيخ، وتحدث معه ثم رجع إلى صاحبه وقال: ما هذا ببشر، إن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً، أو يتروَّح إذا شاء باطنا، فهو هذا.. ظَلَّ يحصي لي قدرة الله التي في نفسي، والتي لم أستطع رفضها، حتى ظننت أن الله قد نزل بيني وبينه».

يعلق الأستاذ الجندي على كلمات ابن أبي العوجاء مقدام الإلحاد فيقول: «ونزول الله بين الإمام وبين ملحد باعتراف الملحد، آيةٌ باقتدار المنهج على بلوغ غرضه، وقدرة مجادل جمع الآيايات الربانية حججاً بين يدي منكر، أخذته حجة الأمر الواقع فأبلس».

وراجع - الدكتور محمد يحيى الهاشمي: الإمام الصادق - علم الكيمياء - ص - ١٢٨ - ١٢٩ -. أما الشيخ محمد أبو زهرة فيقول: «قد التقى الصادق مرة بابن العوجاء، وهو داعية من دعاة الزندقة بالعراق، فلما رأى الصادق واسترعاه ما عليه من سمت، وأخذ الصادق يتكلم لم يحر جواباً.. فقال له: ما يمنعك من الكلام؟؟ ويقول الزنديق: بدا جلالٌ لكَ ومهابةٌ، وما ينطق لساني بين يديك، فإن شاهدت العلماء، وناظرت المتكلمين، فما داخلتني هيبة قط مثل ما داخلني من هيبتك». (راجع - ص - ٨٥ - ٨٦) من كتاب الإمام للشيخ محمد أبو زهرة.

(*ل) مرت كلمات أبي زهرة هذه ولم نرَ بأساً بإعادتها.

(*م) الثقب جمع مفرده: الثقبة: الثقب الصغير (المنجد).





الأستاذ علي أكبر ضيائي



المؤلفات المخطوطة والمطبوعة للإمام الصادق (ع) في سورية



بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر علماء الشيعة مؤلفات كثيرة للإمام الصادق عليه السلام حتى وصل عددها عند المرحوم محسن الأمين إلى أربعة وعشرين كتاباً ورسالة ونسخةً مروية عنه عليه السلام(١) ولكن يبقى أكثر منها مشكوك النسبة إلى الإمام، لأن هذه الكتب والرسائل ليست من خط يد الإمام بل رواه تلاميذه وبعض الشيعة من بعده.

وبما أنّي اطلعت على مكتبات كثيرة في سورية، ورأيت نسخاً متعددة منسوبة إلى الإمام الصادق عليه السلام، رأيت أن أكتب مقالة قصيرة بما رأيته في المكتبات العامة والخاصة، وأعطي رأياً لكلٍّ واحد من هذه المؤلفات.

[١]

خواص القرآن الكريم أو منافع القرآن

تأليف: أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام.

البداية: قال الإمام أبوعبد الله جعفر الصادق بن محمد بن علي بن زين العابدين بن الحسين الشهيد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم من كتب سورة البقرة وعلقها عليه زالت عنه الأوجاع كلّها وإن علقت على صغير زالت عنه الأوجاع وهان عليه الفطام ولم يخف هواماً ولا جاناً بإذن الله تعالى وإن علقت على المصروع زال عنه الصرع بإذن الله تعالى وفيها من المنافع ما لاحدّ له ولا نهاية . . .

النهاية: سورة الناس من قرأها في كل ليلة في منزله أمن من الوسنواس ومن الجنّ ومن كتبها وعلقها على الأطفال والصغار حفظوا من كلّ جانٍ وهوامٍ بإذن الله تعالى.

سورة الفاتحة من قرأها في كل ساعة تغفر جميع الذنوب وهي لكل مرض تقرأ عليه يبرأ بإذن الله تعالى. تمّ كتاب منافع القرآن الكريم، نفع الله لصاحبها وكاتبها وقارئها وسامعها ولجميع المسلمين آمين.

ملاحظات: نسخة من القرن الثامن الهجري مكتوبة بخط نسخي معتاد. أسماء السور مكتوبة بالأحمر.
توجد هذه النسخه في مجموع يحوي منافع القرآن في المنام ومنافع القرآن للتميمي، المجموع مفروط الأوراق، الورقة الأولى والورقتان الأخيرتان من المجموع مكتوبة بخط مغاير للأصل، على الورقة الأولى والأخيرة قيود تملك من القرن الحادي عشر والثاني عشر.
[٢٠ - ٣٢] ورقة، ٢٦ × ١٨ سم، ١٧ سطراً.
هذه النسخة موجودة في الظاهرية المحفوظة في مكتبة الأسد برقم: ٧٣٦٥ عام.

خواص القرآن أو منافع القرآن - نسخة ثانية مخرومة -

البداية: . . . في قرطاس بمسك وماء ورد وجعلها في أنبوبة قصب ريحي قد قطعت قبل طلوع الشمس وشدّت بشمع وعلّقها على طفل أمن من الشيطان ومن جميع الحوادث، سورة النساء: عن جعفر الصادق رضي الله عنه إنّ من كتبها وجعلها في منزل أربعين ليلة ثمّ أخرجها منه وجعلها في بعض جُدره فإن الشياطين يرتحلون منه وذكر التميمي أن قوله تعالى . .

النهاية: سورة التكاثر، من قرأها عند نزول المطر غفر الله . . . وقال التميمي من . . . ماء . . . يقرأها وجعل من ذلك الماء في . . .

٦٨ ورقة، ١٥ × ١٢ سم، ٥ أسطر.

الظاهرية، مكتبة الأسد، برقم ٩٥٩٤ عام.

والجدير بالذكر أن هذا الكتاب ليس من الإمام الصادق بل هو مجموعة من رواية في منافع القرآن الكريم، جمعت بعد النصف الثاني من القرن الرابع، لأنّ في هذا الكتاب اقتباسات من كتاب **كشف السر المصون والعلم المكنون في شرح خواص القرآن العظيم ومنافعه** لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سعيد التميمي كان حيّاً سنة ٣٩٠هـ(٢).

ووجد بروكلمان نسختين من **منافع القرآن الكريم** للإمام الصادق (عليه السلام) في: جوتا ١٢٥٦/٣٠؛ فاتيكان ثالث، ١٠١٤/٤ ويوجد نسخة في لاله لي باسلامبول كما في فهرسه، راجع: **الزريعة**، ٣١٢/٢٢.

[٢]
صحائف الإمام الصادق (عليه السلام)

المؤلف: الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام.

البداية: هذه صحايف الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق رضي الله عنه وكانت مودوعة عند أهل بيته يتوارثونها بينهم إلى زمان المأمون الخليفة، فأمر بطلب الكتب والصحايف من بيوت أهل البيت عليهم السلام فوجدوا درجاً من البلور في ذرج من الذهب مقفلاً مختوماً فاحضروه عند المأمون وفرح بها واختارها من سائر التفاءلات ويتفاءل بها عند الحاجة واستخرج منها دليلاً مطابقاً للواقع وفيها أثر عظيم [١٦٦ب]..

النهاية: الآيات [التفاؤل]

﴿وأنّ الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ [يوسف، ١٢:٥٢] يدلّ على الخيانة والغدر

﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ [الروم، ٣٠:٢١] يدلّ على صلاح أمر النساء

﴿ربِّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث﴾ [يوسف، ١٢:١٠١] يدلّ على أنه يرزق ملكاً وعلماً

ملاحظات: [١٦٥ب - ١٧٧ب] ورقة، ١٣,٥ × ١٩,٥سم، ٢١ سطراً

النسخة موجودة ضمن مجموع رقم عام ٥٣٧٣ بمكتبة الأسد، **المستدرك على فهرس مخطوطات الشعر**، ص٣٧.

في الصفحة الأولى من هذه الرسالة دائرة في داخلها دائرة أخرى، ذكرت في الدائرة الأولى أسماء عشرين سورة: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال، التوبة، يونس، هود، يوسف، الرعد، إبراهيم، الحجر، النحل، بني إسرائيل، الكهف، مريم، طه، الأنبياء وفي الدائرة الثانية مقابل كلّ هذه السور كتبت آيات ونوع التفاؤل بها.

ولا نعرف صحة نسبة هذه الصحائف إلى الإمام الصادق (عليه السلام) وما ذكرها علماؤنا مثل المرحوم السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة وآغا بزرك الطهرني في الذريعة.

[٣]
ذكر مناظرة جعفر الصادق لبعض الشيعة في التفضيل بين أبي بكر وعلي رضي الله عنهما

منسوب إلى الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

ملاحظات: [٢٢٧ ـ ٢٣٥] ورقة، ٢٢ × ١٤ سم، ١٤ ـ ٢٦ سطراً.

كتبت بخط معتاد، عليها سماع سنة ٥٨٨هـ. ق. وسماع بخط الحافظ ضياء الدين المقدسي وسماع بخط مالكه علي بن مسعود الموصلي سنة ٦٧٤هـ. ق. وقف علي الموصلي بسفح قاسيون.

هذه النسخة توجد في الظاهرية المحفوظة في مكتبة الأسد ضمن مجموع برقم ٣٨٤٧ عام، [مجاميع ١١١].

هذه المناظرة لم تذكر في مصنفات الشيعة ونسبتها ضمن مجموع إلى الإمام الصادق عليه السلام غير صحيح لأنها تخالف رأيه في مسألة الإمامة.

[٤]
رسالة يعلم منها اختيارات الأيام النحسة والجيدة

المؤلف: أبو عبد الله جعفر الصادق بن محمد الباقر عليهما السلام.

البداية: بعد البسملة، وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم، اعلم وفقك الله تعالى أنّ هذه

رسالة يعلم منها اختبارات الأيام النحسة والجيدة، قال مؤلفها رضي الله عنه: إنّ أوّل يوم في الشهر خلق الله فيه آدم عليه السلام يصلح فيه الدخول على الملوك والسلاطين وقضاء الحوائج والبيع والشراء والسفر وغرس الأشجار ومن مرض فيه يبرأ ومن ضلّ له ضالة تعود إليه، ثانيه خلق الله تعالى فيه حواء ومن ضلع آدم فاتقوا فيه أهاليكم وسافروا فيه للبيع والشراء وقضاء الحوائج ومن مرض فيه [اب] يبرأ، ثالثه يوم نحس مستمر رديء فاتقوا فيه الله في جميع أعمالكم وأحوالكم . .

النهاية: عاشر ساعة للزهرة جيدة لكلّ عمل، حادي عشر ساعة لعطارد سافر فيها حيث شئت، ثاني عشر ساعة للقمر ادخل فيها على الملوك، والله أعلم.

ملاحظات: نسخة بقلم نسخ معتاد، أحرفها كبيرة، وألفاظ الأيام والساعات بمداد أحمر.

١٢ ورقة، ٢٠ × ١٤,٥سم، ١٣ سطراً.

محفوظة في مكتبة الأسد برقم ١٠٠٤٢ عام.

ومن الغريب جداً أن يكتب الإمام الصادق عليه السلام مثل هذه الرسالة ولم يذكرها علماؤنا في ضمن كتبه.

[٥]
رسالة لجعفر بن محمد الصادق في الكيمياء

المؤلف: الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام.

البداية: هذه الرسالة لجعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم أجمعين، قال: إنّ الأكسير أنّ أحدهما فضية والسبع الصبغ والثاني الذهبية والسبع الصبغ . .

النهاية: فهذه ديوه(؟) إنّما قعدت فيها كما لا لفائدة والله الموفق للصواب وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين، تمّت رسالة جعفر بن محمد الصادق بحمد الله وعونه وحسن توفيقه.

ملاحظات: [٢٦ ب ـ ٢٩ ب] ورقة، ١٩ × ١٢سم، ٢١ سطراً.

مخطوط في مكتبة الأسد برقم مجموع ٨٠، كتبه أحمد بن محمد المغربي الطرابلسي بين سنتي ١٠١٤ و١٠١٥هـ.ق.

ويذكر بروكلمان مخطوطاً آخر لهذه الرسالة تحت عنوان «كتاب في الكيمياء»، في نورعثمانية

بتركيا، الرقم ٣٦٣٤، GAL, I/272 .

ومـا وجـدنـا سنداً لنسبة هذه الرسالة إلى الإمام الصادق عليه السلام، فالظاهر أنّه من تصنيف بعض الشيعة بالرواية عنه.

[٦]
الرسالة المفضلية والاتكال على باريء البرية

منسوب إلى الإمام الصادق، رواية المفضل بن عمر الجعفي. وليس منه عليه السلام.

البـدايـة: بعـد البسملة، حدثني أبـوالحسـين محمـد بن علي الجلي، عن والده الحسين بن حمدان الخصيبي قدس الله سره: قال: حدثنـا جعفـر بن مالـك العزاري عن عبد الله بن يونس الموصلي... عن المفضل بن عمر الجعفي قال: قلتُ لمولاي الصادق الوعد منه الرحمة...

النهاية: ومن هؤلاء يكون مداد الطالبيين فأحمد الله على ماخولك من معرفته ومنحك من هدابته والحمد لله حمد الشاكرين وصلواته على النبي وآله الطيبين الطاهرين.

ملاحظات: نسخة بديع بن عبد الحميد محمد آل غانم سنة ١٣٨٣هـ.ق.

٥ ورَقة، ٢٤ × ١٦ سم، ٢٠ ـ ١٩ سطراً.

هذه الرسالة ليست للإمام الصادق عليه السلام بل هي موضوعة وفيها آراء غريبة لا تناسب آراء وأفكار الإمام الصادق عليه السلام.

[٧]
الصــراط

منسوب إلى الإمام الصادق، رواية المفضل بن عمر الجعفي. وليس منه عليه السلام.

البداية: رواه الشيخ أبوالحسين محمد بن علي الهذري عن الشيخ الثقة أبي الحسين محمد بن علي الجليّ عن سيـدنـا أبي عبـد الله الحسين بن حمدان الخصيبي... عن يونس بن ظبيان عن المفضل بن عمر عليه السلام إنّه قال: سألتُ مولاي جعفر الصادق الوعد منه السلام وقد حضر عنده جماعة من أهل التوحيد والإقرار يسألونه عن معرفة الصراط وشرح باطنه وبيان نعته...

النهـايـة: يامفضـل، فاعرف نعمة ربك على هذه الشروح فقد أجبتك عن كل سؤ ال أردت أن تسأل عنه

وهـو صراط ربـك فتمسـك به . . . فكن لمولاك من الشـاكـرين وعلى نعمه من الحامدين وعلى معرفته من الثابتين وصلى الله على حجابه الأعظم وسلّم تسليماً كريماً .

ملاحظات : نسخه شعبان بن فاضل في شعبان سنة ١٣٨٤هـ . ق . وقد نقلها عن نسخة الشيخ عبد اللطيف إبراهيم .

٤٨ ورقة ، سطور مختلفة ، ٢٠ × ٢٥سم .

لم يذكـره علماء الشيعـة وغـيرهـم في مؤلفـات الإمـام الصـادق عليه السلام وفيه آراء غريبة مثل التناسخ والرسخ والمسخ وغيرها والتي لا تناسب أراء الإمام الصادق عليه السلام ، فمن المحتمل أنّه وضع حديثاً .

[٨]
الهفت والأظلة أو الهفت الشريف

وسمّي أيضاً **الأشباح والأظلة** في ٦٧ باباً .

منسوب إلى الإمام الصادق ، رواية المفضل بن عمر الجعفي . وليس منه عليه السلام .

طبع هذا الكتاب تحت عنوانين :

(١) **الهفت والأظلة** ، تحقيق وتقديم د . عارف تامر ، بيروت ، ١٩٦٠م .

(٢) **الهفت الشريف** ، تحقيق وتقديم د . مصطفى غالب ، بيروت ، ١٣٩٧هـ . ١٩٧٧م .

ولا يوجد مخطوطات هذا الكتاب إلاّ في سورية .

ومن الجـديـر بالـذكـر أن هذا الكتـاب أيضاً غير مذكور في كتب الشيعة وغيرها ، وفيه أيضاً آراء غريبة لا تناسب آراء الإمام الصادق عليه السلام وهو بريء منها ، لأنه يضم نظريات تلقي ضوءاً على معتقـدات الفـرق البـاطنيـة ولا يحوي إلا الخرافات التي لا يقرها أي شيعي يستقي تعاليمه المذهبية من معين آل البيت ويهتدي بهديهم .

وهـذا آخـر ما وجـدنـا من الكتب المنسـوبـة إلى الإمام الصادق عليه السلام في مكتبات سورية وما طبع منها .

الحواشي

(١) ـ أعيان الشيعة، ١/ ٦٦٨ ـ ٦٦٩، بيروت، دار التعارف.

(٢) ـ طبيب، عالم بالنبات والأعشاب، ولد في القدس وانتقل إلى مصر، فسكنها وتوفي بالقاهرة، من كتبه: مادة البقاء في إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء، عدة مجلدات، صنّفه للوزير يعقوب بن كلس بمصر ومقالة في: «ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه» والمرشد إلى جواهر الأغذية ومن كتاب كشف السر المصون ثلاث نسخ في الظاهرية المحفوظة في مكتبة الأسد بأرقام: ١٣٦٩، ١٣٧٠، ٧٣٦٥عام.

وانظر أيضاً: الزركلي، الأعلام، ٥/٣١٣؛ كشف الظنون، ١٥٧٤؛ Brock,I: 272 (237), S.I/422 والكتبخانة، ٥/٣٧٠؛ كحالة، ٨/٢٦٣ ـ ٢٦٤؛ هدية العارضين، ٢/٩؛ الوافي بالوفيات، ٢/٨٢؛ الذريعة، ٥/٣١٢.



مدائح ومراثي في الإمام الصادق(ع)
على مختلف العصور

بسم الله الرحمن الرحيم

.قال مالك بن أعين الجهني في رثائه عليه السلام:

فيا ليتني ثم يا ليتني	شهدت وإن كنت لم أشهدِ
فآسيت في بثه جعفراً	وساهمت في لطف العوّدِ
ومن قبل نفسك قلت الفداء	وكف المنيّة بالمرصدِ
عشية يُدفن فيه الندى	وغرّة زهر بني أحمد

نقلاً عن تحت راية الحق ص٥٨٩ نقلاً عن معجم الشعراء ص٣٦٦

قال الحسن بن محمد بن المتجعفر:

فأنت السلالة من هاشم	وأنت المهذّب والأطهرُ
ومن جدّه في العلى شامخ	ومن فخره الأعظم الأفخرُ
ومن أهله خير هذا الورى	ومن لهم البيت والمنبرُ
ومن لهم زمزم والصفا	ومن لهم الركن والمشعرُ
ومن شرعوا الدين في العالمين	فأنوارهم أبداً تزهرُ
ومن لهم الحوض يوم المقام	ومن لهم النشر والمحشرُ

وأنــتــم كنــوز لأشــيــاعــكــم	وأنــكــم الــصــفــو والجــوهــرُ
وأنــكــم الــغــرر الطــاهــرون	وأنــكــم الــذهــب الأحمــرُ
وســيّــد أيــامــنــا جعــفــر	وحــســبــك من سيّــد جعــفــرُ

نقلاً عن تحت راية الحق ص٥٩٢ نقلاً عن مناقب آل أبي طالب ج٤ ص٢٣٤

قال أبـو محمـد طلحـة بن عبيـد الله بن أبي العـون الغسـاني العوني من فطاحل شعراء القرن الرابع الهجري نقلاً عن مناقب آل أبي طالب ٤/٢٧٨ وكتاب لولا السنتان ص١٩ وتحت راية الحق ٥٩٢

عُج بالمطـيِّ على بقـيـع الـفـرقـدِ	واقـرا الـتـحـيَّـة جعـفـر بن محمـدِ
وقـل: ابـن بنـت محمـد ووصـيّـه	يا نور كلِّ هدايـة لم تجحـدِ
يا صادقـاً شهـد الإلـه بصـدقـه	فكـفـى شهـادة ذي الجـلال الأمجـدِ
يا بن الهـدى وأبـا الهـدى أنت الهـدى	يا نور حاضـر سرِّ كل موحِّـدِ
يا بن الـنـبـيِّ محمـد أنـت الـذي	أوضـحـت قصـد ولاء آل محمـدِ
يا سادس الأنـوار يا علم الهـدى	ضلَّ امـرؤ بولائـكـم لم يهتـدي

وقـال الشـاعـر أبـو الحسن جمال الـدين علي بن عبد العزيز بن أبي محمد الخلعي (الخليعي) الموصلي الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ هـ في مدحه ترجم له في الغدير للأميني ٦/١٥ نقلاً عن كتاب لولا السنتان لهلك النعمان للشيخ محمد رضا الحكيمي ص٢١.

يا بني طه ويـاسـ	ـين وحـمَ ونـونِ
بكـم اسـتـعـصـمـت من	شرِّ خطـوبٍ تعـتريـني
فإذا خفـت فأنـتـم	لنـجـاتـي كالـسُّـفـينِ
وعـلـيـكـم ثقـل ميـزا	ني وأنـتـم تنـقـذوني
فاحـشـروا الـعـبـد «الخليـعي»	إلـى ذات الـيـمـينِ

وإلـيـكـم مدحـاً أسـنـى	من الـدُّرِّ الـثـمـينِ
يا حجـاب الله والمـحـ	ـمِيِّ عن رجـم الظـنـونِ
فيـك داريـت أنـاسـاً	عزمـوا أن يقـتـلوني
وتحـصـنـت بقـول الـ	ـصَّـادق الحـبر الأمـين
إتـقـوا إن الـتـقـى من	ديـن آبـائـي وديـني
ولأوصـافـك ورَّيـت	كلامـي وحـنـيـني
وإلـى مدحـك أظـهـر	ت ظهـوري وبطـوني
وكـفـاني علمـك الـشـا	هد للسِّـر المـصـونِ
ومـعـاذ الله أن	ألـوي عن الحـبـل المتـينِ
وأسـاوي بين مفـضـا	لٍ ومـفـضـولٍ ضنـين
بين من قال: أقـيـلو	ني ومَـن قال: سلوني

وقال في مدحه الشيخ العلامة بهاء الدين أبو الحسن علي بن فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الاربلي نزيل بغداد ودفينها أحد أفذاذ العلم وكبار علماء الأمة وأدبائها من أهل القرن السابع من الشهر كتبه كشف الغمـة في معـرفـة الأئمـة مطبـوع في ثلاث مجلدات ومنـه هذه القصيـدة ج٢ ص٤٢٩ قال في مدح الإمـام الصادق عليه السلام:

منـاقـب الـصَّـادق مشـهـورة	ينـقـلهـا عن صادقٍ صادقُ
سما إلـى نيـل الـعـلى وادعـاً	وكـلٌّ عن إدراكـه الـلاحـقُ
جرى إلـى المـجـد كآبـائـه	كما جرى في الحـلبـة الـسـابـقُ
وفـاق أهـل الأرض في عصـره	وهـو على حالاتـه فايـقُ
سماؤه بالجـود هطـالـةٌ	وسـيـبـه هامـي الحـيـا دافـق
وكـلّ ذي فضـل بأفـضـالـه	وفـضـله معـترفٌ ناطـقُ
له مكـان في الـعـلى شامـخ	وطـود مجد صاعـد شاهـق

من دوحة العزّ التي فرعها	سام على أوج السُّها سامقُ
نايله صوب حيا مسبلٌ	وبشره في صوبه بارقُ
صواب رأي إن عدا جاهلٌ	وصوب غيث إن عرا طارق
كأنما طلعته ما بدا	لناظريه القمر الشّارقُ
له من الأفضال حادٍ على	البذل ومن أخلاقه سائق
يروقه بذل الندى والهاً	وهو لهم أجمعهم رابق
خلايقٌ طابت وطالت علاً	أبدع في إيجادها الخالق
شاد المعالي وسعى للعلى	فهي له وهو لها عاشق
إن أعضل الأمر فلا يهتدي	إليه فهو الفاتق الراتقُ
يشوقه المجد ولا غرو أن	يشوقه وهو له شايقُ
مولاي إني فيكمُ مخلصٌ	إن شاب بالحب لكم ماذقُ
لكم موالٍ وإلى بابكم	أنضى المطايا وبكم واثقُ
أرجو بكم نيل الأماني إذا	نجا مطيعٌ وهوى مارقُ

وعن كتاب وفاة جعفر الصادق للشيخ حسين بن الشيخ محمد بن الشيخ أحمد بن عصفور الدرازي البحراني ط١ الحيدرية النجف الأشرف ص١٠ أقول يظهر أنها للشيخ مؤلف الكتاب

يا صادق الوعد الذي	صدق الاله بها قضا
فلك المقام العافي	السر المقدر والقضا
قابلت مقدور الاله	على المضاضة والقضا
مما دهتك به أمية	والعبابسة القضا
بل أنت باب للعلوم	وسيف ربي المنتضا
وبحجة الباري ومع	تكف التصبر والرضا
ليت النفوس فدتك من	سوء المكاره إذ قضا
وعليك صلى خالقي	ما لاح نجم أو أحنا

وفيه ص٣٣ لأحد الشعراء لم يذكر اسمه

فللّه خطـب قبـل وقـع حلولـه   بكتـه السـما دمـاً وغـاربـه البحـر
وزلـزلـت الأرضـون حزنـاً واعـولـت   ملائكـة التـسـبـيـح وامتنـع القطـر
وكيف ولا تبـكـي الـعـيـون لوقعـه   وقـد هدم الـديـن الحنيفـي والأمـر
وعطـلت الأحـكـام بعـد عميـدهـا   ولم يك للإسـلام من بعـده نصـر
ألا لعـن الله الـرحـيـم ومـن سعـا   لمنـصـور عبـاس ومـن دأبـه الـغـدر
فنـفـسـي تفـديـه وأهـلي وجـيرتـي   ومـا أستطيـع الآن والمـال والـذخـر
رزيـتـه أحـيـت رزيـة كربـلا   وقـد شابـه اليـوم المشـوم له العشـر
ألا لعـن الله المـهـيـمـن عصـبـة   لقـد جن في أرواحـهـا الـغـدروالكفـر

وقال السيد صالح النجفي المعروف بالقزويني في رثاء الإمام عليه السلام عن المجالس السنية للسيد محسن الأمين ٢/٣٦٨

حي حيـاً بالأبـرقـين أقـامـا   وارعَ فيـه للقـاطـنـين الـذمـامـا

إلى أن قال:

فدع الـغـانـيـات فالـعـمـر ولـى   والـه عنهـا وأقـر التصـابي السـلامـا
وأنـب صادقـاً وقـدم شفـيـعـاً   جعـفـر الـصـادق الإمـام الهـامـا
من سنـا وجـهـه أمـد الـدراري   ونـدى كفـه أمـد الـغـمـامـا
مصـدر الـعـلم منـتـهـى الحلم باب   الله والـعـروة الـتي لا انفـصـامـا
علة الـكـون من به الأرض قامـت   والـسمـوات والـوجـود استـقـامـا
شمس قدس بدت فجـلت دجـى   الـكفـر ودلت على الـرشـاد الأنـامـا
سيـد جده دنـى فتـدلـى   قاب قوسـين منـزلا لن يرامـا
يا مقـيـماً للديـن أقـوى براهـيـ   ـن على الحـق مثـلهـا لن يقـامـا
يوم بغـي المنصـور إذ حضـر الـنـط   ـع وقـد ناول الـربـيـع الحسـامـا

ولعمري بالصل لو لم ترعه لك لم يرع حرمة وذماما
والذي نمّ رمت منه يمينا أوردته قبل الحمام الحماما

* * *

يا بدوراً قد غالها الخسف لكن لم تزل في الهدى بدوراً تماما
حاولت نقصها العدى فأبى الرحمـ ـن إلا لنورها الاتماما
حر قلبي لسادة أزكياء في الطوامير خلدوا أعواما
أرهقوا الطفل والمراهق منهم بالملمات يقظة ومناما
أرضعوا طفلهم لبان الرزايا وأعدوا له الحسام فطاما
قتلوهم وما رعوا لرسول الله إلا في آله وذماما
يا جبالاً حلماً تفوق الرواسي وسجالا نعمى تعم الأناما
وليوثاً غلباً إذا طاشت الأحـ ـلام في الروع لم تطش أحلاما
لم يمت حتف أنفه من إمام منكم عاش بينهم مستضاما
ما كفاها قتل الوصي وشبليـ ـه وأبنائهم إماماً إماما
والتعدي على الميامين حتى لم تغادر من تابعيهم هماما
ورمت جعفراً رزايا أرتنا بأبيه تلك الرزايا الجساما
بأبي من بني النبي إماماً جرعته بنو الطليق الحماما
بأبي من أقامه الله للعلـ ـم وللحلم غارباً وسناما
بأبي من بكى عليه المعادي والموالي له بكاء الأيامى
بأبي من أقام حياً وميتاً عمد الدين والهدى فاستقاما
بأبي من عليه جبريل حزناً في السماوات مأتماً قد أقاما
يا حمى الدين إن فقدك أورى في حشى الدين جذوة وضراما
ومن المؤمنين أسهر طرفاً ومن الكاشحين طرفاً أناما
كنت للدين مظهراً ومنارا ولأهليه جنة وعصاما
كان بيت الهدى بهديك معمو راً وقد سامه الضلال انهداما
لا مقام لأهل يثرب فيها يوم أبكيت يثربا والمقاما

أيها البدء والختام لهذا الـ	ـكون طبتم بداية وختاما
إن تساموا ضيما فعما قليل	يدرك الثأر ثائر لن يضاما
ملك تخضع الملوك لديه	وإليه يلقي الزمان الزماما
علم للهدى به الله يمحو	كل غي ويمحق الآثاما
وبه الله يملأ الأرض عدلاً	وبه يكشف الكروب العظاما
محيياً دين جده محكماً بالـ	ـبيض والسمر شرعه أحكاما
حي مولى جبريل جهراً ينادي	في السماوات باسمه إعظاما
بك يا كافي المهمات لذنا	فرقا فاكفنا الطغاة الطغاما
نشتكيهم إليك في كل يوم	فإلى م نشكو إليك إلى م

وقال السيد محسن الأمين صاحب أعيان الشيعة في رثاء الإمام الصادق عليه السلام نقلاً عن كتابه المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية ج٢ / ٣٧٠

تبكي العيون بدمعها المتورد	حزناً لثاو في بقيع الغرقد
تبكي العيون دماً لفقد مبرز	من آل أحمد مثله لم يفقد
أي النواظر لا تفيض دموعها	حزناً لمأتم جعفر بن محمد
للصادق الصديق بحر العلم مصـ	ـباح الهدى والعابد المتهجد
رزء له أركان دين محمد	هدت وناب الحزن قلب محمد
رزء أصاب المسلمين بذلة	وهوى له بيت العلى والسؤدد
رزء له تبكي شريعة أحمد	وتنوح معولة بقلب مكمد
عم الضلال لفقد هاديها وقد	فقد الرشاد بها لفقد المرشد
رزء تهون له المصائب كلها	رزء له غاض الندى وخلا الندي
رزء بقلب الدين أثبت سهمه	ورمى حشاشة قلب كل موحد
ثلم الهدى والدين منه ثلمة	حتى القيامة ثلمها لم يسدد

ماذا جنت آل الطليق وما الذي	جرت على الإسلام من صنع ردي
كم أنزلت مر البلاء بجعفر	نجم الهدى مأمون شرعة أحمد
كم شردته عن مدينة جده	ظلماً تجشمه السرى في فدفد
كم قد رأى المنصور منه عجائبا	ورأى الهدى لكنه لم يهتد
هيهات ما المنصور منصور بما	يأتي ولا هو للهدى بمسدد
لم يحفظوا المختار في أولاده	وسواهم من أحمد لم يولد
لم يكف ما صنعت بهم أعداؤهم	زمن الحياة وما اعتداه المعتدي
حتى غدت بعد المهات خوارج	في الظلم بالماضين منهم تقتدي
هدمت ضرائح فوقهم قد شيدت	معقودة من فوق أشرف مرقد

للسيد مهدي الأعرجي نقلاً عن كتاب من لا يحضره الخطيب للسيد داخل السيد حسن ص٣٦١

يا لرزء هدَّ أركانَ الهدى	وبنا قدْ أشمتَ اليومَ العدى
يا لرزء جلَّ في الكون فجميع	كلُّ قلبٍ منه قد أمسى وجيع
أقبرٌ قدْ هدّموها بالبقيع	مَن بها الأملاكُ تهوي سجّدا
يا لرزء دكَّ أطوادَ الرشاد	ولفسطاط التقى دقَّ عماد
يا نجومُ انتشري فوقَ الوهادِ	فضيا أقمارِ طه خمّدا
طيبةٌ لا طابَ فيكِ المطعم	لقبورٍ فيكِ ظلماً تُهدم
فرقّت منهم لطه أسهمُ	فأصابت قلبَه والكبدا
ويكَ يا شوّالُ أخزيتَ الشهورْ	وبفرطِ الحزن أوغرتَ الصدور
بكَ هُدّت لبني الهادي قبور	وبكَ الصادق قد ذاق الردى
خصمُهُ أوقفه بين يديه	باغياً مفترياً كذباً عليه
وهو يبدي العذرَ من خوفٍ إليه	قائلاً ذلك مني ما بدا
وهو شيخٌ قد عراهُ الكبرُ	قاربَ السبعين منه العُمرُ

ففـدا شزراً إلـيـه ينظـر	قائـلاً دعْ عنـكَ هذا الحـسـدا
احـرق الـدارَ عليـه بالحطـب	فغـدت أطـفـالـه تشـكـو العطـب
وإلـيـه دسَّ سماً في العـنـب	فقـضـى لهفـي له مضطـهـدا
وفـقـة الـصـادق فرع من وقـوف	كان قدمـاً لأسـير بالطـفـوف
فيـه بالأمـصـارِ أعـداد تطـوف	مسـتـضـامـاً ليسَ يلفـي مسـعـدا

وقال الشيخ محمد حسين الأصفهاني نقلاً عن ديوانه المسمى الأنوار القدسية ص٦٨

شق ظلال الجهـل فجـر المعـرفـة	بصبحـه الـصـادق رسـماً وصفـه
أصـبـح مشـرقـاً محيـط الـديـن	بضـوء صبـح الـعـلم والـيـقـين
وأصـبـحـت دائـرة الحـقـائـق	مشـرقـة بنـور علم الـصـادق
وأصـبـحـت به أصـول المعـرفـة	على أسـاس جل عن كل صفـة
وأصـبـحـت قواعـد الـتـوحـيـد	قائـمـة برأيـه الـسـديـد
وأصـبـحـت لطـائـف المعـارف	جليـة في قلب كل عارف
وأصـبـحـت معـاهـد الـعـلوم	واضـحـة الحـدود والـرسـوم
وأصـبـحـت به معـالم الهـدى	زاهـرة لمن تجري رشـدا
وأصـبـحـت سنـة خير الأنـبـيـا	كالـقـمـر الـبـازغ نوراً وضـيـا
وأصـبـحـت دقـائـق الـكـتـاب	تلمـع كالـشـمـس بلا حجـاب

شمس الهـدى

وأشـرقـت من أفـق الـرسـالـة	شمس الهـدى والـرشـد والـدلالـة
بل من سماء الـذات بدر المـعـرفـة	به اسـتـنـار كل اسـم وصـفـة
بل هو صبـح الأزل الـوضـاح	من نوره الـعـقـول والأرواح

وهـو مدار عالم الأسماء واسطة الابداع والإنشاء
وكل نور هو ضوء نوره ونور سينا من طوره
ونوره في عالم الأنوار كالبدر في الكواكب الدراري

فيوضه ومكارمه

أنفاسه كالنفس الرحماني حياة ما في عالم الامكان
وفيض علمه على الأنام مقدس عن درن الأوهام
وأمره الماضي كلمح بالبصر بل هو محور القضاء والقدر
وعزمه المحيط بالجهات كنقطة المركز في الثبات
غرته الغراء في الاشراق بارقة الأنفس والآفاق
منطقه كالوحي لا سواه إذ هو لا ينطق عن هواه
فإنه في ذاته العلية سر الحقيقة المحمدية

مقوله الحكيم

لسانه مفتاح أبواب الحكم لسانه مصباح أرباب الهمم
لسانه محجة القلوب للسير في عوالم الغيوب
لسانه لسان غيب الباري وسره المحيط بالأسرار
تجلت الأسرار من لسانه وانجلت الأستار من بيانه
بدت بنور علمه الرباني حقيقة القرآن والمثاني
وكيف لا وعلمه الالهي مرات غيب ذاته كما هي
وعلم الأسماء آدم الصفي في كنه ذاته وسره الخفي
ونال خضر من لدنه علما ومنه لقمان استفاد حكما
ومنه داوود أصاب الحكمة ثم ابنه إذ هو باب الرحمة

علم الكتاب

وعنده علم الكتاب كله   فكل من سواه تحت ظله
بل هو كالبحر من الحباب   ممن له علم من الكتاب
وكل ما في الصحف المكرمة   ففي كتابه الحكيم محكمة
إذ هو في مقامه الرفيع   صحيفة التكوين والتشريع
وكيف لا وهي به قوامها   ومنه بدؤها به ختامها
قام بتكميل العقول والنهي   مبدؤه النبي وهو المنتهي

أنواع العلوم

بث لباب العلم في الألباب   وميز القشر من اللباب
أحيى بأنواع العلوم والحكم   قلوب أربابَ المعالي والهمم
روى الصدور بالعلوم الشافية   فإنه عين الحياة الصافية
أفاض كالحبا على مواتها   فأسفر الصباح عن حياتها
أبان عن حقائق العرفان   بمحكم البيان والبنيان
شيد أركان الهدى بحكمته   وشاد قصرها بعالي همته
همته من هامة السماء   كقاب قوسين من الغبراء

الحقيقة والطريقة

مهد للسير إلى الحقيقة   قواعد السلوك والطريقة
أعرب عن مقام سر الذات   وعالم الأسماء والصفات
حتى تجلى الحق في كلامه   فشاهدوه وهو في مقامه
بل أشرقت حقيقة الحقائق   مذ بزغت شمس محيا الصادق

وفي بيانه وفي عيانه غنى لذي عينين عن برهانه
فلا وحق الصدق لولا الصادق لم يك بالحق الحقيق ناطق
له يد المعروف عند العارف بل يده البيضا على المعارف
دعا إلى مكارم الأخلاق بالقول والفعل بالاتفاق
ومن حديث الصدق صدق لهجته وحسن الأخلاق حسن بهجته

السير والخلق الكريم

وسار في الناس بأحسن السير سيرته سيرة خيرة الخير
وهل ترى مكارم الأخلاق إلا عن الطيب في الأعراق
كان عظيم خلقه تراثا عن جده أكرم به ميراثا
أفصح عن حقائق الكتاب بما يزيل ريبة المرتاب
فإنه سليل من خوطب به وهو ولي عهده ومنصبه
بل هو في صحيفة الوجود كنقطة الباء لدى الشهود
وليس ما في الكتاب المنزلة إلا وفي نقطة باء البسملة

نشر السنة والدفاع

وفي بيانه لحفظ السنة ما ليس في السنة الاسنة
دافع عنها بقواه العالية مماخلت عنه القرون الخالية
جاهد عنها أعظم الجهاد ببث روح العلم والإرشاد
فاستحكمت بجده حدودها يغنيك عن آثارها شهودها
أحيى ربوع العلم بعد الطمس فاخضر عوده عقيب اليبس
حتى غدت رياضها أنيقة وأثمرت ثمارها الحقيقة

عادت به شريعة الأحكام ... نقية عن كدر الأوهام
حتى صفا لأهلها زلالها ... وبان عن حرامها حلالها
أكرم بها شريعة معظمة ... بناؤها على أساس العظمة
على أساس الوحي والتنزيل ... على يد الخبير بالتأويل

العادلون عنه

ويل لمن مال عن الحق السوي ... واتبع الباطل إبليس الغوي
واستبدل الصادق مصباح الهدى ... بالمفتري الكاذب مفتاح الردى
أين هدى العلم من القياس ... والوحي من وساوس الخناس
وأين نور السنة البيضاء ... من ظلمة الأهواء والآراء
لقد تجلى الحق لكن الهوى ... يغوي وكل من غوى فقد هوى
وأن حب الجاه يعمي ويصم ... عروته وثيقة لا تنفصم
وهو غطاء العقل والبصيرة ... أخبث ما تسره السريرة
مبدأ كل فتنة وآفة ... غاية من تقمص الخلافة
منه جرى على أئمة الهدى ... من البلا ما ليس يحصى عددا

الدوانيقي والقساوة

ويل الدوانيقي ما أشقاه ... قد بلغ الغاية في شقاه
مما جرى منه على إمامه ... مما يزيل القلب عن مقامه
أيسحب الإمام وهو حافي ... أهكذا شريعة الإنصاف
وهو ابن من علا أعلى البراق ... إلى مقام ما ارتقاه راق
أيوقف المولى أمام عبده ... والعرش عرشه أباً عن جده

أيوقف الإمام وهو حاسر	يا ويله ما ذلك التجاسر
إذ هو تاج المجد والكرامة	فلا أحق منه بالعمامة
يا ويله من شتمه وسبه	ظلماً فما أكفره بربه
أمثله يشتم أو يسب	وهو لأرباب المعالي رب

الحريق الغابر والحاضر

وحرقة لباب بيت الشرف	تراثه من أمراء السلف
والباب ذاك الباب باب العظمة	والنار تلك النار نار الظلمة
والباب باب كعبة التوحيد	والنار نار الكفر والجحود
وكم وكم بنى على الفتك به	لو لم تكن عناية من ربه
أتى بظلمه على أتمه	حتى أتم ظلمه بسمه
جنا على ذرية الرسول	جناية تذهب بالعقول
وما جنى به على ابن الحسن	لم يسمع الدهر بمثله ولن

وقال السيد محمد جمال الدين الهاشمي المتوفى سنة ١٣٩٧ هـ نقداً عن ديوانه مع النبي ص وآله ج١ ص٢٨١

بعنوان: بنهجك سرنا قالها سنة ١٣٨٠ هـ

بنهجكَ قد وضح المذهبُ	فسار به ركبنا المتعبُ
وزال عن الجوّ ذاك الغُبار	فلاح لنا الأفق الأرحب
درجنا به، وضحايا الطريق	يكاد بها يعثر الموكب

درجـنـا يشـيّـعـنـا الحـاقـدون		بلسـع يضـيـق به الـعـقـرب
درجـنـا نخـبُّ إلـى مقـصـدٍ		إلـيـنـا على بُعـده يقـرب
درجـنـا نشقّ الخِضمّ الـرهـيـب		فيطـفـو بنـا المـوج إذ نرسـب
إلـى أن رسـونـا على شاطـىء		به الـعـيش مخضـوضـر معـشـب
وطـالـعـنـا الـفـجـرُ في سحـره		فأسـكـرنـا أفـقـه المـذهـب
وقـد بزغـت شمـسـنـا ، فانـتـهـت		بها قِصـةٌ عرضـهـا مكـرب
ولاحـت دسـائسُ أعـدائـنـا		فضـائـحَ، تاريخـهـا مرهـب
وأصـبـح موكـبـنـا في الحـيـاة		به يحتـفـي الأدب المـعـجـب
بنهـجـكَ سارت بتأريخـنـا		نشـائـدُ توقـيـعـهـا مطـرب
تغـازل أبطـالـنـا وهـي في		صراع به الـدهـر مسـتـكـسـب
وتـصـدمـهـا عثـراتُ الطـريـق		فيـسـحـقـهـا عزمـهـا الملهـب
تسـير وقـد هاجـتـهـا الـذئـاب		لترهـبـهـا، وهـي لا تهرب
تسـير ولـلدمـع والـدم من		جوانـبـهـا موكـب مرعـب
تسـير وتـبـصـر أبـنـاءهـا		ضحـايـا تمزّقـهـا الأذئـب
تسـير وتـترك آثـارَهـا		كنـوزاً من الـنـور لا تنـضـب
ويـرفـعـهـا الحـق في أفـقـه		نجـومـاً بها ينـجـلي الـغـيـهـب
تموت الـعـصـورُ وآثـارهـا		حيـاة تعـيـش بها الأحـقـب
تبـاركـتَ من مبـدع لم تزل		شمـوع الحـيـاة به تلهـب
وقـدسـتَ من مصـلح كالـربـيـع		به يخصـب الـعـالم المُـجـدب
إلـى الآن والـفـكـر ما زال من		كنـوزكَ يكـسـب ما يكـسـب
وأنّ روائـعـك الخـالـدات		مدارسُ كل لها مكـتـب
ففـي كل فن لها مسـلكٌ		وفي كل علـم لها مذهـب
عوالم لا تتـنـاهـى بها		يحار المـترجـم ما يكـتـب
عوالم دلّـت على إنّهـا		إلـى الله آفـاقـهـا تنـسـب
وإلا فأعـمارنـا الـضـيّـقـات		لتـقـصـر عن بعض ما تطـنـب

تبـاركـتَ في الـعـلم من منجـم	ذخـائـره قط لا تحـسـب
وقـدسـتَ في الحـكـم من مشـرق	أشـعّـتـه قط لا تحجـب
تجهّـزه وهــو في جاحـم	يخور به الـبطـل المـحـرب
وقـد هاجـتـه لصـوص الظـلام	لتـنـهـب في الـلـيـل ما تنهـب
فـفـاجئـهـا وعـيـنـا المسـتـنـير	فعـادت ومـوقـفـهـا الأخـيـب
وراحــت تنـالـك بالمـوهـنـات	ليـنـهـار موقـفـنـا الأصـلـب
فذلـك ينـعـق مثـل الـغُـراب	وكـالـبـوم هذا بها ينـعـب
ومـاضـرّ مجدك وهـو الـسـماء	إذا راح يخدشـه الـشـعـلـب
وقـد هدم الـعـلم ومـا أسـسـوا	وحـلّـل بالـدرس ما ركـبـوا
فلا ينـفـع الـكـذبُ في متـجـر	بها يخسـر الـسـوق من يكـذب

* * *

أقـول وسـحـرك ملؤ الحـيـاة	له كلٍّ ذي مسـكـة يجذب
دعـوا أمس عنـا فآثـامـه	بها للزمـان وهـى منـكـب
وهـيّـا نوحّـد خط الـدفـاع	فقـد راعـنـا خطـر معطـب
فهـذي المـبـادي، وإلحـادهـا	بكـل مكـاسـبـنـا يلعـب
وأخـشـى إذا لم نحـل دونهـا	يجف بها حقـلـنـا المـخـصـب

وقال ص٢٨٤ بعنوان: يا آية الإسلام قال سنة ١٣٧٣ هـ

الـدهـر عن تحديـد ذاتـكَ يقصـرُ	ماذا يقـول الـشـاعـر المـتـحـيّرّ
فجـر طلعت على الـزمـان، فأشـرقت	آفـاقـه، وانـجـاب ليـل أكـدر
يا آيـة الإسـلام تلقـف كلَّ ما	أفـك الأولـى ظلماً عليـه وزوّروا
باعـوا العقيـدة بالنُضـار فحـرّفـوا	ما شاءه رب الـنُـضـار وغـيروا
فإذا الـشـريـعـة أجـة ملتـفـة	فيـهـا يضـيـع السـالـك المتبصّـر

وإذا أحاديث النبي مناظر … ممسوخة منها الحجى يتذمر
وإذا المبادىء لا تسير لغاية … وإذا المطامع بالمبادىء تعثر

* * *

وتناست الأجيالُ عهدك غفلة … يوماً ليذكركَ الزمان فيشكر
وصداكَ يخترق الدهور مدوّياً … وشذاك فيها الخالدات تعطر
يفني الربيعُ بورده وغديره … وربيع ذكركَ عاطرٌ متفجّر
في كلِّ شامخة لمجدكَ شارة … وبكل رائعة لفضلك مظهر
قد كافحتها الحادثات فلم تزد … إلا جمالاً عن جلالِكَ يخبر
رامت لتطفىء نور فضلك فانطفت … والليل يضويه الصباح المسفر

* * *

سايرتَ ظلّ الدولتين مجانباً … فتناً بها عهداهما يتمور
ورأيت كيف الظلم يترك مألفاً … قذراً، ليحضنه محيط أقذر
ورأيتَ كيف الحق ينتحل أسمه … زوراً، وكيف به المظالم تفخر
وتباهل السفّاح في تشييده … ملكاً، بشارات الحسين يدّبر
حتى إذا خضع الزمان لحكمه … قلّب المجنّ لكم، وبان المضمر
وأقام للمنصور أبطش دولة … تنهى بما يوحي الجنون وتأمر
وعلى جماجم آل بيت محمدٍ … أسوارُ بغداد تشاد وتعمر

* * *

وأتاك موغور العداوة عاثراً … بمواقف فيها العداوة توغر
قد رام أن يهوي بمجدك فالتوى … وهوى به تاريخه المتجبّر
وسعى إليكَ بشربة مسمومة … فيها استراح ضميركَ المتضجّر

وقال الخطيب الشيخ عبد الزهراء بن فلاح الكعبي الكربلائي المتوفى سنة ١٣٩٤ هـ نقلاً عن كتاب لولا السنتان ص١٨٠

لأبـي الـكـاظـم الإمـام أيـاد	سابـغـات تعـم كل الـبريّـة
أظـهـر الله فيـه شرعـة طه	بعـد إخـفـائـهـا فعـادت بهيّـة
رُويـت عنـه للأنـام علوم	هي كانـت من قبـل ذاك خفـيّـة
فحـفظـنـا تلك الـعـلوم ومـن ذا	قد عُرفـنـا بالـفـرقـة الجعفـريّـة

وقال الشيخ عبد المنعم القرطوسي صاحب أطول ملحمة في أهل البيت عليهم السلام المعنونة بملحمة أهل البيت أخذنا منها بعض ما يتعلق بالإمام الصادق(ع) من الجزء السادس والسابع ج٦ من ص٧ إلى ٢٨ وص١٧٨ و١٧٩ وأما جزء ٧ فصفحة ٣٤٧ فقط

مـولـده(ع)

بسـمات الـرّشـاد شعّـت يقـينـاً	فوق ثغـر من الهـدى مسـتـضـاء
ونـشـيـد الأذان لاطـف سمـعـاً	بنـداء للحـق بعـد نداء
وخـشـوع الـصلاة عفّـر وجـهـاً	خرّ لله ساجـداً بالـدعـاء
بيّـنـات من الهـدى محكـمات	هي فصـل الخطـاب عنـد القضـاء
وشـعـاع من الـرسـالـة يذكـو	في سماء من الـنّهـى والـذّكـاء
وعـبـير من المـآثـر أهـدى	نفـحـات الـبـنـين للآبـاء
وعـديـل الـكـتـاب منـه استظلّت	سنـة المـصطـفـى بخـير لواء
ولـد الحـق من علي ورفـت	بالـقـداسـات بُردة الـزهـراء
ولـد الـنّسـك من محمـد والصـدق	بحـجـر التّـقـى ومـهـد الـوفـاء
ولـد الـعـلم في بيـوت من الـذكـر	تسـامـت بالـعـلم والـعـلماء
ولـد الـصـادق الأمـين فضـجـت	بالـتـهـالـيـل بشـريـات الـسماء

وتجلّى الإمام جعفر يمناً ... مستنيراً بطلعةٍ غرّاء
فاستفاضت على الثرى بركاتٌ ... من جبين مكللٍ بالبهاء
واستطالت مجداً بخير إمامٍ ... أنجبته أرومةُ الأزكياء

دلالة العصمة على إمامته

ووجود الإمام لا بدّ منه ... في البرايا لبغية الإهتداء
وهو لا بُدّ أن تُحقّق فضلاً ... فيه بالقطع عصمة الأنبياء
ليتم الوثوق في كل أمرٍ ... جاء فيه للنّاس دون امتراء
حيث من غير عصمة من تسامى ... ورعاً في منازل الإرتقاء
لا يتم الوثوق للناس فيه ... أبداً وهو عرضة للبلاء
لاحتمال الوقوع في السهو ... والنسيان منه والفعل للفحشاء
ومتى يحمل الأمانة حِفظاً ... بعد فقد الرسول للحنفاء
وتؤدى رسالة الدين رشداً ... واهتداء منه بخير أداء
وهو ما زال عرضةً لبلايا ... تعتريه بدون أي وقاء
وإمام الهداة نبعة طه ... صادق القول خيرة الأمناء
هو ممّن قد أذهب الله عنه ... كلّ رجسٍ بنص ذكر السماء
فهو للعصمة الكريمة أهلٌ ... وهي أهل له وخير رداء
ولقد أجمعوا لما قد تجلّى ... فيه من عصمة عن الأخطاء
أنها قد تحقّقت فيه صدقاً ... ويقيناً محضاً بدون افتراء

دلالة الآيات الباهرة على إمامته

وظهور الآي الحكيمة منه ... بعد عجز عن مثلها وعياء

وهي مما تعرو ولا تتسنى ... لسوى الأوصياء والأنبياء
فهو أقوى دلالةٍ تتجلّى ... بعُلاها إمامة الأوصياء
وإليكم شواهد تقتفيها ... مثلها في الهدى بخير اقتفاء

الإمام الصادق(ع) والمنصور

قد دعاه (منصورهم) ذات يومٍ ... وهو يغلي غيظاً من الإستياء
قائلاً للإمام كفراً وبغياً ... بعد تهديده بحتف الفناء
أفتبغي بي الغوائل إلحاداً بملكي بدون أي انتهاء
قال والله ما فعلت ولا كنت مريداً له بأيّ ابتغاء
وإذا ما أتاك عني هذا ... فهو من كاذبٍ بشرّ افتراء
وإذا كنت قد فعلت فأولى ... أنت بالعفو شيمة الحُلماء
ولقد أعطي النبي سليمان فأبلى شكراً لربِّ العطاء
واغتدى صابراً على الضرّ أيوب من الله ساعة الإبتلاء
وتغاضى النبي يوسف عمّن ... ظلموه بأسوأ الإعتداء
وإليهم كريم أصلك يعزى ... نسباً عند ساعة الإنتماء

إفتراء وبهتان

قال بعد الهدوء هذا فلانٌ ... عنك وافى بهذه الأنباء
قال فاجمع ما بيننا فدعاهُ ... فانبرى ضلة من الشهداء
قال دعني لكي أحلّف هذا ... قال فافعل ما شئت دون إباء
قال فاحلف برئت من حول ربّي ... ولحولي التجأت شر التجاء

أنّ ما قد حكيتـهُ هو صدقٌ ويقينٌ عنّي بدون امتراء
فاغتدى صامتاً هنيئةً رُعباً ثم أدلى بالحلف دون اختشاء
فارتمى ضارباً برجليه للأرض هلاكاً ومات دون بطاء
قال جرّوهُ فهو قد نال خُسراً ما جنتهُ يداهُ دون اتقاء

إستجابة دعائه في داوود

وتمادى ظلماً بقتل المُعلّى وضلالاً داوُد دون ارعواء
فأتى قائلاً قتلت غُلامي بعد أخذٍ للمال بالإعتداء
أفلا تعلمنّ يغفو على الثكل مصابٌ في ساعة الإبتلاء
وعلى الثأر لا ينامُ مضامٌ واجدٌ من ضراوة الإستياء
أمَا والله سوف أرميك قصداً بسهام الظلام عند الدعاء
قال فاذهب مستهزئاً فيه جهلاً وادع فيما قد شئت دون اعتناء
فأتى بيته وما زال يدعو ربه في تضرُّعٍ وبكاء
سائلاً منه أن يُنزِّل فيه نقمة السخط دون أي بطاء
قائلاً يا قويّ في كل أمرٍ يا شديد المحال دون رخاء
ياعظيم العز الذي ذلّ ضعفاً كل شيء له بدون إباء
إنتقم لي منه بأسرع وقتٍ واكفني شرهُ بخير اكتفاء

هلاك داوود

فتعالى الصراخ من دار داود بكاء عليه بعد العشاء
وأتاه البشير قد مات ليلاً ومضى هالكاً بدون بقاء
فهوى ساجداً لربّ البرايا شاكراً فضله بخير عطاء

وسوى هذه الكرامات أخرى ظهرت منه للورى بجلاء
سوف يأتي تفصيلها بوضوحٍ عند ذكر المعاجز البيضاء

شخصية الإمام الصادق(ع)

مثلٌ رائع ومجدٌ صريحٌ فارع بالشّموخ والكبرياء
وسماء من الكرامة يعنو لذُراها طموح كل سماء
ومنارٌ من الهدى مستنيرٌ مستطيلٌ بالعز والإعتلاء
ومدارٌ للفضل قد شع رُشداً كلُّ أفقٍ منه بنجمٍ مُضاء
ولواء من الإمامة يهفو خافق الظلِّ فوق كلِّ لواء
وربيع من المعارف ثرٌّ مخصبٌ في مدارك العُقلاء
فاض من أصغريه بالخصب حتّى أخصبت كلّ صخرة صمّاء
وخيال للعبقرية خصبٌ ثاقب الذِّهن ملهم بالذُّكاء

دنيا من المواهب

تتلاقى دنيا المواهب فيه وهي أفكارهُ بخير التقاء
فهو مرآتها وما شع منها صورٌ أشرقت بأفق ذكاء
صفحات من لوح ذهنٍ صقيلٍ مشرقٍ من طلاقةٍ وصفاء
سُقيت بالنّبوغ وهو معينٌ فتروّت منه بخير ارتواء
واستدرّت على الخلائق مما وهبت فيه من جزيل العطاء
نفحاتٌ من القداسة تذكو وبلاغٌ من حكمة الحكماء
قد سمعنا زبور داوُد منها حين يتلى في خشيةٍ وبكاء
وقرأنا في الحكم توراة موسى حين تقضي عدلاً بفصل القضاء

واستفاضت على البرية طهراً	بعفاف ابن مريم العذراء
واقتدى الناسُ سنَّةً وكتاباً	من هداها بخاتم الأنبياء
تلك شخصية الإمام وهذا	قبس منه مشرقٌ بالضِّياء

رواية سبط ابن الجوزي وابن طلحة

فروى السِّبط ما تلقّاهُ عنه	من رواة الحديث والعلماء
شغلته عبادة الله نسكاً	وتقىً عن رئاسة الرؤساء
وتجلى ابن طلحةٍ مستفيضاً	بحديثٍ معطرٍ بالثناء
قائلاً فيه إنّه ذو علومٍ	وعبادات وُفِّرت في النماء
وهي مشفوعة بأوراد قدسٍ	منه موصولة بدون انقضاء
وجميع الزَّمان يُقسم منه	بين طاعاته بحدٍّ سواء

عبادته (عليه السلام)

ولقد كان مكثراً في العبادات	بخوف من ربِّه ورجاء
مستجيباً لله يخشاه حقّاً	بعد عرفانه بخير اختشاء
ولقد جاءت الأحاديث تطغى	في عبادات صادق الأمناء

رواية أبي نعيم ومالك بن أنس

وحبانا أبو نُعيم بنصٍّ	قال فيه بمنطق البلغاء
آثر العزلة اختشاء وخوفاً	ونهى عن رئاسة الأمراء

وهـو أضحى على العبـادة نسكـاً مقبـلاً في تضـرّعٍ وبـكـاء
ولـقـد قال مالـك ليس يخلو من خصـالٍ ثلاث طول الـبـقـاء
صائـماً أو مصـلّيـاً لإلـه الخـلق أو ذاكـراً بخـير دعـاء
ولـقـد كان من أعـاظـم أهـل الـزُّهـد والـعـابـديـن والأتـقـيـاء
وأنـا قد ذهـبـت للحـجّ عامـاً معـه فانـبرى من الإتـقـاء
عنـد إحـرامـه لشـدّة خوفٍ وخـشـوعٍ لربّـه واخـتـشـاء
كلّما رام أن يلبّـيَ نسـكـاً قطـع الـصّـوت منـه عنـد النـداء
ولـقـد قال ما وعـت قطُّ حيـنـاً أذنُ واعٍ ولا رأت عين رائـي
رجـلاً في الـعـبـاد أفـضـل منـه من جميـع الهـداء والـفـقـهـاء
ورعـاً أو عبـادةً أو علومـاً فهـو في الـفـضـل زينـة الأولـيـاء
وسـوى هذه الـنّـصـوص تجلّت في عبـاداتـه بأبهـى جلاء
فتـتـبـع آثـارهـا والـتـقـطـهـا دُرراً من مواقـع الإنـتـقـاء

زهـــده

ولـقـد كان في اللـذائـذ طرّاً زاهـداً من متـاع دنـيـا الـفـنـاء
ماعـدا بُلغـةٍ من الـعـيـش تحيـا الـنّـفس فيـهـا منـه لأجـل الـبـقـاء
ولـبـاسٍ يُكسى من الصـوف فيـه خشـنٍ يصطـفـيـه تحت الـرّداء
فوقـه جبّـة من الخـز تبـدو لعـيـون الـورى وخـير كسـاء
قائـلاً هذه لكـم حذر الـنـقـد وهـذا لله ربِّ الـسـماء
وهـو قد كان يطـعـم الـضـيـف لحماً بعـد نتـفٍ بكـفّـه الـبـيـضـاء
وهـو ما زال يأكـل الخـلَّ والـزّيـت طعـام الخـيـار والأنـبـيـاء

سفيان الثوري

ورأى جبة من الخزّ سفيان عليه تبدو بوقت اللقاء
فاغتدى منكراً وقال أتكسى مثل هذا يا نبعة الأصفياء
قال أدخل يديك للجسم منّي لترى ما وراءها من غشاء
فرأى تحت جبّة الخزّ مسحاً خشن اللمس دون أيّ وقاء
ورنا نحوه وقال برفق أرني ما وراء هذا الرِّداء
فإذا فيه يرتدي بقميصٍ أبيض اللون ناعمٍ من وراء
فاغتدى واجماً لما بان منه بعد كشف الغطا لفرط الحياء
قال لا تكثر الدخول علينا حذراً أن تضرّ دون غناء
وعلى هذه الوتيرة يجري زهدهُ في مواقع الإبتلاء

حلمه

وهو في الحلم قدوةٌ ومثالٌ يقتدى فيه أحسن الإقتداء
ولقد كان يُكثر الصّفح عمّن ظلموهُ بأسوأ الإعتداء
ويكافي المسيء عمّا جناهُ بمزيدِ الجميل والنّعماء
وإذا جاءه بأنّ فلاناً سبّه شاتماً بأقسى هجاء
قام بعد الصّلاة لله يدعو للذي سبّه بخير دعاء
سائلاً صفحهُ مع العفو عمّا قد جناهُ ظلماً بدون ارعواء
قائلاً قد تركت حقّي فاغفر منه ما كان يا إله السّماء

صلة للرحم القاطع

ويزيد العطاء للرّحم القاطع برّاً فيه بدون جفاء

مسـرعـاً قبـل أن يكـون غنـيّـاً   عنـه في وصـلـه بدون بطـاء
ولـقـد كان بعـضـهـم يتـصـدّى   مسـتطيـلاً لقـتـلـه في عداء
وهـو يغـضـي حلماً ويـصـفـح عنـه   كرمـاً في تجـبـب وولاء
قائـلاً يا عزيـز ذلِّـل برفـق   عنـقـي في الـدعـاء للأقـربـاء
ولـقـد كان صادق الـقـول ينهـى أهـلـه عن صعـود أعـلى الـبـنـاء
فأتـى بيـتـه وأبـصـر يومـاً   أمـةً فوق سلّم الإرتـقـاء
بيـديهـا طفـلٌ يُقـلّ فأهـوى   من يديهـا من خيـفـةٍ واختـشـاء
فقـضـى نحـبـهُ وبـان عليـه   أثـرٌ ظاهـرٌ من الإسـتـيـاء
قيـل حزنـاً لفـقـدهِ قال كلا   غير أنّي أرعـبـتـهـا بنـدائـي
ودعـاهـا فقـال كوني بأمـنٍ   واذهـبـي أنـتِ حرة في إمـائـي

كيس فيه ألف دينار

وأتـاه في الـبـيـت شخصٌ غريـبٌ   وهـو بالـذكـر لاهـجٌ والـدعـاء
قائـلاً قد أخـذت كيـسـي مني   وأنـا نائـمٌ بهذا الـفِـنـاء
قال ماذا فقـدت فيـه فأوحـى   ألـف ديـنـار أودعـت في وعـاء
فأتـى فيـه أهـلـه وحـبـاهُ   ألـف ديـنـار دون أي إبـاء
ورأى الـكـيـس حيـنـما عاد منـه   مودعـاً عنـد أهـلـه في الخـبـاء
فأتـاه بالمـال بعـد اعـتـذارٍ   كان منـه له لفـرط الحـبـاء
قال خذه فلا يعـاد إلـيـنـا   كل ما كان خارجـاً من عطـاء
قال من ذا فقـيـل جعـفـر هذا   قال أهـلٌ لمثـل هذا الـسَّـخـاء
وسـوى هذه المـآثـر أخـرى   أثـرت عنـه في سجـلّ الـعـلاء

صبـــره

فقـد إسـماعيل

ولـقـد كان في المصـائـب طرّاً ... قدوة الـصـابـريـن عنـد الـبـلاء
وهـو في الـدولـتـين كان يلاقـي ... ما يلاقـي من قسـوة الأمـراء
دون أن تضـعـف الـشـدائـد وهنـاً ... صبره عنـد شدة الإبـتـلاء
وهـو لما أصـيـب في فقـد إسـماعـيـل وهـو ابـنـه بيـوم الـفـنـاء
بعـد أن كان مـولـعـاً فيـه حبّـاً ... وولاء على أتـم ولاء
وهـو قد كان للمـحـبَّـة أهـلاً ... بتـسـامـيـه في ذرى الإرتـقـاء
حين قد كان للكـمال مثـالاً ... عابـداً زاهـداً من الـعـلماء
غير أنَّ الإمـام لم يبـدُ حزنـاً ... أثـرٌ من علائـم الإسـتـيـاء
عنـد فقـدانـه عليـه وأضـحـى ... يتردّى من صبره برداء
ودعـا صحـبـه لخير طعـامٍ ... صنـعـوهُ لهم وأشـهـى غذاء
بعـد حث لهم على الأكـل منـه ... أجمـعـاً قائـلاً لأهـل الـولاء
أنـا لم لا أغـدو كما قد شهـدتـم ... بعـد قولٍ من خاتـم الأنـبـيـاء
إنـني ميـت وأنـتـم وطـه ... يقـتـدى فيـه أفـضـل الإقـتـداء

رضـى بقضائـك

وتـردّى من غصَّـةٍ فاجأتـه ... ولـدٌ في يديـه دون بطـاء
فأتـى للنـسـاء فيـه صريـعـاً ... فتـعـالـى حزنـاً بكـاء الـنـسـاء
وتـصـارخـن حين فوجئـن فيـه ... فنهـاهـنَّ عن شديـد الـبـكـاء
وتـولّـى تجهـيـزه بخـشـوعٍ ... بعـد تسـليـمـه لربِّ الـسـماء
قائـلاً لا نزيـد إلا ولاء ... لك مهـما فعـلت بالأبـنـاء
ولأن قد أخـذت مِنـا فقـد أبـقـيـت فيـنـا مَنـاً جزيـل الـعطـاء

وإذا ما ابتليت حيناً فقد عافيت حيناً من موبقات البلاء
وانبرى قائلاً إلى الصحب من بعد المواراة في ثرى الغبراء
نحن قوم إذا سألناه عمّا نبتغيه بأحسن الإبتغاء
فحبانا الذي نحب شكرْنا فضله منعماً بأسنى الحباء
وإذا ما أحب ما قد كرهناهُ رضينا منه بحكم القضاء

هيبته

ولقد كان يملأ العين ممَّن قد رآه من هيبة وبهاء
وتذل الملوك بين يديه هيبة منه دون أي إباء
ولقد حدَّث المفضَّل عما كان يبدو من هيبةِ الأمراء
قال منصورهم أراد مراراً قتله من غضاضةٍ وعداء
غير أنَّ الطاغي إذا ما رآهٌ هابه من تجلّة وعلاء
وانثنى عن مرامه حين يدعُوه إليه من رهبةٍ واختشاء
مع أنَّ الخبيث يعرف بالبطش انتقاماً من شدَّةِ الكبرياء
وهو أقوى جنداً وأعظم سلطاناً وملكاً من سائر الخلفاء
وجميع الأنام ممَّن رأوه من رجال العدا وأهل الولاء
باختلاف منه يهابون منهُ حين يبدو لهم بحدٍّ سواء

تهيب العلماء منه

ولقد قال جعفر لهشام وهو قد كان أبلغ الفصحاء
سائلاً عن كلامه مع عمروٍ حينما أمّهُ إلى الفيحاء

أي شيء ناظرته فيه حتى ... فقته في إمامة الأمناء
قال مولاي لا يفوهُ لساني ... هيبةً منك بعد فرط الحياء
ورآه عبد الكريم فأضحى ... واجماً عند ساعة الإلتقاء
وهو قد كان ملحداً يتمادى ... مستطيلاً بالبغي والخيلاء
قال ماذا السكوت دون كلامٍ ... منك يرزي بمنطق الفصحاء
قال إني أهاب منك جلالاً ... دون عي في منطقي وعياء
وأنا قد جُمعتُ في كلِّ فذّ ... من رجال العلوم والفقهاء
غير أنِّي ما داخلتني خوفاً ... منهم هيبة وأي اتقاء
مثلما داخلت فؤادي رعباً ... هيبةٌ منك عند وقت اللقاء
وصوابٌ ما قالهُ ليس فيه ... خطأ واقعٌ وأي افتراء
ومتى لا يهابُ من جلَّلتهُ ... هيبة الأنبياء والأوصياء

سخاؤه

وهو كالبحر زاخرٌ بالعطايا ... لا يبارى منه غزير السخاء
وهو يعطي عطاء من ليس يخشى ... معه الفقر عند بذل العطاء
وأتى سائل مقلٌ إليه ... وهو في بيته من الفقراء
فحباهُ من المئات رباعاً ... فمضى شاكراً لهذا الحباء
فدعا عبدهُ وقال أعِده ... عجلاً نحونا بدون بطاء
قال يا سيدي سألت فأعطيت فماذا تبغي بهذا الدّعاء
قال خير العطاء ما كان يغني ... مثلما قال خاتم الأنبياء
ورمى خاتماً إليه يساوي ... ألف دينار من يدٍ بيضاء
وهو فضل جرى الإمام عليه ... طبق ما جاء في كتاب السماء
إن شكرتم لما به قد حبيتم ... لأزيدنّكم من النعماء

صلته للأشجع

وأتى الأشجع الأديب إليه	مستميحاً وقد أصيبَ بداء
فانبرى منه سائلاً مذ رآه	حاله داعياً له بالشفاء
قال دعنا من السؤال وبيّن	ما به جئتنا لأجل القضاء
فاغتدى ينشد الإمام المزكّى	خير شعرٍ معطرٍ بالثناء
فحباه من العطاء مئاتٍ	جاد فيها له بدون رخاء
وشكى حاله المفضّل يوماً	عنده بعد شدةٍ وبلاء
فحباه في خير كيسٍ أتاهُ	من أبي جعفرٍ بخير حباء
فيه قد أودعت مئاتٌ رباعٌ	من دنانير ذهبة حمراء
فأبى أخذها وقال بلطفٍ	جئت يا سيدي لأجل الدعاء
قال خذها وإنّنا سوف ندعو	لك بالخير عند ربِّ القضاء
ودع المشتكى إلى النّاس طرّاً	فهو نوع استهانةٍ وازدراء

هباته السِّرّيّة

ولقد كان مولعاً بهبات	السرِّ للأقربين والبعداء
فإذا خيَّم الظلام وغشى	كلَّ غينٍ من الدجى بغشاء
أوقر العاتقين في الليل منه	بجرابٍ محمَّلٍ بالعطاء
وهو يُحشى بالخبز واللّحم فيه	ومئات الدَّراهم البيضاء
ومشى في بيوت يثرب فيه	عند توزيعه على الفقراء
دون أن يعلموا الذي قد حباهم	بعطاياه في دجى الظلماء
وهم بعد موته قد تجلّى	أنّه جعفرٌ لفقد الحباء

هبته لإبن عمّه

وهــو أهــدى العطــاء يومــاً لشخصٍ مــن بنــي عمــه بظــلِّ الخــفــاء
قائــلاً للرســول حين إليــه حمل المــال من معــين الــسَّــخــاء
أبــداً لا تخبِّره جعــفــر أهــدى لك هــذا في ســاعــة الإلــتــقــاء
فأتــاه وقــال هــذا عطــاء لك أهــداه بعض أهــل الــولاء
فجــزاه بالخــير عنــه وأوحــى قائــلاً في غضــاضــةٍ وجــفــاء
ربّــي احكــم بيــني وبــين ابــن عمــي جعــفــر قاطعــي بعــدل الــقــضــاء
ولــقــد أخــبر الــرســول إمــامَ الحــق فيــها قد نالــه بجــلاء
فهــوى ساجــداً لربِّ الــبرايــا قائــلاً بعــد شكــره في الــدعــاء
يــا إلــهــي أذلَّ جيــدي عطــفــاً وحــنــانــاً لأجمــع الأقــربــاء
كان يســدي الحــســنــى لمن ناوؤه من بني عمــه بأجــلى عداء
ويــزيــد الــعطــاء للرَّحــم الــقــاطــع برّاً فيــه لصــدق الــوفــاء
ولــقــد كان بعــضــهــم يتــوخــى قتــله عامــداً بدون ارعــواء

الأفطــس

مثــلما الأفطس المــذمــم منــه قد تجلّى هذا بدون غطــاء
وحــبــاه ســبــعــين ديــنــار براً وحــنــانــاً فيــه بيــوم الــفــنــاء
قيــل تعطــي من رام قتــلك هذا وتمــادى بأفظــع الإعــتــداء
قال هلا قرأتــم ما تجلّى مســتــبيــنــاً في ذكــر ربِّ الــسَّــماء
يَصِــلون الــذي به أمــر الله ويخــشــون ربَّهــم باتــقــاء
ويخــافــون من حســاب عســيرٍ سوف يأتــي لهم بيــوم الجــزاء
إنَّ رب الــعــبــاد قد خلق الجــنــة داراً لأكــرم الأتــقــيــاء

ويشم الأنام من بُعد ألفي سنةٍ ريحها من الأشذاء
ما عدا من يعق من دون برّ والديه ظلماً من الأبناء
والذي يغتدي جفاء وظلماً قاطعاً في الصلات والأقرباء

كيف صار الإمام الصادق(ع) مذهباً

كل نجم من الأئمة هادٍ مذهب صادق من الأمناء
يرجع الشيعة الهداة إليه كل عهدٍ في شرعة الحنفاء
حيث أن الأئمة الغرّ طراً من علي لقائم الشفعاء
خلفاء من عند رب البرايا نصبوا بعد خاتم الأنبياء
فهم كلهم مذاهب حق ورشاد للشيعة الأزكياء
غير أن الإمام جعفر لما غمر العلم منه كلَّ فِناء
نسبَ المذهب المحق إليه دون باقي الأئمة الأوصياء
حيث أن الظروف قد وهبته فترة زوّدت بخير حباء
عاصر الدولتين فيها مقيماً بين عهدي نهاية وانتهاء
وهو أعطاه فرصة باح فيها بعلوم النبي دون اختشاء
ولقد طال في الإمامة عمراً كان فيه للعلم عمر عطاء
ولقد كان عهده بالخلافات مليئاً على أشدِّ امتلاء
قد تجلّت فيه مذاهب شتى بدع كلها بغير اهتداء
لدعاة الضلال من كل زنديق خبيث وملحدٍ ومرائي
وهو لا بد أن يرد على ما زعموه من باطل الإدعاء
وهو مما قد أوسع العلم نشراً وذيوعاً عقيب عهد انطواء

إهداء مخصرة النبي(ص) للمنصور

وبعهد الخبيث حين استطالت دولة الظلم في أعزّ بناء
قد أحيط الإمام جعفر منه بنطاقٍ من أعين الرّقباء
كابَد الشيعة الموالين ضيقاً وعناء منه لعظم بلاء
واحتجاباً عن الإمام طويلاً وافتراقاً عنه بدون التقاء
ولقد كان حين يحتاج بعض منهم الحكم في نكاح النساء
يتنائى عن زوجه بعد جهلٍ منه في حكمه أشد تنائي
ودعاه منصورهم ذات يومٍ فأتاه الإمام بعد الدعاء
حين ألقى في روعه الله أن يطلب أمراً يسمو به في العلاء
فحباه الإمام مخصرة عصماء كانت لخاتم الأصفياء
فاستطار الكفور فيها سروراً قائلاً في طلاقةٍ واحتفاء
سوف أجزيك عن عطائك هذا وهو أسمى العطاء خير جزاء
فتحرَّر وانشر علومك طرّاً دونما مانعٍ ودون اتقاء
وتجنَّب عن بلدة أنا فيها وتنقَّل في سائر الأنحاء
فاغتدى ينشر العلوم بقطرٍ بعد قِطرٍ في سائر الآناء
وتلقت منه العلوم ألوفٌ من تلاميذه بخير لقاء

شهادة الإمام الصادق(ع)

أثكل الدين سنةً وكتاباً فتداعى للحق خير بناء
وتوارت شمس الرشاد كسوفاً فتوارى للعلم خير ضياء
عرش توحيد بارىء الخلق أهوى حين أهوى للعدل خير لواء
وأصيب الهادي الأمين افتجاعاً وافتقاداً بصادق الأمناء
مذهب الحق منبع الصدق عدلاً معدن الوحي وارث الأنبياء

منهلاً للعلوم والفضل منه — تتروّى مذاهب العلماء
وشعاعٌ من الهداية يمحو — ظلمات الضلال والكبرياء
وإمامٌ يهدي إلى الحق زاكٍ — أنجبته أرومة الأزكياء
لهف نفسي عليه وهو يقاسي — ما يقاسي من محنةٍ وبلاء
عاصر الدولتين قسراً وعانى — منهما كلّ شدةٍ وعناء
واستطال الكفور بغياً عليه — بعد إرهاقه بجور العداء
فسقاهُ السُّمَّ النقيع ضلالاً — واعتداء منه بكاس الفناء
فقضى صابراً شهيداً سعيداً — طيِّب الذكر عاطراً بالثناء
يتردى من الكرامة مجداً — وخلوداً للحمد خير رداء

ونقلاً عن كتاب تحت راية الحق ص٢٩٥ للشيخ عبد المهدي مطر في رائعته (شعلة الحق) أوذكرى الإمام الصادق عليه السلام

لمن الشعلة تجتاح الظلاما — قعد الكون لها فخراً وقاما
طلعت من فجرها صادقة — وغدت تلقي على الشمس لثاما
وأنارت أفقاً قد عسعست — ظلمات فيه للجهل ركاما
فترة فيها ازدهى العلم فكم — أيقظت من رقدة الجهل نياما
وارتوى الظامىء من منهلها — بعدما التاح فلم يبلل أواما
قام فيها منقذ من (هاشم) — غلب الدهر صراعاً وخصاما
وإذ الأمة ظلت حقبة — ليس تدري أين تقتاد اللجاما
قارعت أيامها فانتخبت — بينها (جعفر) للحق إماما
فحمى حوزتها في فكرة — صقلتها نفحة الوحي حساما
وانثنى يدفع من تضليلهم — حججاً كانت على الدهر أثاما
مخمداً ناراً لهم قد أضرمت — لم تكن برداً ولا كانت سلاما

لا تسل شرع الهدى كيف بنى ... صرحه الشامخ أو كيف أقاما

سل عروش الجور منهم كيف قد ... دكها في معول الحق انهداما

هبهبت في بوقها مدحورة ... لهام لم يعش إلا هماما

مزبد اللجة ما خانت به ... سورة التيار جرياً وانتظاما

نبعة من هاشم شبت على ... درة الوحي رضاعاً وفطاما

لو رأتها أمة العرب بها ... قد رآها الله من قدر تسامى

لازدرت في أمم الدنيا علا ... ولطالت هامة النجم مقاما

حكم منه أضاعوها ولو ... لم تضع أصبحن للكون نظاما

واستعاضوا دونها زائفة ... دسها العابث في الدين سماما

لاعب جارك هيهات فقد ... سهرت عيناك للحق وناما

شد ما قدمها مائدة ... كان فيها الدس في الدين أداما

وعصور فحصت عن منقذ ... أنجبت فيك وقد كانت عقاما

أنت يا مدرسة الكون التي ... خرجت للكون أبطالاً عظاما

أنت أحييت رمياً للهدى ... صيرته لفجة الغي رماما

عرفك الذاكي وكي تنشقه ... من أنوف ولو ازدادت زكاما

هذه الأمة في حيرتها ... قد أناطت بك آمالاً جساما

أتراها حين لم تأخذ على ... حظها منك قد ازدادت سقاما

مشعل الحق الذي ضاء لنا ... ميز المبصر ممن قد تعامى

ولقد غررني في وصفه ... إنني ملتهب الفكر ضراما

فارس الآداب في حلبتها ... جامح الفكرة لا يلوي زماما

فتأهبت وعندي خاطر ... أهبة السائح لم يبصر مراما

وإذا بي خائض من وصفه ... لجة خاض بها الكون فعاما

أنا في معناك عقل سادر ... أكذا مثلي حيرت الأناما

وقال الشيخ علي بن الشيخ حسين بن الشيخ علي بن حسين بن الشيخ شبير الخاقاني الشهير بالصغير المولود بالعمارة سنة ١٣٣٣ هـ نقلاً عن كتاب شعراء العربي ٦/٤٨٧ والقصيدة نظمها سنة ١٣٧٢ هـ في ذكرى الإمام الصادق(ع)

قسماً بروحك والحقيقة تنطق ... إن الهدى فجر وروحك مشرق
شعت فقيل معارف قدسية ... وسمت ككفرقان يشع ويشرق
وتموجت فالنور فيها ساطع ... يهدى النبي كما تموج زئبق
وتهللت فرأى المسيح بسفرها ... إنجيله فهفا لها يتشوق
وكأن إبراهيم يطلب من سنا ... أنوارها صحفاً بها تتنسق
وبليلة الطور الكليم رأى هدى ... فيها فخر على سناها يصعق
قدسية النورين نور نبوة ... تزهو، ونور إمامة تتألق
رفت فقال الناس روح محمد ... وزكت فقيل شذا علي يعبق
قسماً بقدسك والجلال يحوطه ... وتيمناً بك والحديث يصدق
لولا قداستك العظيمة ما ازدهى ... حفل به لطف الإمامة يحدق
قد طاف في النادي فشع جلاله ... وسرى على الوادي فرق الزنبق
فمن القلوب له احتفال رائع ... ومن العيون المهرجان الشيق
لولاك ما انصهر الولاء قصيدة ... فيها الخيال إلى علاك محلق
فإذا نظمت ففي علاك خواطري ... تسمو وإن أنطق فمنك المنطق
فتبارك الإخلاص فهو عواطف ... لولا علي المرتضى تترقرق

* * *

مولاي ما أحلى خطابك في فمي ... إذ كنت مولاي الذي أتعشق
من عالم الذر التقى قلبي بكم ... شغفاً ومن صغري بكم أتعلق
قالوا انتسب فأجبت إني في ولا ... آل النبي مقيد وموثق
ولقد حبيتك في الرضاع فأنت في ... نفسي أخالك جنب مهدي تشرق
وتكاد ترقصني الطفولة فرحة ... لك والفؤاد من الصبابة يخفق
وتدرجت روحي تسائل نفسها ... من ذا الذي تهوى ومن تتشوق

قالت أحب محمداً ووصيه ... وبنيه فانتفض الفؤاد يصفق
فتبست روحي لفاضل طينة ... منها خلقت بنورها هي تخلق
يا عالماً حفت به أصحابه ... مثل الكواكب وهو بدر مشرق
أنسوا الهدى فيه فشاقهم الهدى ... والطيب يعرفه الذي يستنشق
فهموا على شفتيه إذن إن حكى ... تصغي وعين للفضيلة ترمق
يروي الحديث سلاسلاً ذهبية ... موصولة بالوحي إن هو ينطق
وتمر لا (الثوري) و(عكرمة) ولا ... فيها (أبو جهل) الحديث يلفق
أرأيت أصدق من فم عن جده ... يروي و(جبريل) الحديث يصدق
هذا هو الثمر الشهي وأصله ... من دوحة البركات إذ هي تورق
وتفيء والحسنات ملؤ غصونها ... شرفاً ويحمد طعمها المتذوق
ظل النبوة في ذراها وارف ... وشذا الإمامة من شذاها يعبق
وسمت بفاطمة وقدس عفافها ... مجد بأنوار الهدى يتألق
ويزينها الحسنان لطفاً إذ زكى ... من أصلها غرس وطاب المعرق
ولها من السجّاد سفر صحيفة ... وهي الزبور لكل أمر يفرق
وزهت بباقر علم آل محمد ... كالتاج إذ يسمو فيزهو المفرق
العلم إن حدثت علم صادق ... فيها وبحر بالفضائل مغدق
تقف النفوس عليه وهي ظوامىء ... وبغير من فيضه يتدفق
وترى المذاهب حوله ويسوءها ... أن الهدى من باب جعفر يطرق
وإذا تسابقت المذاهب ردها ... نكصاً وقال لشانئيه بي الحقوا
جهلوا السعادة في يديه فأصبحت ... بالحقد أنفسهم تذوب وتحرق
حتى إذا فصل الخضم عبابه ... عنهم رأيت حلوقهم تتشدق
بوركت مذهب جعفر وتيمناً ... بك فالسعادة في هواك تحقق
فلقد سموت بكل مجد فالعلى ... وقف عليك فلا تدان وتلحق
ولقد أقول وللحساب مواقف ... والمرأ يؤسر في غد أو يطلق
وكفى العقيدة أن حبك مذهبي ... إن سار ثم مغرب ومشرق

والامتحان غداً إذا استبق الورى | نحو الصراط فكل ناج أسبق
يا مذهباً فيه الحضارة تلتقي | بالدين فهو من الرذيلة يعتق
لا شك يعروه ولا رجعية | فيه وإن كذبوا عليه ولفقوا
متجدد الآراء يفتح بابه | بالاجتهاد وباب (زيد) مغلق
وسواه لا العقل السليم يحده | رأياً وليس عليه دل المنطق
وأجل مذهب جعفر ونظامه | من أن يشوه أو بعار يلصق
طافت به شتى المذاهب فارتوى | منه المحب أو العدو المحنق

* * *

عظماً إمام المسلمين ولم تزل | تسمو على مر الزمان وتسبق
قابلت بالعصرين عصر أمية | شراً تكاد عليه روحك تزهق
وصدفت بالمنصور عصر ضلالة | باسم الهداية وهو عهد مرهق
ونظرت حق الله يسلب جهرة | وعليه نفسك غيرة تتحرق
وبلوت هذي الناس لا متورع | فيهم ولا فئة بها تتوثق
حتى إذا انصرف الجهاد فلم يكن | باسم الهدى للحق يعقد فيلق
قدت الجموع بفيلق متدرع | بالعلم فهو سلاحك المتفوق
أعظم بجيشك وهو جيش ظافر | بالنصر في حشد الجموع مفوق
(فزرارة) يروي الحديث وناظر | فيه (هشام) باحتجاج يصدق
وعرفت فيهم زمرة دينية | بهدى النبي وآله تتعلق
ففتحت فيهم للنفاق معاقلاً | بالشرك توصد والضلالة تغلق
وعلمت أن العلم سيف قاطع | لذوي الجهالة والنفاق يفرق
فطفقت تهزأ بالملوك وجيشها | فالجيش يهزم في الجهاد ويفرق
وأجل من سيف المجاهد في الوغى | سيف لتحرير العقول ينمق
وأتت إليك رسائل في طيها | رسل الشقا والجور فيها محدق
هي فتنة كبرى وكنت بأمرها | أدرى فكانت نصب عينك تحرق

فاستقدم المنصور شخصك ظالماً	للحق وهو على الخلافة مشفق
فمثلت بين يديه في شيخوخة	هي في كرامتها أحق وأخلق
فصبرت والأيام أعدل حاكم	فخلدت والمنصور فيها يمحق
فإذا الخلافة وهي عرش يحتمي	فيه على قدم الفضيلة تسحق
الملك عارية الزمان وأنه	بند يرف على الخطوب ويخفق
أستمتموه على الضلال فضقتم	ذرعاً بعاقبة فبئس المأزق
ولقد يغركم الزمان فشدتم	مجداً به لجج الهوى تتدفق
فبنيتم حول السحاب شواهقاً	شرفاتها بالمنكرات تحلق
وذهبتم لا الدهر يبكي مجدكم	والوزر فيكم للقيامة يلحق
عودوا فقد عاد الزمان بأهله	لتروا قباباً بالهدى تتألق
عادت ملاذ المسلمين وإنها	صرح بأنوار الإمامة مشرق
هذا الخلود وما الخلود فضائح	رقص وغانية وكأس تهرق
والقصر ماج كزورق في لجة	والمنكرات به تعوم وتغرق
ولذائذ فيها الخليفة يصطفي	ما شاء من عرض وما هو مونق
تجري الحقوق عليه وهو يكيلها	للمغريات وللخنا ما ينفق
والعدل أن يهب الحقوق قيانه	إن طاب صبح شرابه والمغبق
فكأنهم جلبوا الحقوق لينعموا	وكأنهم ملكوا الرقاب ليفسقوا

وقال السيد الخطيب محمد صالح السيد عدنان آل عبد الجبار الموسوي البحراني المولود سنة ١٣٣٨ هـ نقلاً عن ديوانه المسمى عرائس الجنان ونفائس الجنان نقلاً عن جزئه الثاني ص٢٥٧ العروس ٨ القصيدة الأولى نظمها سنة ١٣٦٨ هـ وعنوانها الصادق علماً وحكمه.

(١ ـ الصادق علماً وحكمة)

ما لأبنا الحياة عادوا يتامى	وعذارى العلوم صرن أيامى

ولـوجـه الـزمـان عمّ سواداً ولـسـلك الـوجـود حُلّ نظـامـا
أتـرى الـبـدر غاب عنـه كسـوفـاً أم ترى الـشـمس فادهـم ظلامـا
أصبـح الـروض منـه كاسـف لون وجـفـا الطـير منـه نشـر الخـزامى
فكأن الـسـحـاب لم تسـق غيـثـاً قط والأرض لم تبـلّ أوامـا
وكأن الـريـاض لم تزه غصـنـاً قط والـزهـر لم يعـم ابـتـسـامـا
أسـفـاً متـلفـاً وهماً عمـيـقـاً لمصـاب ذر الجـبـال رغـامـا
ما دعـاه قلب فنـال سروراً أو رآه طرف فلذ المـنـامـا
يوم وافى الـبـقـيـع نعش عليـه جسـد الـديـن يحمـل الأحكـامـا
فلو أن الـضـراح شق ضريحـاً لبـنـى فوقـه الـنـجـوم رخـامـا
إذ حوى قدوة الأئـمـة طراً ومـن الأنـبـيـاء ضم الإمـامـا
عيبـة الـعـلم والعلى جعفـر الصـا دق وعـداً ولهـجـة وكـلامـا

* * *

كعـبـة لم يحج ساع إلـيـهـا قط إلا غدا بها علامـا
وريـاض ما جاسـهـا الـسـمـع إلا واجتنى الـزهـر حكمـة وكـلامـا
لو أتـاهـا كعـب لما عد كعـبـاً أو رآهـا قس لعـي اقـتـسـامـا
تتـمـنـى ملائـك الملأ الأعـلى إلـيـهـا لو اغـتـدت خدامـا
ما سعـت حولهـا فلاسـفـة الأ عصـار يومـاً إلا سعـت أيـامـا
تحسـب الحـبر عنـدهـا حبر طرس وأولي الـعـقـل عنـدهـا أنعـامـا
فأبـقـراط لم يزن بقـراط وأرسطـو ما كاد يسطـو سلامـا
فالأسـاتـيـذ عنـدهـا كالـتـلامـيـذ وأعـلامـهـا حكـت أقـلامـا
يتـمـنـى من يحمـل الـعـرش عمـن يحمـل الـعـلم منـه نال المقـامـا

* * *

جهبـذ لو أتـى على عهـد يعقـوب أتـتـه بنـوه تلقـى الـزمـامـا
فأتـت عنـه أنـبـيـا ولـد إسـرا ئيـل تقـفـو زرارة وهـشـامـا
سل بطـون الـتـاريـخ كم من هداة من تلامـيـذه هدوا أقـوامـا

فبهم كم هدى الإله شعوباً ... لسنا النور فاستجذوا الظلاما
ليت شعري وهل وعت علما ... الإسلام إلا من علمه الإسلاما
من سقى علمه الأعادي فضلاً ... عن مواليه فاغتدوا حكاما
فسل العارفين من كان النهى ... لذوي الفهم منهم الأفهاما
من سقى مالكاً وأحمد علماً ... من لديه أبو حنيفة قاما
وابن إدريس والكسائي ويحيى ... وسواهم ممن مضى وأقاما

* * *

فغدت خلفه المعارف حسرى ... ساكبات الدموع تلطم هاما
واغتدت خلفه المدارس قفراً ... عطلاً والمدرسون يتامى
ما دروا هل غدا به النعش يسعى ... أم هو العرش للعلاء استقاما
وعلى أعين القلوب تهادى ... أم مشت تحته البروج دعاما
فهو النعش أم هو الشمس نوراً ... تحتها تحسب الأنام غماما
فعيون الحياة تذري دموعاً ... ولسان الوجود يرثي نظاما
حيث لا غرو أن ترى الجن والأملا ... ك والأنس عندها النوح قاما
فعليه باب الحوائج حزناً ... شق جيب الهنا وحل الذماما
جالساً للعزا وقد عنّ نيلاً ... دائباً بالبكا ثلاثين عاما
يا أبي هذه المدارس قفر ... ناشرات من الأسى أعلاما
هذه الدور والمساجد خلو ... لابسات من الشجون ظلاما

وله أخرى ص٢٥٩ نظمها سنة ١٣٦٨ هـ أيضاً بعنوان كم دعاه المنصور

(٢ ـ كم دعاه المنصور)

أبدور تنير وجه الرقيع ... أم زهور تزهو بروض البقيع
أم بحور غاضت ندى بقبور ... أم أسود حلت بغاب الخشوع

قد أفـاضـت خيراً على كل خلق　　　وأقـامـت نوراً على كل ريـع
مصـدر الحـكـم رافـعـوا كل صدر　　　منبـع الـعـلم مهبـط التشـريـع
هم أولـو الأمـر منهـم كل أمـر　　　نافـذ فوق كل أمـر سريـع

* * *

منهـم راهـب الهـداة علي بن　　　الحسـين الـسـجـاد بدر النصـوع
وإمـام الهـدى محمـد الـبـا　　　قر علماً يحلو بحسـن الـصـنـيـع
ومـنـار الـعلوم جعفـر الـصـادق　　　سلطـان مذهـب الـتـشـيـيـع
من إلـى علمـه انـتـهـى كل علم　　　ولـعـليـاه كل خلق رفـيـع
كسـب الـعـلم منـه كل قريـب　　　وبـعـيـد من شامـخ ووضـيـع
لم تجد عالمـاً من الـدهـر إلا　　　جانـيـاً من زهـور ذاك الـربـيـع
أو حكـيـماً يحدث الـنـاس إلا　　　غارفـاً من بحـار ذا الـيـنـبـوع
بث في الـنـاس كل علم وفـن　　　لوصـي أو مرسـل وشـفـيـع
كل حبر من الـتـلامـيـذ بحـر　　　زاخـر الـعـلم محكم الـتـفـضيـع
كل فرد لوعـد منهـم نبـيـاً　　　صدقـتـه الأصـول قبـل الفـروع

* * *

ولهـذا وذاك لا جرم انـتـا　　　بتـه أحـداث كل طاغ مريـع
حسـدوه لما به حفـه الله　　　من الـفـضـل والهـدى والـسطـوع
فرمتـه من شرهـا خلفـا الـعـصـر　　　بخطـب يشـيـب رأس الـرضـيـع
كم نفـتـه عن طيـبـة وقـراهـا　　　وأضـاقـت عليـه كل وسـيـع
فغـدا رهـن كل قفـر وبـر　　　نازحـاً دهـره بحـال مروع
يسـبـق الـنـور وجـهـه والمعـالي　　　حيـث وافى كالـشـمس قبـل الطـلوع
وعـلى ذاك لم يقـر زمـانـاً　　　من نهار أو ساعـة من هزيـع

* * *

كم دعـاه المنـصـور للقـتـل ليـلاً　　　عازمـاً أخـذه بقـتـل ذريـع
فيرى من جلالـه وعـلاه　　　ما يحوطـنـه بحـصـن منيـع

ودعــاء لم ينـفـصـل عنـه إلا	وأصـاب المـنـى بأدنـى رجـوع
لازمـاً طول عمـره النسـك ليـلاً	ونهـاراً على سهـاد وجـوع
لم يزل يبـغـيـه الـغـوائـل طاغ	لا يزاد يهنـى ولا بهجـوع
ساهـراً لم يقـر بالـدهـر إلا	بعـد أن غالـه بسـم نقيـع
فرمـاه نضـو السقـام على الفـرش	فلما تم مدة الأسبـوع
عجبـاً كيـف أشجب السهم جسـماً	هو قلب الـوجـود قلب الـشـروع
لا لعـجـز ولا قصـور ولـكـن	شاء رب الـعـلى له بالـنـزوع
كارهـاً لبـثـه محبـاً لقـاه	فأتـاه بالـقـلـب قبـل الـضـلوع
ومـضـى كالمـليـك يحمـل للعـر	ش على النعش فوق أيـدي الجمـوع
لابـسـاً بردتـي عفـاف وطـهـر	ناشـراً صفـحـتي هدى وخـشـوع
كفـنـتـه الـقـلـوب بالحـب لما	غسـلتـه الـعـلى بدر الـدمـوع
وسـعـى خلفـه الـنـدى والمعـالي	والـتـقـى والـرشـاد للتشـيـيـع
وتمـنـت ملائـك الـعـرش عمـن	يحمـل الـنـعش لو سعت بالخضـوع
وتـلـقـت جثـمانـه كطـريـق	لبـقـاع الـنـعـيـم أرض الـبـقـيـع
وبـكـتـه معـالم الـديـن فقـداً	وبـه عاد ثاكـلاً كل شيـعـي

وقـال السيـد أبـوعلي محمد حسين فضل الله بن السيد عبد الرؤوف نقلاً عن ديوانه قصائد للإسلام والحياة ص٧٤، نظمها سنة ١٣٧٣ هـ. بعنوان:

ذكرى الإمام الصادق عليه السلام

ذكـراك فيـنـا ثورةٌ تتـجـدد	للفـكـر تستـبـق الـعـصـور فتخلد
ولهـاث قافـلةٍ، تلبّـد أفـقـهـا	بالمـوحـشـات فتـاه عنهـا المقصـد
ومجـال دنيـا كنـتَ تلهـب روحهـا	بالـنـور يشـرق من هداك فيـصعـد
وصـراع أجـيـالٍ تمرّد عنـدهـا	فكـرٌ ينـاضـل للحيـاة ويـرعـد

ترنو إليك وأنت في ألق الضحى سرٌّ يغورُ، ومشعلٌ يتوقد
مَن أنت، والتاريخ يجري لاهثاً ليرى سناك، وغور روحك يبعد
مَن أنت: والدنيا تساؤل حيرة وظلال فجرك روعةٌ وتجرد
ومجال روحك عالمٌ آفاقه سرُّ السماء نغور فيه وتنجد

*　　*　　*

ذكراك: إنّ على سمائك لوحةً للدين، توضح نهجه وتسدد
لوّنتها بالطهر يمرع أفقها خصباً، ترف على جناه الأكبد
وبعثت فيها الفجر ينشر فوقها إطلالة النعمى ليهنأ مجهد
وحشدت فيها النور يصرع زهوه وجه الدجى القاسي، يشع ويرشد
ورأيت كيف الدين يصبح لعبةً بيدٍ تحرّفه وأخرى تلحد
يجري به نحو العروش مهرج ويسير فيه لدى الطغاة مقلّد
يرضي طموح الحاكمين، كأنه مالٌ يراد الربح منه وينشد
فمضيت تطرح الشوائب صارخاً بالمرجفين بما يقول «محمد»
الدين ما بعث الحياة عقيدةً تحسو اللظى الدامي ليعذب مورد
والدين قانون الحياة يشدّه وحيٌ بآيات الإخاء موحّد
تثب الحضارة من حنايا روحه كتواثب البركان إذ يتمرّد
يسمو فتنهل العدالة رحمةً من روحه ويفيض بالنعمى غد
وإذا الشعوب أخوّةٌ ومحبةٌ ويد على التقوى تصافحها يد

*　　*　　*

هذا هو الدين الصحيح عزيمةٌ تُردي الطغاة وخافقٌ يتنهد
يتلمّس القلب الجريح كأنّه آسٍ يروّض جرحه ويضمّد
ويعود للفلاح، يحرث أرضه ثمراً تفايض من جناه المسجد
ويحس بالمحن الثقال يعيشها شعب شقي في البلاد مشرد
عريان من متع الحياة كأنما درب الحياة لديه أفق أسود
قلق المصير، يخال كل غمامة ظلّاً يفيء به، ووِرداً يسعد

ويـودُّ لو ثار الجحيم فضمّه ... ليغيب فيه كيانه المتمرّد

* * *

ذكراك ما الذكرى خيالٌ جامح ... يلهو به فكرٌ ويطرب منشد

ذكراك، رُجعى للزمان تعيده ... صوراً تطوف بحاضر يتبدد

صورٌ من الماضي يفحُّ بأفقها ... لهب الدم العلوي وهو مهدد

يجري فلا صوتٌ يرن لواثبٍ ... نحو الطغاة ولا دعاةٌ تنجد

ويعيش سفّاح الشعوب وخلفه ... زمرٌ تعبّ من الدماء وتسجد

يشد المبادىء كيف شاء، وإن يشأ ... ديناً، فخلف الستر دينٌ يولد

والمال للطاغين خير تجارةٍ ... يُدنى بها هذا وذاك يُبعَد

يهمي، فتنهلُّ الشفاه مدائحاً ... بالعرش: إن العرش رب يعبد

والشعر في مرح القصور ولهوها ... العاري، يسبّح خاشعاً ويمجد

ويحمحم التاريخ ثمّة إنه ... يدري، بمن خلف الستار يعربد

لكنّما الأهواء في آفاقه ... تملي عليه حديثه وتقيّد

* * *

وتثاءب التاريخ إنك شدته ... دنياً بها يوحي الضمير تشيّد

فرآك في ألق الإمامة باعثاً ... روح الحياة، بها يرقّ ويرشد

لمست يداك الداء ينبض عرقه ... بالجهل يخمد عزمه ويجمد

ورأيت كيف يعيش شعب خامل ... من رقدة تئد الضمير فيرقد

فبعثت روح العلم في أجوائه ... نوراً يشع وعزمةً تتوقد

والعلم إيقاظ الشعوب يشدها ... للنور يشرق في الحياة فتسعد

والعلم إحساس النفوس بيقظةٍ ... يطأ الطغاة جحيمها، ويهدّد

أمرعته بالطيبات خلائقٍ ... بيضٍ، وتقوى بالجهاد تخلّد

ماذا أصور من حياتك إنها ... دنيا يتيه بها خيالٌ مجهد

* * *

مولاي يا ألق الإمامة ترتمي ... في ظلّه النعمى ويحلو المورد

أنـا إن ذكـرتـك فالـقـوافي في دمي	ذكـرى تثـور، ولـوعـةٌ تتـمـرد
ماذا يقـول المـرجـفـون إذا بدت	ذكـراك لحنـاً في الـنـفـوس تردد
فسنـستعيـد بها طمـوحـاً جامحـاً	يطـغـى فيـلهـب فيـه أفق مربـد
ونـمـزق النظـم الـدخيـلة يحتمي	فيـهـا الطـغـاة، ويـنـعم المستعبـد
ونـعـيـده ديـنـاً يرفّ لواؤه	حراً يسـاوي العبـدَ فيـه السيـدُ
تتـواثـب الآيـات من قرآنـه	شُعَـلاً تألـق بالحـيـاة وتـوقـد
والحـق سوف يعـود هدّاراً فلا	شعـبٌ يضـام، ولا حقـوق تجحـد

* * *

يا أمـتي، طلع الـصبـاح وأنتِ في	حلك الـدجى ركبٌ، تخلّف، مجهـد
سكـرت ليـاليـك الطـوال فلا يُرى	في الأفـق، إلا فاجـرٌ ومـعـربـد
أكـذا تسـير بك الحيـاة لشـاطىء	حر، يمـوج الـنـور فيـه فيرفـد
والكـون يستبق الـدهـور لنهضـةٍ	تسمـو فيشـرق في سماهـا الفـرقـد
سيري فدربـك لا يزال كما بدا	سمـحـاً ينـضّـره العـلى والسؤدد
وتـنـوّري بالـذكـريـات تعيـده	نضِـراً وتُـبـدع منـه روحـاً تخلد
والـذكـريـات صدى الحيـاة لأمـة	تترقـب الأضـواء إذ تتـحـشـد
ولـديـك في طهـر الجهـاد أئـمـةٌ	ساروا على سنـن العلى واستشهـدوا
فترسّـمـي خطـواتهـم فحيـاتهـم	نورٌ توجّـهـه الـسـما وتجـدّد

وعن كتاب المدائح والمراثي للمعصومين الأربعة عشر للسيد محمد مهدي الشيرازي ص٢٧ القصيدة الأولى بعنوان:

مدح الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع).

عطـر من المجـد الـرفيـع العـابق	أهـدي لمولانـا الإمـام الـصـادق
الـصـادق الأقـوال والأفـعـال والـ	أعـمال لا أحـد عليـه بسـابـق

نشـر الـعلوم على الأنـام جميعـهـم — من علمـه الجمّ الـوفـير الـسـامق
تلمـيـذه الـعـلماء في كل الـدنـا — فمـثـالـه مثـل الـضيـاء الشـارق
في الـفـقـه والتفسـير والتـوحيـد و — الأديـان ليس لهم عليـه بلاحـق
والـكـيـمـيـاء بها أتـى من معـجـز — في الاكـتـشـاف ومـالـه من خارق
منـه ترشّـح نحـو جابـر، والأولى — رئـسـوا المـذاهب من طمـوح رامق
قد تلمـذوا عنـد الإمـام، وأنـه — منـه الهـدى، بمـغـارب ومشـارق
فسـواه كالـنبـت الـضـعـيف وأنـه — في رفـعـة الـنخـل العظيم البـاسق
خط الـسـعـادة للأنـام بمـنهـج — عدل المـنـاكـب، مسـتـقـيم، رائـق
ولـه من الأخـلاق ما فاحـت شذى — تجلو الـنفـوس كعطـر ورد شقـائق
يهدي الأنـام إلى السعـادة والهـدى — فسـبـيـلـه يبـقـى ولـيس بزاهـق

القصيدة الثانية ص٢٩ وعنوانها:

رثاء الإمام جعفر بن محمد الصادق(ع)

بكـائي طويـل والـدمـوع غزيـرة — وحـزني مديـد في الأسـى وكـثـير
أذاقـوا الإمـام الصـادق الطهـر علقماً — وكـاسـات صبر طعـمـهـن مريـر
رأى من هشـام ثم منـصـور شدة — ولـيس له ردء بها ونـصـير
لقـد أبـعـدوه عن مدينـة جده — ومـن جورهـم بالـرغـم منـه يسـير
أداروا عليـه بالجـواسـيس ضلة — فأصـبـح بين الـقـوم وهـو حسـير
ويحـضـره المـنـصـور ثم يسـبـه — على ملأ الأشـخـاص وهـو صبـور
وقـد قتـلوا مولاه بغـيـاً ومـالـه — لإنـقـاذه منهـم قوي وظـهـير
كما أضـرمـوا الـنـيران ظلماً ببيـتـه — ويـلهـب في دار الإمـام سعـير
يرى شهـداء الـفـخ من آل بيـتـه — ومحضـاً، بأيـدي القـوم وهـو أسَير

وبعد مديد العمر يسقيه فاسق بكأس من السم النقيع تفور
لقد سقطت من آل أحمد شرفة له كادت السبع الطباق تمور
وتهدم أجلاف الورى منه قبة رفيع بناء ليس فيه نظير

وقال الشيخ الخطيب جعفر الهلالي نقلاً عن كتاب لولا السنتان ص١٥

لُفَّ من موكبِ الجهادِ لواء وتوارى عن الطريق نساء
وتداعى البناء من شامخ المجد فدوَّت لهوله الأصداء
وتقضى عهد تفتّح بالعرفان يبني النفوس فيه اهتداء
وانتهت سيرة إلى الحق عاشت فلها الخير مبدأ وإنتهاء
واختفى هيكل القداسة في شخص إمامٍ عنت له العظماء
«جعفر» الصادق الذي ملأ الدنيا علوماً وهل لذاك خفاء
فتهاوي إلى الثرى يا نجوم الأفق حزناً وأبكيه يا جوزاء

* * *

يا إماماً نمته للعزة القعساء صيد أعزة أمناء
حلّقت منك للعلى مكرماتٍ مشرقات تعنو لهن ذكاء
وتغنّي بك الحداة على مر الليالي يقفو الحداء حداء
لك من مجد أحمد نفحاتٌ عبقت منك عندها شذاء
وعلى وجهك الأغر وقارٌ ورثته آباؤك الأوصياء
وتمشى على شفاهك صدقٌ لم يدنّسه في الحديث إفتراء
خلق رف كالنسيم على الدنيا فماست عزاله الغبراء

* * *

يا أبا العلم أنت حرَّرت جيلاً هو لولاك قد كساه العناء
لم تزل تصنع الخلود معاليك وإن قلَّ في الزمان الوفاء

كم تجنَّت على المواهب أقوام   بأقلامهم غُداة أساؤا

فلديهم يخفى الجليل من الأعمال   في حين للضئيل إجتلاء

ولو أن الحياة أنصفت الحق   لأرسى على هداك البناء

ولراحت مجامعُ العلم تسمو   ولها منكَ منهج وضَّاء

ولأضحت هذي الدراسات من   عرفانك اليوم تصطفي ما تشاء

ولألقت فيكَ البُناة لهذا الدين   رُكناً لا يعتريه انحناء

يا لها من خسارةٍ يترك الجوهر   في حين تقتني الحصباء

غير أن الحق الصراح كنور الشمس   هيهات يعتريه خفاء

*   *   *

سيدي والحديث عذبٌ ولكن   معاليك ما لهنَّ إنتهاء

أي معنى أصوغه لك في شعري   وقد ما تقاصرت بلَغاء

ولو أن الحياة أنصفت الحق   لأرسى على هداك البناء

ولراحت مجامعُ العلم تسمو   ولها منكَ منهج وضَّاء

ولأضحت هذي الدراسات من   عرفانك اليوم تصطفي ما تشاء

ولألقت فيكَ البُناة لهذا الدين   رُكناً لا يعتريه انحناء

يا لها من خسارةٍ يترك الجوهر   في حين تقتني الحصباء

غير أن الحق الصراح كنور الشمس   هيهات يعتريه خفاء

*   *   *

سيدي والحديث عذبٌ ولكن   معاليك ما لهنَّ إنتهاء

أي معنى أصوغه لك في شعري   وقد ما تقاصرت بلَغاء

حسب شعري إني وجدتُك مقصود   ي إذا ما تفاخر الشعراء

وكفاني أني وجدتُ ولائي   لك فرضاً قد شدَّ منه البناء

فتقبَّل مني بُضاعتي المُزجاة   نظماً له إليك انتماء

ومرادي قضاء حاجاتي الجليّ   فقد هدَّ جانبي البلاء

وبيوم المعاد كن لي شفيعا فلأنتم غداً بي الشفعاء

* * *

بالعُظم المأساة في يوم ذكراك فقد عمّت الدنا الأرزاء
فجع الدين حيث غادرك المنـ ـصور بالسم يوم حان قضاء
تربت كفه وباء بخزي وله النار في المعاد جزاء
رام يطفي نور النبوة والنور عليّ تعنو له الأضواء
عترة المصطفى النبي برغم الجور حتى في موتهم أحياء

وقال السيد الخطيب مرتضى الموسوي القزويني نقلاً عن كتاب لولا السنتان ص١٢ وكتاب الإمام الصادق والواقع المعاش ص٢٤
نظمها سنة ١٣٨٤ في كربلاء قالها في ذكرى ولادة الإمام جعفر الصادق(ع).

أرى الشعر لا يرقى إليك ولا النثر فمجدك بحرٌ لا يساجله بحرُ
فما رأت الدنيا ولا سمعت بها إماماً سمَت فيه العقيدة والفكر
كمثلك يا كنز الفضائل والهدى ومعجزة التاريخ فيك له فخرُ
ويا عبقرياً قاد أضخم أمةٍ بمدرسة التوحيد رائده الصبرُ
ويا قائد الأبرار يا ملهم التقى ومحيي كنوز كان يحجبها السترُ
رفعتَ لروّاد المعارف مشعلاً يشعّ ضياء ليس يخمده الدهر
وأبدعت للأجيال فكراً محرّراً أجل كل فكر يستقى منكم حر
وصُغت أصولاً للحقيقة فالذي لديك لبابٌ والذي دونه قشر
ورُحتَ تنير الدرب غير مداهنٍ لمستعبد يطغى ونائبة تعرو
فيا سيدي ذكراك تبعث قوة بها نستعيد النصر ما خلد النصر
«وإني لتعروني لذكراك هزةٌ كما انتفض العصفور بلله القطر»

* * *

ألا فلتعش يا جعفر بن محمد ... عظيماً وعاشت فيك آثارُك الغرُّ

وعاشت صروح أنت باني أصولها ... وأسعِد شعب أنت قائده البر

ومدرسة فكرية قد فتحتها ... ليرتادها الأحرار ما بقي الدهر

فعلمك (مزبور) لديك و(غابر) ... وماهو (نكت) في فؤادك أو (نقر)

وعندك يا مولاي (مصحف فاطم) ... حوى كل ما يُتلى وعندكم (الجفر)

* * *

فأنت منار للفضيلة والهدى ... وشامخ فضل ليس يرقى له النسر

عليم حليم صابر متبتل ... كريم شجاع عابد زاهد حبر

فقيهٌ تلوذ العالمون بفقهه ... إمام له في كل طائفة قدر

هنيئاً لأقوامٍ لديك توافدوا ... وخاب أناس عن مناهجك ازوروا

سل الفقه والتاريخ والطبَّ واللغا ... وسل عنه أعلاماً لمنهله اجترّوا

إمام حوى علم الكتاب وحكمه ... والهم ما قد ضمه البحر والبر

ألوف من الأقطاب تروي حديثه ... فيسمو به قطب ويحظى به قطر

أحاديث لم يتحف بها الناس قبله ... كنوز ثقال كان يملؤها الدر

به خصها الرحمن من دون خلقه ... لكي يعرف التاريخ ما التبن الكثر

هشام، أبان، جابر، وابن مسلم ... زرارة، حمرانٌ وكلهم بحر

نجوم سماء العلم والفضل والهدى ... بهم أشرق الظلماء وازدهر العصر

* * *

فيا بؤس قوم كابروك ليطفؤوا ... ضياءك حقداً كان مبعثه الكبر

أبوا رشفة من منهل الصدق عذبةً ... وصدوا عطاشا كان منهم لكم نفر

فكم منعوا الأعصار من فيض علمكم ... وكم منحوكم ما به الجهل والخسر

وقد أعلنوا حرباً عواناً عليكم ... ليحيوا بها (بدراً) إذا فاتهم (بدر)

فجدّهم إذ ذاك أطلق أسره ... ومن ولده وافاكم القتل والأسر

بنوا عرشهم بالغدر فوق عظاكم ... وخابت عهودٌ كان من بعدها الغدر

* * *

لقد غصبوا دستَ الخلافة باسمكم — وجازوكم بئس الجزاء وما بروا
قضى عمره شطراً بعهد أميةٍ — يلاحقه منها العداوة والقهر
فيسمع دوماً منهم سب جده — ومصرع زيدٍ عمه منهم أجرُ
فهم معشر صم العداء قلوبهم — طغاةٌ عن الآيات في سمعها وقر
وجاء بنو العباس يحذون حذوهم — وزادوا كأعداء لهم عندهم ثأر
غداه دعا السفاح جعفر عنده — وقد ناله منه المكاره والضر
وجرّعه المنصور ظلماً ومحنة — وعاداه حتى ضاق من بغيه الصدر
وأوسعه سباً وشتماً وتهمة — ولم يرع ما أوصى به المصطفى الطهر
ودسَّ إليه السم واغتاله به — وكم قبله أو بعده عندهم وِتر
فما بين مقتول وبين مشرَّد — وبين أسير لا يفك له أسر
فمن مبلغ عني رسالة مشفق — لمن لهم التدبير والنهيُ والأمر
إذا شئتم أن تستفيق شعوبكم — ويصلح منها وضعها التعس المر
وتستبدلوها عزة بعد ذلها — ويرفع عنها الجهل والبؤس والفقر
فعودوا إلى الإسلام في ظل جعفر — تعد لكم منها السيادة والنصر
وأحيوا تراثاً قد حباه محمدٌ — لعترته من بعد ما نزل الذكر

وقال السيد حسن السيد حسن هاشم نقلاً عن ديوانه صدق الولاء في مدح الرسول(ص) والعترة الغراء في صفحة ١٥٣. قالها سنة ١٩٨٩ في مولد الإمام الصادق(ع).

نور الإمامة كوكب يتألق — فكأنها بدر كمال مشرق
تستلهم الدنيا بفضل شعاعها — درب الهدى وبها المنى تتعلّق
فبكل عصرٍ للرسالة مولدٌ — يخضرُّ غصن الدين فيه ويورق
ولكل طاغوتٍ إمام عادل — كفؤ كريم بالحقيقة ينطق
ما بين شرك أميةٍ وفسادها — كادت شريعة أحمدٍ تتمزق
ناءت بحكم ظالم متجاهل — أمر الإله، على هواه يُلفّق

وشكت بني العباس بعد أمية فملوكهم بعُرى الضلالة ألصق

حكموا الرقاب وحكّموا بدعاً لتطمس كل ما أوصى الإله فيمحق

فأتاح ربك للشريعة مولداً حضن الرسالة حامياً يترفّق

من فاطم الزهرا تحدّر جعفرٌ بصفات طه جده يتخلق

علم كريم من سلالة حيدرٍ بين الأنام مبجّل وموثّق

فالصادق المعصوم هيبة أهله فيه بأبهة الجلال مطوق

لاقى الكتاب به ملاذاً دافئاً فحماه ممن أشركوا وتزندقوا

وتعلق الإسلام بابن محمدٍ وبمقلتيه دمعة تترقرق

فمضى إمام العارفين مناصراً وبحرب كيد المعتدين يحلّق

ومحارباً كل المضلين الألى بجهالة الحقد اللئيم استغرقوا

ومحاوراً من ضلّ عن درب الهدى والحق فوق لسانه يتدفق

سل عنه تاريخ الحوار بمجلس الخلفا له النصر المبين المطلق

ما خاض معركة يجادل ملحداً إلا وكان له الجواد الأسبق

يدلي بحجته فيبطل مكرهم والله يلهمه الصواب فيغدق

فلفكره السامي مدارك أذهلت أهل العقول بما ترى وتدقّق

فإذا تجمع حوله أهل النهى صمتوا وأصغوا للبيان وحلقوا

وتزودوا من نهر علمٍ دافقٍ بسنى الهداية والولاية يدفق

حفظوا علوماً من معارف جعفرٍ لبيانها قلب الحقيقة يخفق

وتناثروا في كل أنحاء الدنا يروون ما سمعوا وما قد حققوا

فاسمع لراويه يمرّ «بكوفة» والناس تصغي للحديث وتغرق

يا سيدي أثلجت صدر محمدٍ فلكل حرف من حديثك رونق

وبكل يوم من حياتك شعلة للدين تذكو بالضياء وتبرق

جاهدت كل المعتدين بحكمةٍ تهفو لروعتها النفوس وتعشق

وغلبت كل مشكك غش الورى ببهارجٍ فيها الكلام ينمّق

ففضحته بلسان صدقٍ واضحٍ سامٍ بأطياب الحقيقة يعبق

يا سيدي أدَّبتَ شيعتك الألى	كرموا وبالخلق الصفي تطوقوا
نهجوا سبيل المخلصين لدينهم	وبفضلهم شفة الشريعة تنطق
وبهم غصون الدين يخضرّ الجنى	فيها فتفرع في العلاء وتورق
فإذا سألت عن انتماء ولائهم	هم جعفريون استقاموا وارتقوا



المصادر

١ ـ تحت راية الحق للشيخ علي محمد علي دخيل ط١ دار المرتضى بيروت ١٩٩١ .

٢ ـ أعيان الشيعة محسن الأمين التعارف بيروت .

٣ ـ المجالس السنية في مناقب ومصائب العترة النبوية محسن الأمين دار التعارف بيروت سنة ١٩٨٦ .

٤ ـ وفاة الإمام جعفر الصادق للشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عصفور الدرازي البحراني ط١ الحيدرية النجف الأشرف .

٥ ـ كشف الغمة في معرفة الأئمة للاربلي طبعة بيروت .

٦ ـ لولا السنتان لهلك النعمان للشيخ محمد رضا الحكيمي بيروت ط١ .

٧ ـ شعراء العربي للشيخ علي الخاقاني ط١ النجف الأشرف .

٨ ـ من لا يحضره الخطيب للسيد داخل السيد حسن مؤسسة البلاغ بيروت ط١ ١٩٩١ .

٩ ـ مناقب آل أبي طالب للشيخ المازندراني ابن شهر آشوب بيروت .

١٠ ـ إعلام الورى بأعلام الهدى للشيخ الطبرسي بيروت .

١١ ـ الإمام الصادق والواقع المعاش للسيد عبد الحسين القزويني بيروت مؤسسة البلاغ ط١ .

١٢ ـ الأنوار القدسية للشيخ محمد حسين الأصفهاني ط١ بيروت مؤسسة الوفاء ١٩٨٢ .

١٣ ـ ملحمة أهل البيت(ع) للشيخ عبد المنعم القرطوسي بيروت ط١ .

١٤ ـ ديوان عرائس الجنان ونفائس الجنان للسيد محمد صالح الموسوي البحراني بيروت الأعلمي ط٢ سنة ١٩٨١ مع زيادات وتنقيحات.

١٥ ـ ديوان قصائد للإسلام والحياة للسيد محمد حسين فضل الله طبع بيروت ط١ سنة ١٩٨٤ المؤسسة الجامعية للدراسات ص٢٦٩.

١٦ ـ المدائح والمراثي للمعصومين الأربعة عشر للسيد محمد مهدي الشيرازي نشر زنجاني إيران سنة ١٤٠٤ ص٥١ قياس رقعي.

١٧ ـ ديوان صدق الولاء في مدح الرسول والعترة الغراء حسين السيد حسن هاشم ط١ بيروت ص٢٠٨.

١٨ ـ مجمع البيان في تفسير القرآن للشيخ الطبرسي طبع بيروت.

١٩ ـ شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث أحمد علي اللطيف الجدع وحسين أدهم جرار مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ ٨١ ج١.

٢٠ ـ فلسفة الأخلاق في الإسلام محمد جواد مغنية طبع بيروت.

٢١ ـ ميزان الحكمة للشيخ الرشهري طبع بيروت.

٢٢ ـ أدب الطف للسيد جواد شبر دار المرتضى بيروت.

٢٣ ـ عبير الرسالة (الأشعار المنسوبة لأهل البيت ع) للسيد مرتضى الحسني دار المجد دمشق ط١ ١٩٩٠.

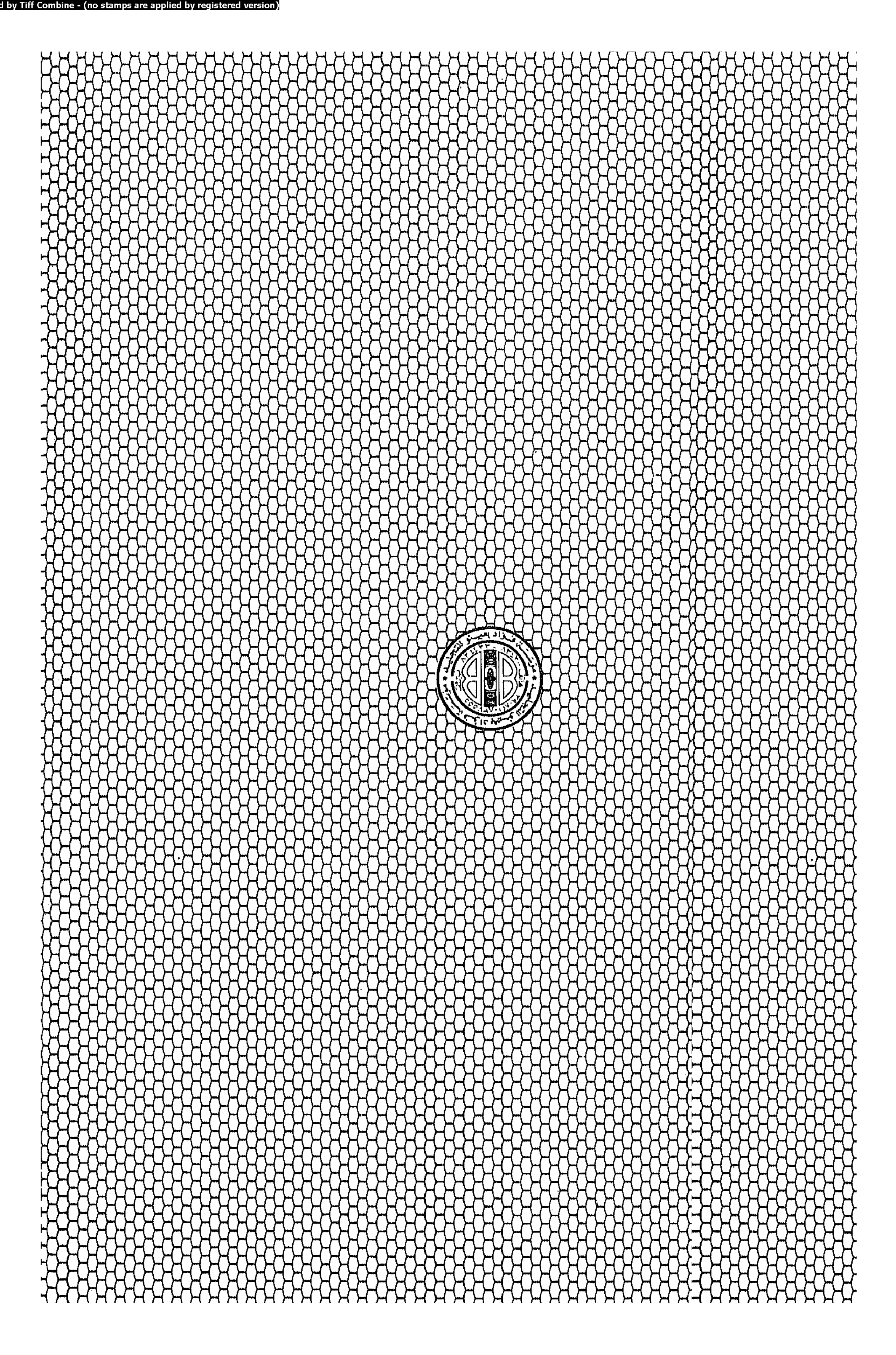


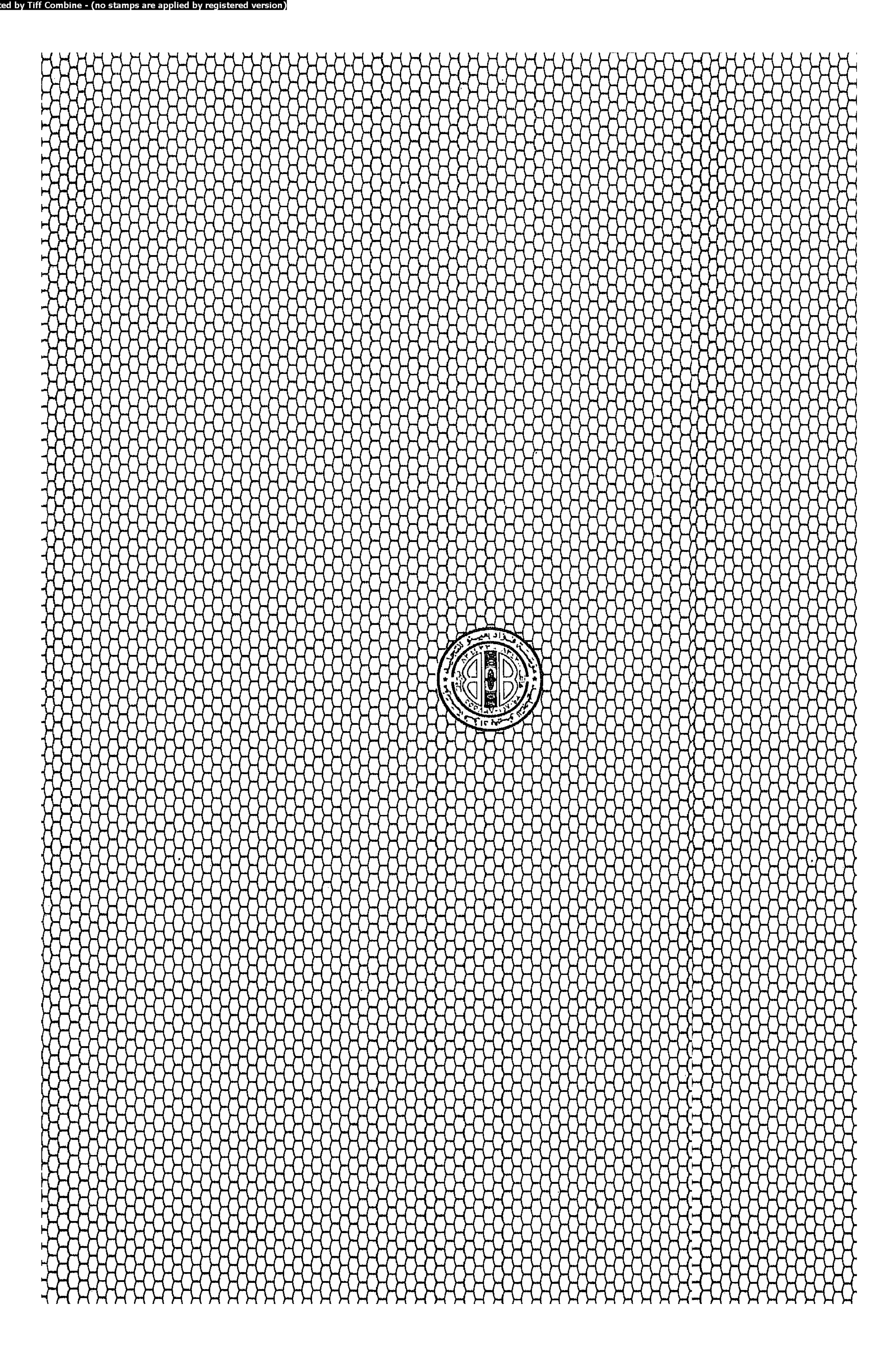


الفهـــرس

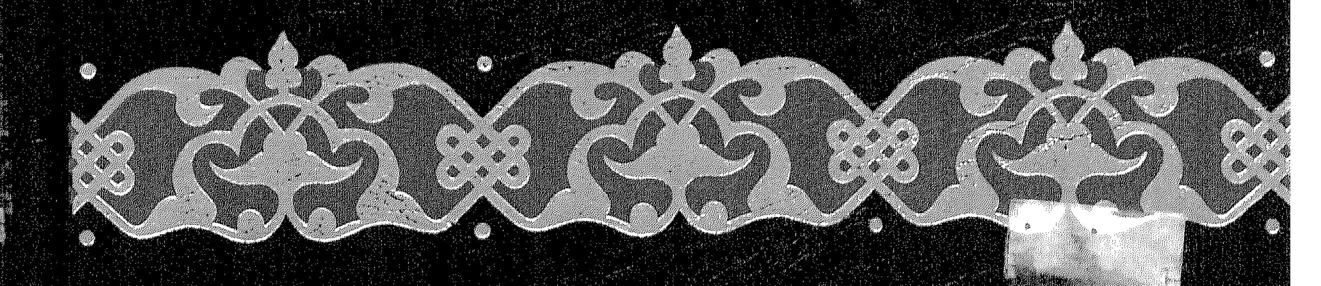
الأبحاث والمواضيع التي قدمت للمؤتمر ولم تلق فيه







IMAM DJAFAR AL-SADEGH
(SALUTE BE ON HIM)
STUDIES AND RESEARCHES



THE CULTURAL CENTRE FOR
ISLAMIC REPUBLIC OF IRAN
DAMASCUS